
عبد الرحمن شلقم
أشخاص
حول
القذافي
مدارك
دار الفرجاني



أشخـــــاص حـــول القذافـــــــــــي




حصريات
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com

في البداية أقول، أنني فكرتُ ملياً قبل إختيار عنوان هذا الفصل من المذكرات، وأقصد بالتحديد، الكلمة الأولى، "**أشخاص**"، لماذا هذه الكلمة بالتحديد، ولماذا لم أستعمل كلمة "شخصيات" أو "رجال" أو سواهما؟. ليس فقط لأن من بين الأسماء نساء، بحيث تبرز قضية التذكير والتأنيث، ولكن لأن الأسماء التي سترد تعبر عن طيف من البشر، تتباين طبائعهم، وسلوكهم، وعقولهم، بل أن هناك مسافات تطول أو تقصر تفصل هوياتهم، بل لا أتردد في القول أن موضوعة الخير والشر، والنفع والضرر تتفاعل في تكوين كيمياء حصيلة ما نتج أو ينتج عن عملهم مع العقيد معمر القذافي.

تتباين المقاصد والمعاني في المصطلح، ولهذا لم أستعمل كلمة . رجال . لأن هذه الكلمة تقود إلى معنى . الرجولة . التي تفرض موقفاً إيجابياً في القرار، وتمتلئ بشحنة من القيم الإجتماعية التي يورث بعضها من الفائض الإجتماعي لهذا الشخص أو ذاك، وكثيراً ما تميل كلمة الرجال إلى درجة التقدير والتوقير، كما قيل قديما . الرجال قليل . وللأمانة، وبرغم ما فرضته التطورات السياسية الكبيرة والمصيرية التي شهدتها بلادنا بعد إنفجار ثورة الشباب في 17 فبراير 2011، من تباين في المواقف بل وتصادمها، برغم كل ذلك، فإن من سأتحدث عليهم في هذا الباب، لم يتجردوا مما تحمله تلك الكلمة من مضامين كبيرة وسامية، وأنا أقيس الأمور، وأقيم هؤلاء بمعايير ما قبل ثورة شباب ليبيا في 17 فبراير، في تلك الحقبة كان معيار التقيم هو، الخطأ والصواب، أما بعد تلك الثورة فقد فرضت معايير أخرى وعلى رأسها . الخير والشر . الوطن أو الشخص . الحق والباطل. لقد كانت لوحة العمل والفعل السياسي والإداري والإقتصادي تعج بطيف واسع ومتعدد الألوان، أما بعد ثورة 17 فبراير، فقد إختفت كل الألوان تقريبا، ما عدا لون واحد هو لون "ليبيا الحرة" التي يصرخ ناطقاً بلون الدم، وأصبح السؤال واحداً فقط، من يستمع لهذا الصوت؟.

وهناك من بين الأسماء، أشخاص، أعمى المال قلوبهم قبل عيونهم، وسبحوا في بحر من الضعف، حسبوه بحراً من القوة، تشابه عليهم القول والفعل، وجعلتهم السلطة يصارعون ويتصارعون على هدف واحد، هو إرضاء "القائد" والإقتراب منه، وغابت عنهم إشارات وضوابط القول والفعل. وبعضهم، وليس كلهم تنازل عن كل شيء حتى، العرض والشرف، من أجل قطف ثمرة الرضاء.

تحدثت كثيراً مع العقيد معمر القذافي بعد سقوط نظام صدام حسين، وقادنا الحديث ذات مرة إلى موضوع مذكرات السياسيين بعد مغادرتهم لمواقعهم السياسية، وكان إنشقاق عبد الحليم خدام عن النظام السوري أيضا مادة للحديث، وأذكر أنني قلت له: "أنا لن أكتب مذكراتي".. سألني القذافي . لماذا؟ . أجبت بأنني أرى أن المذكرات التي يكتبها السياسيون بعد ترك مواقعهم، خاصة في وطننا العربي هي، شهادات متأخرة، وكثيراً ما تخلو من الموضوعية، وتنحو إلى تبرأة الذات، عكس المذكرات التي يكتبها الساسة في الغرب، والتي تهدف إلى التوثيق لمرحلة محددة، يجد فيها الجيل اللاحق أرجاماً تهديه في طريق خدمة وطنه. وقد أبدى العقيد إرتياحاً بيناً لما قلته. وبالفعل لم أكن أنوي كتابة مذكراتي، ففي بلداننا العربية، التي ما عاشت الديمقراطية، وغابت العلانية والشفافية عن دوائر المجتمع، في هذه البلدان، يأخذ العمل السياسي منحى العمل "السري"، وتكون المذكرات المعلنة من ضرب إفشاء الأسرار، لكن السياق أخذ مجرى لم يكن . آنذاك . في الحسبان. فعندما يتعرض الوطن للذبح، تزول أبجديات، وتتغيّر البديهيات، ويوّلد الدمُ، حروفاً أخرى، وتغدو المذكرات، صرخة من صرخات الضمير، وحروفاً تكتبها خلجات الذات، ولا يكون للمرء خيار في ذلك، بل أقول، أن كتابة ما حدث، يصبح فرض عين، ومن لم يفعل، هو . كاتم للشهادة . يلاحقه السؤال، بل يستحق المساءلة.

أعود إلى . أشخاصي . الذين أنا بصدد الحديث عنهم، فأقول أن البيئة البشرية النوعية التي تشكل دائرة الطيف المحيطة بالحاكم الفرد، هو من يخلقها، ولكنها بنفس

القدر تساهم في إعادة خلقه أو صناعته، فهو يستعملهم بقدر ما هم يستعملونه، وتتفاوت درجات الفعلين، والحالة الليبية ليست إستثنائية، وإن كانت لها، خصوصيتها. أتقن معمر القذافي الأسلوب الأبوي الشامل، ليس فقط في التعامل مع من حوله في الإدارة السياسية والإقتصادية، بل على المستوى الإجتماعي، وظَّفَ العامل القبلي، والجهوي، والديني أيضا. وإستخدم أيضا، حبائل الترغيب والترهيب الأبوي، أتقن معمر القذافي إدارة الناس، فقد إمتلك قدرة إستثنائية، على تشخيص طبائع الأشخاص، وتشريح نفسياتهم، وجس أحاسيسهم، وقياس قدراتهم، وبالتالي أن يضع كل واحد، ويضع له خارطة خاصة للتعامل، ومساحة الهامش، وحجم الصلاحية، وطبقة الصوت التي يتحدث بها إلى كل فرد. كان يتسامح أو يفتعل التسامح، يتشدد متظاهراً أو جاداً، يقرّب بقدر، أو يفعل النقيض بنفس الحسابات، وهكذا تمكن، ولسنوات طويلة أن يجمع من حوله أسماء، يستحيل أن يجمعها جامع، وأن يوظفهم جميعاً بنفس الفاعلية، وإن كانوا في مواقع شتى، ولأغراض متباينة، وكثيراً ما تكون متناقضة. وقد رأيت أنه من الأشياء الضرورية إستعراض هؤلاء الأشخاص وملامسة مكوناتهم، حتى تكتمل صورة البيئة البشرية الواسعة التي تعامل معها معمر القذافي، أو إستعملها طوال سنوات حكمه، فقد تكرر السؤال على أفواه آلاف الناس: "كيف تمكن العقيد معمر القذافي حكم ليبيا كل هذه السنوات؟ وكيف قبل الذين عملوا معه، أن يرافقوه طوال هذه الرحلة القاسية؟ فمن هم هؤلاء الذين عملوا مع القذافي؟".

مفتـــاح كعيبـــــــــــة

مفتاح كعيبة

من مواليد مصراته في بداية عقد الأربعينات من القرن الماضي، هو مقارب لمعمر القذافي في العمر، إلتقيا بمدرسة مصراته الثانوية بعد أن طُرِد القذافي من مدارس ولاية فزان سنة 1961، إثر قيادته لمظاهرة صاخبة، ضد إنفصال سوريا عن مصر، كان الحماس للقومية العربية والوحدة العربية طاغياً، ووجد معمر في طلبة مصراته الكثيرين ممن إستمعوا إليه وهو يلهج بالشعارات القومية، وكان من بينهم، مفتاح كعيبة. كان القذافي قد بدأ بتكوين ما أسماه بالخلايا المدنية الأولى للثورة في سبها، حيث نظم في خليته المدنية الأولى هناك كل من: عبد السلام جلود، محمد الزوي، إبراهيم بجاد، سالم الطاهر الحضيري، الهادي فضل، وعلي المهدي عبد القادر.

ومن غرائب الصدف أن الشخص الأول الذي فاتحه معمر القذافي في موضوع التنظيم والعمل من أجل إسقاط النظام الملكي، كان طالباً من مصراته إلتقى به معمر القذافي قبل أن يشرع في تنظيم الخلية الأولى بسبها، وهذا الطالب هو محمد خليل، وقبل أن يلتحق القذافي بمدرسة مصراته الثانوية.

وواصل معمر نشاطه السري، وإستطاع في مصراته أن يقنع طلاباً آخرين بأفكاره، وتنظيمهم في خلاياه السرية، وإستطاع أن يقنع بعضهم بالإنخراط في كلية الضباط، توطئة لإستخدامهم في الإستيلاء على السلطة بعد تخرجهم وإنخراطهم في صفوف الجيش، ومن بين هؤلاء عمر المحيشي، الذي تعرف عليه القذافي بمدرسة مصراته الثانوية، وأقنعه بدخول الكلية العسكرية.

تمكن الطالب معمر القذافي، من إقناع مفتاح كعيبة بالإنضمام إلى الخلية السرية بمصراته، ولكنه فشل في إقناعه بالإلتحاق بالكلية العسكرية. بعد إنهاء دراستهما في مصراته، إنتقل الإثنان مفتاح ومعمر إلى بنغازي، ولكن إلى كيانين تعليميين مختلفين، حيث إلتحق معمر بكلية الضباط، أما مفتاح فقد إلتحق بكلية الآداب ببنغازي. إستمرت العلاقة بين الإثنين، وإستمر العمل من أجل نفس الهدف، وهو الثورة على نظام الملك إدريس السنوسي. وكان معمر يلح وبقوه وبإستمرار على أعضاء الخلايا المدنية في تجنيد من يمكن تجنيد من زملائهم وضمهم إلى الخلايا السرية. في حين عبأ هو كل طاقته داخل الكلية العسكرية لإستقطاب أكبر عدد من طلبة الكلية العسكرية وضمهم إلى الفرع العسكري للتنظيم.

تخرج مفتاح كعيبة من كلية الآداب سنة 1967، وإلتحق بالعمل الحكومي، وتخرج معمر القذافي من الكلية العسكرية قبل ذلك، وأصبح ضابطاً في الجيش الليبي برتبة ملازم ثان، وإستمرت العلاقة بين الإثنين رغم إختلاف المكان والمركز. وقد حرص معمر على إستمرار بل تكثيف الإتصال مع زملائه في فرع التنظيم المدني لتوسيع دائرة المنضمين لحركته، إستعداداً لإستخدامهم في المواقع القيادية المدنية للحكومة بعد إسقاط النظام وتوليه قيادة الدولة، وهذا ما تحقق بالفعل.

فبعد نجاح حركة معمر القذافي في أول سبتمبر، والإستيلاء السهل والسريع على السلطة، أطلق ما أسماه . بالتنظيم الشعبي . وأناط به مهمة تعبئة الناس لمساندة الحركة في جميع أنحاء ليبيا، وكان أعضاء التنظيم المدني في الحركة هم المحركون للتنظيم الشعبي، ومن بينهم مفتاح كعيبة.

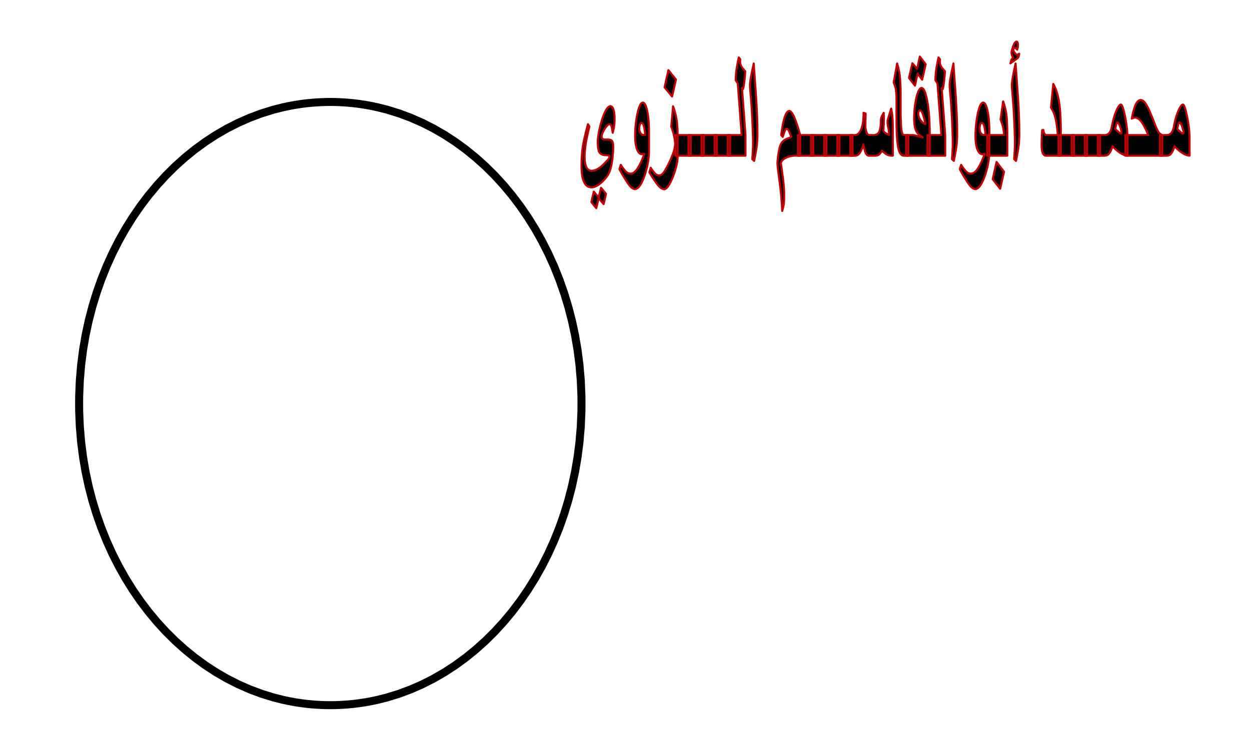
مفتاح كعيبة، شخصية مرحة، خفيفة الظل، له علاقات إجتماعية واسعة، نظيف اليد، سريع الإنفعال، ورغم علاقته المبكرة والطويلة بمعمر القذافي، ولكنه يخافه إلى درجة الإرتباك والإرتعاش عندما يقف بين يديه، وقد تولى مناصباً كثيرةً وكبيرةً، فقد عمل محافظاً لمصراته، ووزيراً للبلديات والزراعة، والداخلية، وأميناً لمؤتمر الشعب

العام، بالإضافة إلى مسؤوليات أخرى. وهو من أولئك الذين يحرصون على تنفيذ تعليمات القذافي دون مناقشة، ويصاب بالإضطراب والضيق إذا أحس بأي علامة من علامات قلة الرضا عليه من طرف القذافي، وكان شديد الحدب والمتابعة على تنفيذ ما يصدره إليه من تعليمات، ومع أنه كان نظرياً صديقاً للقذافي، وشريكاُ في الثورة منذ أن شرع القذافي ينظم الطلاب في خلاياها، مع ذلك إستطاع القذافي أن يضع كعيبة في خانة المنفذ الصامت، الذي لا يطمع يوماً أن يلامس عبوّة القرار في ردهات معمر القذافي.

إمتلك مفتاح كعيبة، مفتاحاً خاصاً، فتح له أبواباً خاصة، إلى مسارب الكثيرين ممن حول القذافي، هو مفتاح المجاملة والمداهنة، مع إسلوب غير متكلف في "القفشات"، وقد تخلص من شعر رأسه مبكراً، وإمتلك صلعة شكلت جزءًا من شخصيته، وكان كثيراً التعليق على نفسه، ومما قاله عندما جاءه أحدهم طالباً منه المساعدة ليتمكن من الذهاب إلى الحج، قال له مفتاح: (يا أخي لماذا تذهبون إلى "الكعبة" البعيدة، فها هي أمامكم "كعيبة" صغيرة، طوفوا حولها وستحصلون على نصف الأجر على الأقل). وعندما ذهب في رحلة علاج إلى الخارج، قال له الأطباء أنه يعاني من مشاكل في "الجيوب" الأنفية، فرد عليهم كعيبة: إنها "غرائر" وليست "جيوب" والمقصود بالغرائر في اللهجة الليبية هي . الأكياس . الكبيرة المصنوعة من الصوف والتي تحمل على الجمال.

لم يكن مفتاح كعيبة جزءًا من حملة الفساد والنهب التي شنت على المال العام في عهد القذافي، ولم يكن طرفاً في أي عمل عنيف، حتى عندما تولى وزارة الداخلية، وكم صُدِمْتُ عندما رأيته يساند القذافي في مذبحته للشعب الليبي بعد إنفجار ثورة شباب ليبيا في 17 فبراير، وهو من أبناء مدينة مصراته أسطورة الكفاح، وعنوان ملحمة الدم الليبي ضد طغيان القذافي، لقد تشبع هذا . الشخص . بسائل التبعية والطاعة الذي نفثه معمر القذافي فيه على مدى عقود، وعندما دقت ساعة الحق

الوطني، كان ثقل الإختيار أكبر وزناً من إرادته، فإستسلم لما غمره من سائل التبعية والتسليم.


محمد أبوالقاسم الزوي

محمد بلقاسم الزوي

من مواليد قرية . الزويّة . بمنطقة الشاطئ في الجنوب الليبي سنة 1943، قرية شهدت ولادة عدد من رجال الدين، وإليها ينتمي المرحوم محمد عثمان الصيد الزوي، رئيس وزراء ليبيا الأسبق في العهد الملكي، وهو الذي نقل ليبيا من دولة إتحادية إلى دولة متحدة، وكان من قادة المقاومة في الجنوب الليبي ضد الإحتلال الفرنسي، وكان صديقاً لوالدي وحليفاً له في مقاومة الوجود الفرنسي بفزّان، والتشبث بأن تكون فزّان جزءًا من التراب الليبي الموحد، ضد المحاولات الفرنسية لضم الإقليم إلى الجزائر الفرنسية، وكانا أيضا عضوا أول مجلس نواب ليبي بعد الإستقلال عن إقليم فزّان. ولمحمد الزوي قرابة بمحمد عثمان الصيد من جهة أمه.

توفي والد محمد الزوي وهو صغير، فكفله خاله عبدالله الزوي، ضابط الشرطة، الذي تنقل حسبما كان متبعاً بين مراكز البوليس في الجنوب، بين أوباري، ومرزق، وسبها، وكان محمد ينتقل معه وقد مكنه هذا الإنتقال من التعرف على الكثيرين من أبناء جيله في هذه المناطق، ومن بينهم عبد السلام جلود الذي أصبح رفيقه فيما بعد، في أول خلية في التنظيم المدني السري الذي أسسه الطالب معمر القذافي بمدرسة سبها.

يروي محمد الزوي قصة تعرفه إلى معمر القذافي فيقول: أنه كان طالباً بمدرسة سبها الثانوية في أواخر خمسينيات القرن الماضي، وقام مدرسه "الضاوي سبيطه" بضربه عقاباً له على مخالفة ما، وأحسّ محمد الزوي بأنه مظلوم، فدخل في مشاجرة مع المدرس، وعلم معمر القذافي بالحادثة، فقابل محمد وسأله عن ما حدث، وإتخذ معمر من ذلك مدخلاً لإثارة قضية الظلم وضرورة مقاومته وعدم الخضوع له وإن تباينت قدرات الظالم والمظلوم. وتكررت اللقاءات بين الإثنين وتواصل الحديث عن

"الظلم" إلى أن وصل إلى ما تشهده البلاد الليبية والأمة العربية من ظلم الحكام وظلم الإستعمار...ألخ إلى أن فاتح الطالب معمر أبو منيار، وهكذا عرف الطالب معمر آنذاك قبل أن يضيف إلى إسمه لقب القذافي بعد قيام الثورة، فاتح الطالب محمد الزوي في نيته تأسيس تنظيم سياسي سري يهدف إلى إسقاط النظام الملكي، وافقه محمد، ودعاه معمر عشية أحد الأيام إلى لقاء غير بعيد عن القسم الداخلي، بمنطقة معزولة بها بعض أشجار النخيل تسمى "حجارة"، ويضيف محمد جلست أنا ومعمر، وبعد قليل جاء شخص إسمه . الهادي فضل . وهو أيضا من منطقة الشاطىء ويعرفه محمد جيداً، قدمه له معمر وأخبره أنه عضو أيضا في التنظيم. توالت الإجتماعات وإتسعت دائرة الخلية بإنضمام سالم الطاهر الحضيري، إقترح محمد فيما بعد على معمر أن يضم إلى الخلية الطالب عبد السلام جلود الذي كان زميلاً لمحمد الزوي في نفس الفصل الدراسي، فوافق معمر وقال له إنه قد تحدث معه في الموضوع.

إنتقل محمد الزوي إلى الدراسة في طرابلس حيث يوجد أخوه الأكبر يوسف، قبل أن يُطرد معمر من مدرسة سبها الثانوية، ويلتحق بمدرسة مصراته وإستمرت العلاقة بين الإثنين.

بعد حصول محمد على الشهادة الثانوية العامة، طلب منه معمر أن يلتحق بالكلية العسكرية ببنغازي، وافق محمد، وشرع في إعداد الأوراق المطلوبة لذلك، لكنه تراجع فيما بعد، وقرر السفر إلى القاهرة لدراسة الحقوق بجامعتها. وإستمرّ الإتصال بينهما. يقول محمد الزوي أنه قبل سفره إلى القاهرة إتفق مع معمر القذافي أن يلتقيا في منزل أخيه يوسف الزوي بطرابلس مع عبد السلام جلود، ليقوم محمد بتسليم عبد السلام عضو خليته في التنظيم إلى معمر القذافي، غير أن عبد السلام جلود يسوق رواية آخرى، وهي أنه كان عضواً في خلية معمر منذ البداية، وأن اللقاء في منزل يوسف الزوي كان لمناقشة مستقبل الحركة ومسؤولية كل واحد منهم فيما بعد. سافر محمد إلى القاهرة التي كانت تعيش تفاعلات محلية وعربية ودولية ساخنة، تداعيات

ما بعد الإنفصال عن سوريا وتطورات حرب اليمن، وما شهدته العراق من إنقلابات وتجاذبات وكذلك إنقلابات سوريا، وكذلك التحولات الإشتراكية في مصر، كل ذلك تحت زخم شخصية الزعيم جمال عبد الناصر، إستمر التواصل بين محمد ومعمر، الذي كان يعمل ليلاً نهاراً لتجنيد المزيد من العسكريين والمدنيين في صفوف حركته.

تخرج محمد الزوي من كلية الحقوق بجامعة القاهرة سنة 1968م وعاد إلى ليبيا، ليجدد لقاءاته مع الملازم معمر ورفاقه العسكريين في حركة الضباط الوحدويين الأحرار وكذلك المدنيين من أعضاء التنظيم.

أخبرني عبد المنعم الهوني، أحد الأعضاء البارزين في حركة الضباط الأحرار، وعضو مجلس قيادة الثورة، أنه قد دعا معمر القذافي إلى الغذاء بمنزله بطرابلس في 12 يناير 1969 أي قبل الثورة بثمانية أشهر، فجاء الملازم معمر ومعه الملازم عبد الرحمن الصيد الزوي، ومعه قريبه محمد الزوي، خريج الحقوق الذي لم يستلم وظيفة حكومية بعد. عبّر محمد عن نيته في الإلتحاق بمكتب أحد المحامين بطرابلس توطئة لإفتتاح مكتب محاماة خاص به فيما بعد، فطلب منه الملازم معمر أن يتريث، فقد يكون له مكان أكبر وأهم من ذلك بكثير بعد نجاح الحركة وإسقاط النظام الملكي. ويقول عبد المنعم الهوني، أن محمد الزوي . عطا معمر على رأسه . أي هاجمه بشدة، وقال له: يا أخ معمر أرجوك أن تترك فكرة الثورة، فالنظام في ليبيا بدأ يتطور والإصلاح هو الأسلوب الأمثل، أنظر ماذا جنت مصر من الثورة غير الفقر والحروب والعداوات والهزيمة في حرب 1967، الإنقلابات لا تجلب سوى الكوارث، أنظر ماذا حدث في سوريا والعراق واليمن والجزائر، الإنقلابات هي الطريق الأقصر نحو الكوارث، دعك من فكرة "الإنقلاب" ولنفكر كيف يمكن أن نساهم في إصلاح النظام القائم وتطويره، ويضيف . عبد المنعم الهوني . أن معمر كان هادئاً، ولم يدخل في جدال مع محمد الزوي، وقد إستغربت من ذلك، فلأول مرة أرى معمر يتمالك

نفسه ويجنح إلى الهدوء أمام هذا الهجوم الشديد، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أقابل بها محمد الزوي، فإنبهرت به، وجعلني أفكر طويلاً فيما سمعته منه".

قامت الثورة في أول سبتمبر 1969، كان محمد الزوي، قد إلتحق بالعمل في سلك القضاء، كوكيل نيابة بطرابلس، وأعلن معمر البيان الأول للثورة من إذاعة بنغازي، حيث بقي بها الأيام الأولى للثورة قبل أن ينتقل إلى مدينة طرابلس، وعندما وصلها إتخذ من مبنى وكالة الأنباء الليبية القريب من الإذاعة، مكتباً له، وذهب محمد الزوي، رفقه إبراهيم بجاد والهادي فضل، أعضاء التنظيم المدني للقاء قائد الحركة، زميلهم السابق بمدرسة سبها وقائدهم الحالي في الثورة المنتصرة. يقول محمد الزوي أن هذا اللقاء كان حميماً، وكان يفيض بمشاعر الإنتصار، وكان الحديث عن الحلم ببناء دولة تعمل من أجل الحرية وتحقيق الوحدة العربية...ألخ. بعد أيام شرع القذافي في حركة التنظيم الشعبي، وكلف أعضاء التنظيم المدني في خلايا العمل السري السابق بقيادة هذه الحركة التي تهدف إلى التعبئة الجماهيرية لمساندة الثورة، وتبنى أفكارها، وتأمينها بالإجتماعات والمسيرات المؤيدة لها. وقد كان محمد من الفاعلين الأقوياء في هذه البداية، وبعد أشهر قليلة كلفه معمر بمنصب مدير الإذاعة، وقد كان هذا الموقع بالنسبة له لا يقل أهمية عن أي معسكر من المعسكرات التي يسهر ضباطها وجنودها المسلحين على حماية الثورة وتأمينها. وبعد تأسيس تنظيم الإتحاد الإشتراكي العربي، كحزب سياسي وحيد في ليبيا تناغماً مع التنظيم السياسي المصري، أصبح محد الزوي من الأسماء الفاعلة فيه بالإضافة إلى عمله في الإذاعة. كان محمد الزوي قد عمل متعاوناً في الإذاعة الليبية في العهد الملكي عندما كان طالباً بالمرحلة الثانوية بطرابلس، إذاً ما كان من القادمين الجدد، وأهلته هذه التجربة للتواصل مع العاملين بها.

محمد الزوي، شخصية بسيطة، متواضعة، قريب من الوسط الفني والثقافي، وهو حقاً واحد من الفنانين والمثقفين، لا يتردد في تقديم العون لهم عند الحاجة، هادئ

الطبع، قليل الإنفعال إلى درجة تجعل البعض يصفه بالآمبالاة، لا يصبر على أن تبقى النقود بجيبه طويلاً، فهو يعطيها لأول سائل، وقضى حياته في مساعدة المحتاجين، ويعجّ مكتبه في أي وظيفة حل بها بعشرات المواطنين الباحثين عن عمل، أو سكن، أو دراسة أو علاج، حتى أصبح قبلة لكل محتاج أو حتى متظاهر بالإحتياج. ربطتني به علاقة طيبة منذ كنتُ طالباً بجامعة القاهرة، وبعد تخرجي وعودتي إلى ليبيا، نمت هذه العلاقة حتى وصلت إلى درجة الإخوة، شدّ من أزري عندما توليت رئاسة تحرير الفجر الجديد في ظروف سياسية في غاية الصعوبة، ودافع عني في مواقف كثيرة، وقضينا الأيام والليالي الكثيرة معاً. كنا نتحدث معاً، وكأن الواحد منّا يتحدث إلى نفسه، نحلل ما يجري في ليبيا بلا تحفظ، ولا توجد مناطق لا يمكننا الدخول سوياً إليها ونحن نستعرض تصرفات معمر القذافي، والمسؤولين في البلاد، وكل التفاصيل عن الأمور السياسية والإقتصادية، ونخوض بسخاء وتوسع في النميمة السياسية، وندخل كل البيوت . كلاماً . نقلب صفحات العلاقات الرجالية والنسائية ما ظهر منها وما بطن. شديد الإرتباط بعائلته، وأصدقائه، وقبيلته، في جنوب ليبيا وشرقها، تقلب في مناصب عديدة، تولى وزارة الدولة للإعلام، بعدما ترك إدارة الإذاعة والتلفزيون، وعندما كان وزيراً للإعلام ساهم بفعالية، في إنتاج فيلم الرسالة، وكذلك فيلم عمر المختار الذين أخرجهما الراحل مصطفى العقاد رحمة الله، كان وجود كاتب سيناريو الفلمين "هاري جراي" والممثل الكبير "انتوني كوين" والمخرج مصطفى العقاد بليبيا، مناسبة لحوارات طويلة عن التاريخ العربي والإسلامي والليبي، كان مصطفى العقاد، الذي لا يفارق غليونه يده أو فمه، شخصية فريدة، هادئ في حديثه، ودوداً في علاقاته، عميقاً في تحليله، وكان محمد الزوي، هو الحائك القادر على نسج الخيوط مهما تباينت ألوانها وإختلفت أطوالها، كان معمر القذافي حريصاً أن يكون ظله موجوداً في هذين العملين العملاقين . الرسالة . وعمر المختار، لكن المخرج مصطفى العقاد رفض ذلك بقوة وبصراحة مباشرة، مكرراً أن إقحام معمر القذافي مباشرة أو غير مباشرة في العمل

الفني لا يفسده فقط، وإنما يلغيه، وكان العقاد يقول وبصوت عالٍ، أن معمر القذافي سيكون موجوداً في العملين حتماً ولكن من زاوية دعمه لهما، وتشجيعه على إخراجهما للوجود، وقال العقاد للقذافي ذات مرة ونحن في بنغازي بحضور كاتب السيناريو . هاري جراي . والممثل انتوني كوين ، ومحمد الزوي، قال العقاد: " يا أخ العقيد أنا مخرج وأنت مخرج لهذا العمل . يقصد فيلم عمر المختار، فسأله معمر: كيف؟ فأجابه العقاد: "أنا أخرج هذا العمل على الشاشة ومن الناحية الفنية، وأنت الذي أخرجته للوجود، بإهتمامك، وتشجيعك، وتمويلك". كان محمد الزوي، يتدخل بأسلوبه الهادئ، لإقناع العقيد وتهدئته، مستذكراَ، أيام رفقة الشباب مع القذافي، وإستحضار الموروث الوطني، والقومي، والديني، وتجسيده فنياً، وتقديمه للأجيال الجديدة، في صورة مرئية، وكذلك، تشخيصه للرأي العام الإنساني، بلغة معاصرة، وتوظيف الإمكانيات المتقدمة لوسائل الإعلام...ألخ. وكثيراً ما ينجح الزوي في إرجاع العقيد إلى دائرة القبول والإقتناع. شغل محمد بلقاسم الزوي، أيضا منصب الأمين العام المساعد لمؤتمر الشعب العام، بعد ما سمي، بإعلان سلطة الشعب، كان عبد العاطي العبيدي هو أمين عام مؤتمر الشعب العام، يعلق عبد المجيد القعود الذي كان مديراً لمكتب العقيد معمر القذافي على عمل أمانة مؤتمر الشعب العام آنذاك بقوله: " إن هذه الأمانة، كانت جسماً بلا وظيفة، بل لم تكن تعلم حتى ما هو المطلوب منها، ولم تقم بأي دور في الدولة، لا يحدثها أحد، ولا تحدث أحداً، ويستطرد القعود ساخراً، أنه في أحد الأيام وردت إلى هذه الأمانة رسالة من . القيادة . فسرت حركة غير مسبوقة في قصر الشعب . القصر الملكي سابقاً . وهو مقر أمانة مؤتمر الشعب العام، سرت حركة، ودعا عبد العاطي العبيدي أمين عام المؤتمر إلى إجتماع عاجل جداً وطارئ، وتدافع أعضاء الأمانة نحو مكتب الأمين، وبشرّهم بوصول رسالة من القيادة، وبعد أن قام الأمين بفتح المظروف، وجد أن مضمون المكتوب هو طلب ندب موظف للعمل بمكتب الأمانة العامة لمؤتمر الشعب العام وقرر الأعضاء . بالإجماع . الموافقة على ذلك.

كانت أيام الأمانة العامة لمؤتمر الشعب العام، أياماً ذهبية بالنسبة لمحمد الزوي، فهي مكانة بلا مسؤوليات، ولم تخل من بعض الإمتيازات، ففي حالة تلك البطالة المقنعة، وجد الوقت الكافي لرغبته المفضلة، وهي الإستيقاظ متأخراٍ، والتفرغ لمساعدة المحتاجين، غير أن معمر القذافي إستكثر عليه على الأقل "إسم" الوظيفة، فقد كانت تسمى على الورق "الأمين . العام . المساعد"، وبما أن الرئيس الراحل صدام حسين كان يحمل نفس الصفة في القيادة القطرية لحزب البعث الإشتراكي في العراق، فقد وجّه، القذافي بشطب صفة . العام . من المساعد.

بعد ذلك تقلد الزوي مهام وزارية أخرى، العدل، الداخلية، وكذلك عين سفيراً في المملكة المغربية، ثم مندوباً لدى الأمم المتحدة، وسفيراً في بريطانيا، ومرة أخرى عاد سفيراً في المملكة المغربية، وأخيراً أميناً لمؤتمر الشعب العام.

في العدل والداخلية، كان الزوي، أقرب إلى . شيخ العرب . منه إلى الوزير، تدخل في كل التفاصيل التي تهم شؤون الناس، وأصبح مكتبه قبلة للناس من جميع أنحاء ليبيا، وقد حدث أن إعتقل أحد المطربين عندما كان يقود سيارته ليلاً بتهمة السكر الظاهر، وعندما علم الزوي بذلك، وهو وزير للعدل، إتصل بنفسه هاتفياً بوكيل النيابة الذي أمر بحبس المطرب المخمور، وأمره بإطلاق سراحه فوراً، فرد وكيل النيابة بأن ذلك لا يجوز، فالمتهم إرتكب جرمين وهما: شرب الخمر، وذلك ممنوع في ليبيا، والثاني، هو قيادة السيارة في حالة السكر، وهي أيضا جريمة يعاقب علها القانون، فردّ عليه الوزير محمد، بأن ذلك لا ينطبق على الحالة التي بين يديه، فالجاني هو . مطرب . أي مهمته الوطنية أن "يغني"، ولكي يقوم بهذه المهمة فهو محتاج إلى الخمر، مثلما تحتاج السيارة كي تتحرك للبنزين، والمنطق، أن يقبض على هذا الشخص عندما يكون . واعياً . لأنه يكون في هذه الحالة مقصراً في آداء مهمته الوطنية. ضحك وكيل النيابة، وأفرج عن المطرب!! تكشف هذه النادرة عن شخصية محمد الزوي، فهو لم يخاطب وكيل النيابة بلغة الأمر، أو بمنطق التراتبية الإدارية

أو القانونية، أو بأسلوب التسلط الفوقي، وإنما خاطبه بأسلوب هو أقرب إلى الدعابة والملاطفة.

قصة أخرى أتذكرها، فقد كانت أحداث الجامعة في أوائل سبعينات القرن الماضي باعث إنزعاج للحكومة، وقد أراد الرائد عبد السلام جلود أن يجتمع بعدد من المسؤولين بشكل عاجل ومن بينهم محمد الزوي، فطلب من مدير مكتبه علي فضيل أن يتصل بهؤلاء المطلوبين للإجتماع، وصل الجميع بإستثناء الزوي، فقام جلود وإتصل شخصياً بمنزل الزوي، فردت عليه العاملة الآسيوية ولم يستطع التفاهم معها فإستشاط غضباً، بعد وقت وصل الزوي إلى مكتب جلود، الذي بادره بعتاب صارخ: "ما هذا يا محمد، أيعقل أن ننتظرك أكثر من ساعتين، ولا أستطيع حتى الحديث معك"!! وإستطرد في العتاب الغاضب قائلا: "يا أخي، إفرض دبابات المتآمرين علينا في الشوارع، ونحن نريدك، هل يعقل أن لا نتمكن من الوصول إليك؟!!".. كان الزوي ينظر بهدوء وإبتسام إلى جلود وردّ عليه بهدوء: "يا أخ عبد السلام، إذا تحركت الدبابات إلى الشوارع، فأنتم العسكريين القادرين على مواجهتها، أما أنا الرجل المدني، فماذا أستطيع أن أفعل؟ هزّ جلود رأسه معلقاً، أنت دائما يا محمد تأخذ الأمور هكذا بهزل.

غضبت عائشة معمر القذافي عندما وصلت إلى مطار هيثرو بلندن ولم تجد السفير محمد الزوي في إستقبالها، وعبّرت لمستقبليها عن إستغرابها لغيابه عن مراسم الإستقبال، وعندما نقل له أحدهم ما تفوهت به عائشة القذافي، تعليقاً على عدم قدومه لإستقبالها في المطار، علق الزوي قائلا: "إذا كنت أنا على رأس مستقبليها بالمطار، فمن سيستقبل والدها القائد إذا جاء إلى لندن؟".

في أحد الإجتماعات التي شارك فيها محمد الزوي مع سيف الإسلام نجل معمر القذافي، قال سيف: "أنا عندي نظرية". فقاطعه الزوي قائلا: مهلاً، دعنا أولاً . نقمط . نظرية والدك".

في آخر لقاء لي، مع معمر القذافي، إشتكى من أن الزوي يسخر من المؤتمرات الشعبية، واللجان الشعبية، ويصفها بالعبث، وعندما نقلت للزوي ما قاله القذافي، علق بأن القذافي يعرف أن ما قلته هو الحقيقة.

بعد النوادر، نعود إلى المناصب، فقد كان محمد الزوي يحظى بتقدير كبير من طرف أغلب المسؤولين والمتنفدين في الدولة من عسكريين ومدنيين بحكم كونه أحد أعضاء التنظيم السري المدني الذي أسسه الطالب معمر القذافي، وتحول إلى تنظيم عسكري تمكن من إسقاط النظام الملكي والإستيلاء على السلطة، وقد ساعده على ذلك قدرته على المجاملة، وإستعداده الدائم لتقديم يد المساعدة للجميع، لم يقصر في الإهتمام بعائلات وأولاد زملائه من الوزراء الذين وافتهم المنية، فكان يسهر على تقديم المساعدة لهم في مجال التعليم والعلاج والسكن، وتغطية نفقات الزواج، والمآتم وغيرها.

لعب الزوي دوراً متميزاً في العلاقات الليبية المغربية، فالعداء بين العقيد معمر القذافي والنظام الملكي في المغرب بدأ مبكراً منذ الأيام الأولى لوصول القذافي إلى السلطة، ففي أول قمة عربية حضرها معمر القذافي بصفته رئيساً لليبيا، عقدت في المملكة المغربية، وشهدت تلك القمة أول ملمح من ملامح الشخصية القذافية في القمم العربية التي تكررت، وكبرت وإتسعت مع القمم الآتية بلا إستثناء، ففي تلك القمة الأولى، تعمد معمر أن يقدم نفسه بنفسه، ففي الجلسة الإفتتاحية، ألقى اللوحة التي وضعت أمامه مكتوباً عليها . فخامة العقيد معمر القذافي . معلقاً في غضب، "هذه الألقاب، كلام فارغ"، وما ظن أحد أنه سيقفز على تلك الألقاب إلى . ملك الملوك . وعميد القادة العرب . وقائد القيادة الإسلامية العالمية . والقائد والمعلم والمفكر

. والصقر الأوحد . قائد النصر والتحدي....ألخ. وكان التقليد الملكي المغربي، يوجب أن يُقَبِّل رجال الحاشية الملكية يدي الملك مع إنحناءة ثقيلة، فعبر العقيد عن إشمئزازه الواضح لذلك السلوك المشين في نظره، وما ظنّ أحد أن ذلك السلوك سيكون من علامات الولاء الخاص بين يدي القائد.

لم يتردد معمر القذافي، عندما شاهد الجنرال أوفقير في قاعة القمة، لم يتردد في التهجم عليه بحجة أنه قاتل المناضلين المغاربة وعلى رأسهم المرحوم المهدي بن بركة، وهكذا، في أول لقاء بين القذافي والحسن الثاني، تمّ تدشين مسيرة العداء بينهما. توالت الأحداث، وتراكمت كتل الخصومة إلى أن وصلت إلى شفير المواجهة، خاصة بعد محاولة إسقاط طائرة الملك، ومؤامرات الجنرالين، أوفقير ومدبوح. أصبح الملك الحسن الثاني الهدف الأول بالنسبة للعقيد معمر القذافي الذي فتح أبواب طرابلس لكل معادي للحسن الثاني أوكاره له. وفي المقابل أصبح معمر القذافي هاجساً شاخصاً للحسن الثاني الذي إندفع بفضل حنكته السياسية، وعلاقاته الدولية الواسعة يعبء المعارضة الليبية التي لجأت إلى المغرب، ويتعاون معها في تكوين جيش ليبي متمركز في تشاد للإنقضاض على غريمه الحاكم في طرابلس. كان النقيب عمر المحيشي، عضو مجلس قيادة الثورة قد فرّ إلى تونس بعدما عرف بمؤامرة 1975، ومن هناك ذهب إلى القاهرة، حيث أعطاه السادات عدو القذافي، الضيافة، وفتح له باب الإذاعات المصرية ليكيل النقد والشتائم لمعمر القذافي، وعندما قام السادات بزيارة القدس سنة 1977، غضب عمر المحيشي أشد الغضب، وقام أمام بعض الليبيين والمصريين بالتبول على صورة الرئيس أنور السادات. عاقبه المصريون بطريقة مشينة، لا يسمح الحياء بالخوض فيها، وبعد وساطات قام بها بعض الشخصيات المصرية المتعاطفة مع المحيشي، سمح له بمغادرة القاهرة إلى الرباط، حيث وجد ترحيباً كبيراً من العدو الأول مكرر لمعمر القذافي أي الحسن الثاني، بعد العدو الأول المجاور وهو أنور السادات. كانت المنطقة العربية مرجلاً سياسياً يزداد غليانه كل يوم، فقد شرع الرئيس المصري في شق طريقه نحو أمريكا

وقبلها إسرائيل، وقامت جبهة الرفض التي تحولت إلى الصمود والتصدي، وشبَّت حالة من الغضب رافقتها موجة من الفرز السياسي العربي. إتفق القادة العرب في قمة بغداد على عزل مصر، ولكن القادة العرب لم ينضموا جميعهم إلى جبهة الصمود والتصدي، إنتظم المغرب في عقد المقاطعين على الأقل علنيا للسادات، ولكنه لم يصطف في تجمع الرافضين المتصدين. تدَفق سائل الوقود الثنائي، والقومي، والشخصي، ليجعل نار العداوة بين الحسن الثاني ومعمر القذافي أحر من نار الثورة ومن نار الملكية.

إنطلقت حركة . البوليساريو . في الساقية الحمراء ووادي الذهب، لتحريرها من الإستعمار الأسباني في مطلع السبعينات، إتساقاً مع هبة الشعوب الأفريقية للتحرير من الإستعمار البرتغالي والأسباني، ولوّحت بغروب شمس الديكتاتورية في البلدين. إنسحبت إسبانيا من الساقية والوادي، وسارع الحسن الثاني لتقاسمها مع موريتانيا. رفض شباب من الساقية هذا الفعل. وأصرّوا على إقامة دولة مستقلة. رفض الحسن الثاني ذلك، فشن هؤلاء الشباب حرب تحرير ضد المغرب وموريتانيا، إنسحبت موريتانيا من الجزء الذي أعطاه لها الحسن الثاني، فتقدم وإحتله عنوة، وضمّ القطعتين الصحراويتين إلى مملكته.

وجد القذافي، ضالة مضافة في حربه على الحسن الثاني، فإستدعى . الولي الرقيبي . قائد حركة تحرير الساقية المسماة إختصاراً بإسم البوليساريو ومعه عدداً من رجاله، وقام بتدريبهم وتسليحهم بدعم من الجزائر، وهكذا تدفق وافدٌ آخر إلى نهر العداوة بين معمر والحسن. إستعرت النار، وتصاعد اللهب، وأحس معمر أن ما أوقده الحسن الثاني في تشاد على حدود ليبيا الجنوبية، لم يعد وهجاً يضيء من بعيد، بل تحول إلى فحيح يقترب، ويؤذن ببداية إجتياز الحدود، وإلتهام ليس أطراف البلاد، بل سيلتحم بشظايا الغضب الداخلي التي تتطاير في طول البلاد وعرضها،

فجنح إلى طريق المساومة والمهادنة بهدف الوصول إلى حل مع المغرب يُجَنِّب كرسيه مخاطر الإحتراق. وفي الطرف الآخر، في الرباط، كان الحسن الثاني في وضع لا يقل صعوبة عن وضع معمر القذافي إن لم يزد عنه صعوبة، فالدعم الذي يقدمه القذافي للبوليساريو جعل منها حركة مقاتلة حقيقية، أرهقت الجيش المغربي، وأربكت الإقتصاد الفقير، إضافة إلى الغضب الشعبي المتزايد المطالب بالحرية، وحقوق الإنسان، ومواجهة البطالة، ولم يكن الرأي العام الدولي أقل ضغطاً على العرش المغربي، فيما يتعلق بالحريات وحقوق الإنسان، وإدانة العنف الذي يتعامل به الملك، ووزير داخليته إدريس البصري مع المعارضين. وهكذا أنشد الإثنان . الحسن ومعمر . :

جزى الله الشدائد عني كل خير عرفت بها عدوي من صديقي

يمم الإثنان درب المصالحة، ولكن البداية تنطلق من إطفاء النيران.

كان محمد عثمان الصيد الزوي رئيسا لوزراء ليبيا في العهد الملكي، وعند قيام ثورة 1969 كان خارج ليبيا، فلجأ مباشرة إلى المغرب، وهو كما ذكرت سابقاً له قرابة بمحمد بلقاسم الزوي، وللصيد علاقة وطيدة بالديوان الملكي المغربي، وكان ذلك عاملاً في إختيار القذافي لمحمد الزوي، أن يكون على رأس قوة إطفاء النيران التي تلتهب سياسياً وحربياً بين البلدين. فأرسله عبر ترتيب مسبق مع محمد عثمان الصيد. قام محمد الزوي، برحلات عدة إلى الرباط، قابل خلالها الحسن الثاني، وتمكن . فعلاً . من إطفاء النار، ولم يكتف بذلك، ولكنه نجح في تخليق كيمياء إنسانية بين الحسن الثاني ومعمر القذافي، لم تحقق حالة الود والصداقة، ولكنها أسست لمرحلة تطبيع إنساني في العلاقة بين الزعيمين اللدودين.

ترعرعت علاقة إستثنائية بين محمد الزوي ليس فقط مع الملك الحسن وديوانه، بل مع الكثير من الوزراء وعلى رأسهم الويز الحديدي المرعب، إدريس البصري، الذي

إلتصقت بجلده عباءة وزارة الداخلية، ثم أهداه الملك حقيبة الإعلام أيضا، وإمتدت علاقاته إلى نسيج طويل وعريض في الثوب المغربي.

لم يحقق نتائج تذكر في بريطانيا، فهو خلال قرابة خمس سنوات قضاها سفيراً في هذه المملكة الأخرى، لم يبق على أرضها سوى مدة لا تتجاوز في مجموعها الأشهر الخمسة. فهو بحكم طبعه ميالاً إلى المزاج العربي، بل لم يعاشر اللغة الإنجليزية رغم السنوات التي عمل بها مندوباً لليبيا في الأمم المتحدة. فهو إنسان منفتح والمجتمع البريطاني يتسم بالمحافظة، ويفضل محمد الزوي، لعب الورق لساعات طويلة مع أشخاص من عامة الناس، يتبسط معهم في الحديث، وينطلق في تعليقاته بحرية وظرف عند الهزيمة والغلبة في معارك لعبة الورق أو كما نسميها في ليبيا ـ الكارطة ـ وهي تصحيف للكلمة الإيطالية، Carte.

لم يكن طرفاً في عمليات العنف التي شهدتها ليبيا في أحداث مختلفة، حتى وهو يعتلي كرسي وزارة الداخلية والعدل، وكان بطبعه الخيّر ميالاً للمصالحة، ساعده في ذلك روح أهل جنوب ليبيا المتسامحة الطيبة، وتواضعه الجم، وسخاؤه الذي يصل إلى حد السفه. أجاد معمر القذافي ـ توظيف محمد الزوي، وقد شجعه على توطيد العلاقة بين قبيلة الزوية في شرق ليبيا وقرية الزوية في جنوبها، رغم أن هناك من يشكك في وجود علاقة بينهما سوى الإسم، الذي هو عبارة عن تصغير لكلمة ـ الزاوية ـ والمقصود بها مبنى، أو مكان يلتقي فيه مجموعة من أتباع أحد الطرق الصوفية لترتيل الأذكار والأدعية والأناشيد الدينية. وقد ذكر لي العقيد معمر القذافي أنه من شجع على الربط بين ـ الزاويتين ـ دعماً للحمة الوطنية.

وعند وقوفي عند شخصية محمد الزوي، وعلاقتها بأسلوب القذافي في إدارة الأشخاص الذين جمعهم من حوله، إسترجعت ما سبق أن سمعته من عبد المنعم الهوني، عضو مجلس قيادة الثورة السابق، عمّا دار بين الزوي والعقيد القذافي قبل شهور من قيام الثورة بمنزل الهوني، وأظن أن ذلك الهجوم الشفهي الذي شنه الزوي

على القذافي لم يتلاش أبداً من ذاكرة الإثنين. فالزوي يقدم أفعالاً وأقوالاُ لقائده، وكأنه يؤكد له أن ما قاله بمنزل عبد المنعم الهوني، قد مضى، وإبتلعته حقائق ما أنجزته بعد الثورة أيها القائد، وأعتقد أن ذلك اللقاء بقي نبضاً داخلياً لا يهدأ في خلجات محمد الزوي. فكلما إستمع إليه وهو يتحدث عن معمر، أو يقوم بتقديمه ليلقي خطاباً في مناسبة عامة، أو يشارك في برنامج إذاعي يستعيد ذكريات الثورة، أو أيام الخلايا المدنية الأولى قبل قيامها، كل ما إستمع إلى ذلك، إستغرب المبالغة المبالغ فيها، من تمجيد، وترفيع هو أول وأكبر العارفين أن لا حقيقة فيه. إبتدع معمر القذافي تجمعاً أسماه ملتقى الرفاق، يضم جميع الذين عاصروه في مدرسة دَرَسَ بها، أو مكان أقام به، أو أي شخص عرفه قبل أن يصل إلى قيادة ليبيا، وبالطبع كان الزوي في مقدمة هذا التجمع، وأصبح من السنن الثابتة أن يقيم ملتقى الرفاق مهرجانات خطابية حاشدة، كثيرا ما يحضرها القذافي، وتولى الزوي مهمة الخطابة فيها، أو تقديم القائد إذا كان حاضراً، وأبدع الرفيق محمد هذه المهمة الجديدة التي يبدو أنها أهلته ليتبوأ منصة أمين مؤتمر الشعب العام، فكان الطبعة الثانية غير المنقحة من الأمين الأسبق لمؤتمر الشعب العام الدكتور مفتاح الأسطى عمر، إذا طاف بين الشعر والنثر، والجناس، والطباق، في إفتتاحه لجلسات مؤتمر الشعب العام، فكان فعلاً "مفتاح".

وأكاد أجزم بأن حديث محمد الزوي لمعمر القذافي، الملازم، بمنزل عبد المنعم الهوني، قبل قيام الثورة، بقي ناقوس رهبة في داخله يذكره بتلك الواقعة أو الموقعه . الخطيئة . ولم يستطع مطلقاً، إكمال معلقة . التكفير والتوبة . وأكاد أجزم أيضا، أن معمر القذافي لم ينس تلك الواقعة والموقعة، فظلّ يستعمل فزاعة الإيحاء، والغمز، كي يعيد شحن بطارية التكفير، في شعور أو لا شعور الزوي، وهكذا إكتملت الدائرة النفسية بينهما، وإستمرت تشعل إيحاءاتها في صمت، وتعيد إنتاج أثرها في الأقوال بالدرجة الأولى، وبالأفعال في درجات أخرى.

إن علاقة محمد الزوي بمعمر القذافي، هي، حالة دراسة، تستحق تعمق أكثر، خاصة أن معمر القذافي لا ينسى ولا يغفر، ومما يرويه أقاربه عنه، أن والده الفقير، كان يجلس أثناء الإستعمار الإيطالي لليبيا، كان يجلس بين أبناء قبيلته من القذاذفة، وهم يعدّون الشاي، فقام إبن عمه بتوزيع كؤوس الشاي على الجالسين وإستثنى محمد أبو منيار والد معمر لأنه فقير، وكان الرجل الفقير هذا يدير نظراته على الجالسين وهم يحتسون الشاي، وبقيت تلك الواقعة، حسرة مزمنه في داخله، وكان لا يمل من تكرارها أمام الجميع بمن فيهم طفله معمر. ولقد تفنن معمر "القائد" في أخذ الثأر لأبيه، بأن جعل إبن عمه "خميس" وهو إبن ذلك الرجل الذي كان يوزع الشاي منذ أكثر من 4 عقود قبل الثورة، جعله معمر القذافي معد الشاي الدائم له، وينهض أمام الضيوف ليقدم لهم الشاي مبتدئاً به هو.

ويمكن القول، دون تردد، أن معمر القذافي، شخص ممتلء بذاته التي تكدست فيها كل رواسب الماضي، وهي المهماز الذي لا يشيخ، ولا يمسه الوهن، وقد تحدث محمد الزوي ذات مرة عن هذا الجبل من الرواسب الذي تراكم في داخل معمر القذافي، في أحد الأمسيات جلست مع الزوي ومعنا الأخ جمال جرناز سفيرنا السابق في سويسرا، وكنا نناقش خطاباً لمعمر القذافي ألقاه في نفس اليوم، فاض وعيداً وتهديداً لليبيين، تبادلنا الأسئلة والتساؤلات حول أسباب كل هذا العصاب والتشنج والحقد الذي يطفح من فم معمر على الشعب الليبي، فأسهب محمد الزوي في التحليل الذي خلاصته أن هناك مخزوناً أسوداً في داخل هذا الرجل، وذلك مثل قطعة القماش التي تشبعت بمحلول أسود، فكلما مسها ماءُ ساح منها سوادُ غامقُ كثيف. ويبدو أن السيد الزوي كان ينطق بلسان من عاش ويعايش هذا الموروث الذي شبّ وشاب عليه مع الرفيق الأول والأخير.

لقد صدمتُ عندما رأيت محمد الزوي على شاشات التلفزيون الليبي، وهو يكرر ما قاله معمر القذافي، عن شباب ثورة 17 فبراير بأنهم مجموعة من الجرذان

والشراذم. وكبرت الصدمة عندما رأيته يقف فوق كرسي إلى جنب معمر القذافي في الأسبوع الثاني لإنطلاق ثورة فبراير، وهو يهتف . الله ومعمر وليبيا وبس . ثم يغني مع الزمزامات على مجد القائد. قلت في نفسي: "هل هذا هو محمد الزوي الذي عرفته على مدى 4 عقود، وهل هو نفس اللسان الذي كان يقول عن معمر القذافي، أنه لا أمل فيه ولا رجاء؟ ما هذه القوة الساحرة التي يمتلكها الطاغية ليحول الأشخاص إلى أشباح؟!".

كنت أتوقع أن يكون أول المغادرين لهذا النظام، وأول المتخازين لشعبهم الذي إنتفض للحرية، وهو الذي يربط بداية علاقته بمعمر القذافي، بواقعة ظلم في مدرسة سبها في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، عندما ضربه المدرس، ومن ذلك الباب دخل في حركة سرية تعمل لإقامة مجتمع الحرية التي لا يضرب فيه أستاذ طالباً بالعصا. فكيف ينحاز إلى قاتل يضرب شعبه بالطائرات والدبابات والراجمات؟!.

سأل الصحفي طلال سليمان مرة محمد الزوي: كيف إستطاع معمر القذافي أن يحكم ليبيا كل هذه السنوات، وأن يفرض عليها التخلف والجهل رغم كل ما حباها الله بها من خيرات وكان المفروض أن تكون البلد العربي الأفضل في كل شيء، وأصبحت الأسوأ في كل شيء بلا منازع؟! ردّ الزوي بهدوء ساخر: "حكمها معمر وسيطر عليها بنظرية الفئران". وسأله طلال وما هي نظرية الفئران هذه؟. شرح محمد . النظرية . قائلا: "كان لأحد الملوك بنت حسناء، وتدافع لها الخطاب من كل مكان، فإشترط الملك شرطاً عليهم جميعاً وهو، أن يملأ الملك . جوالاً . بالفئران، وعلى كل خاطب أن يسير مسافة محددة دون أن تتمكن الفئران من قرض . الجوال، أو الجراب والخروج منه. فشلوا جميعاً ونجح واحد فقط، ولما سأله الملك، كيف إستطعت أن تمنع الفئران من ثقب الجراب، قال الفائز، كنت أخضّها طول الطريق، فداخت الفئران ووهنت ولم تستطع أن تفعل شيئاً، وهذه نظرية معمر القذافي الثالثة .

وبالتأكيد فإن محمد ما زال ضمن رفاقه في ذلك . الجوال أو الجراب، ونسميها في ليبيا – الشكارة ، قالت لي الصحفية المغربية بديعة الراضي أنها قد زارت ليبيا في شهر مايو 2011 أي بعد تفجر ثورة شباب ليبيا ضد معمر القذافي بثلاثة أشهر، دعاهم محمد الزوي إلى الغذاء بمنزله، حدثهم بإسهاب وبصراحة عن حقيقة مايجري في ليبيا بحكم علاقة الود التي تربطه بهم، قال لهم الزوي، أن معمر قد تجاوز كل الخطوط، تشابه عليه الأمر، ولم يعد قادراً على قراءة ما يجري، لم يقبل الليبيون البقاء تحت سلطته، التي يعمل لتوريثها لأولاده. سألوه: ولماذا تبقى أنت معه مادمت مقتنعاً بعبثية سياسته؟ قال أنه يخاف على أقاربه، لأنه يعرف أن معمر لا يرحم. أضافت بديعة أنه تحدث عني بكل إيجابية.

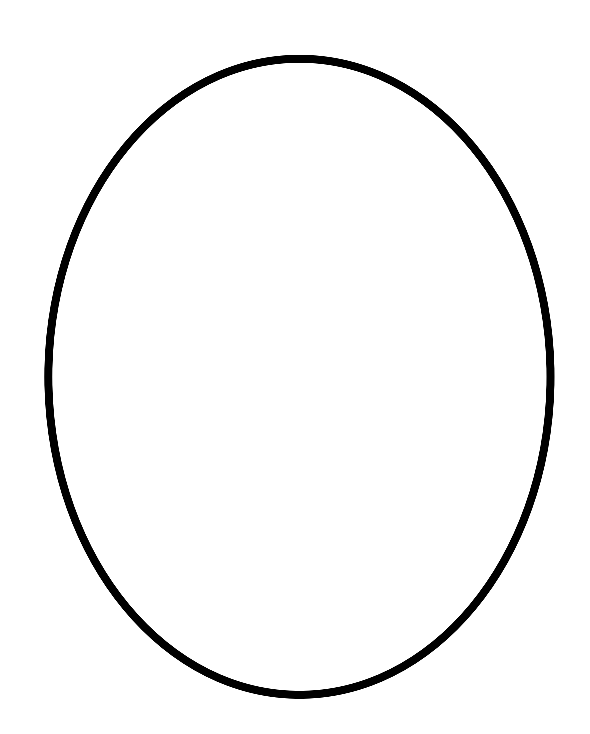
سافر الزوي أكثر من مرة إلى خارج ليبيا أثناء ثورة فبراير، وجهتُ له أكثر من نداء ليترك معمر القذافي وجيش القتلة الذي يصطف معه لكنه لم يسمع. إعتقد محمد الزوي، أن رفيقه معمر سينتصر على الشعب الليبي، لقد إتصل بي في نيويورك، نصحني أن لا أتخذ موقفاً ضد القذافي، قال لي أن دمه أخضر وسيبقى مع القائد إلى الأبد.

بعد تحرير طرابلس، أقتيد إلى المعتقل، قابله هناك الصحفي الليبي عبدالسلام أبوزعكوك، وهو ناشط أيضاً في مجال حقوق الانسان، طلب منه الزوي أن يساعده على الاتصال بي.

هناك حبال سرية يربطها الديكتاتور في رقاب أتباعه، وهم أول ضحاياه، يرش في عيونهم داء الظلام، وينفث فيهم ترياق الغيبوبة، التي لا يفيقون منها أبداً.

أتساءل مراراً، ماذا يقول محمد الزوي اليوم لنفسه؟

د. البغـــدادي المحمـــودي



د. البغدادي علي المحمودي

هو أحد أشخاص المشهد حول القذافي، له لونه المتميز وسط اللوحة المليئة بالألوان، إلتحق بالدائرة متأخراً، لكنه بقدرات متعددة تمكن أن ينتزع مساحة حسده الكثيرون عليها، وفرض نفسه رقماً رغم قصر قامته، وصغر حجمه، وقلة ثقافته.

ولد في مطلع خمسينات القرن الماضي، ببلدة الجميل غرب ليبيا، من قبيلة "النوايل" التي لها إمتداد كبير في تونس.

إلتقينا أيام الدراسة الجامعية بمصر، حيث درس الطب البشري بجامعة القاهرة، لم تربطنا هناك أي علاقة، رأيته مرات محدودة بنادي الطلبة الليبيين بالدقي، رغم أن علاقات متنوعة كانت لي مع عدد من زملائه، وبعض أصدقائه. لم يكن له نشاط سياسي، أو إجتماعي بين الطلاب يعطيه ملامحاً تظهره وسط آلاف الطلاب الليبيين الذين كان تمتلىء بهم الجامعات المصرية آنذاك. وقد عرفت الكثير عن أسلوب حياته ودائرة علاقاته بمصر، عرفتها مؤخراً أثناء عملنا معاً في أمانة مؤتمر الشعب العام، أو في اللجنة الشعبية العامة. كنا ونحن نقضي أياماً في مدينة سرت في شبه إقامة جبرية نجتر الأحاديث عن الماضي، ونسترجع الكبائر والصغائر من أيام الصبا، وتختلط الروايات بالتعليقات والخيال أيضا.

د. البغدادي، من عائلة ميسورة الحال، تمتلك منذ زمن بعيد قطعاناً من الإبل والأغنام، تجد لها المرعى في منطقة الحمادة وسط غرب ليبيا الجنوبي، وداخل الحدود التونسية إذا جاء الجفاف على مناطق الرعي الليبية. عمل مع والده، ومن بعد أخيه أحمد في مجال المقاولات، والعمل مع شركات النفط، وقبل الثورة شغل أخوه أحمد كرسياً في مجلس النواب الليبي. عُرِفت عائلتهم بالكرم، ومد يد المساعدة

للمحتاجين وخاصة لأفراد قبيلتهم. ومن القيم القديمة شبه الراسخة بين أغلب القبائل الليبية، العلاقة مع الحاكم، فلكي تكتمل هيبة أي رمز من رموز القبيلة، لا بدّ أن تكون له روابط عضوية قوية مع الحكومة، ولا يستطيع شيخ القبيلة، أن يمتشق عصاة الهيبة، ما لم تكن له وشيجة بارزة مع الدولة يراها القريب والبعيد، ويحتمي بها أفراد القبيلة عند الحاجة.

يحمل "البغدادي" كما يحمل إخوته وأبناء عمومته لقب "المحمودي"، الذي حمله أحد رموز المقاومة الليبية للتسلط التركي، وهو "غومة المحمودي"، الذي قضى جل عمره مصادماً للغطرسة التركية التي لا تتوقف عند حد في فرض الأتاوات على الليبيين، ولم يكن غومة وحدة من شقّ عصا الطاعة على العثمانيين، بل هناك زعماء وقبائل أخرى شاركته في ذلك. كان الزعماء القبليون يرون في تقديم "العشر" وهو الزكاة أو الضريبة للحكومة التركية إهانة لا يقبلها إلاّ الضعيف الخاضع، ويقبلون بالقتال والتضحية، والرحيل من مكان إلى آخر مع أسرهم وقبيلتهم على أن يرضخوا للأوامر التركية. تحول غومة إلى بطل أسطوري بين الليبيين، وقد خصص الأتراك جائزة كبيرة بمقاييس ذلك الوقت لمن يقتل غومة المحمودي، حتى أصبح الليبيون يقولون على الشخص الذي يرى في نفسه أنه مهم "كأنه جاب رأس غومة". عرف المحاميد الذي تزعمهم غومة بالأنفة، والكرم والشجاعة، والفروسية، لم يمارسوا قطع الطريق أو غزو القبائل الأخرى للإستيلاء على إبلهم وأغنامهم، بل عُرِفَت هذه القبيلة بأنها تهرع إلى من يستغيث بها، وتدفع عنه العدوان، ولا تقبل حتى دعوة هذا المستغيث لعشاء أو غذاء بعد دحر العدو الذي هاجمه. وأصبحت صفة المحمودي تطلق على كل إنسان عفيف شهم، يسرع لمساعدة ضعيف.

كان د. البغدادي على المحمودي "النايلي"، إذا سئل عن علاقته بالمحاميد بحكم لقبه . المحمودي . يكتفي بإبتسامة مخادعة، لا تدعي ذلك الشرف ولا تنفيه. ولقد

كثرت الأقوال حوله وحول عائلته بين مادح وقادح، ففي المنطقة التي تقطن فيها قبيلته، هناك قبائل أخرى، وهناك . الأمازيغ . أو البربر كما يطلق عليهم الليبيون يعيشون بمحاذاتهم في مدينة "زواره"، والبربر يطلقون على القبائل العربية القريبه منهم لفظ "العربان". وهم يستعملونها من باب الإزدراء، بل أن المرأة البربرية لا تغطي وجهها عندما يقابلها عربياً، أو أعرابياً، أو عبداً من باب النظرة الدونية. مثلما يطلق المصريون على البدو . العرب ..

وقد شهدت تلك المنطقة، في مرات عديدة، مصادمات بين القبائل العربية والبربر، أما بسبب الخلاف على الأرض، أو لأسباب سياسية، ولهذا كانت القبائل العربية في تلك المنطقة تتحالف لمواجهة الهيمنة البربرية، رغم أن تلك القبائل كثيراً ما تشهد مواجهات فيما بينها، بل قد تحدث مواجهات داخل القبيلة الواحدة. هذا الصدام المتوقع، والذي يلوح في الأفق حتى في حالات الوئام بين القبائل، يجعل الإرتباط بالحاكم هو طوق النجاة المضمون في جميع الحالات، ويكون الإستقواء بالدولة، رادعاً، كثيراً ما يمنع الآخر من المساس بهذا المستقوي. كما قلت أعطتنا الإقامة في سرت وقتا للحديث، وإسترجاع الماضي، وكذلك الإستعراض اليومي لمجريات الأحداث السياسية في ليبيا وخارجها، وقراءة ما نراه، أو نسمعه من أفعال معمر القذافي وأولاده والمقربين منه، وكذلك ما يأتيه بعض الزملاء من أعضاء أمانة مؤتمر الشعب العام، وأمناء اللجان الشعبية "الوزراء" ومسؤولي الأجهزة الحكومية، ورجال الأعمال، وكذلك ضباط الجيش وغيرهم.

بعد المعارضة التي أبداها بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، لممارسات القذافي الفردية، في مطلع 1973، وتأييد عدد كبير من الضباط الأحرار لهؤلاء الأعضاء، بدأ يخطط "لإضعاف" مجلس قيادة الثورة، ونجح في ذلك إلى درجة لم يكن يتوقعها، فقد أعلن الثورة الشعبية والنقاط الخمس في . زواره . وحرّض "الجماهير" للزحف على كل المواقع والمصالح والإدارات، فخلط الأوراق وأربك الجميع، ولكن أعضاء المجلس

ومعهم عدد متزايد من الضباط الأحرار، جمعوا إرادتهم، وكانت سنة 1974، سنة إعادة تأهيل أنفسهم، وكان الصدام بين الرئيس المصري الراحل، أنور السادات والعقيد معمر القذافي، ناقوساً محفزاً لهم للعمل علنيا على الحد من إنفراد القذافي بإتخاذ القرار، فكان إجتماع نادي الضباط سنة 1975، الذي واجهوا فيه القذافي، وأبلغوه بقرارهم بحل مجلس قيادة الثورة، وتنظيم الضباط الأحرار، وإجراء إنتخابات رئاسية، وتأسيس الدولة المدنية. شرع القذافي يعمل بقوة في الإتجاه الآخر، وإستطاع أن يرتب أمره بالتعاون مع بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعض الضباط، وإنقلب على الجميع فيما أسماه بمؤامرة مايو 1975، وبضربة واحدة، تمكن العقيد من القضاء على المجلس والتنظيم، وإعتقل معارضيه جميعاً. كانت سنة 1975، سنة حاسمة وفاصلة في مصير ليبيا، فبعد القضاء نهائياً على المجلس والتنظيم قرر إعادة بناء كل شيء في البلاد، أو لنقل تفكيك كل شيء فيها.

دولة بلا عاصمة

وضـع معمـر القـذافي إسـتراتيجية محكمـة، ومفصـلة، لتفكيـك الدولـة، وإلغـاء هياكلها، وإقصاء رجالها، إما إبعاد البعض، أو تشييئهم، أي تحويلهم إلى أشياء، أو أشباح، تفكيك الجيش، والأمن، وتشخيص السلطة التي توجت في مارس 1977 بإعلان ما سمي "بسلطة الشعب" *(سنناقش تفاصيل ذلك لاحقا)*.

نعود الى العاصمة، وكانت إحدى المحطات الهامة، في إستراتيجية معمر الحاسمة. راجع بدقة وهدوء وتوسع، العوامل التي ساعدته على الإستيلاء على السلطة بسرعة في سبتمبر 1969، وبالطبع كان على رأس تلك العوامل، وجود السلطة المركزية للدولة ورجالها في طرابلس، وقيادة للجيش والشرطة، والوزارات، وبقية الأجسام الإدارية الهامة، فقرر العمل على إلغاء العاصمة، وتشتيت مراكز المسؤولية، وتفتقت قريحته على بناء مدينة إدارية وسكنية في سرت مسقط رأسه، ومركز قبيلته، وتقع في وسط ليبيا، فهي على مسافة واحدة تقريباً من بنغازي عاصمة شرق ليبيا ومن سبها عاصمة الجنوب ومن طرابلس العاصمة التاريخية للبلاد.

أنفق القذافي مليارات الدولارات، لبناء مجمع إداري ضخم فخم، نفذته الشركات الإيطالية، يضمّ قاعة فخمة ضخمة للإجتماعات، فيها يعقد مؤتمر الشعب العام الذي يضم مئات الأعضاء، وكذلك القمم الأفريقية، والعربية والدولية، وكذلك مباني لأمانات اللجان الشعبية العامة، أي الوزارات. وشيدت مباني أخرى للمصارف والإدارات وغيرها. ومركباً سكنياً للأمناء به فيلاّت ونادي.

بعد إعادتي من إيطاليا كسفير سنة 1994 بقيت بمنزلي دون عمل إلى بداية 1999، حيث عينت أميناً للشؤون الخارجية بأمانة مؤتمر الشعب العام، التي تضم أميناً للمؤتمر وهو الزناتي محمد الزناتي القذافي، وأميناً مساعداً عبد الحميد الصيد الزنتاني، وأميناً للمؤتمرات الشعبية أحمد إبراهيم منصور القذافي، ود. البغدادي على المحمودي أميناً لشؤون اللجان الشعبية، ونورا رمضان أبو سفريته لشؤون المرأة، وعبدالله إدريس أميناً لشؤون النقابات والإتحادات.

إتصل بي محمد الزوي من سرت أثناء إنعقاد مؤتمر الشعب العام بها، وكان حينئذ أميناً للعدل، بعد أن قضيت أكثر من أربع سنوات بمنزلي بطرابلس، كان الكثير من الأصدقاء ومن معارفي يتساءلون عن سبب بقائي كل هذه المدة بمنزلي دون عمل، وبالطبع فسّر البعض بأن ذلك مرده إلى غضب من القائد، أو كما قال أحد الشيوخ الذي تربطني به علاقة، وكان من زملاء المرحوم والدي في العمل السياسي في العهد الملكي قال: "كان بقريتنا رجل درويش يمتلك أربعة قمصان، ولا يقوم بغسلها أبداً، ويلبس واحداً منها لفترة طويلة، فإذا إمتلأ القميص بالعرق وفاحت رائحته، علقه على الحبل لأيام حتى تزول الرائحة، وعاود وضعه على جسمه، وهكذا يعمل معمر القذافي مع رجاله، وأضاف، أن عبد الرحمن شلقم يبدو أنه تشبّع بكثير من العرق، وإحتاج لكل هذه المدة حتى تزول رائحته وبقي على الحبل أكثر من أربع سنوات".

طلب مني الحضور إلى قاعة إنعقاد المؤتمر، أثناء الجلسة الختامية، وعند الإستراحة التي سبقت الجلسة، إلتقيت مع د. البغدادي، بحكم توليه أمانة اللجان الشعبية، فحدثني عن خلفية إختياري لهذا الموقع . الشؤون الخارجية بأمانة مؤتمر الشعب العام . أوحى لي بأنه هو شخصياً من إقترح إسمي، وردّ ذلك للأيام التي جمعتنا في القاهرة، وحديث أحد الأصدقاء المشتركين بيننا عني. ولم يكن لما قاله

أي علاقة بالحقيقة، فالمرحوم محمد المجذوب القذافي، منسق مكتب اللجان الثورية حينئذ هو الذي رشحني لذلك الموقع.

بدأت عملي بالأمانة مباشرة، وحضرت أول إجتماعاتها برئاسة الزناتي محمد الزناتي القذافي، وبحضور جميع أعضائها، كان هذا الإجتماع أول صدمة لي، فقد بادر أحمد إبراهيم القذافي بكيل الشتائم والتهم للزناتي، واصفاً إياه بالفاسد، والراشي، والجاهل، حاول الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني، وهو رجل متدين وهادئ ومتحدث لبق، خفيف الظل، ورجل مصالحة، حاول تهدئة الموقف، وإكتفى البقية بالصمت والإندهاش. أقسم الزناتي وهو يغادر مكان الإجتماع . بالطلاق . بأنه لن يعود أبداً إلى العمل بالأمانة، وسيعتكف في بيته، فلحقه البغدادي المحمودي، محاولاً إقناعه بالتراجع والرجوع إلى الإجتماع، فردّ الزناتي غاضباً بقوله: " هل تريدني أن أطلق زوجتي العجوز؟!". صرخ أحمد إبراهيم: "دعه يذهب، فهو كذاب، وستجده غداً، هنا، قبلي وقبلك". وفعلاً هذا ما حدث، ففي اليوم التالي كان الزناتي أول الحاضرين. غادرت مقر الأمانة مع د. البغدادي، الذي طلب من سائقه أن يستقل سيارة أخرى، وقام هو بقيادة السيارة، حتى نكون لوحدنا ويأخذ راحته في الحديث عمّا جرى في ذاك الإجتماع الإستهلالي بالنسبة لي. قال البغدادي ونحن في طريقنا إلى مقر إقامتنا: "إن ما شهدته اليوم شيء بسيط . فالشيخ . يقصد الزناتي هو قذافي، أي من قبيلة القذاذفة، ولكنه من بيت . أولاد عمر . أي ليس من نفس بيت معمر القذافي، في حين أن أحمد إبراهيم هو قحصي، أي من نفس بيت معمر القذافي. فهو أقوى من الشيخ، وهذا هو سبب الحساسية بين الإثنين، إضافة إلى أن أحمد إبراهيم يعتبر نفسه من الثوريين، ويعتبر الشيخ رجعياً. وتحدث البغدادي مطولاً عن التركيبة الإجتماعية داخل قبيلة القذاذفة، وتداعياتها السياسية، وكذلك صراعهم على الغنائم المالية، وبقية الإمتيازات مثل الصراع على الوظائف والإقتراب من القائد.

البغدادي، القذافي، المقرحي، التونسي

يتنذر الليبيون كثيراً على البغدادي المحمودي، خاصة بعد توليه منصب . أمين اللجنة الشعبية العامة . أي رئيس الوزراء، فيقولون أن البغدادي هو "قذافي" صباحاً أي ينتمي إلى قبيلة القذاذفة، ومقرحي ظهراً أي ينتمي إلى قبيلة "المقارحة"، وتونسي ليلاً أي يعود إلى جذوره أو إمتداده الإجتماعي في تونس.. ولكل مفردة من تلك المفرادات الثلاث حكاية ورواية. فقد إستعمل معمر القذافي العامل القبلي إبتداء من منتصف السبعينات إستعمالاً مدروساً ومبرمجاً وهو ينسج الحبال التي سيجرّ بها مركب السلطة الذي لا يركب فيه أحد سواه، وكلف إثنين من أفراد قبيلته بذلك، هما العقيد خليفة احنيش القذافي، وعمر إشكال القذافي. ولعب معمر على التاريخ والأماكن والأسماء في ضمّ قبائل من مختلف أنحاء ليبيا إلى قبيلته، وتسابق الكثيرون في الشرق والغرب والجنوب للإنضمام إلى قبيلة "القذاذفة"، طمعاً في السلطة والثروة. وكان معمر يشجع ذلك ويستقبل وجوه القبائل التي تقدم له الوثائق التاريخية إثباتاً لإئتمائهم لقبيلة القذاذفة.

كان أحد القذاذفة القدامى يحمل إسم "بن نايل"، وهذا الإسم كان الثقب الذي دخل منه القذاذفة إلى جسم قبيلة "النوايل" التي ينتمي إليها البغدادي المحمودي "النايلي". وأُعتُبر برهاناً لا يقبل التشكيك في وحدة أصل القبيلتين. وبترتيب من البغدادي وإخوته قام وفد من قبيلة القذاذفة بمنطقتي سرت وسبها بزيارة قبيلة النوايل في الجميل لإعلان الوحدة القبلية العتيدة، وكان هذا الحدث مدعاة لسخرية أحد الشعراء الشعبيين من قبيلة النوايل وهو أحمد النويري الذي قال بهذه المناسبة: "خوتي دارو خوت جدد.. الله واحد.. تلاقو ما حد عرف حد". أي أن إخوته من قبيلة . النوايل . وجدوا إخوة جدد، حفظهم الله من الحسد، وعندما إلتقى الجمعان، لم يتعرف أحد على الآخر. طبعاً، كانت السلطة والمال، في يد قبيلة القذاذفة هما اللتان تجعلان الآخرين يهفون نحوهما، كما يهفو الفَرَاش لضوء النار. تقاطر رجال قبيلة

القذاذفة على آل المحمودي، للحصول، على الإبل والغنم كهدايا خاصة في مناسبات الأعياد والأفراح، وأهدى البغدادي المحمودي وأخوه أحمد قطعاناً من الإبل إلى نجوع معمر القذافي، ومراعيه ومحمياته، ويتفاخر البغدادي بأنه هو من أهدى النوق النادرة للقائد وبلا حدود.

البغدادي ـ المقرحي:

قبيلة المقارحة، تقطن منطقة الشاطئ بالجنوب الليبي، ولها بطن بوسط ليبيا، بمنطقة تسمى الحمادة، حيث توجد مراعي الإبل الواسعة، من أبرز رجالها الرائد عبد السلام جلود الذي كان يعتبر الرجل الثاني في مرحلة من مراحل حكم معمر القذافي، ثم برز من أبنائها عبدالله السنوسي الذي أصبح عديلاً للقذافي ويده الأمنية الدموية الحديدية، إضافة إلى عدد من الضباط يتولون قيادة بعض القطاعات الأمينة في الجيش الليبي، وعند تأميم المؤسسات الإقتصادية فُرض بعض أبنائها على رأس هذه المؤسسات. وقد لعب مركز الرائد عبد السلام جلود والوضع الأمني والعسكري والمصاهرة لعبدالله السنوسي لعب دوراً هاماً في فعالية قبيلة المقارحة في الحياة السياسية والإقتصادية بليبيا، رغم القلة العددية لهذه القبيلة، مقارنة بالقبائل الليبية الأخرى.

النسيج الإجتماعي الحقيقي، والإصطناعي، شكل ركيزة من ركائز البيئة السياسية التي إبتكرها العقيد القذافي، ونجح في إستخدامها أيما نجاح، ولأسباب سنوردها فيما بعد، قرر د. البغدادي المحمودي وإخوته أن يكونوا في صلب هذا النسيج، بل أن يشاركوا في غزل خيوطه. فبعدما أنجزوا الوصل القبلي مع القذاذفة، وجدوا أنفسهم في خضم تنافر خفي ولكن مؤثر مع الطرف الآخر الذي يتقاسم النفوذ السياسي والمالي مع قبيلتهم الجديدة، أي مع قبيلة ـ المقارحة ـ التي ينتمي إليها كل من عبد السلام جلود وعبدالله السنوسي. وهنا يعود الإسم السحري التاريخي "بن نايل" إلى الفعل. ولكل ـ نايله ـ ففي قبيلة المقارحة أيضا يوجد "بن نايل"، فلماذا لا يستثمره البغدادي المحمودي النايلي؟ بدأت الإتصالات بين القبيلتين عن طريق المشائخ الذين يحفظون أسماء الأجداد، والوديان التي كانوا يرعون فيها أغنامهم، ويسترجعون أيام المعارك والغزو، ودوافع الإقتراب والإبتعاد، والسمات التي توضع على جنبات الإبل لتدل على إمتلاكها من هذه القبيلة أو تلك. كل هذه اللبنات

التاريخية كافية أن تحول قبيلتين، في جلسة واسعة وطويلة، يعقدها كبار القوم . إلى قبيلة واحدة. وفعلاً هذا ما حدث وأدخل القبيلتين في جوف إجتماعي واحد، ولكن تحت إسم قبيلة . المقارحة . مثلما إندمجت قبيلة النوايل من قبل في قبيلة القذاذفة. وهذا ليس من باب النفاق أو المصلحة أو الإنتهازية . لا . فالوحدة الإندماجية من المستحبات، سواء كانت على مستوى الدول، أو على مستوى القبائل. وقد إستفاد الطرفان من هذا الإندماج، حيث إرتفع البغدادي في سلم الوظائف، وإرتفعت أعمال أخيه أحمد المحمودي التجارية ودوره الإجتماعي، وفي المقابل شرعت الأبواب لأبناء قبيلة المقارحة في الإدارة والأعمال التجارية، وطالتهم الإمتيازات، وتشابكت مصالح الطرفين. بعد ترأس البغدادي للوزارة، ووضع خطة كبيرة للمشروعات الجديدة، وتأسيس صناديق الإستثمار بالمليارات، وتحويل جزء كبير منها إلى بنوك ومحافظ إستثمارية في الخارج، تحت الإشراف المباشر، والتوجيه شبه اليومي لسيف الإسلام معمر القذافي، بعد ذلك أصبح نفوذ البغدادي المحمودي طاغياً، وزاد التدافع العائلي والقبلي حوله، وزاد الصراع من حوله، إلى أن وصل إلى درجة المواجهة والصراع.

البغدادي، التونسي

تكاثرت الصفات والإنتماءات على الدكتور البغدادي، مثلما تكاثرت عليه الصلاحيات والأموال، وأصبح له إمتداد في الصفة والإنتماء إلى خارج الوطن، فهو محمودي، نايلي، قذافي، مقرحي، وايضا تونسي، عرفنا منبع التقذيف،والمقرحة، فكيف التونسة؟! يقول البعض أن عائلته من العائدين، والعائدون أطلقها الليبيون على أولئك الذي هاجروا من البلاد إبّان مرحلة الإستعمار الإيطالي لها، ذهبوا إلى تونس، ومصر، وتشاد والنيجر وغيرها من البلدان، ثم عاد هؤلاء بعد الإستقلال، وبالتحديد بعد تدفق النفط، ومعه تدفق الأموال، وإطلالة فجر الرخاء على البلاد. وقد إكتسبت كلمة . العائدين . بعداً إجتماعياً سلبياً، وإستنكفها من أُلحقت بهم، وإعتبروها نقيضة بل شتيمة. بمعنى أن هؤلاء قد تركوا البلاد عندما كانت تعاني محنة الإحتلال، وعادوا إليها بعد تدفق الأموال. وهناك من تردد في مصاهرة هؤلاء العائدين، أو الإنتساب إليهم. وأنا لا أستطيع أن أجزم هنا إذا ما كان البغدادي وعائلته هم من زمرة أولئك العائدين أم لا، ولكن صفة "التونسي"، قد زفت إليه ربما بسبب علاقاته الواسعة بتونس بحكم الجوار أو بحكم الإستثمارات الكبيرة التي يمتلكها في تونس، وكذلك وجود عدد كبير من أفراد قبيلته بتونس بسبب التاريخ والجغرافيا، ولهجته الأقرب إلى اللهجة التونسية مثل بقية الليبيين الذين يقطنون الحدود مع تونس. وكذلك إستخدامه للعديد من المساعدين، والعاملين، بمكتبه من العناصر التي عادت أو عاد أهلها من المهجر التونسي. أما لماذا، أختير له الليل، ليلبس فيه العباءة التونسية فسنأتي عليه في سطور قادمة.

مواقيت البغدادي الإجتماعية

قلت، أن الليبيين يقولون: "أن البغدادي المحمودي، قذافي صباحاً، مقرحي ظهراً، تونسي ليلاً". فما علاقة الصفات هذه بتلك التوقيتات، أو المواقيت؟.

فهو **(قذافي صباحاً)** لأنه عندما يأتي إلى مكتبه، لمباشرة عمله في الصباح، فإنه يلبس العباءة القبلية القذافية، لأنه يبدأ في تلقي التوجيهات من مكتب القذافي، ويقضي يومه في تنفيذها. ولا ينقطع خيط الإتصالات التي تنقل توجيهات القائد عبر أحمد رمضان سكرتير القائد للشؤون الخاصة جداً، أو بشير صالح مدير قلم القائد. لا شك أن تلك التوجيهات تفيض بالأوامر الصارمة التي لا تخلو في أغلب الأحيان من الإنفعال والغضب، وغياب المنطق، ويكون البغدادي إزاءها بين مطرقة القائد الذي لا مناص من تنفيذ أوامره مهما كانت منطقيتها، أو تناقضها مع المصالح العامة للبلاد، أو تأثيرها على علاقة ليبيا مع العالم الخارجي، وسندان الأمناء . الوزراء . الذين سيناقشون أو يجادلون حول ما سيترتب على تنفيذ هذه التوجيهات من ردود سلبية، أو إضرار بمصالح البلاد أو ضرورة إيجاد التغطية المالية التي تتطلبها تلك الأوامر.. هنا لا يجد البغدادي وفي كثير من الأحيان سوى طلب مقابلة القائد، ومراجعة تلك التوجيهات من أجل تخفيفها أو تعديلها، وإذا إرتفع سقف الأمل، التراجع عنها، وسلاح القرابة واللحمة القبلية، لا مناص من إستحضاره للخروج بأقل الأضرار في مثل هذه الجولات.

هناك جبهة أخرى فتحت أمام البغدادي، وهي جبهة أبناء القائد، وعلى رأسهم الدكتور المعتصم، وسيجد البغدادي نفسه مضطراً لرفع شارة . العم . أمامهم علَّ تلك الشارة تقرع ناقوس صلة الرحم في أذهان أو آذان هؤلاء الأبناء فيخفضون من إستئسادهم عليه وإبتزازه.

(مقرحي ظهراً)

التوقيت الإجتماعي الثاني للبغدادي، هو التوقيت المقرحي ويبدأ في نهاية الدوام الرسمي، حيث يأتي إلى مكتبه العقيد عبدالله السنوسي، وهي تلك الرتبة التي كان يحملها عند مغادرتي الأخيرة لطرابلس، ولا أعلم بالضبط الرتبة التي وصل إليها الآن، فقد رفع القذافي جميع الضباط في ليبيا بعد مواجهته الدموية للثوار الشباب، وأصبح الذين يحملون رتبة لواء وفريق أكثر من أعداد شرطة المرور. يأتي عبدالله السنوسي إلى مكتب البغدادي، ويمتطيان نفس السيارة وكثيراً ما يكون السائق هو عبد الله. وفي السيارة تستعاد الحالة القبلية المقرحية، ويتمّ إستعراض مجريات الأمور السياسية والأمنية. يجري الحديث عن مزاج القائد ومآخذه على البغدادي، ويقدم عبد الله السنوسي المقرحي للبغدادي المحمودي المقرحي . الآن . قراءة في آخر المستجدات التي تتفاعل في الحلقة الضيقة حول القائد، وأسرار الدوائر العسكرية والأمنية والمالية، وتوجهات سيف الإسلام معمر القذافي، وتقييم آدائه، وعبدالله السنوسي بالنسبة للبغدادي هو النافذة السحرية التي يطل من خلالها على رضاء القائد عليه، والمسافة التي يتخذها سيف الإسلام منه. فعبد الله السنوسي هو عين سيف وأذنه وكثيراً ما يكون يده أيضاً. وتكون الرحلة اليومية بالسيارة، فرصة للإثنين، لا يمكن التجسس عليها . لمراجعة المشروعات التي سيتم التعاقد عليها، والجهات التي ستقوم بتنفيذها، ونصيب عبدالله منها، عبر الشركات التي سيقوم إبنه محمد أو شقيقه حميده بالإتصال بها. وفي المقابل، يبث البغدادي شكواه من تطاول المعتصم، أو تهاون سيف في الدفاع عنه أمام والده، وكذلك شكوى رئيس الوزراء البغدادي من بعض الوزراء أو قادة أجهزة الأمن الذين يوشون به للقائد ويكتبون التقارير "الكيدية" عن عمولاته وثرواته وحساباته في الخارج. طبعاً، وفي اللقاءات العائلية التي تجمع عبدالله مع القائد بحكم المصاهرة، سيجد عبدالله الوقت والمناخ النفسي ليترافع عن رئيس الوزراء المخلص الذي يقود معركة التنمية والتطوير التي ستمتص غضب

الشارع، وترفع شعبية القائد بين جماهيره، وسيقول عبدالله أيضا، أنه يتحدث من خلفية ومعلومات أمينة بحتة، وليس بينه وبين البغدادي ناقة أو جمل أو دولار.

ولا يكتفي البغدادي بحلقة عبدالله السنوسي المقرحية، بل هي أوسع من ذلك، وتشمل دائرة ثانية وثالثة...ألخ. فهناك مقارحة في كتائب الأمن العسكرية، وفي الأمن الخارجي، وفي مواقع إجتماعية مؤثرة مباشرة أو غير مباشرة، وقد إحتاجها البغدادي في أحداث شتى.

لقد تدرج البغدادي المحمودي في مناصب شتى، فهو طبيب تخرج من جامعة القاهرة في أواخر سبعينات القرن الماضي، ثم واصل دراسته في بريطانيا ويوغسلافيا السابقة، وتخصص في أمراض النساء. تولى أمين اللجنة الشعبية للصحة بالنقاط الخمس "زوارة" وقام بمجهودات تذكر لتطوير الخدمات الصحية بتلك المنطقة، ويقال أنه قام بشراء سيارات للصحة من ماله الخاص عندما كانت المنطقة في حاجة ملحة لها، ولم توفر الدولة السيولة المالية لشراء هذه السيارات. وهناك من يكذب ذلك ويذهب ليقول أنه كان يتقاضى عمولات على كل ما يأتي إلى إدارة الصحة، حتى في دواء السكري. وللأمانة، فمن الصعب التحقق من ذلك، خاصة أنه بحكم المواقع التي إرتقاها، كان له أعداء ربما أكثر من الأصدقاء.

تولى البغدادي بعد ذلك وزارة الصحة قبل أن يتحول إلى العمل السياسي الشعبي، أي أمين شؤون اللجان الشعبية بأمانة مؤتمر الشعب العام، وهناك تمدد في المفاصل الإدارية والمالية للدولة، وكان بيته مفتوحاً للجميع، يقول، ويستمع، ويؤثر، وبوجود صديقه الدكتور محمد بيت المال وزير المالية، أصبح البغدادي هو المانح والمانع، وإستطاع الوصول إلى أحشاء القيادة من خلال أسلوب مبتكر في تغطية الإحتياجات المالية للقائد ولمن حوله من الحاشية والحراس والأولاد وغيرهم.

عين البغدادي بعد ذلك في منصب الأمين العام المساعد للجنة الشعبية العامة، أي نائب رئيس وزراء، وأصبح الرئيس الفعلي من الناحية الإدارية والمالية، وزادت حشود الأعداء من حوله، وتدفع تيار النقد في وجهه، فخلع، وأعيد إلى أمانة مؤتمر الشعب العام، في موقع يدعو إلى الشفقة وهو أمين الموارد البشرية، والتي كانت إسماً بدون مسمى، وقلت له معلقاً بسخرية عندما جرى تعيينه في هذا المنصب: "أن العقيد محمد ولد هيداله رئيس موريتانيا الأسبق، عندما كان يخطط للإنقلاب الذي سياتي به رئيساً للجمهورية الإسلامية الموريتانية، تحدث إلى عدد من الضباط الذين أراد أن يشاركوه في حركته الإنقلابية عارضاً عليهم المناصب التي سيمنحها لكل منهم بعد نجاح الحركة والإستيلاء على الحكم. لكن أحد هؤلاء الضباط إشترط أن يتولى منصب وزير البترول، فأجابه . ولد هيداله . أن ليس لدينا بترول في موريتانيا، فرد عليه الضابط، ألن تعين وزيراً للعدل؟!". قلت للبغدادي لقد وضعت في مكان ليس له . ما صدق . كما يقول أهل المنطق أي في منصب الذي يطلب منه تعبئة الهواء في صناديق، أو من يهش بعصاه على الريح. لقد تأسفت كثيرا بعد هذا لأنني أدركت فيما بعد مدى غضب البغدادي، وإحساسه بالإهانة والخذلان من تعيينه في ذلك المنصب العبثي الذي لا وجود له. وهو في ذلك المنصب الوهمي، ألمّ به مرض فسافر إلى العلاج في الخارج، وكنت لدى القذافي فسألني بصورة مفاجئة: " من يغطي نفقات علاج البغدادي في الخارج؟!". أجبته بأنني لا أعلم، ولكن بالتأكيد هي الدولة، فرد القذافي، لا، هذا غير صحيح، هو لديه الملايين في الخارج، وهناك من يقول أنه في صفقة واحدة، حصل على 40 مليون دولار. فهمت من حديثه أنه يريدني أن أنقل ذلك إلى الدكتور البغدادي، فغضب غضباً شديداً، وبعد عودته إتصل بالقذافي، وعلم أن الذي قال بالعمولة والأربعين مليون هوالرائد عبد السلام جلود . المقرحي .. فتولى الحاج أحمد علي المحمودي شقيق البغدادي بالتواصل مع . المقارحة . معرباً عن إمتعاضه. تحرك أعيان المقارحة بسرعة لوأد تلك التهمة التي ستزيد دون شك تسميم علاقة القائد بالبغدادي وتوسع الجفوة بينهما، فالبغدادي الذي

وضع في كرسي وهمي، وهو أمانة شؤون الموارد البشرية بمؤتمر الشعب العام، وألمّ به المرض أو تمارض لم يكن في حاجة إلى جرعة سم أخرى، ومن يد إبن عمه المقرحي عبد السلام جلود. تحدثت عن هذا الموضوع مطولاً مع البغدادي بعد عودته من العلاج، وقال أنه تمكن من مقابلة القائد، وأكد له عدم صحة ما نسبه إليه عبد السلام جلود، وعن إستعداده للمحاسبة وللمحاكمة، وأن القائد قد طلب منه رفع قضية قذف في الرائد جلود، وقد فكر البغدادي في ذلك، غير أن بعض المقارحة زاروا شقيقه الأكبر الحاج أحمد وهو في حكم والده، وطلبوا منه إقناع البغدادي عدم تصعيد الأمور، وأن كل ما قيل حوله عبارة عن فتنة أرادها القذافي لتخريب النسب القبلي بين المقارحة والنوايل، لكي ينفرد القذاذفة بإنتساب قبيلة "النوايل" إليهم. وهكذا لم يجن البغدادي من إنتسابه إلى القبيلتين اللذوذتين عسلاً فقط، بل جنى السم أيضا على يد كبيريهما، معمر وعبد السلام.

(البغدادي، التونسي ليلاً)

الصفة الثالثة للبغدادي، هي التونسي، وتوقيتها ليلاً، أي أنها صفة تفعل فعلها ليلاً، في الظلام. البغدادي المحمودي وعائلته يمتلكون آلاف القطعان من الإبل والأغنام، تعيش على المراعي على إمتداد الحدود مع تونس، لاحق المطر في زخاته بين ليبيا وتونس، دون خضوع أو مراعاة لخطوط الحدود بين البلدين، ولكن هناك عاملاً آخر لا يخضع لأمطار السماء وإنما يخضع للأسعار على الأرض، فإذا إرتفعت قيمة المواشي في ليبيا، جُلبت من داخل تونس وتمّ بيعها في الأسواق الليبية، والعكس. وقد قبض على أحد إخوة البغدادي أكثر من مرة وأودع السجن في ليبيا بتهمة تهريب المواشي، طبعاً لم يمكث في السجن طويلاً فصلة الرحم قادرة على فتح كل الأبواب بما فيها أبواب السجون، وبغض النظر عن دور الدكتور البغدادي شخصياً في حركة الأنعام بين ليبيا وتونس، فمن المستحيل إغلاق أفواه العاملين عن الإقتراب من إسمه.

وهناك أيضا عن علاقاته الإجتماعية الممتدة بين البلدين، فقبيلة "النوايل" لها وجود في الجنوب التونسي، وخاصة على خط الحدود، وهي تتحرك عابرة لها دون إذن، والكثير من أبناء هذه القبيلة في الشطر التونسي يتوجه إلى عائلة المحمودي في الأفراح والأتراح، في السرّاء والضرّاء، وفي حركتهم هذه يتلفحون برداء الليل، لأنهم لا يستخدمون وثائق السفر، أو لنقل أن الكثيرين منهم لم يعتادوا إستعمالها.

أما إستثمارات عائلة البغدادي في تونس، وأملاكها، فهي تحصيل حاصل، بحكم العلاقة، وبحكم طبيعة النشاط الأساسي الذي توارثته هذه العائلة منذ زمن، ونحن لا نتحدث عن التضخيم الذي لا شك، يذهب له العامة من الناس، التي تجد في المبالغة، إلى درجة لإختلاق الغلاف السكري لرواياتها. ولقد قام البغدادي المحمودي علاقات واسعة مع النسيج الإجتماعي والاقتصادي في تونس، له علاقة بأصهار الرئيس التونسي المخلوع زين العابدين بن علي، يقيم حلقات التواصل المالي في

غياهب الليل، معتمداً على علاقة الإمتداد القبلي، وعندما تحررت ليبيا من طغيان القذافي، هرب البغدادي إلى تونس، قبض عليه في الحدود بتهمة دخول الأراضي التونسية – ليلاً – بدون إجراء قانوني، دفع محاموه بأنه مواطن تونسي، ولا يحتاج دخوله إلى بلاده إلى تأشيرة ، وختم القول.

(لماذا؟)

لماذا جاهد البغدادي، وإخوته لحشد هذا الإمتداد والتداخل القبلي مع القوة الحاكمة في ليبيا منذ 1969؟ يقول البغدادي في ذلك أن إمتداد قبيلته الحقيقي والأصيل هو مع قبيلة . المقارحة . وليس . القذاذفة . وأن هذه القبيلة هي التي سعت إليهم ولم يسع هو وإخوته لها، وذلك ضمن خطة القذاذفة لتوسيع إرتباطاتهم الإجتماعية مع كل النسيج الليبي، وضمن الحملة التي قادها كل من العقيد خليفة حنيش القذافي، الذي تحول إلى نسّابة، يسبح في تاريخ القبائل الليبية، ليضع ما يمكن وضعه منها في شباك قبيلته لدوافع سياسية وأمنية مكشوفة، يساعده في ذلك إبن عمه عمر إشكال القذافي. خليفة حنيش، كان قائدا للكتائب الأمنية، وتولى الدائرة الأولى المكلفة بحماية العقيد معمر القذافي، هو من أوائل الذي إنخرطوا في صفوف الجيش الليبي، وقد يكون من الجنود المائة الأوائل في هذا الجيش، مارس في صغره مهنة الرعي لدى أحد مربّي المواشي من قبيلة ورفلة. إنضم إلى الخلايا العسكرية السرية التي أسسها معمر القذافي للإستيلاء على السلطة، وساهم ليلة الفاتح في الإستيلاء على مواقع حيوية، وترقى في الرتب العسكرية حتى وصل إلى رتبة عقيد، وترأس ضباطاً من خريجي الكلية العسكرية، رغم أنه لم يمر بهذه الكلية، وبقي كما يسمى . ضابط شرف . أي أنه لم يدرس العلوم العسكرية. يَدَّعي معرفة بالتاريخ وبالأدب، ولم يسْلم الشعر منه، فقد ألف بعض الأشعار بالعامّية الليبية، أو ما يسمى بالشعر الشعبي. له من الجرأة ما يجعله يخوض في كل موضوع، بل لا يتردد في مجادلة الوزراء في إختصاصهم عندما يضطرون إلى الجلوس معه إنتظاراً لمقابلة معمر القذافي. يطوف بين القبائل، إما بهدف ضمهم إلى مظلة قبيلته، أو لزرع الفتنة بين هذه القبائل، وقلما سلمت قبيلة في ليبيا من سهامه المسمومة. فمثلاً، قام بالمستحيل في سبيل تأجيج العداوة بين أهل مصراته وأهل بني وليد وهم من قبائل ورفلة، بعد ما سمي بمؤامرة عمر المحيشي سنة 1975، محاولاً إحياء ما وقع بين الطرفين من صدام أثناء الإحتلال الإيطالي لليبيا، فقد هاجم رمضان السويحلي زعيم

مصراته، وأحد قادة المقاومة الليبية، هاجم زعيم ورفلة عبد النبي بالخير في معقله بني وليد، للقضاء على قيادته هناك، ولكن رجال عبد النبي قتلوا رمضان السويحلي، وإنكسرت حملته بالتالي، وفرّ من نجا من رجاله إلى مصراته. طوت السنوات تلك الحادثة التي تركت أثرها سلباً على مسيرة المقاومة الليبية ضد الطليان. لكن عبقرية العقيد خليفة حنيش، جعلته يلاحق حفرياتها بهدف تأجيج جمر الفتنة بين الطرفين.

ومن إبداعات هذا العقيد الأمي قوله: "أنا أستطيع أن أعرف أي شخص شيوعي في ثانية واحدة" ولما سئل كيف لك ذلك؟ قال: "أعرفه من طريقته في المشي". أما الداعية الثاني، للهوية القبلية القذافية فهو عمر إشكال القذافي، رجل بسيط، لم ينل حظاً من العلم، يفضل التيمم على إستعمال الماء، يرى أن إستعمال العطور لا يليق بالرجال أبدا وهو مقصور حصراً على النساء، لكن يده نظيفة، لا تبعد علاقاتها بالمال عن علاقته بالماء والعطور، كل ما يتمناه نظرة رضاء من قائده وإبن عمه معمر. قام بأدوار سياسية من خلال عمله الطويل في أمانة مؤتمر الشعب العام، تسلح بطبيعته البدوية، وتخصص في بذر الفتنة بين الليبيين سواء كقبائل أو مناطق أو أشخاص، تولى تنفيذ سياسة فرِّق تَسُدْ، وقام بدور كبير في المحاولات التي مثلت سياسة ثابتة لنظام القذافي في تخريب العلاقة بين الأمازيغ والعرب في الجبل الغربي، وبين القبائل في شرق ليبيا.

يعاني من مرض الربو، مما أثر على حركته فيما بعد، وتقلص دوره إلى حد الغياب.

إذن قد يكون إنضواء قبيلة النوايل تحت لواء مظلة القذاذفة قبلياً من باب الرضوخ إلى الأمر الواقع، أو كما قيل، مكره أخاك لا بطل. وقد يكون غير ذلك وهذا ما أميل إليه.

قلت في سطور سابقة، أن قبيلة النوايل التي ينتمي إليها البغدادي في تماسى مع منطقة يسكنها البربر وهي زواره، وقد حدثت مناوشات متكررة بين الطرفين، وكان الإرتباط بالحكم يمثل درعاً لقبيلته، وعندما حانت الفرصة لأخيه الحاج أحمد وبإمكانياته المالية، ومساندة قبيلته، خاض غمار الإنتخابات وأصبح عضواً بمجلس النواب في العهد الملكي . وبعد قيام الثور نظر إليه بعين العدو بحكم هذا المنصب الذي شغله ولم تقف الأمور عند هذا الحد، فقد لحقته يد الثورة في ماله بسبب الإجراءات الإشتراكية والإستيلاء على الشركات والممتلكات والأموال الخاصة، وكان له منه الكثير.

وكان د. البغدادي المحمودي يعاني من عقدة قصر القامة، التي أثرت في شخصيته بصورة مباشرة.

في تقديري أن كل تلك العوامل جعلت من السلطة بالنسبة له درعاً يحتمي به، وهرماً يجلس فوقه، وبيئة يجد فيها ذاته، وكانت القبيلة الرافعة التي تضعه على هام ذاك الهرم.

العنصر الثالث هو الثروة، التي شبَّ البغدادي وسطها وساهم في تكوينها سواء بمساعدة والده وهو صغير أو مع شقيقه أحمد وهو يافع.

البغدادي بين أولاد القذافي

قاد معمر القذافي ليبيا منذ إسقاط النظام الملكي في أول شهر سبتمبر 1969 إلى نهاية القرن الماضي بأساليب شتى، فبعد أسبوع من قيام الثورة أعلن عن إسمه ورتبته ووظيفته أي . العقيد معمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة، بعد ذلك أضيف إلى رئاسة مجلس قيادة الثورة، صفة رئيس الوزراء في الفترة القصيرة التي تولى فيها هذا المنصب قبل أن يسلمه إلى الرائد عبد السلام جلود، في هذه المرحلة، كانت هناك مشاركة بنسب مختلفة لبعض الأعضاء في بعض القرارات، وبعد ما سمي بمؤامرة مايو 1975، تمكن معمر من الإنفراد بالقرار رغم بقاء عبد السلام جلود إلى جانبه، ولكن معمر ضاق بالجميع، وكتب كتابه الأخضر، وأعلن الجماهيرية، وأزاح بقايا أعضاء مجلس قيادة الثورة من جميع المناصب التنفيذية، بإستثناء أبو بكر يونس جابر الذي بقي شكلياً على رأس الجيش، الذي تحول إلى الشعب المسلح، وأصبح معمر القذافي قائد ثورة الفاتح العظيم. تداول على اللجنة الشعبية العامة . أي مجلس الوزراء . أكثر من أمين أو رئيس، ولكن ما أصبح يعرف "بالتوجيهات" والمقصود بها تعليمات القائد، والتي تأتي دائما عبر الهاتف، هي من يحدد مسار الأمور، تأقلم الجميع مع ذلك، المسؤولون، ومعهم قطاعات الشعب، ومرت البلد بتجارب شتى في الإدارة والإقتصاد، فأحياناً يرفع شعار . الإرادة شعبية، والإدارة ثورية، ويتمّ ذلك عبر ما عرف بترشيد . التصعيد، أي بإختيار أمناء اللجان الشعبية في القطاعات والإدارات... ألخ. بقي القائد معمر وحده لا منافس له على قمة القرار، وليس أمام أحد سوى السمع والطاعة.

في مطلع القرن، كبر الأولاد، وبدأ أكبرهم سيف الإسلام يقترب من دوائر الإدارة، وبدأت صورته على شاشة الواقع الليبي تكبر مع كبر سنه، شقيقه . محمد . من زوجة والده الأولى فتحية، لم ينافسه على شاشة الواقع، بل أن الكثرة من الليبيين لم تسمع بإسمه إلا فيما بعد. تنقل سيف الإسلام مبكراً بين العواصم الأوروبية، ودخل مختلف

أروقتها متسللاً ثم مقتحماً، ليلاً نهاراً، وكلما دار عدد السنوات الأولى لهذا القرن زادت خطوات سيف نحو دائرة القرار في ليبيا، وطالت جلساته مع والده، الذي رأى في جلوس بشار الأسد على كرسي أبيه، بشارة له ولولده الأثير سيف، وبدأت تكبر في رأس القائد، فكرة التوريث. منذ سنة 2000، سيطرت سياسة العودة إلى المجتمع الدولي على كواليس الدولة، وجاءت أحداث 11 سبتمبر لتهز الدنيا، ولم تستثن بالطبع ليبيا . هناك تسارعت خطوات سيف نحو دنيا السياسة الليبية والدولية.

رفع المهندس سيف الإسلام صوته تدريجياً في حضرة والده القائد، متحدثاً عن ما يشهده العالم من تغيير، وهو الطالب الذي يتنقل بين العواصم الأوروبية دارساً الإقتصاد في فيينا ثم لندن، وجلس مع الليبيين اللاجئين سياسياً أو ثقافياً أو نفسياً في جهات الدنيا الأربع، ورشح بعضهم لتولي مناصب قيادية في الدولة، وساعد آخرين على العودة إلى أرض الوطن، وبدأ يكرر كلمة الإصلاح والتطوير، التي صاغها في عنوان مختصر . ليبيا الغد . وأنشأ لهذا الغد العنوان، دراعا إعلامية، ومؤسسات مالية، وأجساماً للدراسة والتخطيط، ونظم دورات وندوات، وإستدعى خبراء أجانب لوضع الخطط العلمية لذلك الغد الذي شدّ إليه الكثيرين، وخاصة الشباب الذين ضربتهم البطالة ووصلوا إلى حالة اليأس، وإنقسموا أو لنقل إنقسم بعضهم إلى قسمين، من وجد التيار الديني ملجأ ينتظر فيه السعادة في اليوم الآخر، وقسم إندفع إلى تعاطي المخدرات إلتماساً للهروب من اليأس، يجد فيه سعادة اللحظات.

في سنة 2001 رشح سيف الإسلام الدكتور شكري غانم، وزيراً للإقتصاد، وهو من أوائل خريجي الجامعة الليبية، تولى منصب نائب مدير وكالة الأنباء الليبية، ثم درس في أمريكا وحصل على الدكتوراه في الإقتصاد، وعمل بوزارة البترول، وشغل أمين عام الأوبك بالوكالة، ثم أقام بالنمسا، وهناك إلتقى به سيف الإسلام، وجرت بين الإثنين أحاديث وحوارات طويلة وصريحة، شكري غانم، رجل يمتاز بثقافة موسوعية، يجيد الحديث في مواضيع شتى، له إلمام واسع بالثقافة العربية والتراث الإسلامي،

إضافة إلى ثقافته الغربية وإجادته للغة الإنجليزية، حاضر البديهة، لا تنقصه الجرأة، لم يجامل شكري سيف، ولكنه صدمه بالحقيقة، وشرح أمامه الواقع الليبي ودقّ نواقيس الخطر الذي يحدق بليبيا، وقدم رؤية عملية لما يجب أن يصار ويسار إليه. تمّ تعيين شكري في منصب وزير الإقتصاد الذي رشحه له سيف الإسلام.

بدأ شكري خطواته الأولى بخطة لنقل البلاد مما أطلق عليه تفاؤلاً بالإقتصاد الإشتراكي إلى الإقتصاد الرأسمالي، ولكن الرياح كانت تعصف في الإتجاه الآخر، وكان معمر القذافي من بين الأنفاس القوية التي نفخت تلك الرياح. ولكن رغم المقاومة . المتوقعة . التي واجهت شكري غانم في وزارة الإقتصاد، كان يصرّ على الخروج مما أسماه ، إقتصاد الإستجداء . حيث يعتمد الناس على الدولة في كل شيء، ويريدونه بلا مقابل، وذلك من أعراض الإقتصاد الريعي، الذي لا يقوم على الإنتاج، ولكن مما يعتبروه نعمة الله عليه التي تتدفق من بطن أرضهم، أي البترول. كما ألحّ غانم على توحيد سعر صرف الدينار ومراجعة سياسة دعم المواد الإستهلاكية. كان ذلك في حكومة المهندس مبارك الشامخ، الذي بذل جهداً مذكوراً في مراجعة الأداء الإقتصادي.

إرتبط شكري غانم بسيف الإسلام القذافي بعلاقة صداقة وطيدة، وكان جليسه الأثير، يقضيان وقتاً طويلاً معاً كل ليلة، وبحضور طيف من المسؤولين، وكعادته يتحدث شكري في كل القضايا الوطنية بعلمية، وبصراحة إستفزازية.

في سنة 2003 عين شكري رئيسا للوزراء، وعين د. البغدادي مساعداً له، يقول شكري مازحاً: "عندما أصل إلى مقر اللجنة الشعبية العامة . مجلس الوزراء . أقود سيارتي بنفسي وبدون مرافق، أجد أمام باب المجلس عدداً من الشباب، وآخرين أمام المصعد، ولما إستفسرت عن سر وجودهم كل يوم، قيل لي أنهم ينتظرون د. البغدادي. في الواقع كان هو رئيس الوزراء الموازي، ويتصرف في كثير من الأمور دون إذن رئيس الوزراء، بل بدون علمه. إصطدم شكري غانم وهو في موقعه مع

أبناء القذافي، وخاصة الساعدي، الذي إستولى بالقوة على أراض ومباني يملكها مواطنون، وكان يصر على المساهمة في بعض النوادي الرياضية الإيطالية، دون دراسة جدوى حقيقية، وفي كثير من الأحيان يمنى بخسائر مؤكدة لا تحتاج إلى تفسير.

في سنة 2006 عين الدكتور البغدادي رئيساً للوزراء، لقد وجد فيه سيف الإسلام ضالته، فهو شخصية طيعة، عكس شكري العنيد، الذي لا يتردد في رفع صوته أمام القائد فما بالك أمام صديقه سيف، يناقش، بل يجادل، في كثير من الأمور، وإصطدم مرات كثيرة أمام معمر القذافي مع من يسمونهم . بالحرس القديم . وخاصة زعامات اللجان الثورية مثل أحمد إبراهيم القذافي، وعبد القادر البغدادي، ومصطفى الزايدي. معمر القذافي له رأي في العملة الورقية، وكثيراً ما يتحدث عن . المقايضة . وفي الركن الإقتصادي من الكتاب الأخضر . النظرية العالمية الثالثة . قال إن الإنتاج لا بدّ أن يوزع عينياً على الأطراف المشاركة فيه، وهي . العامل . الآلة . ورأس المالي. وكل من هؤلاء الثلاثة يأخذ حصته من الناتج، ليس نقداً، ولكن من المادة المنتجة.

إستقبل معمر القذافي، رئيس وزرائه الدكتور شكري غانم، وكان أحمد إبراهيم القذافي، الذي يعتبر نفسه فيلسوفاً ومنظراً، ويتخذ موقفاً معاديا علنيا من شكري غانم، فهو رجعي، موال للغرب، مضاد للثورة، كان أحمد يجلس إلى جانب إبن عمه معمر القذافي، وكان الحديث حول الإقتصاد "الجماهيري"، تحدث معمر منظراً ومسهباً، شارحاً أفكاره الإقتصادية، وتدخل الفيلسوف أحمد إبراهيم، وقدم الحل المختصر جداً وهو المقايضة، طلب منه شكري أن يفصّل ويفسر هذه . المقايضة . حاول الفيلسوف بجهد وبكلمات مترادفة أو متناقضة أن يجيب. إستمع د. شكري بهدوء، ثم إبتسم وقال له يا أستاذ أحمد: "إن ما قلته له علاقة بكل شيء، إلا بالإقتصاد!! لا بدّ أن نكون عمليين، لنفرض أنك تمتلك جملاً، وليس لديك أي شيء آخر سواه، وتريد أن تشتري قلم رصاص، دعنا نتصور هذه العملية الكبيرة والبسيطة في نفس الوقت،

الخطوة الأولى أن تستأجر سيارة شحن، تذهب بها إلى خارج المدينة حيث مربط الجمل، تؤجر عمّالاً ليضعوا الجمل في سيارة الشحن، ثم تعود بها إلى المدينة حيث المتجر الذي ستشتري منه قلم الرصاص، وتؤجر عمّالاً لإنزال الجمل من السيارة الشاحنة، تدخل إلى المتجر وتقول لصاحبه أنني أريد أن أشتري قلم رصاص، فيقول ذلك أن ثمنه قرشان، فتقول له أن لي جملاً أمام المتجر أريد أن أقايضه بالقلم، وترد لي الفارق في السعر، سيجري جدلاً طويلاً حول ثمن الجمل، سيكون ثمنه دون شك أكثر من ألف دينار، لكن وعلى قاعدة المقايضة، سيكون الفرق عينياً، ويتم الإتفاق على أن يقدم لك عشرين خروفاً، أين سيضع التاجر الجمل، وأين ستضع أنت العشرين خروفاً؟! كان القذافي يتخيل هذا السيناريو الساخر، ويتابعه ضاحكاً، وإكتفى، بتعليق بسيط، قائلا" يا أحمد، ما الذي جعلك تدخل في هذا الجدل مع شخص من كبار علماء الإقتصاد مثل شكري؟!". هكذا كان الفكر الإقتصادي السياسي في الجماهيرية العظمى.

ومن أسباب الخلاف العلني بين أحمد إبراهيم وشكري، ليس فقط تلك الصفات التي كان يطلقها أحمد عليه، ولكن العلاقة الحميمة التي تربط شكري غانم بسيف الإسلام كان الدافع الأكبر لذلك الخلاف.

في مارس 2006 عين الدكتور البغدادي المحمودي رئيسا للوزراء، وكلف د. شكري غانم بإدارة المؤسسة الوطنية للنفط بصلاحيات وزير. ما هي الأسباب لهذا التغيير؟ وكيف قبل سيف الإسلام القذافي أن يتخلى عن صديقه شكري، ومهندس مشروعه الإصلاحي، ومنفذه المأمول؟ ولماذا جيئى بالبغدادي المحمودي، طبيب النساء لمعالجة أمراض ليبيا الإدارية والإقتصادية؟ فالمنطق يقول أن شكري غانم وفقاً للتأهيل هو الأفضل، يحمل دكتوراه في إقتصاديات النفط، وعمل وكيلاً لوزارته بليبيا، كذلك شغل مناصب سامية في منظمة الأوبك، وله أيضاً خلفية أكاديمية في الإقتصاد. وليبيا تعتمد بشكل كامل على البترول في إقتصادها، وهو مؤمن بالنشاط

الإقتصادي الخاص، ويعارض . وله في ذلك دفوعات علمية وعملية . يعارض أساليب الفوضى الإقتصادية التي دمرت ليبيا تحت شعارات إشتراكية. أعتقد أن دوافع إستبدال شكري بالبغدادي، كانت لأسباب قذّافية محضة، بداية من . القائد معمر القذافي . وهبوطاً إلى أولاده، وإتساعاً إلى أقربائه، وأبناء قبيلته، والدائرة الفاعلة المحيطة به سواء من العسكريين، أو من زعامات اللجان الثورية أو ما يسمى بالحرس القديم. هل كان هذا التغيير كرهاً في شكري أم حباً في البغدادي؟ لقد سمعت أقوالاً يصعب تصديقها، لكنني سأذكرها، لأن في ليبيا، كل شيء يمكن أن ينطبق عليه، صدق أو لا تصدق.

في سنة 2006، أكملت ليبيا تطبيع علاقاتها مع الدول الأجنبية وخاصة أمريكا وأوروبا، وبدأ العمل لخطة تنمية شاملة وضخمة في جميع القطاعات بهدف إعادة تأهيل البنية التحتية التي إنهارت بسبب سنوات الحصار الطويلة، بدأ الحديث عن بناء سكة الحديد من شرق ليبيا إلى غربها، ومن شمالها إلى أقصى جنوبها، وكذلك الطرق البرية المعبدة، والمطارات، والجامعات ومئات الآلاف من الوحدات السكنية، والمستشفيات، وبناء أسطول جديد من الطائرات وغيرها من المشروعات الفرعونية، إهتزت البلاد كلها على إيقاع هذه الخطة غير المسبوقة، وفي الواقع كان هناك إهتزازان: <u>**الأول:**</u> إهتزاز الليبيين . أملاً . في إعادة إنتاج البلاد، والشروع في طريق الإعمار بما يحقق حل المشاكل المزمنة التي طالت كل شرائح المجتمع وبدون إستثناء، وعلى رأسها مشكلة البطالة التي وصلت إلى (36%) من عدد السكان وخاصة الشباب، حيث يتضور الخريجون في الشوارع، وإرتفعت نسبة العنوسة بين النساء إلى أن وصلت إلى (37) سنة، ولم يتمكن الشباب من الزواج بسبب البطالة، وأزمة السكن القاتلة، وعمّ اليأس الجميع.

<u>**الثاني:**</u> الذي تسرب بين الدوائر التي ذكرتها، وعلى رأسها الدائرة القذافية، إلى أقصى تلك الدوائر، أصبح الحديث عن المليارات التي ستتطاير، وعن الشركات التي

بدأت تتدافع نحو ليبيا، وسرَت في طرابلس حشرجة عاتية، وبدأ أبناء القذافي، وأبناء عمومته، وبعض الوزراء المسؤولين عن تلك المشروعات والدوائر العسكرية والأمنية، يحضرون الأوراق والأقلام، ويقدرون نسب العمولة والمبالغ التي سيحصلون عليها جراء ذلك، وأصبح شعار، لا صوت يعلو على صوت الملايين، هو إشارة المرور التي تقود إلى كراسي القرار. عقدت الجلسات الواسعة والضيقة في . المرابيع . وهي تلك الصالونات، أو الديوانيات التي يجلس فيها الليبيون على الأرض في منازلهم، ويرفعون كل الأغطية عن موائد أكلهم وعن أفواههم، ويتداولون بصراحة مطلقة فيما يكون من المسكوت عليه عندما يكونون في مكاتبهم. كان إسم الدكتور البغدادي المحمودي، هو الزبدة التي أنتجها ذلك المخاض السري الرهيب. ولم يجلس عبدالله السنوسي بعيداً عن المشهد بالإضافة إلى آخرين رقصوا إهتزازاً على إيقاع المليارات التي تلوح أمام ناظريهم.

قسّم البغدادي وقته بين مكتبه وبين قصر سيف الإسلام القذافي في منطقة المربعات بطريق مطار طرابلس. وتمّ تكليف المقدم بن جريد القذافي الذي يقود كتيبة الهندسة بالكتائب الأمنية بإزالة المباني القديمة التي تقع في المساحات التي ستقام بها المشروعات الجديدة مقابل مئات الملايين، وبن جريد هذا هو سائق سيف الإسلام في الوقت نفسه والمشرف على فريق أمنه. وتولى سيف الإشراف المباشر على كل المشروعات، والعطاءات والمبالغ المالية المخصصة لها. وإستقبل مدراء الشركات المنفذة، بل أمر بإعطاء هذا المشروع أو ذلك، لشركات بعينها. ومثلما يحدث عندما يصرع الأسد فريسته، تفوح رائحة الدم، فتتدافع الضباع، وتحط النسور لنهش ما يمكن نهشه من لحم الفريسة، والمضحك المبكي في هذا المشهد، أن الضباع والنسور ايضا كان لها من يعاركها على ما نهشته وأنتحت به جانباً، فمثلاً علي دبيبة كان مكلفاً بجهاز تطوير المباني الإدارية، الذي تتجاوز مخصصاته (50) مليار دولار، وأسندت له مهمة بناء الفنادق والطرق والجامعات وغيرها، أصبح هدفاً

لأسنان أولاد القذافي، وحاشيته، وكذلك المهندس معتوق محمد معتوق الوزير المكلف ببعض مشروعات البنية التحتية، وغيرهما لاحقهم أولئك المقربون.

لقد طلب هانيبال نجل معمر القذافي المشهور بمعاركه في فرنسا وسويسرا وغيرها والمعروف . بالكابتن . لأنه درس في إحدى الأكاديميات البحرية، طلب من المهندس معتوق أن يعطي مشروعاً معينا إلى إحدى الشركات، ولكنه تلكأ في ذلك، فأرسل له الكابتن مجموعة من حراسه فأوقفوه في الطريق، وأنزلوه من سيارته وأخذوها وتركوه يسير على قدميه، بعد أن أوسعوه شتماً. ومحمد ليّاس، مدير المصرف الخارجي، إستداعاة . الكابتن . إلى منزله وطلب منه أن يحوّل له مبلغاً من المال إلى الخارج، ولكنه إعتذر لأن لا مسوغ قانوني لهذا الإجراء، ولا يمكنه تنفيذ طلبه، أمر . الكابتن . الطباخ المغربي بضرب ليّاس، وقد فعل، وكسر نظارات الرجل التعيس. وهانيبال هذا بالإضافة إلى المعارك السياسية والمالية التي سببها بين ليبيا وسويسرا، فقد أنجز الكثير من الأعمال غير المسبوقة، فقد أرسل طائرة خاصة من طرابلس إلى بيروت لإحضار كلب زوجته اللبنانية. قبل أن نرحل إلى الحديث عن ملاحم معتصم القذافي نقف عند سيف العرب معمر القذافي وهو أصغر أبناء العقيد، وسنتحدث عن شخصيته بالتفصيل في مكان آخر، وسنكتفي هنا بما يتعلق بالبغدادي، فقد إستدعيت يوما إلى القيادة، وجلست بمكتب بشير صالح بشير، مدير مكتب القذافي، بعد قليل دخل، وتحدثنا في موضوعات مختلفة تتعلق بالخارجية، ولكنه إنفعل أو إفتعل الإنفعال، وقال موجهاً حديثه لي: "هل . فلوس . ليبيا خلّفها لك أبوك؟!، بأي حق تشتري للبرغثي في الأردن منزلا بخمسة ملايين دينار؟ أنتم تعبثون بأموال الشعب الليبي، هذه مهزلة، نوري المسماري يملك بيت فخم في فرنسا، بالإضافة إلى السيارات الفارهة، والمجوهرات". قلت له: إن هناك فرقاً بين بيت تشتريه الدولة ليسكنه السفير، والدكتور محمد البرغثي سفيرنا في الأردن والبيت الذي نريد شراءه لن يكون ملكا له وإنما للدولة الليبية، وهو في نفس الوقت إستثمار، فالمرحوم محمود المنتصر إشترى سفارتنا في روما وهي فيلا من أحسن (17) فيلا في إيطاليا، إشتراها سنة 1958

بمبلـغ (150) ألـف دينـار ليبـي آنـذاك والآن قيمتهـا تفـوق المائـة مليـون دولار، ردّ القذافي معلقاً: "يا سلام على عبقريتك!! مبلغ 150 ألف دولار في سنة 1958 يساوي مائـة مليون دولار اليوم". حاولت أن أشرح خلفيات هذا الموضوع، ولكنـه رفض . ووجه كلامه إلى مدير مكتبه بشير صالح قائلا: "يا بشير، كلم البغدادي، لا بدّ من إيقاف هذه المهازل".

فـي طريق عودتي إلـى مكتبـي بالخارجيـة، فكرت فـي سبب ثـورة القذافي علـى موضوع شراء بيت لسفيرنا في عمان، وقلت بالتأكيد أن . دعد . وراء ذلك. ودعد هذه تحتاج إلى كتاب كبير خاص بها. هي مواطنة أردنية جاءت إلى ليبيا منذ أكثر من عشرين سنة ووصلت إلـى معمر القذافي، ودخلت فـي دهاليز النهـار والليل، عرفت الطريـق إلـى أغلـب المسـؤولين، وحققـت مئـات الملايـين مـن الصـفقات العديـدة، وأصبحت من أقرب المقربات من . القائد، رفعت بينهما كل الستر، على كل حال، إنتهى بها الأمر إلى السجن بطرابلس بتهمة تضليل القائد عاطفياً، وتلك قصة تطول. قال لـي مدير الشؤون الماليـة والإداريـة بـوزارة الخارجيـة والـذي تـولى التفاوض علـى شراء البيت، أن شقيق . دعد . يريد أن يتوسط في عملية الشراء مقابل نسبة كبيرة، وعندما ردّ عليه المدير، بأن ليس هناك حاجة لوسيط لأن الإتفاق قد تمّ مباشرة مع المالك، هدّده الشقيق، بأنه قادر على وقف عملية الشراء وسيكون هناك تدخل عالي المستوى في طرابلس.

بعد يـومين إتصـل بـي البغدادي المحمودي، رئيس الـوزراء وقـال لا بدّ من بيـع جميع مساكن السفراء المملوكة للدولة في جميع أنحاء العالم وفي خلال أسبوع، وبأي ثمـن، وأضـاف" أرجوك يـا عبـد الرحمن، بـلا كثـرة كـلام، أنـا لسـت نـاقص مشـاكل". حاولت مناقشته في الموضوع لكنه رفض. في اليوم التالي، عاود البغدادي الإتصال بخصـوص نفس الموضـوع وكـرر نفس التعليمـات، قـائلاً، أنـت فـاهم معنـى كلامـي.. طبعـاً يقصـد أنهـا تعليمـات القائـد. إتصـلت بـأكثر مـن مسـؤول خاصـة الـذين لـديهم

معلومات حول ما نسميه "بالمسائل" لمعرفة دوافع هذا التوجه الغريب العجيب. إستدعيت نوري المسماري، وهو من العارفين الموثوقين بـ"المسائل" وسألته: هل دخلت ـ دعد ـ في موضوع شراء بيت الأردن؟ قال نوري: إمهلني ساعات، وسأتيك بالخبر اليقين. إتصل بي ليلاً، وكلمني باللغة الإيطالية قائلا: "تروكو تشي، ما ـ نون ـ سي فيدي". أي هناك لعبة، لكنها لا تُرى، وإستمر متحدثاً باللغة الإيطالية ـ على أساس أن لا أحد سيهتم بترجمتها في حالة التنصت، ملمحاً إلى قدرة دعد وتأثيرها في صاحبنا ـ القائد...ألخ. بعد يومين، إتصل بي محمد الحويج، وزير المالية، وقال: سأمر عليك الآن لأمر مهم. قلت له أنا في إنتظارك. قبل وصوله، حدثني الدكتور البغدادي هاتفياً وهو في حالة إنفعال شديد قائلا: "يا خوي عبد الرحمن، أرجوك إنهي الموضوع، بيع كل بيوت السفراء فوراً، ولو بالخسارة". قلت يا دكتور: "إبعث رسالة بذلك وضع المسؤولية علي، وأنا سأتصرف".

دخل محمد الحويج إلى مكتبي باسماً وهو يقول: "لقيناها، المشكلة إنحلت. سنعالج الموضوع، وستبقى لك بيوتك". وشرح لي القصة بالتفصيل الممل. وهي كالآتي: سيف العرب معمر القذافي يدرس بميونخ بألمانيا، إشترت له الدولة الليبية فيلا في حي شعبي، وقد زار أحد أقربائه منزل سفيرنا ببيرن العاصمة، وهو منزل فخم ضخم في حي راق، والمنزل ملك للدولة الليبية، عاد زائر منزل السفير إلى سيف العرب، ووصف له ما رأى ببيرن، مقارناً بين المنزلين، والخلاصة، أن المسؤولين الليبيين يعاملونه، أي سيف العرب، معاملة دونية، فأين البيت الذي يسكنه من بيت السفير في بيرن. إعتبر سيف العرب ذلك إهانة كبيرة له لا يمكن السكوت عليها، وإتصل بوالده شاكياً غاضباً متوسلاً له أن ينتقم من الذين رفعوا مقام سفرائهم فوق مقام أولاد القائد. سألت الحويج، وما الحل العاجل، قال نشتري لسيف العرب بيتاً فخماً في أرقى أحياء ميونخ، وتعهد بأن يقوم بذلك خلال 48 ساعة، ومن ميزانية الإستثمار في الخارج، وفعلاً تمّ ذلك في الساعات التي حددها الحويج، وهكذا تمّ إنقاذ بيوت السفراء الليبيين في جميع أنحاء العالم.

لكن الغريم الأول للبغدادي بين أبناء معمر القذافي كان بدون شك هو الدكتور المعتصم، الذي تخرج من كلية الطب، ويبدو أن مقولة صاحب مهنتك عدوك، تنطبق عليهما، فالمعتصم يكره البغدادي كرهاً شديداً، ويسميه القابلة بحكم تخصصه في أمراض النساء، ويتعمد إهانته والتطاول عليه أمام الناس، عُيّن المعتصم مستشاراً لشؤون الأمن الوطني سنة 2007، وكان البغدادي بحكم كونه رئيساً للوزراء، رئيساً لمجلس الأمن الوطني، ويضم المجلس وزير الخارجية، والداخلية، والمالية، ومندوب عن القوات المسلحة وغيرهم، وكان يوم إجتماع المجلس هو يوم العذاب الأشد بالنسبة للبغدادي، فقد إعتاد المعتصم أن يعد القرارات قبل إنعقاد الإجتماع، وبعد مناقشات صورية، يطلب من البغدادي التوقيع عليها فوراً وبطريقة مهينة. وقد حدثت مشادات بينهما، تنتهي دائما برضوخ البغدادي لأوامر المعتصم. إعتقد المعتصم وبشكل مطلق أن البغدادي مجرد موظف عند شقيقه سيف الإسلام، وينفذ تعليماته بشكل أعمى، وأراد المعتصم بأن يكون في درجة سيف على سلم البغدادي، الذي لا يتوقف عن الشكوى من الإهانات المتواصلة التي يكيلها له المعتصم، وكثيراً ما يتوسط عبدالله السنوسي، لإمتصاص شكوى البغدادي، وإذا كانت جرعة الإهانات عالية، قد يتدخل سيف الإسلام أو حتى القائد، بغضب مفتعل لتهدئة البغدادي. الوقائع كثيرة، ولا تتسع لها الكتب، ولكن أكتفي بذكر بعضها.. في آخر جلسة شاركت فيها لمؤتمر الشعب العام بسرت، تقدم المعتصم بمشروع قرار يريد صدوره من مؤتمر الشعب العام، ثم حوله إلى مشروع قانون، يطلب فيه أن تتبعه مباشرة وزارة الداخلية والخارجية، والأمن الداخلي، والأمن الخارجي، وأن يتولى هو شخصياً بصفته مستشاراً للأمن الوطني التصرف في ميزانية هذه الجهات التي تقدر بمئات الملايين من الدينارات الليبية، عمل البغدادي على إيقاف مشروع القانون، وإعتقد المعتصم أن ذلك تمّ بتعليمات من أخيه سيف الإسلام، وكان البغدادي يجلس بمكتب جانبي بقاعة إنعقاد المؤتمر بسرت مع بعض أعضاء أمانة مؤتمر الشعب العام، وبعض الوزراء، دخل المعتصم، وأطلق زخّات من الشتائم والإهانات على البغدادي

فـي حضـرة الجميـع، وإكتفـى البغـدادي بالصـمت الحـزين. لـم أكـن حاضـراً، ولكننـي علمـت بـذلك. فـي اليـوم التـالي كانـت الجلسـة الختاميـة التـي أعفيـت فيهـا مـن وزارة الخارجيـة. قبـل أن أغـادر سـرت ذهبـت أنـا والبغـدادي إلـى وادي الزيـد بسـرت حيـث يوجد معمر القذافي لتوديعه قبل أن أسافر إلى نيويورك لتولي مهامي كمندوب لليبيا بـالأمم المتحـدة، جلسـت أنـا والبغـدادي مـع العقيـد، أعطـاني عـدداً مـن التوجيهـات والملاحظات بعملي الجديد، قبل أن أودعه، قلت للبغدادي: إحكي للقائد عن موضوع المعتصـم وخرجـت، بعـد ذلـك علمـت أن القـذافي أصـدر أمـراً بإعفـاء المعتصـم مـن وظيفة مستشار الأمن الوطني، وتدمير مبنى المجلس، ولكن عبدالله السنوسي تدخل ولم يتمّ التدمير.

أخبرنـي الدكتور محمود جبريل الذي كان يتولى مهمة مستشار باللجنة الشعبية العامة . مجلس الوزراء . أنه دخل ذات صباح على الدكتور البغدادي بمكتبه فوجده يبكي وعلم من مساعديه أن الدكتور المعتصم كان هنا منذ قليل وشتم البغدادي، وألقى عليه الهاتف النقال، حاول محمود أن يهدئ من روعه، وأن يستفسر عن سبب ما حدث. وبعد أن تمالك البغدادي نفسه، أحضر ورقة ورسم عليها صرة من المال وحولها ست دوائر وفوقها سهم، أي أن الصرة هي مال ليبيا وأبناء القذافي الستة يتصارعون عليها ووالدهم يعلم، ومعنى ذلك أن موقعة ذلك الصباح كانت بسبب طلب المعتصم المال من البغدادي رئيس الوزراء ولم يستجب هذا لطلبه، فكان ذاك عقابه. في مساء نفس اليوم كانت خطبة إبنة البغدادي الذي ذهب إلى مكتب دكتور محمود جبريل، وقال له أنه في وضع نفسي لا يمكنه من حضور خطبة إبنته، وكان يبكي بحرقة، ونصحه محمود أن يتحامل على نفسه، وأن لا يغيب عن هذه المناسبة التي لن تتكرر.

(أنا والبغدادي)

"1"

قلت في بداية هذا الفصل الخاص بالمحمودي أن علاقتنا بدأت في القاهرة أيام الدراسة، ولكنها كانت عابرة وسطحية جداً إلى درجة أنني لا أتذكر شيئاً منها الآن، سوى وجوده في بعض اللقاءات بنادي الطلبة الليبيين بالدقي. لكن العلاقة الحقيقية بدأت عندما عملنا معاً بأمانة مؤتمر الشعب العام، وكانت إقامتنا شبه الجبرية بسرت تفرض علينا، أن نلتقي يومياً، بالمكتب أثناء ساعات الدوام الرسمي، بمنزله بعد ذلك، فقد كانت إستراحته، ملتقى لأغلب "الأمناء" ففيها ما طاب من الأكل، وما لذّ من الأحاديث، وكان لوجود الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني الأمين المساعد لمؤتمر الشعب العام نكهة خاصة، بنوادره التي لا تنتهي، ومعالجاته الهادئة لما يثار من قضايا تتعلق بالعمل، وكذلك قراءة ما يدور في الحلقات الإجتماعية، والصراعات التي لا تتوقف بين أحمد إبراهيم القذافي، والزناتي محمد الزناتي القذافي، وهو شخصية لا تسلم من لسع ألسنتنا يومياً، لحرصه الشديد على المال، وعلاوات السفر التي لا يشبع منها أبداً، وطلبه الدائم على السيارات، وتظاهره الزائف بالتقوى والزهد. أمانة مؤتمر الشعب العام ليس لديها صلاحيات مالية إو إدارية، ورغم ذلك كان للبغدادي نفوذ مالي وإداري لا حدود له، فقلم القيادة دائم الإتصال به لتوفير كل ما يطلبه القائد أو أسرته وحراسه ...ألخ. وكنا نطلق على البغدادي . مدمن العمل . ولا يؤجل تنفيذ ما تطلبه القيادة منه لساعة واحدة، وإستطاع بحكم كونه أمين شؤون اللجان الشعبية، أن يتدخل في تفاصيل النشاط المالي والإداري للدولة، وأن يصدر تعليماته لكل المسؤولن الذين يسارعون إلى تنفيذها، ولهذا أعطيناه صفة أخرى وهي . مدير عام ليبيا .

كنا ننتظر يوم الخميس بفارغ الصبر، مثلما ينتظره الطلاب المستجدون في الكليات العسكرية، فالإقامة بسرت . هي إقامة جبرية بكل معنى الكلمة، فمجتمعها

شبه البدوي، مجتمع مغلق، ولا يوجد بها ما يمكن أن يطلق عليه حياة، سواء بالليل أو النهار، ولا يوجد بيننا من يصطحب معه عائلته، وهكذا كان يوم الخميس، يوم الإنطلاق نحو الحرية، والحياة، نحو طرابلس حيث العائلات، والأصدقاء، والمدينة. في الغالب كنّا، نرحل في سيارة واحدة، ويتولى البغدادي القيادة، وكثيراً ما كان ثالثنا الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني. في السيارة نرفع درجة الصراحة في تلك الخلوة المتحركة، وقلما يسلم أحد من جلد ألسنتنا حتى معمر القذافي نفسه. كنت الأقرب له، وكان الأقرب لي بين أعضاء الأمانة، وكان أول من يساند مواقفي أثناء الإجتماعات، وأنا أفعل نفس الشيء. وكثيراً ما نَسَقْنَا هذه المواقف قبل الدخول إلى الإجتماعات. كان الزملاء المشتركون في جامعة القاهرة، يعطوننا مساحة جميلة نهرب إليها ونحن بين جدران إقامتنا . الجبرية . بسرت، نسترجع مغامرات سعد، وشطحات نوري، وحب سالم الأول ذلك القادم من ضواحي طرابلس، ونطلق العنان لخيالنا، لنخلق حالة من الهروب إلى الماضي، نختلق الضحكات، ونستحضر النكت، التي يعيد صياغتها الدكتور عبد الحميد الزنتاني، بروحه المرحة، وبملكة جميلة ورثها من أهله الزنتان أرباب البديهة الساخرة الضاحكة. لقد كانت تلك الأيام السرتاوية حبراً فريد اللون، ورقاً بلا سطور، نخط عليه حروفاً بلا هوية أو إتجاه، لكنها رحلت معنا، ذكريات مائعة بلا ملامح وأصواتاً بلا أصداء، كلما أحاول العودة إليها، كي أستجمع منها ما يمكن أن يصاغ، أجدني أمام غابة بلا أشجار، لا تفيد حاطباً، ولا تعطي ظلاً لمن لفحته رياح القبلي، كنا هناك، جميعاً كائنات بلا وجوه، لا إتجاه، في تلك السنة 1999 التي قضيتها عضواً بأمانة مؤتمر الشعب العام، كان العقيد معمر القذافي، هائماً، مضطرباً، لقد فعل الحصار فعله فيه وفي البلاد، وبدأ دبيب السخط الشعبي يتسارع ويتسع، وعندما بدأت الجهود لإيجاد حل لأزمة لوكربي تؤكد أن تسليم المتهمين في تفجير الطائرة، عبد الباسط المقرحي، والأمين خليفة فحيمة، لا مناص من تسليمهما، خاصة بعد موافقة بريطانيا على إجراء المحاكمة في هولندا، عندئذ، ألمّ بالقذافي رهاب الإستسلام والخضوع، رغم رفع صوت النصر في وسائل الإعلام. كنا

نقول، أن أمريكا وبريطانيا، ومعهما الغرب، قد ركعوا بموافقتهم على عقد جلسات المحكمة الإسكتلندية لأول مرة خارج ترابها، وقلنا أن التضامن الأفريقي الذي تمّ التعبير عنه في قمة . واقادوقو . عاصمة بوركينا فاسو، قلب موازين القوة في العالم، وأن معاناة الشعب الليبي من الحصار بسبب موضوع لوكربي، قد أنجب مولوداً عملاقاً تجسد في مشروع الإتحاد الأفريقي، وركب معمر القذافي أسد الوهم الذي أنتجه خياله، وأسماه الإتحاد الأفريقي العظيم. لقد سرنا واجمين، نستعيد ما أبدعه الخداع العربي في تحويل الهزائم إلى زفّة إنتصار.

حددت الأمم المتحدة يوم 5 إبريل سنة 1999 لنقل المواطنين الليبيين المقرحي وفحيمة على متن إحدى طائراتها إلى كامب زايست بهولندا، حيث مكان المحاكمة، ومطلوب إتخاذ قرار ليبي بالموافقة على الترحيل. ولم تتقدم أي جهة رسمية ليبية بإتخاذ القرار المطلوب. طبعاً . القائد . لن يكون اليد التي توقع على ذلك القرار. فهل يقبل، قائد النصر والتحدي أن يوقع على مثل هذا القرار المهين الذي تسلم فيه دولة مستقلة ذات سيادة، بل جماهيرية عظمى، أولادها لتضعهم القوى الإمبريالية في أقفاصها وتحاكمهم أمام قضاتها؟! بالتأكيد لا.

كان ذاك يوم جمعة في سنة 1999 إتصل بي البغدادي، وقال نريد أن نجتمع بمقر الرقابة الإدارية بطرابلس لمناقشة موضوع هام، ومستعجل جداً، إلتقينا بعض أعضاء الأمانة، وناقشنا موضوع تسليم المتهمين الليبيين إلى هولندا، كنت أعتقد أن الإجتماع تمّ بتعليمات من . قلم القيادة . أو على الأقل بإيحاء منها، طرح الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني الموضوع. فعارض أحمد إبراهيم القذافي فكرة التسليم بشدة، تبادلنا النظرات، فمعارضة أحمد له بهذه الطريقة تعني، أن لا تعليمات ولا حتى إيحاء. إقترح د. البغدادي المحمودي، أن نكتب المحضر، ويسجل كل واحد رأيه، وأن نحيله إلى القيادة، حتى إذا لم نصل إلى موقف موحد وجماعي. كنت من أكثر المتحمسين لتسليم المتهمين إلى هولندا، لأن الشعب الليبي وصل إلى مرحلة لا

تحتمل بسبب الحصار المفروض عليه على مدى سنوات، ودخلت البلاد في نفق مظلم مرعب، لا يمكن الخروج بدون إتخاذ خطوات جريئة، وحاسمة وأولها تسليم المتهمين، وكان هذا هو التوجه الذي تبناه الكثير من المسؤولين. قلت موجهاً كلامي لأحمد إبراهيم القذافي، وكانت علاقاتنا طيبة إلى حد كبير، رغم مزاجه المتقلب قلت: " يا أحمد، معمر القذافي . قائد . ولا يجب أن نقف على يساره، وإذا نحن قلنا، لا، فماذا تركنا له؟ يجب أن نؤيد التسليم، ونترك موقف الرفض له". نظر إليّ البغدادي المحمودي نظرة إستحسان، ولم يعلق أحمد إبراهيم. بعد مغادرتنا للإجتماع طلب أحمد إبراهيم أن يرافقني في السيارة، وبدأ حديثه ضاحكاً وقال: "إن رأيك عين الحكمة". إلتقينا في اليوم التالي، فسألت البغدادي عن حقيقة الموقف، أجابني بأن القائد ذهب غاضباً إلى سبها لأنه لا يريد أن يكون في طرابلس ويرى مواطنين ليبيين يُسَلمان إلى بلد أخرى، وأنه ذاهب إلى سبها ليبدأ ثورة جديدة من هناك كما فعل في الماضي، وهذا يعني أنه ليس ضد فكرة التسليم ولكن لا يريد أن يظهر بأنه هو من إتخذ القرار أو شارك فيه. سألته إن كان تحدث مع عبدالله السنوسي في الموضوع، أجاب بنعم فأدركت أن عبدالله هو من أخبره بموقف العقيد، وأن البغدادي أبدع فكرة إجتماعنا بالأمس التي صاغت مخرجاً، وشكرته على خياله السياسي المبدع.

كان البغدادي يحدثني . لا أقول عن كل شيء . ولكن في الكثير من الأشياء التي تدور في الدوائر الخلفية، الضيقة، المظلمة، كان بلا جدال أحد الصناديق السوداء القليلة التي تتساقط فيها الأسرار بلا توقف، بحكم علاقاته الواسعة، المتقاطعة المتشعبة، وطبعاً، اليد السخية تعطي المال وتستلم المعلومات، والمعلومات الخاصة والحساسة، كالعشق لا يشع إلا إذا إرتفعت حرارة مشاعر الود. وقد كان البغدادي يمتلك القدرات النفسية والسخاء لصناعة ذلك الإشعاع. وعندما كان يتصل بي مساءً ويقول سأمر عليك بعد قليل، إنتظرني أمام باب بيتك، وسنقوم . بدورة . بالسيارة أدرك أن لديه جديداً هاماً وخاصاً، وإذا كانت هذه . الدورات . تسبق أيام . التصعيد . أي إختيار الوزراء قبل مؤتمر الشعب العام، أدرك مباشرة أن سوق الأسماء بدأ العمل،

والبغدادي هو ساحر خشبة المسرح القادر على إخراج الأرانب من جيبه، والحمام من كمّه، وكائنات أخرى من تحت القبعة. وعملية إختيار الأمناء . الوزراء في ليبيا الجماهيرية الشعبية، لها مذاق خاص، فهي تطل كل سنة مصحوبة بأهازيج تبشر بالتغيير والتطوير من أجل تجاوز السلبيات التي يتحدث عنها الشارع، وتلوح بإخراج العناصر التي طالتها ألسنة الناس بسبب الفساد والتجاوزات. وجرت العادة أن تقوم أمانة مؤتمر الشعب العام بترشيح الأمناء الجدد، أو إقتراح إعادة تثبيت العاملين منهم، ولكن، القائد هو من يكتب أسماء الطبعة الأخيرة. ولا ينكر أحد أن د. البغدادي المحمودي شارك في رفع أو إنزال كثير من الأسماء على منصة الأمناء . الوزراء، وكان يشركني في أفكاره على الأقل.

أخترتُ أميناً للجنة الشعبية العامة للإتصال الخارجي والتعاون الدولي في مارس 2000، وغادرت أمانة مؤتمر الشعب العام، وهكذا إنتقلت للجهاز التنفيذي فيما إستمر هو في أمانة مؤتمر الشعب العام قمة الجهاز التشريعي الشعبي. وكان للبغدادي دوراً في إنتقالي إلى المنصة الأخرى، ولكن ليس من موقع ساحر الخشبة، ولكن من موقع الشاهد. ليلة 2 مارس 2000 كنّا في خضم جلسات مؤتمر الشعب العام السنوية، واليوم التالي . 3 مارس هو يوم . التصعيد . أي الجلسة الختامية التي ستشهد إعادة تشكيل أمانة مؤتمر الشعب العام، واللجنة الشعبية العامة، ككل سنة، ويوم التصعيد هو يوم . الدخلة . يكثر فيها تداول الأسماء، ويتلقط الناس الأخبار، وترتفع حمى بورصة الترشيحات وتعقد الإجتماعات إلى الفجر، يلتقي فيها أحمد إبراهيم القذافي أمين شؤون المؤتمرات، والبغدادي المحمودي أمين شؤون اللجان بالقائد لمراجعة الأسماء المقترحة لكل منصب، وتزداد سرعة حركة مراكز القوى الثورية والأمنية والعائلية، فهذا موسم إستثنائي بالنسبة لأحمد قذاف الدم، وعبدالله السنوسي، وعبدالله منصور، وفوقهم جميعاً سيف الإسلام معمر القذافي، كل يدفع بمن يرى أنه الأقرب له، والضامن لمصالحه، ويقاتل من أجل إستبعاد هذا الإسم أو ذاك، الذي لا يراه من صفوف أنصاره. أما المشهد الثاني في المسرحية بعد لقاء

أحمد إبراهيم القذافي، والدكتور البغدادي المحمودي بالقائد، أن يجتمع أحمد والبغدادي مع أمناء المؤتمرات الشعبية الأساسية، لتلقينهم الأسماء المطلوب تصعيدها، وعند طرح هذه الأسماء، يقوم هؤلاء الأمناء بالتصفيق الحاد عند قراءة كل إسم، تعبيراً عن التأييد والتزكية.

في ليلة 2 مارس الشديدة البرودة، كان في سرت السيد ليساريدس، مبعوثاً شخصياً من رئيس وزراء قبرص، حاملاً رسالة خطية منه إلى معمر القذافي، وبصفتي أميناً للشؤون الخارجية بمؤتمر الشعب العام، رافقت المبعوث القبرصي إلى . العتعت . وهي منطقة صحراوية، خارج مدينة سرت بها مخيم كبير إعتاد القذافي، أن يقيم فيه عندما يأتي إلى سرت.

وصلت إلى خيمة القذافي رفقة الضيف القبرصي، فوجدته جالساً حول النار ومعه أحمد إبراهيم القذافي والدكتور البغدادي المحمودي، طلب منهما الخروج والإنتظار، وجلست معه صحبة الضيف الذي بادر بعد التحية، بتسليم الرسالة المكتوبة باللغة الإنجليزية، كان يجلس إلى جانبه المترجم فؤاد الزليطني، أعطاني معمر الرسالة وطلب مني ترجمتها فوراً فقمت بذلك. أخذ مني الرسالة وقدّمها إلى المترجم، وسأله عن مدى دقة ترجمتي لها. بعد ساعات من وصولي إلى إستراحتي بسرت، دخل البغدادي ضاحكاً، فبادرته بالقول من حقك أن تفرح لصاحبك، فسأكون أول سفير لليبيا ببريطانيا بعد القطيعة الطويلة، قال البغدادي: كيف عرفت ذلك؟. قلت لقد تعرضت إلى إمتحان في اللغة الإنجليزية من طرف القائد وهذا يعني تعييني سفيراً في لندن. ضحك البغدادي وقال: لا يا حبيبي، منصبك أعلى من ذلك، غداً ستكون وزيراً لخارجيتنا. فأثناء دخولي مع الضيف القبرصي إلى خيمة القذافي كان يستعرض معهما أسماء الأمناء المرشحين أي الوزراء، وتوقفوا عند وزير الخارجية، وكان رئيس الوزراء آنذاك المهندس محمد المنقوش قدم تقريراً إلى معمر القذافي حول صحة وزير الخارجية عمر المنتصر الذي يعاني من مرض السرطان ويعالج في

الخارج، ويستحيل إستمراره في المنصب. إقترح البغدادي إسم محمد الزوي، الذي كان يشغل منصب وزير العدل والداخلية، وإقترح أحمد إبراهيم القذافي إسم الدكتور مصطفى الزائدي وهو طبيب تجميل، وسبق أن شغل منصب وزير الصحة، وهو من العناصر المتشددة في اللجان الثورية، وحسب قول البغدادي، كان القذافي يعترض على الإسمين، ويطلب إقتراحا ثالثا. وبعد خروجي منه مع الضيف القبرصي، وعودتهما إليه بادرهما القذافي بالقول: "وجدت لكم وزيراً للخارجية، عبد الرحمن شلقم". وهكذا غادرت أمانة مؤتمر الشعب العام، إلى الخارجية بشهادة الدكتور البغدادي المحمودي، وبمباركته.

لم يتأخر البغدادي، في تقديم المساعدة والعون لي في موقعي الجديد، لم يرد لي طلباً، وكثيراً ما بادر بوضعي في صورة ما يجري وراء الكواليس، وما يحاك في دوائر الإستفادة من أجل الغنائم الإدارية، خاصة بعد أن تولى د. عبد القادر البغدادي مهام شؤون اللجان الشعبية بأمانة مؤتمر الشعب العام، وتحالفه مع أحمد إبراهيم القذافي أمين شؤون المؤتمرات. الإثنان، أحمد، وعبد القادر، ينظران إلي على أني من جيلهم بمقياس الزمن الثوري، ولكن هناك لغة مخادعة نستعملها جميعاً عندما نتحدث، ومعايير مراوغة عندما نتعامل، هما، أحمد إبراهيم، وعبد القادر البغدادي، يتبرمان من وجودهما في أمانة مؤتمر الشعب العام المجردة من الصلاحيات المالية والإدارية، في حين يتقاسم الآخرون هذه الصلاحيات، كان الجفاء هو اللون الذي إعتلى صفحات علاقتنا، كنت ضد العنف الذي شهدته ليبيا في النصف الثاني من عقد السبعينيات، وكان هما من ساهم في ذلك العنف في جامعتي طرابلس وبنغازي، وقادا المحاكم الثورية، التي أعقبت ما سمي بالمداهمات، كان أحمد إستفزازياً صدامياً، في حين كان عبد القادر مراوغاً لبقاً له قدرة على إدارة حوار هادئ يرش عليه ودّاً مصطنعاً. وقد نبهني الدكتور البغدادي المحمودي، أنهما غير راضيين على تفردي بالخارجية، وعدم التعاون معهما. وأنهما بصدد إصدار قانون جديد للسلك الدبلوماسي، مضمونه إعادة تشكيل اللجان الشعبية في المكاتب الشعبية بالخارج، أي "السفارات" بحيث يتمّ إختيار

عناصر من كل المناطق في ليبيا عن طريق التصعيد أي الإختيار من طرف الجماهير لإرسالها لإدارة السفارات في الخارج بمن فيها أمين المكتب أي السفير. دعيت لحضور أحد جلسات أمانة مؤتمر الشعب العام بسرت لمناقشة هذه الأفكار، وعارضتها بشدة وسقت مبررات موقفي، كان أحمد إبراهيم مباشراً ومتشدداً في حين كان عبد القادر هادئاً ودبلوماسياً، وعندما شرح وجهة نظره التي تصرّ على فكرة . الدبلوماسية الشعبية . كما سماها قال: إن سفراء بريطانيا، يسمونهم سفراء صاحبة الجلالة، أي الملكة، وأن صاحب الجلالة في ليبيا هو الشعب، فيجب أن يكون سفراؤنا هم سفراء الشعب. قلت: يا دكتور عبد القادر إن سفراء صاحبة الجلالة هم من وزارة الخارجية البريطانية، يتمّ تعيينهم وفقاً لقواعد ولوائح، ترتكز على الأقدمية والخبرة. ثم إن في كل سفارة، سفير واحد فقط وليس لجنة، وأنا كنت سفيراً لليبيا في إيطاليا لأكثر من عشر سنوات، تحت مسمى أمين مكتب شعبي، أو بالتحديد، أمين اللجنة الشعبية للمكتب الشعبي الليبي بإيطاليا، وقد عملت في البداية مع لجنة مكونة من خمسة أشخاص، ثم عملت لسنوات بمفردي، وكان الأداء في المرحلة الثانية أفضل بكثير. على كل حال لقد نجحا في إصدار القانون، وبالكيفية التي أراداها، ولم تنجح محاولاتي وكذلك الدكتور علي التريكي الذي كان يشغل أمين الوحدة الأفريقي، لم ننجح في إيقاف العمل بهذا القانون أو تعديله رغم نقاشنا الطويل مع معمر القذافي. وبالرغم من صدور هذا القانون، فقد ساعدنا الدكتور البغدادي المحمودي الذي أصبح نائباً لرئيس الوزراء، على التخفيف من الآثار السلبية لهذا القانون عند تشكيل اللجان الشعبية لسفاراتنا في الخارج في إختيار العناصر التي تتوفر فيها الحدود الدنيا من القدرات.

"2"

في شهر يوليو 2003، عين الدكتور شكري غانم رئيساً للوزراء، والبغدادي نائباً له، وبمصطلحات الجماهيرية العظمى، صُعّد شكري أميناً للجنة الشعبية العامة، والبغدادي أميناً مساعداً، وبقيتُ في منصبي، أميناً للجنة الشعبية العامة للإتصال الخارجي والتعاون الدولي أي "وزيراً للخارجية". إلتأم شملنا من جديد على خشبة الجهاز التنفيذي. شكري غانم رجل يؤمن من رأسه إلى أخمص قدمه بالإدارة التقليدية المنظمة، والإقتصاد الحر، ويكفر بسياسة الدعم، هو من مواليد طرابلس، ممتلىء بثقافة المجتمع المدني، عايش الإيطاليين واليهود الذين كانوا جزءاً فاعلاً من المجتمع الليبي وخاصة بمدينة طرابلس، درس في الولايات المتحدة الأمريكية، وعمل بعد ذلك بوزارة البترول، لكنه إصطدم برئيس الوزراء السابق عبد السلام جلود، فغادر البلاد وعمل بمنظمة الأوبك، إلى أن تولى أمينها مؤقتاً، عاد في سنة 2001 وزيراً للإقتصاد في حكومة المهندس مبارك الشامخ بدفع من سيف الإسلام معمر القذافي الذي كان يتحدث عن نقل ليبيا إلى دولة عصرية، ومع إرتفاع درجة الأحلام العصرية لدى سيف الإسلام دفع بصديقه شكري إلى قمة الهرم التنفيذي لإنجاز الأحلام العصرية. ولكي يكون مجلس الوزراء برئاسة شكري غير منقطع الصلة عن الأعصاب الشعبية الجماهيرية، جيء بالبغدادي المحمودي ليكون نائباً له، وليكون الحلقة مع القيادة أيضا.

من إنجازات شكري غانم الأولى، نقله مقر مجلس الوزراء، وبشكل دائم من سرت إلى طرابلس، وبمساعدة سيف الإسلام، تمكن من إقناع معمر القذافي بذلك، بل يمكن القول بأنه فرض ذلك عليه فرضاً وبطريقته الحادة اللبقة. كان مكتب شكري في الدور الثاني من المبنى الذي كان مخصصاً . لأمانة الوحدة الأفريقية . وبعد إعادة دمجها مع الخارجية، إستولى شكري على المبنى، الذي كان في الثمانينات مقراً للأمن الخارجي وتعرض للقصف الجوي الأمريكي سنة 1986م. كان

مكتب شكري في الدور الثاني، ومكتب البغدادي المحمودي في الدور الرابع، تولى البغدادي إعادة تأهيل المبنى، وأصبح بالإمكان أن يطلق عليه، مجلس الوزراء، جلس شكري في الدور الأول يستقبل الوزراء والسفراء وبعض الضيوف، ومن مكتبه في الدور الرابع، مارس البغدادي دور رئيس الوزراء الفعلي، أو لنقل الموازي، تحول مكتبه إلى خلية نحل، يجتمع مع مدراء المؤسسات، وأمناء المؤتمرات الشعبية، والضباط من كافة الرتب، ولا ينقطع إتصاله اليوم بقلم القيادة ويوجه التعليمات للوزراء، خاصة وزير المالية. كان شكري غانم بحكم دراسته وتجربته، وتربيته الطرابلسية الحذرة، يحسب إلى العشرة قبل أن يأمر بصرف أي مبلغ مالي، يتابع تقارير الشفافية في بلدان العالم، ويكثر من الشكوى حول ترتيب ليبيا المتدني في ذلك. حاول جاهداً أن يواجه الهدر في المال العام، وأن يضع ضوابط للصرف والمخالفات المالية، لكنه إصطدم بعقبات لا تعد، وعلى رأسها أبناء القذافي الذي يرون أنفسهم فوق القانون، وأن مال ليبيا هو مالهم أولاً وأخيراً. إقتنع في نهاية الأمر أنه لا يستطيع إدارة البلاد، ورأى أن يترك الأمر للدكتور البغدادي المحمودي، الذي خَبِر أهل البلاد، وقائدها، وعرف إشارات المرور التي تحكم حركة الجميع، وفك كل الشفرات. إستمرأ الإثنان هذا الترتيب وتعايشا معه، وقال شكري غانم: "إن البغدادي، نصفه الأعلى إنسان، والأسفل ثعلب، والعكس صحيح، ولكنه الثعلب الذي أحبه".

في مارس 2006م تمّ تعيين البغدادي رئيساً للوزراء، ونقل شكري غانم إلى المؤسسة الوطنية للنفط بدرجة وزير. بقيت في منصبي وزيراً للخارجية، وأخذَت علاقتي مع البغدادي بعداً جديداً وقوياً. كما سبق القول، تولى البغدادي رئاسة الوزراء وقد أنزلت ليبيا أثقالها الدولية، وإنطلقت بدفع من سيف الإسلام القذافي نحو ما سمي بليبيا الغد، وكان البغدادي قادراً على أن يأخذ بيده أغلب الخيوط المالية والإدارية، إن ميزانية الجيش التي كانت لا تتبع مجلس الوزراء تمكن البغدادي من جعلها ضمن حماه، تعَوَّد سيف الإسلام أن لا يبقى داخل ليبيا إلاّ أياماً معدودةً وينطلق في رحلات لا تتوقف بين قارات العالم، ونجح البغدادي في إقناع الجميع

وأولهم زمـلاءه الـوزراء أن كـل كلمـة يقولهـا قـد وضـعها سـيف الإسـلام فـي فمـه. وإستطاع أن يحولهم أي مجرد وزراء ينفذون ما يقول.

بعد تدفق زعماء العالم على خيمته، وإتساع خياله الأفريقي، عفّ القذافي عن متابعة تفاصيل الشؤون الليبية، ورأى أنها أقل من مقامه، وقال في أحد جلسات مؤتمر الشعب العام: أنا قائد عالمي، أتواصل مع زعماء الدنيا، وليس لدى الوقت لأتحدث مع البغدادي، أو شلقم، أو معتوق". إكتشف البغدادي أن هناك مساحة رحبة من الصلاحيات، تنتظر من يملأها، فمعمر القذافي القائد الأممي الذي خصص كل وقته تقريباً للإسراع في إقامة الولايات المتحدة الأفريقية، وكل يوم يقرأ . النظام الأساسي للإتحاد الأفريقي . ويكتب على أطراف صفحاته تعديدلات، يعدلها في اليوم التالي. وسيف الإسلام الذي يأتي إلى ليبيا كزائر، يكتفي بإستعراض بعض خرائط المشروعات الجديدة بحضور البغدادي وعدد من الخبراء المعنيين، والبغدادي هو الباقي دائما، والمتفرغ الذي يقضي أكثر من 17 ساعة في اليوم بين الأوراق، ومواقع تنفيذ المشروعات، متنقلا بين المدن والقرى الليبية. حفظ البغددي واجبه المنزلي، وأصبح أكثر معرفة بالمشروعات المنفذة من الوزراء المعنيين بها، وساعدته ذاكرته الحادة على حفظ الأرقام، والمواقع، والأسماء، وأصبح القذافي يكتفي بإستدعائه لمعرفة ما يجري على ظهر الأرض الليبية وبطنها، وأصبح يتحكم بميزانية تزيد على 120 مليار دولار. بل إخترع تبويباً جديداً للميزانية، وهناك مبالغ لا يعلم مكانها إلاّ هو، وأنشأ أجساماً مالية تابعة له مباشرة مثل صناديق الإنماء والمحافظ الإستثمارية، والأجهزة التنفيذية وهكذا غرق البغدادي المحمودي في ليبيا، وغرقت فيه، وتفرغ معمر القذافي لمجده الأفريقي نهاراً، وطار إبنه سيف الإسلام حول الدنيا، يطوف بين أمجاده الخاصة.

"3"

لم يمر يوم تقريباً لم ألتق فيه أنا والبغدادي عندما نكون في طرابلس، أو نتحدث هاتفياً على الأقل، وكثيرا ما أصرَّ على إصطحابي في رحلاته الخارجية، وتكون الطائرة مكاناً إستثنائياً للأحاديث ذات الشجون. كانت بقايا الملفات الدولية، والإهتمامات العالمية الأخرى تستدعي حضوري مع البغدادي عندما يستدعيه القذافي، أو يستدعيني، وكانت تلك اللقاءات تتم في طرابلس وفي أحيان أخرى خارجها مثل سبها أو بنغازي، أو سرت، أو منطقة السدادة، في بعض الأحيان كانت تلك الجلسات تطول، فيبدأ القذافي بإستحضار بعض النوادر والأحداث الطريفة التي شهدتها بعض مؤتمرات القمة، أو بعض المفارقات المضحكة، أو يعلق على تصرفات أو أقوال بعض المسؤولين الليبيين، وكثيرا ما قام بالتعليق على تصرفاتي لدفع البغدادي لمهاجمتي في إطار الود أو يفعل العكس، بأن يتعمد بإفتعال وقيعة بيننا بأسلوب مازح، لكي أبادر بالتنذر على البغدادي، فذات مرة قال للبغدادي: "أنت متهاون مع مرؤسيك من الأمناء، ولا تسيطر على إدارات الدولة بالشكل المطلوب". فعلقت على ذلك قائلا: "والله يا أخ القائد، أنا أدعو دائما للمرحومة والدة البغدادي"، فسألني . هل كنت تعرفها؟ أجبت "بأنني لم أرها قط، ولكن لأنها أنجبت لنا ربع البغدادي، ولم تنجبه كله". كناية عن صغر حجمه.

وكنّا مرة لدى القذافي ومعنا عبد العاطي العبيدي، الذي كان يشغل عندئذ مساعدي للشؤون الأوروبية، كنّا بمنطقة تسمى المربعات وهي شبه محمية بها قطعان من الإبل والأغنام، فخرج البغدادي من الخيمة ثم عاد وقال: إن الجمال تتبعني، فقلت له: "إن الجمال على أشكالها تقع" وضحك الحاضرون. علق عبد العاطي، أن بعضاً من قبائل العبيدات لا يأكلون لحم الإبل، فقلت معلقا: "أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه". كان القذافي يحب أحياناً التبسط والمزح في حدود، خاصة عندما تطول جلسات العمل، ويرتاح إلى القفشات والنوادر وبعض الأبيات الشعرية

التي تتضمن الحكمة والقيم الإنسانية والتي لا تتقادم. إستدعاني ذات مرة مع حامد الحضيري، الذي كان يشغل منصب سفيرنا في بلجيكا، وفي الإتحاد الأوروبي لمناقشة الإنضمام إلى مسار برشلونه، وكان هو يعارضه علنا، وكنت أقول علنا بأهمية إنضمامنا له، ولم ينتقد موقفي هذا، وإنضم إلينا مدير مكتبه بشير صالح، وأمين تجمع س.ص، المدني الأزهري، كأن رأي أن لا نتخذ موقفا محدداً، ويجب أن نترك الباب مواربا بهذا الخصوص، لأننا قد نحتاج يوماً إلى هذه المسار، ويجب أن تكون معالجتنا لهذا الموضوع بتأني، وإستشهدت بأبيات للشاعر المرحوم محمد المهدي الجواهري التي قالها في رثاء الرئيس جمال عبدالناصر:

أسفي عليك فلا الفقير كفيته فقراً ولا زدت الغني غنــاءَ

قد كان حولك ألف جار يبتغي هدماً ووحدك من يريد بنــاءَ

إلى أن يقول:

ينقضُّ عجلانا فيفلت صيدَهُ ويصيده لو أحسن الإبطاءَ

فطلب مني إعادة هذا البيت الأخير، وسجله على ورقة كانت أمامه.

إنتقلت العلاقة، إلى المرحلة الثلاثية، وحرص البغدادي أن أكون معه عندما يقابل القذافي، وقد فوجئت مرة وهو يتصل بي لأتحرك إلى المربعات، طبعاً يعني لمقابلة القائد، ولما سألته عن موضوع المقابلة قال البغدادي ستعرف بعدين، وعندما وصلت، وجدت عدداً من مهندسي التخطيط العمراني، وقد أراد البغدادي أن أعاونه لأن القذافي كان يريد إحداث تغييرات كبيرة في بعض المخططات العمرانية. تكرر ذلك كثيراً، وقد عملت ما أستطيع في كثير من الحالات ونجحت حيناً، وفشلت أيضا في أحيان أخرى.

لقد ساعدني البغدادي كثيراُ، في تحسين رواتب أعضاء السفارات الليبية في الخارج، وصيانة مبنى وزارة الخارجية، وعندما كان يُقتّر على الوزارات الأخرى كان يستثني الخارجية.

وقد حدث أن قرر وزراء الخارجية العرب تقديم دعم للفلسطينيين، وكانت حصة ليبيا حوالي خمسة مليون دولار، وإتفقت مع البغدادي على تحويل المبلغ دون إستشارة القذافي، وعندما علم بذلك، أمَرَ بإقتطاع المبلغ من ميزانية وزارة الخارجية، نفذ البغدادي الأمر ولكنه قام بتعويضنا بطريقته الخاصة. تكرر نفس الشيء عندما قمنا بدفع نصيب ليبيا في ميزانية الجامعة العربية.

في يناير سنة 2009، قمت بزيارة واشنطن بدعوة ومن وزير الخارجية الأمريكية آنذاك كوندا ليزا رايس، وأجريت معها مباحثات ناجحة تركزت على تطبيع العلاقات بين البلدين، وفي طريق عودتي إلى طرابلس توقفت في لندن، وأجريت مباحثات مع وزير الخارجية البريطاني آنذاك ملينباد. عدت إلى طرابلس وبعد يومين توجهت إلى الرباط للمشاركة في إجتماع وزراء خارجية دول إتحاد المغرب العربي. وعندما وصلت إلى منزلي بطرابلس علمت أنه قد صدر قرار من أمانة مؤتمر الشعب العام بإيقافي عن العمل. كانت الأمانة قد أجرت تحقيقاً معي يوم عودتي من رحلة واشنطن، سبب التحقيق قولهم أنني لم أستشر القائد للقيام بتلك الزيارة. والحقيقة أنه كان من يستعجلني للقيام بها، وقبل مغادرتي طرابلس إلى واشنطن إلتقيت به بمكتبة القيادة بطرابلس بحضور محمد سيالة الأمين المساعد لشؤون التعاون بالخارجية، وسجل ما دار بيننا.

كانت طبيعة عملنا السياسي، تقضي بأن لا نبوح بكل التفاصيل، وكانت أجوبتي فضفاضة، ولكن الأمانة إستدعت محمد سيالة الذي أدلى بكل التفاصيل. إعتقدت أن الأمر إنتهى عند هذا الحد ولكنني فوجئت بعد عودتي من الرباط بقرار إيقافي عن العمل. غضبت غضباً شديداً، وإتصلت بالصحفية عفاف القبلاوي، مراسلة وكالة

الأنباء الفرنسية، وصرحت لها بأنني قررت الإستقالة من منصبي، لأن أمانة مؤتمر الشعب العام قررت إيقافي عن العمل بتهمة أنني موال للغرب، وأسأتُ إدارة ملف العلاقات معه، وأضفت أن أعضاء الأمانة لا يفهمون السياسة الدولية، ولا يشرفني العمل معهم. وفي صباح اليوم التالي، أخذت سيارة وتوجهت إلى قريتي في جنوب ليبيا. عندما وصلت ظهر نفس اليوم إلى سبها ودخلت بيت والد زوجتي الذي كان قد إنتقل إلى رحمة الله، وجدت جموع المعزين، وهمس أحد إخوة زوجتي أن من بينهم عدد كبير من رجال الأمن، وأن عشرات الإتصالات الهاتفية جاءت من طرابلس تسأل عني. غادرت سبها متوجهاً إلى قريتي . الغريفة . وهناك أخبرني إخوتي أن مسؤول الشرطة بالمنطقة كان هنا منذ قليل يسأل عني. وعلمت أن مسؤولاً في طرابلس أبلغ وكالة الأنباء الفرنسية أن الذي إتصل بمراسلتهم بطرابلس وأعطاها التصريح المنسوب إليّ هو شخص إنتحل شخصيتي، وأنني أمارس عملي المعتاد بوزارة الخارجية، ووجهت أمانة مؤتمر الشعب العام تعليمات إلى وزارة الداخلية بمراقبة الحدود الجنوبية بليبيا لمنعي من مغادرة البلاد.

إتصل بي عدد من الأصدقاء وأنا بالغريفة لإقناعي بالعودة إلى طرابلس بسرعة خوفاً من أن تأخذ الأمور مساراً لا يحمد عقباه. كان ما قمت به أمراً غير مقبولاً في ليبيا، ليس من طرف معمر القذافي، ولكن من الجميع، إتصل بي البغدادي، وألح علي بالعودة إلى طرابلس، وأنه قد أرسل طائرة خاصة إلى سبها لتحملني إلى طرابلس، وحتى أتوجه إلى القاهرة في اليوم التالي للمشاركة في إجتماع وزراء الخارجية العرب. قلت له سأتوجه من سبها إلى القاهرة مباشرة دون المرور على طرابلس، لكنه أصرّ عليّ أن أمضي ليلة في طرابلس وأتوجه بعدها إلى القاهرة. كان البغدادي، قد إتصل بقلم القيادة، وبسيف الإسلام القذافي وأمانة مؤتمر الشعب العام لإلغاء قرار إيقافي عن العمل. نفذت ما طلبه مني البغدادي، وطويت تلك الصفحة. بعد عودتي من القاهرة، توجهت إلى منزلي مقرراً أن لا أذهب إلى مكتبي بالخارجية، وإتصلت هاتفياً بالقذافي، وقلت له أنني أريد أن أبقى بمنزلي ولم تعد لدي الرغبة

بالعودة للعمل بالخارجية، لأنني أعتقد أن صلاحيتي إنتهت، وحدثته عن أمانة مؤتمر الشعب العام، وتخبطها...ألخ.. كان من جانبه لطيفاً وملاطفاً وقال: "تعالى إليّ غداً سأعطيك كأساً، ولكن من حليب النوق".

عند إنعقاد جلسة مؤتمر الشعب العام بعد ذلك حضر معمر القذافي، وأمام الجميع طلب من الزناتي محمد الزناتي القذافي، وأحمد إبراهيم القذافي النزول من منصة الأمانة، وسمى بديلين لهما.. إعتقد الجميع أن هذا الإجراء كان عقاباً لهما، وترضية لي، لكن الحقيقة أن أيادي سيف الإسلام وكذلك البغدادي المحمودي، كانت وراء تلك الدفعة التي قام بها العقيد، وألقت بالقذافيين إلى خارج منصة أمانة مؤتمر الشعب العام.

وبعد تعييني مندوب لدى الأمم المتحدة، قام البغدادي بإصدار قرارات إيفاد للعمل بنيويورك للموظفين الذين طلبتهم بالإسم، وحوّل المبالغ المالية التي طلبتها لصيانة مقر البعثة وشراء سيارات جديدة، وإستغل في ذلك زيارة القذافي القادمة لنيويورك للمشاركة في أعمال الجمعية العامة.

"**4**"

كان الدكتور البغدادي المحمودي يكرر دائما أمام الجميع: {عبد الرحمن شلقم هو توأمي في الدنيا، وإذا متنا نريد أن ندفن معاً في نفس القبر}. وكنت أعلق عليه، مازحاً، بقولي: { يا أخي، تحملتك في الدنيا لأنها واسعة، ولا أستطيع أن أتحملك في القبر فهو ضيق}.

ما كنت يوماً، أظن، أو أتصور، أنني سأكتب هذه الكلمات عن البغدادي المحمودي، فقد كانت علاقتنا الوطيدة، مثار إنتباه للكثيرين، لم تقم على مصالح، أو على تحالف سياسي، بل كانت خلاصة كيمياء إنسانية، أنضجتها الأيام من القاهرة، إلى سرت، إلى طرابلس، دافع عني، ودافعت عنه، عملنا معاً من أجل ليبيا، إختلفنا

كثيراً من أجل ذلك، وكنت من أكثر المنتقدين لكثير من ممارساته، وكثيراً ما عارضته في جلسات اللجنة الشعبية العامة، وكان أيضا صريحاً معي، ينتقد ما يراه خطأ في أعمالي وسلوكي، ولكن كتلة الود بيننا كانت هي الأكثر ثقلاً في ميزان علاقتنا، يعلم الكثيرون تلك الحادثة التي دخل فيها رجال الأمن إلى منزل الدكتور البغدادي المحمودي، بحجة أنه إستولى على مولد كهربائي بدون وجه، وكان ذلك بتعليمات من النائب العام حينئذ العميد محمد المصراتي، وقد قام أقارب البغدادي بإطلاق النار على رجال الأمن، وعلى الفور إتصل بي اللواء أبو بكر يونس جابر أمين اللجنة المؤقتة للدفاع قائلا: "أرجوك يا عبد الرحمن أن تهدئ صاحبك . يقصد البغدادي . وأنا سأعالج كل شيء". بعد ذلك جمعنا سيف الإسلام القذافي بمنزله بمنطقة المربعات، أنا، والبغدادي، والمصراتي، لتسوية الأمر، وهناك هاجمت المصراتي بشدة وقلت يا محمد، ما هكذا تورد الإبل.

وعندما شبّ خلاف بينه وبين موسى كوسا رئيس جهاز الأمن الخارجي تدخلت لتسوية ذلك. وتوسطت مراراً لتجاوز خلافات بينه وبين زملاء آخرين.

في المقابل كان ينسق معي ويقف إلى جانبي في معالجة الكثير من الأزمات، بل كثيراً ما تولى هو شخصياً الملفات التي تهم وزارة الخارجية التي كنت على رأسها، مثل الأزمة مع سويسرا التي سببها هانيبال القذافي، وسببت له الكثير من المضايقات.

وكذلك ملف الممرضات البلغاريات. وكان يحضر إلى مكتبي لترأس الإجتماعات التي تعالج ملفات ساخنة ومعقدة ويتحمل معي المسؤولية.

وفي آخر زيارة لي إلى طرابلس وأنا مندوب لليبيا بالأمم المتحدة دخلت عليه في مكتبه وكان معه الدكتور محمود جبريل، وكنت غاضباً منفعلاً، فقد وجدت أمام

منزلي وأنا أغادره صباحاً، عجوزاً تبكي لأنها تريد السفر إلى تونس للعلاج وليس لديها المال اللازم. قلت له يا دكتور إلى أين تقودون البلد؟ هل يعقل أن تتسول عجائزنا لكي يذهبن إلى العلاج بتونس؟! ردّ البغدادي بهدوء: يا أخ عبد الرحمن، مشكلتنا غياب الخبرة والإدارة. قلت وأن أشير بسبابتي إلى صورة القذافي المعلقة على الحائط: لا يا دكتور، مشكلتنا هذا المختل، وإستعملت التعبير الإنجليزي . بسايكو باتيك . صَمَتَ البغدادي. وقد قال لي الدكتور محمود جبريل بعد ثورة 17 فبراير وإنحيازنا معا لها وتعبئة جهودنا لخدمتها قال لي محمود: لقد أنقذك البغدادي، وأنت تعلم أن هناك تسجيل بمكتبه، فلو حول التسجيل إلى قلم القيادة، لهلكت. وبالفعل لقد كان في موقف البغدادي هذا إنقاذ لي، ومغامرة من طرفه، فلو أُكتُشِفَ ما قلت، وعُلم سكوته عليه للحِقَهُ أذى جسيم. ومواقف أخرى مماثلة لا يتسع المقام لسردها، أو عدها.

وفي آخر إتصال لي بمكتبه بعد فراقي لنظام معمر القذافي، لولوغه في دماء الليبيين، ردّ عليّ محمد القالوشي، أقرب مساعديه إليه وقلت له: " يا محمد، بلغ الدكتور البغدادي أنني أناشده بإسم الماء والملح الذي بيننا، والعلاقة التي ربطتنا، بلغه أنني أطلب منه أن يغادر، وأن يترك هذا النظام المجرم الذي يقتل أهلنا، هذا النظام سيزول، وسيلعنه التاريخ وسيبقى الشعب الليبي، وسيتحرر، وسيبني بلاده . ليبيا الحرة من جديد". ووعدني القالوشي بأنه سينقل ذلك حرفياً إلى البغدادي.

كنت أحس بأن من واجبي أن أقرع هذا الجرس أمام ضميره، طافت أمامي سحابات الأسى والحزن، وأنا أراه على شاشات التلفزيون بلحيته البيضاء يدافع عن المجرم والجريمة، ويكيل الشتائم والشخائم لبني جلدته الذين يواجهون الرصاص بصدورهم العارية دفعاً للظلم ودفاعاً عن حريتهم وحرية وطنهم، وهو واحد ممن سيستظل بأغصان هذه الحرية التي يموت من أجلها الليبيون، فهو من أكثر الذين أهينوا، من أولاد القذافي وهم في عمر أولاده، وعجبت كيف يستمرأ الإنسان قيد

العبودية ويدافع عنه، ويعمل ليلاً نهاراً لتجنيد أموال ليبيا وكوادرها وبناها لحماية قاتل شعبه؟.

لن تجمعنا أي دنيا معاً، فبعد ثورة شبابنا في 17 فبراير، وبعد المجازر التي إقترفها القذافي وأعوانه وعلى رأسهم البغدادي المحمودي ضد أولادنا، تدفق طوفان الدم، وتحولت صرخات الشباب والنساء رعود تزمجر في سماء ليبيا، وأصبح الدم نهراً يضع كل واحد منا في ضفة بعيدة عن الضفة التي يقف عليها الآخر، ولن تسمح تلك الرعود بأن يسمع أحدنا الآخر، أما القبر الذي تمنى البغدادي مرة أن ندفن فيه معاً، لن يحفر أبداً، فقد دُفن هو مبكراً، في حفرة اللعنة الأبدية.

يوم 2011\8\10 بثت محطة . ليبيا الأحرار التلفزيونية . تسجيلاً صوتياً، لمكالمة تلفونية بين البغدادي المحمودي، وأحمد رمضان السكرتير الخاص لمعمر القذافي جاء فيها ●أحمد رمضان: هل سمعت أن . القرد . شلقم سيذهب إلى الصين؟ ●البغدادي: والله، هذا القرد مشكلة، أينما نذهب نجده أمامنا، لا بدّ من قطع رأسه. ●أحمد رمضان: ولماذا لا تقطعون رأسه، لا بدّ من قتله. ●البغدادي: حاولنا معه، والمرة الأخيرة في بنغازي نجا منها، ولكن لا بدّ أن نقطع رأسه. هناك من قال بعد ذلك، أن المقصود في ذلك الحديث، كان . د. محمود جبريل، رئيس المجلس التنفيذي.

لكن حديث قطع الرأس، مع أحمد رمضان، كان أهون بكثير مما بثته قناة ليبيا الأحرار يوم 2011\8\13، وهو تسجيل صوتي بين حسن الكبير القذافي والبغدادي المحمودي. تحدث حسن الكبير عن التطورات التي تشهدها ليبيا وإعترف أن البلد في مأزق، ولا بدّ من الدبلوماسية الهادئة، وعدم التناقض في التصريحات وأشار . الكبير . إلى أن عدداً من الوزراء والسفرار قد إنشقوا... فقال البغدادي، هؤلاء مثل . العبد . شلقم، يحتضن . العبدة . السفيرة الأمريكية في مجلس الأمن، هذا يستحق أن يقتل، ويحرق هو وعائلته بنفس الطريقة التي أحرق بها هتلر اليهود في

الهولوكوست.. ماذا كان يساوي هذا العبد، الذي كان يشرب اللاقبي في الغريفة، هل كان يحلم أن يصل إلى ما وصل إليه... علق الكبير، بأن هذا . شلقم . تربطه علاقة طويلة بالقائد، أكثر من خمسين سنة إلخ، وها هو خان الماء والملح. أذاعت المحطة بعد ذلك تعليقاً لمحمود الورفلي، ومحمد العلاقي على كلام البغدادي، أكتفي بما جاء في التعليقين.

* إعتقل في تونس في أواخر شهر سبتمر 2011، بتهمة دخول الأراضي التونسية بصورة غير شرعية وبهوية مزورة، حكم عليه بالسجن مدة 6 أشهر، قيل أنه أضرب عن الطعام، بعد أن تقدمت السلطات الليبية بطلب لتسليمه لها. ألغي الحكم الصادر ضده فيما بعد، فقد دفع أنه مواطن تونسي وليس ليبيا، وتبرأ من كل الجرائم التي شهدتها ليبيا، نسي أنه قال يوما: " أنا المسئول شخصيا عن كل ما حدث في ليبيا منذ 17 فبراير، وليس لمعمر القذافي علاقة بكل ما حدث. لقد إنتزع وهم السلطة والمال قلبه، وإغتال عقله، صار أقل من ربع إنسان، لأنه تلاشى تحت عباءة – القائد – ولم ير شعاع الوطن.

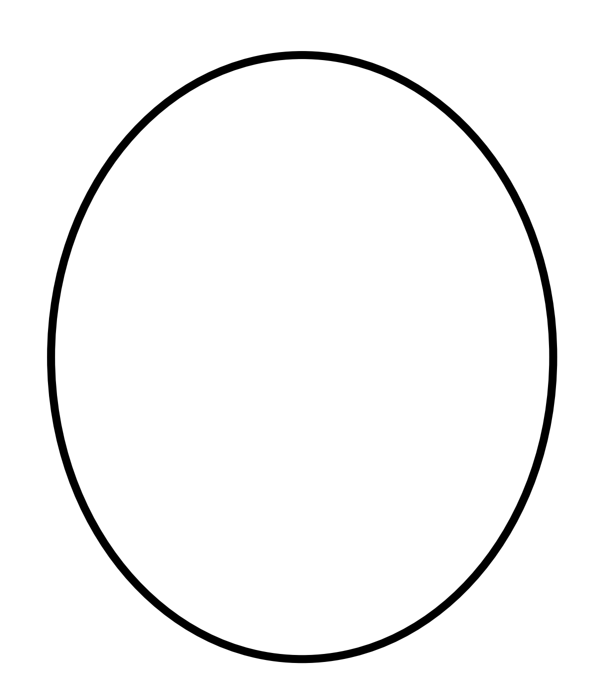
قتل الثوار الليبيون معمر القذافي، وإبنه المعتصم، الذي أدمن إهانة البغدادي المحمودي، وقبضوا على سيف القذافي الذي كان يعطي التعليمات للبغدادي، فرت عائلة القذافي إلى الجزائر، وأنهار قصر الوهم الذي بناه وحاول أن يبيعه لنفسه. دفع البغدادي أمول ليبيا للمرتزقة، حرص على إغتصاب بناتها، شتم الثوار، إعتلى كرسي الدفاع عن القذافي، أعد قانوناً لتنصيب معمر ملكاً على ليبيا.

كانت مسيرة البغدادي الورقة المزيفة الأكثر إشتعالاً في كتاب النهاية، سيبقى يلعق دم اللعنة الذي يقطر فوق رأسه، ومن أحشاء الأكاذيب، هل سيقول يوماً لأحد أولاده: لقد كان أبوكم سيفاً من سيوف الظلم، فأبحثوا لأنفسكم عن اسم آخر لا يعرفه الليبيون.

لقد بنى البغدادي، مسلّةً هوائية، من المال، والسلطة، والقبيلة، بجمارة من نار، طاف حولها حقبة من الزمن، إعتقد أنها فعلاً تحوي مكنون الأبد، إنحنى، وبكى، من أجل تلك المسلّة. قايض بها تراب الوطن، وجسد الوطن، وشعبه. إعتقد أن معمر القذافي هو المثلث المذبذب فوق رأس مسلته الهوائية، وأن ليبيا، مجرد إسم تلاشى بين الأسماء التي أضافها قائده، لم يسمع الأنين ولم ير الدم، ولم يعرف معنى الشرف، والحق، ما معنى أن تغتصب بريئة ليبية، غاص في غيبوبة التزلف، بعد أن تجرّع سيول الإهانة والذل.

ظهر وسط المحكمة التونسية، بعد طلب القضاء الليبي تسليمه لمحاكمته على ما أقترف مرضه، ظهر، خائراً، يعصره الرعب، ويمزقه صوت الحقيقة، ضاق المكان، ونطق الزمان، لقد أسماه، مهينه ومرعبه –المعتصم– أسماه القابلة، ماذا سيقبل اليوم، هل مولود القضاء، أم حقيقة القدر؟.

المهندس جادالله عزوز الطلحي



المهندس جادالله عزوز الطلحي

من مواليد الجبل الأخضر، بعد تخرجه من الهندسة ببلجيكا أقام في طرابلس، وعمل بوزارة الصناعة، وبعد الثورة التي قامت سنة 1969 تقلد مناصب هامة إلى أن أختير وزيرا للصناعة في وزارة الرائد عبدالسلام جلود، وللصناعة وشيجة قوية مع الإنقلابات العربية التي سميت بالثورات. فلكي تكسب أي حركة عسكرية تصل إلى السلطة لا بد أن تضع على صدرها أيقونات خمس وهي:

1. الوحدة العربية
2. الإشتراكية
3. العلاقة مع المعسكر الشرقي وفي مقدمته الإتحاد السوفييتي
4. تحرير فلسطين
5. الصناعة.

وهناك أيقونة سادسة، وضعتها بعض الحركات على صدرها ولكن بنسب مختلفة، وهي الخصومة مع الولايات المتحدة، وإن كانت بعض تلك الحركات تحتفظ بخطوط سرية مع أمريكا. رفعت ثورة سبتمبر الشعار الثلاثي الناصري – الحرية – الإشتراكية – الوحدة. معلنة إختلاف هويتها عن البعث الذي رفع نفس الشعار الثلاثي، لكن بترتيب مختلف وهو وحدة – حرية – إشتراكية.

وقد تألق المطربون والمطربات بمصر في التغني بمداخن المصانع وزمجرتها، ولكي يكون للشعارات أغان لا بد من إقامة المصانع.

الرائد عبد السلام جلود كان يردد أنه ستالين الثورة الليبية، ولقد فسر البعض هذا القول بأن جلود يؤمن بالعنف الثوري الدموي، وهذا غير صحيح، ولكنه كان يقصد

تحديدا أنه يريد تبني الخطط الخمسية للتنمية التي تنسب إلى ستالين/ وتحويل الإتحاد السوفييتي إلى دولة صناعية. بعد حرب سنة 1973 وإرتفاع أسعار النفط بشكل غير منتظر، تدفقت الأموال على الخزينة الليبية، وفتحت الأبواب لقادمين جديدين هما، السلاح والمصانع. وكان جلود أكثر حماسا للمصانع منه إلى السلاح، وإن لم يعارض فتح الأبواب له، والعسكريون مثلهم مثل بقية البشر، المثقفون والأدباء والكتاب، لهم بضاعتهم التي يفرحون بها، وبالنسبة لهم فإن الكتب هي البضاعة التي تبهج، وبها يتفاخرون، والمهندسون يتسابقون على إقتناء المعدات الهندسية، منهم الذي يتهافت على شراء المعدات القديمة، وعندما تمتلىء جيوبهم بالمال، يشدون الرحال إلى قاعات المزاد العلني لشراء تلك المعدات القديمة مهما إرتفع سعرها. ولا ينسيهم ذلك التسابق على أحدث المخترعات في هذا المجال. وهكذا يفعل الفنانون، والأطباء، وغيرهم، وينطبق على الجميع ما جاء في الآية الكريمة – كل حزب بما لديهم فرحون – فأمنية كل عسكري أن يرى أرتالا من الدبابات وسط معسكره، والمدافع مصفوفة جنب أسواره، وآلاف الجنود يهرولون ويتدربون ويصرخون. وهكذا كان، وحقق هؤلاء الضباط الشباب حلمهم.

بعد أن تكدست آلاف الدبابات، وصُفّت المدافع، أصبحت الشهية للصدام والحرب ضرورية بحكم الغريزة البشرية، فعندما تكون أطباق الطعام أمام أي شخص تتهيج شهية الأكل بشكل غريزي، والمثل الشعبي يقول: القوة تعلم الصراع. سألني أحدهم مرة: لماذا أدخلتم في حرب مع تشاد؟ أجبت: "لأن لدينا سلاح".

لم يكن الرائد عبد السلام جلود بعيدا عن حرب تشاد بل كان في مرحلة من المراحل قائدها العسكري والسياسي أيضا، وكان من المؤمنين إيمانا مطلقا بضرورة تصدير الثورة ولو بالقوة، وبالتدخل السياسي والعسكري في الدول المجاورة. في بعض الحالات كانت تنتابه حالة الثقافة، ويعد نفسه من المثقفين، وقد تشتد هذه الحالة لترفعه إلى مصاف المفكرين، وإذا قابلته، فأنت وحظك، فإذا كان يعيش حالة المثقف،

فتلك ساعة الحوار والتسامح والإستماع والضحك. أما إذا إرتفعت الدرجة ووصلت إلى وضع المفكر، فسيرتفع الصوت وتتدفق لغة الإستاذ، ويُفرض – الإتجاه الواحد – في مسار الكلام، ولا أقول الحوار أو النقاش.

أيام تدخلنا العسكري في أوغندا لدعم عيدي أمين، إلتقيت مع آخرين بالرائد عبد السلام، وتطرق الحديث لأوضاع قواتنا في أوغندا، وكان الجو يسمح بالحديث الصريح، وكنا نعلم أو على الأقل البعض أن الرائد جلود يتحفظ في الحديث بعض الأحيان، ويكون حذرا في التعبير عن حقيقة آرائه ومشاعره، خوفا من أن يُنقل ما يقول إلى الأخ العقيد كما يطلق عليه. وكانت أخبار المآسي والكوارث التي حلت بالقوات الليبية على كل لسان، وتفضل بعض الحاضرين بآراء صريحة وجريئة، كان من بين الحاضرين أبو زيد دورده، والدكتور محمد أحمد الشريف، والمرحوم إبراهيم بكار، لم يكن لدي إلمام بتفاصيل ما يجري في أوغندا، وكانت معلوماتي لا تزيد عن معلومات أي ليبي يتابع الأمر كمواطن. قلت: أن تدخل أي دولة في صراع مسلح خارج أراضيها، سينتج عداوات متوقعة وغير متوقعة، ويحرك الدول الكبرى التي لها حسابات معقدة وخفية، بل أن هذه الدول نفسها عندما تدخل في تلك الصراعات البعيدة تدفع ثمنا باهظا، وقلما تحرز نصرا مبينا، رأينا ما حدث لمصر في اليمن، وأمريكا في فيتنام، ولفرنسا في الهند الصينية وغيرها. لم يعلق الرائد جلود.

برغم رتبته العسكرية، كان الرائد عبد السلام جلود يفضل أن يظهر بمظهر المدني، ولم يرتد الملابس العسكرية بعد الثورة إلا في مرات محددة، وبعد قيامه بزيارات إلى عدد من الدول الغربية التي تركزت حول التعاون الإقتصادي، لبس عباءة الخبير والعليم الإقتصادي، وكان يجمع من حوله ثلة من الإقتصاديين والماليين الليبيين، حتى صدق بسبب نقاشه الطويل معهم وإلتقاط بعض المصطلحات الإقتصادية، صدق أنه أكبر منهم جميعا. في أواخر أيام الرئيس الفرنسي الأسبق جورج بومبيدو، قام الرائد عبد السلام جلود بزيارة إلى فرنسا، ولقي إهتماما كبيرا من

حكومتهـا، وكـان بومبيـدو يهـيء وزيـر ماليتـه جيسـكار ديسـتان لمنصـب رئـيس الجمهوريـة، فنصـح الرائد عبد السلام جلود أن يلتقي مـع جسكار ديستان، تـم تحديد الموعد، وذهب ديستان إلى مقر إقامة جلود، وبعد طول إنتظار بدأ الإجتماع الثنائي، تحدث جلود مدة أربعين دقيقة يشرح الأوضاع الإقتصادية في العالم الثالث، وضرورة إنهاء نهب الدول الرأسمالية الغربية لثروات الدول النامية، وشرح جلود بتفصيل ممل رؤيتـه لإقتصـاد عـالمي جديد. بعد أن صمت جلـود، إستأذن جيسكار ديستان وودع الرائد جلود دون أن يعلق بكلمة واحدة على المحاضرة الطويلة التي ألقاها عليه.

يقول ميكيافيلي في كتابه الأمير: " هناك ثلاثة أنواع من العقول، أولها يدرك الأمور دون عون ومساعدة، وثانيها يدركها بمساعدة الآخرين وإرشادهم، وثالثها لا يدركها لا بالمساعدة ولا بدونها".

الرائد جلود من النوع الثاني، وكان جادالله عزوز الطلحي هو المهندس الملاك الذي صممه القدر على مقاس عقل جلود وطموحاته.

عمل جاد الله وزيرا مع الرائد جلود، ونجح المهندس أن يصمم مسافته الخاصة مـع الرائـد، ونجـح أيضـا أن يرسـم إشـارة مـروره الخاصـة علـى طريـق تواصـله مـع العسـكري الثـائر الطمـوح، كـان جلـود عسـكريا بـين الإقتصـاديين، وإقتصـاديا بـين العسـكريين، إسـتهواه مصـطلح الإقتصـاد، وإسـتمرأ دور المخطـط، بـل المنظـر الإقتصادي، وكان يستدعى بشكل شبه يومي تلة من الإقتصاديين والخبراء الماليين من بينهم محمد الطاهر سيالة الذي أسس شركة الإستثمارات الخارجية الليبية، ومحمد عبد الجـواد، الـذي تـولى مناصـب عاليـة فـي المصـارف وفـي قطـاع الـنفط، ورجـب المسلاتي محافظ مصرف ليبيا المركزي آنذاك، ومحمد لياس الرجل المصرفي وغيرهم وعلـى رأس هـؤلاء جميعـا كـان المهنـدس الطلحـي، هنـدس المهنـدس جـادالله الطلحـي شخصيته وفقا لحالات رؤسائه، وفي مقدمتهم معمر القذافي وعبد السلام جلود، كان الإثنان مشدودين إلى شريحة المهندسين، يريان فيهم قدرات ممتازة على التنظيم ودقة

الآداء وإنضباط ميكانيكي فريد، ولهذا إختار القذافي المهندس المرحوم طه الشريف بن عامر ليكون وزير دولة لشؤون مجلس قيادة الثورة، أي مديرا لمكتبه بدرجة وزير، وإختار جادالله الطلحي مرتين رئيسا للوزراء، ومديرا لمكتبه، ووزيرا للصناعة والتخطيط والخارجية.

جاد الله الطلحي الذي ولد في شرق ليبيا، وتخرج من إحدى جامعات بلجيكا في نهاية خمسينيات القرن الماضي، وإلتحق بالعمل الحكومي بطرابلس وإستقر بها وتدرج في مناصب فنية إلى أن عين وزيرا للصناعة في حكومة الرائد عبد السلام جلود.

جادالله رجل مثقف، ترجم عددا من الكتب التاريخية من الفرنسية إلى العربية، ونشر عددا من البحوث العلمية، يختار كلماته بشفافية، وينمق سطوره بلغة عربية منتقاة، إستطاع أن يفرض شخصيته الخاصة وأن يحافظ على قوته وأن يفرض إحترامه حتى في أيام الهيجان الثوري، لقد شنت عليه الصحافة الليبية هجوما شديدا وبذيئا عندما كان رئيسا للوزراء، ونشرت إحدى الصحف الثورية مقالا بعنوان: سوموزا في اللجنة الشعبية العامة، أي أن الديكتاتور النيكاراغوي، القصير القامة في رئاسة وزراء ليبيا، وبعد نشر هذا المقال بأيام قال معمر القذافي لجادالله الطلحي: هؤلاء الأولاد يسقطون أحيانا في مقالاتهم، وقد سمعت أنهم كتبوا مقالا سيئا ضدك وبإمكانك أن تقاضيهم، فرد عليه الطلحي: " أنني لا أقرأ الصحافة الليبية ".

وفي إحدى جلسات مؤتمر الشعب العام، تهجم أحمد إبراهيم منصور القذافي إبن عم العقيد على جادالله رئيس الوزراء، فرد عليه قائلا: "تفضلوا خذوا كرسيكم، أنا لست حريصا عليه، والله لولا غائب حاضر، لخرجت الآن من هذه القاعة". بالطبع كان جاد الله الطلحي يعلم أنه ما من أحد يكتب حرفا ضده، أو ينطق بكلمة إلا بتعليمات مباشرة من القائد. ومرة كنت أجلس مع جادالله بمكتبه وهو رئيس للوزراء، إتصل به هاتفيا معمر القذافي، وحاولت أن أغادر المكتب، فأشار علي بالجلوس، كان معمر يطلب من الطلحي أن يبني مصنعا للدبابات، فرد عليه الطلحي بأن ذلك من

المستحيل، لا من حيث القدرة العلمية، والصناعية، ولا الجدوى الإقتصادية، وأن هناك سياقا معروفا للتصنيع، وليبيا غير مؤهلة للصناعات الثقيلة لا الآن ولا بعد عشرين سنة، وبعد أن أقفل الهاتف تحدث إلي بإستنكار عن أفكار " القائد " النزقة.

وعرف عنه جرأته في مواجهة أقارب القذافي، وأعضاء مجلس قيادة الثورة، وكثيرا ما اشتكى أبو بكر يونس جابر المسئول عن الجيش من الطلحي لعدم تلبيته لطلباته. وقد تناقل الليبيون واقعة طرده للعقيد حسن إشكال القذافي، الذي عرف بعنجهيته وقسوته عندما فتح الباب وإندفع إلى مكتب الطلحي دون إذن أو موعد مسبق.

إستطاع الطلحي، أن يؤسس إسلوبا ولغة يتعامل بهما مع قائده الذي عمل بقربه لعقود، وكان القذافي يعامله بإحترام، ولا يرو أحد من الليبيين موقفا أو حادثة أهان فيها القذافي الطلحي، ولكن حدثني بعضهم عن تطاول عبد السلام جلود عليه. تولى جادالله الطلحي في أواخر أيام عمله إدارة النهر الصناعي، وكان بين مادح وقادح، وتناقلت الأفواه الكثير عنه، وهذا أمر نتركه لمن يهمهم الأمر.

كان آخر موقع تولاه الطلحي مندوب ليبيا الدائم لدى الأمم المتحدة، عندما كنت أشغل منصب وزير خارجية ليبيا.

في سنة 2007، إندلعت مواجهة بين معمر القذافي، وبالتالي الحكومة الليبية والحكومة السويسرية، بسبب إعتداء هانيبال معمر القذافي وزوجته اللبنانية على عاملين معهما، وألقت الشرطة السويسرية القبض على هانيبال وزوجته، إشتعل معمر غضبا، قاد معركة شاملة ضد سويسرا، نقل منها الأموال الليبية ومنع الليبيين من زيارتها ثم أعلن عليها الجهاد، ورغم كل المساعي الأوروبية والتنازلات السويسرية، إلا أن معمر القذافي لم يلن، ولم يهدأ، بل إندفع في عدائه لسويسرا إلى درجة غير معقولة وغير مسبوقة، إذ طالب بتقسيم دولة الإتحاد السويسري، وأجرى إتصالات مع

عدد من زعماء العالم لإقناعهم بطلبه. تحدث مع رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني، بإعتبار أن جزءا من الأراضي السويسرية تقطنه أقلية إيطالية، وأراد معمر القذافي أن يرفع الأمر إلى الأمم المتحدة لتتخذ قرارا دوليا بتقسيم الدولة السويسرية.

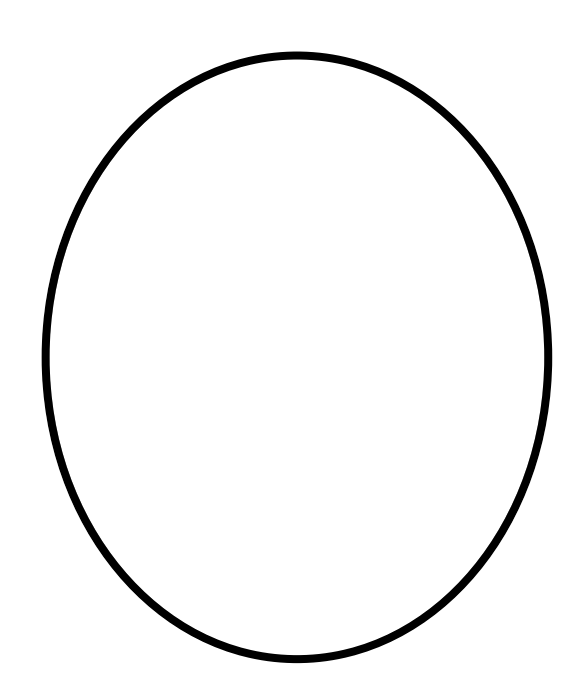
إتصل بي هاتفيا بشير صالح بشير، مدير مكتب القذافي، وأملى علي نقاط طلب صياغتها وتضمينها لكلمة ليبيا السنوية أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، وإرسلناها إلى البعثة في نيويورك، ولم يرد جادالله الطلحي بأي رأي، طبعا إجتهد مدراء الإدارات المعنيون في الخارجية لتخفيف النص، وللأمانة فإن محمد الحجازي الذي كان يعمل أيضا في مكتب القذافي ممتعضا من تلك الخطوة، قبيل إنعقاد الدورة أعددت نفسي للسفر إلى نيويورك ككل سنة بصحبة زوجتي، ووصلنا إلى مطار طرابلس لبداية رحلتنا إلى نيويورك، فجأة إتصل بي رئيس الوزراء البغدادي المحمودي، أبلغي أن القائد يريدني بشكل عاجل، قلت له أنني في المطار، وحقائبي على متن الطائرة، قال عد الآن وغدا سأعطيك طائرة خاصة. عدت إلى منزلي برفقة زوجتي، بعد قليل إتصل البغدادي المحمودي، طلب مني أن أمر على مكتبه لنذهب سويا إلى القيادة. هناك طلب معمر صورة من الكلمة التي سألقيها في الجمعية العامة، شطب أغلبها، وقال لا بد من كتابة النقاط التي أعطيت إليكم بالنص، ولا داعي لإعادة صياغتها، قلت له أن الدعوة إلى تقسيم أي دولة عضو في الأمم المتحدة مخالفا للميثاق، وأن لجنة جدول الأعمال التي تعمل تحت توجيه الأمين العام سترفض هذا البند حتما لأنه مخالف للميثاق، قال: تكفي إثارة هذا الموضوع هذا العام، وستتصاعد موجة المؤيدين لتقسيم سويسرا لآنها مركز غسيل الأموال والفساد المالي الدولي.. ووو.. حاول محمد حجازي مساعدتي في إقناع القذافي، وأعدت المحاولة فغضب، ومزق الأوراق وقال لي: " لا تذهب إلى نيويورك، جادالله يلقي الكلمة، ووجه كلامه إلى محمد حجازي قائلا: تكتب الكلمة حسب التوجيهات، وترسل إلى جادالله، شلقم لا يسافر، ووجه الحديث إلى البغدادي المحمودي: " أنت المسؤول يا دكتور، شلقم لا يسافر".

عدت إلى بيتي، ورغم كل المشاعر، والإحباط، أحسست أن حالة عاصفة من التوتر قد أزيحت عن كاهلي... أبرقت إلى جادالله الطلحي في نيويورك بأنني لن أذهب إلى الأمم المتحدة، وسيتولى هو رئاسة الوفد الليبي وإلقاء كلمة الجماهيرية أمام الجمعية العامة وعليه الإلتزام بالتوجهات المطلوبة في الكلمة. لم يرد بأي شيء.

بدأت الجمعية العامة نشاطها ككل سنة في الثلاثاء الثالث من سبتمبر وألقى الطلحي كلمة ليبيا، خالية بالكامل من الإشارة إلى موضوع سويسرا، بل خلت أيضا من نقاط أخرى تتعلق بمواضيع متنوعة قد تم توجيهه بخصوصها، لاقت كلمته إرتياحا بين المسؤولين الليبيين، ولكنها أشعلت غضب – القائد – ، طلب نص الكلمة التي ألقاها الطلحي، طبعا، إعتبر القذافي ذلك تمردا، وطلب مني إستدعاء المندوب فورا، حاولت إقناعه بالتريث إلى أن تنتهي مدة عضويتنا بمجلس الأمن، لم يكن القذافي ملحا في متابعة هذا الموضوع، وطلب التحقيق مع جادالله. إستدعي إلى طرابلس وقابلته، وقال أنه لم يتصل بي بخصوص الكلمة لآنه لم يرد إحراجي، وتحمل المسؤولية بمفرده، وهو يرغب في العودة إلى طرابلس وقد ملّ من وجوده في نيويورك وحيدا، حيث أن كل عائلته مقيمة في طرابلس. أصدرت قرار عودته إلى ليبيا، ولم أدر أنني سأكون بديله في رئاسة بعثتنا في الأمم المتحدة. عاد الطلحي إلى طرابلس وإلى مكتبه الخاص وتابع نشاطاته الثقافية وخاصة في مجال الترجمة، كان مكتبه قبلة لكثير من الوزراء وكبار المسؤولين الليبيين، هناك حائط المبكى لهم، يجترون البكاء على حال البلاد، والتخبط، وفساد أولاد القذافي.. إلخ... رأى العديد من الليبيين في جادالله عزوز الطلحي، شخصية وطنية ذات قيمة، كان صاحب رأي، لم تسجل عليه أو عنه أي معلقة إطراء لمعمر القذافي، وكما نقول في ليبيا – ما كانش محروق في الشارع – لكن الليبيين صدموا فيه بعد إندلاع ثورة الشباب في 17 فبراير، وإنحيازه لمعمر القذافي، وظهوره على شاشة التلفزيون الحكومي وهو يقبل كتفي معمر القذافي، ثم يلقي الكلمات المكتوبة بعناية وهو يصف الثوار الشباب بالمتمردين، ويطالبهم بالرجوع إلى الشرعية، شرعية القيادة، أي معمر القذافي.. لقد

صعقت وأنا أتابع هذا الرجل الذي كنت أحسبه وطنيا، وأظنه ذكيا. ولم يكن للطلحي أي منصب رسمى عند إنفجار ثورة فبراير، وبالتالي لم يكن ملزما بأي موقف سياسي وإعلامي علني، وقد خرج إلى فرنسا للعلاج، وكان بإمكانه أن يتعلل بالمرض ويبقى في باريس، ولم أجد تفسيرا لسلوكه وقلت في نفسي، ربما هو عامل السن، أو فعل المرض، أو المطامع السياسية والمادية هي التي جعلت رجلا مثله، يكتب الصفحة الأخيرة من كتاب عمره، بهذه الحروف المخجلة، ولله في خلقه شؤون.

المهندس عبدالمجيد القعود



المهندس عبد المجيد القعود

"علـى قولـة القعـود". هـذه مقولـة إنتشـرت بـين النـاس فـي ليبيا. الكبـار والصـغار، النسـاء والرجـال، أصـبحت أكثـر إنتشـارا مـن مقـولات كتـاب معمـر القذافـي الأخضـر. هناك مساحة تعودنا أن نجدها في بعض المطبوعات عنوانها – صدق أو لا تصدق – تحتوي علـى العجائـب والغرائـب التـي يصـعب علـى العقـل البشـري تصـديقها، لقد إسـتبدل الليبيـون إصـطلاح – صـدق أو لا تصـدق – بمقولـة " علـى قولـة القعـود ". فكيف كان ذلك؟ تنسب هذه المقولة إلى المهندس عبد المجيد المبروك القعود، الذي تبوأ مراكز شتى في الدولة الليبية، فقد تخرج من كلية الهندسة القسم المدني جامعة طـرابلس وعـين فـي النصـف الأول مـن السـبعينات وزيـر دولـة للتنميـة الزراعيـة، عقد المؤتمر الوطني لتنظيم الإتحاد الإشتراكي العربي في ليبيا سنة 1975، وكان بمثابة البرلمان، وطلب من كل وزير أن يتحدث عن إنجازات قطاعه، تحدث كل الوزراء في إطـار التوجهـات العامـة، ومسـتهدفات خطـط قطاعـاتهم ومبـررات وضـع الخطـط مـن خـلال قـراءة الواقـع، مـع تطعـيم ذلـك بـبعض التعبيـرات والشـعارات الثوريـة.. ولكـن المفاجأة كانت مداخلة المهندس الشاب عبدالمجيد القعود، لقد طار مثل بساط الريح فـوق وديـان ليبيـا، سـهولها ووهادهـا، وجبالهـا مـن أقصـى الشـرق إلـى الغـرب إلـى الجنـوب، ينطـق القـرى والبلـدات كبيرهـا وصـغيرها كمـا ينطقهـا أبناؤهـا، وهنـاك مـن الأسماء ما لم يسمع بـه أغلب الليبيين، لا تتريب على ذلك، بل هو مما يدعو إلى الإرتياح، والتأكيد على أن وزراء العهد الثوري هم ميدانيون، يحبون أرضهم، ينتشرون فيها من أجل الوقوف إلى جانب المحتاجين ووو ألخ.. لكن المهندس الشاب الغلاّب، إنـدفع يقـذف الأرقـام مـن فمـه كمـا تقـذف السـماوات حبـات الـثلج... يقـول مـثلا إن المشروع الفلاني والذي تبلغ مساحته مائة وعشرة آلاف هكتار وستمائة وثلاثة وأربعين ونصف ويستهلك من المياه أربعمائة وإثنين وخمسين ونصف لتر مكعب، وينتج من

القمح سبعمائة وثلاثة وعشرين قنطارا، ويعمل به ثلاثمائة وإثنان وعشرون عاملا ... إلخ ويتطلب من السماد... يقذف تلك الأرقام من فمه وهو يواجه المجتمعين دون ورقة، أو لوحة كتب عليها ما كان يقرأه. نظر الناس إلى بعضهم، بين مكذب ومصدق، ومدهوش ومذهول. ومع إرتفاع درجات المهندس في سلم المسؤلية زادت قدرته على التفاعل والتنابز بالأرقام، كان المهندس بين إدارة مكتب قائد الثورة، ورئاسة الوزارة، وعمادة بلدية طرابلس، وإدارة النهر الصناعي. كان عبد المجيد القعود مفارقة تصنع المفارقات وتبدعها، فعندما تجلس إليه سواء كان بمفرده أو بمعية أحد يتفنن في نقد النظام، ويستخف برأسه أي بالقائد، ولكن هذا المهندس هو الذي هشّ على أهله لكي يكتبوا وثيقة موآخاة بالدم تعلن قرابتهم مع قبيلة القذافي، بل مع عائلته، عبد المجيد القعود ينحدر من منطقة غريان وبالتحديد من بلدة تسمى " القحيصات "، وقد فسر ذلك بأنه تصحيف من " القحوص " وهي العائلة القذافية التي ينتمي إليها العقيد معمر القذافي.

عبد المجيد القعود هو ظاهرة بارزة من ظواهر ليبيا القذافي، سواء على مستوى شخصيته، وأسلوب حديثه، وإبداعه لخطاب دعائي له بلاغته الغريبة، فمثلا، أعلن وهو وزير للزراعة في أواسط ثمانينات القرن الماضي أنه أقام مشروعا ضخما للموز، وأن ليبيا ستكون من أكبر المصدرين لهذا المحصول الزراعي، ولم ير الليبيون إصبعا واحدا منه، كما أعلن في مناسبات كثيرة أن العالم كله يدرس مشروع النهر الصناعي العظيم، وأن إسبانيا وماليزيا وأمريكا ستقيم مشروعات مماثلة، وردا على ما يقال أن هذا النهر سينضب بعد سنوات معدودة، قال القعود، أنه ينهل من مخزون لا ينضب أبدا، مثل أي نهر طبيعي في الدنيا.

كان معمر القذافي لا يتردد وفي حضرة الكثيرين أن يصف المهندس القعود بالكذاب، وأذكر أننا كنا في لقاء مع القذافي، أنا والبغدادي المحمودي ود. عبد الحفيظ الزليطني سنة 2008 في زيارة للقذافي بمنطقة السداده جنوب طرابلس،

وتحدث القذافي مطولا عن إستغلال مياه النهر الصناعي، وإستفسر القذافي بالتحديد عن منطقة تسمى " فم ملغا" وماذا زرع بها، تحدث القعود مطولا عن الخطط، وعن البرامج المعدة للمنطقة، وقال أنها مزروعة الآن، وذكر الأشجار والمحاصيل التي تمت زراعتها بتلك المنطقة. وكان القذافي يتابع الحديث في صمت، وبنظرات ريبة وسخرية، وفي النهاية قال: أنا أعلم أن كل ما تقوله هو كذب، وإذا قلت لك أنني سأزور هذه المنطقة غدا، فستضع فيها بعض الأشجار الجاهزة، وتنزعها بعد مغادرتي، هذه عقليتك وأكاذيبك. ويتناقل الليبيون أحاديث كثيرة منسوبة إلى عبد المجيد القعود وعن إعتزازه بأقواله وإستعراض حذلقته، وتحديه، وعندما ينطلق في ماراتون الأرقام، ويعبر أحد عن شكه فيما يقول، يرد القعود أن الذي لا يصدق ما أقول ليتفضل بإحصاء ذلك على الأرض، وهل يستطيع مواطن مثلا أن يقوم بإحصاء الهكتارات وقياسها على الأرض، أو وزن آلاف الأطنان من القمح أو الشعير إلخ... القعود شخصية غريبة فعلا، فهو مثلا لا يتوقف ولا يتردد في التهكم على الجميع وفي مقدمتهم معمر القذافي حتى عندما يكون على عتبات مكتبه أو خيمته، ولكن بمجرد الإقتراب منه يشرع في تدبيج عبارات الولاء والتقدير والتعظيم، ويندفع في تقبيله بطريقة هو أول من يعلم أن قائده وإبن عمه المفترض معمر القذافي يدرك مدى زيفها.

زرته مرة وهو عميد لمدينة طرابلس أو كما كان يقال عندئذ أمين اللجنة الشعبية العامة لشعبية طرابلس، فوجدته غاضبا، وإندفع في فورة إنتقاد شامل وحاد، يتحدث عن التردي الذي وصلت إليه البلاد وعن الفساد، وعن جنون معمر القذافي، وجهل أعضاء مجلس قيادة الثورة، وتخلف أعضاء أمانة مؤتمر الشعب العام، وكانت لديه وصفة تفصيلية لكل واحد منهم، تفيض بالإستهزاء، وفجأة دق الهاتف، وأدركت أن المتحدث على الطرف الآخر هو الخويلدي الحميدي أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين، والمشرف على أجهزة الإستخبارات، فتحول القعود إلى كائن آخر، نقيض ما كان عليه منذ ثواني، وجهه الحرد المنقبض، علته علامات الفرح والسعادة، وإنشقت

إبتسامة عريضة على إمتداد فمه، وإرتفع صوته بالمديح، وإسترسل يعدد مناقب الرجل، وفيما كان فمه يعبر عن ذلك، كانت يده تعبر عن حركة بذيئة لا يقوم بها إلا السفلة من سقط المتاع وأرذال البشر. وبعد أن وعد الرجل بتنفيذ كل أوامره وأغلق خط الهاتف، عاد إلى ما كان عليه قبل المكالمة من تذمر وشتائم لكل ما يدور في البلاد، وخصّ الخويلدي بالنصيب الأوفر.

وقف القعود مرات عديدة أمام لجان التحقيق في كثير من القضايا وخاصة بتهمة الفساد المالي، وتداول الناس الكثير عنه!!

" القعود " في اللهجة الليبية يعني الصغير من الجمال، ويروى أن المهندس عبد المجيد زار مرة منطقة – القبة – في شرق ليبيا وإلتقى عددا من وجهائها، وأثناء الحديث معه تصرف وتحدث بطريقته الساخرة المترفعة، فهو ينظر إليهم كأناس بدو، ومجموعة من الجهلة المتخلفين، وهؤلاء الناس عرف عنهم حدة الذكاء وقوة الحضور أي ما يعرف بالفراسة البدوية، فقام أحد كبارهم بمناداته قائلا: إسمع يا قعود، وظل يكررها، إلى أن شعر الحاضرون بالإحراج، فقال له أحدهم: عليك أن تخاطبه بالمهندس عبد المجيد، فرد المتحدث: " إن هذا لقبه إذ إختاره له الناس وقبله أجداده وأبوه ".

عبد المجيد القعود من الأشخاص الذين وجد فيهم العقيد معمر القذافي المواصفات الكاملة التي تحمل اللحم والعظم والدم الذي ينسجم مع دوائر المكان والزمان في خارطة كونه، فهو من طائفة المهندسين التي يرى فيها القذافي الآلة الدقيقة التي تقرأ بقدرة خاصة خطوط الطول والعرض في عقل العقيد ومزاجه. وهو من الأشخاص القلائل الذين عملوا في مواقع شتى من الزراعة، إلى مكتب القذافي، إلى رئاسة الوزراء، ثم النهر الصناعي... قال عنه معمر القذافي في الجلسات الأخيرة لمؤتمر الشعب العام: " إن عبد المجيد يجب أن يتولى أمانة الزراعة إضافة إلى أمانة النهر الصناعي العظيم، فهو ديكتاتور ويستطيع أن ينفذ الإجراءات الجديدة

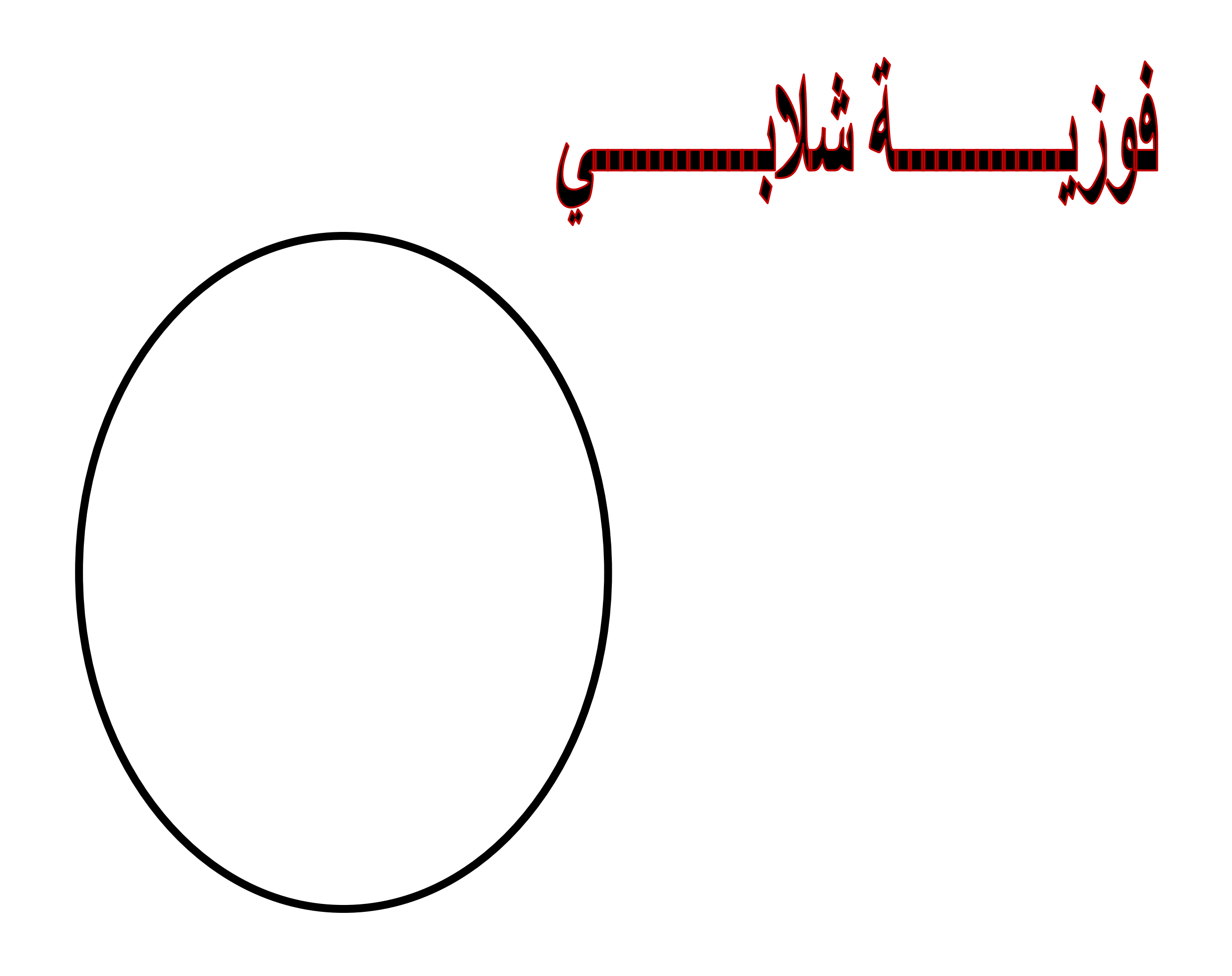
المطلوبة، وأضاف القذافي، أن أبو بكر المنصوري أمين الزراعة هو رجل طيب لا يستطيع أن يسيطر على العاملين في قطاع الزراعة، ولا يقدر على تنفيذ ما نريده. وبالفعل كان عبد المجيد القعود ديكتاتورا، فهو يتسلط ويهين من هم أدنى منه وظيفيا ويتملق من هم أعلى منه. أذكر أننا كنا في زيارة إلى بلغاريا والإتحاد السوفييتي في ثمانينات القرن الماضي، رفقة العقيد القذافي، وضم الوفد عددا كبيرا من الوزراء، وعندما كنا نجلس مع عدد منهم جاء أحد العاملين بجهاز المراسم الليبية، فتطاول عليه القعود ونعته بأوصاف بذيئة من بينها – الشذوذ الجنسي – فغضب الموظف الشاب البسيط وإنهال بالشتائم على القعود وحاول بعض الحاضرين تهدئة الموقف ولاذ القعود بالصمت، وتحول إلى كائن آخر، غرقت عيناه في حفرها، وتلاشت معالم القوة من سفح وجهه وغاص في حالة من العدم، وبُهت.

في جلسات مؤتمر الشعب العام، جرت العادة أن يتحدث كل وزير أو رئيس قطاع عن ما أنجز خلال العام، وكان القعود عبر عقود حكم القذافي أحد فرسان القاعة، يسهب ويطنب في تعداد الإنجازات، ولا ينسى الليبيون العبارة التي يدخلها القعود في متن مداخلاته وهي: " أن الفضل يجب أن ينسب لأهله، والأخ القائد هو الذي وجه بكذا وكذا". لكن المهندس بعد أن يغادر القاعة، ويقف ويجلس في ردهة مبنى الإجتماع يغير الشريط، ويشرع في نكته ونوادره على صاحب الفضل ومن حوله، كنت قي زيارته ذات مرة وهو أمين اللجنة الشعبية العامة طرابلس، وكان هذه المرة في مزاج رائق، وبدأ يحلل واقع البلاد، وكان يتحدث عندما آلت إليه البنية التحتية، وسؤ الإدارة والفساد، وختم تحليله هذا بالقول: لوأن شارون إحتل ليبيا لما فعل بها ما فعله معمر القذافي وأبناء قبيلته.

عبد المجيد القعود هو حالة تستحق الدراسة العلمية الشاملة، وهو ظاهرة تكمن فيها حقائق تكشف " منهج" توظيف الأشخاص من قبل – الطاغية – فقد كان القذافي يعرف مكونات شخصية هذا الإنسان ووظفها إلى أقصى حد. كان القعود يستدعى

إلى التحقيق عن أقوال تفوه بها ضد النظام وقائده، ويؤتى بالشهود، ويعطى الفرصة للدفاع عن نفسه، ويعاد إلى نفس منصبه، بعد توبيخ خفيف أو ثقيل، كان هذا الأسلوب أحد مكونات عدة السيطرة والتوظيف. ولكن يمكن القول أن عبد المجيد القعود هو أرشيف قائم بذاته، قدر ما هو أحد مكونات جماهيرية القذافي، وكان يدرك ذلك، فعندما تفجرت ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، وعقدت اللجنة الشعبية العامة – مجلس الوزراء – إجتماعا لمناقشة الموقف ومعالجته، إتخذ القعود موقفا متشددا ضد هذه الثورة، ووصل إلى حد الإزدراء والشتائم، وكان في الجناح الذي يدفع في إتجاه إستعمال القوة ضد الشباب الثوار... وهو الذي كان لا يتوقف في مجالسه الخاصة عن الحديث عن فساد النظام ويستخف برموزه وينعتهم بالجهل والتخلف. لقد ذهب القذافي وسقط مع نظامه وأركانه بمن فيهم القعود الذي سيبقى ظاهرة نادرة، ولن يزول بسرعة من ذاكرة الليبيين.

ألقي القبض عليه بعد سقوط نظام القذافي، أنا لا أشفق عليه وهو في المعتقل، فذاك مكان يليق به، ولكنني أشفق على المحقق، الذي سيتولى إستجوابه.


فوزيـــــة شلابـــي

فوزية شلابي

فوزية بشير شلابي، علامة تدل على الكثير من المعلوم، ومن المسكوت عليه، ومن المستور، وهي أحد أصابع التفجير الإجتماعي والصحفي، والثقافي، وأيضا النفسي. خيط من نسيج متعدد الألوان ! متدفق مسافة الأحداث والأقوال والصحف، لم تكن كلمة سر، وإنما كانت فصولا من عبارات البوح، لكنها أخيرا إمتشقت كلمة السر والبوح أصبحت تقسم بالقائد بطريقتها الخاصة في الشدّ والمد، توشي حوارها أو حديثها بتكرار عبارة " وراس معمر "، هذا القسم المشحون، يختزل بقدر ما يسهب ويفصح.

شابة خمرية، قصيرة القامة، نحيفة، تتحدث بكامل وجهها، تلم شعرها الأسود الطويل في ضفيرة واحدة ترسلها على جانب واحد من صدرها، ترتدي كنزة زرقاء وبنطلون جينز ضيق، يساعدها وجهها المستطيل وغمازتاها الحادتان على التعبير عن كلماتها المشاكسة، ونظراتها المداعبة المغازلة أحيانا، قدمها لي معمر القذافي سنة 1976 عندما كنت أتجول معه في مكتبة القيادة رفقة المرحوم المهندس طه الشريف بن عامر وزير الدولة لشؤون مجلس قيادة الثورة، طلب مني القذافي أن أستقبل طالبتين بجامعة طرابلس وهما فوزية شلابي، وسعاد الوحيدي، كتب طه الشريف الإسمين، وقال القذافي : أريدك أن تساعدهما على أن يصبحا كاتبتين، أفسح لهما المجال في الصحيفة، فلديهما أفكار جريئة، نريدهما أن يساهما في الثورة الإجتماعية، وفي تشجيع المرأة على التمرد، كنت آنذاك رئيسا لتحرير صحيفة الفجر الجديد اليومية، إتصل بي في اليوم التالي المهندس طه الشريف وأخبرني أنهما سيحضران إلى مكتبي وعليّ إستقبالهما. حضرت الشابتان في اليوم التالي، كان إنطباعي الأول عن فوزية أنها ذكية وواعدة، كانت أقرب إلى التكلف في حديثها، تريد

أن تقدم نفسها كإنسانة لها أفكار ورؤية. لكنهما إندفعتا فجأة في نوبة تبسط عقبتها ضحكات مفتعلة، طلبت منهما مغادرة المكتب.وإتصل بي طه فيما بعد وطلب مني إستقبالهما مرة أخرى وأن أكون أكثر تسامحا معهما، عادتا في اليوم التالي وناقشنا القضايا التي ترغب كل منهما الكتابة فيها. بدأت فوزية شلابي مباشرة في الكتابة وإظهرت إستعدادا وقدرة على التعاطي في الشأن الثقافي والفكري.

فوزية شلابي، الشابة النكرة التي تحولت إلى فكرة، ونستطيع أن نقول أن معمر القذافي قام بإستثمارها، أو إستعمالها، بعد أن نجح في إكتشافها على طريقة مخرجي السينما، مثلما أعاد إنتاج شخص مثل الدكتور رجب أبو دبوس أستاذ الفلسفة، وحوله من مشاكس فكري إلى صدى، قبل أن يتحول بحكم قوة الإندفاع وإستمرأ رضا معمر عنه، إلى صاحب الفترينة الأكبر التي تعرض أفكار معمر القذافي عبر المدرج الأخضر، وأكاديمية الفكر الجماهيري.

إستخدم معمر القذافي فوزية شلابي من البداية إلى النهاية، ووظف كل شيء فيها، القلم، واللسان، والجسد، والكيمياء النفسية والإجتماعية، وكذلك ظروفها العائلية، ونزواتها، وإندفاعاتها وحبها للإختلاف والإستفزاز. فوزية شلابي ليست هدى بن عامر، أو مبروكة الشريف، أو جميلة درمان، أو جميلة غيث إلى آخر قائمة مملكة الحريم داخل بلاط قائد الثورة.

فمن هي فوزية شلابي؟

عرفتُ فوزية سنة 1976، وتعرفتُ على أمها، والحاج المرحوم الصديق البسكي زوجها، وهو من طرابلس، متزوج قبلها من إمرأة أنجبت له عددا من الأولاد والبنات، كان يدير فندقا صغيرا بطرابلس، لم يقم مع الحاجة – صالحة – والدة فوزية، نقول لها الحاجة وهي لم تؤد فريضة الحج أبدا، ولكن الليبيين يطلقون على الكهل الحاج

وعلى المرأة التي تجاوزت سن الخمسين الحاجة من باب التوقير. كان الحاج الصديق يزور الحاجة – صالحة – لماما ولا يبقى معها إلا ساعات معدودة.

تعرفت فوزية شلابي على كل أفراد عائلتي تقريبا، أمي، إخوتي، وحتى أقاربي، ولكنني لم أعرف من عائلتها سوى أمها، أو زوج أمها، ومن بعد الرجال الذين تزوجوا من فوزية وهم أربعة، زوجها الأول إبن عمها سليمان شلابي، الذي أنجبت منه إبنها الأول – مرتضى – وزوجها الثاني عبد الرحمن الجعيدي، وزوجها الثالث عمران عبد الحفيظ القذافي، وزوجها الرابع والأخير عصام عثمان الهوني، ولكل واحد من هؤلاء قصة سنتعرض لها فيما بعد.

رسم الناس في داخل ليبيا وخارجها صورة متعددة الألوان لفوزية شلابي، بل نستطيع أن نقول صورا، ووضعوا فيها من زخرفة الخيال أكثر مما أخذوا من ألوان الحقيقة والواقع، وضعوها في أماكن لم تطأها قدمها، وسطروا عنها ولها تاريخا لم تكن به، مشوا بها في طرق كانت من صنع الخيال، كما يحدث مع نجوم الفن، وأبطال الخرافات وكان للمحطات السياسية والإجتماعية وأقول حتى النفسية التي تخبطت بها ليبيا تحت ظل قيادة معمر القذافي دورا في رسم تلك الصورة لفوزية شلابي ولغيرها أيضا...

لنقف عند ما توره شبكة المعلومات " الإنترنت " عن حياة فوزية، ولنأخذها كمنطلق للصورة، وليس كمصدر موثوق، فالمعلومات الواردة ليست كلها نقلا لحقائق، قدر ما هي تعبير عن صورة، تقول مصادر الإنترنت عنها ما يلي:

- الإسم : فوزية بشير شلابي.
- مكان وتاريخ الميلاد: 1953 طرابلس (لأم يهودية وأب ليبي).
- ترعرعت في المدينة القديمة مع أمها وجدتها (كانتا تعملان بشارع الكندي بطرابلس).

- عرفت منذ الصغر بسوء الأخلاق وغرابة الأطوار.
- إهتمت منذ المرحلة الإعدادية بالإطلاع على كتب الفلسفة والتاريخ، ودرست بالقسم الأدبي في مدرسة طرابلس الثانوية للبنات.
- إلتحقت بكلية التربية بعد 1969، ومنذ البداية سعت بكل جهدها إلى التقرب من القذافي وعناصر النظام.
- كانت متزوجة من إبن عمهاوطلقها القذافي منه، وزوجها إلى عبد الرحمن الجعيدي أحد كتاب الزحف الأخضر.
- ساهمت بقوة في أحداث السابع من إبريل، وكانت تقود المسيرات الثورية في الجامعة، وشاركت في التحقيق مع الطالبات اللاتي إعتقلن أثناء الأحداث.
- قامت بالتعاون مع عبد القادر البغدادي وموسى زلوم بقيادة إتحاد الطلاب الحكومي خلال منتصف السبعينات.
- برزت في بداية السبعينات مع الناصريين، وأختيرت عضوا في أمانة التنظيم الناصري في ليبيا، وساهمت بشكل كبير في إدارة العديد من الملتقيات والمخيمات التي أقامها الناصريون العرب في طرابلس.
- ظهرت لها كتابات صحفية في صحيفتي الأسبوع السياسي والثقافي، وشاركت في العديد من الندوات التي أشرفت عليها اللجان الثورية.
- تميزت كتاباتها بالجرأة والوقاحة أحيانا، وببذاءة الأسلوب عند التهجم على القيم الدينية والإجتماعية، وكثيرا ما كانت تدعو الفتيات للفساد والفجور وكان أول مقال لها بعنوان (إرفعوا الغطاء عن أنصافكم السفلى).
- بعد إلغاء صحيفتي الأسبوع السياسي والأسبوع الثقافي كلفها القذافي برئاسة تحرير صحيفة الجماهيرية.
- ثم كلفت من مكتب الإتصال باللجان الثورية بالإشراف على إدارة الصحافة بلجنة الإعلام الثوري التي تشرف على صحيفتي الجماهيرية والزحف الأخضر.

- إرتبطت بعناصر إعلام القذافي وخاصة أحمد إبراهيم، وتعتبر من رواد المدرج الأخضر، ومن الثوريات القلائل اللآتي قمن بإلقاء المحاضرات في معسكرات السابع من إبريل التسييسية.
- بعد تخرجها من كلية التربية كلفها القذافي برئاسة اللجنة الشعبية لمؤسسة الألعاب ولكنها لم تستطع إدارتها بالشكل المطلوب.
- إعتقلت في أحد الأسواق العامة بتهمة السرقة عندما كانت في زيارة إلى لندن، فتدخل المكتب الشعبي وتم تسفيرها إلى ليبيا بعد أن تمت تسوية الموضوع مع إدارة السوق في لندن.
- عملت بالسفارة الليبية بلندن في عام 1980 وتزامن وجودها مع مسلسل الإغتيالات والتصفية الجسدية للمعارضين في الخارج.
- مديرة الصحافة بلجنة الإعلام الثوري – 1982.
- عضوة باللجنة الإدارية للأعلام الثوري – 1982.
- مدير إدارة الثقافة ورئيس تحرير صحيفة الجماهيرية.
- أمين مساعد للجنة الشعبية العامة للإعلام والثقافة والتوجيه الثوري.
- مفتش عام لقطاع الثقافة (حكومة شكري غانم 2003).

ولنبدا من البداية، فهل أم فوزية شلابي يهودية؟

كنا نسميها خالتي صالحة، سيدة ممتلئة الجسم خمرية اللون، متوسطة القامة، على وجهها بقايا وشم، ليبية الملامح، تتحدث بلهجة طرابلسية، تجيد إستعمال بعض المصطلحات الطرابلسية، هي مصدر معلومات متنوع وغني جدا عن مجتمع طرابلس التحتي، خاصة الجانب الخاص جدا جدا، لها طريقتها الخاصة في التلميح والتصريح، هي التي تصوغ عناوين الأخبار الخاصة الساخنة، وتمتلك قدرة فريدة على التعليق، قال لها محمد الزوي مرة: نحمد الله إنك لم تتعلمي، فلو كنت من هؤلاء، لن نجد مكانا معك، وعلقتُ على كلامه بقولي: "العكس هو الصحيح، فلو أنها نالت نصيبا من العلم، لسبب لها ذلك الكثير من التشويش وفقدت عذرية الفراسة التلقائية". هي الرب الأعلى لإبنتها فوزية، فهي كل شيء بالنسبة لفوزية، وفوزية كل شيء بالنسبة لها، كانت تخافها، ولا تعص لها أمرا، وهي صاحبة القرار النهائي في كل أمور فوزية، فكل واحدة منهما هي رأس المال الأول والأخير بالنسبة للأخرى. والحاجة صالحة هي أول المدركين لذلك، وعندما أتصلُ تلفونيا أسأل عن فوزية تبادرني الحاجة صالحة بالقول: " إتصلت في وقتك يا وليدي، أنا الآن أحضر الغذاء، وهو " مقطع" وقلت في نفسي يا ريت عبد الرحمن يأتي اليوم ليتغدى معنا، هيا، تعال بسرعة فوزية في طريقها إلى البيت، ولن نأكل بدونك". وإذ لم يكن الأمر كذلك، أي إذا لم أكن في دائرة رضاء القذافي وأتصل تلفونيا ترد صالحة: " من أنت ؟" أقول عبد الرحمن، ترد: من عبد الرحمن؟ أقول شلقم، ترد: آه شلقم، فوزية غير موجودة، بالسلامة وتقفل الخط، فأعرف مباشرة وضعي الحقيقي في الدائرة.

صحيح، لم أعرف أي أحد من أقرباء الحاجة صالحة، سوى شخص واحد من البيضاء كان يعمل بوزارة الخارجية بطرابلس، يقول أن قرابة تربطه بها، حاولت أن أفهم منه حقيقة الحاجة صالحة، وما علاقتها فعلا بمدينة البيضاء، ولكنه كان يكتفي بأن لهة علاقة قرابة بعيدة بها، وأنه لا يعرف التفاصيل، ولا يعرف خلفية قدومها من

تلك المدينة التي تقع في الجبل الأخضر بالشرق الليبي إلى مدينة طرابلس، وكانت الحاجة تقول أن لها جذور في الجنوب الليبي خاصة بقبيلة الزوية، وبعائلة الحضيري بسبها، وكانت فوزية تنادي محمد الزوي بـ خالي، إستنادا إلى ما تذكره أمها عن العلاقة التي تربطها بقبيلة الزوية، ولم ألاحظ أي شيء يربط الحاجة صالحة باليهود، وقد سألت مرة اليهودي الليبي رافائيلو فلاح عنها، وهل هي من أصول يهودية، فرد بأن لا علم له بذلك، وأنه يذكر بأن بعض العائلات اليهودية في طرابلس كانت مجاورة للسيدة صالحة، وكانت تربطهم علاقة حسن جوار مثل بقية سكان المدينة القديمة، وأظن أن القائلين بأصول أم فوزية اليهودية هو من ضمن الألوان التي أضيفت إلى إطار الصورة لتحفيز حالة الشكوك والغموض من أجل تفعيل تأثير ذلك على دور فوزية شلابي في المحفل القذافي.

" **شارع الكندي** "

شارع الكندي قبل 1969، هو مركز تفريغ شحنة الغرائز، وضعت به مجموعة من النساء تقوم الدولة بالإشراف المباشر عليهن من الناحية الصحية والإدارية، تقيم كل إمرأة بغرفة خاصة بها، ويقف الزبائن من الرجال في صف الإنتظار وتتولى مديرة القسم – البدرونة – إستلام المبلغ المحدد من قبل الحكومة وتوجهه إلى الغرفة المحددة، كانت أغلبية النساء العاملات بهذا المركز من الفتيات الهاربات من ذويهن بسبب خطأ إجتماعي أو تجاوز سلوكي، وأغلبهن من خارج المدينة. كان شارع الكندي يقع في الجانب الغربي من طرابلس ولا يزال إسمه يحمل إيحاءات تقود إلى تاريخ يستعيده البعض بإعتباره تعبير عن حقبة من التفكير والسلوك الواقعي، حدثني أحد الأعضاء السابقين بمجلس النواب الليبي في العهد الملكي، وهو خريج دار العلوم بمصر، قال أن عددا من النواب طلبوا مقابلة المرحوم الملك إدريس السنوسي، وأثاروا معه موضوعين أولهما – المحل العام بشارع الكندي والذي سماه هؤلاء النواب بمركز

الفاحشة العلنية، وأن المحصنين يقومون بفعل الزنا علنا بهذا المكان، وأنهم يستحقون الرجم بحكم الشرع، ويجب قفل هذا المكان فورا.

أما الموضوع الثاني فهو إباحة شرب الخمر في المجتمع الإسلامي الليبي، وأن هذا يعد مخالفة صريحة لأمر الشرع، ولا بد من قفل الخمارات.

وقال بعض هؤلاء النواب للملك: لا يجوز يا مولانا، وأنت سليل الأسرة النبوية، والمتصوف، والمجاهد، أن تجلس على عرش بلد يتعاطى فيه الخمر علنا، وتمارس فيه رذيلة الزنا وبإشراف الدولة.

بعد لحظات صمت، رد عليهم الملك بقوله: أقدر غيرتكم، وحرصكم، وأنا لا أختلف معكم في جوهر ما تقولون، أنا كإنسان مسلم وكمواطن ليبي، أفكر مثلكم، وليتني لم أكن ملكا، فلو كنت كذلك لطالبت بما تطالبوني به الآن، لكنني كرجل مسئول عن هذا المجتمع وهذا الوطن، فإنني أحرص على تحقيق مصلحة الوطن، أكثر مما أحرص على إرضاء بعض الناس، أولا لقد حرم الله الزنا، ورغم ذلك لم يرتدع الناس، ولم يتردد بعضهم في إتيان هذا الفعل، وكذلك الأمر بالنسبة للخمر، فمن لم ينصع لأمر الله هل تعتقدون أنه سينصاع لأمر البشر؟ ثانيا: أليس من الأفضل أن تكون هذه الأفعال في مكان واحد معروف وتحت مراقبة الدولة أم يكون في كل بيت بعيدا عن أعين الحكومة وتشريعاتها..

ذكر لي هذا الحديث بين الملك والنواب شيخ فاضل أطال الله في عمره ونحن نتحدث عن ما آلت إليه الأمور في بلادنا وإنتشار ظاهرة الدعارة والخمر والمخدرات في ليبيا بشكل غير مسبوق وبأكثر مما هو موجود في كثير من بلدان الدنيا، إذا كان شارع الكندي، مكانا رسميا للدعارة تحت إشراف الدولة وبإقتناع واع من رأسها وهو الملك، ولم يكن العمل به فعلا يجرمه القانون، وإن رفضته بعض شرائح المجتمع.

وكان سكان طرابلس يطلقون على النساء العاملات بشارع الكندي،"الصبّارات" ، أي بمنح الصبر لأولئك الذين لا قدرة لهم على الزواج.

وفي الحقيقة، فإن أم فوزية شلابي وجدتها لم تعملا بشارع الكندي.

* المعلومة الأخرى التي نقرأها على شبكة المعلومات هي:

عرفت منذ الصغر بسوء الأخلاق وغرابة الأطوار..

أقول من الصعب تحديد معايير سوء الأخلاق وحسنها، فشهادة " حسن السير والسلوك " التي تمنحها أجهزة الشرطة، أو المؤسسات القانونية ترتكز على حيثيات محددة، ولا أعرف بالضبط الوقائع التي يستند إليها من يقول بسوء الأخلاق، ولكنني أجزم بأن فوزية، وكما تقول هي ما أعتبرته ضربا من التمرد وتعمدت أن تظهره، بل وتتفاخر به، وتعتبر ذلك منهجا ثوريا تصادميا مع الموروث، وترى فيه منهجا لمقارعة النفاق الإجتماعي وتقسيم السلوك إلى ما فوق الأرض، وما تحت الأرض، من حق الكثيرين أن يختلفوا معها في ذلك، وأن ينتقدوا ما تأتيه من أفعال.

أما ما يقال عن غرابة أطوارها، فلكل فهمه الخاص لأطوار الآخرين.

أزواج فوزية

قلتُ أن شخصية فوزية شلابي أحاطت بها الكثير من الألوان، ونسجت حولها إضافات وصلت إلى حد – شيطنتها – ففي كل جانب من جوانب تكوينها يلوح قول، ولا أنفي أن دوائر حياة فوزية، بل حتى مزاجها وذوقها في الملابس أثار بإستحقاق الكثير من التعليق، ذكر لي أحدهم أنه كان يقف بسيارته ذات مرة في إشارة المرور وكانت فوزية تسير في الشارع حين رآها عامل مصري بجلابيته الزرقاء وعمامته البيضاء، فظل يلاحقها بناظريه ملتفتا إلى أن سقط في أحد الحفر على الطريق، كان هذا في سنوات السبعينات عندما كانت الفتيات اللاتي يرتدين بنطلونات الجينز لا يظهرن في مدينة طرابلس، ويردد البعض أن فوزية قد دعيت ذات مرة إلى إجتماع بمكتب الرائد عبد السلام جلود ولكنها لم تحضر، وفي إجتماع تلا ذلك عاتبها جلود بشدة على غيابها عن الإجتماع السابق وطلب منها تبرير هذا الغياب، فقالت أن لديها ظروف قاهرة وأصر جلود على معرفة هذه الظروف، وظلت تتهرب من ذكرها، ولكنه لم يتوقف وألح على معرفة الظرف، فقالت وهي تضحك " كانت عليّ العادة الشهرية". هذه هي فوزية التي تداعب المواقف وتلاعبها، وتكسر إشارات المعتاد في سخرية محسوبة في كثير من الأحيان، لم تكن علاقتها بالزواج لها سياق مختلف عن سياقاتها التي إبتدعتها لنفسها، ولم تتردد في الجهر بها، وأن كانت الحسابات الإجتماعية حاضرة ولكنها بأرقامها الخاصة، فلنتقدم في رحلة زواج فوزية وشخوص أزواجها والأجواء العامة والخاصة التي جرت فيها هذه الزيجات.

بدأت رحلة الأزواج الطويلة مع سليمان شلابي إبن عمها، شاب ليس بينه وبينها فاصل من سنوات العمر، يعمل في مجال النفط، تزوجها بعد سنوات من تخرجها من جامعة طرابلس قسم الفلسفة، بعد ذلك حصلت على منحة دراسية من الحكومة الليبية إلى بريطانيا للحصول على الماجستير، هناك من يقول أن فوزية هي من همس في أذن معمر القذافي بفكرة الزحف على السفارات الليبية في الخارج وتحويلها إلى مكاتب

شعبية بسبب مشادات حدثت بينها وبين المسئولين بالسفارة الليبية بلندن، في حين تقول هي أن جميع الوزارات والمؤسسات داخل ليبيا تدار بواسطة لجان شعبية عن طريق التصعيد، ولا تستقيم الأمور إذا ظلت السفارات الليبية في الخارج مستثناة من السياق العام، فبرزت فكرة الزحف على السفارات وإدارتها بلجان شعبية. بقيت في بريطانيا فترة غير طويلة ثم عادت مع زوجها، إبن عمها إلى طرابلس، لتواصل عملها في مجال الصحافة.

لماذا تزوجت فوزية الثورية المتمردة على الموروث من إبن عمها وهذه عادة ليبية قديمة بدأت تتلاشى في المجتمع الليبي. هناك من فسر ذلك بأن فوزية هي التي سعت لذلك، لإثبات إنتسابها للرد على المتقولين، وإن أسرة سليمان عارضت فكرة زواجه منها، ولكنه أصر على ذلك متحديا هذا الإعتراض، ويبرر ذلك بعلاقة حب ربطته بإبنة عمه. التفسير الآخر أن سليمان جاهد من أجل الإقتران بها لدوافع مصلحية بحتة، ففوزية هي الآن علم من أعلام الثورة، ولها إسم يشع في ميدان الكتابة وفي الشارع الليبي أيضا، وكما يقول المثل المصري- جحا أولى بلحم ثوره- ولكن كما يقال فإن الزواج قسمة ونصيب، وقد أنجبت منه ولدا أسماه معمر القذافي – مرتضى –. بعد ولادتها لإبنها زارها معمر القذافي وقدم لها الهدايا والتبريكات، وكانت السيدة صالحة والدة فوزية تتباهى بذلك وتعرض صورا لمعمر القذافي مع فوزية، وبالغت في ذلك، إلى درجة دفعت قلم القيادة إلى تنبيهها إلى التوقف عن ذلك، بالطبع فإن الحسناوات اللآتي حول القذافي إرتفعت درجة حرارة الغيرة لديهن، فسارعن بإبلاغ العقيد بما تقوم به أم فوزية وكان الإنذار.

لم يكبح الزواج جماح التمرد لدى فوزية، وطوعت زوجها إلى أسلوبها الخاص المبتكر في الحياة وفي السلوك، ويمكن القول أن سليمان قد إستمرأ أجواء فوزية وعلاقاتها مع المسئولين وروابطها مع القيادة، وقد وجد أبواب الكبار مفتوحة أمامه، ولكن لضغوط المجتمع أحكام، فغمزات الأتراب ولمزاتهم لا بد أن تتحول مع الوقت

إلى لسعات يزداد ألمها، فمن قائل له بأنك زوج الست، إلى من يلمح بأقوال أخرى جعلت المياه تتعكر يوما بعد يوم بين الزوجين، وبدأ صوت الخلاف يرتفع، ولم تكن السيدة صالحة بعيدة عن حلبة الصراع، أو محفل الصراخ وهي التي لا تحمل ودا لعائلة شلابي، وبالطبع فإن صالحة هي من يمتلك حق الفيتو على كل قرارات فوزية. وقد أرست السيدة صالحة قاعدة لم تتعدل ولم تتغير مع جميع أزواج فوزية، وهي أن على كل من يتزوجها أن يأتي ويقيم معها في منزلها الذي تعيش فيه مع أمها سيدة البيت، وعلى الزوج أن لا يكون ضيفا ثقيلا، وإذا قررت سيدة البيت إنهاء العلاقة بين فوزية والزوج الضيف، فإن علامة ذلك أن يجد حقائبه أمام الباب ولا يسمح له بالدخول.

الزوج الثاني: عبد الرحمن الجعيدي

عبد الرحمن الجعيدي من سكان جنزور أحد ضواحي طرابلس، إلتقيتُ به لأول مرة سنة 1973 بصحيفة الفجر الجديد، بعد تخرجي من الجامعة، كان أحد الشباب الذين إنضموا إلى العمل الصحفي بعد وصول معمر القذافي إلى السلطة سنة 1969، أراد القائمون على الصحيفة توظيف دماء جديدة في الصحافة لإحلالها مكان أولئك الذين عملوا في العهد السابق. كان هؤلاء مجموعة من الشباب الذين لم يحصلوا على تعليم جامعي، وكان أغلبهم من حملة الشهادة الثانوية. إستمر عبد الرحمن في العمل بصحيفة الفجر الجديد بعد قرار نقلها إلى وكالة الجماهيرية للأنباء، ثم نقل مراسلا للوكالة ببيروت، وعندما إجتاحت القوات الإسرائيلية بيروت سنة 1983 كان هو من المراسلين الذين بقوا في العاصمة اللبنانية، إعتبره بعض زملائه بطلا، وكان من بين هؤلاء فوزية شلابي التي ألمحت إلى موقفه البطولي في بعض مقالاتها وأشعارها، وبادلها هو نفس النفحات، وهنا بدأت علاقة ذات طابع نضالي وأدبي. كنتُ حينئذ أمينا للإعلام وأقوم بإدارة وكالة الأنباء الليبية في ذات الوقت، وبحكم العلاقة التي ربطتني منذ سنوات بعبد الرحمن وعلاقة العمل كان يزورني وكذلك فوزية، لكن الجديد في الأمر، هو أن الإثنين حرصا على زيارتي معا، ولاحظت حرارة الروابط بين الإثنين، سالت عبد الرحمن عن أبعاد العلاقة بينه وبين فوزية، فقال لي أنه ينوي الزواج منها، نصحته بعدم الإقدام على ذلك، فهو لم يسبق له الزواج وهي سبق لها ذلك، ولديها إبن من زوجها الأول، وهو من أسرة محافظة، وألححت عليه أن يفكر مليا قبل الإقدام على هذا القرار، لم تنقطع زيارتهما لي. جاء في ذات يوم لوحده وقال أنه فكر ورأى أنها مناسبة له فهو أديب وكاتب وهناك مزاج مشترك بينهما، وأنه لن يجد أفضل منها في هذا المجتمع الليبي المحافظ ووو.. قلت له بلغة إنفعال، ستندم لأنك لن تستطيع أن تبني بيتا مع فوزية شلابي، وستجد حقائبك ذات يوم أمام باب البيت بمعنى إذهب من غير مطرود، ولكنك مطرود حقا.

فوجئت يوما بعبد الرحمن وفوزية بمكتب السكرتاريا يطلبان مقابلتي، وليس لهما موعد مسبق، إستقبلتهما بترحاب وحرارة كالعادة، أخرج من جيبه ورقة إنتزعت من كراسة ووضعها على مكتبي، قال هذا عقد زواجنا، نظرت في الورقة مليا، كتب عليها بقلم جاف أن فلان بن فلان تزوج من... إلخ. والذي أعرفه أن هناك نموذج معد لعقد الزواج يحضره مأذون شرعي وبه خانات مطبوعة، أرجعت له الورقة ودعوت لهما بالتوفيق وخرجا.

فهمت أن هذه الزيارة من إعداد فوزية، وهي تريد أن تقول لي، هذا هو الرد على نصيحتك لعبد الرحمن بعدم الزواج مني، وها أنا قد إنتصرت عليك يا عبد الرحمن الآخر، أيقنت أن الزوج العظيم قد نقل إلى عروسه نصيحتي له بالتفصيل الممل، وأنها قررت الرد بطريقتها. بعد أيام من هذا الحدث، إتصل بي أحد إخوته معبرا لي عن شكره على النصيحة التي قدمتها لأخيه، ومعبرا أيضا عن شديد الأسف والحزن لما قام به أخوه، حيث أن العائلة قد أعدت العدة لزواجه من فتاة تليق به وبالعائلة، وأبلغني الرجل الذي نقل رسالة شقيق عبد الرحمن أن عائلته لا زالت تعاني من الصدمة ولم تفق منها. وأنهم يأملون أن أبذل قصارى جهدي لإقناع إبنهم بالإنفصال عنها في أسرع وقت، لأن العائلة تصر على إسترداد أبنها الذي تعتبره في حالة ضياع، قلت لناقل الرسالة، أبلغهم أن لا يقلقوا، فقريبا سيجد العريس والأديب حقائبه أمام بيت السيدة صالحة، فأنا أعرف عبد الرحمن وفوزية جيدا، وهذا ما حدث بعد أن قرفت فوزية منه ..

لماذا تزوجت فوزية عبد الرحمن الجعيدي؟

جاء في شبكة المعلومات أن معمر القذافي، طلقها من إبن عمها سليمان وزوجها لعبد الرحمن، وهذا محض خيال، فلم يكن للقذافي علاقة لا بطلاق ولا بزواج، وحقيقة الأمر هي أن فوزية بعد أن تزوجت من إبن عمها سليمان شلابي لأحد الأسباب التي سبقت، أرادت أن تعيش مشهدا آخرا، أن تلعب دورا في فيلم

جديد، أن تتزوج من كاتب عاش تجربة – نضالية – في بيروت. وكان إجتياح لبنان وإحتلال بيروت من قبل القوات الإسرائيلية حالة من حالات العصاب العربي، فصلت عليه ملابسا من الخيال التقدمي النضالي القومي..إلخ. ساهمت فوزية في رسم صورة ذلك الفارس الذي صمد في بيروت مع المقاتلين، يرسل تفاصيل مقاومتهم وصمودهم، ويبرز هو أيضا من بين أنقاض بيروت بقلمه وأوراقه وصموده، فوافق شنٌ طبقه. حيث كانت فوزية في طرابلس الغرب تعيش حالة هيام ثوري مثلها مثل قلة من هواة الثورية الطفولية مثل أحمد إبراهيم منصور القذافي الذي كتب مقالا حينئذ عنوانه: " بيروت تخندقت، وطرابلس تفندقت"، أي أن بيروت تعيش في الخنادق تحت الأرض لأنها في مواجهة مع قوات الجيش الإسرائيلي، وعاصمة ليبيا طرابلس تبني الفنادق فوق الأرض للسواح والليبيين الذين يعيشون حياة هادئة لا تكدرها معارك المواجهة القومية. وقد دأبت فوزية في ذلك الوقت على كتابة المقالات الثورية الهائجة التي تفيض بعشق المقاومة والمقاومين ونظمت حملة للأغنية السياسية. وكانت العلاقة مع عبد الرحمن الجعيدي التي توجت بالزواج هي أحد التجارب الخاصة لفوزية ليس فقط لعلاقاتها بالرجال ولكن أيضا في رابطة الزواج، إذ كانت تجربة الكتابة والهوية الثقافية والخيط النضالي، هي عدة هذا الزواج، عكس تجربتها السابقة، وخلافا للتجارب الزوجية اللاحقة.

في المقابل كانت فوزية بالنسبة لعبدالرحمن الجعيدي هي بيروت التي تمشي على الأرض بقدمين في طرابلس، الدنيا التي دعته إليها عبر الحروف والورق والحب، وهو النجم الذي ساهمت فوزية في صناعته، بل هي التي أقنعته أنه كذلك. سافر معها إلى أوروبا، وجالس المسئولين والكتّاب، كانت تلك أحلام ليلة لم تطل، حط بعد أن وجد حقائبه أمام باب – صالحة – حط على أرض جنزور، وفاق من كابوس فوزية وإنزوى إلى محراب الدين، وأدى فريضة الحج، وأسس الحاج عبدالرحمن الجعيدي دار نشر في بيروت، وإقتنع أن فوزية تلك إمرأة نداولها بين الرجال.

عمران عبد الحفيظ القذافي (الزوج الثالث)

لا ينكر إلا القليل أن فوزية شلابي إستطاعت أن تفرض نفسها على عيون الرجال، فقد كانت إمرأة أخرى، لم يعتد الليبيون أن يروا مثلها، تتحدث بهذه الطريقة، تكتب بهذه اللغة أو تلبس كما تلبس النساء التي يرونها على صفحات المجلات أو في السينما وشاشات التلفزيون، تعمدت أن تكون مخالفة ومختلفة، ركض وراءها الكثيرون، ومن جانبها لم تقصر، لم تتحرج في أن تظهر مع أصحابها أمام الجميع، وأن ترافق من تحب في رابعة النهار، ترحل وتحل معه وأن يقيم معها في بيت السيدة صالحة، حتى أن الناس أحيانا لا تستطيع أن تفرق بين الزوج والحبيب. عاشت رحلة إنسجام وإنتقام مع عالم الرجال، كانت كلمتها هي العليا في العلن على الأقل، ولكنها لم تكن كذلك عندما تغيب الشمس. عرفت الكثيرين منهم، وسمعت منهم الكثير، بها من المفارقات وضروب المغامرات ما يستحق أن يبث في صفحات الروايات، أو يصور في شرائط الأفلام والمسلسلات، لكنني كنت دائما أقول لهم، أنكم ضحايا ولستم أبطالا، تعيشون في غيبوبة الإنتقام. لم أر فوزية شلابي إلا ووضعت بجانبها صورة السيدة صالحة، وهي مقضبة الحاجبين، تنظر شزرا، وأرسم وراء الإثنتين لوحة ريا وسكينة الليبية، إنها مسيرة أو قل معركة عشق وإنتقام، تجليات من شخصيات شكسبير المركبة، هزيمة تغالب الإنكسار بصراخ الإنتقام، وللصراخ أصوات وأوضاع شتى، وللطعنات ألوان، للجسد معاركه وإهتزازات إنتقامه كما قال الشاعر نزار قباني:

اليوم تنتقم النهود لنفسها وترد لي الطعنات بالطعنات

عمران عبد الحفيظ، محطة لها دلالات خاصة في مسالك معارك فوزية العديدة، بكت فوزية بحرقة، وبدأ وهي تشكو لصاحبتها ما حدث بالأمس، حيث استدعيت هي وصديقتها فاطمة إلى مبنى القيادة، وأخذهما معمر القذافي إلى المكتبة، وبدأ فورا في مضاجعة فاطمة بحضور فوزية، وبعد إنتهاء المشهد خرجتا سوية، فإنهالت فوزية بالشتائم على صديقتها إستنكارا لما حدث، حاولت صديقتها الدفاع بأنها مكرهة لا

مختارة، قالت فوزية لصاحبتها بأنها ترفض أن تستعمل بهذه الطريقة ولا تقبل أن تقوم بدور " زهرة " القوادة التي تحشد النساء لمعمر القذافي. لكن صاحبتها تعلم أن فوزية لم تقل الحقيقة وأن دافع حرقتها هو تجاهل معمر القذافي لها، ضاعت منها مبارزة تنتظرها في معركة – ريا وسكينة – إنها موقعة تتحضر لها، وهي أم المعارك في مسلسل ملاحم الإنتقام.

لقد تنقلت بين محطات قذافية كثيرة، وحرم مركبها من إدراك المحطة الأم، والإنتصار في حلبة الملاكمة بالنقاط لا فرق بينه في النهاية وبين الإنتصار بالضربة القاضية.

كان عمران عبد الحفيظ القذافي عسكريا برتبة أدنى من رتبة الضابط، يعمل موظفا في قلم القيادة، يقوم أحيانا بنقل التعليمات الصادرة من معمر القذافي إلى فوزية شلابي عندما كانت تتولى رئاسة تحرير صحيفة الجماهيرية، يقوم أحيانا بالمناوبة ليلا في " القلم " فيطول الليل، وتطول إتصالات السهرة، وبفرض الليل لغته بين النساء والرجال، وتتهاوى حواجز الإعتبارات مثلما تتهاوى الساعات الثقيلة الصاعدة نحو الصباح، قد تكون الكلمات عبر خط الهاتف كبسولات تهدئة، ولكن الوصفة تطول مع تكرار سهرة التلفون، فوزية لها لغتها الخاصة في الإستدعاء، تخلق من الكلمات طبوغرافيا نسائية تلون التضاريس بهمسات شعر مبتوت، تجعل من هذا الجندي الساهر في مكتب ضيق يلامس شعر إمرأة ملأت طرابلس وأوراق الجرائد، وكل أبناء قبيلة القذاذفة يسكن في داخلهم معمر قذافي صغير، يدفعهم للتقافر نحو السلطة والثروة والنساء... تحكي فوزية قصتها مع عمران، تعطيها من الزبد والحسنات العاطفية ما يجعلها فصلا في سفر في مكتبة الإيهام، ربما في مصعد إعادة إنتاج البطل في ملحمة الإنتقام.

زال غطاء الليل عن سهرة الكلمات، وجاء موعد النهار، لا شك أن عمران القادم من الجنوب، المتزوج وله طابور من البنين والبنات، الجندي الموظف في مكتب

صغير مغلق، يفرض فيه الصمت والإنضباط، حيث عرين – القائد – الذي لا يجب أن يقلقه صوت أو وقع أقدام، ويشعر فيه الجميع بأن لهم سقفا خاصا لا يرتفع عن مستوى الأعناق إلا بقليل، وأن الفضاء الأعلى هو لرجل واحد فقط ، لا شك أنه وجد في فوزية الكون الذاتي الذي لم يحلم به أبدا، فهو ليس من أهل الحروف أو الورق، مجرد أداة تنفذ الأوامر، ها هو في حضرة السيدة التي تلاحقها الأعين والألسن، فلماذا الإنتظار!! تناقلت الأفواه علاقة فوزية بعمران، وإعتقد أن الأجهزة الأمنية قد أرسلت تقريرا عن تلك العلاقة إلى معمر القذافي، فجميع العاملين في القيادة هم تحت الأضواء طيلة الوقت، تتابع الآذان كل كلمة يقولون، وعندما تصل علاقة أحدهم النسائية إلى خط معين، لا بد أن تكون المعلومة وبأقصى سرعة فوق طاولة – القائد – ، علم معمر القذافي بالعلاقة التي تربط عمران بفوزية شلابي، وغضب غضبا شديدا، فهو يراها أحد أجزاء القطيع الذي يرتع في حماه، حمى كُليب، فكيف يتطاول أحد خراف الحمى وينزو على نعجة من النعاج دون إذن أو مباركة منه. أمر معمر، مصطفى الخروبي أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين بالتحقيق مع عمران وتوبيخه، وفي النهاية أمر عمران بالزواج من فوزية. تردد عمران في تنفيذ الأمر، فهو متزوج، وله أبناء وبنات، وسينال غضب من أهله عنيف، ولن يتردد زملاؤه في تعييره والإستخفاف به جراء هذه العلاقة، وألمّ به حزن وكدر. ولكن إبن عمه العقيد مسعود عبد الحفيظ الذي أصبح فيما بعد الفريق مسعود، ضغط عليه ليرضخ لأمر سيده معمر، وبالفعل تزوج عمران من فوزية مكرها. وقد سمعت الكثير من أقاربه، بل أن أحدهم قال لي أنه تحدث مع عمران بصراحة أحرجته وروى له تفاصيل هزّته، ولكن سبق السيف العزل، وكما يقول المثل الإيطالي: من يخطىء يدفع الثمن.

عصام عثمان الهوني (الزوج الرابع)

المصارع الأخير، حتى الآن، على حلبة فوزية بشير شلابي هو عصام عثمان الهوني، رجل أعمال عاد والده عثمان من مصر التي هاجر إليها أهله أثناء الإستعمار الإيطالي، وكان تاجر ذهب بالمدينة القديمة في طرابلس، كلف القذافي فوزية شلابي بإدارة المدينة القديمة وإستثمارها وترميمها، هناك تعرفت إلى عصام الذي كان يساعد والده في أعماله بتلك المدينة التي تديرها، تطورت العلاقة في العمل إلى أن وصلت إلى المحطة المفضلة لها وهي الزواج، غضب أهل عصام غضبا شديدا، فإبنهم الذي لم يسبق له الزواج، والذي تنتظر أمه وأبوه وإخوته وأخواته أن يفرحوا به على الطريقة الليبية حيث تقام الأفراح والليالي الملاح وتذبح الذبائح وتقام المآدب ويعلو الهرج والمرج، ويتحدث القاصي والداني عن أفراح آل الهوني، ها هو يتزوج بمطلقة تكبره بسنوات عدة حطت على أغصانها طيور عديدة، تجلدها الأفواه ويلاحقها الماضي. رفض أهله هذا الإرتباط الذي إعتبروه مشينا، وإهانة لا تزول، وصل الأمر إلى حد القطيعة بين الإبن وأهله. وكأن فوزية لا يروق لها إلا الزواج في حلبات العداوة، وميادين العراك والصدام. مشاهد مسرحيات شكسبير تلاحق بعضها، ففي كل موقعة زواج لها، نجد هاملت وماكبث والملك لير، حب وعداوة وصراع وطمع وطموح وتصفية حساب. أنجبت له إبنه عثمان، هو إبنها الثاني بعد إبنها الأول مرتضى من زوجها الأول سليمان شلابي، ورث عصام الهوني إمرأة خاصمها الزمن، فواجهته بسلاح المرأة التاريخي، غَلبت وغُلبت، تقاسمها الزوج الرابع مع الوظيفة، والأم التي حاصرتها الأمراض والعمر، وولدان، وما أفسد الدهر. تراجعت حدة غضب أسرته، وروضت الأيام فوزية فترجلت عن خيول معاركها ووجد فيها عصام ملامح إمرأة، قلبت لها الأيام ظهر المجن، وما عاد القذافي هو نفسه بالنسبة لها، فها هو الآن وقد تحرر من قيود الحصار الدولي، وفتحت له أبواب أوروبا، وطالت خطاه حتى وقف على منبر الأمم المتحدة بنيويورك، تحلقت من حوله فتيات أخريات، لهن عطر جديد، وقامات اطول، وسحبت المايسترو الجديدة مبروكة

الشريف البساط من تحت الراهبات القذافيات اللآتي أحرق الزمن مراكبهن، أصبح عصام الهوني هو طوق الحياة والنجاة معا بالنسبة لفوزية، وإعتقد أنه سيكون رجل الختام.

عملت فوزية في مواقع كثيرة، طارت من موقع إلى آخر وبقرار في كل مرة من معمر القذافي شخصيا، من الصحافة إلى منشأة الألعاب إلى وزارة الإعلام، أمينة مرة وأخرى مفتشة إلى إذاعة طرابلس المحلية، ثم مديرة لوكالة الأنباء الليبية، وبين كل تلك المواقع الوظيفية، كانت فوزية عصا، وورقة، وصوت، وروح إستخدمه معمر بإتقان، كانت في وقت ما هي التي تختار له الملابس المناسبة للمحفل الذي سيقف فيه، وفي وقت آخر، لم تقصر في سوق نساء من هنا وهناك إلى مرابع – القائد – . قصة الصحفية "البوسنية" كانت مثيرة، ولكن تفوقت عليها في الإثارة ، قصة الفنانتين المصريتين (إ – أ) و (ف . ع) اللتين رافقتهما فوزية لإجراء حوار عميق جدا في غرفة القائد، قبلت الأولى بالولوج في الأعماق في حين رفضت الثانية، وصرخت بأعلى صوتها وهربت مثل عصفور النار، ووصفت ذلك المشهد بالسقوط النذل والخسيس...

بعد سقوط النظام، وتحرير طرابلس، وإقتحام باب العزيزية إثر هروب معمر القذافي، تحدثتُ مع نوري الحميدي أمين المؤسسة العامة للثقافة وسألته عن فوزية، قال أنها تريد أن تتحدث معي، ولكنها محرجة ومترددة، أخذت رقم تلفونها منه وتحدثتُ إليها، قالت أنها صدمت كما صدم الكثيرون من أركان النظام، عندما ألقيت كلمتي يوم 25 فبراير أمام مجلس الأمن وصدور القرار 1970، وأضافت أنها لم تكن تعلم ما تحت الأرض في ليبيا، والحياة التي كان يعيشها معمر وأولاده وسط القصور والتماثيل الذهبية، ولم تكن تدرك حجم الفساد، والإنحطاط والتدني الذي وصلت إليه الأمور، وقالت أن الظروف وطبيعة الأمور قد تكون جعلتني أعلم وأعرف ما لم تكن هي تعرفه، وأضافت أنها لم تشارك في الأخبار والتعليقات التي كانت تبثها الإذاعة

الليبية ضدي، وطلبت مني أن أوصي الثوار بها خيرا. بعد يومين إتصلت بي هاتفيا، وقالت أن مجموعة من الثوار، قبضوا عليها وإقتادوها إلى مكان ما، وقاموا بالتحقيق معها وسألوها عن بعض الأحداث خاصة تلك التي جرت سنة 1984، وأنهم عاملوها بمنتهى الإحترام إلى درجة أنها صدمت من المبالغة في حسن المعاملة، وسمو التقدير، رغم أنهم من الإسلاميين، وأن بينهم العديد من المهندسين ومن المثقفين وأعطوها رسالة تفيد بالتحقيق معها، حتى لا يقوم ثوار آخرون بالتحقيق معها مرة أخرى.

هذه الدنيا، كل المعارك تنتهي بين منتصر ومهزوم، هزم معمر القذافي، وهزمت كتائبه، وتهاوت أوهامه، وتلاشت ممالك الظلام التي أضاءها بنيران القوة والنزوات، إستعمل البشر رجالاً ونساءً حطبا أضرمه عبر عقود لكي يحرق ما طاب له من الأجساد ومن الضمائر، فرش الأرض بخنوع الملايين، وأطماع البعض، وكانت حلبات صراعه ممتلئة بالليل والنهار، يأتي ويوتأ، يملأ الأفق بصراخ القائد، ويرفع صولجان ملك الملوك، يقلب دخائل الناس، يقيسها بمسطرة الشك والثقة، ثم يقرر موضع كل واحد، وإلى أين يساق وفي أي سرب يدفع، قرأ معمر الفذافي أبجدية فوزية شلابي طالبة الفلسفة بجامعة طرابلس، وكعادته طلب ملفاً أمنياً عنها، ومعلومات عن منحدرها الإجتماعي، وأصول شجرتها والفروع وحتى الأوراق، وغرسها في الحقل الذي ينبت المطلوب، وسوف يؤتي الثمار المحددة مسبقا، في وسط السبعينات من القرن الماضي أراد معمر أن يحدث تفجيرات إجتماعية وسياسية، بعضها إختياري، فكانت فوزية ضمن الكبسولات المنتقاة، ثم شبّ صوتها، وإشتدّ قلمها، فنقلها إلى الصف الثاني، وبين غضب ورضا وتلويح وتقريع، يعيد صياغتها كل مرة لإعدادها إلى خندق قادم. كانت فوزية مرهفة وحساسة إزاء مزاج القذافي، تحاول دائما أن تشد من قوة واجهة المقاومة التي تضعها أمام وجهها وقلبها، تتسلح بمواهب بعضها بدأ يخبو بحكم الزمن، وبعضها يكبر بحكم الزمن وتراكم التجارب . لقد سقط معمر القذافي الشرطي الكبير الذي كان يطوف حول رقعة ليبيا وحول السيدة فوزية أيضا، وإنتزع

الزمن منها سلاحها وأسدل الستار عن – ريا وسكينة – فوزية وصالحة، وإنقشع لون الليل، فلا هاتف، ولا مخدع، غابت الحلبة.

أحمـــد إبراهيـــم منصـــور القذافـــي

أحمد إبراهيم منصور القذافي

هذا الشخص سنقف معه طويلا، لأنه من أعمدة الخيمة، ومن أي زاوية نظرت إليه، ومن أية مسافة، سترى فيه قذافيا، ليس بمعنى النسب إلى معمر القذافي فقط، وإنما إلى – المكون – القذافي القبلي، والعائلي، والسلوكي، وأيضا في المستخرج النمطي الشامل للكائن. فهو من رأسه إلى أخمص قدمه يشع بالحالة – السريالية – القذافية، في تجلياتها البدوية المفتعلة، والمنفعلة، وسنشرح لماذا يستحق بالتقييم الموضوعي أن يكون "النمط" القذافي بلا منازع، فهو حالة تستحق الدراسة المستفيضة والعميقة، وبنفس الدرجة والترتيب الذي يمكن أن يُتناول به العقيد معمر القذافي. قال معمر القذافي وهو يسرد ما حوته صفحته، يتلو من بقايا بيته الذي أسماه –البيت الصامد– الذي أحالته الطائرات الأمريكية سنة 1986 إلى خرابة، فرضها قبلة على كبار الضيوف، ومعلما مهشما يطوف حوله الليبيون، قال معمر القذافي مهددا شباب ثورة ليبيا، من أنتم؟ وقدم الجواب: "أنتم الجرذان"، وفي المقابل قرأ الصحيفة التي كتبها بقلم أوهامه: "أنا الثورة، أنا المجد، أنا بدوي ثائر من الصحراء، من الخيمة". ولم يدر أن الثوار، سيدوسون على فقاقيع أوهامه، وسيدكون حصنه، الذي فوق الأرض، والذي تلوى كالمتاهة تحت باب العزيزية، وأن العالم سيرى قصوره وقصور أولاده المترفة، ويقتلعون التماثيل الذهبية على صورة عروس البحر الذي يتوسط قصر عائشة معمر القذافي سفيرة السلام، ورئيسة جمعية و"أعتصموا" التي قالت أنها أسستها لمساعدة المحتاجين من أبناء الشعب الليبي، لم تطرح السيدة السفيرة المعتصمة، لماذا يكون هناك محتاجون ليبيون، ولدى ليبيا قرابة 200 مليار دولار في بنوك الدنيا. لقد صنع الثوار الليبيون شمسهم التي قشعت حجب الظلام، وكشفت ما فوق الأرض وما تحتها، وأحرقت عروش الوهم، وفقاعة المجد العبثي.

قلت في سطور سابقة، إن في داخل كل واحد من أبناء القذاذفة، معمر قذافي، صغير أو كبير، ولكن في داخل أحمد إبراهيم القذافي القحصي هذا، رتل من معمر القذافي، لهم وجوه مختلفة، وأصوات متعددة الدرجات، تنوعت ألوانهم وتبدلت، يختفي بعضها تاركا مكانا لآخر أو آخرين، ومع مرور الأيام والأعوام، تخلّقت شباك من الأورام نظمتها خيوط السلطة والمال، تدحرجت على مهاوي النزعات التي مدّها العصاب والتشوه والغرور.

ولد أحمد إبراهيم ككثير من أبناء قبيلة القذافي في تشاد، في أسرة فقيرة، لأب متزوج بأكثر من امرأة، كان راعيا يعيش هو ونساؤه بين حظائر الأغنام، وسط شح الطعام والماء، بشر يهيمون في الصحراء التشادية وراء القطعان التي تلاحق سقوط الأمطار، يعاملون من سلطات البلاد كمواطنين من الدرجة الثالثة أو الرابعة، فسكان تشاد الأصليون خاصة في الشمال لم يكن ينظر إليهم من قبل الحكومة على أنهم مواطنين من الدرجة الأولى. وكان القذاذفة في تشاد يخضعون لسلطة إجتماعية أدبية أخرى، هي سلطة التراتب القبلي، وهيمنة مشايخ هذه القبائل، القذاذفة هم تبّع لأولاد سليمان، القبيلة البدوية الكبيرة المقاتلة والمهيمنة على عنقود من القبائل الأصغر، ويأتمر هؤلاء بأمر عائلة سيف النصر التي تفصل في الخصومات التي تنشب بينهم، ولها القول الفصل في الحرب والسلام. ولد أحمد وقضى شطرا من طفولته بين مراتب ومدارج المعاناة، تقاسمته دوائر الهيمنة والإخضاع والتسلط. فوالده متعدد الزوجات، محدود مصادر القوت، متعدد المستقر، فهو يركض وراء قطرات الماء، يلاحقه قطيع من النساء ويلاحق شويهات ضامرة، متعدد الولاءات، تتجاذبه وجهات التبعية والخضوع، تنهشه أسنان الفاقه، وتلوح أصابع الجوع من كل أفق.

بعد اكتشاف النفط في ليبيا، في مطلع ستينات القرن الماضي، وإنسياح معالم الكفاف في أنحاء ليبيا وإنحسار رقعة الفقر والفاقة، بدأت قوافل –العائدون– تزحف على ليبيا من الجنوب ومن الشرق والغرب، كانت لكل قافلة معالمها، ولكل وجه

ملامح، ولكل رهط شئون وشجون ورواسب. جاء القادمون من تشاد، يعلو وجوههم غبار الصحراء، ترهقهم سنوات الجوع، تغشاهم مكونات الجهل، وتعشعش في حناياهم ظلمات الجاهلية، يتندر الناس في سبها، وهي المدينة الكبرى في الجنوب الليبي، التي تكدس بها آلاف القادمين من تشاد من القبائل الليبية يتندرون بأن أحد هؤلاء العائدين قال: الناس هنا يكثرون من استعمال كلمتين، هما الحلال والحرام، وأنا لا أفهم ما تعني أي منهما. تناقل الناس في سبها، وهم المتدينون، الذين عرفوا بتشبثهم القوي بالدين، وتفقه الكثير منهم فيه، وحفظوا القرآن، ووصفوا هؤلاء "العائدين" بالجاهلية، جاءت قوافل العائدين، وتجمعوا في جنوب سبها، وبنوا بيوتا بدائية من الطوب الأحمر، أطلق عليها الأهالي –البناية الحمراء– نسبة إلى اللون الطوبي الذي إمتد في بيوت صغيرة، تتوسطها بعض الخيام المتهرئة التي تكدست فيها الكثير من العائلات. ولم يتوقف الأهالي عند الحالة الجاهلية، بل تنذروا أيضا عن جهل هؤلاء العائدين، وعدم معرفتهم لأبجديات ما حدث في الدنيا، وما أنتجته المدينة الحديثة من أبسط المنتجات، فعندما قدمت لأحد هؤلاء العائدين زجاجة مشروب الكوكا كولا، وفتحت أمامه وكانت في حالة إرتجاج، طار غطاؤها إلى أعلى، فهتف هذا البدائي إستغرباً وهو يردد: "طار غلقها، طار غلقها!!" فأطلق الناس على هؤلاء العائدين جميعا إسم – جماعة طار غلقها – تعبيرا عن جهلهم، وهكذا جمع هؤلاء العائدون المثالب من طرفيها – الجاهلية والجهل–.

مفاصل، وفواصل

جاء أحمد الطفل مع أخوته، ووالده، وزوجاته، في شحنات غصت بالشيوخ والأطفال والفتيان، ليجدوا أنفسهم أول مرة وسط ما نسميه بالمدينة، إلى بيئة مختلفة في كل شيء، هناك، في وديان تشاد كان يعيش بين حظائر الأغنام، والده الجلف يحمل عصاه، يطلق الشتائم، يرعد يزبد، ويهوى بعصاه على الأطفال، ويلاحق زوجاته بالصراخ والسياط، لا يعرف من الدنيا إلا لون السماء المتقلب، وامتدادات

الأرض بين الوهاد والوديان، يلاحق غنيمات، تطوف بين هنا وهناك بحثا عن كلأ يسد رمقها، يعود إلى الخيمة المهترئه حالما آملا بلقيمات يتنازعها مع حشد من أخوته وأمه وضرائرها، وأب متجهم، قد يخفف رتابة الليالي، صوت شاعر يعيد تغريبة بني هلال، ويسوق الحوادث الغابرة التي يتناقلها أهل البادية في حلهم وترحالهم، وقد تجود الأيام بعرس في هذا النجع أو ذاك تتحلق فيه النسوة ويركض الأطفال ويتجمعون فرحا بفتات يقدم لهم بعد أن ينفض الكبار من حول الموائد.. تمضي الشهور والسنين في نجوعهم دون أن يروا غريبا قادما من خارج مضاربهم. هاهو الآن وسط صخب المدينة، يرى المتاجر لأول مرة، وإنارة الكهرباء التي تنير بعض شوارع سبها، دون أن يرى هذه الأضواء في بيته أو الخيام المجاورة له. يستمع إلى صوت الراديو، ويرى الصور، والسيارات تمضي في شوارع سبها المعبدة، والشرطة والموظفين الذين يلبسون البدل مثلما رأى مرة هذا المنظر في مكان ما في تشاد، عندما كانت مجموعة من البوليس، أو موظفي الدولة يمرون بأحد نجوعهم لأسباب أمنية أو مدنية. دخل بعدها أحمد إلى المدرسة الإبتدائية وهناك إكتشف، أو إصطدم بعالم جديد غريب، أطفال يجلسون على الكراسي، أمامهم كتب وكراسات، وهناك يقف رجل يسمونه الأستاذ، يكتب كلمات وأرقاما على لوحة سوداء تتوسط حائط الفصل. وبين الخارج، أي المدينة بكل مكوناتها الغريبة العجيبة بالنسبة له، وبيوت الطين والخيام في الداخل ترحّلت شخصية الطفل. إكتشف دنيا جديدة، بها الزحام والاختلاف تتحرك فيها الأشياء والناس بسرعة لم يعتدها. هنا يعبر الناس عن أنفسهم بطريقة أخرى، ويعبرون عن وجودهم بأسلوب جديد. الشيء الوحيد الذي إنتقل معه من نجوع تشاد إلى البنايات الحمراء في سبها، هو التراتبية الإجتماعية، وخيط التبعية، ونسق التواصل بين المكونات القبلية. مكان القبيلة المعتاد هو الصحراء والنجوع والخيام، أما هنا فهناك المباني، والشوارع والسيارات، والمدارس، وإدارات الحكومة، ولكن الأسماء وإمتداد البنية الإجتماعية، لازالت موصومة بلون القبيلة، يعلم أبناء قبيلة القذاذفة، أن من أحضرهم من تشاد إلى سبها هو "البي" أو والي فزان، وهو رأس قبيلة أولاد

سليمان، من عائلة سيف النصر، الذي يدين له القذاذفة بالولاء، وهو ولي النعمة والأمر، نقلهم من تشاد إلى سبها، أعطاهم ما يسد الرمق، وما يساعدهم على بناء بيت من الطوب، أدخل صغارهم إلى المدارس، وأدخل كبارهم إلى الوظائف الحكومية، من يستطيع فك الحرف حُشر في صفوف البوليس، ومن هم دون ذلك ثم تدبير مكان لهم كغفراء وفراشين في الدوائر الحكومية. هنا الآن يبدأ فاصل وتتداخل مفاصل، هكذا ترعرع أحمد إبراهيم وأترابه، يحملون في أعماقهم بقايا حياة باهتة مضت مكانا وزمانا، ويحفرون مجار لحياة لها خرائطها ونوافذها المختلفة. كل ذلك سيرافق هذا الإنسان الذي سيكون لإسمه رنين خاص في مضارب الفضاء الليبي.

خميرة البؤس هذه التي تجمعت فقاعاتها على ضفاف الطفولة في نجوع تشاد ثم انتفخت في معسكر الطوب والخيام الرثة في – البناية الحمراء– بسبها، هذه الخمائر هي التي ظلت ناقوس الإضطراب الذي يرن في شعور أو لا شعور أحمد إبراهيم، الذي أصبح يوما وبلا إنتظار أو حتى حلم، إبن عم القائد معمر القذافي، حاكم ليبيا، ومالئ الدنيا وشاغل الناس.

أحمد إبراهيم من مواليد تشاد في سنة 1956 تقريبا، هناك حيث كان، لا يوجد سجل للمواليد، ففي الوديان حيث النجوع التي ترفع فيها الخيام وتطوف حولها الأغنام، لا ورق ولا قلم ولا كاتب يخط وقائع الولادة أو الزواج والطلاق، كل شيء يتم بشهادة أهل النجع وبمباركتهم. درس بسبها وعندما كان في بداية المرحلة الإعدادية وصل معمر إلى السلطة، وطاف في حي القذاذفة بمنطقة "المنشية"، بسبها هواء جديد، جاءت معه نسائم القوة لهؤلاء القادمين من وديان تشاد وصحاريها، وتغيرت خطوات وحركات هؤلاء، أصبحوا غير ما كانوا عليه منذ أيام مضت، تهاوت التراتبية التي كانوا يعيشون في ظلها، إرتفعت رؤوس، وغابت رؤوس أخرى في المعتقل. كان أحمد من المسارعين إلى رفع رأسه ليعلن عن وجوده، وعن ميلاده الجديد في المكان والزمان أيضا. فقد وهب لهم تولي معمر القذافي إبن عمهم الذي ترعرع هو أيضا هنا

في سبها، وهب لهم درجات على سلم لم يروه من قبل، ولم تتحرك أقدامهم فوقه، كان من حق غيرهم، فكيف يقترب من هذا السلم، ويبدأ في صعود الدرج؟ منذ الأيام الأولى لثورة سبتمبر رفع القذافي شعار – الحرية –الإشتراكية – الوحدة، المعبّر عن الإتجاه القومي العربي، ثم أسس تنظيم الإتحاد الإشتراكي العربي، إستنساخا للتوجه المصري الناصري.

لقد كان أحمد إبراهيم – نبتة – تنقلت بين ترب الاختلاف، المكاني والاجتماعي والتراتبي، وأيضا الثقافي، إستمرأ هذا الحراك، الذي وجد نفسه فيه، وانغرس فيه أيضا. من تشاد، بكل أطيافها الحياتية القاسية، إلى رحلة طويلة عبر الصحراء نحو سبها، من وصاية آل سيف النصر الاجتماعية، إلى الصعود المفاجئ لقبيلته، بل وبيت القحوص الذي ينحدر منه إبن عمه معمر الذي أصبح رجل ليبيا الأقوى.

"فأول ما شطح، نطح"، فبعد بداية صلابة أظفاره، والإرتفاع نحو المرحلة الثانوية، إختار لنفسه لونا فكريا مخالفا للون الرسمي، فأعلن إنتماءه للتيار الإسلامي، وبدأ يرفع صوته داعيا لهذا التيار، مما دفع جهاز الأمن بسبها إلى شد أذن هذا الولد المنحرف فكريا، وطالته صفعات ناعمة تحسبا للونه القبلي، وجاءته النصائح، وبعض الصرخات العائلية التي تحذر من خطورة إستمراره في هذا الطريق. ولكنه لم يتردد في إفتعال المعارك التي تجذب له الأنظار، وتجعل أصابع بعض زملائه تشير إليه. ربما علم من أقاربه بقصة بداية إبن عمه معمر الذي إنطلق من سبها، وبالتحديد من مدرستها معارضا أو مشاغبا، وعرف بإسمه بين الطلاب في تلك المرحلة، فأراد أن يتحسس أثر أقدام معمر وأن يعبر نفس الدرب.

بعد حصوله على الشهادة الثانوية – القسم الأدبي – توجه إلى مدينة بنغازي للإلتحاق بكلية الحقوق، وكانت الإجراءات عندئذ تقضي بالمقابلة الشخصية للطالب قبل توجيهه إلى الكلية التي تناسبه، كانت لجنة المقابلة الشخصية تستدعي إلى

المكتب التي تجرى بها المقابلة طالبين معا، دخل احمد إبراهيم رفقة أخي إدريس شلقم، أجريت لهما المقابلة، وقررت اللجنة أن يلتحق أحمد بكلية الآداب، وأخي إدريس بكلية الحقوق. رأى أحمد في ذلك هزيمة بل إهانة له، فهو الذي يرى في نفسه الشاب المتميز، يحرم من تحقيق رغبته، وهكذا أمام رفيق له، ولقد سألت أخي إدريس مرة عن سبب كره أحمد إبراهيم له، فذكر لي هذه الواقعة، وقال أن أحمد يتحاشى اللقاء به بسبب ما كان في تلك المقابلة.

إنتقل أحمد من سبها إلى بنغازي، في مرحلة مفصلية في ليبيا، كانت جامعة بنغازي حلقة تحلق داخلها إرهاصات لمعارضة للحكم العسكري في ليبيا، كان مجلس قيادة الثورة يقود البلاد بروح الحماس والطموح، وبدأ معمر القذافي يطلق العنان لأفكاره القومية التي تحوصلت عند المشاريع الوحدوية الفورية، وأعتقد إعتقادا راسخا أن أي صوت يعلو في اتجاه المعارضة هو بمثابة الكفر السياسي الذي يستحق الرد عليه بعنف يصل إلى حد القتل، في تلك الفترة، أقصد النصف الأول من سبعينات القرن الماضي، كان بيان جربة الذي وقعه معمر القذافي مع الرئيس التونسي الحبيب أبو رقيبة، ثم إعلان طرابلس، واتحاد الجمهوريات العربية بين ليبيا ومصر وسوريا، كان الاندفاع نحو كل الصيغ الوحدوية يملأ سماء ليبيا وأراضيها ويرتفع في إذاعاتها. كان الطلبة في بنغازي وطرابلس، يلعبون في منطقة إعتبرها القذافي محرمة على من سواه، حتى على زملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، والضباط الأحرار الذين أوصلوه إلى السلطة في أول سبتمبر 1969. عندما فاتحه هؤلاء الضباط عن ضرورة نقل البلاد إلى حكم مدني مؤسس على الدستور، والسماح بقيام أحزاب سياسية، ركض معمر القذافي إلى مدينة زوارة وأعلن الثورة الشعبية، وقلب الطاولة على رفاقه في مجلس قيادة الثورة، وبدأ يخطط للإنفراد بالسلطة وتهميش أعضاء مجلس قيادة الثورة، وإبطال مفعول تنظيم الضباط الوحدويين الأحرار.

إنزعج معمر القذافي من ارتفاع أصوات الطلبة في جامعتي طرابلس وبنغازي، إعتقد أن السيطرة على أعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار أسهل بكثير من السيطرة على توجهات الطلاب، فبدأ بتشكيل حلقات من الطلاب الذين أسماهم بالثوريين وأمرهم بمواجهة المعارضة التي تتسع كل يوم داخل جامعة بنغازي، يحمل في داخله الولوع بالظهور، والمخالفة هي الأقدر على جذب الأضواء، قام بالإتصال بعدد من الطلاب المناوئين للثورة وخاصة من ذوي التوجهات الإسلامية، ولكن إبن عمه الذي اكتشف فيه تلك الرغبة قربه منه، وجعله على يمينه دائما في بعض المناسبات. أذكر أننا كنا مجموعة من الصحفيين والمثقفين في لقاء مع معمر القذافي سنة 1976 بطرابلس بقصر الشعب، قصر الملك سابقا، وعند مغادرة القذافي مكان الإجتماع دعاه للركوب معه في السيارة التي يستقلها، علق بعض الحاضرين على أن تلك الحركة هي مؤشر ورسالة للحاضرين بقصر المسافة التي تفصل بين معمر وأحمد.

أمر معمر بعض الطلاب الذين اقتربوا من أفكاره، أن ينظموا أنفسهم، وان يستعدوا لمواجهة واسعة وحتمية مع الطلاب المعترضين على التدريب العسكري، والمطالبين بقيام إتحاد طلبة مستقل، الهادفين إلى تشجيع الطلاب على الخروج في مظاهرات من أجل تحقيق مطالبهم التي ستقود إلى المطالبة علنا بإنهاء الحكم العسكري، وإقامة نظام دستوري، والتركيز على مصالح ليبيا الداخلية، والتوقف عن القفز من مكان إلى آخر تحت شعارات قومية، ووحدة عربية فورية.

تولى أحمد إبراهيم مهمة تنظيم لقاءات معمر مع عدد من الطلاب الذين توسم فيهم الحماس الثوري والإخلاص للأخ العقيد، ونجح في تجنيد طلاب من بينهم الطيب الصافي ومصطفى الزائدي، ويونس معافه وهدى بن عامر وغيرهم وبعض الموظفين العاملين داخل جامعة بنغازي وخارجها. كانت المخابرات الليبية قد قامت بتجنيد بعض الطلاب مبكرا، وتم تشكيل غرفة عمليات من هؤلاء لإدارة المواجهة مع

طلاب الجامعة، وحدد يوم 7 أبريل 1976 لبداية المواجهة في داخل الحرم الجامعي. وتمّ فرز مئات من الجنود الشباب وأدخلوا إلى الجامعة على أنهم طلاب، وبدأت المواجهة بين الطرفين وانتهت المعركة غير المتكافئة بهزيمة الطلاب. بدأت بعد ذلك حركة واسعة للخلاص من قيادات الطلاب، وطرد عدد كبير منهم من الجامعة، ثم نقلت المعركة إلى جامعة طرابلس وأشرف عليها الرائد عبد السلام جلود شخصيا، وجرت حركة تطهير واسعة بين طلاب جامعة طرابلس. . أصبح أحمد إبراهيم منصور القذافي قائدا لحركة 7 أبريل الطلابية، وأصبح مرجعا لقيادة الطلاب الثوريين المرتبطين مباشرة بالعقيد.

كان يتنقل فكريا وحركيا بين شخصيات ثورية تاريخية مختلفة، فَطَوراً تتلبسه روح – جيفارا – يقلد حركاته، ويقتبس شيئا من شطحاته الثورية العالمية، ويدعي التقشف والزهد في المال والمنصب، وبعد الثورة الإيرانية، افتعل التماهي مع شخوصها، بدءا من آية الله الخميني إلى خلخالي، وعندما أقيمت المحاكم الثورية إثر حملة المداهمات، ترأس عددا من هذه المحاكم، ومَثّلَ أمامه عددا من المسئولين الحكوميين ورؤساء الشركات والمؤسسات العامة، ورجال الأعمال، تحدث بلغة المحقق والمدعي العام والقاضي، وأطلقت الشعارات، ورفع عقيرته بالتهديدات لمن يجلسون أمامه من المتهمين التعساء، تحدث في أحد المحاكمات عن المؤامرة الأوروبية ضد العرب، وأن قوى الاستعمار تريد تدمير الأمة العربية، وأسست شبكة كبيرة من العملاء من أجل تخريب الذات العربية لأن الإمبريالية الأوروبية ترى في العرب أمة من الهمج المتوحشين، وردد كلمات باللغة الفرنسية تذكرها من أيام طفولته في تشاد، كان يتحرك فوق كرسيه الدوار متقمصا شخصية الجلاد الإيراني خلخالي، كان ذلك في مطلع ثمانينات القرن الماضي.

بعد إعلان قيام سلطة الشعب في مارس 1977، وبداية التآكل لمؤسسات الدولة الليبية، وتدافع القذاذفة للسيطرة على قطاعات الدولة خاصة بعد تأميم القطاع الخاص، وإقامة الأسواق العامة، وما عرف بالمنشآت. كان كل قذافي يلهث وراء المال، والسلطة هي الطريق الأقرب لمخازن الثروة، وبدأت المتاجرة والمضاربة في كل شيء، كان أحمد إبراهيم يعتقد كامل الاعتقاد أن لديه مؤهلا لا يمتلكه سواه من أبناء عمومته وهو الثقافة أو الفكر، أراد أن يكون القلم سوطه الذي يجلد به الليبيين ويخيف به أبناء عمومته الذين تنفذوا في المفاصل العسكرية والأمنية، كان طموح أحمد منذ البداية، أن ينصب نفسه قيّما على الفكر والثقافة والصحافة في ليبيا، استطاعت صحيفة الأسبوع السياسي، والأسبوع الثقافي، أن تمثلا صوتا داخل المجتمع الليبي، كان للمطبوعتين ما لهما وعليهما أيضا لكن الشيء الذي لا يمكن إنكاره أنهما أبرزتا أقلاما ليبية شابة وواعدة، أغلب هؤلاء الكتاب لم يكونوا صدى للكتاب الأخضر الذي ألفه معمر القذافي وجندت له الكثير من الأقلام في الداخل، وتطوع غيرها، وكذلك في الخارج، وعقدت الندوات المتعاقبة محليا وعربيا ودوليا للدعاية له.

حاول أحمد بكل الطرق أن يستولي على المطبوعتين، ولم يأل جهدا لإقناع إبن عمه معمر بتكليفه برئاسة تحريرها، ولكن معمر لأسباب عدة لم يستمع له. أرسل أحمد أكثر من مقال لنشره في الأسبوع السياسي، وثم نشر مقالين فقط في باب "الضوء الأخضر"، وهو باب مخصص للمبتدئين الهواة، وغضب من ذلك غضبا شديدا. ومما زاد من غضبه أن الطالبات في جامعتي طرابلس وبنغازي عبرن عن إعجابهن ببعض كتّاب الصحيفتين، وإعتبر أحمد أن تلك إهانة لا يمحوها إلا الإعدام أو السجن. وعندما كان بعض الشباب المثقفين والكتاب يعقدون ندوة في بنغازي، وبينهم عدد من كتاب صحيفة الأسبوع السياسي والثقافي، قام أحمد إبراهيم ومعه عدد من أعضاء اللجان الثورية، بالهجوم عليهم وضربهم، ثم أُعتقلوا ورحلوا إلى طرابلس لمحاكمتهم.

ألقـي القـبض علـيّ بطـرابلس، بصـفتي رئـيس تحريـر سـابق للمطبـوعتين وجـرى التحقيق معـي بنيابـة أمـن الثـورة مـن طـرف محمـد بـن يـونس، ولكـن أُفـرج عنـي بتـدخل مباشـر مـن معمـر القـذافي، ووضـعت فـي الإقامـة الجبريـة بمنزلـي الكـائن بحـي دمشـق مدة 6 أشهر. إقترح أحمد إبراهيم ومعه كل من ميلاد الفقهي وصالح إبراهيم إعدامي بمناسبة 7 أبريل يوم الإحتفال بثورة الطلاب التي تم فيها التخلص من طـلاب جامعة بنغازي المناوئين للنظام لكن معمر القذافي تدخل مرة أخرى ومنعهم من ذلك.

إستدعاني معمر القذافي ذات صباح، وأنا مازلت رئيس لتحرير صحيفة الأسبوع السياسي والأسبوع الثقافي إلى مقر مجلس قيادة الثورة بطرابلس، كان ذلك في أواخر سـنة 1979، دخلـت إلـى مكتـب إبـراهيم بجـاد، الـذي يتـولى آنـذاك مسـئولية الشـؤون الإعلاميـة بالقيـادة، وجدتـه فـي غايـة التـوتر والإضـطراب، قـال أن الأمـر حسـاس وخطير، وأن العقيد في حالـة غضـب شديد، وكرر [ربـي يستر، ربـي يستر] وأضـاف أن العقيد يتهمك أنـك سـلمت المطبـوعتين للشـيوعيين ويتوعدك بأشـد العقوبـة، وفـي الأثنـاء دخـل العقيـد، ورفـض مصـافحتي وبـادرني بـالقول: "صـحيت يـا فـالح، أنـت نـائم على أودانك والشيوعيون إحتلوا الصحيفتين." وبدأ في تقليب بعض أعداد الصحيفتين، وخطـوط حمـراء تحـت بعـض الأسـطر، ليؤكـد صـحة مـا يقـول. وقـرأ كلمـات مثـل، – الإسـتغلال – الطبقـة العاملـة – فـائض القيمـة – البرجوازيـة – صـراع الطبقـات– غرامشـي– وغيرهـا. قلـت لـه: "إننـا نعمـل مـن أجـل تحقيـق الإشـتراكية، وإقامـة العدالـة الإجتماعيـة، وهنـاك كلمـات تتقاسـمها القـواميس السياسـية، تجـد إسـتعمالا لهـا فـي كـل المجتمعـات. وفـي النهايـة، فـإن كـل مـا ينشـر فـي المطبـوعتين، أمـا أن تكـون أنـت قـد وجهت به مباشرة، أو عن طريق الأخ إبراهيم إبجاد، أو تم الإتفاق عليه في الإجتماع الأسـبوعي لهيئـة التحريـر، وعلـى كـل حـال فأنـا رئـيس التحريـر المسـئول عـن كـل مـا ينشر في الصحيفتين. أما عن إنتماء هؤلاء الكتاب أو بعضهم لحزب شيوعي أو غيره فتلـك ليسـت مسـئوليتي." وقـف وقـال: "إذن أنـا أكـذب؟!" قلـت : "معـاذ الله، ولكننـي لا أستطيع أن أشـهد زوراً، ويـا أخ العقيـد لـو أنـا أشـهد ضـد هـؤلاء زوراً، وتقـوم بإعـدامهم

فأنني سأنتحر". خرج غاضبا، نظر إلي إبراهيم إبجاد مضطربا وقال: "كيف تقول هذا الكلام لـلأخ العقيد يا عبد الرحمن؟! هل أنت مجنون". قلت لـه: "يا أخ إبراهيم هذا موضوع خطير وحساس، ولابد أن نكون صرحاء مع الأخ العقيد، ولا نتركه يرتكب فعلا قاسيا ضد هؤلاء الشباب الأبرياء، أنا واثق أن أحمد إبراهيم هو من قام بتعبئة الأخ العقيد ضد هؤلاء، ويجب أن لا نسمح بما يحدث".

بعد أيام سافرت إلى بولندا ومنها إلى لندن حيث علمت أنه قد تم إعفائي من رئاسة تحرير الصحيفتين.

عدت إلى ليبيا، وبعد أيام بدأ القبض على كتاب المطبوعتين إستدعاني عبد العاطي العبيدي، رئيس اللجنة الشعبية العامة، [رئيس الوزراء] وقال أن الأخ العقيد أمر بإعفائي من الصحيفتين، وتعيين سعد مجبر مكاني، وأخبرني أن تعليمات الأخ العقيد تقضي بتعييني في أي مكان أختاره، قلت له أنني أرغب في مواصلة دراستي بالولايات المتحدة الأمريكية. وافق عبد العاطي فورا، واستدعى مدير مكتبه عبد الرحمن بلقاسم، وأمره بإعداد قرار لإيفادي للدراسة على أن يكون القرار جاهز غدا.

عدت في اليوم التالي إلى مكتب عبد العاطي، وأستفسرت من عبد الرحمن بلقاسم عن القرار، إرتبك، ورد بأعذار أدركت منها أن قرار الإيفاد لم ولن يصدر. إتصلت بعد ذلك مرارا أطلب مقابلة عبد العاطي، ولكن كان الرد بالإعتذار في كل مرة. تمكنت من مقابلة عبد العاطي بعد وساطة من محمد الزوي صديقنا المشترك، قال لي عبد العاطي بصراحة أن التعليمات من الأخ العقيد تقضي بعدم سفري إلى الخارج، ومنعي من الكتابة في أي مطبوعة تصدر خارج ليبيا. أدركت أن الأيام المقبلة لا تحمل خيرا بالنسبة لي. بعد ذلك بأسبوعين تعرضت إلى حادث سير شنيع، أصبت فيه بكسور في الرأس، والكتف، والذراع، والضلوع. وبقيت تحت العلاج أسابيعا بمستشفى "الخضراء" بطرابلس. زارني في المستشفى المحامي الراحل عبد الرحمن الجنزوري، واستدعاني للشهادة في قضية "التنظيم الشيوعي"، المتهم فيه كتّاب

الأسبوع السياسي، والأسبوع الثقافي. أخذت إلى المحكمة على سرير متحرك، أمام قاعة المحكمة وجدت كل من، أحمد إبراهيم القذافي، مصطفى الزائدي، عز الدين الهنشيري، وآخرين من حركة اللجان الثورية، كنت شاهد النفي الوحيد، إلتف حولي المذكورون، وطلبوا مني عدم الشهادة، لأن في ذلك خيانة للثورة، وسيترتب على شهادتي تداعيات لن تسرني. قلت مازحا: ما شهدنا إلا بما علمنا. دخلت إلى قاعة المحكمة، تدافع نحوي المتهمون، يقبلونني، ويحضنونني ويشكرون موقفي. بقيت طويلا، لم يستدعني القاضي للشهادة، أصر المحامي الجنزوري على الإستماع لشهادتي ولكن القاضي "بن لامين" رفض، فقلت له بصوت عال وبغضب: "أريد أن أدلي بشهادتي، وهذا حق عليك وعليّ". فرد: "أسكت وإلا أدخلتك القفص." قلت: "أنا لا أمانع في ذلك". فجأة دخل الممرضان المرافقان لي وأخرجاني من قاعة المحكمة.

كان أحمد إبراهيم هو المهندس والمنفذ لتلك المأساة التي حكم فيها بالمؤبد على أكثر المتهمين الذين قضوا عشر سنوات في السجن ظلما وبهتانا. تَلبّس شخصية الثوري المتشدد على طريقة ثوار أمريكا اللاتينية من اليساريين العنيفين، لإشباع رغبات في ذاته، وتقربا من إبن عمه العقيد، وجريا في حلبة السباق مع أبناء عمه من القذاذفة وخاصة الضباط غير القحوص مثل مسعود عبد الحفيظ، وحسن إشكال، وخليفة احنيش.

كانت عقدة العائد من تشاد، سيفا يجلد داخله، وكلمة – العائد – أي ذلك الذي هاجر هو أو أهله إلى خارج ليبيا أثناء الإحتلال الإيطالي، كانت تلك الكلمة تمثل نقيصة في حق من تطلق عليه أي أن هؤلاء قد هربوا من ليبيا عندما كانت تعاني من الإستعمار الإيطالي، وعادوا إليها ليس بعد الإستقلال وإنما بعد ظهور البترول وبداية ملامح الرخاء، وإذا أضيف إلى تلك الكلمة – العائد – كلمة من تشاد يصير الأمر أكثر ألما ومرارة، فإنه العائد المتخلف الجاهل النزق. وفي بعض الوثائق الليبية كانت هناك خانة تشير إلى مرجعية الحصول على الجنسية الليبية، يقال فيها

بالنسبة للعائدين أنها تأسيسا على المادة الرابعة من القانون. وكان أحمد إبراهيم لا يمل من الشكوى من تلك المادة في القانون التي يعتبرها إهانة ويردد أن أهله قد هاجروا من ليبيا هربا من الطغيان الفاشي، ورفضا للخضوع للإستعمار، في حين قبل آخرون – بالطلاينة – وحمل الجنسية الإيطالية، ولم يتوقف أبدا عن بذل كل الجهد من أجل تعديل تلك المادة.

في شهر مايو 1983 نشر أحمد مقالا في جريدة – الجماهيرية – تحت عنوان (أيها الصرصار، هذا عطر)، والمقصود بالصرصار كان خليفة إحنيش، والعطر قصد به نفسه، وقصة هذا المقال، أن خليفة إحنيش وجد أحمد إبراهيم في إحدى دوائر الدولة العليا ومن الطبيعي في نظر خليفة إحنيش أن لا يصل (عيّل) مثل أحمد إبراهيم إلى هذا المكان، واحتدم النقاش بينهما، وأنتهى بصفعة قوية من خليفة إحنيش على وجه أحمد إبراهيم أمام مجموعة من الموظفين، فأوعز القذافي لأحمد بالرد، وكان هذا المقال الذي أثار غضب خليفة وهدد بسجن أحمد ولكن القذافي منعه.

تلك كانت لعبة معمر، ضرب طامع بطامح، أو العكس، وليس هناك قواعد لهذه اللعبة المستمرة سوى تشخيصه لمكونات كل شخصية وإستخدامها بالطريقة التي يحددها وفي الوقت الذي يراه.

إستعمل معمر بعض المكونات التي وجدها ناضجة في شخصية أحمد، وطوع العقد والرواسب فيه، وقام في نفس الوقت بإضافة بعض المساحيق والمحاليل الضاربة والحارقة والمتفجرات إلى ما وجده في صحن نفسية أحمد، قربه وأبعده، كافأه وعاقبه، أبرزه وطمسه، أشعله وأطفاءه، ليكون دائما على مقاس الثقب، وعلى وثيرة الإيقاع المنتقى.

كانت الجامعات الليبية بالنسبة لمعمر القذافي، مصدر صداع وقلق، بل خوف ورعب، لم يغب ملف الطلاب يوما عن طاولة معمر القذافي، فأبدع ما لم يخطر على بال بشر، فبعد ما سمي بثورة الطلاب في 7 أبريل، أطلق القذافي شعار – الجامعة الطلابية – وأمر أن يتولى الطلاب إدارة الجامعات، وأن يكون عمداء الكليات من الطلاب، ثم إرتفع شعار الجامعة يخدمها طلابها، ملئت الكليات المختلفة بعناصر الأمن، وشنت حملة واسعة لتجنيد الطلاب في أجهزة الأمن المختلفة، وشكلت تكوينات قبلية داخل كل كلية، وحركت النعرات الجهوية والقبلية فيها، وغيرت المناهج بما يقود إلى إبطال مفعول العلم في عقول الطلاب، ولم يتوقف معمر القذافي عن زيارة الكليات المختلفة، وفي كل زيارة يلقي خطابا يدعو فيه إلى الحد من تسليط الأساتذة على عقول الطلاب، ويأمر بفتح جميع الكليات لكل من يريد الدخول إليها، دون ضوابط منهجية تحت شعار حرية الإنسان في إختيار ما يريد، وكل ما يخالف ذلك هو نوع من العنف والتسلط وقمع حرية الإنسان، ووصل الأمر أن قال ذات مرة: ماذا يمنع الطالب الذي يحمل الشهادة الثانوية من القسم الأدبي من الدخول إلى كلية الطب؟. ولماذا يُقبل المتفوقون فقط كمعيدين في الجامعات، وتعطى لهم الفرص وحدهم لمواصلة الدراسات العليا؟.

وقع إختيار معمر على أحمد إبراهيم ليتولى تنفيذ هذا الأفكار الثورية غير المسبوقة. وأضاف أحمد ملحاً للحامض، ككل مرة ليؤكد للقائد أنه الثائر المتشدد الذي لا يقبل بأنصاف الحلول، وبأنه القادر على الإتيان بما لم تفعله الأوائل. فبعد الغارة الجوية الأمريكية على بيت القذافي سنة 1986، أصدر أحمد وزير التعليم قرارا بإلغاء تدريس اللغتين الإنجليزية والفرنسية. بجميع مراحل التعليم في ليبيا، ولا يزال جيل كامل من الليبيين يعانون من ثقل هذا القرار، وجعل الكثير من الجامعات الأجنبية تقلل من قيمة شهادات الطلاب الليبيين، ومن الطرائف التي تدفع إلى الضحك قدر ما تدفع إلى البكاء، ذلك الأسلوب الذي إنتهجه أحمد إبراهيم في إختيار الطلاب الموفودين للدراسة في الخارج، فكان يستعرض بنفسه أسماء الطلاب

المتفوقين المرشحين للدراسة العليا في الخارج. الإسم الذي يحمله الطالب هو الفيصل الحاسم في قرار الإيفاد من عدمه، فلو كان إسم الطالب مثلا – صفوت أو سمير، أو زكي، فهذا يعني أنه ينحدر من أسرةٍ برجوازية رجعية، وبالتالي فهو مضاد للثورة ويكفيه ما حصل عليه من تعليم. أما إذا كان إسم الطالب – المبروك – أبوعجيلة– رحيل– الخير– فذلك يعني أنه ينحدر من أسرة كادحة مرتبطة بالثورة، حرم أهلها من التعليم، وليس من بين أفرادها من يحمل لقب دكتور. ولم يخف أحمد إبراهيم إعتزازه بهذا الأسلوب الثوري المبتكر، وكان يردده أمام الملأ دون الشعور بأي حرج بل كان مصدر اعتزاز وافتخار. بل شن حركة تطهير واسعة بين الأساتذة الليبيين وغير الليبيين الذين أعتبرهم من الرجعيين الذين لا يؤمنون بالنظرية العالمية الثالثة. وكان أحمد قد أعلن إيمانه بهذا النهج منذ أن كان طالبا يقود حركة الثورة الطلابية في الجامعة، فقد إعتقل عددا من كبار الأساتذة العرب من بينهم عبد الرحمن بدوي أستاذ الفلسفة المعروف والذي يُعَد من المؤسسين لمكتبة فلسفية عربية واسعة وغنية. وطرد هذا العالم من ليبيا وقد تحدث بالتفصيل عن تجربته المرة هذه. وتحت شعار الثورة لم يتردد في حرمان مئات الطلاب من حقهم في الدراسة بحجة أنهم من أعداء ثورة الفاتح. وأحمد إبراهيم هو الذي أوعز إليّ محمد شرف الدين الذي كان يتولى وزارة الإعلام بحرق الآلات الموسيقية الغربية بعد الغارة الجوية الأمريكية على منزل العقيد القذافي سنة 1986م. وكان شرف الدين تلميذا نجيبا لأحمد إبراهيم ضمن حركة اللجان الثورية.

كان سيف الإسلام معمر القذافي كثير التنذر على أحمد إبراهيم ولا يخفي كراهيته له، كان يسميه أحمد "البهيم" أي الحمار، وقد سألت مرة سيف عن إصراره تسميته بذلك فتحدث مطولا عن الأضرار التي سببها للتعليم في ليبيا، ويجمع الليبيون تقريبا على أن أحمد إبراهيم قد ألحق بالشباب الليبيين ضررا لا يمكن جبره بتخريبه لقطاع التعليم في ليبيا.

أتقن فن خلق الأعداء بدرجة لا يمكن أن ينافسه فيها أحد، كما أتقن فن الإستفزاز وأحيانا إحتقار الآخرين، لم تتوقف خصوماته مع من هم أقل منه في الدرجات الوظيفية، أو مع نظرائه، بل وصلت إلى الأعضاء الذين بقوا في السلطة من أعضاء مجلس قيادة الثورة، وكانت خصومته مع الرائد عبد السلام جلود الذي كان يوصف بالرجل الثاني، إلى حد جعل البعض يقول وبصوت عال أن هدفه هو الجلوس على كرسي الرجل الثاني، وناصب الخصومة لعدد من أبناء قبيلته الذين تزاحموا على شاشات التلفزيون وفي مقدمتهم أحمد قذاف الدم، الذي كان لصيقا بمعمر القذافي. وفي كثير من الإجتماعات كان الصدام بين جلود وأحمد علنيا، ولم يتردد جلود في شتمه وطرده أكثر من مرة من مكان الإجتماع. وقد نجح أحمد في خلق طابور من أعضاء حركة اللجان الثورة يأتمرون بأمره، خاصة بعد أن أصبح من الذين يشاركون في قرار تعيين الوزراء والسفراء ومسئولي الشركات والمؤسسات الحكومية.

تعالت الانتقادات لأحمد إبراهيم، وإتسعت دائرة الكراهية له، وبعد أن سطع نجم سيف الإسلام معمر القذافي، وارتفعت عقيرته بالنقد المتواصل لأحمد، إضطر معمر أن يقذفه إلى أعلى ويضعه في منصب ليس له صلاحيات تنفيذية، وإن كان من الناحية السياسية والبروتوكولية أعلى من منصب الوزارة، أي في أمانة مؤتمر الشعب العام، وبالتحديد أمين شئون المؤتمرات الشعبية، وفي هذا الموقع يستطيع أحمد أن يمارس عقيدته أو عقدته وهي التنظير والخطابة لسلطة الشعب التي يقول أنه يؤمن بها ويوقف حياته لها.

بقي أحمد في هذا المنصب لسنوات طويلة تحت رئاسة الزناتي محمد الزناتي أمين مؤتمر الشعب العام الذي عرف المسافة بينه وبين أحمد إبراهيم القحصي إبن عم معمر القذافي، وكان يقرع رئيسه أمام الجميع ويرفع صوته عليه ويوجه له التهم المتنوعة، وقد كنت شاهدا على عدد من المواقف التي تهجم فيها على الزناتي وساق

لـه تُهمـا ينـدى لهـا الجبين، وكـان هـذا الشيخ المسكين يلـوذ بالصـمت، وكـان آخـر مـن يعلـم فـي تشكيل "اللجنـة الشـعبية العامـة" أي مجلس الـوزراء فـي حين كـان أحمـد هـو أحـد الحـائزين علـى حـق اختيـار أعضـاء هـذا المجلس. وعنـدما تعقـد دورات مـؤتمر الشعب العام، كان أحمد إبراهيم يجلس بمكتب خاص صغير بجانب القاعـة لاستقبال التوجيهات المباشرة من معمر القذافي عبر الهاتف لإبلاغها إلـى أمانـة مؤتمر الشعب العام واتخاذ خطوات تنفيذها. وفـي السنوات الأخيرة لنظـام القذافي، كـان أحمـد يرافقـه خاصـة عندما يكون فـي الصـحراء علـى أطـراف سـرت مثـل منطقـة –العتعت– أو – خشم اليهودي– أو غيرها، وقد أعطاه معمر مساحة واسعة للنقاش معه، وطرح قضايا أمامه لا يتجرأ الكثيرون على طرحها.

إعتاد القذافي في السنوات الأخيرة أن يقضـي جُلَ وقتـه بمسقط رأسـه بسرت التـي أرادها أن تكون بؤرة سياسية، وحلقة حياة خاصـة، لم يخف يوما إنحيازه لها، أقام بها مدينـة إداريـة أنفق علـى بنائها مئات الملايين، حيث بنيت قاعة المؤتمرات الضخمة وحولهـا زنـار مـن الرخـام الفـاخر النـادر، والممرات الطويلـة المهيبـة ولإظهـار الجانـب الأسطوري فـي هذا الصرح، كان معمر ينقل ضيوفه فـي داخل القاعة وعبر ممراتها بسيارات صـغيرة تتحرك بالطاقـة الكهربائيـة. وفـي إحـدى القمم الإفريقيـة علـق الـرئيس المصـري السـابق حسـني مبـارك وهـو يعتلـي إحدى هذه السيارات قـائلا: "كده تكمـل المسرحية". وحول القاعة الضخمة أقيمت مباني "الأمانـات" – الـوزارات – المكونـة مـن طـابقين، وتوزعـت المسـاحات الخضـراء حـول المجمـع الـذي أطلـق عليـه مجمـع "واقـا دوقـو" وهـو إسم عاصـمة بوركينـا فاسـو، الـذي أتخـذت فيـه القمـة الإفريقيـة قـرار تحـدي الحصـار الجـوي الـذي فرضـه مجلـس الأمـن علـى ليبيـا عقابـا علـى إسـقاط الطـائرة الأمريكية فوق لوكربي.

بنيت بسرت كذلك مركبات سكنية خاصة. بالأمناء للإقامة بها عندما يكونون بسرت، بالإضافة إلى آلاف الوحدات السكنية للمواطنين وللموظفين الذين جاءوا إلى العاصمة التي لم تعصم البلاد، وبقيت تلك المباني والمنشآت، والطرق وغيرها من المرافق شبحا يطارد معمر، فمرة يريد أن ينقل مقر الإتحاد الأفريقي من أديس أبابا إليها، وفي خطابه بالأمم المتحدة سنة 2009 إقترح نقل مقر المنظمة إلى سرت، كان أحد أحلام القذافي الذي لم يغادر كل ساعات نومه ويقظته هو أن يجعل سرت مركز الدنيا وعاصمة العالم، لكن الأيام، أيقظته بفعل ضربات ثورة الشعب الليبي، التي جعلته ميدانا رهيبا لأكبر معارك الحرية الثانية التي تجمع فيها الشباب الليبي الثائر من كل أنحاء ليبيا لتحرير آخر معقل من معاقل القذافي بعد معركة الحرية الأولى معركة القرضابية التي صمد فيها المجاهدون الليبيون الذين تدافعوا من كل أنحاء ليبيا سنة 1915.

إعتاد القذافي أن يقضي وقتا طويلا في سرت وحولها، يحيطه أبناء عمومته المقربين، وأبرزهم أحمد إبراهيم مع العقيد على طلاق المسئول عن منتجعات معمر ونجوعه وإبله وأغنامه، وأحمد قذاف الدم، وعمر شكال المتخصص في إعداد الشاهي، ومعهم أحيانا مسعود عبد الحفيظ وخليفة حنيش يتحدثون إلى – القائد – يستعيدون حكايات وروايات عن أيام القبيلة التي صارت المالكة لليبيا، يستعرضون الأمجاد المضافة على يد القائد إلى هام أمجادهم الماضية، ولا تنتهي الجلسات دون الوقوف عند بعض الأسماء في دائرة الإدارة الليبية العليا، وعند أصحاب المال، وتتعالى الأصوات حول بعض ما يجب فعله من تقريب بعض الأسماء وإبعاد أخرى، كانت تلك الجلسة القبلية بمثابة حلقة القرارات الإستراتيجية، وكان لأحمد إبراهيم مكان المنظر الإستراتيجي.

في إحدى المعارك التي خاضها مع الدكتور شكري غانم على صفحات الإنترنيت، وكدس فيها سطور النقد لسياسته الإقتصادية عندما تولى رئاسة الوزارة،

تحدث أحمد إبراهيم عن هويته الإجتماعية ولم يخف إعتزازه بمنحدره القبلي، وأعلن أن قبيلته لم تعمل يوما في الصناعة أو التجارة، وهي تحتقر كل المهن إلا مهنة واحدة، وهي قطع الطريق والإستيلاء بالقوة على أنعام الآخرين، وأسهب في تحليل ذلك. وفي المحصلة يقول، أنه وبقية أهله لن يترددوا في القيام بهذا العمل متى كان ذلك ضروريا، وقد صدق كل الصدق في ذلك فقد مارس هو والكثير من أبناء قبيلته قطع الطريق والإستيلاء على أموال الآخرين ولكن هذه المرة بقوة السلطة وبشرعية الثورة التي يقودها كبيرهم معمر القذافي.

إعتلى مركب النظرية العالمية الثالثة، والكتاب الأخضر، والجماهيرية، وسلطة الشعب، والديمقراطية المباشرة، فكلفه معمر برئاسة مركز دراسات الكتاب الأخضر، هناك في هذا المركز، سيجد الملعب الذي يركض فيه وراء الكلمات والتعبيرات، أمامه مفازات من الفراغ الذي يطلق فيه ما طاب له من المقولات، والأفكار الرجراجة.

في السنوات الأخيرة، رفع سيف الإسلام معمر القذافي شعار ليبيا الغد، وأسهب في الحديث عن الحرية والإصلاح، وأقام العديد من الأجسام الإعلامية، ودعا إلى المنابر السياسية، وأفاض في الحديث عن التعبير والتوجه إلى الليبرالية مستشهدا ومرددا للمفاهيم الغربية، وعلم الليبيون أن أطروحات سيف هي مضمون برنامجه للتوريث، ولم يخف أحمد معارضته لهذا، بحجة أن النظرية العالمية الثالثة ضد التوريث، وتتعارض مع أي طرح ليبرالي، وارتفعت الأصوات، وتصادمت في الأعلى، وبرز جناح من القذاذفة يناصر أحمد إبراهيم، وذلك يعني ضمنيا معارضة مشروع سيف، وكان هذا الأخير يطلق على العائلة التي ينتمي إليها أحمد "المناصير" أي آل منصور وهو جد أحمد، وبدأت الهوة تتسع وتتحرك إلى أن وصلت إلى داخل بيت معمر القذافي نفسه، وبدأ المعتصم أحد أبناء القذافي يعبر عن استساغته لأطروحات أحمد إبراهيم، ولم يكن ذلك حب فيه قدر ما كان اعتراضا على مشروع توريث سيف الإسلام، الذي كان بعض أبناء قبيلة القذاذفة يرون فيه مخططا رسمه عبد الله

السنوسي، الذي احتضن سيف منذ طفولته، وحرك حوله الكثير من القوى للتأثير عليه ودفعه نحو الأفكار التي كان يرددها ثم بدأ يحاول تنفيذها. رد سيف الإسلام برفع صوت النقد والسخرية من أحمد إبراهيم الذي وجد نفسه في موقف يصعب الدفاع عنه، وفي نفس الوقت يستحيل التراجع. هو لا يتجرأ على التصادم مع إبن معمر القذافي بالذات سيف. حاول بعض المقربين من أبناء العائلة ترتيب لقاءات بين أحمد وسيف، وصوروا أن العدو المشترك لهم جميعا هو عبد الله السنوسي، الذي يريد إستعمال سيف كقفاز يضرب به قبيلة القذاذفة، ويفرقها، من مدخل وعده بوراثة القيادة بعد أبيه، فإذا صار الأمر لسيف "الغر" حسب تحليلهم، فسيقوم عبد الله السنوسي بإهداء مركب القيادة إلى إبن عمه عبد السلام جلود، الذي كان مرة الرجل الثاني، بفضل معمر القذافي، وسيصبح الرجل الأول بفضل إبن عمه عبد الله السنوسي.

حاول كل من مسعود عبد الحفيظ وخليفة إحنيش أن يجدا لهما ممرا إلى تلك الحلبة، الخلاف القذافي داخل القبيلة أي بين سيف الإسلام وأحمد إبراهيم، وبين عبد الله السنوسي، الذي يرصف الطريق لمركب سيف. ألم الخوف والفزع بأحمد إبراهيم، فهو في معركة كسر عظم وبدون سلاح أمام القوي سيف والمتآمر عبد الله ومن حوله أبناء عمومته الذين لا يستسيغون نزقه وطيشه، ولا يطمئنون إلى ما يخطط له السنوسي.

وجد أحمد نفسه وحيدا فوق حلبة لم يحسب إرتفاعها بدقة. وهو الآن على رأسه مملكة نظرية لا سلطة فيها ولا مال – مركز دراسات الكتاب الأخضر – فهل يستطيع أن يخوض معركة بسلاح الكلمات؟ أيقن هذا الرجل الذي أنهكته المعارك الكرتونية التي خاضها على مدى عقود أنه أمام بوابة النهاية، وقد يصحُ يوما ليجد نفسه في عالم آخر على يد عبد الله السنوسي الذي لا يخفي كرهه له، وهو سيد المؤامرات، وملك الدم، والقادر على أن يهمس في أذن معمر القذافي في أي ليلة في جلسة عائلية بين صفية زوجة القذافي وشقيقتها فاطمة زوجة عبد الله. لم يبق لأحمد

المرعوب، إلا مملكة الكلمات، فأخترع كيانا يمكن أن يكون خندقه الذي يتحصن فيه من غضب سيف الإسلام الذي قد يشهره عليه عبد الله السنوسي في ليلة ظلماء، أسس نادي أصدقاء الكتاب الأخضر، وعلل هذا التأسيس بأنه الصيغة التي لا ينفر منها العالم، وتجعل التفاف المفكرين والمثقفين حول الكتاب الأخضر مبررة ومقبولة، وعمل أحمد على حشد الكثير من الليبيين إلى محفله الجديد ولنقل حول خندقه الذي رأى فيه الحصن الذي يبعده عن سهام سيف وعبد الله. ولكنه أدرك أن كل العصي قد تكسرت، وقبع في سرت حزينا كظيما، يسترجع وهم الأيام، وكيف استخدمه إبن عمه حتى وهن العظم منه وأشتعل الرأس واللحية شيبا.

لقد كان يوما يجيش الكلمات للهجوم على الآخرين، واستفزازهم، يفعل ما يريد، ويأخذ ما طاب له، وصل به الأمر، أنه عندما كانت الشركات التركية تبني فيلات فخمة بمنطقة السبعة للأمناء في مجمع واحد محاط بسور عال، أمر هذه الشركات أن تبني له فيلا مماثلة في مزرعته الخاصة قرب مدخل سرت، تلك المزرعة التي تروى بخزانات مياه تنقلها السيارات يوميا إلى المزرعة، ويقوم عليها عمال تدفع لهم الدولة أجورهم، يعين من يشاء ويفصل من يشاء، ها هو اليوم بلا حول ولا قوة. لقد أخذ ولكنه دفع، دفع أشياء ثقال وأشياء يترفع المرء عن ذكرها. أين هذا اليوم؟! هل إستطاع الهروب من سرت نحو تشاد أو النيجر كما كان يخطط منذ زمن؟! لقد غضب معمر القذافي مرة من أبناء عمه في سرت فكلف أبو القاسم القانقا بالتفتيش عليهم، وأخذ أسلحتهم والدخول إلى بيوتهم، توجه القانقا إلى منزل أحمد إبراهيم الذي خضع صاغرا لأوامر القنقا، وعندما قام هذا بتفكيك أبواب سيارة أحمد إبراهيم الصحراوية وجد جيوبها مملوءة بالدولارات الأمريكية!! اليوم وأنا أكتب هذا الفصل عن أحمد إبراهيم تدور معارك عنيفة بسرت بين الثوار وأتباع القذافي، كان أحمد إبراهيم قد تحدث قبل دخول الثوار إلى سرت وقال أن على اللجان الثورية بالمدينة أن تتولى الدفاع عنها، وأنه سيكون في مقدمة المدافعين، هل صدق فيما أعلنه؟ أم أنه آثر الهروب إلى مسقط رأسه، يعود على بدء وهو هذه المرة ليس – العائد – الأول الذي

وصل حافيا إلى سبها عندما كان طفلا، يحمل صورا باهتة عن النجوع والوديان والإبل وحظائر الأغنام التي عاش وسطها مع أمه وأبيه وزوجاته وإخوته.

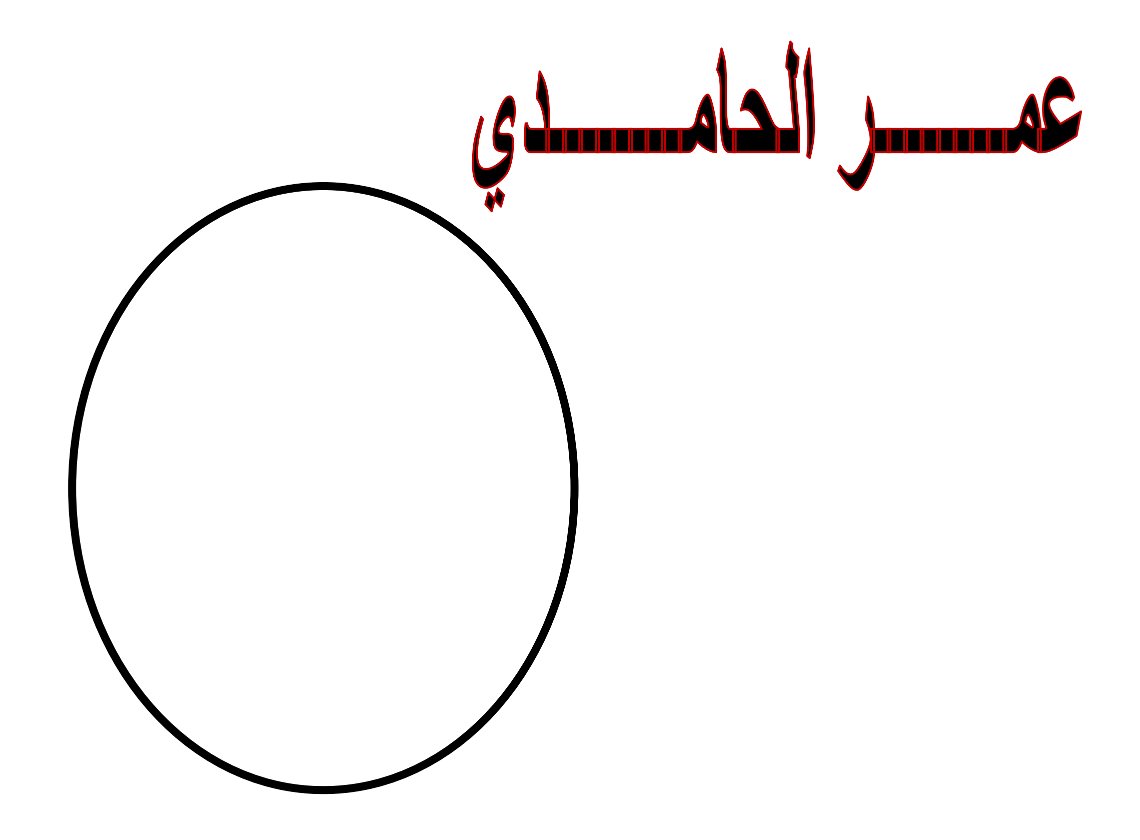
هذه لعنات الحياة التي قلما ينجو منها من لا يجيد قدح ملكة الوعي في داخله، لقد أمر أحمد إبراهيم أحد إخوته بقتل أختهما عندما ضبطت مع أحدهم بالجرم المشهود. وصمت كالجماد على ما حدث بين أخته الأخرى وإبن عمه القائد. يا لها من مفارقة، هنا قتل باسم الشرف، وهناك صمت باسم الثورة.

هذا الشخص الذي يشكل أحد أعمدة خيمة السلطة الثورية القبلية القذافية، يختزل مرحلة، ويجسد حالة، جاء من وهم إلى وهم، طار من ملكوت الفاقة إلى كون التعاسة، تنقل بين العنف والدم والظلم، طبقات الوهم المخادع، ظن أنه أخذ كل شيء بأسلوب قطّاع الطرق، استعمله إبن عمه معمر القذافي، كما يستعمل الساحر الأرانب والطيور، يخرجها مرة من جيبه، وأخرى من كمه، يصفق الحاضرون ثم يسدل الستار. اليوم، لا معمر ولا أحمد ولا سيف ولاعبد الله، ولا محفل للكلام، حروف الرصاص تكتب بأيدي الثوار، سطورا أخرى، ويكتب الدم نظرية الحرية فوق صفحات تراب الوطن، اليوم لا أصدقاء للكتاب الأخضر، ولا خندق يحمي من مدافع الحقيقة، هرب الوهم، تلاشت الأشباح، إنبلج الوطن.

يوم 23 اكتوبر 2011، دكّ شباب الثوار جمر القذافي الأخير بمنطقة سرت 2، طلعوا عليه، وعلى الحفنة التي تدافع عنه، طلوع البركان، هرب معمر – الجرذ – المفزوع المهزوم، يجري كاأرنب المجنونة، دخل إلى ماسورة مجاري، جذبه شاب صغير من شعره الحقيقي، لا باروكة ولا مساحيق، إنه يوم الهول، يوم القصاص، بُهتَ المهزوم، سال دمه بيد ليبيا، كان أحمد إبراهيم يقبع معذوراً بجحر بسرت، أخذه

ثوار مصراتة، تدلت لحيته البيضاء الطويلة على صدره. ظهر أمام شاشات التلفزيون يتحدث عن لحظات القبض عليه، عندما بدأ الثوار التحقيق معه، نصحهم بتأسيس مؤتمرات شعبية**!!**

لم يفق التعيس من كابوس – السريالية القذافية –.


عمـــر الحامـــدي

عمر الحامدي

عمر الحامدي، جزء من المأساة الليبية، وهي جزء منه، حمل على أكتافه الكثير من أثقال الزمن الليبي التي ساهم في صناعتها، أصبح بإمتياز نفساً عالياً في " الظاهرة الصوتية الليبية"، ومنها إلى الفرقة القومية السلفية الصوتية، المجنزرة بالمال، والأوراق، والمنشورات، والمؤتمرات. أضافت له اللعبة الكثير ولم يقصر هو أيضا في أن يضيف لمن أعطاه. عرفتُه مبكراً بعد تخرجي من الجامعة، كنّا خمسة من الشباب الليبيين، تخرجنا من قسم الصحافة من كلية الآداب بجامعة القاهرة. سنة 1973م بعد الثورة غادر الكثيرون من الصحفيين الليبيين الذين عملوا في المجال إبّان العهد الملكي، غادروه طوعاً أو كرهاً، وفرح الرؤساء الجدد لهذا القطاع بنا بإعتبارنا من الأوائل الذين يحملون مؤهلاً جامعياً في المجال، خاصة وأننا قادمون من جامعة القاهرة المصرية، كان عمر الحامدي مديراً للمؤسسة العامة للصحافة التي تصدر عنها صحيفة الفجر الجديد، التي يترأس تحريرها إضافة إلى إدارة المؤسسة، وصدر عن المؤسسة عدد من المطبوعات الأخرى، وبعد تأميم الصحافة ضُمَّت إلى هذه المؤسسة عدد من الصحف الأخرى من بينها الرائد والبلاغ والجهاد.

إلتقيت به بمكتبه بطرابلس، وطلبت منه أن أعمل مراسلاً للصحيفة بسبها عاصمة الجنوب الليبي، بسبب ظروفي الخاصة، ولوجود إخوتي، خارج المنطقة ووالدتي العجوز تعيش هناك لوحدها. لقد كان الرجل كريماً جداً وشهماً، أكبر موقفي، وقدر ظرفي، وعرض علي بإلحاح أن أعمل بمقر الصحيفة بطرابلس، وأن تكون لي الحرية المطلقة في زيارة والدتي متى أردت. وتقدمت له بطلب آخر وهو رغبتي في مواصلة دراستي العليا بالقاهرة فوافق فوراً على أن أزور القاهرة متى أردت وعلى نفقة المؤسسة. لم أكن أتوقع هذه المواقف من إنسان لم تكن لي به معرفة سابقة، بل وتوقعت أن يكون له موقف مغاير تماماً، فأنا أحمل ليسانس صحافة، وتربطني معرفة

بالكثير من أعضاء مجلس قيادة الثورة بمن فيهم معمر القذافي، والمنطق أن يرى الرجل في شخصي منافساً له يحوم حول كرسيه، لقد ساهم هذا الرجل في تغيير مسار حياتي بقدر لا يمكنني أن أنكره، وقدم لي يد المساعدة في كل مرة إحتجت إليها، وللأمانة فإنه لم يقصر في مساعدة كل من تقدم له طالباً لها، خاصة أولئك الشباب الجدد الذي تمّ إستقدامهم للعمل بهذا القطاع بعد مغادرة البعض من الصحفيين القدامى.

عمل بلا كلل على تأسيس صحافة حديثة جديدة، أرسل البعض للتدريب في الخارج، وعمل على تجديد المطابع الصحفية. بدون شك واجه الكثير من المتاعب والمصاعب، فالثورة كانت في بدايتها، والجمع بين مساحة للحرية الصحفية وإرضاء القادة العسكريين الشباب كان كالجمع بين الماء والنار في بوتقة واحدة، إضافة إلى التنافس بين القادة الثوار، وحرص كل واحد منهم أن لا يكون أقل بروزاً على صفحات الجرائد من رفاقه الآخرين. في كثير من المواقف دافع عن الصحفيين، ودخل في أكثر من صدام مع بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار، وكذلك بعض الوزراء.

كانت الصحافة في ليبيا في العهد الملكي تقوم على دعامتين، صحافة الدولة والصحافة الخاصة، عندما كانت ليبيا تتكون من ولايات ثلاث برقة وطرابلس وفزان في مملكة متحدة، كان لكل ولاية صحيفتها الرسمية التي تحمل إسم الولاية، فكانت هناك صحيفة برقة، وصحيفة طرابلس الغرب، وصحيفة فزان، وكلها تتبع وزارة الإعلام، بعد إعلان الوحدة الليبية سنة 1963 بقيت هذه الصحف ولكن تحت أسماء جديدة هي العلم والبلاد والأمة.

بالإضافة إلى صحافة خاصة تمتعت بهوامس من الحرية، كانت تتسع وتضيق حسب الظروف السياسية الداخلية والعربية، بعد قيام ثورة 1969 أُوقِفَت الصحف الحكومية الثلاث، وأسست صحيفة الثورة، وإستمرت الصحف الخاصة في الصدور،

في 1972، أُسِسَت صحيفة الفجر الجديد التي حلت محل صحيفة الثورة وبُنِيَ فوقها جسماً أوسع وهو المؤسسة العامة للصحافة لتستوعب كل المطبوعات الحكومية، في 1974 أُعْلِن تأميم الصحف الخاصة وأُلحِقَت بالمؤسسة العامة للصحافة وعُيِّنَ عمر خليفة الحامدي مديراً عاماً لها. وجد نفسه إمبراطوراً للصحافة في ليبيا، صحافة تحتكر كل ما تكتبه الأقلام، وما يقرأه الناس. لم يكن الرجل معداً لهذا العرس فهو رجل قد ولد في منطقة الحوامد بالجبل الغربي، من عائلة متوسطة الحال، تحمل الكثير من قيم البداوة، آنذاك وبالذات في سنوات الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، فإن الطريق الأقصر لإصلاح الحال الإقتصادي كان الإنخراط في صفوف الشرطة أو الجيش، ومن يستطيع وضعه العائلي أن يتحمل قليلاً من الصبر فإنه يتوجه إلى معهد المعلمين العام الذي كانت مدة الدراسة به لمدة سنتين فقط ثم أصبحت أربع سنوات بعد المرحلة الإبتدائية، وهناك ميزة في هذا التخصص وهي أن الذي يتخرج من هذا المعهد، يضمن لنفسه عملاً بمدرسة قريته ولا يضطر إلى الإنتقال إلى مكان آخر من أجل العمل. كانت تطلعات عمر الحامدي أعلى من كثير من أترابه، فواصل دراسته بمعهد المعلمين الخاص ومدة الدراسة فيه أربع سنوات بعد المرحلة الإعدادية، ولم يتوقف طموحه هناك بل واصل دراسته بكلية الحقوق بجامعة بنغازي حيث تخرج منها سنة 1969 أي في السنة التي شهدت قيام الثورة، أثناء دراسته الجامعية كطالب غير متفرغ عمل بوزارة الإسكان، وإضطر إلى الزواج مبكراً ليهيئ لأخوته عشاً عائلياً يوفر لهم شروط الحياة. بعد تخرجه من الحقوق أصبح من حقه أن يلتحق بسلك القضاء وعمل وكيلاً للنيابة ومحامي بإدارة قضايا الدولة ألى أن وصل إلى مدير عام وزارة العدل.

رفعت الثورة مباشرة بعد قيامها شعارات قومية، وتقافزت بين شرق الوطن العربي ومغربه من أجل تحقيق تلك الشعارات وتنفيذها على الأرض، كان للثورة جناح مدني، ولما كان أعضاء هذا الجناح محدودي العدد والمؤهلات، فقد تشمموا روائح العناصر القومية والعروبية، وإكتشفوا في الحامدي من الرائحة المطلوبة ما يكفي، فدفع به

بسرعة إلى مجموعة "التنظيم الشعبي" وهي تلك المجموعة المكونة من أعضاء التنظيم المدني الذين جندهم معمر القذافي قبل الثورة ولم يدخلوا إلى الكلية العسكرية ولكنهم توزعوا على مواقع مختلفة في مفاصل الحكومة الجديدة، وهكذا جيأ به ليكون على رأس الإمبراطورية الصحفية الثورية الجديدة. وجد عمر الحامدي نفسه في غابة لا يعرف خارطتها ولا مكوناتها، أصبح حاطب ليل وسط ضجيج الشعارات وصدام القادة الشباب، ولا مناص بالنسبة له من مجالسة بائعي الشعارات، وناسجي المصطلحات الذين تداعو إلى ليبيا، البلد النفطي الثوري القومي. للنفط زبائنه، هناك من يشترى هذا السائل الذي يهب الحركة للكائنات الحديدية، يشتريه سائلاً في بطن البراميل وعلى ظهور السفن، وذلك مقابل عملات صعبة، وهناك زبائن آخرون يشترونه عندما يتحول إلى بانكنوت مقابل كلمات، ولكنها تلك الكلمات ذات المقاس الخاص، ومقاس الثورة والقومية لا يحتاج إلى خياط، إنه جاهز. كان مكتب عمر الحامدي يعج بالقادمين من مصر ومن سوريا والعراق ولبنان وفلسطين ثم إنتقل الضجيج القومي إلى بيته أيضا فهو كبدوي قادم من الجبل الغربي، وبنزعته العروبية لا يدعو الناس إلى المطاعم فذاك ليس من شيم العرب، ولا بدّ من الدعوة إلى البيت، وعرف عنه أنه كان أكرم من حاتم الطائي، ولا أظن أنه قد تناول عشاءه يوما بمفرده. دخل إلى سوق الكلام العربي جاهز التصنيع ثم إنتقل تدريجيا ليصبح جزءًا من هذا المصنع. كانت اللغة التي تمتلئ بها صحفات المطبوعات الليبية هي القومية، والعروبة، والقضية المركزية . فلسطين . كان الحامدي يكتب الإفتتاحية اليومية لصحيفة الفجر الجديد، وقد جمع تلك الإفتتاحيات ومقالات أخرى ونشرها في كتاب سمين أعطاه عنوان "في غمار الفاتح العظيم". في سنة 1974 أعفي من عرش الإمبراطورية الصحفية، لينتقل إلى مركبه الجديد نسبيا، إلى مركب السياسة والخطابة وصناعة الشعار وإستهلاكه. فقد دخل إلى دار القضية الفلسطينية من باب الجبهة العربية لنصرة الثورة الفسطينية، ثم ترأس ندوة فلسطين بطرابلس، ثم عضواً للجنة التحضيرية للجبهة الشعبية العربية التقدمية. ثم عضواً مؤسساً للمنظمة الإشتراكية

بالبحر المتوسط . برشلونة. وهكذا أبحر مركبه إلى خارج بحيرة العرب الكلامية، ولامس الضفة الأخرى من دنيا الشعار والكلام، تكومت القضايا، وانتفخت المهام وتكومت، ووَلَد الشعارُ شعاراً، وأنتج مصنع الكلام صفحات وصرخات بلغات اخرى إضافة إلى اللغة القومية النضالية الثورية، ومن فلسطين وإليها تُشد الرحال، رحال الكلام والصدام، وقذف المزيد من الحجر في بحيرة الفعل الكلامي، وإتسعت دوائر مياه البحرية لتصبح أمواجها عالمية على درجات السلم القومي، فإخترع السيد الحامدي جسماً أكبر، فأسس مؤتمر الشعب العربي الذي تولى أمانته العامة، وهكذا أصبح القول أمراً والأمر بحراً، وما دام البحر لا يرفض الزيادة فقد أخرج من جيب المجالس والمؤتمرات، أكثر من أرنب وحمامة، فأسس الأمانة الدولية للتضامن مع الشعب العربي وقضيته المركزي فلسطين سنة 1979م.

وما دامت الأمة العربية العظيمة لا تعقم، وتحتاج إلى مزيد من الكلام، فلا بدّ من شحذ الاقلام وشحن الأحلام، ورفع الأعلام، وقد أتقن السيد عمر صناعة المراكب، فقد أبدع مصنعاً للإبداع وهو المجلس القومي للثقافة العربية ومقره الرباط بالمملكة المغربية. وقد أصدر هذا المجلس مجلة دورية "الوحدة" كتب بها العديد من المثقفين والسياسيين العرب، وقد أثارت العديد من القضايا الهامة والحيوية. بل عقد الكثير من الإجتماعات دعا إليها المبدعين العرب من كُتّاب وسينمائيين، وكوَّن شركة للإنتاج الفني . لم تنتج أي عمل . وعرض الكثير من الأفكار، أذكر أنني دعيت للمشاركة في العديد من الفعاليات السياسية والفكرية التي نظمها الأستاذ الحامدي، وقد كانت تلك الإجتماعات بالنسبة لي فرصة للتعرف على الكثير من الفنانين والكتَّاب العرب، مثل الفنانة الكبيرة فردوس عبد الحميد وزوجها المخرج محمد فاضل، والأستاذ الدكتور محمد عابد الجابري، والمرحوم الكاتب كامل زهيري، والدكتور حسن نافعة، والكاتبة كوليت خوري، والمرحوم الناقد الدكتور محي الدين صبحي، وغيرهم كثيرين.

لقد إندفع الحامدي في مشروع الكلام العربي، حتى أصبح من كبار الذين أعطوا صدقية ملموسة، للظاهرة العربية الصوتية، أقام لها مؤسسات، وأجسام متعددة ومتنوعة توّجها بكيانين . المجلس القومي للثقافة، والمؤتمر العربي القومي، وقد كان الحامدي يلامس عصباً هاماً في نسيج معمر القذافي المنظر القومي العالمي، كانت تلك الأجسام محفلاً محبباً للقذافي، يجلس ليرى أمامة حشوداً من السياسيين والكتاب من العرب وغيرهم يجلسون أمامه في صمت ومتابعة التلميذ النجيب، يطوف بهم حول مسارب التاريخ والدين والسياسة، ينقلهم إلى دنيا رسم خرائطها بألوان من إبداعه، ووجد الحامدي في الرائد عبد السلام جلود خير داعم، فقد كان جلود هو عريف الفصل، الذي قد يسبق القذافي إلى الفصل وقد يأتي من بعده، وهو الذي لبس قميص الثائر القومي العربي، وتنقل بين سوريا ولبنان أثناء الحرب الأهلية اللبنانية، وكان الداعم لسوريا فيما عرف بصمودها، ودورها في جبهة الصمود والتصدي، وأراد هو أيضا أن يكون حاضراً في ذلك السوق اللبناني الذي يبيع الأفكار والشعارات، على أرصفة شوارع بيروت.

وقد كان الحامدي يتحمل الكثير من هجوم جلود عليه، أمام الجميع في أكثر من مناسبة، وكان من عادة عبد السلام جلود أن يختار شخصاً معيناً يبدأ الهجوم عليه في مطلع الإجتماع، ولكنه يحدد ذلك الشخص الذي لا يتجرأ بالرد عليه، وكثيراً ما كان عمر الحامدي هو ذلك الشخص المفضل لجلود.

بعد تفاقم أزمة لوكربي وتضييق الخناق على ليبيا من خلال الحصار الجوي وغيره من العقوبات وما إعتبره معمر القذافي تقاعص العرب عن نصرته، شن هجوماً متواصلاً على العرب، إلى حد أنه تمنى أن لا يكون عربيا، أدار ظهره للعالم العربي، وتوجه إلى أفريقيا التي كرر القول أنها ناصرته ووقفت إلى جانبه، رفع القذافي شعار الإتحاد الأفريقي، وارتدى الملابس الأفريقية إلى أن توج ملك ملوك أفريقيا، طبعاً

أصبح لهذا التوجه رجاله وحملة حقائبه وأمواله، وبدأت شمس عمر الحامدي في المغيب، وتداعت قصور السياسة والثقافة التي بناها عبر سنوات على جرف طموحات معمر القذافي، جاءت الموجة الأفريقية العاتية لتجرفها، وترك قائما .لكن مواهب الحامدي ظلت تحتفظ بشيء من القدرة على الإبداع، فأصبح في سنة 1989 أمين عام هيئة أمناء جائزة القذافي لحقوق الإنسان، وكانت هذه الهيئة تضم أسماء معروفة عربياً ومتوسطياً بينهم الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلاّ، ورئيس وزراء مالطا الأسبق دوم منتوف، وبعض الأساتذة من مناطق مختلفة من العالم، وولد من رحم هذه الهيئة جسماً دولياً إختار له سويسرا مقراً وهو جمعية جنوب . جنوب. لا أعلم من خسر ومن ربح، ومن عاقب من؟ الحامدي، أم القذافي؟ فبعد أن أغلق معمر القذافي بازارات العروبة التي كان السيد عمر الحامدي هو القائم بأعمال "الشهبندر" فيها، إنتقل الحامدي إلى خانة العاطلين عن العمل مثل عشرات مثله ممن كانوا يصففون البضاعة في تلك البازارات، لكن معمر القذافي لا ينسى من عمل معه حتى ليوم واحد، أو من رافقه حتى لحظة واحدة، بل يتذكر تفاصيل التفاصيل لكل لقاء جمعه بشخص ولو لدقائق معدودة، فهو شخص عاش عشر سنوات يعمل تحت الأرض منذ سنة 1959 حتى 1969، يخطط لإسقاط نظام والإستيلاء على الدولة، كان يعيش في دنيا كلها مؤامرة، وكان يرى الآخرين الذين يتحركون أو يقفون من حوله، كان يراهم عيوناً تنظر له وتراقب كل حركة وسكنة، وآذاناً تتصت إلى كلمة يقولها، ليكتبوها في تقرير أمني يرفعونه إلى رؤسائهم، وقد يقوده ذلك إلى السجن وكشف تنظيمه، فيفقد حلمه وحياته، هكذا كان الأمر في غاية الأهمية والخطورة. وفي كثير من المرات كان القذافي يسألني عن طلبة كانوا يدرسون معه بمدرسة سبها المركزية في خمسينات القرن الماضي، وعن العاملين الذي تولوا إعداد الأكل بالقسم الداخلي بالمدرسة والمشرفين وبعض أصحاب المتاجر. وعندما كنت وزيراً للخارجية، قدمت له ذات مرة قائمة بأسماء السفراء الذين إقترحتهم، كان بين الأسماء السيد علي إمدورد، وهو ضابط سابق بالجيش الليبي، ومن دفعة معمر القذافي، ولكنه لم يكن

ضمن تنظيم الضباط الأحرار، إنفجر معمر غضباً عندما وقع نظره على إسم إمدورد، وهو يقول: "معقول! معقول! هل يمكن أن يكون هذا الخائن سفيراً؟" وبدأ يسرد وقائعاً وتفاصيلا عن أيامه معه في كلية الضباط ببنغازي في أوائل الستينات. وهل يُنسى عمر الحامدي؟ وهو صانع مصانع الأصوات الفردية والجماعية القومية الثورية.... ألخ؟!.

بعد تقاعد العروبة في ليبيا، وصعود أغنية "سمراء الجنوب" التي ألفها معمر القذافي، ونسيان النشيد القومي الذي ألفه هو نفسه "وطني الكبير"، بعد ذلك باءت تجارة وإنتعشت تجارة، تذكر معمر القذافي عمر الحامدي فأرسله، أميناً لمكتب الإخوة الليبي بالجزائر . سفير . سنة 1999، وهي السنة التي تأسس فيها، الإتحاد الأفريقي، ليؤذن في مالطا كما يقولون، كانت السنوات التي قضاها عمر في الجزائر من 1999 إلى 2003 هي سنوات الجمود في العلاقات الثنائية بل سنوات التوتر والشك، عقدنا إجتماعات كثيرة في الخارجية الليبية لتحريك تلك العلاقة، ورغم العلاقات الشخصية التي ربطت معمر القذافي والرئيس أبو تفليقة، فإن العلاقات بين البلدين لم تشهد تطوراً، وقد إستغربت من برود القذافي نحو أي محاولة لتفعيل العلاقات الثنائية، لكنني أدركت فيما بعد حساسية القذافي من الدور الجزائري في أفريقيا وعدم مجاراة أبو تفليقة لإندفاع القذافي فيما يتعلق بالإتحاد الأفريقي، فالجزائر دولة فاعلة في القارة ولها تأثيرها ليس في الدول الناطقة بالفرنسية بل حتى في تلك الناطقة بالإنجليزية والبرتغالية والإسبانية. فقد تأسست علاقة قوية بين الجزائر وكثير من البلدان الأفريقية إبان سنوات التحرير، وقد أقام عدد من المناضلين الأفارقة، بالجزائر أثناء سنوات كفاح بعض الدول الأفريقية من أجل التحرير، ومن بين هؤلاء من أصبح رئيسا لبلاده فيما بعد مثل تابو إمبيكي رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق، كما احتل الجزائريون مراكز هامة في مفوضية الاتحاد بأديس أبابا، وكان الرئيس أبو تفليقة من الرؤساء الذين لهم رؤية مختلفة بل مخالفة لتوجهات القذافي في تسريع الإندماج الأفريقي والوصول إلى إقامة الولايات المتحدة الأفريقية. أرسل القذافي عمر الحامدي ليغني

نشيد "لبيك يا علم العروبة كلنا نحمي الحمى" في حين كان القذافي ينشد "سمراء الجنوب". والجزائر تردد "قسماً بالنازلات الماحقات". وغابت "ليلى" عن الجميع.

بعد ذلك أُرسل الحامدي سفيراً إلى السودان سنة 2003 ليبقى بهذه الصفة إلى سنة 2007، كان هناك جسماً يحمل عنوان "مكتب التكامل" بين ليبيا والسودان، أنيطت به مهمة رفع التعاون القطاعي بين البلدين إلى مستوى التكامل الكامل، وصل الحامدي الخرطوم وهو ما يزال يردد، "لبيك يا علم العروبة" حيث لا علم ولا عروبة، السودان في أتون حرب أهلية تحرق الأخضر واليابس في الجنوب، ولهيب دارفور يرتفع كل يوم حتى رآه كل العالم فتحركت المجموعة الدولية من أجل إخماده، ووضع القذافي وقته وعقله في تلك الأرض التي تحترق، وتسابق مقاولو الأزمات من المخابرات الليبية وعلى رأسهم عبد الله السنوسي إلى دارفور يستقدمون المقاتلين والوجهاء والسلاطين للقاء القذافي بإعتباره الراعي السامي للسلام في فضاء تجمع س.ص. وركض علي التريكي الذي كان أميناً للوحدة الأفريقية وسليمان الشحومي أمين الشؤون الخارجية بمؤتمر الشعب العام إلى السودان للطواف حول المصيبة الغنيمة وبقي الحامدي التعيس يدير طواحينه في الهواء، يأتي إلى الخارجية الليبية بملفاته وطلباته يشكي ويحكي، هي حائط المبكى الذي يفرغ فيه أوهامه وأحلامه، كان معمر القذافي يرى في دارفور ورقة من الأوراق التي سيقدمها إلى العالم تزكي الوجه الجديد له ولليبيا، يريد أن يكون صانع السلام الأوحد في دارفور، كان الحل مستحيلاً، فالرئيس عمر البشير إختار القوة، والقوة فقط حلاً لهذه المشكلة، ويرى مبادرات معمر القذافي تنطعاً وتدخلاً في شأن السودان، ويتوجس من خطاب القذافي الذي يكرر علناً تأييده لإنفصال جنوب السودان إنطلاقاً من نظريته السياسية التي تقول، يمكن للدول الأفريقية أن تتقسم وتتجزأ ولكن الأساس أن تبقى هذه الشظايا متوحدة داخل "الإتحاد الأفريقي".

وكنت ذات مرة مع القذافي بحضور كل من موسى كوسا رئيس جهاز الأمن الخارجي آنذاك، وعبدالله السنوسي مدير الإستخبارات العسكرية، نناقش موضوع دارفور، قلت له: "إن دارفور مثل التابوت، لا يمكن أن ترفعه على رأسك لوحدك". نظر إلي ونهض وغادر الخيمة، في اليوم التالي، إتصل بي مدير مكتبه بشير صالح وقال أن الأخ القائد موجود بفندق المهاري والمطلوب أن تحضر إلى هنا فوراً. ذهبت، وجدته في الصالون الرئاسي بالفندق، بادرني بالقول: "متى ستتعلم اللباقة وأدب الحديث، كيف تقول لي، أن دارفور مثل التابوت، لا يمكن أن ترفعه على رأسك لوحدك". قلت له: "يا أخ القائد، أرى أن لا تتدخل شخصياً في أي مشكلة لا نضمن حلها بنسبة 90% على الأقل أما إذا كانت النسبة أقل من ذلك، فيجب أن يكون المكلف بها في مستوى يتناسب مع فرص حلها".

صَمَتَ قليلاً وبدا عليه الارتياح وقال: "هذا تحليل معقول لكن ما كان يجب أن تقول مثل هذا الكلام بحضور موسى وعبدالله". وللأمانة، فقد تدافع الكثيرون لأخذ الغنائم المادية من أزمة دارفور، ولكن الحامدي لم يكن من بين هؤلاء، كان يتصرف بعقلية . رغبوية . التي تستعمل كلمات من عيار، يجب، المفروض، واجبنا...ألخ. كانت الأزمة أكثر تعقيداً من فهمه، وأكثر صعوبة من قدرته.

هكذا إستعمل القذافي مهارته في إستعمال الأشخاص، أوفد الحامدي إلى الجزائر وإلى السودان سفيراً بلا سفارة أو مهمة، كما ترسل بعض الدول السفراء العجزة أو المرضى إلى سويسرا، وليت معمر فعل ذلك مع الحامدي، وإنما أرسله لكي يغني الفراغ، ومعمر يُعْتَبَر مدرسة في هذا الأمر، في أوائل الثمانينات عين سعد مجبر سفيراً في فرنسا، ولم يستوعب أسباب تعيينه هناك، فهو يرى نفسه عروبيا كان من الأنسب أن يوفد إلى دولة عربية مهمة، وفي بحثه عن جواب لسؤاله، إستفسر من محمد بلقاسم الزوي عن الدافع الذي جعل القائد يوفده إلى فرنسا، ردّ عليه الزوي

قائلا: "السبب واضح، وهو أن القائد يريد أن يبصق في وجه الرئيس الفرنسي . ميتران . وهو لا يستطيع أن يفعل ذلك بالطبع، فأرسلك سفيراً إلى باريس". وفي سنة 1999 عين الراحل جمعة المهدي الفزاني وزيراً للثقافة، ولكن قبل أن يستلم عمله تمّ عزله، كنت حينئذ، عضواً بأمانة مؤتمر الشعب العام، وتحرج زملائي من إبلاغه القرار الذي إتخذ بالتمرير من أعضاء مؤتمر الشعب العام، بإلغاء أمانة الثقافة وبالتالي إلغاء إختياره. طلب مني الزملاء في أمانة المؤتمر أن أقوم بإبلاغه بحكم العلاقة التي تربطني به، طلبت منه أن يزورني ببيتي، وكان الأمر محرجاً بالنسبة لي فأردت أن أضع الأمر في صيغة هزلية، فقلت له أريد أن أهنئك. قال، بماذا؟ قلت: "لقد صدر قرار بأن تقوم بتعبئة الهواء في صناديق". ردّ مستغرباً وباسماً: "دعنا من الهزل، ماذا تقصد؟". قلت له يا جمعة، هل تصدق أن معمر القذافي يريد فعلاً وزارة الثقافة؟ الأمر كما قلت لك، أريد لك أن تعبئ الهواء في صناديق وتم إعفاؤك من هذه المهمة، وحاولت إقناعه أن القرار بإلغاء هذه الأمانة ليس موجهاً له بالذات ولكن للمبدأ، وأن ما تمّ من إلغاء هو في صالحه كمناضل، ومثقف، إذ كان سيجد نفسه في دائرة عبثية.

عمر الحامدي، رجلاً شهماً وكريماً، لكنه أُدخل في أنبوب الكلام، إستمرأ سيولة الخطاب فتماهى معه، إنساب في الأنبوب، وعندما خرج إلى الطرف الآخر منه، إكتشف أن الدنيا أوسع من ذلك بكثير، ولكنه إستمر في وضعه المناسب في الأنبوب، وحدث له ما حدث لذلك الأعمى البائس، الذي كان يتحرش بجارته صباحاً ومساءً إلى درجة شعرت معها الجارة بضيق وغضب شديد، فقالت له ذات صباح، تعالى الآن وإدخل البيت، دخل الأعمى إلى بيت جارته، قادته إلى غرفة النوم وطلبت منه أن يخلع ملابسه قام بذلك بسرعة، بعد قليل، إفتعلت حركة، ونقرت على الطاولة وهي تقول: زوجي وصل، زوجي وصل، تعالى أدخلك في الدولاب، قادته إلى باب البيت وفتحته وقالت له إدخل في الدولاب، مشى الرجل عاريا في الشارع وهو يحرك يديه في كل إتجاه ويقول: "ما أوسع دولابكم، ما أوسع دولابكم"، وتجمع الناس حوله.

كـان الحامـدي ضـحية، لـم يـدرك تفاصـيل مـا كـان يضـمره كاتـب "الوصـفة" أو الروشتة، التي كتب له ، وطلب منه أن يتعاطاها، كان بإمكانه أن يوظف التسهيلات الماديـة والإداريـة التـي وفـرت لـه فـي عمـل ثقـافي عربـي موضـوعي، وأن يقوم بجهد دولـي حقيقي لخدمـة القضـايا العربيـة وخاصـة قضـية فلسطين، بـالتركيز علـى الأبحـاث الموضـوعية، وتقديم الملفـات العربيـة الحقيقيـة مثـل التعليم، وقضـايا الشـباب، التـي لا تثير خلافـاً أو تعارضـاً، وأن يستثمر جهود الأكـاديميين العرب فـي الخـارج فـي قضـايا مثـل التنـوير وإنتـاج المجتمـع العربـي الحـديث، بالإمكـان أن يعطـي هامشـاً محسـوباً ومحدوداً لـهوى القذافي الخطـابي، وكـان ذلك ممكنـاً، خاصـة أنـه قد تـوفرت لـه فرص حقيقيـة بوجـود المجلس القومي للثقافـة العربيـة فـي المغرب بعيداً عن عيـون القذافي، وكـان بالإمكـان تأسيس تـوازن بـين مـؤتمر الشـعب العربـي والمجلس القومـي للثقافـة، بحيث يكون مؤتمر الشعب العربي منبراً للخطابـة والعنتريات القوميـة، ويكون المجلس القومي دائرة بحث وتفكير وتطوير.

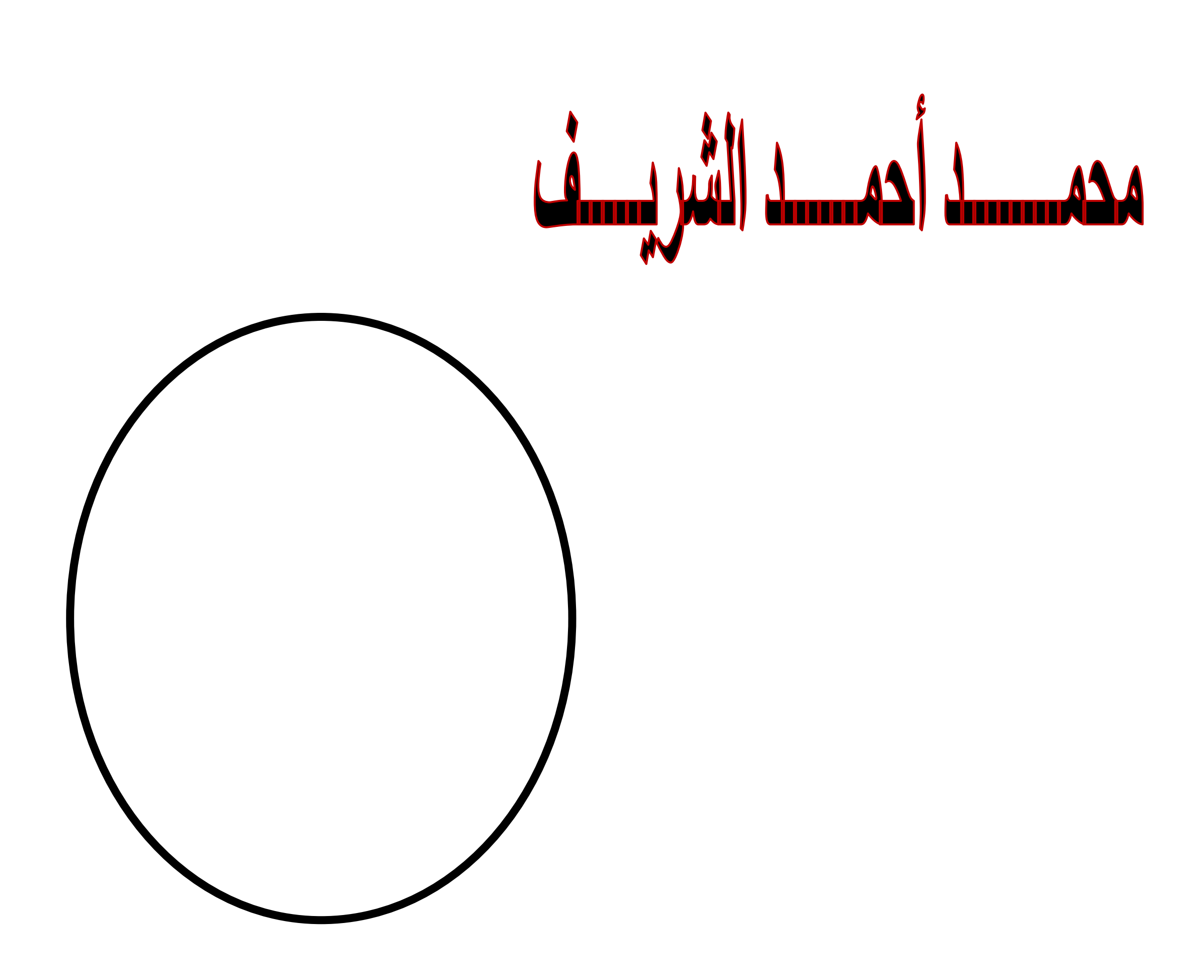
في البدايـة تجمـع حولـه رجال ذوي وزن، خاصـة فـي المجال الفكري والثقـافي من مشرق الوطن العربي ومغربه، لكن بمرور الأيام والسنوات، تسلل إلـى دوره الإنتـهازيون والمصـلحيون مقدمو الخـدمات، وإسـتطاب مثلـه مثـل كـل ذوي النفـوذ والمـال خـدمات الأميين، والراكضـين وراء المـدراء، فتركـه الجـادون، وإرتفعـت الأصـوات التـي تكيل لـه الإتهامات خاصـة فيما يتعلق بكثير من التفاصيل حول جائزة القذافي لحقوق الإنسـان، ونشب الخلاف بينه وبين أحمد بن بـلا.

بقـي عمر الحامدي بعد عودتـه من السودان بـلا وظيفة، وجد نفسـه مثل . هنري الرابع . ملك بـلا عرش، ولا صـولجان أو خدم يتنقل بين الندوات القليلـة التـي تعقد فـي ليبيـا، يكرر كلامـاً قالـه أو سمعه قبل تنصيب ملك ملـوك أفريقيـا، يتحدث عن الأمـة العربيــة والقضــية المركزيــة، وعــن الثقافــة القوميــة التــي تــآمرت عليهــا الإمبرياليــة، والمخططـات الجهنميـة الصـهيونية الإسـتعمارية، يحلـم بإعـادة تأسيس المجلس القومي

للثقافة العربية، يطرق الأبواب، بلا مجيب، إلى أن تذكر معمر القذافي حركة التضامن الأفرو آسيوي التي يتولى أمانتها الضابط المصري السابق العجوز أحمد حمروش، إستدعاه القذافي طالبا منه تفعيل هذه المنظمة، وإشتكى حمروش من وهن الشيخوخة، وطلب من القذافي أن يختار له معيناً في هذه المهمة النضالية الهامة، فتذكر معمر عمر، وقبل أن يتذوق التعيس مرة أخرى طعم الدولار، إنفجرت ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، وبدأت مجزرة القذافي ضد الشعب الليبي الأعزل، عبأ القذافي كل أنواع السلاح، وجند المرتزقة من كل أركان الأرض، وكان بالطبع يحتاج إلى مدافع صوتية، حشوتها الخطاب الخشبي السلفي القومي، إندفع عمر الحامدي راكضاً نحو الإستوديوهات المسموعة والمرئية وإلى الصحف،هاج شيطان قوميته السلفية الذي كان عاطلاً عن العمل لسنوات، يصرخ متوعداً الخونة في الداخل بالويل والتبور وعظائم الأمور، يحذر من المؤامرة الكونية الصهيونية الأمريكية الإمبريالية الرجعية التي تهدف إلى حرمان البشرية من أفكار المفكر الأممي الثائر معمر القذافي، ودعا إلى مؤتمر موسع للمثقفين الليبيين، ونادى في الفجاج القومية النضالية لياتي مثقفوها وكتابها مدججين بحناجرهم للرد على طائرات حلف الناتو الصليبي. وظهر على شاشات التلفزيون الليبي مع الشاعر الشعبي أحمد النويري، وبعض الصحفيين المغمورين الذين لا يجيدون كتابة أسمائهم، ويقفون أمام مدارس البنات، ظهر معهم يعلن . مانيفستو . النضال الثقافي القومي ضد الخونة، إعتقد المسكين، أن ما هي إلاّ صرخة واحدة حتى يعيد له القذافي مكافأة له، المجلس القومي للثقافة العربية، وتعود الدولارات ترفرف في دور الرباط ومراكش والدار البيضاء...ألخ. تعالت صرخته إلى درجة منعته أن يسمع هدير المدافع والصواريخ التي يدك بها القذافي المدن والقرى الليبية ومن بينها قريته، قرية الحوامد في الجبل الغربي.

قال سلطان الحطاب، الكاتب في صحيفة الرأي الأردنية في مقال نشر بتاريخ 2011\3\12، أنه كان في ليبيا، وقد إنعقد مؤتمر الشعب العربي، وحين إجتمع المدعوون من عديد العواصم العربية في طرابلس، ودخل عليهم (عمر الحامدي)

رئيس مؤتمر الشعب العربي، ليقول لهم أنّ العقيد قادم ليتحدث فيهم، ومضى على المجتمعين ساعة، ثم ساعتين، وثلاث ساعات، راحوا يتساؤلون وقد غضب أحد القيادات الفلسطينية من الإنتظار، وإحتج قائلاً أنه لا يستطيع البقاء أكثر، فجاء الحامدي وأقنعه بالبقاء، وبعد أربع ساعات ونصف من الإنتظار الذي منع فيه الحاضرون من مغادرة القاعة ولا حتى الذهاب إلى دورات المياه، جاء العقيد ملتفاً بملابس عربية ودخل القاعة ونظر في الجالسين غاضباً وقال: "من الحمار الذي دعاكم؟". فصمت الجميع، وإستهجنوا السؤال، فردّ الذي كان غاضباً من الإنتظار وهو من قيادات الجبهة الشعبية وقال: "عمر الحامدي"، فقال العقيد: "ألم أقل لكم أنه حمار !!!".


محمد أحمد الشريف

محمد أحمد الشريف

محمد أحمد الشريف، هو "شخص" بكل معنى من معاني الألفاظ والأوصاف يحمل دكتوراه في الأخلاق من الولايات المتحدة الأمريكية، ويحمل لقب الدكتور ثم الأستاذ، ويحمل أيضا إسم محمد وأحمد والشريف، أي أنه من نسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم..

الدكتوراه حصل عليها في أطروحة عن . الأخلاق عند الغزالي . في مجال الفلسفة. ينحدر من أسرة بسيطة تسكن منطقة، قصر بن غشير إحدى ضواحي طرابلس، هاجرت أسرته إلى مصر أثناء فترة الإحتلال الإيطالي لليبيا. في العقد الثامن من العمر، وهو من أوائل الليبيين الذين أتيحت لهم فرصة التعليم من بدايته إلى النهاية. كافح بمرارة في المرحلة الإبتدائية، حيث كانت أسرته تقيم على مسافة 25كلم تقريباً من العاصمة طرابلس، كان الوصول إلى المدرسة رحلة معاناة يومية شاقة، وإستمر الأمر على هذا الحال في مرحلة ما بعد الإعدادية، أخبرني المرحوم الحاج محمد عبيد أبو شهيوة، وهو صاحب مزرعة وحظيرة أبقار بجوار سكن محمد أحمد الشريف، أن الأخير كان يطير فرحاً عندما يصادفه في الطريق إلى طرابلس، وهو ينقل بسيارته القديمة الحليب إلى مقاهي طرابلس ويأخذ الطالب محمد معه ذاهباً إلى المدرسة أو عائداً منها، توفي والده وكفله أخوه الهمالي الذي كانت له أيضا مزرعة بمنطقة قصر بن غشير. تربى مسلماً متديناً محافظاً على الفرائض الإسلامية، وعرف الجميع شخصيته الدينية المحافظة. إنتقل إلى الدراسة بجامعة بنغازي وبعد تخرجه أوفد للدراسة بالولايات المتحدة الأمريكية حيث إلتقى بالطلاب العرب والمسلمين، وهناك بدأت ميوله نحو الأفكار السياسية الإسلامية، كانت شخصيته وموضوع دراسته تجعله قريباً من التيارات الإسلامية التي تعج بها الجامعات الأمريكية، خاصة تلك الوافدة من آسيا. سهلت له شخصيته المتسامحة المرنة سبل

التواصل والحوار مع عناصر كثيرة، من الأمريكيين وغيرهم. في الفترة التي كان يدرس فيها بالولايات المتحدة الأمريكية، كانت المنطقة العربية تعج بالعواصف والتقلبات والإنقلابات السياسية، سنوات الستينات من القرن الماضي شكلت حلقة من الحلقات الواسعة والكبيرة والعاصفة من بحث العرب عن هويتهم في عالم يتخلق في خضم حرب عالمية باردة، طال العرب فيها ألوان من الإنكسار والإندحار، وإرتفعت وإنخفضت المحاولات الثورية والوحدوية، كانت قضية فلسطين لا تزال طازجة، ومشروعات الوحدة العربية وآهات الإنفصال وحرب اليمن وهزيمة 1967. التجربة المصرية الغنية بالأفكار والأحلام والإحترام. وللشريف خيط يصله بالحضن المصري. تجربة الإخوان المسلمين، كانت زخماً من الأفكار والأحلام والدماء.

عاد الدكتور الذي يحمل مجلده في الفلسفة عن الأخلاق إلى ليبيا ليعمل أستاذاً بالجامعة، أصبح عميداً بها، وكانت ليبيا تفرح بكل عائد من أبنائها يحمل لقب الدكتوراه خاصة من الولايات المتحدة الأميكية التي يُنظر إليها كقمة في العلم وأيضا قمة في القوة والهيمنة. وفي حالة الدكتور الشريف، فإن الفرحة به أكثر بين عائلته، التي مثلها مثل الكثير من العائلات الليبية التي كانت تعاني من فاقتين، الفاقة التي تأتي من قلة المال، والتعليم يجعل اليسر يلوح من قريب أو بعيد، والفاقة الثانية، هي معاناة أكثر العائلات من الخصاصة في التعليم، أما فرحة المجتمع الليبي بهذا الأستاذ العالم، فمنبعها يأتي من أنه . الشريف . الذي يحمل دكتوراه في الفلسفة + الأخلاق + الإمام الغزالي. وعمت الفرحة عائلته عندما إرتقى سلم الوظيفة بسرعة، حيث أصبح سريعاً وزيراً للتربية والتعليم، وهذا المركز لا يجلب المنفعة المادية فقط، فهو المربي الأول، والمعلم الأكبر، عندما كان في ليبيا تربية تسبق التعليم، وتعليم في مقدمة البلدان العربية.

إلتقيت به للمرة الأولى بمكتب الرائد الخويلدي الحميدي وزير الداخلية وعضو مجلس قيادة الثورة آنذاك، كنت في حضرة الخويلدي الذي إستدعاني بشكل عاجل

ليعبر عن غضبه من عمود في صحيفة الفجر الجديد، ينتقد ويسخر من ذلك المسؤول الذي أمر بإقامة مطبات على الطريق وسط مدينة طرابلس، كان الخويلدي يفتخر أنه من أمر بذلك، ويعتبر ما قام به عملاً حضارياً لحماية الطلاب، خاصة أن أغلب تلك المطبات أقيمت أمام المدارس الإبتدائية والإعدادية، كنت رئيساً لتحرير الصحيفة، وبغرور الشباب، أو قل بطيش الشباب قلت في لغة حادة للرائد: أرجوك أن لا تهينني، فرأسمالي الوحيد كرامتي، أرجوك أن لا تؤذيني، فإذا أهنتني سأرد عليك، وطبعاً أنا الخاسر الوحيد، لأنك قادر أن تأمر أحد رجالك ليأخذني إلى السجن حالاً. إبتسم الخويلدي، وعلق الدكتور الشريف قائلا: لا، لا، الأخ الرائد لن يؤذيك، فأنت شاب صادق. شرح الرائد الخويلدي مطولاً أسباب إقامة تلك المطبات وختم حديثه بكلمات ناعمة ودية. خرجت مع الدكتور الشريف وأخذني بسيارته إلى مقر الصحيفة وأثناء هذه الرفقة القصيرة تحدث بلسان الرجل الواثق، ملمحاً إلى خطورة الأسلوب العسكري العنيف في معالجة الأمور، وبدأت العلاقة طيبة بيننا. كان ذلك في منتصف سبعينات القرن الماضي، وقد ظل الدكتور الشريف يذكرني بهذا اللقاء مرات عديدة.

تطورت العلاقة بيننا، وكان الرجل ودوداً وكريماً، كان متعاوناً معي من موقعه كوزير للتربية والتعليم ولم يتردد في الإستجابة لما أطلبه منه، وكان يأخذ كل توصياتي فيما يتعلق بالإيفاد للدراسة في الخارج أو التعيينات في بعض المواقع بعين الإعتبار.

الليبيون الذين عاشوا مرحلة توليه لوزارة التعليم، يذكرونها كمرحلة ذهبية سادت ثم بادت، فقد كان التعليم من المرحلة الإعدادية إلى الجامعية، في غاية الإنضباط والنزاهة، وكان إرسال الطلاب إلى الخارج يقوم على أسس موضوعية لم تطغ فيها الوساطة أو المحسوبية، أو الإفتعالات والإنفعالات الثورية مثلما حدث فيما بعد

خاصـة، معـايير أحمـد إبـراهيم التـي تعتمـد علـى نوعيـة إسم المتقدم للدراسـات العليـا، وعضويته ونشاطه في حركة اللجان الثورية. نظم الدكتور الشريف المؤتمرات الدولية التـي عنيـت بـالمبنى المدرسـي ومواصـفاته، ومنـاهج التعليم، والطـرق المثلـى لأسـلوب الإمتحانات. وبعده بدأ الإنهيار المتسارع في هذا القطاع الذي تولاه من بعده وزراء أطلق عليهم إسم . الأمناء . الذين يقودون . لجانا شعبية عامة . مثلما سميت بقية القطاعات، جاء بعده، أحمد إبراهيم القذافي، الذي صنع في التعليم ما يصنع الذئب في القطيع، وإبراهيم أبو خزام الحسناوي، الذي أذن في قبيلته . الحساونة . فتدافعوا إلى المناصب، وتولى المشروعات والمشتريات، وأوفد الكثير منهم للدراسة في الخارج ودعمه الرائد عبد السلام جلود، وللأمانة فقد نجح أبو خزام في إيفاد المئات من الطلاب الليبيين للدراسة في الخارج بعد توقف إستمر طويلاً، ولا زالت ليبيا تعاني من تبعات تلك الفجوة التعليمية، وجاء من بعده أسماء لا مؤهل لها، ولا يذكر الليبيون تلك الأسماء إلاّ للتنذر والإستخفاف. وقد يكون من حظ الدكتور محمد أحمد الشريف، أنه كان آخر الأسماء من العيار العلمي الثقيل الذي قاد وزارة التربية والتعليم، وكان كما يقال التعليم تعليماً آنذاك.

(دعوة)

لكل لهجة عربية أو غير عربية تعبيراتها الداخلية الدقيقة والبليغة، ففي اللهجة الليبية نقول: فلان فيه دعوة. أو، يعطيك دعوة، أو، فلان مدعي، كل تلك التعبيرات تعني، أن هناك دعاء بالسوء ضد شخص ما، وأن ذلك الدعاء قد فعل فعله فيه.

فبعد السنوات التي قضاها الدكتور محمد الشريف في وزارة التعليم وحقق فيها نجاحاً وجهداً يُذكر فيشكر، عين أميناً عاماً لجمعية "الدعوة" الإسلامية خلفاً للشيخ محمود صبحي، الذي كان أول أمين لها بعد تأسيسها مباشرة بعد قيام ثورة 1969. كان الشيخ صبحي من رموز المعارضة الليبية أثناء العهد الملكي، ومن المعارضين الأشداء لوجود القواعد الأجنبية فوق الأرض الليبية، كان شيخاً معمماً من خريجي الأزهر، ومن الشخصيات المعروفة بالصلابة في الموقف، والعفة والتواضع، ولم يكن من رجال . نعم. ولا أعتقد أن معمر القذافي وزملاءه من أعضاء مجلس قيادة الثورة قد وجدوا كيماء مشتركة معه منذ البداية رغم أنهم حاولوا إستعماله منذ البداية لشراء الشعبية وسط الليبيين الذين لم يسمعوا قبل الحركة بأسماء هؤلاء الضباط الشباب. ومعمر القذافي الذي لا تنقصه الخبرة والتجربة في سرعة إكتشاف الطبوغرافيا الداخلية للرجال، أيقن بسرعة أن مقياس رسم خريطة الشيخ صبحي لا ينطبق على تلك التي يتقن إستخدامها، كانت الأهداف المعلنة للجمعية هي العمل على نشر الدعوة الإسلامية وخاصة في القارة الأفريقية حيث الملايين من سكانها يعتنقون ديانات وثنية مختلفة، وحاول القذافي، إستخدام الدعوة للإسلام لأهداف سياسية، فركز منذ البداية على بعض الرؤساء الأفارقة المسيحيين مثل، الرئيس بونجو، وبوكاسا، وكيريكو، مستخدماً المال، وقد تحدث القذافي في ذلك مع الشيخ محمود صبحي مباشرة بعد تأسيس الجمعية، رحب الشيخ بمبدأ دعوة الأفارقة إلى الدين الإسلامي والبداية بالرؤساء لأن ذلك يفتح الباب أمام دعاة المسلمين لدخول البلدان المستهدفة، ويسهل حركتهم ويشجع الناس على الإقتداء برؤسائهم فيدخلون في دين الله أفواجاً، ولكن

الشيخ لم يبد إرتياحه لإستعمال المال لإستمالة هؤلاء الرؤساء من أجل الدخول في الإسلام. كان رأي القذافي أن إستعمال المال هو من باب إستقطاب "المؤلفة قلوبهم" وهذه سياسة إستعملها رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ بداية الدعوة، وخاصة عندما إحتدم الصراع، فأمره الله أن يؤلف قلوب الأقوياء من المشركين الذين إنضووا تحت راية الإسلام، ولكن لم تكتمل ثقة المسلمين فيهم. كان للشيخ محمود صبحي، وهو الرجل الضليع في علوم الدين ومن خريجي الأزهر، وعُرِف عنه الصدع بالرأي وعدم الخوف أو الطمع، كان له فهمه العميق للأمر ورأيه الصريح فيه. أضف إلى ذلك أن الشيخ هو رجل سياسة فقد كان عضواً بمجلس النواب الليبي في العهد الملكي، قاد المظاهرات، ودخل المعتقلات، وألقى الخطابات، ووجوده في هذا المركز الذي له بعداً دولياً وبمضمون فكري وديني، يجعله مرشحاً للعب دور سياسي في الداخل وهو من الأسماء التي تهزّ البلاد وخاصة مدينة طرابلس التي ينتمي إليها وهي عاصمة البلاد ومجمع الأشهاد.

بحث معمر القذافي عن شخصية حدد مقاييسها، ووضع مواصفاتها، وبعد تقريب وتقليب لشخصية الدكتور محمد أحمد الشريف قال في نفسه: "وجدته".

ففي هذا الدكتور صفات ومواصفات غير تلك التي أقلقت معمر في شخص الشيخ محمود صبحي، هناك، من قال إن الشيخ هو الذي طلب إعفاءه من ذلك المنصب، ولكن المؤكد والصحيح، أنه أقيل، وهناك من أضاف أن القذافي قرر تنحيته إثر لقاء عاصف بينهما، فقد أراد الشيخ أن يكون عمل تلك الجمعية خالصاً لوجه الله، ولا يكون للسياسة فيه لون ولا طعم ولا رائحة، في حين كان إختراع معمر القذافي لهذا الجسم لمآرب أخرى.

للأسماء عند معمر القذافي تصنيف، وعلى ضوءه يكون التوظيف، فهو قد إختار معاوية الصويعي ليكون سفيراً بموريتانيا عندما كان يرأسها معاوية ولد الطايع، وإختار رمضان بشير، ليكون سفيراً بالسودان لدى رئيسها عمر البشير، رغم أن الإثنين لا سابقة لهما بالعمل الدبلوماسي من بعيد أو قريب، كان الإثنان من اللجان الثورية وكان معاوية الصويعي شبه أمي ولم يتعد المرحلة الإعدادية. إختار محمد بيت المال ليكون وزيراً للمالية، ومن أجل إسمه . بيت المال . غير إسم الوزارة من الخزانة إلى المالية حتى ينطبق الإسم على الوظيفة، وللإسم هنا دلالة تراثية دينية مجزية في نظر القذافي، فبيت المال، يشع منه الموروث الإسلامي، عندما كان صندوق الدولة يحمل إسم بيت المال والخليفة هو الآمر بالصرف منه.

وقد حدثت قصة طريفة في إحدى دورات إنعقاد مؤتمر الشعب العام في ليبيا، وعند إختيار أعضاء الأمانة العامة للمؤتمر تمّ إختيار"الزناتي" محمد "الزناتي" القذافي أميناً للأمانة، وأختير "أبو زيد" عمر دورده مساعداً له، فقال القذافي إبحثوا عن إمرأة تسمى "جازية" لتكون أميناً لشؤون المرأة. وتأخر الإعلان عن تصعيد الأمانة، لأنه لم يتمّ العثور على سيدة تجيد القراءة والكتابة تحمل إسم "جازية". لقد قدح الإسمان، الزناتي، وأبو زيد، قدحا ذهن معمر القذافي فطار إلى دنيا الماضي، التي تحمل ومضات البطولة الملحمية البدوية، أي "تغريبة" بني هلال، بشخوصها الثلاثة . الزناتي، وأبو زيد، والجازية. وعندما عين المرحوم كامل المقهور وزيراً للخارجية سنة 1985، قام القذافي بتغيير إسمه إلى . المنصور . لأنه كان يتطير من . المقهور . والبلاد كانت في خضم المواجهة مع الغرب، وقد قصف الطيران الأمريكي بيت القذافي سنة 1986 عندما كان . المقهور . يقود الدبلوماسية الليبية، فكان لا بدّ من تغيير إسم الوزير إلى المنتصر لتنطبق لغة الخطابة الإنتصارية مع إسم من يقود المعركة الدبلوماسية.

وعندما أغلق ملف الممرضات البلغاريات المتهمات بحقن الأطفال الليبيين بفيروس الإيدز، غضب القذافي غضباً شديداً من البغدادي المحمودي رئيس الوزراء الذي أمر بالإفراج عن الممرضات، وسمح لهن بمغادرة ليبيا رفقة زوجة الرئيس الفرنسي السابقة سيسيليا ساركوزي، وأحال القذافي البغدادي إلى المحاكمة، وبدأ يناديه بإسم . البلغاري المحمودي.

منذ البداية، أراد معمر القذافي أن تكون "جمعية الدعوة الإسلامية" أحد الأذرع الخارجية التي تتبعه هو شخصياً، يتولى توجيهها وإستخدامها بالطريقة التي يراها. فالجمعية لا تتبع لأي جهة سياسية، أو إدارية في داخل ليبيا، ولا تخضع أموالها للرقابة أو المحاسبة، وكان لأفريقيا المساحة الأوسع بين ناظري القذافي، ولهذا كان دقيقاً وحساساً في إختيار الشخص الذي يتحمل هذه "الدعوة".

الدكتور محمد . أحمد . الشريف، إسم مشحون إلى درجة التشبع بالدلالات التي تجذب القذافي، هو ينتقي الإسم، ويقربه إلى المكان، "فالدكتور"، هذه درجة علمية عالية، تشكل تقديم للشخص، تضفي عليه الهالة التي ينبهر بها أهل العالم الثالث عموماً والعربي خصوصاً وبينهما عالم الإسلام والمسلمين، وإذا وضعت التفاصيل على الورق، وكما يقال على صفحة "الحياة الوظيفية" فستظهر وتُظْهِرْ، أن حامل هذا اللقب يحمل دكتوراه . PHD. من إحدى الجامعات الأمريكية، والمكان أي "جامعة . أو كلية" يقود إلى الموضوعية، أما مضمون الإطروحة التي جعلته يحوز على تلك الدرجة العلمية واللقب المقدم، فهو دراسة في "الفلسفة" وتحديداً في "الأخلاق" عند الإمام "الغزالي". وهكذا جمع هذا الأستاذ المجد العلمي من كل أطرافه، ومن كل زوياه . أمريكا . الفلسفة . الأخلاق . الغزالي.

أما إسمه الذي لم يحصل عليه من جامعة أو مجمع أو محفل فهو: محمد . أحمد . الشريف. وهنا ليس مربط فرس واحد، بل هو مجمع من التكوينات التي تفيض بالدلالات التي تؤهله أن يحمل جبل "التوباد" على كاهله، فمن للإسلام داعية أفضل

من هذا الذي يحمل إسم . محمد . وأحمد . ويختم بالشريف؟! وعلى قول الشاعر الكبير مهيار الديلمي:

قد جَمعتُ المجدَ مِنْ أطرافِهِ سؤددُ الفرس ودينُ العرب

أما العنصر الأهم بالنسبة للرؤية الأمنية السياسية للقذافي هي أن المذكور ليس له سابق عمل أو إنتماء سياسي، لا يعرفه الجمهور، ولا ينتمي إلى قبيلة ليبية كبيرة، ولا يتصف بقدرات قيادية تسبب إزعاجاً. وقد لمس فيه القذافي طراوة ورخاوة أثناء لقاءاته به عندما كان محمد أحمد الشريف وزيراً للتعليم، أي أنه الشخص المطلوب في المكان المحسوب.

كان مجلس قيادة الثورة قد أصدر قانوناً، بتأسيس صندوق الجهاد، تقتطع موارده من جميع العاملين في الدولة، ومن كل المبالغ التي تحددها الدولة في ميزانيتها العامة للقطاعات، وكان دخله كبيراً، ووضع هذا الصندوق ضمن ميزانية جمعية الدعوة الإسلامية، وقد أوضح الدكتور الشريف منذ أيامه الأولى في الجمعية للقذافي بأنه وحده الآمر بالصرف من هذا الصندوق، وهكذا حقق الإثنان هدفاً، فبالنسبة للقذافي أصبح تحت يده صندوق ممتلئ بالمال يستطيع أن يصرف منه ما يشاء متى وكيف يشاء، وبالنسبة للشريف يستطيع أن يلعب في هذا الكنز الذي لن يجرؤ أحد عن السؤال عن ماذا صرف منه، لأنه بالكامل تحت أمر القائد.

عندما كان الدكتور الشريف يدرس بأمريكا إنضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، ولكنه لم يبرز بين أعضاء الجماعة، ولم تتداول أجهزة الأمن الليبية في العهد الملكي إسمه بشكل واسع كعضو في تنظيم الإخوان، وعندما عاد إلى ليبيا لم يقم بنشاط واسع في مجال التنظيم أو الدعوة الواسعة له، وإقتصر في بعض أحاديثه مع المقربين جداً منه على مهاجمة الرئيس جمال عبد الناصر، وعن أسباب هزيمة 1967 التي

تتلخص في النكوص عن الإسلام، وقتل أئمة هذا الدين وعلى رأسهم سيد قطب وعبد القادر عودة.

كان هذا الماضي "الإخواني" هاجساً يهزّ الدكتور الشريف، وحاول مراراً أن يتحدث بلغة " المزايد" عندما يتحدث عن ثورة الفاتح من سبتمبر القومية الناصرية، ويبالغ في تقريض العروبة ورجالها، ويتحفظ كثيراً عند الحديث عن الإسلام السياسي. بعد إختياره لموقع أمين جمعية الدعوة الإسلامية، مسّه بعض الإرتباك، لأن بعض الألسن بدأت تتحدث عن ماضيه الإخواني، وظنّ، أن إختياره لهذا الموقع له علاقة بذلك الماضي، وبقي هذا الهاجس يعاوده من حين إلى آخر خاصة عندما طلب منه أن يخرج أسماء محددة من الإسلاميين من ليبيا، وأن يرسلهم إلى الخارج للدعوة إلى الدين الإسلامي، وقال القذافي علانية: نحن في ليبيا مجتمع مسلم مائة بالمائة وعلى الذين يقولون أنهم إخوان مسلمون، أن يذهبوا إلى الخارج لدعوة غير المسلمين إلى هذا الدين.

هذا الهاجس " الإخواني الإسلامي" بقي مع الدكتور . دعوة . في الدعوة فإحالة عدد من الإخوان المسلمين للعمل بالجمعية، جعلها تلقائياً عشاً للأمن، بحجة مراقبة هؤلاء الإخوان، وبعد أن فتحت الجمعية مكاتباً لها في مختلف القارات كان الدكتور الشريف يسرع إلى الأمن الخارجي، يعرض قوائم المرشحين للعمل بهذه المكاتب لأخذ الموافقة، أو لنقل عدم الممانعة من تعيينهم كل وفقاً للبلد المقابل لإسمه، وكثيراً ما كان يتطوع بأن يطلب من رئيس جهاز الأمن أن يرشح مديراً لهذا المكتب أو ذالك، ونستطيع أن نجزم بأن (80%) من تلك المكاتب التابعة لجمعية الدعوة الإسلامية في الخارج كانت تحت إمرة ضباط من الأمن الخارجي. أما مقرها في طرابلس فكان يعجّ بالموظفين الذين يحملون رتباً عسكريةً مختلفةً، إلى درجة جعلت البعض يطلق على جميعة الدعوة الإسلامية، يطلق عليها . جمعية الدعوة الأمنية .. وعندما كنّا نعقد إجتماعات يشارك فيها الدكتور محمد أحمد الشريف، ويكون موسى كوسا رئيس جهاز

الأمن الخارجي حاضراً، كنا نتبادل النظرات الساخرة، حيث كان الشريف لا يتحدث إلاّ بعد أن يستمع إلى ما ينطق به موسى كوسا ليسارع لتأييده بحرارة، ولا يخفي تملقه له.

كان هاجس " الإخواني" يد غير منظورة تتحسس شفاه الشريف وأحياناً عنقه، يحرص أن يكون جهاز الأمن الخارجي، وأحياناً الداخلي مطلعاً على كل كبيرة وصغيرة يقوم بها. منذ بداية التوجه الليبي لأفريقيا أصبح الشريف، عنصراً أساسياً في كل الأنشطة الليبية في القارة، فهو عضو في لجنة العمل السياسي التي تضم أمين الشؤون الخارجية بأمانة مؤتمر الشعب العام، وأمين الخارجية، ورئيس جهاز الأمن الداخلي، وأمين تجمع الساحل والصحراء (س.ص). وكان يتولى حمل المبالغ المالية لبعض رؤساء الدول الأفريقية، ويمول حملات الإنتخابات الرئاسية والبرلمانية في بعض الدول الأفريقية.

أقام علاقات واسعة مع عدد كبير من رؤساء الدول، خاصة في أفريقيا، وشخصيات سياسية وأكاديمية، وزعامات محلية، قام ببناء مساجد، ومدارس في كثير من دول أفريقيا وغيرها، وكان تنظيم صلوات المولد النبوي . التي يقوم القذافي بإمامتها مناسبة لصرف الملايين ليس في أفريقيا وحدها، فهذه الصلوات يدعى لها عدد كبير من رؤساء العالم، ورجال الدين، ورؤساء الطرق الصوفية، ومشائخ القبائل، وقطاعات عديدة من الفعّاليات السياسية والدينية، وتؤجر طائرات خاصة لنقل المشاركين في هذه الصلوات من كل حدب وصوب، وكان الدكتور الشريف هو المسؤول الأساسي عن هذا المحفل السنوي الذي ينتقل من مكان إلى مكان. كان هذا الطقس من كل سنة عاصفة تهز كيانه، تملأه بالخوف، فمعمر القذافي لا يحدد المكان الذي يريد الصلاة فيه في متسع من الوقت، وكثيراً ما يطلب أن تكون تلك الصلاة السنوية في بلاد لا تقبل إستضافتها، أو تضع شروطاً لا يقبلها العقيد، أو تطلب مزايا مالية مقابل الموافقة. ولهذه الصلوات طرائف متعددة وطويلة، فما أن

يقترب يوم المولد النبوي، حتى تسرى في الدولة الليبية قشعريرة عاتية، ويتقاسم المسؤولون الرعشات كل حسب منصبه وشخصيته، فعندما كان الدكتور شكري غانم كان يأخذ هذا الحدث بشكل هزلي ولا يخفي تعليقاته الساخرة عليه حتى أمام معمر القذافي، مبدياً إعتراضه على هذا التقليد، أما عندما تولى البغدادي المحمودي رئاسة الوزارة، فقد كانت هذه المناسبة تجعله آمر معركة يتلذذ بقيادتها، ويحرص على أن يكون هو مهندسها وبانيها، ففي إحدى السنوات أراد القذافي أن تكون تلك الصلاة بتونس وتحديداً بالقيروان، وإعترض الرئيس بن علي وأرسل مبررات عديدة، وعرض بدائل لم يقبلها معمر، إنتفض البغدادي، وإتصل برئيس الحكومة التونسي، وأبلغه تهديدات صريحة بمراجعة كل العلاقات مع تونس إذا لم تنزل عند رغبة القائد، ولكن الرئيس التونسي أصرّ على موقفه، وكان البغدادي أكثر إندفاعاً من القذافي نفسه الذي لم ير في الأمر ما يدعو إلى التصعيد مع الأشقاء في تونس. وفي إحدى السنوات، عبّر القذافي عن رغبته في إقامة الصلاة السنوية في تركيا، وتحديداً في . أيا صوفيا . ذاك المبنى التاريخي الرائع، الذي كان كنيسة ثم حوله العثمانيون إلى جامع ومن بعد تحول إلى متحف، تمنّع رئيس الوزراء التركي، ولكن البغدادي إرضاء للقائد بأي طريقة، ووجدته في إحدى زيارتي له، متوتراً جداً، وأجرى إتصالات مع رجب طيب أردوغان رئيس الوزراء التركي ملحاً على تمكين القذافي من إمامة الأتراك وضيوفهم في أيا صوفيا، كان لأردوغان مبرراته، فتركيا دولة علمانية، تعمل على الإنضمام إلى الإتحاد الأوروبي، والمبنى قد تحول منذ سنين طويلة إلى متحف، ولا يمكن إعادة الصبغة الدينية الإسلامية له. لم ييأس البغدادي، وكثف الإتصالات مع رجال الأعمال الأتراك المقربين من أردوغان ولهم مصالح في ليبيا، يرهبهم ويرغبهم، لكن أردوغان لم يتزحزح عن موقفه، ولم تتحقق رغبة القذافي. نفس الموضوع تكرر مع أندونيسيا وماليزيا ومصر. كان الدكتور محمد أحمد الشريف هو الجندي الجريح دائما في تلك المعارك وهو البطل مع وقف التنفيذ. لقد نجح في مواقع شتى، وظل يرددها بإعتزاز مثل الصلوات التي أقيمت في تمبكتو بمالي، وفي نيجريا، وتشاد،

وأوغندا، كان يشعر بسعادة غامرة وهو يرى الصفوف المتزاحمة والممتدة على طول البصر، وقائد القيادة الإسلامية، يتقدمها خطيباً متحدياً، يقرأ القرآن بإلقاء مغربي قديم.

كثر الحديث عن الكنز الذي يجلس عليه الدكتور الشريف، أقصد أموال صندوق الجهاد، وقد حاول الزناتي، أمين مؤتمر الشعب العام مراراً أن يرفع صوته بالحديث عن هذا الكنز، وهو ليس بعيداً من الناحية النظرية عنه، فهو عضو في اللجنة التي يفترض أن تدير إستثمارات هذا الصندوق وهي عديدة، فالجمعية تمتلك الكثير من الفنادق، وقد أقامت أكبر (5) أبراج في طرابلس وهي ذات العماد، بالإضافة إلى إستثمارات في الخارج، حاول الزناتي الذي كان يشم رائحة الشواء دون أن يستطيع أن يمدّ يده لأخذ قطعة منه، فالقائد هو المفتاح لذلك الصندوق، ولم تتوقف الألسن عن الحديث المتساءل عن حجم أموال ذلك الصندوق، وأين تصرف وكيف، وما هو الحجم الحقيقي لثروة الدكتور محمد أحمد الشريف الشخصية؟ لا مجيب. ومما زاد شكوك الناس، الضعف الظاهر للدكتور أمام بعض مدراء مكاتبه في الخارج، فهو لا يستطيع أن يرفع صوته أمام مختار عزيز الذي كان يدير مكتب الجمعية في إيطاليا قبل أن ينقله إلى مالطا ليتولى مكتب الجمعية بها، وقد ترك هذا الجمعية ليؤسس شركة كبيرة بمالطا يمتد نشاطها إلى أكثر من بلاد. لاحظ الناس الشيء نفسه في سلوك الدكتور أمام المدير الثاني لمكتب الجمعية بروما منصور تنتوش، الذي لا يستطيع الدكتور أن يسأله عن ثلث الثلاثة.

إستمرأ الدكتور . الدعوة . وإستمرأته، فدخل في الأعماق، في لقاء لي مع وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل بعد محاولة إغتيال الملك عبد الله بن عبد العزيز عندما كان ولياً لعهد السعودية وإتهم فيها بعض العناصر الليبية في ذلك اللقاء، أخرج الأمير الوزير ملفاً يحتوي ملخصاً للتحقيقات التي أجرتها السعودية في هذه القضية، أورد ذكر ثلاثة أسماء وهي العقيد عبدالله السنوسي مدير المخابرات العسكرية، وموس كوسا رئيس جهاز الأمن الخارجي، والدكتور محمد أحمد الشريف.

توقف الأمير الوزير طويلاً عند إسم الدكتور الشريف، معبراً عن إستغرابه أن يتورط شخص يفترض أنه يقوم بالدعوة إلى الإسلام في الدعوة إلى القتل. الواقع أن الدكتور الشريف تحول في السنوات العشر الأخيرة إلى أداة في يد معمر القذافي، يستعملها كما يشاء، عبد الرحمن العمودي، المواطن الأمريكي من أصل أثيوبي أو سعودي، حكم عليه بالسجن في أمريكا لتورطه معترفاً في محاولة إغتيال الملك عبد الله بن عبد العزيز، وأنه إستلم مبلغ (300) ألف دولار من جهة ليبية، والمذكور هو من الإخوان المسلمين الذين يقيمون في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد تولى الدكتور الشريف شخصياً بالتعاون مع عبدالله عثمان القذافي المسؤول عن الدراسات والتقارير بالقيادة، تولى طبع سلسلة من الكتيبات التي تهاجم السعودية، والمذهب الوهابي، ويتولى توزيعه بكل اللغات في جميع أنحاء العالم، كما أشرف على تعبئة شاملة وقوية في الأوساط الإسلامية بأفريقيا وآسيا مضادة للسعودية بحجة مقاومة المذهب الوهابي المعارض للطرق الصوفية، خاصة في أفريقيا.

كان الدكتور الشريف، هو الظاهرة الإسلامية، المقابلة لعمر الحامدي الذي كان الظاهرة القومية العربية، وأبدع الإثنان في توليد الأجسام من أرحام بعضها، إخترع الدكتور الشريف القيادة الإسلامية العالمية، التي يقودها طبعاً القائد الإسلامي الأممي، يشارك فيها علماء دين مسلمون من كل جهات الأرض، يساعده فيها المحامي إبراهيم الغويل، وهو شخصية تستحق أن تفرد لها الصفحات بل الكتب.. ولم يأل الدكتور الشريف جهداً من أجل حشد الأسماء الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، وكان غيوراً ومهموماً لمستقبل الإسلام فحرص على حضور الأخوات المسلمات وخاصة من آسيا الوسطى، من جيل المستقبل حتى تتاح لهن الفرصة لأخذ الأمور بعمق من قائد القيادة الإسلامية العالمية، ولينهلن من النبع مباشرة.

إعتاد الدكتور أن يزورني في مكتبي في ليالي رمضان المبارك، حيث أعمل بمكتبي بالخارجية الليبية ليلاً، وفي إحدى شهور رمضان، لاحظت أنه مهموماً مغموماً، ألححت عليه في الإستفسار لمعرفة أسباب الهم والغم الذي يسكن وجهه، وقد إعتددت أن أراه هاشاً باشاً، حام الرجل حول الدنيا وما تحمله من كدر وضجر، لكنني واصلت الإلحاح، وقلت له مباشرة: أنا أعرفك يا دكتور، المشاكل والهموم نحن أسماك ولدنا في بحرها، ولا تحاول أن تقنعني بأنك في ضيق مما إعتدناه. حاول الرجل أن يتمالك نفسه، وكاد أن يجهش بالبكاء. وبعد برهة صمت وزفرات بدأ روايته فقال أنه خائف على زوجته المريضة التي لا تنام، تقرأ القرآن حتى الصباح، ولا تنقطع عن الصلوات والدعاء حتى يخفف الغمة التي حلت بنا، تحدث طويلاً وبألم وبتفصيل مأساوي مسهب عمّا حدث لأحد أبنائه بسبب علاقته مع إبن معمر القذافي المعتصم. الليبيون أغلبهم يعرفون التفاصيل، وأنا أعفي نفسي من سرد تفاصيلها فالمجالس، كما يقال أسرار.

لقد ظهرت قدرات معمر القذافي بكل أبعادها في هذا الرجل، الذي كافح طويلاً ليخرج من دائرة الجهل ومن الحاجة، عاد من أمريكا أستاذاً متخصصاً في فلسفة الأخلاق الإسلامية، وإنتهى إلى حيث إنتهى. تقلب بين درجة الغليان ودرجة التجمد. ضاعت الدرجة العلمية والإسم واللقب. إستكمل حالة التشيؤ، أعاد معمر القذافي إنتاجه، وإستعمله في كل مكان، وفي كل وقت، لم يبق لديه شيء يستحق الرثاء.

- بعد ثورة شباب ليبيا في 17 فبراير، أتى القذافي على ما بقي من الشريف، سافر على متن طائرة خاصة من مدينة جربة إلى روسيا وأندونيسيا وماليزيا خلال الثورة لحشد الدعم الدولي للقذافي وبحوزته ملايين الدولارات من أموال جمعية الدعوة الإسلامية.

- تفيد تقارير بأنه لعب دوراً مهماً في جلب المرتزقة من دول مختلفة.

●إستعان بأرصدة الجمعية في الخارج لدعم نظام القذافي.

● كان مكتبه من خلال مديره محمد نصر الجيلاني، مدير قناة التواصل التابعة للجمعية، يمدّ المدعو يوسف شاكير بتقارير عن ثوار 17 فبراير للنيل من الثورة والثوار.

● قام مدير مكتبه هذا بنسخ العديد من الأقراص المدمجة لتشويه صورة الثوار، وطبع منه المئات وهي تحتوي مناظر للمجازر وحالات الإغتصاب التي قامت بها كتائب القذافي ونسبت للثوار وقام بتوزيعها في الداخل والخارج. وكذلك خُطَب لفقهاء وخطباء القذافي تهاجم الثوار وتصفهم بأوصاف بذيئة وكاذبة.

إسترجعت صورة الرجل وكلماته وسمته، وأنا أستمع لعبد الإله الخطيب وزير الخارجية الأردني الأسبق، مبعوث الأمين العام للأمم المتحدة إلى ليبيا، أستمع إليه على التلفون وهو يقول، أن جمعية آل البيت في الأردن ترجو الثوار الليبيين أن يأذنوا للدكتور الشريف المعتقل في طرابلس بالسفر إلى الأردن للعلاج، فهو يعاني من أمراض تستدعي علاجه. إعتذرت، فالرجل يواجه تهماً خطيرة، وسيجد كل الرعاية الطبية في طرابلس.

مسكين هذا الرجل، لقد أخذ منه القذافي كل شيء أخذ . الدكتور، ومحمد وأحمد والشريف، والصحة أيضا، فماذا بقي؟!.

رافـــع المذنـــي

رافع المدني

رافع المدني، رقيق، أنيق، ظهر في مدينة طرابلس فجأة في أواخر الثمانيات من القرن الماضي، إختصر المسافة، فتوجه مباشرة إلى مكتب الإتصال باللجان الثورية بطرابلس، وبالتحديد يَمّمَ تجاه صالح إبراهيم الذي كان في ذلك الوقت يتولى شعبة المؤسسات التعليمية بالمكتب، كان رافع يقف في الصف الثاني في خطوط أعضاء اللجان الثورية، زاحم وخاصم، ولكنه فضل أن يتجه إلى مركزالفعل، والدائرة الأولى، قد يكون هذا القرار من بنات أفكاره أو من أولاد أفكار غيره، على كل حال، حلم في بنغازي، وإستيقظ في طرابلس، وبدأت الأشباح تتحول إلى أرباح على ضوء الصباح.

في البداية، بعد أن تلقفه صالح إبراهيم، قام بدور المخبر الذي يقدم المعلومات عن أعضاء الحركة في بنغازي، وكذلك عن المسؤولين والموظفين وخاصة في أوساط المؤسسات التعليمية، إلتصق بصالح إبراهيم الذي إكتشف فيه خصوصيات يشترك شخصياً فيها معه. ورويداً رويداً توسعت العلاقة بين الإثنين وتوسعت إلى أن أصبح رافع بالنسبة لصالح "الحميم".

في تلك السنوات أقصد أواخر الثمانيات من القرن الماضي، كان مكتب الإتصال باللجان الثورية تحت إمرة محمد المجذوب القذافي، وهو الحاكم الثوري الإداري والمالي والأمني للجماهيرية العظمى، يرفع ويخفض، يعين ويفصل في الإدارات والشركات، وإمتدت سطوته إلى الجيش من خلال شعبة القوات المسلحة في مكتب الإتصال باللجان الثورية، الذي أصبح له إستثمارات ومصانع وشركات تعمل في كل القطاعات من الناحية الرسمية، أما من الناحية الأخرى، فقد تسرب الكثيرون من سادة مكتب الإتصال باللجان الثورية إلى القطاع المالي والمصرفي، كان أقصر طريق للثراء هو "المستخلصات" أي مستحقات الشركات الأجنبية التي تقوم بتنفيذ أعمال في

ليبيا ولكنها تجد صعوبة تصل إلى حد الإستحالة في الحصول على ديونها من أمانة المالية، كان صالح إبراهيم الذي نصّب نفسه خبيراً مالياً، يتدخل في تعيين مدراء البنوك، والشركات، ووصلت قوته إلى حد ترشيح من يتولى حقيبة المالية في ليبيا، وفي أحد محاولاته، نجح في تصعيد محمد البخاري صديقه أو تابعه إلى سدة المالية، وهكذا أصبح هذا الشخص المغمور القادم من واحة غدامس وزيراً لمالية الجماهيرية العظمى.

أصبح صالح إبراهيم الورفلي أحد مراكز القوة في ليبيا، وإستطاع أن يمد خطوطه بين مكتب الإتصال باللجان الثورية وآمره . المريض . الذي بدأ التيبس يلاحق أطراف جسمه، وبين وزارة المالية التي يجلس على سدّتها صنيعته محمد البخاري. قام صالح إبراهيم بتقديم رافع المدني إلى حليفه الحميم محمد المجذوب القذافي الذي رأى في رافع ما ينفع مكتب اللجان.

يتمتع رافع المدني بقدرة خاصة على الوصول والتواصل مع من هم أعلى منه، ويذهب مباشرة إلى صلب الأشياء، ويعرض خدماته دون تلكؤ أو لف ودوران. يملك تقنية "النميمة "السياسية، والثورية والشخصية، يتسقط أخبار المسؤولين، ويفيض بالمعلومات حول الرجال والنساء، له القدرة في القفز على الحواجز وإختصار المسافات وحتى إختزالها، بعد فترة قصيرة، رأى أن صالح إبراهيم محطة صغيرة لا تتسع لقدراته، فتجاوزه بقوة وسرعة ليقف إلى جانب العقيد محمد المجذوب، ثم ليجلس على يمينه.

في خضم الصراعات بين أدرع مكتب اللجان الثورية، والشكوك حول ولاءات بعض العناصر في المكتب للرائد عبد السلام جلود، كان المجذوب في أمس الحاجة إلى عيون من فصيلة عين السمكة، ليراقب ويتابع الجميع خاصة الرائد عبد السلام جلود المشرف على حركة اللجان الثورية.

كانت المؤسسات التعليمية من جامعات ومعاهد تمثل الهاجس الأمني الأول بالنسبة لمعمر القذافي، وقد أوكل مهمة ضبطها والسيطرة عليها إلى العقيد محمد المجذوب، ولكن الدراع الذي له الإمتداد والفعل اليومي في هذه المؤسسات التعليمية كان هو صالح إبراهيم، القذاذفة تقول عن أبناء ورفلة، أخوة الجد، ولكن عين الشك لا يمكن أن تغمض جفونها، وكان المجذوب في حالة إلى تلك العين، كلف المجذوب رافع أن يكون عينه الساهرة وأذنه الواسعة وراء صالح إبراهيم، نجح الشاب القادم من بنغازي في الإمتحان بتقدير جيد جداً مرتفع، ففي أول ضربة إستطاع أن يحصل على جميع محاضر إجتماعات صالح مع المسؤولين على مختلف القطاعات التعليمية، وإستمر ينقل إلى العقيد المجذوب أخبار النشاط اليومي لشعبة المؤسسات التعليمية. لم يكن رافع المدني غريباً عن الوسط الطلابي، فقد تسلم رئاسة إتحاد الطلبة، وعرفهم وعرفوه، وصنع شبكة منتقاة من بينهم، كانت بالنسبة له عدة الشغل.

إكتشف العقيد المجذوب أن رافع أكبر من أن يكون مجرد رافع لأخبار صالح إبراهيم إليه، حيث أن له حس أمني فريد، ولهذا حرص المجذوب أن يضعه في الوفود الثورية والشعبية الليبية التي تزور الأقطار العربية والأفريقية، ويكلفه بمرافقة الوفود الشعبية التي تزور ليبيا. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل أصبح ضابط الإتصال بين حركة اللجان والمؤسسات الأمنية الليبية.

بقيت أمام رافع درجة المنتهى، وكان واثقاً أن الوصول إليها مسألة وقت، ولم لا، فقد إستطاع في فترة وجيزة، قد تكون قياسية أن يصل إلى صالح إبراهيم، وأن يقفز على ظهره المنحني بقوة وبسرعة ليصل إلى العقيد محمد المجذوب، الممتلئ بالأمراض والشكوك، وسيكون من السهل أن يعبئ قدراته التي أضيف إليها الكثير بحكم التمارين التي قام بها فوق ظهر صالح إبراهيم، وحول جسد محمد المجذوب، كان الهدف المحدد هو الوصول إلى القائد، إلى الخيمة.

لم يكن رافع من أبطال مسافات الماراتون، ولم يجربها، فقد تخصص في الركض في المسافات القصيرة، أدرك أن هناك . كائناً . ذا خصوصية فريدة، يستطيع أن ينقله من المكتب إلى الخيمة، دون المرور على بوابات العقيد خليفة إحنيش آمر الكتائب الأمنية، والمسؤول عن حراسة بوابات باب العزيزية. كان ذاك الكائن هو السيدة مبروكة الشريف، الشخص الذي لا يوضع في أي مكان داخل القيادة، ولكنه في كل مكان، كان الليبيون والأجانب يطلقون على الرائد عبد السلام جلود، الرجل الثاني في ليبيا، ولكنه إختفى، وبقي معمر القذافي الرجل الأول والثاني والأخير في سلم القيادة في ليبيا. ولكن مبروكة الشريف يمكن وضعها مع القذافي جنباً إلى جنب، في أي درجة يقف عليها الأولى أو الثانية أو الأخيرة. وصل رافع إلى مبروكة. وهذه البوابة . مبروكة . تعني أن عبورها، يعني درجة المنتهى قفزة واحدة وبدون حواجز.

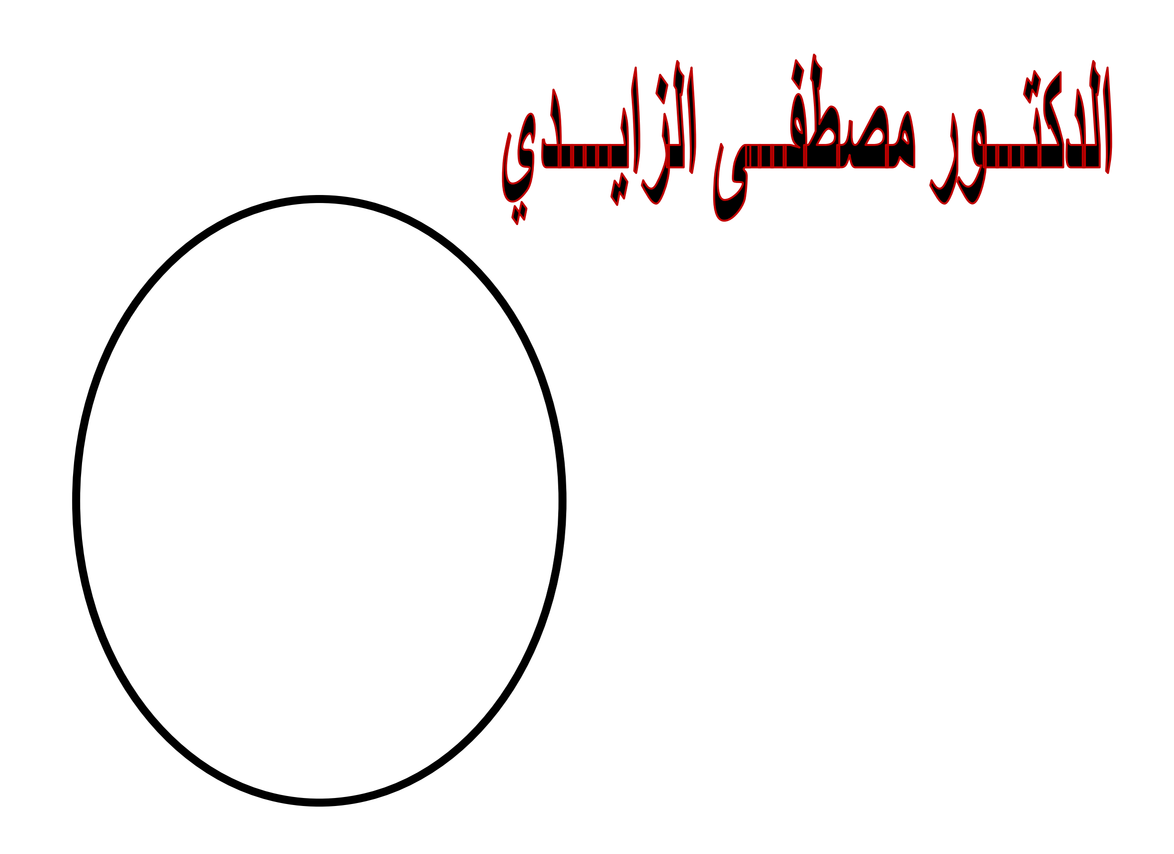
يمكن أن يملأ عشرات الصفحات بل مئات بالوقائع والطرائف، لكن قد يكون شخص غيري أكثر قدرة على ولوجها.

على كل حال رفعت الستائر بين معمر القذافي، ورافع المدني، بفضل أنامل مبروكة الشريف. وأصبح رافع مبعوثاً للقائد، يتنقل بين العواصم الأفريقية والعربية، يحمل الرسائل، يتوسط سياسياً وإجتماعياً، ليلاً ونهاراً، إستطاع أن يعين إحدى السيدات المقربة جداً من معمر القذافي عن طريق مبروكة الشريف إستطاع أن يعينها في منصب وزاري هام في إحدى الدول الأفريقية الإسلامية. وإستدرج العديد من عناصر المخابرات العربية والأفريقية إلى فخ الأمن الليبي، مستعملاً في ذلك المال والنساء.

- أسس رابطة القبائل العربية التي لم تغب رموزها عن الصلوات التي تقام في مختلف الدول الأفريقية بمناسبة المولد النبوي الشريف، ويقوم معمر القذافي بإمامتها. وأشرف على رابطة ملوك أفريقيا التقليديين الذي توَّج معمر القذافي نفسه ملكاً عليهم.

● لقد دخل رافع المدني بقدميه، إلى معمل معمر القذافي، وتنقل بين غرف المنزل الجماهيري، لم يترك منه ركنا إلاّ ومرّ به خفيفاً أو ثقيلاً، لم يقرع الأبواب، لكنه تقدم نحوها مع سبق الإصرار، قافزاً فوق حواجز عالية، أخذ ما حلم به من حضوة وتقرب، سافر مع القذافي، وجلس معه طويلاً، طويلاً. رافق الأسماء المذكرة والمؤنثة أثناء الليل وأطراف النهار. فكان له المال والجاه. إنشق عن عائلته التي لم تكن تحمل أي قدر من الود للقذافي بل أن شقيقه كان يُصَنَّف من ألد أعداء النظام، ربما يكون ذلك عاملاً من العوامل التي جعلت رافع يندفع بقوة إلى حضن القذافي عملاً بالمثل الليبي القائل: "القبر الذي تخاف منه بات عليه". فهل كان معمر القذافي بالنسبة لرافع المدني هو القبر الذي يخافه، فنام جنبه؟!.

كان معمر يركز على تجديد الدوائر التي تدور حول كرسيه، ويدرك أن تعاقب الأجيال حقيقة لا يمكن تجاهلها، وأن تجديد الوجوه من الإستحقاقات التي لا يجوز إغفالها، وأن هناك أبواباً جديدةً لا بدّ أن تفتح، ويحتاج ذلك إلى سواعد شابة وجديدة. كان رافع أحد الأعمدة الجديدة المضافة إلى الخيمة، بعد أن تقادمت أعمدة سابقة مثل المجذوب، والدكتور الشريف، وعمر الحامدي، نجح رافع بسرعة في أن يكون أحد غلمان الخيمة، وأحد الحمَامَات التي يطلقها القائد فتطير في سماء أفريقيا وبعض الدول العربية، فتعود بحمامات من مختلف الألوان والمزاج والأعمار، كان "رافع، ومدني".


الدكتور مصطفى الزايدي

الدكتور مصطفى الزايدي

قال مصطفى الزايدي متتذراً على نفسه، أنه عندما تخرج من كلية الطب بجامعة قاريونس، أرسل لإنهاء سنة الإمتياز بأحد المستشفيات، ولأن سحنته السمراء وتقاسيمه وقصر قامته توحي بأنه طبيب آسيوي من الباكستان أو بنغلاديش أو الهند وكان منهم الكثير من الأطباء العاملين بالمستشفيات الليبية، علق أحد المرضى الليبيين عليه قائلا: "هذا الطبيب النحيف الذي جاءوا به من بلاد الجوع، سترونه بعد شهور وهو سمين بدين من خيرات بلادنا المسكينة". لم يعتقد المواطن الليبي أن من يعلق عليه هو ليبي مثله، وقد فهم كل ما قاله.. ذكر الزايدي هذه الحادثة وهو يضحك، ولكنني لا أشك أنها قد تركت أثراً في نفسه عندما سمعها من ذلك المواطن البسيط. فهو من الليبيين العائدين من تونس، وكما سبق أن كتبت حول . العائد . من تشاد، أحمد إبراهيم، فإن تلك الكلمة . عائد . تلامس منطقة قلقة في مشاعر من تطلق عليهم تلك الصفة. وكثير منهم يرون فيها نقيصة تشير إلى شكوك في ولائهم وإخلاصهم للوطن، وقد قلت دائما أن تلك العقدة وراء تشددهم وتطرفهم وميل كثير منهم إلى العنف والمزايدة قولاً وفعلاً في ممارسة العنف بكل صوره في سنوات المداهمات والمحاكمات والتعذيب والإعدامات.

مصطفى الزايدي هو التوأم لأحمد إبراهيم منصور القذافي، في قيادة العنف الذي سمي بالثوري في ليبيا، إبتداءًا من حملة التطهير العنيفة بجامعة بنغازي التي ساهم الزايدي فيها مع أحمد إبراهيم القذافي، إلى تغيير إسمها إلى جامعة . قاريونس . بإسم المعسكر الذي إنطلق منه الملازم معمر القذافي في ليلة أول سبتمبر سنة 1969 للإستيلاء على السلطة، ومروراً بقيادة المظاهرات والمسيرات المؤيدة للقذافي، والمتوعدة لمن أطلق عليهم رموز البرجوازية والرجعية أعداء الثورة.

عادت عائلة مصطفى الزايدي من تونس، وأقامت بمنطقة العزيزية، وهي ضاحية كبيرة من ضواحي طرابلس، ولها إمتداد بمنطقة قصر بن غشير، بعد وصوله إلى المرحلة الثانوية، إنضم إلى حركة الطلبة الناصريين، وسرعان ما بدأت المحاور تبرز داخل تلك الحركة التي كانت تضم عدداً من الليبين وغيرهم من الطلبة العرب. بدأ معمر القذافي يضيق بكلمة . الناصريين . فقد بدأ منذ منتصف السبعينات من القرن الماضي، يرى أنه المفكر والمنظر الذي فاق عبد الناصر الذي لم يخترع نظرية، ولم يبدع فكراً، فقام بزرع كثير من عناصر الأمن في تلك الحركة من أجل ممارسة الضغوط على الطلاب "الناصريين" للتحول إلى فكر القذافي. أقيمت ما عرف بالمعسكرات التسييسية، والمعسكرات العقائدية، لتشريب الشباب أفكار معمر القذافي، وطي صفحة الفكر الناصري. تخلى أغلب الشباب العرب من غير الليبين عن تلك الحركة، وقبض على بعضهم، وطرد الكثيرون منهم من ليبيا. كان مصطفى الزايدي في طليعة الطلاب الذين أبدوا تطرفاً وتعصباً للمعسكر الذي تبرأ من الناصرية وإحتضن أفكار معمر وأصبح من حوارييه.

إنتقل مصطفى بعد حصوله على الثانوية العامة إلى جامعة بنغازي لدراسة الطب، وهناك شهد التململ الطلابي، ضد التوجهات الثورية، خاصة فرض الإتحاد الطلابي الحكومي، والتدريب العسكري.

حاول الزايدي مع أحمد إبراهيم الذي كان يدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة بنغازي، مواجهة المد الطلابي المضاد للإجراءات الثورية التي حاول القذافي فرضها على الطلاب، حاولا مواجهتها بتعبئة الطلاب الثوريين، فواجها مقاومة عارمة من الأغلبية الساحقة للطلبة، ولم يستطع أحمد إبراهيم دخول الحرم الجامعي خوفاً من غضبة الطلاب. مخططاً مع محمد المجذوب وعدد من رجال الأمن على مداهمة الطلاب المضادين بالإستعانة بشباب من الجيش والأمن، ثم قاد الإثنان مع عمر السوداني والطيب الصافي ومحمد شرف الدين والصادق دهان وغيرهم حملة واسعة

لتطهير الجامعة من الطلاب المعارضين، وتوجت تلك الحملة بتصفية قادة الطلاب المعارضين فيما سمي بـ7 إبريل، وأطلق عليها فيما بعد ثورة الطلاب.

يقول زملاء الزايدي بكلية طب جامعة بنغازي، أن الدراسة لم تكن أبداً من إهتماماته، فقد كان يعقد الإجتماعات كل ليلة مع أحمد إبراهيم وطلاب آخرين، للتخطيط للخلاص من الطلبة المناوئين للنظام، بحضور رجال المباحث والمخابرات، ويطير كل أسبوع بين طرابلس وبنغازي لمقابلة معمر القذافي ووضع الخطط لمقاومة النشاطات الطلابية المضادة، خاصة وأن مدينة بنغازي قد تحولت إلى مرجل يغلي، ولم يعد يُخْفى نشاط الأحزاب السياسية الداعمة للطلاب الرافضين لقرارات القذافي، فشنت حملة على كل المعارضين وأعدم بعضهم.

وضع الزايدي نفسه منذ البداية في الجانب الأقصى من التشدد، وإرتبط بقوة بأحمد إبراهيم، حتى أصبحا الجناحين اللذين يطير بهما صقر التشدد.

بعد تأسيس حركة اللجان الثورية، شكل مع أحمد إبراهيم، وسعيد راشد، وعبد القادر البغدادي، وعمار الطيّف، ويونس معافة، والطيب الصافي، وإبراهيم البشارى، وهدى بن عامر، وجميلة درمان، شكلوا الدوائر القضائية الثورية التي قامت بالمداهمات، ومحاكمة "المستغلين" من رجال الأعمال والمسؤولين الحكوميين، ومثلوا الإدعاء والدفاع والقضاة، وحكم على البعض بالسجن والطرد من الوظيفة ومصادرة أموالهم، وتبين أن العديد من الذين حوكموا تعرضوا للتعذيب.

فتحت بعد سنة 1977 المثابات الثورية التي تحولت إلى معتقلاً شهدت وجبات من التغذيب والتنكيل، وأصبح بعض تلك المثابات كهفا للرعب مثل مثابة حي الأندلس التي تولاها أحمد الشريف السويني، ومثابة 26 يوليو التي تولاها محمد علي زيدان. وعرف الليبيون أسماء مثل ميلاد الفقهي وعبد السلام الزادمة وقرين صالح قرين وأحمد مصباح الورفلي التي كانت أسماؤهم تهزّ قلوب أشد الرجال وأقواهم. كان

عقد الثمانيات من القرن الماضي قرن الرعب، خاصة بعد ما عرف بأحداث "العمارة" عندما تجمع عدد من الشباب الليبي المنتمي للجبهة الوطنية للإنقاذ المعارضة في عمارة بشارع الجمهورية، غَيرْ البعيد من مقر القيادة بباب العزيزية وخططوا لمهاجمته، وجرت مهاجمتهم، وحكم عليهم بالإعدام، وجرت ملاحقة كل من إشتبه في إنتمائه إلى الجبهة الوطنية للإنقاذ.

لم يغب مصطفى الزايدي عن أي حفلة دم، أو وجبة تعذيب، إفتخر دائماً بموقفه المتشدد، ونظّرَ للعنف الثوري، وتصفية العناصر المضادة للثورة، واحتفظ بصدارة التيار المتشدد مع توأمه أحمد إبراهيم القذافي.

لم يقتصر دوره في حلقات العنف الداخلية، بل كان من بين أعضاء غرفة العمليات التي أدارت عمليات ملاحقة المعارضين الليبيين في الخارج وتصفيتهم، كان يلتقي يومياً بكل من عبدالله السنوسي وإبراهيم البشاري وسعيد راشد وعز الدين الهنشيري، الذين تولوا مهمة ملاحقة وتصفية المعارضين الليبيين في الخارج.

في سنة 1982 أوفد للدراسة في الخارج، وأراد إختيار الجامعة التي تناسبه للدراسة العاليا في مجال الطب، فقام بزيارة إلى ألمانيا، وفي 25 مارس تمّ القبض عليه بتهمة إحتجاز وتعذيب طالبين ليبيين يدرسان بألمانيا، قام الزايدي بإستدراج الطالبين إلى منزل السفير الليبي وهناك قام بمساعدة آخرين من الأمن واللجان الثورية بتعذيب الطالبين. وفي 18 إبريل بدأت محاكمته، ولكن لم يتم النطق بالحكم ضده، لأن اللجان الثورية في ليبيا إعتقلت ثمانية من المواطنين الألمان بليبيا، ومن أجل الحفاظ على حياة هؤلاء قامت الحكومة الإلمانية بتسفيره إلى ليبيا. إستقبل مصطفى الزايدي إستقبال الابطال بعد عودته من ألمانيا، وقام معمر القذافي بالإحتفاء به وسط جمع من أعضاء اللجان الثورية، وقال القذافي أن مصطفى الزايدي، هو نموذج الشخص الثوري، الذي لا يتردد في تصفية الحساب مع أعداء الثوار أينما وجدهم، ودون أن ينتظر الأمر من أي جهة أو أي شخص.

سافر بعد ذلك الزايدي إلى النمسا ودرس التجميل، وعاد بعد ذلك إلى ليبيا ليمارس نشاطه الثوري المتشدد، وقد آل على نفسه أن لا يتزحزح عن موقعه الريادي الذي إحتله بجدارة في قيادة العنف الثوري. وأصبح من الأشخاص الأقوياء في مكتب الإتصال باللجان الثورية، والساعد الأيمن للعقيد محمد المجذوب آمر المكتب. وعين أخاه الصغير الزايدي مسؤولاً للشؤون المالية بالمكتب، وهكذا إختلط المال بالدم في محفل الثورة، وبطعم عائلي.

هناك مفارقة غريبة، أن مصطفى الزايدي، عندما قرر أن يواصل دراساته العليا في مجال الطب، تخصص في فرع "التجميل"، وقد سألته مرة عن دافع توجهه إلى هذا الفرع بالذات في فروع الطب، أجاب بهزل: "لأنني أحب الجمال". كنت جاداً عندما وجهت هذا السؤال، ففي العادة أن أغلب المتخصصين في هذا الفرع من فروع الطب لهم ميول فنية، فبعضهم يهوى الرسم، وآخرون لهم عشق للموسيقى، وغير ذلك من ألوان الفن والتذوق، ولم أعرف عن مصطفى أي إهتمام بذلك. ولكن أحد الأطباء الذين لم تربطه بمصطفى أي مودة قال ذات مرة معلقاً وساخراً من الدكتور مصطفى قال: إن مصطفى له علاقة بكل شيء إلاّ بمهنة الطب، وأن الذي أمره بأن يتجه إلى فرع التجميل هو العقيد محمد المجذوب آمر مكتب الإتصال باللجان الثورية، فقد تحتم المهام الثورية، أن تجري عمليات تجميل لبعض العناصر من الشباب الثوريين لإخفاء معالمهم، إما لأجل القيام بمهام ثورية حساسة مثل التصفيات للمعارضة في الخارج، أو تغيير ملامح بعضهم بعد تنفيذ تلك العمليات. وسرد ذلك الطبيب حالات كثيرة قام فيها مصطفى الزايدي برفقة المجذوب بوضع جرحى في ثلاجة الموتى حتى يفارقون الحياة تحت درجة التجمد.

موهبة أخرى كانت قد نبتت في شخصة هذا الطبيب وهي التحليل السياسي، فقد كلف مكتب الإتصال باللجان الثورية عدداً من عناصره للإتصال بالقنوات الفضائية عند مناقشة القضايا التي تتناول أخبار ليبيا، وأصبح مصطفى الزايدي ومعه صالح

إبراهيم ضيفين ثقيلين على الكثير من البرامج الإخبارية على الفضائيات العربية، لا يهم إذا كان الموضوع محل المناقشة يتعلق بالإقتصاد أو الصحة أو السياسة، فمهمة الزايدي وصالح هو إستعراض أفكار الكتاب الأخضر، ورؤية القائد وأفكار الجماهيرية.

عندما هبّت جماهير تونس ضد زين العابدين بن علي، أصابت النظام الليببي صدمة قوية، وإشتعلت حمى الإجتماعات على كل المستويات في ليبيا، تدرس تداعيات ما حدث في تونس المجاورة على ليبيا، وتضع الخطط الأمنية لمواجهة أي تحرك شعبي مضاد للنظام في ليبيا، كان مصطفى الزايدي هو الساعد الأيمن لعبد القادر البغدادي منسق مكتب الإتصال باللجان الثورية الذي تحول إلى خلية نحل، وأعلن حالة الطوارئ القصوى، وأرسلت التوجيهات إلى كل اللجان الثورية في ليبيا، ولعب الزايدي دوراً أساسياً في ذلك، فهو لا يغيب عن أي إجتماع إداري أو مالي أو أمني وحتى عسكري، كان يقود جناح التشدد الذي يرفض أي معالجة إدارية سلمية للمظاهرات، ويدفع في إتجاه العنف الثوري، وضرورة إقحام اللجان الثورية في مواجهة الإحتجاجات، وينتقد التهاون الذي أبداه بعض المسؤولين في الإدارة العليا للدولة، يتنقل يومياً بين مكتب الإتصال باللجان الثورية، ورئاسة الأركان واللجنة الشعبية العامة . مجلس الوزراء . والإتصال الخارجي . ووزارة الخارجية. إنتقد بشدة أداء موسى كوسا الذي كان، قبل أن ينشق . وزيراً للخارجية، وحمله مسؤولية إنشقاق الكثير من السفراء والدبلوماسيين الليبيين في الخارج، وإعتراف بعض الدول بالمجلس الوطني الإنتقالي، وإنتقد أجهزة الأمن التي لم تقم بما يجب عليها من ملاحقة للمنشقين في الخارج وتصفيتهم، وتم تعيينه نائباً لوزير الخارجية عبد العاطي العبيدي، الذي حل محل موسى كوسا المنشق.

ركز مصطفى الزايدي بعد توليه منصبه في الخارجية الليبية على تطهير الوزارة من العناصر التي وصفها بغير الثورية والتي إعتبرها موالية للثوار، ومضادة لنظام

معمر القذافي، فأرسل العشرات إلى المعتقلات حيث إستشهد بعضهم فيها، وقام بفصل عناصر أخرى، وإقترح إعادة تشكيل اللجنة الشعبية العامة للإتصال الخارجي والتعاون الدولي من العناصر الثورية الموثوق بها. وتعاون مع البغدادي المحمودي ورؤساء الأجهزة الأمنية على إرسال عناصر إلى الخارج للقيام بأعمال إرهابية، أولها تصفية المنشقين عن النظام، والعناصر القيادية في ثورة 17 فبراير، وتفجير بعض الأهداف التي إعتبرت معادية لنظام معمر القذافي، مثل سفارات بعض الدول التي شاركت قواتها في حماية المدنيين الليبيين.

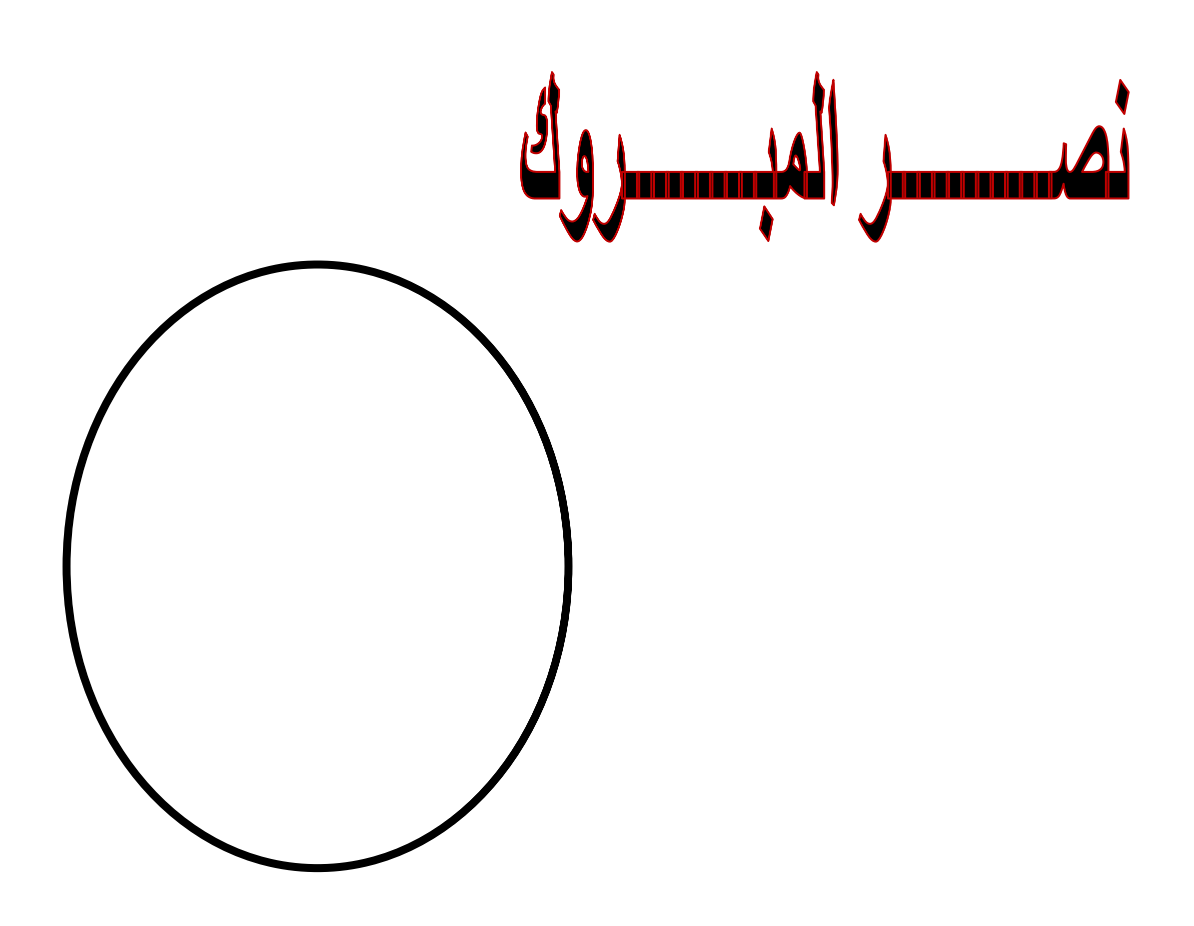
ولكي يؤكد أنه لا يزال في قمة ولائه للقائد، وفي كامل لياقته الثورية، دفع بأولاده، وأولاد إخوته، وأقاربه في صفوف كتائب القذافي لقتل الثوار. وفتح بيته وبيوت أقاربهم ومزارعه لمعمر القذافي، للإختباء فيها أثناء قصف قوات الناتو لباب العزيزية . مقر القذافي.

لا جدال، أن مصطفى الزايدي هو من الخمسة الأوائل المؤمنين حتى النخاع بمعمر القذافي، وقد يكون أولهم بلا منازع، فحتى أحمد إبراهيم القذافي، الذي سبق أن وصفناه بأنه توأم مصطفى الزايدي في التطرف والتشدد في ولائه لمعمر القذافي، يمكن أن ندفع بشبهة التأثر بالقرابة، والدفاع عن مكاسب القبيلة المالكة، أما مصطفى الزايدي، فمنذ البداية كانت الرابطة التي تشده بمعمر القذافي هي، الهوس الثوري، والإلتزام العنيف قولا وعملا إلى حد القتل بدم بارد لكل من يراه معاديا للنظام. وحتى عندما عُين وزيرا للصحة إعتبر أن مهمته الأولى هي تطهير هذا القطاع ممن رآهم معادين للثورة، وتنصيب من هم أعضاء في حركة اللجان الثورية من الأطباء على رأس المؤسسات الصحية.

بالطبع فإن المنطق يقول أن علاج المرضى، والدواء، والمرض، لا علاقة له بالأيدولوجيا أو الثورة، وليس هناك وصفة طبية ثورية وأخرى رجعية، إذ ليس هناك مرض رجعي وآخر ثوري، لكن الدكتور الوزير، أصرّ على أن يكون " الطبيب الثائر"

علـى رأس كـل المؤسسـات الطبيـة، وأن تكـون الأفضـلية لهـم فـي الدراسـات العليـا والإمتيازات المالية.

لقد إمتلأ مصطفى الزايدي، منذ البداية بمعمر القذافي، تلبّسه وتماهى فيه، خلق لغة خاصة به، ومنطقا فصّله على مقاس أفكاره وسلوكه، إعتنق ألوانا إخترعها، لم يكن قادرا على رؤية غيرها. صنع أوعية يضع فيها كل الناس، ومن لا يستطيع الدخول فيها، فهو رعديد زنيم، لا يستحق الحياة، حاول أن يلبس قناع الظرف، وخفة الدم، لكن ما جنته يداه كان ثقلا يحمله في داخله، وعندما بدأ الحديث عن الإصلاح منذ أن أطلق سيف الإسلام شعار " ليبيا الغد"، وخطط شكري غانم للإصلاح، شن مصطفى الزايدي مع توأمه أحمد إبراهيم القذافي حملة شعواء ضد ذلك التوجه الذي رأى فيه نكوص وتراجع عن الثورة وإلتفاف معاد على أهدافها.


نصر المبروك

نصر المبروك

سـألت العميد التهـامي خالـد، رئـيس جهـاز الأمـن الـداخلي عـن شخصـية نصـر المبـروك، أجـاب التهـامي بمـا يلـي: "لـو خيرتـه بـين أن يكـون رئيسـاً للـوزراء أو يكـون رئيسـاً لمركـز الشـرطة، لإختـار أن يكـون رئيسـاً لمركـز الشـرطة، لأنـه يعتنـق العنـف والتسلط".

الذي قال هذا عن نصر المبروك، ليس واعظاً، أو رئيس لمنظمة من منظمات حقـوق الإنسـان، إنـه التهـامي خالـد، المسـؤول الأول عـن ملاحقـة وإعتقـال وتعـذيب المعارضـين الليبيـين، وكـان السـيف القـاطع فـي ذبـح ثـوار 17 فبرايـر، وأحـد أبطـال مجـزرة سـجن أبـو سـليم، جنـد أولاده، وسـلحهم لقتـل الثـوار. نصـر المبـروك، كـان منـذ البداية، حلقة قوية وكبيرة في سلسلة العنف، إنخرط في حركـة اللجـان الثوريـة، وإختـار طوعاً أن يقف فـي صـف صـفوة الـدم الـذي ضـمت محمـد علـي زيـدان، وأحمـد الشـريف السويني، وأحمد إبراهيم منصور القذافي، وهدى بـن عـامر، ويـونس معافـة، ومصـطفى الزايدي، الذين إعتنقوا مذهب العنف والتصفية في صفوف حركة اللجان الثورية.

تنقـل فـي كـل الوظـائف التـي تقـود القتـل، كـان يقـوم بـذلك، محافظـاً علـى روح التفاني والإتقان بروح التشفي، عندما كلف بمهمة ملاحقة وإعتقال وتعذيب وقتل الذين أسماهم العقيد معمر القذافي "بالزنادقة" كان يطلب من معاونيه قتل أكبر عدد منهم، ويوصـيهم بعدم إضـاعة الوقت فـي التحقيـق معهم، وعندما يموت أحد الضـحايا يقوم بإرسال مذكرة إلـى قلم القذافي، يقول فيها: "لقد تمّ اليوم بحمد الله . تجييف . الزنديق فلان بن فلان"، إستكثر علـى ضـحيته أن يوصـف بالقتيل، فبالنسبة له، هو جيفـة، أي، حيوان نفق، لقد إستنكر علـى ضـحاياه أن يصـفهم بـالقتلى، وإسـتعمل لفظ " الجيـف"، وهذا يكشف تشوها مرضيا حقيقيا في تكوينه، ويصدق ما قاله عنه التهامي خالد، قال

الشاعر أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي يمدح فيها سيف الدولة الحمداني، إثر فتحه لقلعة " الحمراء" التي كانت بيد الروم:

وكان بها مثل الجنون فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

علق المتنبي على كلمة جثث، أنه قال في النص الأول: "ومن جيف القتلى"، فإعترض سيف الدولة على كلمة جيف، وإستبدلها بكلمة – جثث – إحتراما للقتلى، فهم بشر، وأضاف المتنبي: : أنني لم أقبل تغييرا لأي كلمة من كلمات أشعاري، سوى هذه الكلمة، لأن سيف الدولة، كان يتشبث بمشاعره الإنسانية حتى مع أعدائه.

عندما كنت أميناً للشؤون الخارجية بمؤتمر الشعب العام، كثرت الرسائل التي تردني من منظمات حقوقية وإنسانية من مختلف أنحاء العالم، وكنا تحت الحصار بسبب أزمة لوكربي، كانت تلك المذكرات تطالب بكشف الحقيقة عن "مجزرة" سجن أبو سليم، تحدثت مع أحمد قذاف الدم، وعبرت له عن ضرورة فعل شيء بهذا الخصوص، وحيث أننا قد قبلنا محاكمة المتهمين في قضية لوكربي، وهم الأمين خليفة فحيمة، وعبد الباسط المقرحي، وترحيلهما إلى محكمة خارج ليبيا فلا بدّ من قرار شجاع مماثل في قضية سجن أبو سليم، وللأمانة فقد تحمس أحمد قذاف الدم لهذا الموضوع، وإنتقد بشدة تلك الفعلة الشنيعة، ذهبنا سوياً إلى محمد بلقاسم الزوي أمين العدل آنذاك، وتحدثنا بكل صراحة، أعرب محمد عن حماسته لفتح الملف. في المساء زارني محمد الزوي بمنزلي، وقال إننا يجب أن نقترب من هذا الملف بحذر، وقال إنه أيضا يستلم كل يوم مذكرات ومراسلات من جهات قانونية وإنسانية من مختلف أنحاء العالم تطالب بكشف ملابسات ما حدث في سجن أبو سليم، غير أن محمد أضاف أن موضوع . أبو سليم . حساس جداً، وقد يسبب إثارته تعقيدات لا نتوقعها، فهو يرى أن ظهور أحمد قذاف الدم وراء فتح هذا الموضوع قد يفسر أنه يأتي في إطار تصفية الحسابات الشخصية بين عبدالله السنوسي وأحمد قذاف الدم، فبين الإثنين عداوة صامتة، وأحمد سيسوّق هذا الموضوع للخارج، ليظهر أمام

الأوروبيين بأنه هو من تقدم لفتح هذا الملف، بعد نقاش إتفقنا على عقد إجتماع بمكتب الزوي يشارك فيه بالإضافة إلى الزوي، أمين العدل، أنا، وأحمد قذاف الدم، ونصر المبروك، المسؤول عن ملف "الزندقة". إنعقد الإجتماع، وفوجئنا جميعاً، بثورة نصر المبروك وغضبه من إثارة هذا الموضوع، قال: (إن الذين تمّ "تجييفهم" بسجن أبو سليم هم أعداء للثورة، ولو تمكنوا من الهروب لقاموا بتصفية كل الثوريين وعلى رأسهم قائد الثورة، وإن مجرد إثارة موضوع ما حدث في أبو سليم هو خيانة للثورة)، أسقط في أيدينا، ونظر بعضنا إلى بعض، حاول محمد الزوي، بأسلوبه الهادئ، أن يهدئ نصر المبروك، وأن يشرح له ضرورة فتح هذا الملف الخطير، ولكنه رفض الإستماع ولم يبد إشارة للإقتناع، حاول أحمد قذاف الدم، أن يشرح له خطورة الموضوع، وضرورة فتح هذا الملف بكل شجاعة، ولو إضطررنا للتضحية بمن قام بهذه الجريمة، إستمر نصر يرعد ويزبد، فإقترحت أن يقوم محمد الزوي بعرض الموضوع على العقيد القذافي، بعد ذلك إلتقيت مع الزوي الذي قال، إن الأمر كما توقع، وأن نصر المبروك قد تمّ شحنه من عبدالله السنوسي، الذي فسّر إثارة الموضوع بأنه ترتيب من أحمد قذاف الدم. كان إختيار نصر المبروك لإدارة جهاز مكافحة الزندقة بترشيح من عبدالله السنوسي، فهذا الجهاز مكلف بملاحقة الإسلاميين وإعتقالهم وفي النهاية قتلهم، لقد إقترف جرائم مرعبة، تلذذ بالتعذيب والقتل، وحصل في المقابل على رضا عبدالله السنوسي ومعمر القذافي، وحصل ايضا على الأموال الطائلة.

كان حول بيته العشرات من الحرس، وأجهزة المراقبة الإلكترونية، في حين كانت منازل الوزراء بلا حراسة، لا يوجد شرطي أمام أي منزل من منازلهم، ولا كاميرات مراقبة.

نصر، عنيف في حديثه، يسوق الإتهامات في كل الإتجاهات، يتلهف على الوثوب إلى أي موقع فيه رائحة الدم وأدوات التعذيب.

فبعد مذبحة أبو سليم سنة 1996، كلف بحملة لقمع السجناء الإسلاميين الذين بقوا على قيد الحياة، وسامهم سوء العذاب حتى لا يكرروا العصيان والتمرد الذي قاد إلى تلك المذبحة، وتمنى الكثير من السجناء لو قضوا في تلك المذبحة ولكان ذلك أهون عليهم مما ألحقه بهم تحقيق نصر المبروك.

وعندما كلف بإدارة أمن غريان، فسّر ذلك، أن في غريان رؤوساً قد أينعت، وأنه مكلف بضربها على الخدود، فإن لم ترتدع فلا بدّ من قطافها، لقد كثرت التقارير آنذاك عن إنتعاش الحركة الإسلامية في الجبل الغربي ولا بدّ من قمعها قبل أن تمتد فروعها إلى طرابلس، وحيثما ذهب . نصر . سبقته سمعته في القمع وكان الخوف والرعب هو الرائد الذي يتقدم وصوله إلى أي مكان.

وعندما إتسعت رقعة التوتر والمناوشات في الجنوب الشرقي لليبيا، وبالتحديد بمنطقة . الكفرة . التي لها حدود مع كل من تشاد والسودان، عين مسؤولاً عن تلك المنطقة تحت مسمى . أمين اللجنة الشعبية . ولكنه في الواقع كان الحاكم العسكري المطلق الذي يتصل بالقذافي مباشرة. ففي الكفرة تداخل عرقي، وقبلي، وبها نشاط للتهريب بما في ذلك السلاح، والمقاتلين، في تلك المنطقة الحدودية، كان هو كل شيء، وكانت شريعته، الإعتقال والعنف والملاحقة.

عين مساعداً لموسى كوسا بجهاز الأمن الخارجي، توجس موسى خيفة من ذلك التعيين، وأقام له مكتباً تحت سلم مبنى الجهاز، ولم يكلفه بأي عمل، وعندما سألت موسى عن سبب هذا التصرف المهين ضد نصر، قال موسى، أنني لم أهنه، بل مكنته من القيام بما هو مكلف به، فهو مكلف بمراقبتي شخصياً، والتعرف على كل من يزورني، ومتى أغادر الجهاز ومتى أعود، وأنسب مكان يُمَكِّنه من ذلك هو مدخل مبنى الجهاز.

عين نصر بعد ذلك مباشرة وزيراً للداخلية، وكان جهاز الأمن الخارجي تابع لهذه الوزارة، ذهب موسى كوسا إلى العقيد القذافي وعبّر له عن عدم رضاه من أن يكون تابعاً لنصر المبروك، فوجئت بعد ذلك بمعمر القذافي يسألني: "هل من الممكن أن يتبع جهاز الأمن الخارجي للإتصال الخارجي . وزارة الخارجية ". قلت: "ممكن جداً، ففي بعض الدول يوجد هذا التنظيم". زارني بعد ذلك موسى كوسا وأخبرني أن قراراً سيصدر من مجلس الوزراء بهذا الخصوص.

كثر الحديث عن تصرفاته المالية وهو وزير للداخلية، فقد نقل بعض حسابات الوزارة إلى مصرف في قريته "الريانيه"، وقد إشتكى لي البغدادي المحمودي، وكذلك بعض ضباط الشرطة، من تمكين أقاربه من مواقع حساسة في الوزارة.

وظاهرة الجرأة على المال العام، تفشت في ليبيا في العقد الماضي بين أغلب الذين مارسوا العنف ضد الليبيين في الداخل أو الخارج تحت شعار العنف الثوري، ومبررهم في ذلك أنهم قد إستخدموا، وأصبحوا مكروهين من الشعب الليبي، ومطاردين في الخارج، وممنوعين من السفر، وهناك من صدرت أحكام ضدهم في الخارج، إندفع كثير من هؤلاء إلى الإستيلاء على المال العام دون حرج أو تردد، واعتبر ان ذلك يمثل تعويضاً عينياً عن الثمن الذي دفعوه في سبيل تأمين النظام وحمايته. عندما إندلعت ثورة 17 فبراير، ودفع معمر القذافي، كتائبه المدعمة بالمرتزقة، المدججة بكل أنواع الأسلحة، فرح نصر المبروك بمهرجان الدم، فهناك الأولمبياد الذي يتلهف أن ينافس فيه على البطولة، فهو من أبرع المتدربين، وأعتى المحترفين، ومن من الهواة يستطيع أن يلتقط الأنفاس بجانبه، وهو من هو في مملكة الدم والذبح والسلخ. وكل رفاقه يشهدون له بالتفوق في هذا المضمار الثوري.

قام بتجنيد عدد من أقاربه، والمقربين إليه، مردفين بمرتزقة عتاة، وأبدع أسلوباً خاصاً في مواجهة الثوار بمنطقة الجبل الغربي. خطط ونفذ عملية إختراق للثوار بالجبل، وقام بإرسال مسلحين من منطقته، منطقة . الريانية . بالجبل، يدعون أنهم

إنضموا للثوار، أعطاهم نصر المبروك، المال والسلاح والسيارات ذات الدفع الرباعي، وعند تغلغلهم في صفوف الثوار، ينقلبون عليهم ويضربونهم من داخل صفوفهم.

● قاد هو شخصيا عمليات نهب وحرق للبيوت الموالية للثوار بمنطقة الجبل الغربي.

● قاد جحفل من منطقة الرياينة، هاجم الزنتان في محاولة يائسة لإخضاع هؤلاء الأسود الذين كان لهم دور بارز في إسقاط نظام القذافي وإنتصار الثورة. وإستعمل في ذلك المئات من المرتزقة وعشرات من القناصة.

● في 19\8\2011، فرّ إلى القاهرة بصحبة أسرته، وعدد من المرافقين.

● أفادت تقارير أنه خرج من البلاد يحمل مئات الآلاف من العملات الأجنبية، وقام بتحويل الملايين إلى بنوك في الخارج.

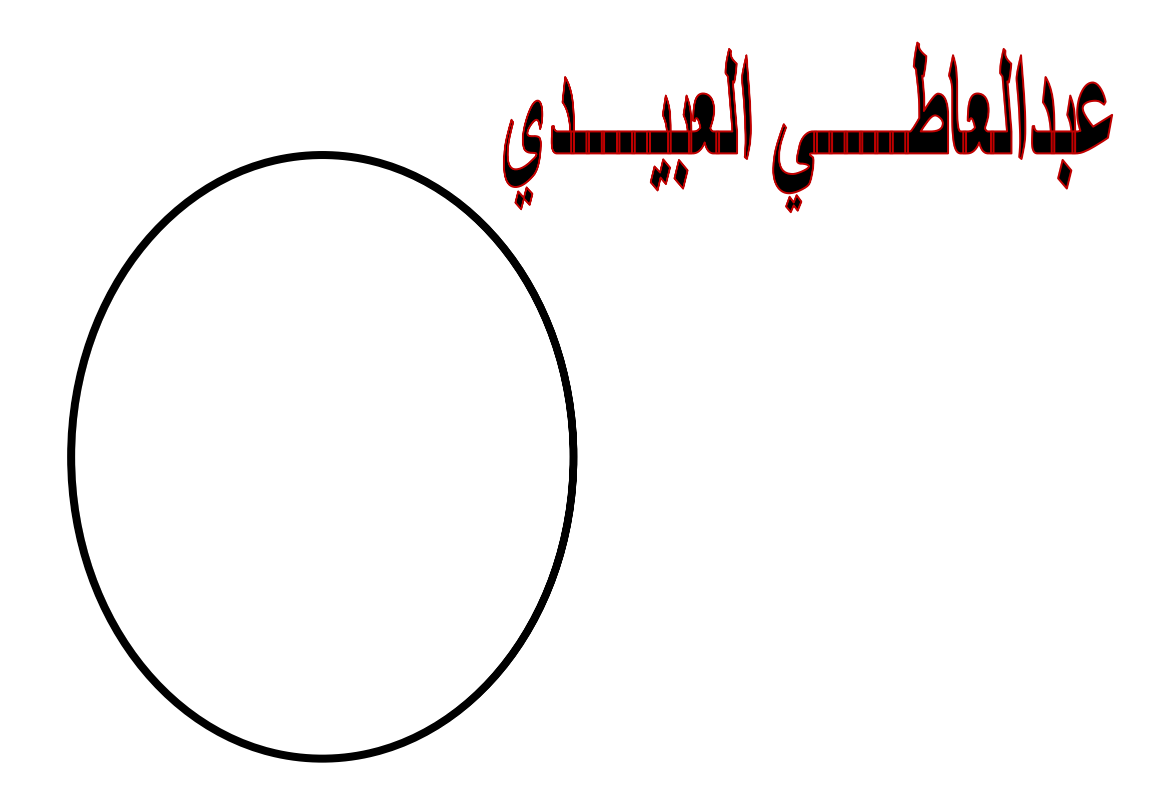
● إتصل هاتفياً من القاهرة بالمدعو . يوسف شاكير . مقدم برنامج "عشم الوطن" بالتلفزيون الليبي، معلقاً عن ولائه للعقيد معمر القذافي.

لقد حاولت في الفصول السابقة، أن ألقي بعض الأضواء على شخصيات العناصر التي ترعرعت مع العنف وإعتنقته ومارسته، وجذور ذلك التوجه، ليس من منظور مدرسة علم النفس، ولكن من مراجعة المنحدر الإجتماعي لهذه العناصر، وبعض المركبات التي ألقاها الماضي في روعهم. ولكن حالة نصر المبروك، في تقديري . تختلف عن كل السابق ذكرهم، فهو الوحيد بين هؤلاء الذي إحترف العنف، ولم يمارس شيئاً غيره، كان مؤهله، ومعتقده، وعمله، بل سلوكه أيضا، فأحمد إبراهيم منصور القذافي مثلاً، تعاطى الكتابة، والتنظير، ومارس مهمات سياسية، مصطفى الزايدي درس الطب ومارسه إلى جانب هواية العنف!!، يونس معافه مارس الطب أيضا، التهامي خالد ترأس النادي الأهلي بطرابلس، أما نصر المبروك فقد وهب عمره

لشيء واحد، هو العنف بكل درجاته، من القبض، إلى الإعتقال، والتعذيب، والقتل إلى درجة جعلت شخصاً معذباً، قاتلاً، مثل التهامي خالد يعتبره شخصاً مريضاً بداء العنف. السؤال لماذا؟ لكي أكون أميناً، فأنا لا أعرف أن زوجته، وهي إبنة خاله، أصيبت بمرض نفسي أرهقها، وأن شقيقها جمال الرياني، قتل رمياً بالرصاص بمكتبه عندما كان مسؤولاً عن قطاع الزراعة بمنطقة طرابلس، وأن نصر المبروك شخصياً . كما يقول زملاؤه المقربون منه . ينتقل بسرعة من حالة الغرور والكبرياء إلى حالة الخوف.

لقد أدخل العقيد معمر القذافي، أدخل نصر المبروك الشاب مبكراً في معمله، وأبدع توظيفه، نقّله جغرافياً ووظيفياً في بؤر المواجهة والإنتقام.

عندما سمعت أنه قد غادر إلى القاهرة هو وعائلته على متن طائرة خاصة من تونس في 19\8\2011، والنظام يلفظ أنفاسه الأخيرة، ونار الثورة تمتدّ ألسنتها بقوة نحو طرابلس، إستغربت كيف يأذن معمر القذافي لهذا الشخص، بأن يغادر التنور، وأن يسمح له بإصطحاب أسرته وأمواله، سألت أكثر من واحد، ممن يعرفون القذافي ونصر المبروك، قال البعض أن المبروك تدرع بظروف زوجته المريضة نفسياً، وقال آخر، إنه خرج هارباً، لكنني لا زلت أظن، أنه نجح في إقناع القذافي بخطة ما، لمهمة ما، سيقوم بها من الخارج، قد تكون تصفية أعداء القذافي في الخارج، أو قيادة معركة مضادة لثوار 17 فبراير إذا نجحوا في الإجهاز على نظام معمر القذافي، وإذا صدقت الأقاويل التي رددت أنه قام بتحويل مبلغ 17 مليون جنيه إسترليني إلى إبنته "هبة" في لندن، فإن التفسير الأخير هو الأرجح، فالقذافي . دون شك . مقتنع بشيئين هما: (1): إخلاص نصر المبروك المطلق له، وولائه. (2): قدرته على القيام بأي عمل عنيف ضد من يعتبرهم أعداء الثورة وأعداء القائد. تلك المهمة التي أعطاها عمره، ولا يتقن شيئاً غيرها.


عبدالعاطي العبيدي

عبد العاطي العبيدي

تمنيت أن لا يكون إسم عبد العاطي بين هذه الأسماء، فهو للحقيقة، لا يقاسم أغلبهم اي مشترك، بل هو يناقض بكل شي فيه جل من تقف عندهم حروف هذا الكتاب. عرفته مبكراً، وهو شاب يتولى وزارة العمل، فقد عين في أول حكومة ليبية بعد إستيلاء الضباط الأحرار على السلطة في ليبيا سنة 1969، تخرج عبد العاطي العبيدي من كلية التجارة والاقتصاد ببنغازي سنة 1964، وأوفد للدراسة العليا في بريطانيا، وبعد حصوله على درجة الماجستير، عاد للتدريس بكلية التجارة والاقتصاد ببنغازي، بعد عودته، قامت الثورة، وأختير وزيراً في حكومة الدكتور محمود المغربي، رشحه لذلك المنصب، النقيب إمحمد المقريف الذي اصبح عضواً بمجلس قيادة الثورة الحاكم، الذي تربطه بعبد العاطي قرابة مصاهرة، كان حامد العبيدي، عم عبد العاطي قد شغل نفس المنصب، أي وزير العمل، مرات عدة، كما شغل منصب وزير الدفاع، في عهد الملك أدريس السنوسي، وللإعتبارات القبلية التي كان النظام الملكي، يقدمها عند تشكيل الحكومات، فقد كان لقبيلة العبيدات نصيبا شبه دائم في حكومات العهد الملكي.

حامد العبيدي، وهو والد هند، زوجة عبد العاطي، هو إبن علي باشا العبيدي، أحد زعماء قبيلة العبيدات، ومن كبار المجاهدين ضد الإستعمار الإيطالي، وهو من الرموز الوطنية الليبية الكبيرة، عرف بالكرم والشهامة والشجاعة، ينقل عنه أن معركة حامية الوطيس جرت بين المجاهدين والقوات الإيطالية خلال شهر رمضان، وكان علي باشا العبيدي أحد قادة تلك المعركة في "دور قبيلة العبيدات"، وكان يحرض رجاله على القتال، وتقدم الإيطاليون، وأطلقوا مدافعهم على المجاهدين، اشعل علي باشا سيجارة، وهو ينادي رجاله للصمود والقتال، فقال له أحدهم: "يا سيد علي، نحن في رمضان، كيف تدخن؟" ردّ عليه العبيدي: "مش وقت صيام، المدفع زام". اي هذا

وقت القتال، لقد هدر المدفع، وليس وقت الصيام". وقد تحدث الرئيس التونسي الراحل الحبيب أبو رقيبة عن الكرم والمساعدة التي لقيهما من علي باشا العبيدي عندما عبر ليبيا، مسافراً إلى مصر فراراً من بطش الإستعمار الفرنسي في تونس، وما قدمه له من مساعدة ودعم.

مارس لعبة كرة القدم في شبابه، وتعلق بهذه الرياضة في كبره وظل يتابع أخبارها في الوطن العربي وأوروبا وافريقيا وأمريكا الاتينية. فهو رجل طيب من منبت طيب، رياضي النشاط والأخلاق، عرف بالكرم إلى حد الإسراف. لا أعتقد أنه قام بإيذاء أي إنسان في حياته، أو شتم أحد مرؤسيه، عكس ما كان يأتيه بعض الوزراء. بل أن البعض يأخذ عليه لين الشكيمة وضعف الشخصية بسبب تسامحه المفرط حتى مع من يسيء إليه. وأعرف أحد الوزراء الذي كان يحمل له كرهاً ظاهراً، ويشي به، ويتقول عليه، إلى حد أنه سرب أخباراً كاذبة عنه إلى أحد الصحف العربية التي تصدر في لندن، وقد وصلت تفاصيل هذه المكيدة إلى عبد العاطي، و لكنه لم يرد بالمثل. قد يكون الدافع من طرف ذلك الوزير الكاذب هو سبب شخصي جداً، بينه وبين العبيدي. وعندما أختير عبد العاطي، ليكون أول رئيس للجنة الشعبية العامة، وهو الأسم الذي حل محل "مجلس الوزراء" شن عليه المرحوم الدكتور مفتاح الأسطى عمر حرباً كلامية، لأن الأسطى، كان يريد ذلك المنصب لنفسه، ورغم ذلك حافظ عبد العاطي على صداقته.

بعد فصلي من رئاسة تحرير صحيفتي، الأسبوع السياسي، والأسبوع الثقافي، والحكم على جميع محرريها بالسجن المؤبد، أستدعاني عبد العاطي إلى مكتبه برئاسة اللجنة الشعبية العامة، وأبلغني بقرار الفصل، وقال أن تعليمات – الأخ العقيد له – أن يعينني في اي موقع أرغبه، أجبته أنني اريد مواصلة دراستي العليا بالولايات المتحدة الأمريكية، فأعطى التعليمات إلى مدير مكتبه، عبد الرحمن بلقاسم، لإعداد قرار إيفادي، لأنه شعر بالخجل، وبالتأكيد بالألم، لأنه يحب فعل الخير للجميع.

وعندما كان رئيساً للجنة الشعبية العامة، ارتفعت أسعار النفط، وبدأ خطة تنمية واعدة في ليبيا، وكانت المليارات تحت تصرفه، ولكنه بقي عفيف، نظيف اليد، لم يمدها ابداً على المال العام. كما أنه كان وطنياً ليبياً حتى النخاع، لم يحاب منطقة على حساب منطقة أخرى، وكان يقف على مسافة واحدة من جميع مناطق ليبيا ورجالها.

لقد حاز على مودة زملائه، وتقديرهم، وفرض إحترامه على العقيد معمر القذافي، الذي لم يوجه له إهانة قط.

ومثلما كان أول الوارثين لمركز الرائد عبد السلام جلود، الرجل الثاني في النظام ورئيس مجلس الوزراء، بعد إعلان الجماهيرية وإلغاء اسم ذلك المجلس وإستبداله باللجنة الشعبية العامة، فقد ورث منصب أمين مؤتمر الشعب العام من معمر القذافي، بعد أن اصبح معمر، "القائد"، أو "قائد ثورة الفاتح العظيم"، دون أي منصب رسمي محدد. لم يكن لذلك الجسم الذي سمي "أمانة مؤتمر الشعب العام" ويرأسه عبدالعاطي العبيدي، لم تكن له صلاحيات تذكر، وكان يجلس مع زملائه أعضاء الأمانة بقصر الشعب، قصر الملك إدريس سابقاً، وقبله الحاكم الإيطالي بالبو، وإلى جانبهم كان مكتب الرائد عبد السلام جلود، الذي يسير الأمور التنفيذية للدولة مساعداً للقذافي، وآمراً لأمين اللجنة الشعبية العامة.

لم يكن عبد العاطي من أولئك الذين يركضون وراء المناصب، أو يتعسف في إستعمالها عندما تسند إليه، وكان يجنح للسلم، ويقبل ما يوكل إليه.

بدأت بعد ذلك رحلة النزول التدريجي، ولم يبد عبد العاطي إمتعاضاً بل قد يكون وجد فيها راحة وهدوء، وذاك ما يتطابق مع شخصيته القنوعة المساعدة الهادئة. فقد أصبح وزيراً للخارجية في ثمانينات القرن المنصرم، وأدار ذلك المرفق دون صدام أو ضجيج، لم يحاول أن يقترب من الملفات القابلة للإنفجار، بل ركز جهده على سياسة المصالحة، وخاصة مع الدول العربية، التي رأى فيه زعمائها، الرجل الطيب المسالم.

وخاصة دول الخليج العربي، التي رأت فيه البدوي، رجل الكلمة، الذي يقدر الأخوة ووشيجة الدم، وكان قريباً جداً إلى الراحل الشيخ زايد بن سلطان رئيس دولة الأمارات العربية المتحدة والملك الراحل فهد بن عبد العزيز ولي عهد المملكة آنذاك، الذي كان ينادي عبد العاطي بإسم "خالي".

وعندما كلفه معمر القذافي، ببث الفتنة، بين أمراء الأسرة السعودية، ونقل معلومات مختلقة عن مؤامرات يدبرها هذا الأمير لذلك، وذاك لهذا، عبّر لي عن ضيقه من هذه المهمة "الفتنة"، وقال أنه لا يمكن أن يقوم بهذا الفعل الخسيس، قلت له: "يا عبد العاطي، أذهب، وتحدث مع الأمراء عن الأخوة والتعاون...إلخ. لأن معمر القذافي لا يريد إيصال ما قاله لك إلى أمراء الأسرة، ولو كان يريد إيصاله فعلاً لأختار شخصاً آخر، سقت له إسم شخص، معروف في مجال العمل الخارجي، مؤهله الشتائم والفتنة وقلة الأدب وسرقة المال، ونحن نصفه بالكذّاب، "الديوث".

لقد تولى عبد العاطي العبيدي حقيبة العمل الخارجي، عندما كانت علاقات ليبيا الدبلوماسية مقطوعة مع أغلب الدول العربية، وحاول ما يستطيع أن يرأب الصدع مع الأشقاء، ولا يرفع من وتيره الخلاف أو الصدام كما فعل غيره، بل أن الكثير من الدول العربية رأت في تعيين عبد العاطي في منصب وزير الخارجية في ليبيا، توجهاً تصالحياً للنظام.

وعندما عين سفيراً لليبيا بتونس بعد سنوات الخلاف السياسي بين البلدين إلى حد العمل المسلح الذي قام به معمر القذافي ضد تونس في عملية قفصة، ومحاولات الإغتيال التي كانت تستهدف رموز النظام السياسي التونسي وعلى رأسهم الهادي نويره الوزير الأول، عندما عين بذلك المنصب، تنفس التونسيون الصعداء، وأحسوا بتغيير جدي في السياسة الليبية، ولقى العبيدي الأبواب مفتوحة أمامه، وهوحفيد علي باشا العبيدي، الذي قدم كل المساعدة للمجاهد الأكبر، الحبيب بورقيبه، عند عبوره للحدود الليبية المصرية، متوجهاً إلى القاهرة، فراراً من بطش الإستعمار الفرنسي،

وساعياً لحشد الدعم العربي للقضية التونسية. ولم يقصر كذلك في تقديم كل أنواع المساعدة إلى كل الليبيين الذين كانوا يملأون مستشفيات تونس ومصحاتها من أجل العلاج، وعمل على تفعيل التعاون بين البلدين في كل المجالات.

عاد عبد العاطي من تونس، بسبب الدسائس والنميمة، التي كان يقودها – إيّاه – الكاره – الحاقد – عليه – لاسباب شخصية جداً، وبقى فترة مغضوبا عليه من القذافي، لا يمارس اي عمل سوي مهمات خارجية في مؤتمرات الخطابة القومية والعالمية والتي يقول عنها الليبيون، – عمل من ليس له عمل – ولم يرفع صوته شاكياً أو غاضباً، بقى هو هو، هادئاً متسامحاً، حتى بعد أن وصل إلى حالة من الضيق المادي الشديد، لم يبح بذلك إلى أقرب الأصدقاء، وعندما يحاول بعضهم أن يقدم له يد المساعدة، يتردد، و يتظاهر بعكس ما يعاني الى درجة تحسبه غنيا من التعفف.

كلفه العقيد القذافي بأن يتولى – الإدارة الأوربية – بالخارجية الليبية، لكنه في هذه المرة شعر بضيق حقيقي، وأحس أن الإهانة وصلت العظم، ولم يعد يتحملها، طلب مقابلة القذافي، وقال له:" يا أخ العقيد، أنت تعلم أنني كنت دائما جنديا معك، وسأبقى كذلك إلى أن أموت، لكن منصب مدير إدارة الخارجية، بعد أن كنت وزير لها، لا يمكن أن تقبله أنت لي". بعد تلك المقابلة إتصل القذافي بعمر المنتصر وزير الخارجية وطلب من أن يعين عبد العاطي في منصب الأمين المساعد للشؤون الأوربية. بعد ذلك عين سفيراً بإيطاليا، حاول أن يصلح ما يمكن إصلاحه في العلاقات بين البلدين، خاصة أنه من عمل على توقيع الإعلان المشترك بين ليبيا وإيطاليا سنة 1998، والذي إعتذرت فيه إيطاليا لأول مرة عن إستعمارها لليبيا، والتزمت بتقديم مساعدات لليبيا في مختلف المجالات يمكن أن ينظر إليها كتعويض عما لحق بالشعب الليبي من أضرار أثناء فترة الإستعمار، وأنشئت شركة ليبية

إيطالية تضم شركات من البلدين لتمويل صندوق التعويض، وقد توليتُ رئاستها لعدة سنوات.

لم يستطع أن يحقق إختراقا حقيقيا في العلاقات، بسبب سياسة العقيد القذافي، الذي دأب على إستعمال الماضي الإستعماري الإيطالي لليبيا فزاعة لتأجيج الخلافات الكلامية بين البلدين خدمة لشعارات الزعامة والبطولة. ولكن للأمانة فقدكان هو أحد العناصر الفاعلة في الوصول إلى معاهدة الصداقة بين بين البلدين والتي التزمت إيطاليا بموجبها بتقديم تعويض للشعب الليبي بقيمة 5 مليارات دولار تنفق على بناء طريق بري من الحدود المصرية إلى الحدود الليبية. ورغم أن المعاهدة قد وقعت عندما كنتُ وزيراً للخارجية الليبية، وقمت بزيارات كثيرة إلى إيطاليا ومقابلة رئيس الوزراء سيلفيو برلسكوني، فقد كان جهد عبد العاطي العبيدي، ومحمد سيالة أمين شؤون التعاون بالخارجية الليبية، والخبير الإقتصادي، وسفيرنا في روما حافظ قدور، أساسيا في الوصول إلى تلك المعاهدة، التي أعتبرها مكسبا كبيراً للشعب الليبي، وإنجازاً غير مسبوق بالنسبة لدول العالم التي عانت من الإستعمار.

بعد عودته من السفارة بإيطاليا، ألحقه العقيد القذافي بالعمل في مكتبه بالقيادة، ولم يستقر هناك طويلاً، فلم يستطع عبد العاطي بشخصيته الهادئة، ومجاملته المفرطة أن يندمج في تلك البيئة، وبقى غريبا فيها، فعاد إلى الخارجية مساعداً لي للشؤون الأوروبية، وقد قام بدور أساسي في معالجات الملفات الملتهبة:

ملف لوكربي، وتعويض الضحايا الأمريكيين.

- ملف أسلحة الدمار الشامل.
- قضية طائرة UTA الفرنسية.
- ملهى برلين.

• ملف الممرضات البلغاريات.

كان هو من يتابع هذه الملفات بشكل يومي مع الجهات الأجنبية المعنية، وكذلك الحقوقيين الليبيين المكلفين بالمتابعة القانونية لتلك الملفات.

ولم يغب أيضاً عن ملف الممرضات البلغاريات، ولا يمكن أن أنسى تلك الليلة الليلاء، التي لم نغادر فيها مقر اللجنة الشعبية العامة حتى ساعات الأولى من الصباح، وبعد إجتماعات طويلة، ولقاءات مع زوجة الرئيس ساركوزي السابقة سيسيليا، التي أغضبها طول الإنتظار في المطار ترقبا لوصول الممرضات البلغاريات التي قررت مرافقتهن إلى بلغاريا، غضبت سيدة فرنسا الأولى، فأنفجرت في وجه عبد العاطي بكلام عدواني فج، لكنه بحلمه وصبره الجم، إستطاع أن يهدأها ويجتاز ذلك الموقف الحساس.

قبل أن أترك الخارجية في 2009، بدأ عبد العاطي يشتكي من وضعه الصحي، وفي كل مرة كنت أصر أن يذهب للعلاج والراحة في الخارج، كنت أدرك أنه يعاني من ضغوط نفسية كبيرة، يريد التقاعد والراحة بعد أن وصل إلى نهاية العقد السابع من عمره، وأحس أنه قد اضاع عمره وصحته في قبض الريح، ذات مرة قلتُ له: يا عبد العاطي، إنك قلت للقذافي، ستبقى جنديا معه مثلما كنت في أول ايام الثورة، لكن الذين كانوا جنوداً، وصلوا اليوم إلى رتبة عميد، فهل ما زلت أنت جندياً؟!

بدأ الرجل يفقد أعصابه، وتظهر منه الحدة في النقاش، بل تطور الأمر الى مرات يصل فيها إلى رفع الصوت على زملائه، لاحظ الجميع، أن عبد العاطي يعاني من إحباط، وتحلقت حوله الأمراض والحسرات، بل دخل إلى برزخ اليأس، كبرت عائلته، وزادت المطالب، ورأي من حوله الذين كانوا صغاراً عندما كان كبيراً في المناصب الرسمية، وسقط المتاع من القوم، صاروا أكابراً، وهو إبن العائلة والقبيلة

الكبيرة المجاهدة، يحوم حول حفر الحاجة، وترفع له السنين رايات المرض، وتسمعه آهات النهاية.

كنت أدخل إليه بمكتبه صباحاً وأنا في طريقي إلى مكتبي لتناول قهوة الصباح سوياً، أجده في أكثر الأحيان كظيماً شاكيا من علل الجسم، وعبث "الأخ العقيد"، و لكنه يختم حديثه دائما بالقول: لم يعد في العمر ما يسمح بتغيير الطريق، ذهب العمر مع هذا الرجل، وليس لنا عمر آخر. ويردد كلمات الإبتهال، وكأنه دخل في حفلة مونولوج حزينة.

إقترحت على الدكتور البغدادي المحمودي، أمين اللجنة الشعبية العامة أن نعينه سفيراً في مالطا، فهي بلد صغير، ليس بيننا وبينه مصالح أو مشاكل تذكر، وهو سيكون قريباً جداً منا، وفي أي وقت يمكننا إستدعاؤه للإستشارة أوالإستعانة به في أي موضوع سياسي. توافقنا على هذا، لكن عبد العاطي رأي في مالطا، موقعاً صغيراً بالنسبة له، وفضل أن يرسل إلى تونس، بعد مغادرتي الخارجية وإلتحاقي بمنصبي الجديد مندوباً لليبيا بالأمم المتحدة، صدر قرار بتعيينه سفيراً بتونس، وجاء القبول منها بسرعة، وقبل أن يغادر طرابلس للإلتحاق بمقر عمله بتونس، إتصل بأحمد رمضان، السكرتير الشخصي لمعمر القذافي، وطلب موعداً لتوديع العقيد، الذي عبر عن إستغرابه عن صدور هذا القرار، وأمر أن يستمر عبد العاطي بموقعه أميناً مساعداً لوزير الخارجية للشؤون الأوربية. كانت تلك صدمة كبيرة له، زادت من ثقل الإحباط واليأس، وفعل السنين على جسمه وعقله وأعصابه.

خلال زيارتي الى ليبيا، كنت أحرص على زيارته بمكتبه، بالخارجية، وفي كل مرة أجد أمامي رجلاً غير ذاك، الهادىء الحليم، الذي يعبر عن حبه للحياة، ليلها ونهارها، كان مجرد نار تخبؤ، وكيان يتهاوى، يستعين بالصلاة والدعاء، لكن عند لقائي الأخير به، في نوفمبر 2010، تحدث أمامي، لغة أخرى لم اسمعها منه، تحدث، بكل مرارة عن "الراجل"، يقصد القذافي، عن جنونه، وشذوذه، وعن فساد

أولاده، والدمار الذي عصف بالبلاد، عن ضياع كل شي – الصحة، والعمر، و البلاد. قال لي وأنا أودعه: لماذا تأتي إلى هنا؟، إبق في نيويورك، أهتم بصحتك، وأولادك، وقراءاتك، وكتاباتك، أنت، محظوظ، دع هذا الجحيم لنا".

أحسست أنها كلمات وداع اليأس من كل شيء.

أينما كنت أتواصل معه هاتفيا بإستمرار، عندما عدت إلى نيويورك، كان الرئيس التونسي قد فرّ من تونس إلى السعودية، بفعل ثورتها، وبدأت الثورة الشعبية في مصر تزداد اشتعالاً، عمّ التوتر الشارع الليبي، أرتفعت حرارة الترقب للآتي، وبعد سقوط نظام مبارك في مصر، كان السؤال في ليبيا هو: متى ننفجر؟ كنت أتحدث خلال تلك الأيام مع عبد العاطي، ومحمد الزوي أمين مؤتمر الشعب العام، كان صوت الأول يطفح بالتنهد، والزفرات، في حين كان الزوي يحتمي بلغة الثقة، والخطابة المفتعلة، ويردد ما تريده ماكينة التسجيل التي ترصد المكالمات.

بعد إندفاع الشباب الليبي ببنغازي يوم 15 فبراير، تحدثت مع عدد من كبار المسئولين في ليبيا، كانوا كأنهم جميعا يقرأون من منشور واحد مكتوب. يرددون أن هذا الذي تتناقله وسائل الإعلام دعاية مفبركة، مؤامرة، مخطط، أكاذيب. لم يشذ عبد العاطي عن الجمع، لكن زفراته كانت الكلمات التي لم تكتب في المنشور العام. عندما بدأ الإنفجار الثوري الكبير يوم 17 فبراير، وإتساع التغطية الإعلامية، و إتساع ردود الفعل الدولية، زادت رنّات الهواتف القادمة من ليبيا، كان المضمون واحد، هو التكذيب، ومطالبتي بتفنيد ما تقوله وسائل الإعلام المعادية، و العمل على قطع الطريق على أي قرار أو موقف إدانة من الأمم المتحدة. يوم 19 فبراير، بدأ الخلاف بيننا، اقول لهم: الصور لا تكذب، وهل يصدقنا العالم إذا قلنا أن الوضع في ليبيا هو أحسن وأحلى من الوضع في مونتي كارلو أو في فيينا؟ كان الجميع يقول مالا يُصَدِّق، ومالا يُصَدَّق، بإستثناء عبد العاطي، الذي يأتيني صوته الحزين من أرض الوطن لا ينقصه إلا الصراخ والعويل.

بعد تصريحي لقناة الجزيرة يوم 22 فبراير، الذي طالبت فيه القذافي، بإتخاذ موقف شجاع وترك السلطة لحقن دماء الليبيين، أنقطعت الإتصالات، بإستثناء إتصال من أبو زيد دورده مدير المخابرات. حاولت الإتصال به بطريقة غبر مباشرة بعد ذلك، لإقناعه، بإتخاذ موقف إلى جانب شعبنا الذي يذبح على يد "الرجل"، الذي أكتشفت عمليا أنه يقود الجميع إلى الهاوية، وأنه أخذ منه صحته وعمره في رحلة الوهم والنزق، تحدثت مع سفيرنا في روما حافظ قدور، الذي تربطه به علاقات مودة، وقابله بترتيب مسبق خلال عودته من أحد مهامه لدى الإتحاد الأفريقي بأديس أبابا، وتوقفه بمطار روما، وتحدث معه طويلاً لإقناعه بالإنشقاق عن نظام الدم، عن "الرجل" الذي دمره شخصياً مثلما دمر كل الليبيين، وكان رد عبد العاطي البكاء، ثم البكاء، ثم البكاء.

إلتقينا في القمة الأفريقية التي عقدت في "مالابو" عاصمة غينيا الإستوائية في 2011/7/30. وقفنا معاً في ردهة قاعة المؤتمر، أخذني بالأحضان وهو يبكي، وقال لي أن معمر القذافي قد إنتهى، ولا بد أن نجلس معاً في أي مكان، وأن نعمل من أجل إنقاذ البلد. قلت له: يا عبد العاطي، لا أريد أن أعيد عليك ما سمعته منك شخصياً في زيارتي الأخيرة لليبيا، هذا الرجل دمر كل شيء، و هل تضمن أنه سيقبل بالرحيل سلمياً؟ أجاب: أن القذافي لا يقبل فرض الشروط. قلت له: إذن لا حل إلا إسقاطه بالقوة، والليبييون إتخذوا هذا القرار ولن يتراجعوا عنه، وكما قلت فإن معمر منتهي، والذي سيكتب الكلمة الأخيرة في صفحة نهايته هو الشعب الليبي ولكن بحروف من دم. قال يجب اولاً إيقاف عمليات حلف الناتو، لأنه يقتل الليبيين، قلت له يا أخي يا عبد العاطي: أنت رجل لا يكذب على الآخرين، فكيف ترضى أن تكذب على نفسك؟ حلف الناتو بدأ عملياته في ليبيا يوم 19 مارس، وأنقذ بنغازي من أن تتحول إلى أكبر قبر جماعي في الدنيا. ولكن القذافي بدأ رحلة القتل يوم 2011/2/17، أي هنالك شهر ويومان من الأعمال العسكرية التي قام بها القذافي ضد الليبيين ولم يكن للناتو وجود في الأجواء الليبية في ذلك الشهر واليومين قتل

الآلاف فـي بنغـازي والبريقـة وأجـدابيا، دُمّـرت مصـراته والزاويـة وزوارة، وأغتصـبت النساء، فمن فعل ذلك؟ كان رده الآهات وبعض الدموع.

خلال رحلة ذبح القذافي وكتائبه ومرتزقته لليبيين، تنقل عبد العاطي العبيدي بين عـدد مـن عواصـم العـالم، يـدافع عـن موقـف النظـام، ويحـاول حشـد الـدعم لـه، لكـن للأمانة، لم يتفوه بكلمة واحدة ضد الثوار، ولم يهاجم اي شخص من الأسماء الناشطة المعروفة بين حركة الثوار.

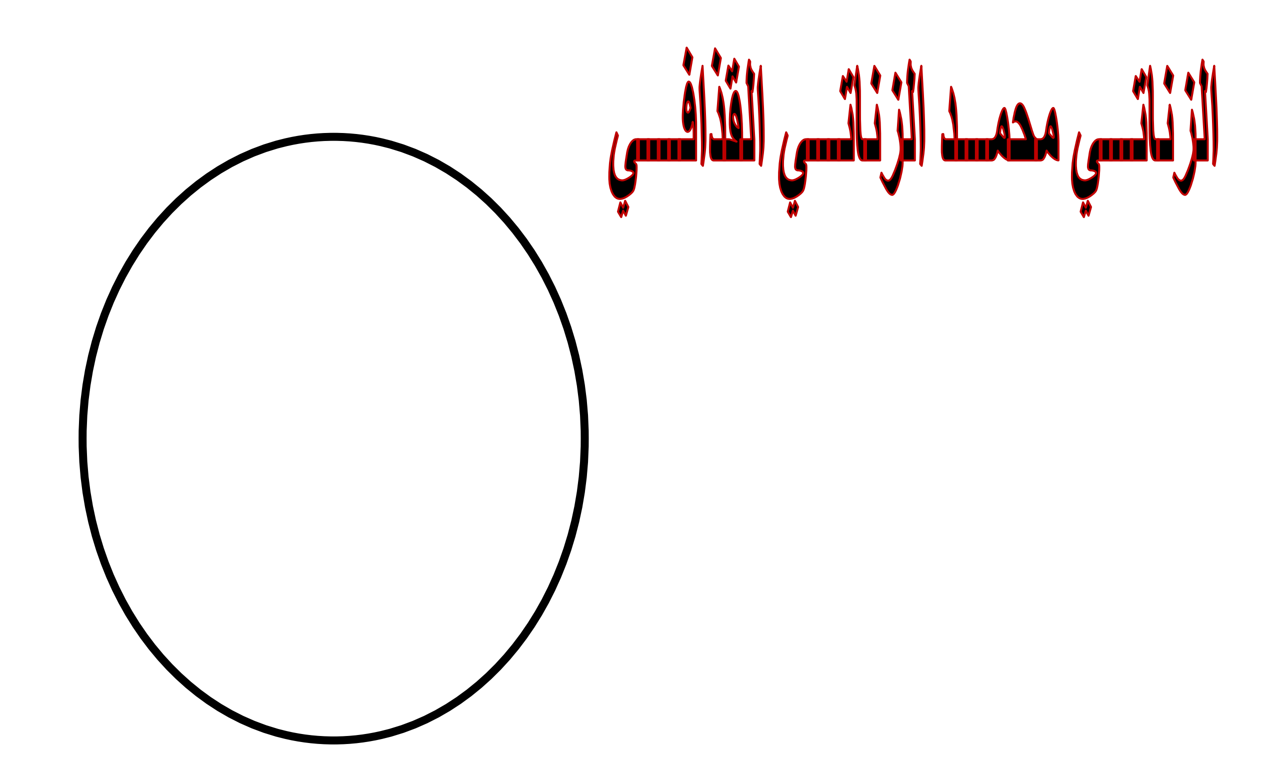
قـال لـي محمـد ابـو عـزوم، وزيـر خارجيـة النيجـر، عنـدما ألتقيت معـه فـي شـهر سبتمبر 2011 خلال أعمال الدورة السادسة والستين للأمم المتحدة أنه لم يكن يعرف عبد العاطي العبيدي من قبل، التقى به فقط مؤخراً مرتين، الأولى في أديس أبابا اثناء إجتمـاع للإتحـاد الأفريقـي، و الثانيـة بمطـار مـالبو فـي غينيـا الإسـتوائية أثنـاء قمـة الإتحاد الأفريقي في شهر يوليو 2011. وتحدث معه عن الأوضاع في ليبيا، وقال لـه عبد العاطي أنه ضد العنف، ولابد من وجود حل سلمي مهما كان الثمن، بمعنـى ولو كان ذلك بتنازل معمر القذافي عن السلطة، واضاف وزير خارجية النيجر، هذا عكس ما سمعته من بشير صالح مدير مكتب القذافي الذي قال: أن معمر سيبقى في ليبيا كرمز للبلاد ولن يتنازل مهما كلف الأمر، قال أبو عزوم أيضا: رغم معرفته المحدودة بعبد العاطي، فقد لمس فيه روح الإنسان الطيب البسيط المتواضـع، الذي يكره العنف، ويحب شعبه، وأنه على إستعداد أن يذهب للشهادة لصالحه إذا جرت محاكمته.

كان عبد العاطي قد عين وزيراً للخارجية فـي 6 أبريل 2011 خلفا لموسـى كوسا الذي أنشق عن نظام القذافي بعد ثورة 17 فبراير.

قبض علـى عبد العاطي العبيدي في يوم 2011/9/1 في منزله بمنطقة جنزور غرب طرابلس من قبل ثوار 17 فبراير. تلك كانت خاتمة هذا الإنسان الذي لم يكن لـه مبرراً للإستمرار إلـى جانـب معمر القذافي سوى أنـه قضـى عمراً معه، وهو الذي

قال أن القذافي قد أخذ هذا العمر. كانت مشكلة عبد العاطي العبيدي المزمنة أنه رجل قبول، وليس رجل القرارات الصعبة. روح القبول هذه والحذر، هي التي سخرها القذافي، ليرفعه متى شاء ثم ينزله إلى مرتبة مدير للإدارة وإن أطلق على الوظيفة إسم أمين مساعد، أو نائب وزير، كان عبد العاطي ناعماً مع معمر القذافي حتى عندما كانت المواقف والمصلحة الوطنية تتطلب غير ذلك.

مرة واحدة رأيت عبد العاطي ينفعل ويرفع صوته أمام معمر، كنت أنا وهو ومحمد الزوي، أثناء معالجة قضية لوكربي، نناقش المقترحات المتعلقة برقم التعويض الذي يطلبه محامو الضحايا الأمريكيين. غضب القذافي، و بدأ يهدد ويرفض ويتوعد...الخ. قال له عبد العاطي: يا أخ معمر، إن الحبل بدأ يضيق حول رقبتك، ولا بد أن نقطع الحبل قبل أن يعلق". ليت عبد العاطي كرر هذه العبارة لمعمر القذافي عندما شرع في قتل الليبيين في 17 فبراير. ولكن ما كان ذلك ممكنا، فلم يبق لهذا المسكين صوت كي يرفعه، كل ما كان يملكه هو الآهات والدموع، التي قد يجد متسعاً من الوقت ليسكب منها الكثير في المعتقل مع صديقه محمد الزوي أمين مؤتمر الشعب العام. فقد بذل عبد العاطي كل المحاولات ليضعوه في مكان واحد في المعتقل مع محمد الزاوي حتى يلعب – الكارطة – اي الورق سويا.!!


الزناتي محمد الزناتي القذافي

الزناتي محمد الزناتي القذافي

"الشيخ" هكذا يسمونه، وبالتحديد أولئك الذين يعرفون ذاك الجانب نصف الخفي من شخصيتة الشيخ الزناتي، فهو خريج الجامعة الإسلامية بالبيضاء، ومنحه هذا اللقب أو هذه الصفة، ليس منة من أحد، بل إستحقه بحكم التخصص الديني، ولباسه للجرد الليبي، والطاقية الوردية خاصة في جلسات مؤتمر الشعب العام.

رجل متوسط القامة، خمري السمت، هادئ الحركة، وللسنين دور في ضبط إيقاع أقدامه على الأرض فهو عند شاطئ الثمانينات من العمر، يحدد طول أو قصر خطواته وفقا للموقف، والجمهور الذي يحيط به، والمناسبة التي يمشي فيها أو نحوها. يقترب من الوقار ويبتعد عنه حسب ما يموج في داخله، يقهقه عندما يتودد، يقسم عندما يتوسل، يستغيث إذا كان أمام من يمكن أن يقدم له نقوداً، أو يمنحه سيارة، يكرر عبارته التي حفظها عنه، كل من عمل معه واقترب منه تحت اي مظلة كانت، إجتماعية أو إدارية، أو سياسية،: "وحق جدك الطاهر". عندما يقول الزناتي هذه العبارة، فهي فاتحة خطاب الضعف، الذي سيتوج بشيئين، الأول أما تبرير أستحواذه على شيء مما تملك الدولة أو، الثاني، طلب الحصول على شي من ذلك.

يتنذر الدكتور عبد الحميد الصيد، وهو كان نائبا للزناتي في أمانة مؤتمر الشعب العام، يتنذر عليه مقلداً حركاته وكلماته، حيث يعلق ناظريه في وجه من يتحدث إليه، ويخفت صوته، ويلصق يديه، ويبدأ في هز رأسه يميناً وشمالاً، ويفتح بفمه المفصل "وحق جدك الطاهر"، ليختم حديثه بالقول: إنني أعيش في فقر مدقع، يتحدث عن إحتياجات الأولاد، والأمراض التي تسري في جسده، وإنه لم يعد قادر على تولي مهمة أمين مؤتمر الشعب العام.

"الشيخ" تنطبق عليه المقولة الشعبية الليبية "شيخ، وعمك". أي أنه الرجل الذي يظهر الزهد والتدين والوقار، ويمارس كل ما يخالف ذلك من تدليس وخداع. يعتقد جازماً أنه قادر على خداع الجميع بذلك الأسلوب المملتيء بالعبارات المتوسطة، هو رجل له حظ من التعليم أو التعاليم الدينية التي تؤهله ليكون مأذونا شرعيا، يقوم بتوثيق الزواج والطلاق، وتلك أعلى درجة ترفعه مؤهلاته العلمية إليها. لكنه اقنع نفسه، وإستمرأ ذلك، أنه رجل السياسة والكياسة الإستراتيجي، الذي لا يشق له غبار. خلط كثيرا بين الخداع والدهاء، وكما نقول نحن في اللهجة الليبية بين "الزقاطة" و"الدهاء". وهناك مرادفات كثيرة يستعملها الليبيون التي قلما تجد على الأرض الليبية من يملك نفس مقاييسها مثل – الشيخ – وهي – الزوفري – البلعوط – الزلامطي. بمناسبة الإحتفال بذكرى إعلان قيام سلطة الشعب بسبها سنة 2007، كان هناك بعض الضيوف، بينهم الرئيس التشادي أدريس دبي، وآخرون، يقفون إلى جانب معمر القذافي، صافحت الجميع، ولكنني لم أمد يدي إلى "الشيخ"، لاسباب سأتحدث عنها في الأوراق اللاحقة، لاحظ القذافي ذلك، وعندما عدنا إلى مقر إقامة القذافي بإستراحته بغابة النخيل بسبها، سألني القذافي عن سبب عدم مصافحتي "للشيخ" أمام الضيوف، فقلت مازحاً: "أن "الشيخ" يخلط بين "الزقاطة" و "الدهاء"، ضحك القذافي، لقد أعجبته تلك القفشة، وهو يكون في غاية السعادة عندما يكتشف حساسية بين اي أثنين من المسئولين في النظام. لم ينس معمر القذافي تلك الكلمات المازحة، فكرر لي السؤال مرة أخرى، وطلب مني أن اشرح ما قلت عن "الشيخ" وبالتحديد، خلطه بين الزقاطه، والدهاء، فقلت له أن صاحبنا مثلا، يكتب محاضر الإجتماعات التي تتناول موضوعات إجرائية، في أمانة مؤتمر الشعب العام، يكتبها بقلم الرصاص أمام المجتمعين، وفيما بعد يقوم بمسح ما لا يريد، و يعدل المحضر، وعندما تعترض على المحضر يقول لك: "وحق جدك الطاهر، أنني كتبت، كل ما قيل بالحرف". فالقسم بجدك أو بجدي الذي يعطيه صفة الطاهر هو أول خدعة، والثاني، أنه قد يكون

صادقا في قوله أنه قد كتب المحضر حرفيا ولكنه في الحقيقة كاذب لأنه قام بتغييره فيما بعد.

"الشيخ" يحتمل كل شيء، الإهانات، بل والشتائم، ولكنه لا يحتمل شيئاً واحداً، وهو الهجر، هجر الدولار، وحتى بعد صدور عملة الإتحاد الأوربي، اليورو، فهو لا يقبل إلا الدولار، ولم يصدق ابداً، أن قيمة اليورو أعلى من الدولار، في أول إجتماع لي مع أمانة مؤتمر الشعب العام بسرت، بعد أن صُعدتُ أميناً للشؤون الخارجية، كان ذلك في رمضان، وإجتمعنا بعد الإفطار؛ النقطة الأولى في جدول الأعمال كانت ميزانية المؤتمرات الشعبية، كان أحمد إبراهيم القذافي هو أمين شئون المؤتمرات، و بالتالي هو من يحق له أن يصرف المكافآت أو المزايا المالية لأمناء المؤتمرات الشعبية، لكن "الشيخ" أعطى تعليمات للمراقب المالي بصرف مبالغ لبعض أمناء المؤتمرات الشعبية. لقد صعقت وأنا اسمع أحمد إبراهيم، يطلق سيلاً من الإهانات والشتائم البذيئة في وجه "الشيخ"، مثل: أنت فاسد، مرتش، سارق، لا أخلاق لك، صدمت و أنا ارى شابا يوجه مثل هذه الألفاظ إلى شيخ يكبره سناً، وهو ابن عمه، ويفترض حتى من الناحية الإجتماعية أن يوقره ويقدره، إضافه إلى مكانته السياسية، على رأس مؤتمر الشعب العام، وهو قمة الهرم السياسي في الجماهيرية، إضافة إلى خلفيته الدينية. تابعنا نحن أعضاء الأمانة تلك الصدمات التي وجهت إلى وجه الشيخ وكرامته ومكانته، بهتنا جميعاً، قمت من طاولة الإجتماع، أنتقلت إلى الصالون الجانبي واشعلت غليوني، مكتفيا بمتابعة المشهد الهزلي من بعيد، نظر إليّ الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني، الأمين المساعد للشيخ الزناتي باسماً، وغمز لي بعينه، بما معناه لا تهز بدنك، ولا تنفعل، فهذا شيء عادي. قفز "الشيخ" من كرسيه، و لبس جرده، وأقسم بالطلاق أنه لن يدخل هذا المبنى ابداً. وتوجه نحو الباب، حاولت اللحاق به لإقناعه بالبقاء، و طلبت من أحمد إبراهيم، أن يقوم، ويعتذر للشيخ، قال أحمد بصوت عال وإنفعال طاغ:"دعه يا عبد الرحمن يذهب، هو كاذب، غداً ستجده هنا قبلك، إنه سافل ومنحط، لا يمين له ولا دين، إمرأته طالق منه مليون مرة". رأيت

في عيون الحاضرين تصديقاً لما يقوله أحمد، وبالفعل، ففي اليوم التالي، توجهت إلى مكتب الشيخ فوجدته هشاً بشاً كأن شيئا لم يكن وبراءة الأطفال في عينيه.

في قمة المرأة العالمية التي أنعقدت في بكين، اصر الشيخ على ترأس الوفد الليبي، استغرب المعنيون، لأن هناك في أمانة مؤتمر الشعب العام، نائبة للأمين العام مكلفة بشئون المرأة، والمنطق، و طبيعة المهمة تقضيان بأن تتولى هي رئاسة الوفد، المكون في الأساس من مجموعة نساء، تساءل الذين يقومون بالإجراءات المالية والإدارية والمالية عن دافع الشيخ للقيام بهذه المهمة الشاذة، فأجاب المحاسب، أن المؤتمر، مؤتمر قمة، والمدة طويلة، والمسافة بعيدة، إذن العهدة التي سيحملها الشيخ كبيرة، وهذا هو الدافع الوحيد لتجشمه وعثاء هذه الرحلة الطويلة وهو الرجل المسن المريض.

حقيبة الشيخ

عرف العاملون بأمانة مؤتمر الشعب العام، وكذلك الدبلوماسيون في السفارات الليبية، ماذا تعني الحقيبة للشيخ، إنها المنى والطلب، و هي مقدسة، لا يمكن أن يقسم بها، كما يقسم بالطلاق من زوجته فهي الأغلى، والمعشوقة، والتي لا يمكن أن يفارقها مهما كان الظرف أو الموقف.

في إحدى زياراته إلى دولة تشاد، أقام له مستقبلوه إحتفالاً كبيراً في المطار، أصطف حرس الشرف، وعزفت الموسيقى العسكرية النشيديين الوطنيين لليبيا وتشاد، وعندما همّ بإستعراض الطابور، طلب منه السفير أن يحمل له حقيبته، فمن غير المقبول أن يستعرض الحرس، وحقيبته في يده، ويصافح كبار المستقبلين، برفقة نظيره، رئيس الجمعية الوطنية هكذا. قام بنهر السفير أمام الجميع بحدة. وأكمل جميع خطوات مراسم الإستقبال، وحقيبته المملوءة بالدولارات بيده.

في أحدى زياراته إلى جمهورية مصر العربية، كان له لقاء مع الدكتور فتحي سرور، رئيس مجلس الشعب المصري، كان القائم بالأعمال الليبي بالقاهرة ينتظر الشيخ في ردهة الفندق، هبط الشيخ وحقيبته بيمينه، إقترح عليه القائم بالأعمال أن يتركها في خزنة الفندق، غضب الشيخ غضباً شديداً، وأقسم أن لا يرافقه إلى المقابلة، لأنه تدخل فيما لا يعنيه.

في سنة 2000 عقد إجتماع للبرلمانات الأفريقية في أنجولا، وأصر الشيخ الزناتي أن يترأس الوفد الليبي، وعرض الأمر في الإجتماع الأسبوعي لأمانة مؤتمر الشعب العام وتمت الموافقة على ترأسه للوفد الليبي، وطلب الشيخ عهدة كبيرة بحجة أن بعض الوفود قد تحرجه وتطلب منه مساعدة مالية، حصل على ما يريد، فوجئنا قبل تاريخ مغادرة الوفد بيوم واحد يعتذر عن السفر بحجة زواج إحدى بناته، إتصل

بي الدكتور عبد الحميد الصيد الزنتاني الأمين المساعد، وطلب مني رئاسة الوفد لأن الشيخ عنده ظرف عائلي وهو زواج ابنته.

أستغربت من هذه "اللقطة" الغريبة، فقلت للزنتاني: هل موضوع زواج ابنته حدث فجأة؟ وهل سيدخل معها إلى غرفة نومها ليلة الدخلة، ولكنني قلت للزنتاني، المهم أن يرجع العهدة التي أخذها.

الدكتور الزنتاني، رجل دمث، هادئ، مجامل، طلب مني أن أتحدث مباشرة مع "الشيخ" بخصوص العهدة، أتصلت به، وبعد مكالمة غاضبة عاصفة، قال أنه سيرجع بعضا من المبلغ لأنه تصرف فيه لاسباب قاهرة، قلت له إذا لم تعد المبلغ كاملاً فسأتصل الآن بأحمد رمضان، السكرتير الشخصي للعقيد القذافي وأبلغه بكل التفاصيل، تغيرت لغته، وتحول إلى مستجد يكرر "وحق جدك الطاهر"، و أعاد المبلغ فيما بعد كاملاً.

(مملكة البيوت والسيارات)

سرت، عاصمة ليبيا، كان هذا الحلم لا يقاربه حلم، ولا يطاوله سوى، أن تكون عاصمة للإتحاد الأفريقي، قبل أن يكبر الحلم، ويطالب معمر القذافي أن تكون سرت هي مقر الأمم المتحدة، بدلاً من نيويورك الأمريكية، التي تمكن أمريكا من الهيمنة على قرارات المنظمة.

أقام معمر القذافي صرحاً فرعونياً، أنفق عليه مئات الملايين يضم مجمعاً ضخماً للقاعات بسرت، وحوله مباني فخمة بعدد الوزارات، ولتحفيز – الأمناء – الوزراء على الإنتقال إلى سرت، المدينة المصطنعة، أمر ببناء عدد من الفيلات الضخمة على شاطيء البحر، كان الأمناء يأتون لأيام معدودة للإقامة بهذه البيوت، وقلما أحضر أحدهم عائلته إلى بيوت العاصمة الحلم. وفي لحظة غضب، أمر القذافي قبيلة – الهماملة – التي بنيت البيوت فوق أرض من أملاكها، بالإستيلاء على هذه البيوت بحجة أنها من حقهم وأن الأمناء لا يقيمون بها. تدافع رجال القبيلة لإجتياح بيوت الوزراء، غضب بعضهم وعلى رأسهم ابو زيد دورده، الذي هجر سرت ونقل مكتبه إلى منطقة الجفرة جنوب سرت.

بعد ذلك، أمر القذافي ببناء بيوت أكبر، وأكثر فخامة، في منطقة – السبعة – بحيث يكون لكل أمين بيت خاص به، وقد استعملت هذه البيوت لإقامة رؤساء الدول عند عقد القمم بمدينة سرت، ومن بين هذه البيوت تميز بيتان، هما البيت المخصص لأمين مؤتمر الشعب العام، ولرئيس الوزراء، هذان البيتان بهما حديقتان كبيرتان، وصالات واسعة، وغرف عديدة، ومرافق للخدمات والخدم وغيرها. خصص البيت المقابل للبحر لأمين مؤتمر الشعب العام.

أقام به الشيخ الزناتي لسنوات، فطاب له المقام، ولم يتصور أنه يستطيع أن يعيش بدونه، فجمع عزيمته، وتوجه إلى إبن عمه – القائد – وأقسم له بحق جده

الطاهر – أنه بحكم كبر اسرته وفقره المدقع وكبر سنه، يطلب منه أن يملَّك هذا البيت المتواضع. اعطى القذافي تعليماته بأن يُملك البيت للشيخ.

وبعد أن اصبح بيت سرت ملكا له، تذكر – طرابلس – فلا بد أن يكون له بيتا بالعاصمة الأولى بحكم ظروف عمله، وإضطراره أن يقيم بها للعمل وللإجتماع مع الوفود الأجنبية الزائرة، وكذلك لإعتبارات إجتماعية أخرى. أعطى معمر القذافي تعليمات لبناء منزل مناسب له بطرابلس، وبالفعل، كلفت أحدى الشركات ببناء منزل له بطرابلس بمنطقة بن عاشور الراقية.

وللسيارات مكان في قلب الشيخ، فقد تركت الحقيبة، والبيوت، مكاناً لعشق أخر، هو السيارات، التي كلما حصل على عدد منها قال هل من مزيد. إعتادت الدولة أن تستورد سيارات للموظفين في مختلف مرافق الدولة، وفي الترتيب الأول كانت أمانة مؤتمر الشعب العام وكذلك، أمناء المؤتمرات الشعبية، وفي كل دفعة من تلك الدفعات يكون "للشيخ" نصيب، ولا يتطلب سوى أن يتصل هاتفياً برئيس الوزراء، أو أمين شئون اللجان الشعبية بمؤتمر الشعب العام، ويقسم له بجده الطاهر، أنه يعيش في فقر مدقع، وأنه وأولاده يتنقلون سيراً على اقدامهم ولا يملكون سيارة، وطبعا يكون الجواب، حاضر يا شيخنا سنخصص لك عدداً من السيارات، ولا تحمل هم.

كان مديراً للشركة الزراعية التي تحتكر إستيراد الفواكه من الخارج وتوزيعها في أنحاء ليبيا قبل أن يعين أميناً لمؤتمر الشعب العام، ولكن الشركة توسعت وارتفعت ميزانيتها وزادت صلاحياتها واصبح خليفته على رأس تلك الشركة من الذين يشار إليهم بالبنان، وإمتد تأثيره من شرق ليبيا إلى غربها إلى جنوبها، أشعل هذا الحسد الشيخ، وتراءت أمامه صور العز الذي حرمه منه القدر، ولم يعد له حديث سوى عن تلك الشركة ومديرها، كان حلمه بعد أن يغادر منصب أمين مؤتمر الشعب العام أن يعود إلى تجارة الفاكهة الرسمية، وأن يجلس فوق جبل التفاح والموز والكمثرى والمال والجاه ايضا.

أسقط في يد الشيخ، فقبل أن يطرده معمر القذافي من على منصة أمانة مؤتمر الشعب العام على الهواء مباشرة، كانت شركة الفاكهة الحكومية قد تلاشت، فقد فتحت تجارة الفاكهة وإستيرادها للقطاع الخاص، مات حلم الشيخ الكبير. ولكن وهو العالم بأمور الدين والتراث، يؤمن بأن ما لا يدرك كله، لا يترك جله، فأسس بتمويل من صندوق الجهاد الذي يشارك في إدارته شركة لتعبئة المياة الطبيعية أسما "وادي غان"، و خصص الجزء الأكبر من وقته للترويج لذلك الماء. إستدعاني مرة إلى منزله بشكل عاجل لمناقشة عدد من الموضوعات الهامة كما قال، وعندما وصلت إلى منزله تحدث عن أمور عادية جداً، إفتتحها من الشكوى من إبراهيم إبجاد، وسليمان الشحومي، عضوي أمانة مؤتمر الشعب العام، ومقابلاتهما المستمرة لمعمر القذافي، في حين لم يحظ هو بأي مقابلة معه، وفي الختام أهداني صندوق من مياهه، وطلب إمكانية التعاقد مع الشركة المصنعة تلك المياه، لشراء ما نحتاجه في المراسم لضيوف الدولة والمناسبات الرسمية. كان ذلك الصندوق – الدعاية – هو الهدية الوحيدة التي استلمها من الشيخ.

الزناتي محمد الزناتي القذافي، رجل صادق، ولكن مع نفسه فقط، لا تحركه أي دوافع، ولا يقيده أي مبدأ، يتعاطى مع كل شيء، دون أن ينفعل به، أو يتفاعل معه، ولكن في كل ذلك، يجسد كيانه وتكوينه، إذا وجدته حزينا فهو يفتعل ذلك، أو غاضبا، أو فرحاً، كل ما يحركه هو مصلحته، حتى عندما يتبنى قضية ما، ويتحمس لها، ويزايد، يرعد ويزبد، فمن وراء ذلك، ثلاثة اشياء، لا رابع لها وهي:

. المال . البيوت . السيارات

وأنا أعتبر ذلك من ميزاته، وليس من عيوبه، فالتعامل معه غاية البساطة، تلك المفاتيح الثلاثة، تقودك بسرعة إلى دهاليزه المفتعله. يقف دائما على الحياد عن طرح اي قضية هامة من القضايا التي تهم المصلحة العامة، أو تلك التي تمس المواطن. وقد يعقد إجتماعاً عاجلاً، يصفه بالهام جداً، والخطير جداً، ويلقي في مطلع الإجتماع خطبة حماسية، يتحدث عن سلطة الشعب، وإرادة الجماهير، وحرصة على تحقيق قرارات المؤتمرات الشعبية، صاحبة السيادة...الخ، ويكون الدافع الوحيد وراء كل ذلك المهرجان هو الحصول على سيارة، أو تعيين موظف في موقع ما، أو تبرير سفره في مهمة خارج البلاد.

دعا مرة إلى إجتماع – موسع – عاجل، هام...الخ، بمبنى الرقابة الإدارية بطرابلس، وحشد جمعاً من المسئولين، كان من بينهم على ما أذكره:

1 -البغدادي المحمودي – أمين اللجنة الشعبية العامة "رئيس الوزراء".

2 -موسى كوسا – رئيس جهاز الأمن الخارجي.

3 -بشير حميد – مندوبا عن مكتب الإتصال باللجان الثورية.

4 -الطيب الصافي – أمين الإقتصاد – وزير.

5 -الدكتور محمد أحمد الشريف – أمين عام جمعية الدعوة الإسلامية.

وآخرون. حضرتُ بالطبع، لأن الموضوع المطروح يتعلق بالعاملين بالمكاتب الشعبية الليبية بالخارج – السفارات.

القى خطبة طويلة حول ضرورة إتاحة الفرصة لجميع الليبيين أن يأخذوا حقهم من فرص العمل بالخارج، في إطار ما كان يسمى بالدبلوماسية الشعبية، وهي التي تقوم على "تصعيد" عناصر من كل منطقة، عن طريق المؤتمرات الشعبية الأساسية،

وتشكل لجان شعبية منها توفد لإدارة المكاتب الشعبية بالخارج. قال إنه لن يسمح بالتلاعب أو التحايل في هذا الأمر، ولا يقبل أن يحتكر موظفو الخارجية العمل بالسفارات، على حساب المصعدين الذين إختارهم الشعب الليبي، وتحدث طويلاً، ويعيد ويزيد، وهو منفعلاً غاضباً. كنت تقدمت بقائمة لأمناء المكاتب الشعبية – السفراء – أغلبهم من الدبلوماسيين بوزارة الخارجية، ولما كان قانون العمل السياسي والقنصلي الذي ينظم العمل بوزارة الخارجية، يقضي بأن ترشح وزارة الخارجية اسماء العاملين بالسفارات، ويقوم مجلس الوزراء بإصدار القرار، وأن تعتمد أمانة مؤتمر الشعب العام المرشحين، فقد رفض الشيخ الزناتي أمين مؤتمر الشعب العام إعتماد تلك القائمة، بحجة إنها مخالفة للقانون، ولا تعطي الفرصة للمصعدين من خارج الوزارة للعمل في السفارات الليبية.

حاول البغدادي المحمودي تهدئته، وشرح خلفيات الموضوع، لكن الزناتي، كان يزداد مزايده، ويعيد خطابه المتشنج، جلس إلى جانبي، الطيب الصافي، كان طوال الجلسة يحاول تهدئتي، غالبت نفسي، وأطلت الصمت، لكنني إنفجرت في هبّة عصبية، وبدأت هجوماً شخصياً عليه، قلت له: "أنت تتحدث عن إعطاء الفرص للجميع، و نسيت أنك تجلس على قمة هرم السلطة في البلاد منذ أكثر من 16 سنة، رغم أنك رجل خرف، ولا تفهم شيئا، وانا أعرف دافعك الحقيقي لعقد هذا الإجتماع.

ردّ غاضباً بقوله: "أنا أمسك بأهم مؤسسة تشريعية في البلاد، وساقطع يدي قبل أن أوقع على القائمة التي اقترحتها".

في قمة إنفعالي قلت: "أنت لا تمسك شيئاً، لا تستطيع أن تمسك حتى "بولك". حاول البغدادي المحمودي والطيب الصافي تهدئتي، وإستئناف الإجتماع، لكن الزناتي غادر كرسيه و إتجه نحو الباب وهو يصرخ، داعياً ابناءه وأحد مرافقيه لدخول مكان الإجتماع، وهو يقول: إذا أردت أن تضربني، فأنا لدي من يوقفك عند حدك، و يضربك".

إنفض الإجتماع وخرجنا.

أقسم هو كالعادة بالطلاق، أن لا يعتمد أحداً من السفراء الذين اقترحتهم، وصممتُ من طرفي على أن تبقى السفارت بدون سفراء إلى أن تتم إجراءات الذين اقترحتهم.

ذهبت بعد ذلك إلى العقيد معمر القذافي، وإلى اللواء أبو بكر يونس، وقلت لهما اسماء السفراء المقترحين، وأصدروا التعليمات إلى الشيخ الزناتي، الذي وافق على الفور، وإتخذ الإجراءات المطلوبة، ولا أدري اين وصل قسمه بالطلاق!!

لقد إكتشف معمر القذافي، أبن عمه الزناتي مبكراً. فقد كان يوماً هو الذي يمكن وصفه بالمتعلم في قبيلة القذاذفة، فقد قرأ القرآن في جامع سرت، ومنها إلى منطقة الجفرة لحفظ القرآن، إنتقل بعد ذلك إلى مدينة البيضاء لدراسة الشريعة في جامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية.

كان النائب مفتاح ابو شريعة، من قبائل أولاد سليمان، يحتكر كرسي سرت بمجلس النواب في العهد الملكي، وأراد القذاذفة أن ينالوا نصيبهم من الجلوس على ذلك الكرسي التشريعي الوطني، دفعوا بمتعلمهم الوحيد وهو الزناتي محمد الزنتاتي القذافي، خريج جامعة محمد بن علي السنوسي الإسلامية. ولم لا؟ وهو يجمع بين ورقتين – ورقة المؤهل الجامعي، مضافاً إليها إنها جامعة – محمد بن علي السنوسي – جد الملك أدريس السنوسي. نجح الشيخ وصار عضواً في مجلس النواب الليبي سنة 1967.

ارتبط بعلاقة بابن عمه معمر القذافي، وعندما أراد الملازم معمر خطبة فتحية نوري خالد زوجته الأولى، من والدها الزعيم "العميد" مدير شرطة فزان أخذ معه الزناتي لكونه وجيه قبيلة القذاذفة، ورافقهما الملازم – آنذاك – مصطفى الخروبي. رفض الزعيم نوري خالد مصاهرة الملازم معمر القذافي، فمدير بوليس فزان المنحدر

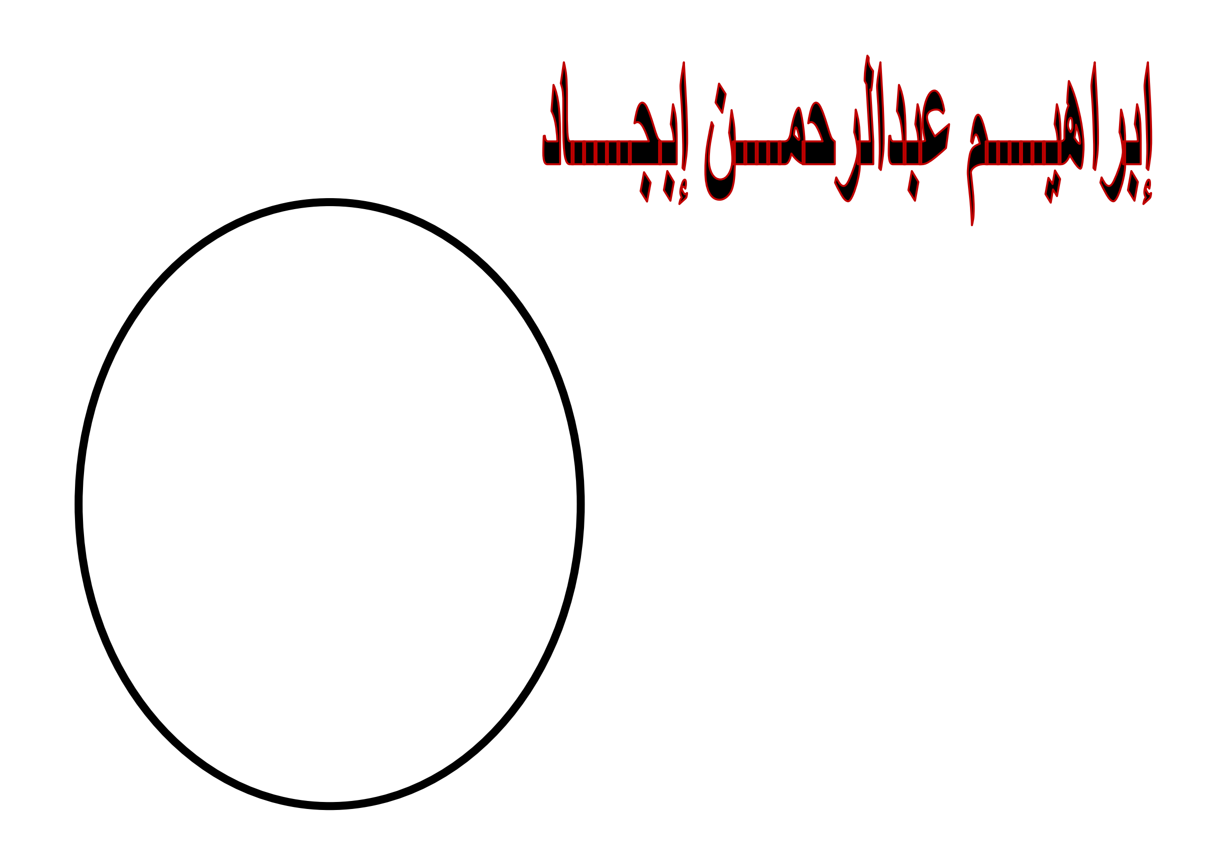
من اسرة تركية، لا يمكن أن يتخيل أن يرى ابنته تحت سقف واحد مع رجل من القذاذفة، الذين عرفهم في سبها يعملون في وظائف متواضعة، وجلهم بوليس عاديين تحت أمرته، يدينون جميعهم بالولاء والتبعية لعائلة سيف النصر التي تحكم ولاية فزّان.

لم ينس الملازم معمر القذافي تلك الإهانة، وفي الشهور الأولى بعد توليه الحكم في البلاد وترفيعه إلى رتبة عقيد، توجه إلى عائلة الزعيم نوري خالد طالباً يد فتحية، وبالطبع كان الجواب بالموافقة. إختاره معمر ليكون أمينا لمؤتمر الشعب العام، وبقي في هذا المنصب حتى سنة 2008 اي على مدى 16 سنة، تساءل الكثيرون عن السر الذي يختزنه هذا الشخص ليبقى في هذا الموقع العالي كل هذه السنوات، وما هو المؤهل النادر الذي يحمله على كاهله الذي يبرر أن يحتكر هذا المركز قرابة العقدين من الزمن. كنت أقول دائما أن مؤهله هو "تفاهته". ففي هذا الموقع، لم يجلس شخص له وزن سياسي أو ثقافي، أو له اي قدرة على المبادرة. كانت مهنته الأساسية هي إلقاء كلمة الإفتتاح في دورات إنعقاد مؤتمر الشعب العام، يدبج فيها المديح، ويصوغ عبارات التمجيد لابن عمه. وفي وسط الجلسات يوجه دعوة بأسم المؤتمرين لتشريفهم بالحضور إلى القاعة للإستنارة بتوجيهاته وترشيداته القيمة. وأن يستمع إلى توبيخ المنظر الفيلسوف أحمد إبراهيم منصور القذافي، ويقسم بالطلاق، ويأخذ الدولارات والسيارات والبيوت.

لم يكن الشيخ الزناتي، صناعة من إنتاج معمر القذافي، لقد وجده جاهزاً، وأخذه تسليم مفتاح. كلما فعله العقيد، أنه وضعه في المكان المناسب، وقد فهم الشيخ إستحقاقات المكان، فصار هو المكان.

إستمرت القطيعة بيننا لأكثر من سنة، وبعد سقوط نظام ابن عمه، إتصل بي عن طريق أحد معارفي، طالباً تدخلي، كي أوصي به الثوار خيراً، لأنه بلغ من الكبر

عتيا، ولم تبق به السنوات من شروط الصحة، ما يجعله قادراً على تحمل ظروف المعتقل، ضحكت وقلت: وتلك الأيام.


إبراهيم عبدالرحمن إبجاد

إبراهيم عبد الرحمن بجاد

هذا الشخص "إبراهيم بجاد" هو ممن يمكن أن نطلق عليهم، بؤرة المشهد، من الذين دخلوا حظيرة معمر القذافي مبكراً، وصار من رموز "مزرعة الحيوانات" التي صورها – جورج أوريل – منذ البداية، إختار له المسافة، والإرتفاع، وصنع له "ألطَوَل"، أي الحبل الذي يحمله في ساقه، وتنياه في أيدي قائده.

يقول إبراهيم في إحدى الحلقات التي كانت تذاع في كل سنة ليلة أول سبتمبر، يقول أنه عندما كان زميلاً لمعمر القذافي بالمرحلة الإعدادية بمدرسة سبها في خمسينات القرن الماضي، كان يلتقي به، ويلقنه الأفكار على الطريقة "الأرستقراطية"، يقصد "السقراطية"، نسبة إلى الفيلسوف اليوناني سقراط، اي يطرح عليه بعض الأسئلة، ويساعده على الوصول إلى الإجابات. أكثر من ذلك، كما يقول إبراهيم، أنه كان يعتقد في وجود "الغولة"، ولا يمشي في الظلام، وحاول معمر أن يعالجه من هذه الحالة النفسية، بأن يحدد له موعداً بالليل، ويتنكر معمر في ملابس لا يتوقعها إبراهيم، فيتملكه الخوف، وفي الختام، يزيح معمر الغطاء عن وجهه وبعد عدة – جلسات – شفي إبراهيم كما يقول من تلك العقدة، ولم يعد يخاف من وهم "الغولة".

ساهم معمر في تشكيل إبراهيم مبكراً، وطوعه ليكون إنعكاساً له، وصدى لفكره وصوته، تماهى مبكراً في ذلك الرجل الذي سار وراءه بلا تفكير أو تردد، وعندما يكون القذافي يخطب في مظاهرات الطلاب بالمدرسة تحت اشعة الشمس وعند الظهيرة، كانت مهمة إبراهيم التي يتطوع لها بحماس، هي حمل المظلة، حتى لا تؤثر حرارة الشمس المحرقة على رأس القائد، وتفقده قدراته الخطابية.

عندما فاتحه معمر في تشكيل التنظيم المدني، الذي يهدف إلى إسقاط النظام الملكي، وهما طلبة بالمرحلة الإعدادية، لم يناقش إبراهيم الأمر، وإنما إعتبر ذلك أمراً من قائده، وليس له إلا السمع والطاعة والمبايعة.

بعد أن طُرد معمر القذافي سنة 1961 من مدرسة سبها الثانوية، إثر المظاهرة التي نظمها وقادها رفضا لتفكك الجمهورية العربية المتحدة وإنفصال سوريا، إنتقل إلى مدرسة مصراتة الثانوية، ومنها التحق بالكلية العسكرية ببنغازي، وعندما أكمل إبراهيم المرحلة الثانوية، إنتقل إلى بنغازي حيث درس بكلية الآداب. هناك إستأنف الإثنان العلاقة، وأعاد معمرشحن تلميذه، وأمره بمواصلة ضم المزيد من العناصر إلى التنظيم المدني، في حين أنطلق معمر يجند أكبر عدد من طلبة الكلية إلى نواة تنظيمه العسكري. وبعد أن تخرج معمر واصبح ملازماً، مزج النهار بالليل، لتوسيع الخلايا العسكرية لما أسماه بتنظيم – الضباط الوحدويين الأحرار–. والتحق إبراهيم بالعمل في دوائر الحكومة الملكية، وبالتحديد بوزارة الإعلام. ولم ينقطع التواصل بينهما، كان معمر يخبره بإستمرار عن وضع التنظيم، وللإستعداد لساعة الصفر لإسقاط النظام.

في صباح يوم الأثنين أول سبتمبر 1969، استولى معمر القذافي ورفاقه من تنظيم الضباط الأحرار، على السلطة. وبالتبعية، اصبح إبراهيم بجاد من رجال النظام الجدد فهو من المؤسسين للخلايا الأولى لتلك الحركة بقيادة معمر في سبها، عندما كان هؤلاء لا يتجاوزن اصابع اليد الواحدة وهم:

1. معمـــــر القذافـــــي.
2. محمد بلقاسم الزوي.
3. عبد الســـلام جلــود.
4. الهـــــادي فضـــل.

5. إبراهيـــــــم بجـــــــــاد.

6. سالم الطاهر الحضيري.

وكان معمر القذافي، قد فاتح محمد خليل من مصراته في فكرة التنظيم ووافق على الإنظمام له، قبل هؤلاء جميعاً.

يقول محمد بلقاسم الزوي، أن إبراهيم بجاد، لم يناقش معمر القذافي ابداً، أو يعترض على أي فكرة من الأفكار التي وضعها، بل كان يغضب، إذا قام أحد أعضاء الخلية بالإعتراض أو حتى مجرد النقاش.

قاد معمر القذافي حركة الجيش ليلة أول سبتمبر من بنغازي، ولم يأت إلى طرابلس إلا بعد أيام من نجاح الثورة، عندما وصل إلى طرابلس كان في إستقباله عدد من أعضاء التنظيم العسكريين الذين تحركوا بطرابلس للإستيلاء على مفاصل الدولة. أتخذ معمر من مقر وكالة الأنباء الليبية الملاصق للإذاعة مكتباً له، وعلى الفور، ذهب إليه كل من محمد الزوي والهادي فضل، وإبراهيم بجاد، وبقوا معه بمكتبه بوكالة الأنباء من الصباح إلى المساء، وشهدوا عملية تشكيل مجلس قيادة الثورة من 11 عضواً، برئاسة القذافي طبعا، قال لهم أن المجلس مكون من الضباط الأساسيين في اللجنة المركزية لحركة "الضباط" الوحدويين الأحرار، وبما أن محمد، والهادي، وإبراهيم، مدنيون، لا يمكن ضمهم إلى عضوية المجلس، ولكن يمكنهم أن يعتبروا أنفسهم أعضاء بالمجلس من الناحية العملية ولهم نفس الصلاحيات والإمتيازات. بعد ذلك كلفهم مع أعضاء التنظيم المدني، بالتحرك وسط الجماهير لإقامة ما عرف بالتنظيم الشعبي الذي أسس فيما بعد "الإتحاد الإشتراكي العربي". إقتداءاً، بذلك التنظيم السياسي الذي أقامة جمال عبد الناصر بمصر.

تفرد ابراهيم بجاد، بالسمع والطاعة المطلقة لمعمر القذافي، ولم ينس البيعة التي أعنلها له مذ كانا طالبين بسبها. وبما أن معمر القذافي كان مسكوناً بروح الزعيم

القائد، فقد كانت الدعاية والإعلام بالنسبة له الجسر الأساس، وهكذا إختار إبراهيم الذي كان يعمل أساساً بوزارة الإعلام، إختاره لتولي إدارة الإستعلامات بتلك الوزارة، وأنطلق يطبع المنشورات، ويتواصل مع الصحفيين الأجانب بالذات العرب لبيع وشرح وتصدير شخصية معمر القذافي قائد الأمة العربية، خاصة و أن جمال عبد الناصر كان صرح في خطابه بليبيا، أن معمر القذافي هو الأمين على القومية العربية، والوحدة العربية. في تلك الأيام، لم أرَ إبراهيم بجاد يتحرك بخطوات عادية في مشيته مثل بقية الناس، بل كان يهرول وأحياناً يركض، لأن الزمن لا يرحم، والقضية لا تنتظر، تراه يحمل أوراقا وملفات بيمينه وشماله، وينتقل من فندق إلى آخر، يتحلق من حوله الصحفيون، ويشرح لهم أهداف الثورة، ويحلل شخصية العقيد مسترجعاً معاركه النضالية الطلابية، وقدراته التنظيمية، وعقيدته القومية العربية الوحدوية.

عندما بدأ معمر القذافي في طبع – الكتاب الأخضر – أوكل الإشراف والمتابعة، في نشره إلى ابراهيم، الذي كان يسهر بالمطابع حتى الصباح، ويراجع كل حرف منه، ويعرض نتيجة ما يقوم به على العقيد. نجح ابراهيم في المهمة أيما نجاح، ولهذا قرر العقيد أن يأخذ إبراهيم إلى جانبه في القيادة بعد إعلان سلطة الشعب سنة 1977، ففي رأي العقيد، أن الشخص الذي أشرف على إخراج الكتاب الأخضر إلى الوجود، هو القادر على تسويقه دوليا، ومتابعة تنفيذ مقولاته في ليبيا، ذلك كان هو المؤهل الذي استحق به أن يكون هو أول رئيس لمركز دراسات الكتاب الأخضر الذي اشرف على ترجمه الكتاب إلى كل لغات العالم، وحشد المفكرين والمنظرين والصحفيين للمشاركة في الندوات التي أقيمت في ليبيا وخارجها للدعوة للكتاب والدعاية له.

عمل بجاد لسنوات مسئولاً عن الإعلام بالقيادة، وتولى مهمة إيصال توجيهات القذافي إلى وسائل الإعلام الليبية، كان يرافقه في كثير من تحركاته، داخل ليبيا، ورحلاته إلى الخارج، وفي كل تلك المواقع والمراكز والمهام، لم يتغير ذلك التلميذ

الذي أعطى البيعة لقائده، كان يقف أمامه مثل تلميذ نجيب أمام مدرسه، أو طفل مؤدب في حضرة أبيه، وفي كثير من الحالات كان الأستاذ يقرّع تلميذه أمام الملأ. في سنة 1982، أخترتُ أمينا للإعلام والثقافة تحت مسمى "أمين اللجنة الإدارية للإعلام الثوري"، ضمت تلك اللجنة عدداً من الأعضاء من بينهم بعض الإعلاميين العرب الذي إعتبرهم القذافي من الثوريين المؤمنين بالوحدة العربية. كان إبراهيم البشاري، وإبراهيم بجاد، وإبراهيم صكح من بين أعضاء تلك اللجنة، في حين كلف إبراهيم العريبي بفرع الإعلام ببنغازي. كان معمر القذافي يسميهم – الإبراهيمات – وقد نشب خلاف حاد بيني وبين إبراهيم البشاري، ففي أحد إجتماعاتنا مع القذافي قال البشاري فجأة، أن الصادق النيهوم إنضم إلى المعارضة الليبية في الخارج، إنفعلت وقلت بغضب: "يا إبراهيم، أنت تكذب". غضب القذافي منّا، وقال كيف تجرأون على العراك أمامي وطردنا جميعاً. بعد خروجنا رفضت أن أركب بنفس السيارة مع البشاري وبجاد وصكح. عتب عليّ البشاري وقد كان رحمه الله صديقاً لي، قلت له يا إبراهيم، لا أدري من أين أتيت بهذه المعلومات عن الصادق النيهوم، و لكنني واثق إنها كاذبة، وكيدية، ألا تعلم ماذا يمكن أن يفعل العقيد بهذا الرجل، قد يأمر بقتله، إتصلت فيما بعد بالصادق وكان في سويسرا، وطلبت منه القدوم فوراً إلى طرابلس، وفعلاً حضر بعد يومين وقابل القذافي، الذي لم يتحدث معه بما ذكره عنه البشاري، ولكن الصادق هو الذي بادر بالحديث وقال له: كيف أنضم إلى المعارضة، وإني دائماً عندما اكون في ليبيا أجلس معك، وأحدثك بصراحة، وأنتقد الكثير من أقوالك وأفعالك، وأنا أعارضك عندما أجلس معك، ونأكل سويا من نفس الطبق".

إختلفت مع معمر عندما منع إذاعة أي إنتاج مصري، حتى الآذان، وبقيت معه في إحدى ليالي رمضان من الفطور إلى السحور، نناقش موضوع الإعلام في ليبيا، قال لي القذافي في الختام،" أنت لا تصلح لقيادة الإعلام الليبي، إلا إذا غيرت إسمك إلى إبراهيم شلقم، وبعدها جلست ببيتي فقد فهمت مايريد.

إرتبط إبراهيم بجاد وإبراهيم البشاري بعلاقة وطيدة جداً، سافرا إلى الخارج معاً وأشتركا في كثير من الأعمال والمصالح، بعضها بمباركة من العقيد القذافي، لقد عملا سويا من أجل إعداد بحوث ودراسات تثبت إنتساب القذافي إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ورتبا لكتابة أعمال عن القذافي، وترجمتها.

لم يقتصر عمل إبراهيم بجاد على العمل الإعلامي والثقافي، تجاوزها إلى مساحات سياسية و أمنية، كان من أكثر الناس إطلاعا بما يجري في الدائرة الأولى حول القذافي، وبدأ يرى بأم عينيه التوجهات الجديدة لقائده، الذي اصبح يشجع الإنحراف المالي والأخلاقي. قال لي أنه أبلغ العقيد مرة أن المهندس سعيد راشد الذي يتولى متابعة إقامة مباني جديدة داخل باب العزيزية يتقاضى عمولات من الشركات المنفذة، أجاب القذافي: أن هذا جيد، دعهم يفسدون. وبدأ يرى النساء يدخلن ويخرجن، وتعطى لهن الأموال والإمتيازات، بدأ يواجه الصدمة في ذلك الرجل الذي بايعه في سبها عندما كان تلميذا بالمرحلة الإعدادية، صدق كل ما قاله، ورأي فيه صورة وصوت الرسول الذي سيغير ليس ليبيا فقط، ولكن الوطن العربي، وقد تفيض معجزاته لتنقذ الدنيا كلها.

تراكمت الخطايا على رأس – القائد – كما يراها التلميذ التابع المؤمن المطيع، ورأى مثله الأعلى يسبح في بحر الأخطاء ثم قفز في محيط الخطايا، لقد تفجرت كبسولة البراءة التي حملها ذلك الفتى القادم من بلدة براك عاصمة منطقة الشاطىء بجنوب ليبيا، في الخمسينات، كان يجلس بالمكتبة الصغيرة التي كان يملكها والده الحاج عبد الرحمن، حيث قرأ الكثير من العناوين التي ملأها قسطنطين زريق، وميشيل عفلق، والريماوي، ملؤها بآيات العروبة، وهللوا فيها للقومية والوحدة، وشخص له ذلك الشاب الذي قال له أنه سيحول تلك الأفكار والأحلام إلى بناء ملموس فوق الأرض، رأي فيه إبراهيم رجل القدر، الذي سيزيل الحدود بين العرب، ويؤسس

النهضة ويبني الأمجاد. ها هو الآن يرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، ماذا حلّ بليبيا، واين يجلس المنقذ، ومن يحيط به من النساء والغلمان.

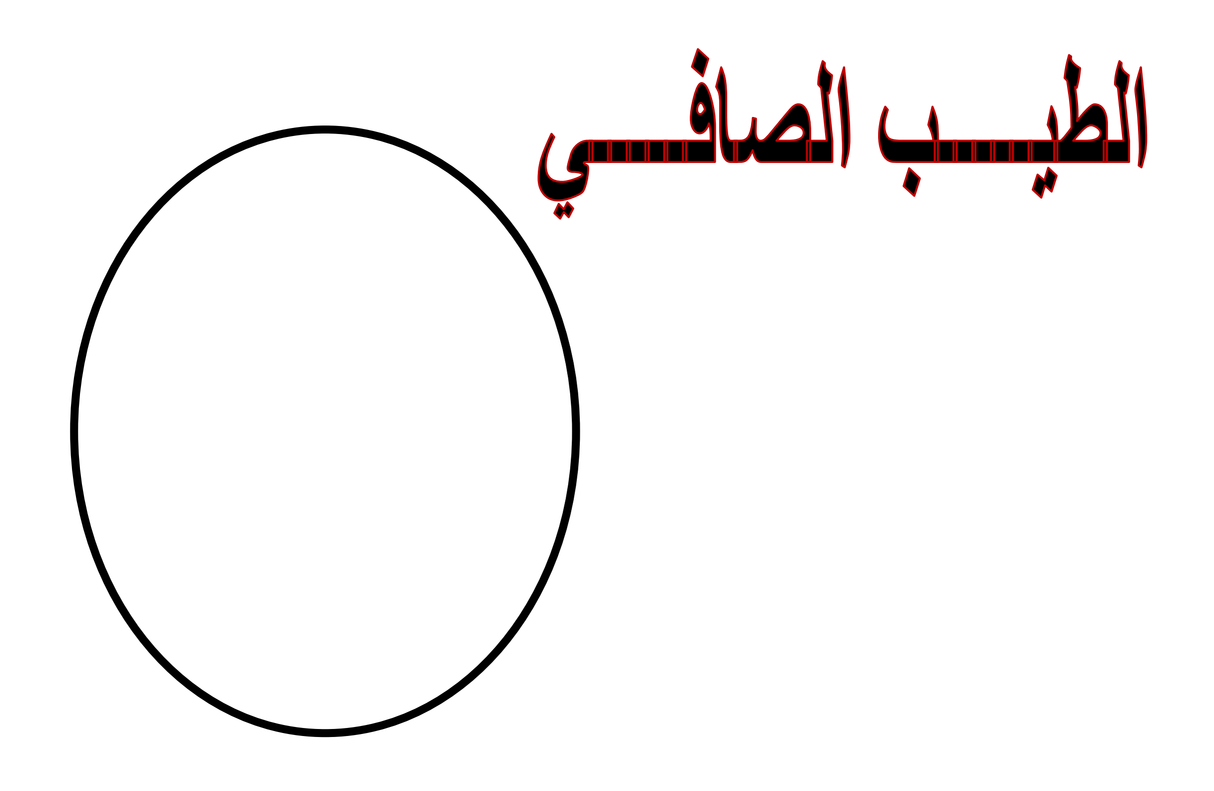
لقد تهاوى كل شيء في داخله.

كلما التقيه، لا يتحدث عن شيء، إلاّ عن المرارة، والخديعة الرهيبة، ودنيا العبث، هكذا أصبح القديس شيطاناً، يقدم الزفرات على الكلمات.

أحس معمر القذافي بأن الرفيق لم يعد هو، وأن الضرورة تقتضي إخراجه من باب العزيزية. ورفعه ليكون أمين شؤون المؤتمرات بأمانة مؤتمر الشعب العام، وليؤسس ملتقى الرفاق حيث يتجمع كل من عرف معمر القذافي قبل أول سبتمبر، الذي تحول إلى مجرى للمزايا الإستثنائية، واصبح لهذا الجسم شركات ومصارف.

جاء المال، وإتسعت اليد، ولكن الصدر كان يزداد ضيقا كل يوم، لم تبق بفمه إلا كلمات رثاء يقرأها على أطلال هاوية.

كان إبراهيم صناعة كاملة لمعمر القذافي، شهد إندفاعات البداية، ورأى إنحراف شاخص الحلم، ولا أدري إذا درف الدمع على حريق النهاية.


الطيـــب الصافـــي

الطيب الصافي

هذا الشخص، الذي يتكون أسمه من صفتين، الطيب، والصافي، كم كان نصيبه من هذين الأسمين الصفتين؟ قديماً قالت العرب، كل له من أسمه نصيب. يتنذر الليبيون بالقول، إن ما يحمله من إسمه وإسم والده هو مجرد – تطيب فأل – فنحن نُغيّر الأشياء والأسماء التي تدعو إلى التشاؤم والتطير بنقضها، فنسمي الفحم بياضا، والأعمى بصيراً، والأعور كريم العين، والنار، العافية. وإذا طبقنا هذه القاعدة، التي أخضع الليبيون "معمر" لها، إذا طبقناها على – الطيب – الصافي، ماذا سيكون الأسم الحقيقي المناقض لتطييب الفأل؟

ربما يكون الوحيد الذي وجد في الشخص – الطيب، والحلاوة، والصفاء هو معمر القذافي، فلعقه سياسيا وأمنيا وإجتماعياً وعائليا حتى عمق الأعماق.

لم يدرِ والده – الصافي – الذي هرب من طبرق بسبب ثأر قبلي، إلى بنغازي، أن ولده سيهرب أيضاً، ليس بسبب حادثه قتل علق في رقبته ثأراً لا يمحوه إلاّ الدم، وليس إلى جهة داخل الوطن، الهروب الثاني أكثر تعقيداً، ودماً، اصاب البلاد والعباد، طال الرقاب والشرف وبيضة الوطن، سيهرب الطيب إلى خارج ليبيا التي لا تطالبه بثأر رقبة إنسان واحد، بل بثأر لرقبة الوطن.

ولد الطيب الصافي بطبرق بشرق ليبيا، سنة 1954، ثم أنتقل إلى بنغازي في رحلة الهروب، درس بكلية الإقتصاد بجامعتها، وتخرج سنة 1979، أثناء دراسته بالجامعة، إنضم إلى كتيبة العنف بالجامعة التي أسسها أحمد إبراهيم القذافي، ومصطفى الزايدي، ويونس معافة، التي شنت معركة ما عرف بـ 7 أبريل، وقامت بعملية تطهير علمي شامل، ضد الأساتذة والطلاب الذين رفضوا الإجراءات التي

قررها معمر القذافي. شارك في عمليات التعذيب، والإهانات، والطرد للطلاب والأساتذة. أهلته تلك الإنجازات الثورية إلى أن يكون من رجال غرفة العمليات بمكتب الإتصال باللجان الثورية. وأثبت أنه أهل لما قدم له من مركز متقدم.

قام بدور بارز في التحقيقات التي قادتها اللجان الثورية، كان يرأس المعتقل الذي أقيم في بنغازي لرجال الأعمال والمقاولين والموظفين الذين وجهت لهم تهم البرجوازية، والإستغلال والفساد. تحول ذلك المعتقل إلى مسلخ لتشويه الرجال جراء التعذيب. وكان من أبرز قضاة المحاكم الثورية التي لا يوجد بها إلا القاضي وحده. أثبت أنه يتقن ما يكلف به، مما زاد من عناية معمر القذافي به، وفتح أمامه كل أبواب غرف بيته ليلاً ونهاراً، وتقدم مجموعة "الخيمة"، واصبح مثل الملابس الداخلية، لا تخفى عنه عورة. تعالت شحنته الثورية، إلى درجة أهلته للقيام بتنفيذ أي أمر من قائده، وهكذا، كان المؤهل دون منافس لقيادة عملية الهدم الواسعة التي تعرضت لها مدينة بنغازي. وكلف بمسئولية الأمن الداخلي – المباحث – بمدينة بنغازي، واثبت أنه الرجل المناسب في المكان المناسب، في الوقت المناسب. والأكثر إخلاصا وقدرة على تنفيذ تعليمات القذافي وهو مغمض العينين.

وعندما تقرر تحويل السفارات إلى مكاتب شعبية، كلف بقيادة عمليات الزحف على عدد من السفارات وطرد السفراء وتحويلها إلى مكاتب شعبية في عديد من دول العالم. ولم تتوقف سلسلة مهامة الثورية عن حد، فقد كان ثالث ثلاثة أسندت إليهم مهمة التخطيط للإعمال الإرهابية في أوروبا مع مصطفى الزايدي وعمر السوداني. وفي الداخل كان له في كل محفل موطئا ومحل، فتولى إدارة الشركة العامة للأسواق، وبعدها اللجنة الشعبية العامة ببنغازي، والمؤسسة الوطنية للسلع التموينية، وأمانة شئون المؤتمرات الشعبية بمؤتمر الشعب العام، ثم وزيراً للإقتصاد والإستثمار والتجارة من عام 2006 إلى عام 2007. وبعد إنطلاق ثورة 17 فبراير، رؤي أن تتولى عناصر من اللجان الثورية، بعض المواقع الهامة، خاصة تلك التي تصنع فيها

القرارات وتتخذ في الإجراءات لتوفير الإحتياجات العسكرية والمالية لكتائب القذافي، فعين نائباً للبغدادي المحمودي في اللجنة الشعبية العامة. لقد حلم الطيب الصافي لسنوات طويلة بمنصب رئيس الوزراء، ولكن عندما إقترب منه إنهار المعبد، وفرّ مرتادوه، وهربوا كل في إتجاه، البغدادي، إلى الغرب إلى تونس، والطيب إلى مصر في الشرق.

الطيب الصافي، نموذج حقيقي لأولئك الذين حبطت أعمالهم، فلم يبق في يديه أموالاً، طاف بين المؤسسات التي يسبح فيها المال، وإمتلك اقلام وأوراق القرار، أخذ ما أخذ، دون سائل أو رقيب، لكنه عندما هرب لم يحمل معه إلا دماً يقطر من يديه، ذلك الذي سال خلال سنوات العنف الأولى في بنغازي، والشلالات التي تدفقت من أجساد الشباب الليبي في خضم ثورة 17 فبراير. لقد حمل والده قسيمة الدم، أما هو فيحمل في رقبته صفحة أخرى بل صفحات، إنها قسيمة الإعتداء على شرف الليبيين و أعراضهم. لقد إستمع الليبيون للمكالمة "الجريئة"، التي تمت بين الطيب الصافي، والبغدادي المحمودي، التي يبشر فيها الثاني الأول، بأن صفوفاً من الرجال يقفون على أبواب البيوت الليبية لإنتهاك أعراضهم بالإعتداء على زوجاتهم وبناتهم، ولا يخفي الطيب سعادته الإستثنائية بذلك، أذيعت أيضا مكالماته الهاتفية، مع معمر القذافي، وعبدالله السنوسي، وسيف الإسلام القذافي، ومحمد الحجازي وغيرهم.

إستمعت إلى الكثير من تسجيلات لمكالمات بعض المسئولين الليبيين ولكنني توقفت طويلاً أمام تلك المكاملة التي يقهقه فيها البغدادي المحمودي ويبتهج الطيب الصافي بالإعتداء على أعراض الليبيات. قرأت صفحات وصفحات، وطافت أمامي صور لا حصر لها عن أوضاع وأوضاع وأوضاع. والسؤال، لماذا يتلذذ البعض بإقتراف جرائم ضد النساء؟ أكثر من تلذذهم بقتل الأبرياء؟ يقول المؤرخون وعلماء النفس، أن هناك تداخل كبير بين الفعلين – إنتهاك الأعراض – والقتل. التي ترتد إلى أحداث عاشها هؤلاء الفعلة، فهتلر رأى أمه عارية على الأرض أمام سيد البيت

التي كانت تعمل خادمة فيه، وصدام حسين رأي بأم عينه أمه – صبحة – وهي في حضن مخدومها على فراش نومه، ولهذا كانت التعليمات الصادرة من معمر القذافي، وأعوانه تقول، "أهجموا على ضحاياكم من البنات القاصرات وأخروجوهن وهن ينزفن عاريات إلى الشوارع".

كان القذافي يمتلك فراسة إستثنائية، في إكتشاف أولئك الذين يقتادون إلى سفح دماء الأبرياء والبريئات، لأن تفسير الشرف في قواميسهم لا وجود له.

سعيد محمد راشد خيشة

سعيد محمد راشد خيشة

قادم من اللاوجود، أو كما يقال باللغة الأنجليزية No Man’s Land، من الصحراء الليبية التي لا صحراء بها، بالصحراء صحراوات، و كثيرا ما تكون تلك الكلمة مضلله إلى حد بعيد. ولد سعيد راشد بمنطقة "الشويرف" التي تقع بين فزّان وغريان، رأت عيناه الضوء، ولم ير حوله سوى دوائر صغيرة من بقايا الأشياء، جمعت على نحو عشوائي، ليقام منها كوخ يسرق فيه مع أبيه وأمه وأخوته، بعض الوقت للراحة، بعد أن يعودوا من ملاحقة قطيع صغير من الماعز والضأن.

صحراء الشويرف، هي جزء مما يسميه الليبيون، الحمادة الحمراء، أي التراب اليابس الذي قلما يرى فيه أي شيء أخضر من بعيد، كل ما فيه شجيرات صغيرة بائسة، تتقوت عليها بعض الحيوانات، قلة من الإبل، بعض الضأن والماعز، هذه الرقعة التي تتانثر فيها بعض من الخيام الرثة، لم تأخذ من الصحراء سوى العزلة والبؤس والفقر والتجهم والقسوة. فهي لا تنتمي إلى جبل غريان الغني بالزيتون، والكروم، وبه قسمات من الموروثات الحضارية المتنوعة، تتنوع فيه مناسبات الفرح، الشعر والغناء والرقص، أنتج خصوصيته في صناعة "الجرد" الليبي الفاخر، وكذلك الأكلات الليبية المتوارثة من الكسكسي، والبازين، والزميته، وغيرها. جبل غريان حيث اللون الأخضر بساط يمتد فوق الأرض وأمام الأعين. ومن الناحية الأخرى . تمتد واحات فزان، بنخيلها وتمورها المتنوعة، وإنتاجها الوافر من القمح والشعير وكل أنواع الخضروات، واحات يكد فيها الإنسان، ليرغم الطبيعة على الخضوع له، يخلق معها لغة خاصة، لغة الفرح، ينسج من النخيل بيوتاً، ومن ليفها حبالاً، ومن جذوعها سقفاً للبيوت، وأعمدة فوق الآبار لإنتزاع المياه العذبة من أعماق الأرض، في تلك الواحات، للزمان حياة تلون المواسم، فللحصاد أغانيه، ولموسم جني تمر النخيل – القطاع – أهازيجه، ولليالي الزواج أغانيها ورقصاتها، والأعياد معزوفة الوقت.

الدين ليس مجرد طقس، فرائض يؤديها الناس من أجل ضمان الجنة بعد مغادرة ظاهر الأرض إلى باطنها، في تلك الواحات، الدين منظومة فرح روحية، ففي ذكرى المولد النبوي، يقيم الناس أياماً وليالي لمدح الرسول، يتغنون بحبه وفي الزوايا الكثيرة المتنوعة يلتقي الرجال، شيباً وشباباً، في ليالي الإثنين و الخميس، يرددون القصائد التي تذكر ما أبدعه هذا الولي الصالح أو ذاك، سيدي عبد السلام الأسمر "السلامية" وسيدي بن عيسى "العيساوية". سيدي عبد القادر الجيلاني، "القادرية"، وغيرها من الطرق الصوفية، هكذا حوّل أهل الواحات في فزان الصحراء إلى واحة إنتاج وفرح.

لكن الشويرف، ذلك التكوين المقذوف من اللاوجود، لم يكن جزء من غريان، ولا من واحات فزان. يمكن أن نقول عنه لم يكتشف صيغة للتفاهم مع الأرض التي يعيش فوقها، ظل أهله يهيمون حولهم بحثا عن أي شبح أخضر تقتات عليه أنعامهم، مع ندرة للمياه تكاد تصل إلى حالة الجفاف الدائم.

في تلك البقعة، خلق سعيد راشد خيشة، في كوخ، من بقايا الأشياء، كان الماء حلماً، وفتات الأكل من الكماليات التي لا تدخل الكوخ إلا في حالات محدودة، قال سعيد: "لم يعرف والدي شيئاً يسمى الصابون إلا منذ سنوات قليلة". وكان يفتخر بأن من يسرف في إستعمال الماء في الشويرف يعتبر من الناعمين وليس من الرجال المسلحين بالخشونة.

في تلك البيئة القاسية المعادية، ولد سعيد وكبر، ينتمى إلى عائلة صغيرة، تعيش وسط قبيلة كبيرة هي قبيلة المقارحة التي لها إمتداد بمنطقة الشاطئ بفزّان، عائلته ليست من مكونات تلك القبيلة، ولكنها أنضوت تحت مظلتها طائعة، لأن قانون الصحراء يتصف بالإجبار، وتنعدم فيه فرص الإختيار، وعلى من يكون في مثل وضعه، أن يظهر ولاءا لظل القبيلة التي تحتويه، أكثر من أولئك الذين ينحدرون من صلبها. ذاك هو المعمل الطبيعي الإجتماعي الذي أنتج سعيد راشد. بعد أن أنهى دراسته الثانوية بغريان توجه إلى طرابلس، إلتحق بكلية الهندسة. كانت سنوات

السبعينات من القرن الماضي، سنوات، المفصل في الجسم الليبي، سياسيا وإقتصاديا، بل وحتى نفسياً. بدأت نار الخلافات بين معمر القذافي وأعضاء مجلس قيادة الثورة، وتنظيم الضباط الأحرار، ترفع ألسنتها، وقاد معمر الإنقلاب الأول عليهم بإعلان الثورة الشعبية بعد خطاب زوارة. ثم قاد الإنقلاب الثاني على نفس المجموعة سنة 1975، تحت ذريعة ما أسماه بمحاولة المحيشي وجماعته. وبدأت معركة الأنفراد بالحكم بإعلان سلطة الشعب سنة 1977، وقبلها، قمع الرفض الطلابي عبر ما عرف بثورة الطلاب في 7 أبريل.

دون شك، فقد كان دخول طرابلس، بمياهها، وأضوائها، ومبانيها، وطرقها، وحدائقها، و"صابونها"، كانت طلقات من الإكتشاف المهول الذي صدم ذلك الشاب القادم من العدم، وكانت الجامعة والجموع الكبيرة من الطلاب الذين يرتدون ملابساً غير مألوفة بالنسبة له، والطالبات الجميلات، التي لم يكن يتصور أن يقف يوماً إلى جانب أي منهن، وروح التسامح، والألفة، وحالة "الجماعية" التي تربط هؤلاء جميعاً، خلقت – سعيد الثاني، أو الثالث. بدون شك حاول ان يجد صيغة من صيغ التآلف، أو حتى التفاهم مع هذا الوجود الغريب العجيب. لا أعتقد أنه أستطاع أن يحقق ذلك. بقيت حالة العداء لهذا الوجود الجديد تكبر في داخله، وكأن هاتفاً يصرخ من داخله ليلاً ونهاراً يقول له: يا سعيد لا تنسى، أنت لست من هنا، أنت تختلف عن هؤلاء جميعاً، لقد ولدوا في بيوت لها سقف وأبواب وماء واضواء و – صابون –، إن هؤلاء الذين تراهم يملأون مدينة طرابلس، وهؤلاء الطلبة والطالبات الذين يفترض أنك زميل لهم، وأنك مثلهم، هم في الحقيقة، ليسوا منك ولست منهم، يقول له الهاتف الذي لا يصمت بداخله إنهم أعداؤك.

إلتقى سعيد راشد في خضم ذاك التفاعل الكيميائي، السياسي والإجتماعي، التقى عبد الله السنوسي، الذي أصبح صهراً لمعمر القذافي، والذي تربطه مع سعيد وشيمة الحبل القبلي، حيث ينتميان إلى قبيلة المقارحة، أكتشف عبد الله مركبات سعيد، التي

لا تحتاج إلاّ لتوجيهها نحو الهدف. وأصبح سعيد مجرد عصا ومسدس في يد عبد الله السنوسي. مباشرة، بعد نجاح حركة أول سبتمبر 1969، بدأ معمر القذافي في وضع خارطة أمنية شاملة ودقيقة، وبدأ في تنفيذها منذ الأيام الأولى. قام بتجنيد أكبر عدد من أبناء قبيلة القذاذفة في صفوف الجيش، وأعطى نصيباً محدوداً ومحسوباً لحليفه الأقرب عبد السلام جلود الذي جند عدداً من أبناء قبيلة المقارحة. لكن الذي لم يكن لجلود فيه النصيب، هو ما أنفرد به معمر القذافي، بإختيار عناصر معينة من داخل الجيش بمن فيهم بعض عناصر تنظيم الضباط الأحرار، وضعهم – بعد إختبارهم – في مراكز أمنية حساسة وسط مفاصل الجيش، من هؤلاء، بلقاسم القانقا، عبد الله الحجازي، سيد قذاف الدم، عبد الله السنوسي، وغيرهم. شكل القذافي، هؤلاء الضباط من خلايا شبه سرية، وكان يعقد معهم إجتماعات دورية وضيقة، وكلف بعضهم بإستقطاب عناصر مدنية من مختلف القطاعات والمواقع، ونجح هؤلاء في تجنيد عدد غير قليل، وكان من بين هؤلاء سعيد راشد.

لعب معمر من البداية على أوتار عديدة، فكان يقول لأولئك القادمين من خارج المدينة: "أن أهل المدن يحتقرونكم، ويريدون إخضاعكم والسيطرة عليكم، إستعدوا لردعهم وقمعهم". ويقول في نفس الوقت لأهل المدن: "انتبهوا، أنتم أهل المدن الأكثر قدرة على قيادة الدولة، لا تخضعوا لمن يأتي من خارج المدن الذين لا خبرة لهم ولا قدرة على الإمساك بمقاليد الأمور".

عندما بدأ الحراك السياسي في الجامعتين الليبيتين بطرابلس وبنغازي، كلف القذافي عنصرين أثنين بمتابعة هذا الحراك وإتخاذ ما يلزم لردعة وقمعه ولو بالعنف والتصفية، وهما محمد المجذوب القذافي، لبنغازي، وعبد الله السنوسي المقرحي لطرابلس.

كان سعيد راشد من أشد العناصر عنفاً وتطرفاً، يتحدث عن الفروسية والشجاعة والصدام، ويقدم نفسه للمهام التي يتردد الأخرون في التصدي لها. ففي أحداث 7 أبريل في جامعة طرابلس كان هو الأكثر عنفاً وفتكاً بالطلاب الذين تقدموا صفوف الرفض والتمرد على الإجراءات التي إتخذها معمر القذافي ضد الطلاب. وعندما عرف بالمداهمات والمحاكم الثورية، تنافس مع أحمد إبراهيم القذافي على مرتبة التشدد، ولا يزال الكثير من الليبيين يتذكرون صولات سعيد راشد وجولاته على شاشات التلفزيون الليبي، وهو يوبخ ويشتم المتهمين بالفساد والبرجوازية من رجال الأعمال والموظفين، وكانت قولته لبعضهم وهو يصرخ: "هذه فلسفة، هذه فلسفة". وفي ما سمي بأحداث العمارة سنة 1984، التي حاول فيها مجموعة من شباب جبهة الإنقاذ المعارضة، الهجوم على القيادة، في تلك الأحداث، كان خليفة احنيش، وسعيد راشد، وعبد الله السنوسي، وحسن الكاسح، هم قادة غرفة العمليات، من الهجوم على العمارة إلى المحاكم الفورية، والتعذيب، والشنق، وملاحقة كل من أشتبه بعلاقته بتنظيم جبهة الإنقاذ.

بعد أن تخرج سعيد راشد من كلية الهندسة، تفرغ للجانب الأكثر عنفاً مع الجناح الأكثر تشدداً في حركة اللجان الثورية. وأصبح من المقربين جداً لمعمر القذافي، يقوم بحراسته، ومرافقته إلى الأماكن والمناسبات التي تحتاج إلى إستنفار أمني خاص. وعندما عقد معمر القذافي إجتماعاً ضيقاً مع صفوة الصفوة من الثوريين سنة 1980، وطلب منهم ملاحقة المعارضين في الخارج، وقتلهم في وضح النهار، نهض سعيد راشد وقال: "يا سيدي القائد، أنا خنجرك، وسيفك، ومسدسك، وبندقيتك، ولو أمرتني بإطلاق الرصاص، على أولادي، بل على نفسي، سأنفذ، قبل أن يرتد إليك طرفك". كان سعيد يكرر عبارات عبد الله السنوسي حرفياً، تلك العبارات التي أصبحت قسم الولاء الإنتحاري للقائد. بعد سعيد تقدم عز الدين الهنشيري، وهو مهندس أيضا وكرر نفس العبارات. وبالفعل، صدق الإثنان المهندسان ما عاهدا معمر عليه، فقام سعيد راشد فيما بعد بالسفر إلى إيطاليا وأطلق رصاص مسدسه

على عز الدين الحضيري وارداه قتيلاً. وقام عز الدين الهنشيري بقتل مواطن ليبي آخر. وقد صدر حكم في إيطاليا ضد سعيد راشد لقتله عز الدين الحضيري رجل الأعمال الليبي، واصبح المهندس سعيد كما قال مسدس معمر القذافي وسكينه. فعندما أعيد الرائد عمر المحيشي من المغرب، استدعى معمر القذافي خلية القتل وإجتمع بأعضائها بسرت، وكان على رأسهم، عبد الله السنوسي، ومحمد المجذوب، وسعيد راشد، وعز الدين الهنشيري، وسألهم ماذا نفعل بالخائن المحيشي، فقال سعيد راشد: "أنا أريده يا سيدي، أعطنيه، وأنا سأعطيه الجزاء الذي يستحق". إبتسم معمر ونهض من مكانه وغادر. تم تسليم عمر المحيشي بعد ذلك إلى المهندس سعيد، الذي دعا صفوة القتل إلى وجبة خاصة، وكان خروف المأدبة هو الرائد المحيشي. وضع سعيد عمامة سوداء على رأسه، وهو تقليد يتبعه رجال القبائل العربية عندما يذهبون إلى الحرب، كان عمر المحيشي مقيد اليدين والقدمين، طرحه سعيد أرضا بمساعدة بعض الجنود، ظل المحيشي صامتاً، زائغا، مرتجفاً، تقدم سعيد رافعا سكينه، وأمسك برأس ضحيته، وذبحه في ثوان مثلما يذبح جزار محترف ضحيته العاشرة أمام مسلخه. كان سعيد يتفاخر بهذا المشهد، تأكيداً لولائه المطلق والدائم للقائد، وإلتزامه بالعهد الذي قطعه له أمام خيرة فصيل القتل.

بعد الغارة الأمريكية على بيت معمر القذافي بطرابلس في إبريل سنة 1986، وقف المهندس سعيد راشد بالمقبرة، بعد دفن ضحايا تلك الغارة، والقى خطاباً نارياً، أعلن فيه أنه سينتقم من الأعداء، وسيقتل عشرات من الأمريكيين مقابل كل ضحية قضت في تلك الغارة، وقد صدق في ذلك، ولم يحنث بقسمه الذي أقسمه أمام – القائد. فخطط لتفجير مرقص لابيل ببرلين في المانيا حيث يسهر عدد من الجنود الأمريكيين، فقتل من قتل، وجرح من جرح، وقد عثر على تسجيل لمكالمة هاتفية بين سعيد راشد، وأحد عملاء المخابرات الليبية في المانيا. ولا أعتقد أنه كان بعيداً عن

هندسة عملية – لوكربي، رغم أنني لا أملك معلومات موثقة عن ذلك، ولكن إذا تأكد أن لعبد الباسط المقرحي أي ضلع في تلك العملية، فسيكون للمهندس سعيد راشد ترس ولولب بها.

كان عقد الثمانينات من القرن الماضي، عقد قمة الصدام بين معمر القذافي، وبين المعارضة الليبية، والأعداء الغربيين في أمريكا وأوروبا. إنتخل معمر من بين كتيبة الدم، خلية ضيقة وضعها على رأس هيئة أمن الجماهيرية وضمت بالتحديد:

إبراهيم البشاري – رئيس الهيئة

1. سعيـــــــد راشـــــــد
2. عز الدين الهنشيري
3. عبد السلام الزادمة
4. عبـد الله السنوسـي
5. عبـــــدالله منصـور

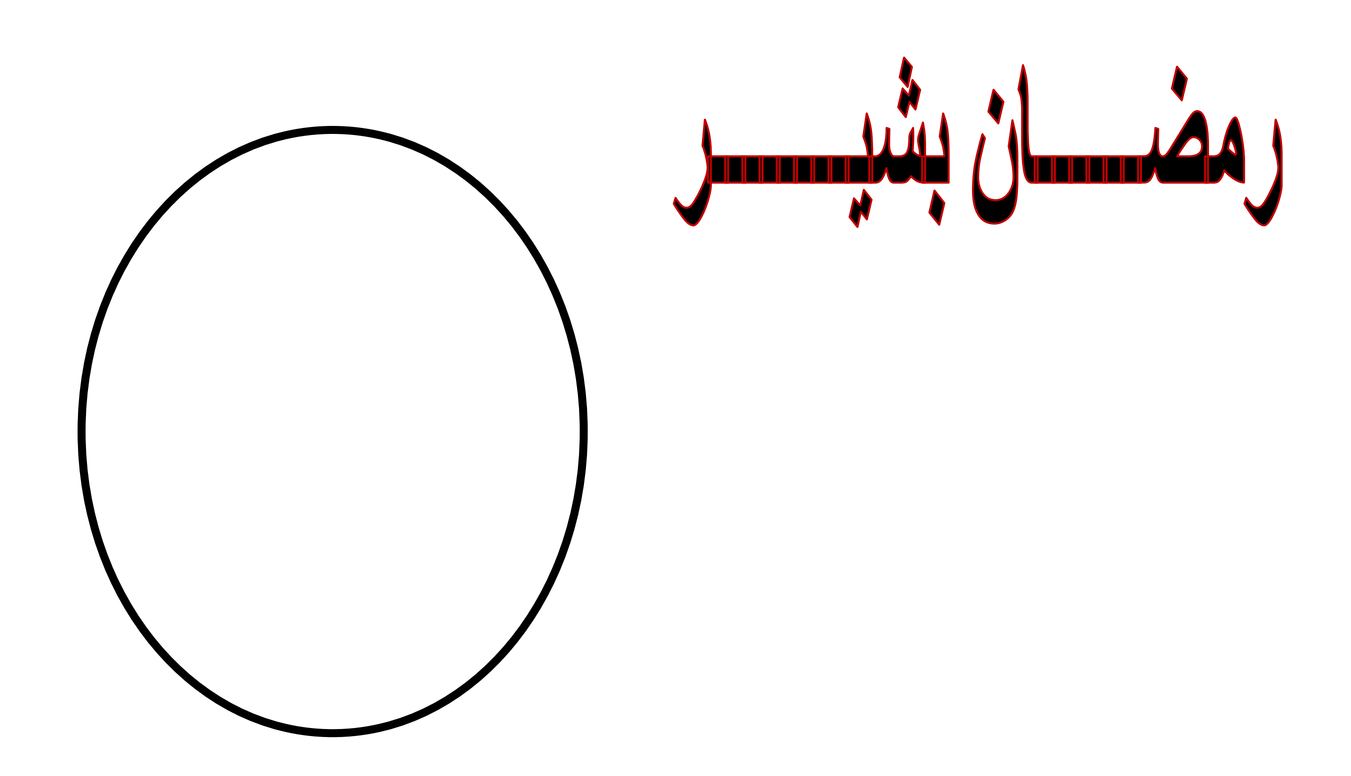
وضـع معمـر تحـت تصـرف هـؤلاء حسـاباً مفتوحـاً بكـل العمـلات، وأعطـاهم صـلاحيات مطلقـة، وأخضـع لهـم كـل مؤسسـات الدولـة، وكـان بإمكـانهم إعتقـال اي إنسـان أو قتلـه، إو القيـام بـأي عمليـة فـي الخـارج دون الرجـوع إليـه، إذا توافقـوا عليهـا جميعاً. وفي موقعه القيادي بهيئة أمن الجماهيرية، أستمر سعيد راشد في لعب دور هام بمكتب الإتصال باللجان الثورية الذي تقاسم مهام العنف في الداخل مع الهيئة،

فـي تلـك السـنوات، إمـتلأت السـجون، وكانـت تكفـي أي وشـاية أو شـبهة أن تضـع اي مواطن في السجن لسنوات دون أن يسأله أحد عن إسمه.

تلفع برداء الدين، وأظهر نفسه بوجه الحكيم، المعتد بتكوينه الصحراوي العنيد، وكان يحافظ على الطواف بين خيم المآتم، وإظهار الحرص على الوصل الإجتماعي، وكثير ما قدم نفسه كحمامة سلام بين الفرقاء الثوريين، وعندما وقع الخصام بين معمر القذافي والرائد عبد السلام وهو من نفس القبيلة – المقارحة – التي نسب سعيد راشد إليها مرغماً، ذهب إلى جلود وطلب منه أن يتصالح مع رفيقه معمر القذافي، وأسهب في الحديث وتحمس إلى حد رأى فيه جلود نوعاً من التطاول عليه عندما قال له: "أريد أن ازورك غداً بمكتبك". غضب جلود غضباً شديداً، وتناول عصا غليظة، وضرب سعيد ضرباً مبرحاً وكسرت ذراعه ونقل إلى المستشفى. أعتقد أن جلود إهتبل تلك المناسبة لينتقم من سعيد راشد، فقد كان جلود يكره الخماسي، الذي كان يقود هيئة أمن الجماهيرية، فقد قام أيضا بضرب عبد السلام الزادمة ضرباً مبرحاً بمكتبه، وأمام بعض الثوريين، عندما كان مجرد ذكر أسم الزادمة تهتز له الحجارة.

لقد ولد هذا – المهندس – في مأساة، من العدم، وأنتهى بمأساة، فبعد إندلاع ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، أصيب كيان النظام الليبي بصدمة مرعبة، أحس أركان العنف، وفصائل القتل، أن النهاية تلوح، وأن رصاص الثوار يصرخ بصوت القصاص، أسترجع سعيد راشد ذلك العهد الذي قطعه على نفسه لقائده، و إعتقد أن ساعة الفعل قد دقت وعليه أن يظهر المسدس وليس السكين فقط، فالمحفل يتكلم لغة الرصاص، إمتطى المهندس سيارته برفقه إبنه وإبن شقيقه، وتوجه إلى القيادة بباب العزيزية حيث يقيم معمر القذافي، يريد أن يعيد على مسامعه ذلك القسم، وعندما وصل إلى باب القيادة، هزّه الحماس، فبدأ بإطلاق النار إعلاناً عن وجوده في خضم المعركة، كان التوتر والرعب يملأ الجنود حول باب العزيزية، أطلقوا النار على سيارته، قتل هو وإبنه وإبن أخيه.

قُتِل بأيدي الذين قَتَل من أجلهم، أمام باب العزيزية ذلك السور الذي أشرف هو شخصياً على تشييده ليحمي به من أقسم له أن يكون مسدسه، كان تنفيذ حكم الإعدام مضاعفاً فقد طاله وإبنه وإبن أخيه، حدث ذلك في الأيام الأولى، لثورة الشباب الليبي. يدُ القدر كانت تقاتل مع الثوار، بل سبقتهم إلى هناك، إلى باب العزيزية، لتبشرهم بالخاتمة، قتل القتلة.


رمضـــان بشيـــر

رمضان بشير

أعترفُ، إنني أجد صعوبة كبيرة في قراءة بعض الأشخاص، لأنني أجهل منبتهم، وتفاصيل كثيرة عن نمو شخصياتهم، بالإضافة إلى الجانب المغالط في سلوكهم أمام الناس. كانت لقاءاتي به محدودة. تكاد تنحصر في تلك الأوقات التي أنتظر فيها مقابلة العقيد. ويكون هو قريب منه على رأس الجحفل الذي يتولى قيادته. كانت الجحافل الموزعة على كل مناطق ليبيا، تتكون من شباب المنطقة المكلف ذلك الجحفل بتأمينها، وفي نفس الوقت، تتناوب على مرافقة العقيد عندما يكون خارج طرابلس، أو حتى داخلها عندما تقتضي المناسبة التي يشهدها، حضور قوة معينة تتولى تأمينه. وأختار القذافي شخصياً العناصر التي تتولى قيادة تلك الجحافل، وجلهم من العناصر القبلية التي لها تأثير داخل منطقتها، ولهم دور في الأعمال الثورية خاصة تلك التي تتصف بالعنف. مظهره واسلوبه في الحديث، يوحي بالبراءه والهدوء، مجامل وقلما يذكر أحدا بسوء.

تولى إمرة جحفل "زليتن" وهو من أقوى الجحافل التي تدين بولاء مطلق لشخص القذافي، تمتع بإمتيازات مالية لا حدود لها حتى عُدَّ من أغنى العناصر الثورية، إرتبط بعلاقات وثيقة بمحمد المجذوب القذافي منسق مكتب الإتصال باللجان الثورية. وكان من طليعة الذين قادوا العنف ضد طلاب جامعة طرابلس، وهو من الفصيل الأول الذي كسر حاجز التحفظ، وأندفع منذ بداية ما عرف بثورة الطلاب في 7 أبريل 1976، يعتقل ويعذب ويقتل.

من أتباع خليفة إحنيش القذافي، آمر الكتائب الأمنية، الذي تخصص في تطبيق مبدأ فرق تسد، وجهه لإيقاع الفتنة بين أهالي مدينة زليتن، ونجح في أول إمتحان عندما ألب قبيلة – أولاد الشيخ – وقبيلة الفواتير، ضد بعضهما. أطلق عليه زملاؤه،

قائد المشانق، فعندما كانت تنصب للطلاب في سنوات 1983–1984–1985، كان هو أول من يتقدم بربط الحبال، وتجهيز المنصة، ورفع الضحية، ولف الحبل حول عنقه، ثم سحب الكرسي من تحت أقدامه، ويحرض بقية أعضاء فرقة القتل على التقدم ومجاراته. فيتسابق وراءه: سالم المشاي، وفرج المحبرش، وميلاد الفقهي، وغيرهم.

شارك في مداهمة مسجد قصر الشعب وتصفيه الشيخ البشتي. ولم يتردد في قتل عدد من ابناء منطقته في زليتن. نقل إلى بلدية أوباري للعمل بها ضمن مجموعة من الأمناء عندما شهدت منطقته خلافات، وتقرر نقل اللجنة الشعبية بأوباري إلى زليتن وترهونة، ونقل لجانها إلى أوباري. وهذه منطقة صغيرة، بها قرى تمتد لقرابة 160 كلم، متصلة ببعضها. وإعتقد سكان المنطقة أن الرجل يعاني من مس شيطاني، فهو لا ينام الليل، يتنقل بين قرية وأخرى حاملاً سلاحه معه، ولا يستطيع أن يخفي ما يتلبسه من خوف. الليل هو عدوه الذي لا يستطيع أن يهرب منه إلا بالإنتقال طول الليل من مكان إلى آخر.

هناك مرض يسمى بمرض الجواسيس، فالجاسوس، يشعر بأن أمره سيكشف بعد ثوان، فيحاول أن يشغل نفسه بأمر ما وبلا إنقطاع. وفي المقابل هناك مرض – القاتل – الذي يتوهم أن هناك شخصاً أو أكثر يلاحقه للثأر منه، ولمّا كانت منطقته، أوباري، منطقة صغيرة، ونائية، وليس بها وجود كبير لقوات الأمن، واللجان الثورية، بمعنى لا تظهر فيها سطوة النظام، فهي منطقة مناسبة لتصفيه الحسابات، وبالنسبه له، ما أكبر الفاتورة. وقد يكون لضحاياه أقارب في هذه المنطقة التي تتوفر فيها كل شروط تصفيه الحساب. ولهذا، فقد دأب على الإنتقال ليلاً من قرية إلى أخرى، علماً بأنه لا يبقى في هذه المدينة التي يفترض أن يباشر عمله بها بشكل دائم، لا يبقى في كل مرة سوى أيام قليلة جداً.

أرسله معمر سفيراً للسودان، لم تكن له من مؤهلات السفارة سوى الأسم، فهو يشترك مع الرئيس السوداني في أسم – بشير. وأعتقد القذافي أن ذلك سيقيم جسراً نفسياً بين الرئيس والسفير. وكان القذافي يعتقد إعتقاداً راسخا في ذلك، فبعد رمضان بشير، الذي يلتقي ابوه مع جد الرئيس في الإسم، أرسل القذافي، عمر الحامدي، ليكون سفير ليبيا بالسودان، وهو له ميزة عن رمضان إذ يلتقي الحامدي مع الرئيس بشكل مباشر في الأسم دون القفز إلى الأب أو الجد، فعمر حسن البشير، يعانق عمر الحامدي فوراً، فكل منهما يحمل نفس الأسم.

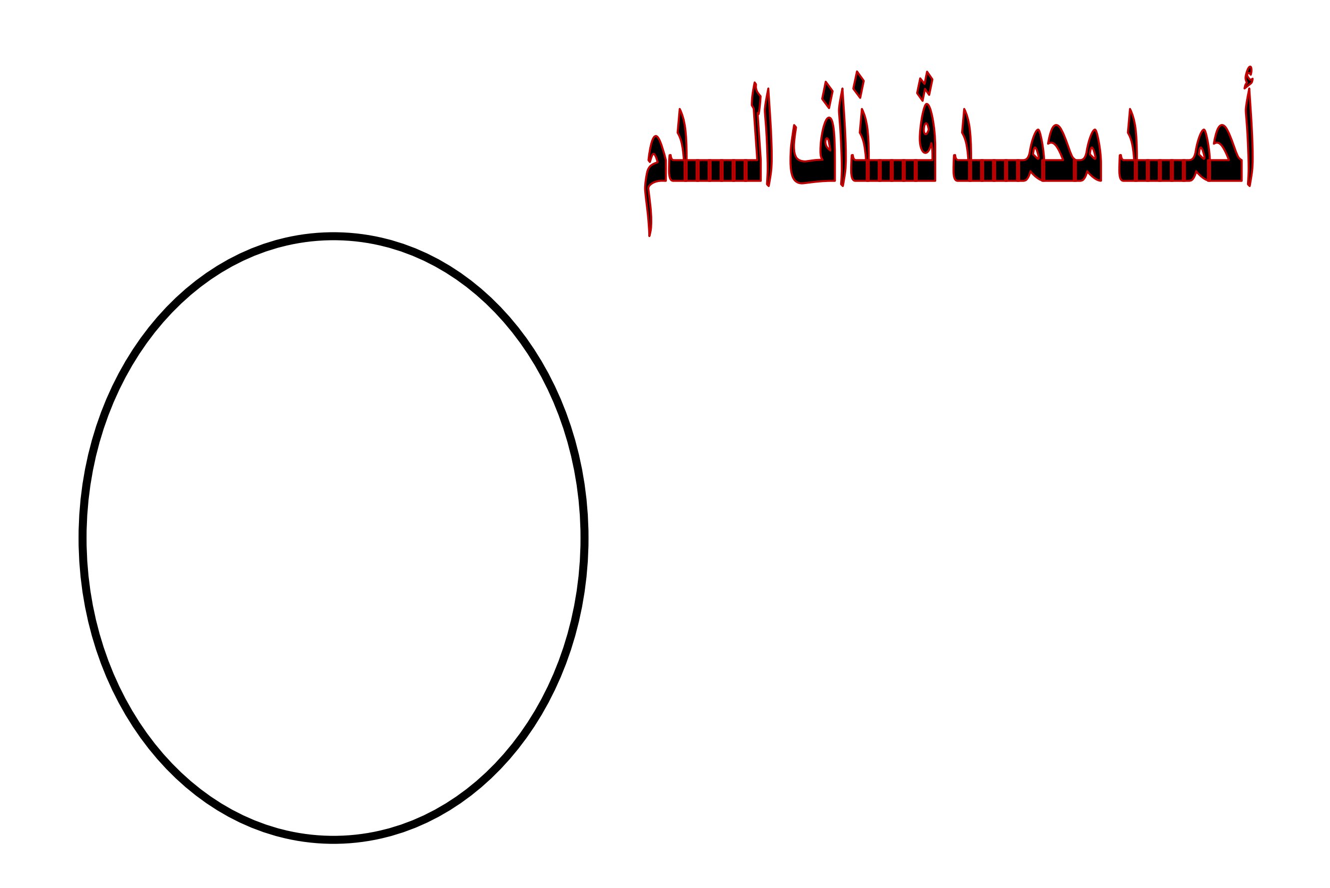
لم يحقق رمضان السفير أي شيء في السودان، فهو لم يُخلق لكي يربط العلاقات بين البلدين، بل لعقد حبال المشانق، إعتبر السودانيون وجوده سفيراً في الخرطوم إحدى نكات القذافي السمجة، وعلقوا عليها كثيراً.

لم ينجز بشير شيئاً في حياته سوى الإعتقال والتعذيب، والقتل، أتقن ذلك، إيما إتقان، وعندما إندلعت ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، وهبّ شباب مصراته يكتبون فصلاً ملحمياً إعجازياً في تلك الثورة، عبأ القذافي جحافله، وجنّد المرتزقة، لحرق مصراته وإزالتها من الوجود، بالطبع لن يجد القذافي من هو أكثر دموية وعشقاً للقتل والدمار من تلميذه الذي تربى في حجره، وله ميزة أخرى، قلما تتوفر في غيره، وهي، إن رمضان بشير من منطقة زلتين الملاصقة لمصراته، دفعه القذافي يتقدم بجحافل للهجوم على مصراته، ولم يبطئ الخطى، كان مع جحفله في مقدمة من أطلق كل أنواع النيران ضد أهل مصراته، قاتلاً، مدمراً، وكان على رأس قادة حرب الإبادة التي فرضها القذافي على مصراته. ولم تنجُ منه زلتين مسقط رأسه عندما هبّ ثوارها بدعم من جيرانهم ثوار مصراته يواجهون جحفل الموت الذي يقوده رمضان بشير، فقتل ودمر وحرق، لقد كانت تلك الحرب الشاملة التي شنها القذافي على الشعب الليبي رائعة الحفل، وحلاوة المحفل، فمرض القاتل له دواء واحد، وهو المزيد من القتل، ورمضان بشير، الذي شب على إدمان القتل، وحصل على تقدير ممتاز مرتفع في

الجامعة في المادة الوحيدة التي تفوق بها وهي القتل، لم يتخيل يوماً أنه سيعيش إلى اليوم الذي يجد نفسه فيه يعطي الأوامر لجحفله ليطلق الصواريخ والمدافع والرشاشات لقتل آلاف من الشباب والنساء الذين لا يحملون سلاحاً. بل أن هذه المأدبة الدموية مضافاً إليها متعة إنتقام أخرى لم يتذوقها من قبل في وجبات القتل، الآن، هناك ملحمة الإغتصاب، التي إختارها آمر الجحفل، إختار لها عتاة القتلة والمرتزقة، تلذذ بمناظر الهمج المرتزقة وهم يغتصبون بنات الوطن الذي يفترض إنه ينتمي إليه، ولكن هل للقاتل وطن.

مشهد واحد، يختزل كل المشاهد، سينطق بالهول، وكأنه يحدث في دغل من أدغال القبائل البدائية في أفريقيا منذ آلاف السنين، ولكنه حدث بكل تفاصيله المأساوية منذ شهور قليلة في مصراته "أقتحم فصيل كتائب القذافي منزلاً من منازل مصراته، كان به رجل كهل، وإلى جانبه زوجته وأثنتان من بناته، أعطى الضابط الأمر لإثنين من جنوده بإغتصاب البنتين، وبعدهما توجه بنفس الأمر لأثنين آخرين وهكذا، إستمر هذا المشهد المريع أمام الأب والأم، وعندما قال الأب الباكي للضابط: "إلا تخافون الله، هل أنتم مسلمون" قام الضابط بالتبول فوق رأس الأب.

كان تلاميذ القذافي الثوريون يطلقون عليه، القائد والمعلم، وكان الشيخ علي الشاعري، يهتف ويغني في التجمعات الثورية بحضور العقيد القذافي، يغني بأعلى صوته ويقول: "علِّم يا قائد علمنا، كيف نحقق مستقبلنا". فعلاً، لقد علَّم المعلم تلاميذه كيف يحققون مستقبلهم، ودون أدنى شك، لقد كان رمضان بشير من أوائل الخريجين من مدرسة المستقبل القذافية.


أحمـــد محمـــد قـــذاف الـــدم

أحمد محمد قذاف الدم

أحد أفراد الحلقة الأضيق حول معمر القذافي، يلازمه في حلّه وترحاله، يعرفه الناس من بعيد ومن قريب. هو رجل كل الأدوار في الظاهر، ولا دور له في الجوهر، وقد يشغل مساحة أحياناً بين هذا وذاك..

عرفتُ أحمد قذاف الدم ونحن طلبة في مدرسة سبها الإعدادية، كان والده الضابط محمد قذاف الدم نائب قائد القوة المتحركة بولاية فزان، كانت هذه القوة جزءًا من قوات البوليس المركزية التي تتبع قيادتها ببرقة، وكان مقر قيادتها ببنغازي ثم بالبيضاء، مهمة هذه القوة هو الحفاظ على النظام الملكي، ومعدة لقمع الإضطرابات ومستعدة لمواجهة أي محاولة إنقلاب من الجيش. كان المقدم محمد قذاف الدم شخصية متميزة، في الحركة وأسلوب الحديث، أذكر أننا كنا في مظاهرة طلابية سنة 1964، ضمن حملة مظاهرات طلابية عمّت الوطن الليبي، طافت المظاهرة أنحاء مدينة سبها، كان بالمدينة شارع واحد يمكن أن يطلق عليه هذا الإسم هو شارع أحمد سيف النصر، لم تكن به عمارات وإنما فقط مبانٍ من دور واحد وطريق معبد ضيق به من التراب أكثر مما به من الإسفلت، توجهنا من مدرسة سبها المركزية حيث يوجد ـ القسم الداخلي . الذي يقيم به الطلاب القادمون من خارج المدينة، توجهنا نحمل اللافتات التي كتب عليها شعارات قومية، ووطنية، عبرنا شارع أحمد سيف النصر إلى أن وصلنا إلى حي "الجديد" تجمعنا في ساحة السوق، وتناوب أكثر من طالب على إلقاء الخطابات، فيما إستمرت الهتافات، وفجأة جاءت بعض سيارات البوليس وقد كتب على جانبها "القوة المتحركة" قامت بعض عناصر البوليس برش الماء من سيارات، على المتظاهرين، ولكن لا أذكر أعمال عنف من أي من الطرفين، لا من المتظاهرين ولا من البوليس.. تقدم المقدم محمد قذاف الدم وتحدث بصوته المبحوح إلى الطلاب قائلاً: "ماذا تريدون، الحكومة تعلمكم وتصرف عليكم، المصريون

يضحكون عليكم، يبثون السموم في إذاعاتهم، بلادهم خربت، ويريدون تخريب ليبيا، أنا أعرفهم جيداً، هم لا يريدون الخير لكم، ولا لبلادكم". نعم هو يعرف المصريين، فقد عاش بها سنيناً طويلةً قبل أن يأتي إلى ليبيا مع عائلة سيف النصر التي نصبت على فزان، وعين ضابطاً في البوليس، فقد كان يعمل بمصر حارساً لأحد أفراد عائلة سيف النصر. كان لقب "قذاف الدم" يثير الإنتباه، وهكذا صار أحمد وأخوه سيد شخصيتين مثيرتين للإنتباه، كان البعض يتندر على الإسم، ولاحقته تعليقات كثيرة.

كانت سبها رغم وقوعها في أقصى الصحراء بجنوب ليبيا تعجّ بالحياة والشباب، حركة الكشاف التي شكلت مدرسة حقيقية لبناء الشباب، أعطت لهذه المدينة لوناً ممتازاً، في الفن، وبناء الشخصية، وبث روح المبادرة وتقوية الإنتماء وإشاعة روح التعاون والتضامن، كانت الرحلات الكشفية تنظم بطريقة دقيقة، كنا نخرج في رحلات منظمة بالخرائط، يدفع لنا مبلغ محدود من المال ويطلب منّا تغطية نفقات مدة محددة، عندما شهدت منطقة الجنوب سيولاً قوية وتضررت بعض المباني المبنية بالطوب قام الكشافة بالإنتشار في المناطق المنكوبة ينصبون الخيام ويساعدون المحتاجين، كان الكشاف الليبي في العهد الملكي معروفاً ليس فقط على المستوى العربي والأفريقي بل على المستوى الدولي، وقد لعب المرحوم علي خليفة الزائدي مؤسس الحركة دوراً سيذكر له دائما في بناء هذه الحركة وجعلها محفلاً إستثنائياً التي إستطاعت أن تجنب الشباب الكثير من مسارب الإنحراف، وعبأت قدراتهم الجسمية من أجل عمل الخير وساهمت في ترقية مداركهم العقلية، ورفعت وعيهم.

في الأمسيات الكشفية، وأثناء المعسكرات التي تقام في فترات الإجازة الصيفية، تتزاحم البرامج، وينطلق الجميع يعبر عن هواياته وكان الرسم والغناء من أبرز المجالات التي يتنافس فيها شباب الكشاف وكذلك الرقص بالإضافة إلى المناشط الثقافية المتنوعة.

أحمد قذاف الدم كان مشروع مطرب حقيقي، فقد غنى في ملتقيات عديدة للكشاف، في سبها، وفي غابة جودايم غرب طرابلس حيث كانت تقام المعسكرات الوطنية والإقليمية والعالمية للكشاف الليبي.

كان هناك مدرس فلسطيني إسمه "أبو غريبة" ينظم الشعر بإسهاب ويكتب كل شيء وعن كل شيء. كتب نشيداً أو أغنية أو سمِّها ما شئت، تقول:

ليبيا نهنئها نالت سيادتها   إدريس قائدها إذ يفعل العجبا

ولى الدخيل الذي قد جاء يحرمها   حرية الشعب والخيرات والرتبا

تخصص أحمد قذاف الدم في غناء هذه الأهزوجة، وإرتبطت به، ولكن بعد ثورة سبتمبر، قام شخص آخر بغنائها مع تعديلات طبعاً، حذفت إدريس ووضعت محله . الجيش.

أول مرة أسافر فيها إلى مدينة طرابلس كانت سنة 1965، رفقة الأخوين أحمد وسيد قذاف الدم، حيث تمّ إختيار عدد من المتفوقين من مدرسة سبها، ونظمت لهم زيارة إلى معرض طرابلس الدولي. الرحلة في حافلات "شركة النسر" التي كان يمتلكها المرحوم الهادي حمودة، وكانت الرحلة عبر الطريق الضيق إلى طرابلس تستغرق أكثر من 14 ساعة في تلك الصحراء قبل أن تصل إلى شاطئ البحر المتوسط. في تلك الرحلة الطويلة يكون الحديث عن الماضي، وعن الحاضر والأمل فيما هو قادم متعة مفروضة مع ما يفيض به بعض الزملاء الرفاق من فكاهة ومرح، وكان احمد لا ينسى نصيبه من الأغاني والقفشات والتعليقات. وهكذا كانت رحلة العودة من طرابلس إلى سبها، مضافاً إليها هذه المرة، الحديث عن ما رأيناه في معرض طرابلس الدولي من الغرائب والعجائب بالنسبة لنا، كذلك عن مدينة طرابلس وعن أهلها الليبيين والإيطاليين واليهود وغيرهم. تعثر أحمد في دراسته الإعدادية، فتجاوزه زملاؤه، ولكنه لم يخسر من ذلك شيئاً، فقد قامت ثورة 1969 بقيادة قريبه

معمر القذافي الذي يمتّ له بقرابة من جهة الأب، وعندما كان معمر يدرس بسبها كان يتردد كثيراً على منزل خاله المقدم محمد قذاف الدم ضابط البوليس في القوة المتحركة، والذي ساعده على الإلتحاق بالدراسة في سبها وخفف عنه الكثير من غضب البي محمد سيف النصر الذي لم يخف يوماً كرهه لمعمر القذافي الطالب المشاغب الذي عضّ اليد التي إمتدت إليه بالمساعدة وهي عائلة سيف النصر، كما يرى البي محمد سيف النصر.

قامت الثورة سنة 1969، وكان أحمد طالباً في المرحلة الثانوية، ولم يحصل على الشهادة التوجيهية التي تمكنه من الإلتحاق بالجامعة، أو بأي كلية أخرى، ولكن الإستثناء يتجاوز الشهادات، ويقفز فوق شرط المؤهلات، وبأمر من معمر القذافي رئيس مجلس قيادة الثورة، إلتحق أحمد بكلية الضباط بمصر، ضمن سياسة إختطها قادة الثورة بتعيين أكبر قدر من أقاربهم في صفوف الجيش ضمن برنامج يهدف إلى تأمين الثورة، ولقطع الطريق على أي محاولة للإنقلاب عليها. وفي مصر، وجد أحمد نفسه مرة أخرى بين أخواله، وشرع في تأسيس علاقة وجدت لها تربة مهيأة بحكم العوامل الإجتماعية، مضافاً إليها الأجواء السياسية. بعد تخرجه سنة 1972، عاد الملازم أحمد قذاف الدم إلى ليبيا حيث يتبوأ قريبه معمر القذافي سدة الحكم ومن حوله أبناء عمومته يتوزعون في دوائر شتى تتسع من حوله أو تضيق حسب مقتضيات الحال العسكري والأمني. لم تطل مدة الصفو أو النقاء الثوري طويلاً، فبعد الثورة بأشهر قليلة شهدت ليبيا أول محاولة للإطاحة بالنظام الجديد، وكان من بين رجال المحاولة أشخاص من عائلة سيف النصر التي يدين لها محمد قذاف الدم والد أحمد بالولاء المطلق، فهم أولياء نعمته، وهم من أحضره من مصر حيث كان يعمل خولياً معهم وأعطوه رتبة عسكرية، بالإضافة إلى تبعية قبيلة القذاذفة إلى تلك العائلة من حيث الولاء والمواقف السياسية والإجتماعية، حيث جندوا الكثير من القذاذفة في الشرطة وعينوا عدداً من الذين قدموا منهم من سرت إلى سبها في

وظائف مختلفة. وقد حاول الحاج محمد قذاف الدم أن يبقي على بعض الخطوط بين الطرفين رغم تعنت معمر القذافي ومكابرته.

بعد أزمة 1973 التي ولدتها الخلافات بين معمر القذافي وزملائه في مجلس قيادة الثورة وحركة الضباط الأحرار، شرع يقّرب أقاربه وخطط لسياسة جديدة يمكن فيها أقاربه من السيطرة على مفاصل الأمن، وأن يختار منهم مفارز للأمن، وأشخاصاً يتولون حراسته شخصياً، ووضع بعضهم في معسكرات حساسة. لم يعط معمر القذافي ثقته الكاملة لأحد قط، مهما كان قريباً له في الدم وإن كان إبن قذاف الدم، كما لم يعطها لمن أخلص له ونفذ كل أوامره وهو مغمض العينين، فهو قد قضى عشر سنوات كاملة يعيش في حالة تآمرية تحت الأرض، وذاك قاسم مشترك بين جميع من إنتمى إلى حركة سرية تهدف إلى إسقاط نظام حكم، فما بالك بالذي كان على رأس تنظيم يعمل من أجل ذلك. فهو يعتقد دائما أن هناك من يقوم بنفس ما كان يقوم به هو، ولا تشكل القرابة الأُسرية أي إعتبار في ذلك. فهو . أي معمر القذافي . كان يتآمر على نظام كان خاله محمد قذاف الدم يحتل فيه موقع هام في القوة المتحركة بسبها وهي المناط بها مقاومة أي عمل مدني أو عسكري يهدد النظام الملكي.

بعد ما عرف بمؤامرة 1975، إعتمد معمر القذافي سياسة "أهلك لا تهلك"، اي لكي لا تهلك إعتمد على أهلك، فبدأ يجمع في دائرته الأولى، أبناء عمومته مثل حسن إشكال، وخليفة حنيش، ومسعود عبد الحفيظ، وسيد قذاف الدم وغيرهم. كان أحمد قذاف الدم صغير السن والرتبة، وظهرت عليه مبكراً أعراض الإهتمام بالعمل السياسي. ومعمر القذافي له قدرة خاصة على تشخيص تلك الأعراض، وعلى توظيفها إلى أقصى مدى. كان مع أحمد شلة من الضباط القذاذفة الشبان، مثل البراني إشكال، ومنصور ضو، وعبدالله مسعود، إستعمل معمر بعضهم في الجيش، وفي أمنه الشخصي، في حين إستخدم سيد قذاف الدم في مرحلة معينة ملحقاً عسكرياً

في لندن، ثم نقله إلى سرت ليتولى إمرة كتيبة الساعدي الأمنية، وإشترك في الحرب الليبية على تشاد، أما أحمد فقد تنقل بين السفارة الليبية في مصر وقبلها إمرة منطقة طبرق كما شارك في الحرب الليبية في أوغندا دعماً لعيدي أمين دادا، كما كلفه معمر بمهام سياسية لدى بعض الدول..

معمر القذافي لا ينسى من يسيئ إليه أو يتطاول عليه، وردع من يتآمر، وهو يتفنن في الإنتقام والثأر. ويتفوق على نفسه في إبداع أساليب رد الإعتبار، فوالده الذي كان مجنداً مع الإيطاليين فيما يعرف بـ (الباندا) التي إستخدمت لقتال المجاهدين الليبيين، أعطاه إبنه معمر رتبة المجاهد ودفنه بمقبرة الشهداء بمنطقة الهاني. ولم يفوّت أي مناسبة ليذكر قائمة تتزايد بإستمرار عن أجداده الذين جاهدوا ضد الإستعمار الإيطالي..

بحكم وضع والده محمد عبد السلام أبو منيار الإقتصادي التعيس، وكذلك النظرة الدونية التي كان ينظر بها إليه أبناء عمومته إجتماعياً، وما يتداول في أوساط القذاذفة وغيرهم عن إستغلالهم لظروف عائلة معمر إستغلالاً غير أخلاقي، فقد إنتقم هو شخصياً من نسائهم بل حتى من رجالهم وقلما نجا أحد منهم من هذا الإنتقام الذي صار حديث الكبار والصغار في ليبيا، لأن معمر القذافي يتعمد أن يقوم بفعلته تحت أنظار حراسه بل وضيوفه، تقول السيدة (د.ش) وهي سيدة عربية أصبحت مليونيرة لأنها تولت حشد النساء من أصقاع الأرض لإمتاع القائد، تقول أنها دخلت إلى حجرة نومه ذات مرة في القيادة فوجدته عارياً مع أحد أقاربه، ولم يتأثر معمر، فيما إستمر الآخر في وضعه، وضحك القذافيان، وطلب "القائد" من "المقاولة" قفل الباب، وستكشف الوثائق الكثير، الكثير من خفايا سلوك معمر القذافي مع خاصته، والحلقات التي لفها حوله.

عقيدة معمر القذافي هي إستعمال الجميع، بعد قراءة مؤهلات كل شخص من جميع جوانبها، أقاربه قسمهم إلى فئات، الأقربون الأولون وهم أبناء عائلته من

القذاذفة، أي . القحوص . حسب قدراتهم ومؤهلاتهم العلمية، فمن كان عسكرياً، وجه إما إلى أجهزة الأمن وتحديداً أمنه الشخصي، أو كلف بإمرة معسكر محدد، يشكل أهمية عسكرية وأمنية خاصة، وقد يتنقل هذا العنصر أو ذاك من هنا إلى هناك حسب الحاجة والظروف، أو لمقتضيات الإحتراز والتحسب الأمني، بمعنى، أن لا يتمكن هذا العنصر من زرع أذرع تأثيره في المركز الذي يكلف به، هذا ما حدث لأحمد قذاف الدم، والبراني إشكال وغيرهم، وبما أن هؤلاء الضباط القذاذفة أو أغلبهم تمكنوا من الحصول على ثروة طائلة، مما أعطاهم قوة وتأثيراً، فإن معمر القذافي يتعمد إضعافهم بتوقيفهم عن العمل، أو سجنهم، أو التحقيق معهم وإحالتهم إلى المحاكم وإصدار أحكام ضدهم، كي يبقوا دائما تحت مظلة الخوف والتهديد التي لا منقذ منها إلاّ مظلة التقرب إلى القائد وإظهار المزيد من الولاء والطاعة له.

شريحة أخرى من القذاذفة، مثل عمر إشكال وأحمد إبراهيم، وغيرهم من غير العسكريين إستعملهم معمر القذافي، في النشاط السياسي أو الحركي، وقد أدخل معهما أيضا محمد مسعود المجذوب الذي تولى لفترة طويلة رئاسة حركة اللجان الثورية، خاصة في الفترات التي شهدت تحركاً شعبياً ضد معمر القذافي وتولى المجذوب يساعده كل من أحمد إبراهيم منصور وعمر إشكال مهمة قمع الحركة الطلابية وملاحقة المعارضن الليبيين في الخارج.

أعاد معمر القذافي إنتاج أحمد قذاف الدم أكثر من مرة، فقد كلفه بالعمل في الأمن الخارجي ووضعه في مواجهة مع بعض العاملين في هذا الجهاز بهدف ترويضه، خاصة عبد السلام الزادمة وسعيد راشد وإبراهيم البشاري، وتعمد هؤلاء نسج الكثير من الإشاعات عنه، وعن سلوكياته، وشنوا حرباً مخططة بدقة لتدميره، وقد كنتُ أستغرب عندما أسمع حجم المثالب التي يكدسها هؤلاء على جسد أحمد وتصرفاته الأخلاقية والمالية والسياسية، وقد كان لي نقاش طويل وتفصيلي معهم ومع

غيرهم حول ما يقال عن هذا الشخص، وإقتنعت في حالات ومواقف كثيرة، أنهم مكلفون بشن تلك الحملات من معمر القذافي شخصياً.

ولم يسلم من العقاب على الطريقة العسكرية، فقد نقل إلى معسكر طبرق، وكلف عناصر أمنية عدة بملاحقته ورصد إتصالاته بل أنه في كثير من الحالات طلب من هذه العناصر كتابة تقارير كيدية تدينه بتهم خطيرة تصل إلى الخيانة العظمى.

ذلك كان هو المصنع السياسي والعسكري والأمني الذي يسبك فيه معمر شخصيات من يريد توظيفهم، كما يُعد الجواسيس. في السنوات الخمس عشر الأخيرة، كان أحمد قذاف الدم ملاصقاً لإبن عمه معمر دون وظيفة مراسمية أو إدارية تبرر ذلك، لا يكاد يظهر معمر في مناسبة ما في الداخل أو الخارج إلا ويظهر قذاف الدم بجانبه أو خلفه، وهو مهووس بالظهور، ببدله الزاهية الأنيقة، والمنديل المتميز في جيب البدلة، مع العصا الشهيرة، ولا يبخل أحمد في أن يعطي كل شيء في سبيل ذلك، رغم أنه يدرك جيداً، أن بروزه في وسائل الإعلام بالنسبة لإبن عمه معمر، هو مثل رفع قطعة قماش أحمر في وجه ثور المصارعة، وقد أقفل معمر القذافي وسيلتين إعلاميتين في الخارج بسبب أحمد.

فقد أُسست في قبرص، في الثمانينات من القرن الماضي، دار نشر ليبية، أصدرت مجلة سُميت "الموقف العربي"، كان أحمد قذاف الدم سفيراً في القاهرة، ومن المعروف أن بينه وبين عبدالله السنوسي المقرحي عديل معمر القذافي، ما صنع الحداد، قام عبد الله الذي تربطه بالمخابرات المصرية علاقات ممتازة وخاصة برئيسها عمر سليمان، قام بإعطاء معلومات إلى صحفيين مصريين وحفّزهم على نشرها، وتتضمن هجوماً مقذعاً على السفير أحمد قذاف الدم، كان لذلك رد فعل واسع، فقام الكاتب الليبي المعروف أحمد إبراهيم الفقيه لسبب أو لآخر بكتابة رد على ما نشر في الصحافة المصرية ضد أحمد قذاف الدم، فما كان من "القائد" إلاّ أن يأمر بإغلاق المطبوعة الليبية التي كان يترأسها آنذاك محمد الشويهدي.

الوسيلة الأخرى التي قام السيد أحمد قذاف الدم بإغلاقها هي محطة . الساعة . التلفزيونية التي كانت تبث من القاهرة، إقترح عليّ حسونة الشاوش، الأمين المساعد لشؤون الإعلام، أن نؤسس قناة فضائية بالقاهرة، لتكون صوتاً مثل بقية الدول التي إمتلكت محطات مماثلة، وأضاف أنه ناقش الفكرة مع الصحفي اللبناني وليد الحسيني، صاحب مجلة "الكفاح العربي"، وهو مستعد لأن يكون شريكاً في المحطة، إلتقيت فيما بعد مرات عدة مع وليد الحسيني وإتفقنا على أن نؤسس المحطة شراكة بينه وبين أمانة الإتصال الخارجي. شرعنا في العمل وتم تكليف الأخ حسونة الشاوش ليكون ممثلاً للجانب الليبي ورئيساً لمجلس إدارة القناة الجديدة، بدأت المحطة العمل سنة 2005، وإشترطت أن تكون محطة موضوعية تتناول الأحداث والقضايا العربية من رؤية تحديثية، وأن لا يبرز فيها الوجه الليبي مباشرة، حققت المحطة نجاحاً، وأثبتت وجودها وسط غابة الفضائيات العربية التي تمتلك إمكانيات تفوق إمكانيات محطة . الساعة . بمئات المرات. منذ إنطلاق تلك المحطة باشر كل من علي الكيلاني وعبدالله منصور وهما ضابطان إحتكرا العمل الإذاعي والفني في ليبيا على مدى عقود، باشر الإثنان ضغطاً متواصلاً من أجل الإستيلاء عليها، وقد ناقشني العقيد معمر القذافي في ذلك مراراً، متذرعاً بأن العمل الإعلامي خارج إختصاص وزارة الخارجية، شرحت له وجهة نظري وقلت له أكثر من مرة أن علي الكيلاني وعبدالله منصور فشلا في إدارة وتطوير الإعلام الليبي داخلياً، فهل يمكن لهما أن ينجحا في العمل الإعلامي الخارجي؟! قال لي إذاً عليك أن تتحمل نفقاتها ولا تطلب لها ميزانية من وزارة المالية.

خفّض الإعلاميان الإثنان علي وعبدالله حملتهما من أجل الإستيلاء على "الساعة" لكن قذافياً آخراً له وجود ونفوذ في مصر وهو العقيد أحمد قذاف الدم، بدأ يتدخل في عمل المحطة، ويمارس ضغوطاً على العاملين فيها، وبحكم قربه من إبن عمه القائد، عاود إثارة موضوع المحطة معي، ظهرت مشاكل مالية، وزادت مطالبات العاملين بها بتحسين رواتبهم ورفع مستوى مزاياهم أسوة بزملائهم في المحطات

الأخرى، وزاد ضيق وليد الحسيني وإبنه سامر الذي يتولى إدارة المحطة من تدخلات أحمد قذاف الدم، وبعد نقاش مع حسونة الشاوش رأينا أن نجد صيغة لنقل ملكية المحطة لقذاف الدم، وقمنا بالإجراءات القانونية لإنجاز ذلك.

في مطلع سنة 2009 أعفيت من وزارة الخارجية، وعينت مندوباً لليبيا بالأمم المتحدة، وفي تلك السنة بدأ الإعداد لعقد القمة العربية في ليبيا وأرسل العقيد معمر القذافي إبن عمه أحمد قذاف الدم حاملاً الدعوات للقمة إلى عدد من الملوك والرؤساء العرب، وكان من بين الذين كلف بمقابلتهم وتوجيه الدعوة له ملك السعودية عبدالله بن عبد العزيز، وقد زار السعودية بطائرة خاصة، وكعادته في حب الظهور، أمر أحمد المحطة أن تذيع أخبار رحلته هذه في تغطية مصورة مطلوبة، وأطنب في التصريحات التي تشيد بالسعودية وملكها. طبعاً، وجد كل من عبدالله منصور، وعلي الكيلاني غريمهما أحمد قذاف الدم، والمتلهفان على إختطاف المحطة، وجدا في تلك التغطية التلفزيونية المطلولة لرحلة قذاف الدم فرصة لتحريض القذافي عليه وعلى المحطة، فأمر بإغلاقها فوراً. قام البغدادي المحمودي، رئيس الوزراء بالإتصال بالسلطات المصرية لتنفيذ أمر إغلاق المحطة، لكن المسؤولين المصريين تذرعوا بالعقود، والإلتزامات القانونية ومستحقات العاملين وغيرها وترددوا في إقفالها. إتصل بي البغدادي المحمودي وطلب مني الإتصال بأحمد قذاف الدم لإقناعه بقفلها. تحدثت مع أحمد وأبلغته طلب البغدادي، ردّ أحمد بأن ذلك غير ممكن، ولا يرى داع للإغلاق، وأصرّ على موقفه. ولكن تدخل عبدالله السنوسي مع الأمن المصري، وهو أيضا من الذين لا يكنون ودّاً لأحمد قذاف الدم، تدخل السنوسي وإستطاع أن يغلق المحطة.

أتقن معمر القذافي أسلوب ((لكَ الطولُ المرخى وتنياه في اليد)). أي أن الدائرة الأولى التي من حوله سياسية أو أمنية أو مالية، لا بدّ أن تكون حركتها بحساب، وأن تصب كل حركاتها وسكاناتها في خدمة شخصه، وأن لا تنافسه في إطار الصورة أو

في مسار القرار. ورغم أن أحمد قذاف الدم كان من المقربين والمتنفدين المستفيدين، إلاّ أن مرضه بحب الظهور والإستعراض، كان اللغم الذي لا يتوقف عن الإنفجار عليه دائماً، وهو لا يستطيع أن يكبح هذا الجموح الطاغي في داخله.

هناك مسٌّ أصاب الكثير من القذاذفة، وهو . العظمة . قد نفهم أو نحاول أن نتفهم ذلك، فالعقيد معمر القذافي، قائد الثورة، المفكر، المعلم، ملك الملوك، هو أحد أفراد قبيلتهم، وبالتالي، فإن لكل قذافي نصيب من هذا الشرف أو الهبة أو المنحة الإلهية، أو أو أو!! لكن هناك "فيروس" تقاسم أغلب القذاذفة، أو تقاسموه وهو "الإدعاء" وسنحاول جسّ دخائل بعضهم عندما نتعرض للعديد منهم في سياق هذا الكتاب، وسنقترب الآن من الشخص الذي بين يدينا الآن وهو أحمد قذاف الدم، وهو الرجل العسكري الذي كان حاضراً في حرب معمر القذافي في أوغندا نصرة لنظيره الديكتاتور عيدي أمين دادا. وهو رجل السياسة الذي أوفده إبن عمه العقيد في سفارات وسفريات إلى بعض زعماء العالم، وهو بالإضافة إلى الصفتين السابقتين رجل الأمن، وعضو الحلقة الأولى حول معمر القذافي، ومن جواري الخيمة السياسية والعاطفية والعائلية أيضا. بل حاول أحمد قذاف الدم أن يكون أكثر قرباً لإبن عمه معمر بعلاقة المصاهرة، كان حلمه أن يتزوج بعائشة كريمة معمر الوحيدة، هذا الحلم راود وعاود الكثيرين بالإضافة له، فالمهندس خالد إبن الخويلدي الحميدي، عضو مجلس قيادة الثورة السابق والذي كان مسؤولا عن الأجهزة الأمنية، لم يأل جهداً في الركض وراء هذا الحلم، وقد حاولت صفية فركاش زوجة معمر أن تقنعه بالموافقة على زواج عائشة من خالد إلاّ أن معمر كان يرفض بإستمرار، أوحت صفية إلى الخويلدي عن طريق صديقتها عائشة زوجة الخويلدي، بأن تشير على زوجها أن يتقدم مباشرة إلى العقيد لطلب يد عائشة لإبنه خالد، خاصة بعد أن تزوج الساعدي معمر القذافي من أميرة إبنة الخويلدي الحميدي، الذي إتصل بمعمر وطلب أن يزوره مع عدد من أقاربه من قبيلة الحميدات، وافق معمر على الزيارة، وجاء الخويلدي إلى مقر القيادة، حيث سكن العقيد ومعه جماعة من أبناء قبيلته، فتحت لسياراتهم بوابات

مبنى القيادة، أوقفوا سياراتهم في الساحة القريبة من "الخوذة" وهي قاعة خشبية فسيحة تقام فيها الإحتفالات. إستقبل معمر القذافي الخويلدي وجماعته وفاتح الثاني الأول في الأمر، أي خطبة يد عائشة لإبن الخويلدي خالد. ردّ معمر أن أحد أبناء عمها قد تقدم لها، وهو لا يستطيع أن يعطيه جواباً ناجزاً بسرعة، خرج الخويلدي من اللقاء مع معمر مصدوماً، فقد كان واثقاً أن القذافي لن يرد طلبه بناءاً على ما قالته له زوجته نقلاً عن صفية زوجة القذافي. لم تقف صدمة الخويلدي عند هذا الحد ولكنه إستشاط غضباً عندما بحث عن سيارته وسيارات رفاقه من أبناء الحميدات فلم يجدوا لها أثراً حيث تركوها. وعندما سأل الخويلدي بغضب رجال الحراسة عن السيارات قالوا له أنه قد تمّ إخراجها لأسباب أمنية، وأحس الخويلدي بالإهانة أمام أبناء عمومته.

عاد الخويلدي إلى منزله بصرمان، وإنفجر غاضباً في وجه زوجته التي وضعته في هذا الموقف المهين أمام أهله، وطلب منها أن تقتلع فكرة زواج خالد من عائشة من رأسها. نقلت زوجة الخويلدي إلى صديقتها صفية فركاش غضب الخويلدي من الإهانة التي ألحقها به القذافي، وبعد عتاب عاصف بين السيدتين إتفقتا على خطة أخرى وهي ترتيب تقارب بين عائشة وخالد مباشرة ليتوهج هذا التقارب، بتلميح من عائشة لأبيها وأمها على وجود كيمياء عاطفية بينهما. وبداية لتنفيذ خطتهما أبلغت صفيةُ فركاش زوجة الخويلدي أن عائشة ستكون في اليوم الفلاني الساعة كذا بفندق باب أفريقيا كورنتيا لحضور حفل زفاف، وتقترح أن يمرّ خالد بالفندق للحديث مع عائشة. ذهب خالد إلى الفندق في اليوم والساعة المحددين يرافقه عدد من حراسه، وعندما دخل إلى الفندق طلب من أحداهن أن تقول لعائشة أن المهندس خالد في إنتظارها في أحد الصالونات الجانبية. وعندما علم حراس عائشة بالأمر تقدم أحدهم نحو خالد مستفسراً منه عن صحة ما سمعوا من تلك السيدة، وعندما أكد لهم ذلك، إنهالوا عليه بالضرب والشتائم وأخرجوه عنوة من الفندق، وسرت أخبار تلك الحادثة في الشارع الليبي وعضّ اللواء الخويلدي على جرحه ولم يبد أي رد فعل. ذهبت

صفية إلى زوجها العقيد وعاتبته، فالخويلدي هو رفيق معمر وهو في الوقت نفسه صهرهم، وما يجب أن يعامل إبنه وعائلته بهذه الأساليب المهينة، قام معمر بالإتصال فوراً بالخويلدي، وطلب منه أن يخطب بنت اللواء أحمد محمود الزوي لإبنه خالد، وإتصل بعد ذلك باللواء أحمد محمود وأمره بالموافقة وتمت الخطبة والزواج على وجه السرعة.

رجل آخر كان ضحية حلمه بحب عائشة القذافي والزواج منها وهو عسكري قذافي من عائلة . الندّاب . لوحظ في حالة حب ظاهر لعائشة، فتمت ملاحقته وتهديده والإعتداء عليه وإبعاده.

وقبله كان شاباً يمتلك مقصفاً صغيراً قرب كلية القانون التي تدرس بها عائشة بجامعة الفاتح في طرابلس، شوهد وهو يتحدث إليها بود وتتردد على محله يومياً، وقيل إنهما تبادلا الهدايا، جاء المسكين ذات يوم فلم يجد المقصف الصغير، بل وجد في مكانه نخلة باسقة لها طلع نضيد، فهرب الشاب ونفذ بجلده.

أخبرتني سفيرتنا السابقة لدى الأمم المتحدة في سويسرا نجاة الحجاجي، أن صفية فركاش زوجة العقيد القذافي قد عبّرت لها أكثر من مرة عن ضيقها من رفض تزويج إبنته عائشة، ورفضه لكل من يتقدم لها، وأن هذه ترغب في أن ترى لها أولاداً وبناتاً فهي تحب الأطفال كما تقول أمها، ولما إستفسرت نجاة عن سر هذه المعارضة الدائمة للعقيد من فكرة زواج عائشة قالت صفية أنه لا يتصور أن ينام رجل مع إبنته في سرير واحد، وردت عليه صفية أن فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تزوجت وأنجبت.

دخل أحمد قذاف الدم مبكراً حلبة المنافسة على يد عائشة معمر القذافي، فهي ليست المنى والطلب العاطفي فقط، فمن يفوز بيدها، يمتلك جزءًا من عجلة القيادة، ويصبح صوته هاتف امر ورنّة ترغيب وترهيب، وكان يرى في نفسه الكفاءة لأن

يكون الفائز بعائشة الفتاة الأولى في الجماهيرية العظمى. لأسباب عدة لم يكن من المتوقع أن يوافق معمر القذافي على منح عائشة لأحمد. بالإضافة إلى تصور . القائد . الذي إشتكت منه زوجته وهو أن إبنته مثل أمهات المؤمنين، لا يجوز أن يطأها بشر. وقد كان مزاج أبناء القذافي كارهاً لأحمد قذاف الدم، ولم يكن سيف الإسلام يخفي إحتقاره لأحمد، ويجهر بشتمه وكيل التهم له، وقد أخبرني أحمد عند خروجه من ليبيا إثر إندلاع ثورة 17 فبراير أن سيف يريد قتله. وكان أحد أبناء القذافي عندما يتحدث عنه يقول "الأخت" أحمد قذاف الدم!!

بعد هذا التطواف في الأجواء الإجتماعية لعائلة القذافي وحلقات المقاربة والمصاهرة نعود إلى تجليات أحمد قذاف الدم وبالتحديد إلى "فيروس" الإدعاء الذي يتقاسمه مع الكثير من أبناء قبيلته، فهو يقدم نفسه أنه جيمس بوند السياسة والعسكرية والأمن، وأنه اللمسة السحرية التي تحل كل العقد والأزمات، وهو القادر على الوصول إلى كل رؤساء الدنيا وملوكها، ففي الأزمة مع فرنسا حول تشاد كانت له صولات وجولات، ذكر أنه قابل الرئيس فرنسوا ميتران مطولاً، وقدم له مقترحات محددة لحل الأزمة وتقاسم النفوذ في تشاد، وعقد إجتماعات ماراتونية مع الوزراء الفرنسيين، في حين قال لي كل من عبدالله السنوسي عديل معمر القذافي ومدير الإستخبارات، وموسى كوسا رئيس جهاز الأمن الخارجي ووزير الخارجية السابق، أن أحمد لم يقابل سواء أحد مدراء الإدارات في الخارجية الفرنسية بواسطة من إبن أخته عمر مسعود عبد الحفيظ، رجل الأعمال المقيم في فرنسا. ولكي أكون موضوعيا ومنصفاً للسيد أحمد وللحقيقة وللحروف التي أكتبها سأسهب في تفاصيل قصة العلاقة مع ملك المغرب المرحوم الحسن الثاني كما رواها لي أحمد بنفسه ونحن في رحلة طويلة على متن طائرة خاصة من جنوب أفريقيا إلى طرابلس، كان برفقتنا الأخ مختار القناص الذي إستأذن وهو يبتسم أن ينتقل إلى كرسي في مؤخرة الطائرة وغمز لي بعينه.

قلت لأحمد أنه قد صدر مؤخراً كتاباً يروي العلاقة بين معمر القذافي والملك الحسن الثاني على لسان المرحوم محمد عثمان الصيد رئيس وزراء ليبيا في العهد الملكي والذي كان يقيم في المملكة المغربية وإرتبط بعلاقة طيبة مع الملك المرحوم الحسن الثاني، وقام بوساطة بين البلدين لإحتواء الخلافات وتطبيع العلاقة بين الزعيمين والبلدين. إعترض أحمد قذاف الدم على الكثير مما نسب في الكتاب إلى محمد عثمان الصيد وقال إنه من قام بالدور الحاسم في جسر الهوة بين الملك والعقيد، فبعد أن وصلت الأمور بين البلدين إلى حافة المواجهة بسبب الدعم القوي الذي يقدمه العقيد لحركة . البوليزاريو . التي تقاتل القوات المغربية لفصل الساقية الحمراء ووادي الذهب التي قامت المغرب بضمها لها على أثر إنسحاب إسبانيا منها، والدعم المالي والعسكري الذي تقدمه المغرب للرئيس التشادي حسين حبرى ومعه المعارضة الليبية. أحس الطرفان الليبي والمغربي، أن الأمور وصلت إلى مرحلة خطيرة ستلحق أضراراً قاصمة بالطرفين، لكل ذلك قال أحمد أنه توجه إلى المغرب على متن طائرة تجارية قادمة من فرنسا، وعند وصوله إلى المطار توجه إلى حيث يقيم الملك الحسن الثاني، وفي البوابة أخبرهم عن إسمه، وأنه مبعوث من العقيد إلى الملك. بعد فترة إنتظار تمّ نقله إلى حيث يوجد الملك. وبدأ معه نقاشاً طويلاً ومفصلاً وبصراحة مطلقة، وعرض على الملك خطوات محددة، وحسب روايته قام أحمد بهذه الرحلة، وقال ما قاله للملك بدون علم معمر القذافي بذلك، قد يكون هذا صحيح، لأن القذافي يفضل في كثير من الأحيان مثل هذا الأسلوب خاصة عندما يكون في ضائقة أو أمام تحديات تهدد كرسيه، فإذا نجح مسعى المبادرة كانت له ثمرة المبادرة، وإذا فشل المسعى يتحمل المبادر نتائج ما بادر به. يضيف أحمد أنه ذهب من المغرب إلى ليبيا وأبلغ القذافي تفاصيل ما قام به ثم عاد ثانية إلى المغرب، وبدأت مسيرة المصالحة بين الزعيمين والبلدين التي توّجت بإعلان الوحدة بين ليبيا والمغرب. محمد بلقاسم الزوي الذي ربطته علاقة وطيدة بملك المغرب وأركان حكمه، يقول أنه هو الذي نجح في رأب الصدع بين الطرفين، وأن القذافي بعثه

برسالة تطلب من الحسن الثاني المساهمة في تشكيل فرق عسكرية لتحرير فلسطين، ولكن الحسن الثاني فاجأه بعرض الوحدة بين البلدين وأن القذافي وافق على العرض دون تردد.

يتحدث أحمد قذاف الدم أيضا عن إتصالاته مع الأمريكان أيام موجة المواجهة بين معمر القذافي والإدارات الأمريكية المتعاقبة، وأنه نجح في أكثر من مرة في نزع فتيل المواجهة.

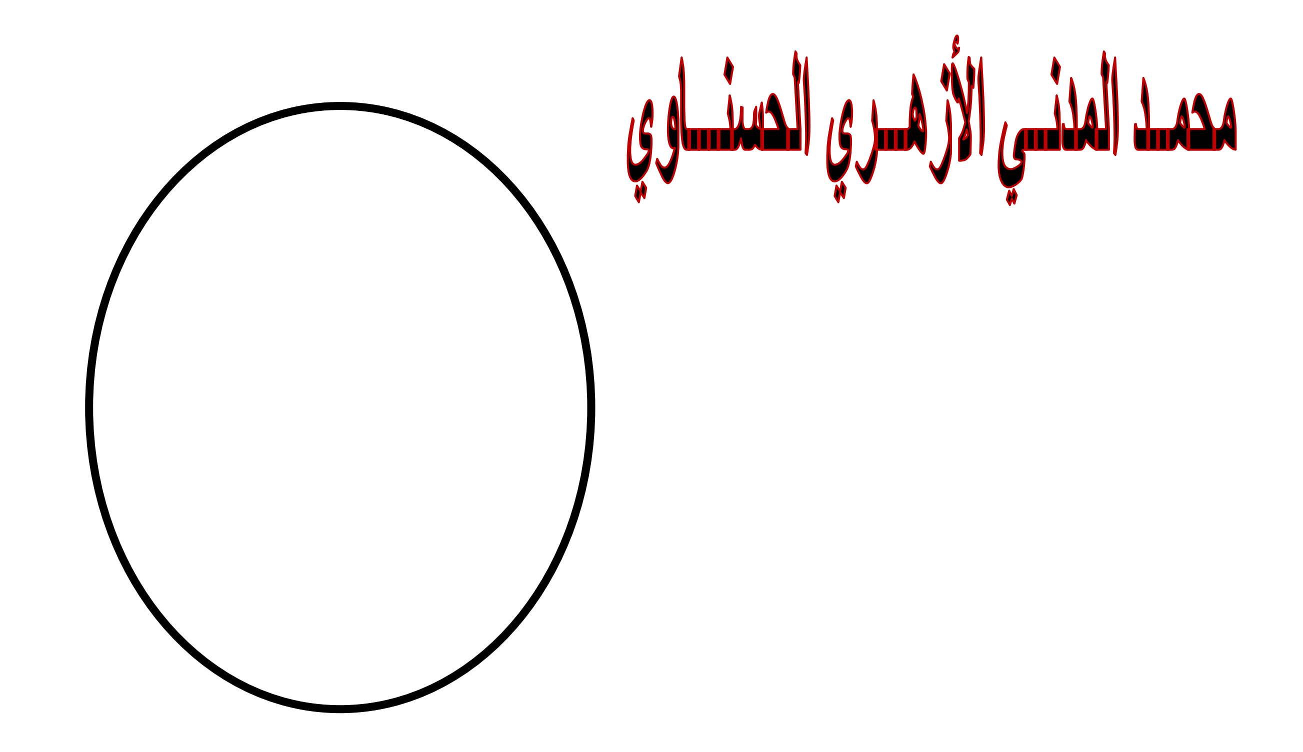
أما الخلاف والمصالحة مع مصر فقد كان لأحمد دور معروف للجميع، فلم تنقطع صلاته بالسلطات المصرية حتى في أشد الأوقات توتراً بين البلدين، ففي عهد أنور السادات، كان أحمد يتنقل بين البلدين، يحمل الرسائل، ويقدم المبادرات.. وفي عهد حسني مبارك الذي ورث القطيعة مع ليبيا وغيرها من الدول العربية من سابقه السادات، كان أحمد حمامة السلام بين الطرفين وقبل مؤتمر القمة العربية في الرباط الذي حضره حسني مبارك ومعمر القذافي، إلتقيت بأحمد قذاف الدم بالفندق الكبير بطرابلس ونقل ما دار في لقاء بينه وبين القذافي، وأنه تحدث معه بصراحة وألح عليه بضرورة تطبيع العلاقات مع مصر بشكل مباشر دون وساطات، وأن من الأفضل أن يلتقي بحسني مبارك على هامش القمة بشكل ثنائي، وأن يقوم بخطوات جريئة من أجل إعادة الأمور مع مصر إلى نصابها، وهذا ما حدث بالفعل.

لا يستطيع أحد من المهتمين بالشأن السياسي الليبي في عهد معمر القذافي أن ينكر الأدوار التي قام بها أحمد مع العديد من الدول الأجنبية، بحكم القرابة والقرب الذي ميز علاقته بمعمر القذافي، وكان معمر يناديه دائما بـ "حمودة" تعبيراً عن المودة الخاصة، وكان يمازحه ويتبسط معه أمام الجميع، وعندما كنت وزيراً للخارجية الليبية أكثر التردد على مكتبي، يتحدث معي في الكثير من الأمور السياسية، وكان يرافق القذافي في أغلب رحلاته الداخلية والخارجية، يتمتع بفهم كبير للشؤون الدولية، وهو شخصية معتدلة، يختلف عن الكثير من أبناء عمومته الذي لا ينفضون عن

العقيد، عيبه الأساسي حبه للظهور في وسائل الإعلام خاصة عندما يكون إلى جانب العقيد، وتضخيم دوره السياسي، ومبالغته في تصوير أهمية الأدوار التي قام بها، وكثيراً ما ينسب إلى نفسه جهود الآخرين، ويحرص على أن يظهر على أنه على علاقة حميمة وقوية بالرؤساء والملوك، أذكر أننا كنا في القمة الأوروبية الأفريقية التي عقدت في القاهرة، وطلب القذافي دعوة عدد من الزعماء المشاركين في القمة، وعند وصول الملك محمد السادس ملك المغرب إلى خيمة العقيد تقدم أحمد قذاف الدم محاولاً معانقة الملك الذي أشاح بوجهه، ولاحظ الحاضرون ذلك، وإكتفى القذافي بإبتسامة سخرية. بعد تفجر ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، غادر أحمد قذاف الدم ليبيا إلى سوريا، ومنها إلى القاهرة، إتصلت به بعد موقفي في مجلس الأمن، لأعرف منه تفاصيل الأوضاع في ليبيا وعن ما أشيع عن إنشقاقه عن النظام إحتجاجاً على ما ترتكبه كتائب القذافي من قتل وتدمير وإستعانة بالمرتزقة، قال لي أنه غادر البلاد إحتجاجا على ما يجري، وأنه قال للقذافي:"لو حاربت العالم كله لأخذتُ بندقيتي وقاتلت معك". وأضاف أنه خرج من سوريا هارباً لأن معمر القذافي إتصل بالسلطات السورية وبعض الفصائل الفلسطينية الموجودة بسوريا من أجل خطفه وإعادته إلى ليبيا أو قتله. إستمرت الإتصالات الهاتفية بيننا، وكان يكرر كلامه المتذمر مما يجري في ليبيا من دماء، وأخبرني أن سيف الإسلام يريد قتله بأي طريقة وبأي ثمن، لكنني علمت فيما بعد أنه على إتصال يومي بالقيادة وأنه يقدم الأموال والدعم لنظام إبن عمه. توقفت الإتصالات بيننا، ولكنني إتصلت به ذات مرة بعد إقتراب صدور مذكرة الإعتقال من المحكمة الجنائية بحق معمر القذافي وإبنه سيف الإسلام وصهره عبدالله السنوسي، وطلبت منه أن يبذل الجهد من أجل إقناع القذافي بالتنحي عن السلطة، وإمكانية إيقاف سيل الدم، ولكنه تحدث عن نقل السلطة لأحد أعضاء مجلس قيادة الثورة، والإستعانة ببعض الضباط الأحرار ووزراء من حكومة القذافي، أفهمته أن مثل هذه الأفكار غير مقبولة، وأن الحل الممكن هو تنحي معمر القذافي عن كل مناصبه وتسليم السلطة إلى المجلس الإنتقالي.

أحمد قذاف الدم، هو أحد الأشخاص الذين سيسترجع الليبيون صورته كلّما ذكر القذافي وعهده، فقد كان من شخصيات "الإطار" الذين لا يختفون إلاّ ليظهروا، كان متميز الملامح والسلوك والحركات واللباس، بعصاه التي لا تفارقه، والمنديل الذي لا يغيب عن جيب بدلته، وملامحه التي تشارك معمر القذافي في تقاسيم كثيرة. وبنهاية حقبة معمر القذافي تلاشت طقوس وشخوص، ومن أبرزهم أحمد قذاف الدم، لقد عاش مع معمر القذافي طفلاً في بيتهم وفي عائلتهم بسببها، وكبر معه، ومع معاركه السياسية والعسكرية، وتنقل معهم بين مفازات الصحراء الليبية ووديانها، ورافقه في زياراته الخارجية، عاش معه داخل الخيمة وخارجها، سمع الكثير، وقال الكثير، اليوم تغرب شمس وتشرق شمس. ولا أدري أين سيكون أحمد الذي كان معمر والده وأمه وعائلته، أعطاه أيامه وسنواته، لم يتزوج، ولم يتنفس عبق الأسرة، إكتفى بعطر السلطة والثروة والسلاح، وحفنة من الذين يركضون وراءه خوفاً وطمعاً، حاملاً عصاه، ومنديلاً في جيب بدلة، فماذا سيجد في جيب الأيام القادمة؟!. بعد أن تلاشت الأوهام في الشقوق، وإقتلع طوفان الناس قصورا، وصور الصحف، وبريق شاشة التلفزيون، رُفع في ليبيا على مدى سنين سطوة معمر القذافي شعار: "لقد حطمت عصا الراعي تاج الملك". كان أحمد يحمل عصا الراعي، فما عادة العصا، وما عاد الراعي. قالوا أيضا:" لقد إنتصرت الخيمة على القصر". وقد كان كلاهما لمعمر القذافي، الخيمة تزف للناس وفي وسطها يجلس على كرسي من البلاستيك، وأمامه الجمال والأغنام، وبعد أن سطع طوفان الحقيقة، رأى الليبيون أن قصور معمر القذافي ملك الملوك، وقصور أولاده وإبنته لم يتخيلها الملك الراحل إدريس السنوسي، ولا أي من أبناء عمومته. قالوا أيضا: "الناقة تلد"، و"الدينار لا يلد". لكنهم أخذوا الناقة والدينار والدولار وكل العملات، كانت صور الناقة وحليبها، تسقى لعيون الليبيين أما العملة التي لا تلد في ليبيا، لقد أرسلت في حسابات الراعي وبنيه إلى حيث تلد في بنوك ما وراء البحار. كان أحمد قذاف الدم هو الحادي الذي لم يفارق رحلات الراعي، وإصطبح بحليب الناقة حتى الإدمان، وشهد ولادة الذي لا يلد وشهد

إقتلاع أكذوبة الخيمة، وإنهيار قصور عشيرة ملك الملوك، كان بعيداً عن النجع عندما هرب قائد القيادة العالمية، من أنفاق باب العزيزية، الذي كان مغلقاً إلاّ أمام حاملي العصا، هرب معمر القذافي ومن معه من الغلمان هروب قطّاع الطرق عندما يصعقهم الصباح، ويجلجل الصياح، ويتدفق الفرسان وهم يركضون في ساحة باب العزيزية وراء الموت الذي يفرّ من أمامهم. كان أحمد قذاف الدم في القاهرة يحاول إستعادة ما تمزق من عباءة الوهم الذي سار وراءه عقوداً، حتى صار جزءًا من الخيوط، يغالب الحقائق ببيانات وتصريحات لا تستطيع أن تقترب من أبجدية الوطن الليبي، فالدم غير الحبر، وصفحة الوطن غير الدينار الذي لا يلد، لم يذكروا أن الوطن هو الذي يلد، لم يعلموا أن العصا في يد الراعي وإن تحولت إلى صولجان مذهب في يد ملك ملوك أفريقيا لا تقوى على تحطيم تاج الوطن، وأن العصا القادرة على تحطيم التيجان هي عصا الخلود، خلود الشعوب. هكذا الدنيا، من رافق الوهم فإن مثواه التيه.


محمد المدني الأزهري الحسناوي

محمد المدني الأزهري الحسناوي

قل ما تشاء عنه، ولكن لا أحد يستطيع أن ينزع عنه صفة الذكاء، عرفته عندما كنا طلبة بالمرحلة الثانوية بمدرسة سبها، كان دائما من المتفوقين إضطرته ظروفه أن يعمل بأحد الجهات الحكومية مساءاً، وأن يواصل دراسته، ولم يحل عمله بينه وبين التفوق، إنتقل بعد حصوله على الشهادة الثانوية من مدرسة سبها إلى بنغازي، حيث إلتحق بكلية الحقوق، وحصل على شهادة الليسانس بتفوق. لم يذكر له نشاط سياسي ملحوظ خلال دراسته الجامعية، أوفد للدراسة العليا بفرنسا في مجال القانون. عندما بدأ الحراك الطلابي بالجامعات الليبية في مطلع السبعينات من القرن الماضي، شارك وهو في فرنسا في فعاليات طلابية ليبية تضامنا مع مظاهرات الطلاب في جامعتي طرابلس وبنغازي ضد قمع القذافي. لم يستمر موقفه هذا طويلاً، فقد إنضم إلى إتحاد الطلاب الليبي بفرنسا، إنقسم الإتحاد إلى موالين ومعارضين للنظام. تدحرج إلى صفوف الجناح المؤيد للنظام، وبدأ يبني جسر التواصل معه.

كان مكتب الإتصال باللجان الثورية، هو الحلقة التي تدير الإتحادات الطلابية الليبية بالخارج الموالية للنظام، كثف المدني زياراته إلى ليبيا، وبدأ يرتفع في درجات التواصل والإقتراب، إستطاع أن يجالس محمد المجذوب القذافي، وفي مدة قياسية أصبح من المقربين له. أصبحت الدراسات العليا بالنسبة له في الترتيب الأخير، وإكتفى بدرجات الثورة العليا.

محمد المدني الأزهري، ينتمي إلى قبيلة الحساونة بالجنوب الليبي وتحديداً من منطقة الشاطئ، ويعرف عن رجالات تلك القبيلة اللباقة في الحديث، ويتصف عدد غير قليل منهم بالحكمة، ولا تنقصهم الجرأة وروح المواجهة، وقد شارك رجال قبيلة الحساونة في الكثير من معارك الجهاد ضد الطليان.

عمـل المرحـوم والـدي لسـنوات متصـرفاً لمنطقـة الشـاطئ التـي تقطنهـا قبيلـة الحساونة، وقـال عـن سـكان تلـك المنطقـة أنهـم مثـل غـنم الزكـاة، تجـد بينهـا الفحـل الضـخم، والرضـيع المعـاق، والعنـز السمينة، والعشـار، وتلـك التـي لا تسـتطيع الحركـة مـن الـوهن. ولا شـك أن ضـيفنا علـى هـذه الصـفحات مـن أذكيـاء هـذه المنطقـة بـلا منازع.

في المجتمعات المتخلفة، خاصة تلك التي يلمع فيها الطـابع القبلـي، يكون لوجود الشـخص فـي موقـع حكـومي بـارز، يكـون لـه تـأثير حاسـم علـى مكانتـه بـين أهلـه، فالمكان الحكومي يعطي المكانة الإجتماعية البارزة.

أثناء رئاسته لإتحاد الطلبة الليبيين بفرنسا، توثقت علاقة محمد المدنـي الأزهري بمكتب اللجان الثوريـة، فـي دورات التجـارب الثوريـة والديمقراطيـة الشـعبية، أمـر العقيد القـذافي، بـأن تـدار دواليـب الدولـة ومؤسسـاتها مـن خـلال "النقابـات، والإتحـادات، والروابط المهنية"، وطلب من كل هذه الأجسام أن تفرز عناصر للمشاركة في الإدارة، خلق الإتحاد العام للطلبة الليبين الذي يدير اللجان الثورية، جهازاً فرعياً، أسماه مكتب الإتصال الخارجي من بين قيادة الإتحاد، وبما أن القذافي قرر أن تدار وزارة الخارجية بلجنـة شـعبية مختـارة مـن مختلـف النقابـات والـروابط، والإتحـادات المهنيـة، فقد أختيـر محمد المدني، ليكون ممثلاً للطـلاب في إدارة تلك الوزارة، وتحلّق قرابـة عشر أعضـاء حـول عبـد العـاطي العبيـدي وزيـر الخارجيـة، مـن العمـال والأطبـاء والمحـامين...ألـخ كان المدنـي الأزهري واحداً من هؤلاء. أثنـاء وجوده فـي تلك الحلقة، كان صـوتاً ويداً لمكتب الإتصـال باللجـان الثوريـة، وشكل مـع "مجموعـة قـاريونس" أي خريجـي جامعـة بنغـازي الفـاعلين فـي اللجـان الثوريـة، شـكل معهـم طليعـة فاعلـة داخـل مكتـب اللجـان وخارجـه، ضـمت هـذه الطليعـة أحمـد إبـراهيم القـذافي، ومصـطفى الزايـدي، ويـونس معافـه، الطيـب الصـافي وغيرهم. مـن هنـاك، مـن الخليـة النقابيـة بـوزارة الخارجيـة . مكتب الإتصال الخارجي . بدأ يطل على العناصر الفاعلة في خضم العمل الثوري.

منذ إعلان قيام سلطة الشعب سنة 1977، تلاشت ملاح المؤسسة في الدولة الليبية، وحلت محلها، مراكز القوى، وهي العناصر التي تلتف حول العقيد معمر القذافي في دوائر أمنية وثورية.

كان موسى كوسا، يتولى رئاسة قسم اللجان الثورية العالمية بمكتب الإتصال باللجان الثورية العالمية، وأنيطت به متابعة الحركات الثورية في العالم، وتداخل عمله مع مكتب الإتصال الخارجي "وزارة الخارجية"، وبالتالي مكتب الإتصال الخارجي بإتحاد الطلبة الذي يساهم المدني الأزهري في قيادته، كان موسى كوسا في حاجة إلى عناصر لها معرفة بالعالم الخارجي، ممن يجيدون اللغات الأجنبية خاصة، ولما كان المدني من الدارسين في فرنسا، فقد وافق شنٌ طبقة، وإنجذب الإثنان إلى بعضهما، وإلتصقا بغراء الثورة، وإرتبطا بخيط المصلحة.

في تلك الفترة أي في بداية ثمانينات القرن الماضي، أسس في قيادة أركان الجيش الليبي مكتب لحركات التحرير، مهمته ربط الصلة بالحركات الثورية في جميع أنحاء العالم، وتقديم الدعم المالي والعسكري لها، وفي تلك السنوات وتحديداً في سنة 1982 تأسست "المثابة العالمية" ومهمتها كما جاء في عنوانها لمقاومة الصهيونية والإمبريالية والرجعية، وعين موسى كوسا منسقاً لها. ضم مكتب حركات التحرير الذي كان تابعاً لقيادة أركان الجيش الليبي إلى هذا الجسم الجديد الذي سمي "المثابة العالمية"، قال معمر القذافي أنه أخذه من القرآن، وأصبحت تضم قسم اللجان الثورية العالمية بمكتب الإتصال باللجان الثورية، ومكتب حركات التحرير بقيادة أركان الجيس الليبي. إلتقط موسى كوسا عددا كبيرا من الليبيين الذين لهم تجربة بالعمل

بالخارج، ويتقنون لغات أجنبية، وخاصة الفرنسية، لأن عمل المثابة يركز بدرجة كبيرة على غرب أفريقيا وخاصة الدول الفرانكوفونية، وإستقطب ايضا، المتحدثين باللغة الإسبانية، للإهتمام الخاص الذي أعطاه القذافي للحركات الثورية في أمريكا اللاتينية.

إنطلق المدني بقوة من داخل . المثابة العالمية . للعمل في غرب القارة الأفريقية. كان حلم القذافي، أن يقود ثورة تغير العالم، وقد صاغ هذا الحلم في مقولة مركزية في محاضراته بالمدرج الأخضر وهي: "أن العالم، يتقلب، ولم يتغير، ونحن سنغيره"، وإعتبر منطقة غرب أفريقيا فضاءه الثوري الحيوي، ورصد لذلك الملايين من الدولارات، وجبالاً من الأسلحة، وأوكل هذه المهمة إلى المثابة العالمية، ومنسقها موسى كوسا، وساعده الفرانكوفوني محمد المدني الأزهري، أو كما يسمى نفسه أحياناً، بالدكتور المدني.

برزت في ليبيا في سنوات القذافي ظاهرة تثير الأسى والضحك، وتعلن حالة التدهور والإنحطاط التي تهاوت فيها ليبيا، وهي ظاهرة . الدكاترة . فلا تستغرب أن تجد شاعراً شعبياً مثل محمد سعيد القشاط، الذي حصل على دبلوم المعلمين العام القديم، الذي يمنح بعد سنتين من الدراسة بعد الحصول على الشهادة الإبتدائية، وأن تجد دكتوراً لا يجيد اللغة العربية، ولا يعرف كلمة واحد بلغة أخرى. وشهدت التسعينات من القرن الماضي، توجه العديد من الليبيين إلى دول أوروبا الشرقية للحصول على لقب الدكتور مقابل خمسمائة دولار وبعض علب السجائر.

تعلق معمر القذافي بذلك الحلم ليلاً ونهاراً، أرسل قواته إلى تشاد لإسقاط غريمة حسين هبري، ولكن قواته دحرت وأسر آلاف من الجنود، وعلى رأسهم العقيد خليفة حفتر قائد تلك القوات. غير إسلوبه وتخطيطه، ولم يعد يميل إلى إرسال القوات مثلما فعل في تشاد وأوغندا، حيث لم يحصد سوى الهزائم. وتوجه إلى غرب أفريقيا، يمول المتمردين، أو الثوار الذين وصلوا إلى السلطة بإنقلابات عسكرية.

إستطاع ضباط صغار من الإستيلاء على السلطة في بوركيينا فاسو يقودهم نقيب إسمه توماس سنكارا، أعلن هو وزملاؤه، أنهم ضد الإستعمار والإمبريالية، ويريدون تحرير أفريقيا كلها وليس بلادهم فقط، إندفع القذافي إلى هؤلاء الشباب، دعاهم إلى ليبيا، وتحدث معهم مطولاً عن الثورة، والإمبريالية، والإستعمار، والكتاب الأخضر، وضع برنامجاً حافلاً لقائد الإنقلاب الشاب توماس سنكارا، طاف به في أنحاء ليبيا، وأرسله إلى سرت لمقابلة والده، وإلى الأماكن التي تربى بها، ليأخذ شحنة ثورية أصلية. شُحنت الطائرات بالأسلحة متوجهة من طرابلس إلى واقادوجو، وحملت الحقائب الممتلئة بالدولارات، كان . الدكتور . هو الذي يعالج حالة الثورة الأفريقية الشاملة. تطورت العلاقات بين الطرفين، ولم يعد بالإمكان مجاراة سرعة ذلك التطور وقيادته من بعيد، وهكذا عين المدني الأزهري، ليكون سفيراً للجماهيرية الليبية، لدى مشروع الجماهيرية القادمة في بوركينا فاسو، بل أن بعض وسائل الإعلام الليبية لم تنتظر إعلان الجماهيرية هناك، وقالت إن إسم بوركينا فاسو هو الترجمة لكلمة "الجماهيرية".

إنتقل المدني إلى واقادوجو، عاصمة بوركينا، لقيادة غرفة العمليات من الميدان، وأشرف مباشرة، على طلبات الثوار.

لم يكن ثوار بوركينا الشباب، إستثناء من فعل ماكينة الثورة التي تأكل أبناءها، فقام النقيب، بليز كمباورى، الرجل الثاني في الثورة بقتل رجلها الأول توماس سنكارا، لقد حدث بين الرجلين ما حدث بين أحمد بن بلا قائد الثورة الجزائرية، ورجلها الثاني، المرحوم العقيد هواري بومدين، غير أنه في الحالة الثانية، كان الأكل بدون دماء، فقد إكتفى بومدين، بوضع رئيسه بن بلا في زنزانة مريحة. ولكن في الحالتين، البوركينية، والجزائية، إتهم الرجل الثاني، الرجل الأول، بأنه ثوري حالم، يركض خلف شعارات عالية في السماء السابعة، ويتجاهل معاناة الناس على وجه الأرض.

كـان للقـذافي أهـداف، وهـي إشـعال غـرب أفريقيـا بـالثورة الشـاملة، وأن يؤسـس جماهيريات تقول لليبيين أن نظريته العالمية الثالثة التي صاغها في الكتاب الأخضر تسري في العالم، إنطلاقاً من أفريقيا، وهدف حلمه، هو أن يكون له أتباع من الزعماء يأتمرون بأمره، ولا يعصون أوامره. أما بليز كمباوري رئيس بوركينا الجديد، فكان له هدف واحد، وهو أخذ ما يمكن أخذه من أموال معمر القذافي وسلاحه، مقابل خطاب منافق مراوغ، يبجل القائد، ويعيد كلماته في بعض المناسبات المحلية والأفريقية.

تراجع الوجود السياسي والإقتصادي الفرنسي، خلال رئاسة فرانسو ميتران، ورأى معمر القذافي، أن هناك فراغاً، ينتظر من يملأه، وأنظمة مهترئة، تنتظر من يغيرها، تفعيلاً لمقولته: "العالم يتقلب، ولم يتغير، ونحن سنغيره".

إتخذ القذافي من بوركينا فاسو، غرفة العمليات، التي يدير منها، معركة الثورة في غرب أفريقيا، فقد وصل إلى السلطة في غانا النقيب، رولنجز، وليبيريا التي غرقت في حرب أهلية لسنوات طويلة، غدت أرضاً خصبة لبذور الثورة، وعمّت الفوضى دولة سيراليون، وساحل العاج، وغينيا كوناكري.

نجح محمد المدني الأزهري، في حشد رؤوس من غرب أفريقيا، إلى غرفة عمليات الثورة العالمية الثالثة، التي ستغير العالم، وعلى رأسهم بليز كمباورى رئيس بوركينا فاسو، النقيب رولنجز، رئيس غانا، تشالز تايلور، أحد قادة الحرب الأهلية في ليبيريا، صنكوح، زعيم مجموعة إرهابية تعمل في سيراليون والدول المجاورة. كل ذلك تحت مظلة المثابة العالمية.

أثناء إنغماسه في ذلك الخضم، قضت ضرورات التنسيق، والحشد السياسي، أن يتواصل المدني الأزهري، مع عدد من القيادات في دول أخرى بمنطقة غرب أفريقيا، وبعد دخول ليبيا حظيرة العقوبات والحصار، إتجه القذافي إلى القارة الأفريقية طلباً للدعم والمساندة، وإستطاع إقامة علاقات مع عدد من دول القارة خاصة تلك الناطقة

بالفرنسية. أمام الموقف الغربي المتشدد، والموقف العربي المتردد، تعلق القذافي بحبل الأمل الأفريقي، الذي تحول في كثير من المحافل والمؤتمرات إلى سند ومتكأً له. قدح حجارة فكره، وإبتدع تأسيس تجمع سياسي، أسماه تجمع، دول الساحل والصحراء، الذي ضمّ عدداً من دول ذلك الإقليم، وكلها من تلك التي حاول القذافي أن يوقد بها نار الثورة، وكان المدني الأزهري، هو حامل تلك الشعلة إلى رحابها.

إختار القذافي، المدني ليكون أميناً لذلك التجمع، الذي قرر أن يكون مقره بطرابلس، ثم إتسع هذا التجمع ليضم أكثر من 20 دولة أفريقية. أتقن المدني تمثيل ذلك الدور، ولكنه كان يدرك، أنه مثل ذلك التعيس الذي أعطيت له عصا، وطلب منه أن يهش بها على الريح لإدخالها من عنق الزجاجة.

إعتاد المسؤولون الليبيون، وأصحاب المناصب العليا منهم خاصة، أن يرفعوا عقيرتهم بالضيق والشكوى من تصرفات القذافي، وسلوكه الغريب، وطلباته التي قلما تلتقي مع المنطق والممكن، ولكن المدني الأزهري كان الأعلى صوتاً، والأكثر عصبية، فكثيراً ما أرسله القذافي إلى الرؤساء الذين كان يعتبرهم أتباعاً أو حلفاء، يعطيهم الأوامر لإتخاذ مواقف محددة خاصة في القمم الأفريقية التي تناقش وثائق الإتحاد الأفريقي، والإسراع في إقامة "الولايات المتحدة الأفريقية". قلما جلست معه، دون أن يشرد في ملحمة الشكوى والنقد والسخرية من القذافي، وأولاده وأفراد قبيلته، يعدد تجاوزاتهم وفسادهم، والإنحراف الأخلاقي، الذي لم يعد القائد يخجل من فعله أمام الجميع، ومن سطوة مبروكة الشريف القريبة جداّ من القذافي، والمسؤولة الأولى عن تنسيق وتدبير وتمويل خصوصياته العاطفية. ولكنه مثل أكثر المسؤولين يُغيّر ذاك "الكاسيت" بسرعة حالما يقف أمام القائد الذي كثيراً ما يبادره بعبارات المزاح والملاطفة، فهو كثيراً ما يغضب منه خاصة عندما لا يعود بالجواب الذي يريده من قادة س.ص. ولقد طور المدني توليفة لغوية، وحركات يدوية، تجعل لغة الجسد درعاً واقياً من سهام اللوم أو حتى التوبيخ.

يرافق القذافي في لقاءاته مع الرؤساء غير العرب، مترجمان، هما مفتاح الميسوري الذي يتحدث الفرنسية ببلاغة الفرنسيين، وبدرجة أقل اللغة الإنجليزية، والثاني هو فؤاد الزليطني الذي يتحدث الإنجليزية، وإذا كان الرئيس الزائر من تجمع س.ص ومن الناطقين بالفرنسية فإن المترجم المفضل لدى معمر القذافي، هو المدني الأزهري، فبالإضافة إلى إلمامه بتفصيل الكثير من السوابق والخلفيات، فهو كما يقول القذافي، يتحدث الفرنسية بـ"الفلاقي"، وتعني باللجهة العامية المباشرة والبسيطة، ويضيف القذافي أن المدني يتحدث الفرنسية بالأسلوب الحسناوي، نسبة إلى قبيلة الحساونة التي ينتمي إليها المدني الأزهر. كان المترجم مفتاح الميسوري لا يخفي ضيقه من قيام المدني بالترجمة الفرنسية في حين يجلس هو على كرسي بعيداً عن القذافي وضيفه.

حدث في بداية تولي المدني الأزهري، منصب أمين عام تجمع الساحل والصحراء، أن أرسل له القذافي أحد العاملين بالقيادة للحضور بشكل عاجل للقيام بمهمة الترجمة، وردّ المدني بالقول: أنا وظيفتي أمين للتجمع وليس لي علاقة بالترجمة، وعندما نقل المرسول ذلك الجواب، أصرّ القذافي على أن يقوم المدني بالترجمة في جميع اللقاءات التي يكون فيها الضيف من أفريقيا الفرنكوفونية.

لقد كان بإمكان محمد المدني الأزهري، أن يكون دكتوراً فعلاً لا لقباً، بل سيكون أستاذاً للقانون يشار إليه بالبنان، فهو لا ينقصه الذكاء، والطموح، ولكن الأقدار ألقت به في الزمن الثوري القذافي، غاص في سراب التيه، وكان هو أكثر الناس إدراكاً لذلك وضيقاً به، لم يكن غضبه، وضيقه المشتعل في داخله، وفوق شفاهه، إلاّ صدى لزمهرير الحسرة، كنت أداعبه مازحاً، وهو لا يضيق بذلك بحكم العلاقة الودية التي كانت تربطنا، مرة واحدة طلب مني أن لا أردد أمام الآخرين ما قلته له، تعليقاً على أحد المواقف العبثية، قلت له "أنت تقوم بمهمة نادرة في هذا الموقع، وهو أمانة س.ص وفي هذين الحرفين قول قديم، فقد كان هناك فقيه يدرِّس العبادات لمجموعة

من الفتيات، وذكر أن من نواقض الوضوء . مس الذكر، فسألته إحدى الطالبات: يا سيدي الفقيه . هل المس بالسين أو بالصاد، فرّد الفقيه، لقد دخلت يا بنيتي في عمق العمق ولا بدّ أن أسوق لك ما قاله الشاعر:

لقد كنتُ أَرجْو أن تكونَ مواصلي

فأَسقيتنــي بالهجـرِ فاتحــةَ الرعدِ

فبالله بــرّد مـــا بقلبـي مـن الجـوى

بفاتحةِ الأعرافِ من رِيقكِ الشهـدِ

- وفاتحة سـورة الرعد هي: المـــر
- وفاتحة الأعـــراف هي: المص

وقلت له أنك محظوظ، لأنك تملك السين والصاد.

رغم وجوده، في حركة اللجان الثورية، وعمله في المثابة العالمية، وقيادته لغرفة عمليات الثورة الأفريقية وهو في واقادوجو عاصمة بوركينا فاسو، رغم ذلك، فهو لم يصمت عن نقد العنف، بصوت عال أمام الزملاء، وبتعبيرات مرنة أمام القذافي، إلتقيته آخر مرة، في القمة الأفريقية التي إلتأمت في "مالابو" عاصمة غينيا الإستوائية في يوليو 2011، كان ضمن أعضاء الوفد الليبي الذي ترأسه عبد العاطي العبيدي وزير الخارجية، وضمّ مختار القناص، المبعوث الشخصي للقذافي، وبشير صالح، مدير مكتبه، حيّاني بالأحضان، لكنه تفادى الوقوف معي منفرداً، عندما نلتقي في ردهة قاعة المؤتمر، يقف بعيداً، ويرفع يده بتحية عسكرية ويمضي، لم يظهر على شاشات التلفزيون الليبي طيلة شهور ثورة 17 فبراير، طاف في العديد من الدول الأفريقية، وشارك في وفود أرسلها القذافي وخاصة إلى مجموعة س.ص. لكنه لم

يغادر مركب نظام القذافي، الذي كان يسبح في بحر الدم الليبي، غاص القذافي في أعماق التيه الأبدي، وغاص معه الكثيرون، لم يقدر أن يمدّ يده للذين حاولوا إنقاذه، من بحر الدم، تذكرت تعليقاً لاذعاً قاله له صديقه الحميم مختار القناص ملمحاً إلى صفة البخل التي يصفه بها أصدقاؤه، قال مختار: "إن المدني الأزهري غرق مرة في البحر، وجاء من يحاول إنقاذه، فقال له هاتِ يدك، رفض المدني، وكرر الرجل ذلك مرات عدة، إلى أن قال له أحد العارفين، قل له خُذْ يدي، فوراً مدّ المدني يده". لم يجد المسكين من يعرف لغة يده حتى يخرجه من بحر الدم.

هــدى فتحــي بن عامــر

هدى فتحي بن عامر

إذا سألك سائل عن هذه السيدة، هل هي ممن خلق الله، أو مما صنع معمر القذافي؟ من حق الجواب أن يأخذ من الوقت أكثر مما نتوقع، فكل موجود على وجه هذه البسيطة هو من خلق الله، ولكن بعض المخلوقات، لا تحمل في طياتها من قدسية الأمشاج سوى الدم واللحم والعظم، أما المشاعر والطبائع، أو ما نطلق عليه الهوية الذاتية، فهو مصنوع مثله، مثل الأدوات التي تعج بها الدنيا.

هدى فتحي بن عامر، تؤكد ما نذهب إليه، رغم أنها حملت وأنجبت، وأرضعت، مثل كل أنثى، لكن داخلها كان ممتلئا بكل المكونات التي تناقض الأنوثة، التي تحبل بالحياة، وتعج بالحب والعاطفة. هي مثل البندقية، كل ما بداخلها لا يخرج إلا الموت. بل أن البندقية تحمل نوعا واحدا من الموت، أي الموت المادي، البدني، أما "هدى" وبالغرابة الإسم والتناقض، فهي تفيض بكل أنواع القتل، المادي، والمعنوي. شنقت، وضربت، وشتمت.

لم يتركها الليبيون تنعم بهذا الإسم، ولا بإسم عائلتها، التي أنجبت رجالا يشار إليهم بالبنان، فإستبدلوا إسم هدى بن عامر، إلى هدى الشويهدي، وهو إسم الطالب، الصادق الشويهدي، الذي علقته بحبل المشنقة، ثم تشبثت بقدميه وهو في الحبل لتُسرع بإزهاق روحه.

ولدت ببنغازي سنة 1954 من عائلة بن عامر الكبيرة العريقة، وهنا تتضاعف الصدمة، فبنغازي، المدينة الثانية في ليبيا، هي المدينة التي إختارها القدر، لتكون محطة متميزة في تكوين هوية البلاد الليبية منذ القدم، فيها قامت حضارة يونانية ذات جسم ولون وطعم خاص. وعندما جاءها العرب المسلمون، أخذت منهم وأعطتهم،

وفي خضم مقاومة الإستعمار الإيطالي، كانت بنغازي طوفان جهاد، وزلزال صدام، وبحر دم يُرضع الحرية. شهدت أرضها معارك المنعطف في الحرب العالمية الثانية، تصادمت مدافع الماريشال مونتغمري والماريشال رومل. وظل إسم عمر المختار وروحه ملاكا يرفرف فوق بنغازي.

بنغازي تجسّد كل ما في ليبيا، سكانا، وثقافة، عقلا وقلبا، تجمّع فيها الليبيون من كل حدب وصوب، وأبدعوا معا لوحة حياة، ونسجوا ثوبا غطاهم بألفة دافئة.

منها أعلن إستقلال الوطن، ترعرت فيها روح الحرية والرفض، كبرت شجرة الحرية تلك، التي إرتوت بدم الجهاد المقدس، فأصبحت الأفواه أغصانا لتلك الشجرة الحمراء، والنفوس شهقات إرادة. غضب الملك إدريس السنوسي من المدينة العصية، وإنتقل إلى طبرق، مثلما غضب منها معمر القذافي، فصب عليها سوط عذاب لسنوات طويلة.

لقد كانت هذه المخلوقة " هدى " نتوءا رجسا من هذه المدينة الأيقونة التي كانت دائما تعانق الأقدار الليبية الهائلة والحاسمة، فيها أعلن إستقلال الوطن سنة 1951، وفيها ولد المجلس الوطني الإنتقالي الليبي، العنوان الأول لمعركة الإستقلال الثانية، ومنها إرتفعت شهب تحرير ليبيا، من الديكتاتورية ومنها أعلن تحرير ليبيا يوم 20 اكتوبر.

وكانت " هدى" مسخا إجتماعيا، وخداجا مشوها، من عائلة بنغازية كبيرة كريمة، أعطت للوطن الليبي، رجالا كبارا علميا وسياسيا، كان من بينهم الشيخ مصطفى بن عامر زعيم جمعية عمر المختار الوطنية، رفع صوته مطالبا بإستقلال حقيقي للوطن، وحرية كاملة للمواطن.

قلت في مستهل هذا الفصل أن هذه المخلوقة، من صنع القذافي، فقد كانت من أوائل الطالبات اللاتي إنخرطن في حركة الراهبات الثوريات، وإرتبطت بعلاقات

شخصية حميمة بمعمر القذافي مبكرا، وتعلمت السباحة، منذ مراهقتها، في بحر الدم، وصارت من الجناح الثوري الدموي الذي قاد ما عرف بثورة الطلاب في 7 أبريل سنة 1976، وشاركت في الزحف على إذاعة بنغازي في 1973. تفوقت على شركائها من الرجال في الحملات الإرهابية ضد الطلاب في كل مواقعها في أعوام 72، 73، 76، 77، 82 و1985. كان لها دور رئيسي في إعدام الصادق الشويهدي في مايو 1984 وبحضور أختها وأخيها. كما شاركت في إعدام ستة من الطلاب وهم: أحمد محمد علي الفلاح، على عبدالعزيز البرعصي، عصام عبد القادر البدري، المحجوب السنوسي محجوب، سعد خليفة محمد الترهوني، سامي عبدالله الزيداني، بالمدينة الرياضية في 17 فبراير 1987. وقادت حملات إعتقال في مدينة بنغازي بعد مقتل السفاح أحمد مصباح الورفلي على يد عناصر وطنية، وقد طالت تلك الحملات العديد من الأسر الليبية، وإقتادت بعض النساء والأمهات إلى المعتقل وقامت بتعذيبهن، ولم تتورع في تجنيد عددا من البنات الفقيرات في صفوف حركة اللجان الثورية، وإستعملتهن في العمل الأمني من باب الدعارة، وقدمت بعضهن إلى سيدها معمر القذافي، وكان دورها في المداهمات والمحاكمات الصورية التي كان ضحاياها رجال الأعمال والمقاولين وكبار الموظفين، فقد كانت عضوا في المحكمة الثورية الدائمة، وقد صفعت أحدهم على الهواء مباشرة وهو المرحوم فتحي عزات رجل الأعمال المعروف.

كانت صورتها، على شاشات التلفزيون الليبي، وهي تُحاكم رجالا يكبرون والدها، وتكيّل لهم الشتائم، وتقذفهم بالإتهامات، كان ذلك المشهد، يعلن لليبيين أن شيئا غريبا، صاعقا، قد نزل على الأرض الليبية، عندما كانت تتحدث بصوت مهدّد متوعّد، يتساءل الليبيون، هل هذه مخلوقة من ليبيا، وتحديدا من بنغازي؟ ومن عائلة بن عامر؟ يخرج صوتها من فمها مُحدثا قرقعة، كتلك التي ترتفع عندما يمشي حيوان على بقايا هشيم هش، يتكسر تحت الأقدام، يصطدم صوتها بالزفير المندفع من خياشيمها، فينكسر الصوت، يرجع نصفه إلى حلقها، ويندفع النصف الآخر في

مربعات ومكعبات تقذف بها المشاهدين، وتلطخ بها السامعين، صار هذا المخلوق حديث الليبيين والليبيات، فعلا نجح معمر القذافي بتفوق في إلحاق أذى جماعي بهم عندما قذفهم بهذا الجرم الذي يسمى – هدى بن عامر.

ما كان أكبر مخرج سينمائي بقادر على إكتشاف مثل هذه الشخصية، وعلى توظيفها في هذا الدور التراجيدي الذي يفوق كل شخصيات شكسبير، لم ينقصها العصاب، ولا التبجح، والعدوانية التي تتدفق من صدر إمرأة تمتص الدماء بعيونها المتعددة.

كيف إكتشف القذافي هذه الطالبة، الظاهرة، كيف إتقن توظيفها؟ سنة 1971، وفي سياق خطاباته المتواصلة في الناس، ألقى العقيد خطابا في بنغازي، ظهرت أول ردود الأفعال السلبية ضده، وقيل أن أكياسا من القمامة ألقيت عليه من أعلى أحد المباني التي كان يقف تحتها خطيبا، لم يكن حماس الجماهير وتفاعلهم معه بالقدر الذي كان يتوقعه، أو بالأحرى يريده، بدأ الفتور منذئذ نحوه يتصاعد، إلى أن وصل إلى درجة العداء العلني في السنوات اللاحقة، خاصة بين طلاب جامعة بنغازي، الذين رفعوا شعارات تطالب العسكر بالرجوع إلى ثكناتهم، وفي ذلك الوقت بدأت معارضة مجلس قيادة الثورة، وغالبية الضباط الأحرار لإنفراد القذافي بالحكم. قالوا لمعمر في وجهه، إننا قررنا حل مجلس قيادة الثورة، وتنظيم الضباط الأحرار، ونقل البلاد إلى الحكم المدني. إعتقد جازما أن هناك صلة بين ما يحدث في بنغازي من رفض شعبي له، وتمرد طلابي، وبين ما طالبه به أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعض الضباط الأحرار، من حل لمجلس قيادة الثورة والإنتقال إلى الحكم المدني. وعلى طريقته، إختار القذافي طريق إستباق الأمور بالتصعيد والبدء بالهجوم، وبدأ في إعداد التهم للطلاب الذين وصفهم بالمتآمرين والإنتماء إلى أحزاب إسلامية وقومية، وأقام لهم المحاكم الصورية العاجلة، وعُلق بعضهم على المشانق.

بعد ذلك، تم إختيار شباب من الجيش، أدخلوا إلى الحرم الجامعي كطلاب مناصرين للعقيد معمر القذافي على أنهم من المتشددين المعارضين لمعارضيه. صنّف القذافي بنغازي، كمدينة وسكان على قائمة أعدائه، أعد خطة شاملة، وضعها في خارطة زمنية، لإبطال مفعول هذه المدينة على كل الأصعدة، كلف معمر إبن عمه أحمد إبراهيم القذافي، ومصطفى الزايدي، ومعهما آخرين، بالسيطرة على جامعة " قاريونس "، وهو إسم المعسكر الذي إنطلق منه الملازم معمر القذافي وشركاؤه ليلة أول من سبتمبر 1969 للإستيلاء على الحكم. تحولت جامعة بنغازي من إسمها التاريخي هذا إلى اسم "معسكر"، أسست الجامعة الليبية بعد الإستقلال وتبرع الملك الراحل إدريس السنوسي بقصره الملكي ببنغازي ليكون مهدا للوليد العلمي الكبير، سميت الجامعة في البداية بإسم " الجامعة الليبية، بفرعيها، طرابلس وبنغازي"، خصصت كليات بنغازي للعلوم الإنسانية فقط، أي الآداب بفروعها، ومعها الإقتصاد والتجارة، وطرابلس للكليات العلمية التطبيقية، أي كلية العلوم، والهندسة، والزراعة. وفتحت بالمدينتين أقسام داخلية لسكن الطلاب القادمين من خارجها. كانت فكرة هذا التقسيم، أو تحديد التخصصات مدروسة بدقة، كان الهدف هو دفع عملية إدماج الجيل الجديد المتعلم، وتشجيع الإختلاط بينه من جميع أنحاء ليبيا، من خلال التعارف والتزاوج، وهذا ما حدث فعلا، وعندما إقترح بعض الوزراء فتح فروع للكليات العلمية بجامعة بنغازي، وأخرى للكليات النظرية بطرابلس، رفض مجلس الوزراء ذلك بشدة، لأنه يخالف الهدف الذي سبق ذكره.

في ما سمّي بثورة الطلاب في 7 إبريل، ألقي القبض على مئات الطلاب، وطرد المئات منهم أيضا، وطال ذلك عددا كبيرا من الأساتذة العظام، وعلى رأسهم الأستاذ الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بدوي رحمه الله، والدكتور الشهاوي، والشيشكلي، وغيرهم، وتعرضوا للتعذيب والسجن والطرد.

وسّع العقيد معمر القذافي، خلايا العنف " الثوري "، لاحظ غياب عنصر المرأة في هذا الحشد العنيف، وخلال لقاءاته المتواصلة مع الطلاب، إكتشف جسما وإسما ثمينا، كان ذلك هو " هدى بن عامر "، كان ذلك الإكتشاف بالنسبة له، هو هدية السماء والأرض، فهي:

1. إمرأة.
2. من عائلة بن عامر.
3. عدوانية، عنيفة، بذيئة اللسان.
4. مستلبة بالكامل لشخص معمر القذافي.
5. لا توفر قولا ولا عملا في سبيل تنفيذ كل أوامره، ورغباته.

بعد أيام قليلة من إكتشافه لها، إنفرد بها ليال طوال، في بنغازي وطرابلس، لم يكن الكثير ممن حوله قد عرفوا بعلاقاته النسائية بعد، كانت "هدى" من أوائل الليبيات اللاتي وهبن أنفسهن للقائد، وبرغم ما يردده المقربون من القذافي، العالمون ببواطن حوارات المخادع والمرابع، عن مدى عمق العلاقة بينه وبين هدى، برغم كل ذلك، فإننا لا يمكن أن نجزم بحقيقة ما تردد مؤخرا عن – هناء – وهي إبنة القذافي بالتبني، وقيل أن أمها الحقيقية هي هدى بن عامر، ووالدها الحقيقي هو معمر القذافي.

" هناء " القذافي، هي من غرائب العجائب، وإن شئت فقل أنها من عجائب الغرائب، عرف الليبيون، والعالم، من خلال وسائل الإعلام هذا الإسم سنة 1986م، عندما هاجمت الطائرات الأمريكية مدينتي طرابلس وبنغازي، ومن بين الأهداف الرئيسية التي تمت مهاجمتها، بيت معمر القذافي بطرابلس، وأعلن القذافي أن إبنته بالتبني " هناء "، قد قتلت في هذا الهجوم، إبتلع الرأي العام الدولي تلك اللقمة الإعلامية، التي وضعها القذافي عمدا في فمه، ليزيد من جرعة الغضب والإدانة

للفعل الأمريكي، لكن ذلك أشعل كومة الشكوك بين الليبيين، وزاد من حزمة علامات الإستفهام عن هذه – الهناء – وتلاحقت الأسئلة البريئة وراء هذا الإسم.

كيف وصلت هناء إلى بيت القذافي؟

الرواية الأولى: قامت صفية فركاش بزيارة إلى دار الأيتام بطرابلس، وتفقدت النزلاء من الأطفال، تحدثت إلى بعضهم وهي تقدم لهم الهدايا، فقد تمّت الزيارة بمناسبة أحد الأعياد. وتضيف الرواية، أن طفلة شقراء، تعج بالحيوية، تعلقت برقبة صفية، ورفضت محاولات بعض العاملين بالدار الذين حاولوا أخذ الطفلة من أحضان سيدة ليبيا الأولى. وعندما تشبثت هناء بصفية، وإرتفع بكاؤها، إنهمرت صفية بالدموع، وطلبت من مدير دار الأيتام، أن يقوم بإعداد أوراق تبنيها لهناء وهذا ما حدث.

الراوية الثانية: إن صفية فركاش، زوجة القذافي، كانت تتمنى أن يكون لها (4) أو (5) بنات، ولكنها لم ترزق إلاّ ببنت واحدة، وهي عائشة التي ولدت سنة 1976، وقررت أن تتبنى طفلة من دار الأيتام، أو دار الرعاية كما تسمى في ليبيا، وإتصلت بالدار، التي عرضت عليها صوراً لأكثر من طفلة، مرفقة بملف عن كل صورة، وهي التي أطلقت عليها إسم "هناء". وإن صفية كانت تحب هذا الإسم، وأرادت أن تطلقه على إبنتها الوحيدة، لكن معمر القذافي، أصرّ أن تحمل إبنته الأولى، إسم أمه "عائشة".

هاتان الروايتان، تقفان على قدر من البراءة، على أساس أن صفية فركاش، هي وحدها من كان وراء قصة تبني هناء، ويؤكد صحة ذلك كما يقول المؤيد للروايتين السابقتين، حب صفية الشديد لهناء، وأنها كانت تفضلها على إبنتها عائشة التي لا تخفي غيرتها من ذلك التفضيل.

الرواية الثالثة: أن الرواية الأولى، هي الصحيحة، ولكنه منقوصة، كيف؟ هناك فصل محذوف منها، هو الفصل الأول الذي لم يرد. ما هو؟

حتى مطلع الثمانينات، من القرن الماضي، لم يرتفع دخان العلاقات النسائية "للفقيه" الثوري معمر القذافي في سماء الإشاعات، أو كواليس الرأي العام في ليبيا. فقد كانت أخبار المداهمات، والمحاكمات والعنف، هي وحدها من يحتكر ذلك السماء، وأجواء الرعب، تمنع الحديث عن ممارسات معمر القذافي، بين أي إثنين من الليبيين، بل بين المرء ونفسه، صدرت قوانين تقضي بأن المساس بشخص القائد عقوبتها الإعدام، وحدث هذا بالفعل، قال لي عمار الطيف الذي شغل منصب رئيس جهاز الأمن الداخلي، أي الأمن السياسي، أن أي ضابط قال نكتة تمسّ معمر القذافي أُعدم فوراً.

في تلك الفترة، كثف معمر من الإجتماعات الضيقة أو المغلقة، مع الراهبات الثوريات، من أجل تعبئتهن بالفكر الثوري، وشحذ إرادتهن لمواجهة متطلبات الثورة الإجتماعية، لتحقيق تحرير المرأة الليبية من قيود الماضي الرجعية. كانت تلك التعبئة أحياناً إلى أكثر من اللسان والأذن، أي لسان القائد وهو يشرح أبعاد النظرية، وأذن الراهبة الثورية وهي تمتص سماعياً ذلك الشرح. فلا بدّ من نقل معركة التعبئة الثورية إلى مخارج ومداخل أخرى. وهذا ما حدث مع مناضلة قوية وراهبة متعطشة لفكر القائد الفقيه من عيار هدى بن عامر. فهي لا يمكن أن تكتفي بحمل أفكار القائد في رأسها فقط، تريده أن ينزرع في أحشائها. إنفرد بها القائد في طرابلس، وتحققت زراعة الفقيه الثوري في حقل الراهبة. فاتحت الراهبة قديسها بعد شهور بنمو الزرع. إنزعج بشدة، وإنقلب القديس إلى ثور هائج، وهددها بالقتل، لو أنها فكرت مجرد التفكير في هذا الأمر، كان حلمها هو الزواج منه ولو ليوم واحد لإعطاء شرعية لما في بطنها، فهو جزء من بذور الفكر الثوري المقدس. أمرها بإسقاط ما تحمل، رفضت، فبالنسبة لها، ذلك كفر لا تقدر على فعله، هددها مرة أخرى بالقتل ما لم تتخلص من الجنين.

خرّت تلعق قدميه، وهي تبكي، تتوسل وهي ترتعد، رهبة ورجاء، أن لا ينتزع منها أغلى ما يمكن أن تأخذه من الدنيا وهي، نطفة من صلب القائد وترائبه. قال لها، وهو يزمجر، "فليبقى في أحشائك، ولتبقى الحقيقة نائمة أيضا هناك، أنا سأتدبر الأمر". نقلت على إثر ذلك إلى مكان سري جداّ، وبعد أن ولدت، نقل المولود فوراً وسراً إلى دار الأيتام، وكلف أحد العاملين بمكتب القذافي بمتابعة المولود أي "البنت" هناك، بإشراف متواصل من أحمد رمضان السكرتير الخاص جداّ لمعمر القذافي، رُتبَت تلك الزيارة لصفية فركاش زوجة معمر إلى دار الأيتام، إلى آخر الرواية الأولى.

قد تكون الرواية الثالثة، تحمل في أحشائها، بعض الحقيقة، ولكن ربطها بهدى بن عامر، لا يتوفر له حبل مسار الأحداث التاريخي، فعندما قامت الطائرات الأمريكية بقصف بيت معمر القذافي سنة 1986 كانت هناء إبنته بالتبني، والتي أعلن موتها أثناء الغارة، لم تتجاوز السنتين، أي أنها من مواليد سنة 1984، أو على الأكثر سنة 1983. وقد تزوجت هدى بن عامر من زوجها يونس معافه سنة 1982 بالجزائر، عندما كانا يرافقان القذافي في زيارة للجزائر. تقول هدى أنا إستدعيت بشكل عاجل من بنغازي إلى طرابلس، وطلب منها التوجه إلى المطار، وفوجئت بوجود عريسها القادم الدكتور يونس معافه على نفس الطائرة، وكان برنامج زواجه منها مفاجأة أيضا. وذلك يعني أن هناء قد ولدت بعد تاريخ زواج هدى من يونس، وإذا كانت هي قد حملت من القذافي بعد زواجها فلا يوجد داع لكل تلك المسرحية التي عرضنا روايتها الثلاث، ما كان الدكتور يونس أمام أي مانع يجعله يشك أو يتردد حتى إذا عرف الحقيقة عن أبوة القائد لهناء إن كانت من رحم هدى. وهناك حالات كثيرة، قام القذافي مثلا بتزويج جواهر وميلاد وهي قصة معروفة في أوساط الليبيين.

والخلاصة، فأنا لا أميل إلى تصديق رواية أمومة هدى لهناء، ولكنني أميل إلى الرواية الأولى، التي تقول أن صفية هي من إلتقط تلك اللقيطة وتبناها، وإلتقط لها إسم هناء المحبب لصفية.

بعد تحرير ليبيا، وقتل القذافي، أخبرني طبيب كان يرافق القذافي منذ سنة 1980، أن هناء هي فعلاً إبنة العقيد معمر القذافي من إمرأة عربية، عاشرعا لسنوات طويلة سراً، حملت منه وأنجبت هناء، التي وضعت في دار الأيتام، تابعها أحمد رمضان من مكتب القذافي يومياً. حاولت السيدة العربية أخذ إبنتها من دار الرعاية، فمُنعت. جاءت مرة أمام القيادة بالب العزيزية، وصرخت: أريد إبنتي، أبوها معمر وأنا أمها.. ضربت بالرصاص وقتلت.

مما لا شك فيه أن معمر القذافي، كان في غاية السعادة والإبتهاج وهو يكتشف هذا المخلوق الذي يحمل إسم هدى بن عامر، حقق إنتصاراً كاسحاً وساحقاً عندما لقي بين يديه هذه الفريسة التي أراد أن يستولي على كل شيء فيها، وأن يستخدمها إلى أقصى مدى، لم يتمكن معمر القذافي، وهو في أوج قوته، وإسطورة ثروته، وسطوة شهرته، لم يتمكن من الخلاص من تلك العقدة، ماضيه، الذي لا يتوقف عن جلده، فهو من أسرة لا إسم لها بين الأسر الليبية التي تذكر فتكبر، لا إخوة له يتكئ على أكتاف رفعتهم، لهذا كان يحاول بكل الطرق الشفاء من تلك النذبة القدرية، بأن يبالغ في إهانة أبناء العائلات الليبية العريقة، وأعتقد أن الحلبة الأفضل لتلك الإهانة هي الفراش. حيث يجلد النساء والرجال أيضا، وأن يستخدم بعض هؤلاء في المهام القذرة، خاصة تلك العلنية منها، وله في هدى بن عامر مآرب أخرى فقد جعلها السوط الذي يجلد به الليبيين بعد أن يجلد بها أسرتها شرفاً وإسماً، تحت شعار دفع الثورة إلى مفاصل الجسد الإجتماعي الليبي.

فكونها إمرأة، يعني أن الثورة، قد دخلت غرف نوم المجتمع الليبي، وأن التغيير والفعل الثوري، قد صبغ لون الثوب الوطني كله، وكانت المرأة من قبل مفعول فيه،

أو مفعول بـه فـي أحسن الأحـوال، ولـم تكـن فـاعلاً قـط، وإسـتعمال المـرأة فـي عمليـة المداهمات الثوريـة والتحقيـق مـع الرجـال، ومحـاكمتهم، تجعـل العقوبـة، ثالثـة، ومثلثـة، فالرجل الليبي يتمنى الموت قبل أن يقف أمام إمرأة تهينـه فـي التحقيق، وتضـربه تحت التعذيب، كانت هدى هي المرأة الأولى التي تقوم بكل ذلك.

بنت بن عامر، هذا الإسم يحقق به القذافي هدفين:

الأول: أنه إستل من هذه العائلة سيفاً، يسلطه على أهل بنغازي، التـي مثلت فيها عائلة بن عامر أحد سيوف الممانعة، وخاصة الشيخ مصطفى بن عامر.

الثـاني: أن خيـر مـن يمـثلكم يـا أهـل بنغـازي، وبالتحديـد يـا أهـل بـن عـامر، هـي هدى وليس مصطفى، أوغيره من الرجال.

ثم وظف الميول والنزعات الدمويـة لهـا لإذلال رجـال بنغازي، ونسائها وبعد ذلك سيستعملها سيف الإنتقام على رقاب من تبقى من الليبيين.

قدراتها البدائيـة البذيئـة، قلما تتوفر في السـاديين مـن الرجـال، فمـا بالـك بالنسـاء، فالعدوانيـة عندما تضـاف إليهـا البذاءة، وتصـب كلاهمـا فـي جسد الأنثى، يكون للألـم الذي تنفثه، مذاق الويل.

للتعذيب ألوان شتى، تعذيب الجسد، تعذيب العرض، وتعذيب العقل. قال أبـو الطيب المتنبي:-

يهون علينا أن تُصاب جسومُناوتسلمُ أعراض لنا وعقولُ

إمتلكت هدى بن عامر لساناً رهيباً، يفحُّ إهانـة، وإستفزازاً، يهطل علـى ضـحيته، فيصـيب العقـل والعـرض بقـدر مـا يصـيب الجسـد. ولا يمكـن أن تمحـى مـن ذاكـرة

الليبيين، كلماتها التي أطلقتها كالرصاص على الليبيين الذين كانوا بين ضحاياها في مسلسل ما عرف بالمحاكم الثورية.

لكن، كيف يتحول مخلوق، وبالتحديد إمرأة، إلى هكذا شر يفيض بما هو أشر منه؟ إنه: الإستلاب، الذي يجعل الكائن البشري الحي، "رابوت" متحرك، يتنفس، لا يختار إتجاه حركته، ولا يعي دوافعها، تلك هي القاعدة التي يتحكم بها الطاغية في ضحاياه، الأدوات.

فأول ضحايا الحاكم الدموي الفرد، هم أدواته التي يسفك بها الدماء، إنه يسفك ضمائرهم، ومشاعرهم، ويبطل مفعول عقولهم، يقتل القتلة أولاً، يجهز عليهم من الداخل، كي يتحولوا إلى أداة للقتل. وهدى بن عامر نموذج لا يختلف عن آيخمان، أو جورنج من النماذج التي إستلبها أدولف هتلر وسخرها لقتل وحرق البشر. فهي لم تكن تقسم بإسم الله، أو بإسم أحد من أبنائها، بل كانت تقسم بإسم . القائد . فقط تدعو الله أن يحفظ . القائد . في بداية حديثها وفي الختام. الذي تطرزه دائما، بقلت للقائد وقال لي القائد.

هذا الرابوت ، المستلب، عندما يكون مخلوقاً حياً، يختلف مع الرابوت . الآلي، فهو يتلذذ بتنفيذ تعليمات سيده، وهذه الحالة لا تتوفر في الرابوت الآلي، فإذا أمر القائد . رابوته . الحي، بتنفيذ أمر ما، يكون "الأمر" في حد ذاته، هو المكافأة، التي هي غاية المنى بالنسبة للمأمور. بل هو يتفاخر بمعاقبة سيده له.. وقد كانت هدى تتفاخر بقول: "هزّبني القائد"، أي وّبخني، تقول ذلك بزهو شديد. لقد وجد معمر القذافي فيها، منجماً رهيباً، فقد وضعها فيما بعد على رأس أعلى جسم سياسي في بنغازي، وهو المؤتمر الشعبي للشعبية، أي المجلس التشريعي للبلدية، وعيّن المهندس مبارك الشامخ، رئيس وزراء ليبيا السابق، أميناً للجنة الشعبية العامة، لشعبية بنغازي، أي الجهاز التنفيذي للبلدية، وأصبح خاضعاً وتابعاً لها. قال المهندس الشامخ: "لقد أحسست بالإذلال والإحتقار، وأنا في هذا المنصب، وكانت تدعوني للحضور إلى

مكتبها، لتلقي علي، محاضرة طويلة، كانت تلك أتعس الأوقات في حياتي". لقد رأى أهل بنغازي وجودها في ذلك المنصب، عقوبة جماعية لهم. عبّروا عنها في مجالسهم، بالشعر الشعبي، والنوادر والنكت البذئية. قال مبارك الشامخ، أن الناس في بنغازي كانوا يتنذرون عليه، يقولون له: "ها قد رقيت إلى العمل مع هدى، هداك الله". إضطر أن يبقى في منزله زاهداً في ذلك المنصب.

عُينتْ بعد ذلك في منصب أمين شؤون المرأة بأمانة مؤتمر الشعب العام، وكانت لها مهمة واحدة وهي كيل الأسئلة الإستفزازية، للوزراء الذين يطالهم غضب القائد. وعندما تحدَّث المستشار مصطفى عبد الجليل، وزير العدل السابق في جلسة مؤتمر الشعب العام سنة 2010، منتقداً تدخل معمر القذافي في بعض الأحكام التي أصدرتها المحاكم الليبية، قام بإلغاء عقوبة الإعدام التي صدرت بحق عدد من الذين إرتكبوا جرائم قتل، وكان حديث الوزير منقولاً على الهواء مباشرة، سارع القذافي بإرسال ورقة إلى هدى بن عامر، تضمنت هجوماً على الوزير، وتبكيته على ما صدر منه، ولكنها لم تُرضِ أو تهدئ غضب القذافي الذي ركض شخصياً إلى قاعة المؤتمر وقام شخصياً بالرد على ما جاء في مداخلة الوزير.

عينتْ بعد ذلك، أمينة لشؤون اللجان الشعبية بأمانة مؤتمر الشعب العام، وهي الوظيفة المناط بها متابعة أعمال "الأمناء" أي الوزراء، وفي إحدى جلسات مجلس التخطيط العام الذي يراجع الميزانية السنوية للدولة، قبل عرضها على المؤتمرات الشعبية الأساسية، شنت هدى بن عامر هجوماً شديداً ولاذعاً على أمين اللجنة الشعبية العامة "رئيس الوزراء"، وعلى أمين الإقتصاد، وعوضت بذلك عن ما أغضب قائدها، في تقصيرها في مواجهة وزير العدل مصطفى عبد الجليل أمام مؤتمر الشعب العام.

ولم تمض بموقعها الجديد بأمانة مؤتمر الشعب العام سوى أيام معدودة حتى نقلت إلى منصب أمين جهاز الرقابة الشعبية، مكافأة لها، على هجومها المظفر على

الوزراء أثناء جلسة مجلس التخطيط العام. ولم يكن إختيار القذافي لها، في هذا الموقع الجديد من أجل الكشف عن الفساد الذي عمّ مفاصل الدولة، ولكن من أجل كيل جرعات الإهانة للمسؤولين فقط.

بعد إنتفاضة 17 فبراير، قام الشباب الثوار، بحرق منزلها ببنغازي، لأنها كانت تجسيداً لحقبة الدم، كانت هي الإهانة التي تدب على الأرض بقدميها في شوارع بنغازي وأزقتها. وفي المقابل، كانت هي في طرابلس، الصوت المسموم، الذي يهاجم الثوار، ينعتهم بأفظع الصفات التي أبدعها سيدها، فهم الجرذان، المسطولين، العملاء... لم توفر هذه المخلوقة، وسيلة لتعذيب الليبيين.

العذاب الأكبر، سيبقى لكل من يحمل لقب بن عامر، هل يمسكون هذا الإسم السوءة على هون؟ أم يدسونه في التراب؟.

خليفــة احنيــش القذافــي

خليفة احنيش القذافي

الضباط، الذين قادوا حركة أول سبتمبر سنة 1969 في ليبيا، لم يكن بينهم من يحمل رتبة عقيد بالجيش، كانت رتبة معمر أبو منيار قبل أن يلحق بإسمه لقب القذافي، كانت رتبته "ملازم أول" أي يحمل نجمتين فقط على كتفيه، زملاؤه من نفس الدفعة، حملوا رتبة نقيب أي ثلاث نجوم، تأخرت ترقيته بسبب عقوبة لمخالفته بعض القواعد العسكرية، وكل الذين صاروا بمجلس قيادة الثورة رفعوا إلى رتبة رائد بإستثناء إثنين هما النقيب عمر المحيشي، والنقيب إمحمد المقريف، ورفّع الملازم أول معمر إلى رتبة عقيد. أما العقيد سعد الدين أبوشويرب الذي أعلن عن إسمه في أول أيام الثورة كرئيس لأركان الجيش، فلم تكن له أي علاقة بالحركة، وإنما إستخدم إسمه، كرسالة طمأنه للداخل والخارج، وكان قد ترك الخدمة العسكرية قبل الحركة.

رئيس العرفاء خليفة حنيش الدرباشي، كان من بين عدد قليل من ضباط الصف الذين جرى ضمهم إلى الحركة، وهم دون رتبة الضابط. وكان هو الشخص الوحيد من قبيلة معمر القذافي الذي أُدخل في حركة الضباط الوحدويين الأحرار، وهو من إقترح على معمر أن يستغني عن لقب – أبو منيار – وأن يحل محله، القذافي. وعندما ناقشه معمر في ذلك، حاججه خليفة إحنيش، بأن هناك ضمن أعضاء مجلس قيادة الثورة من يحملون القاباً تشير إلى مناطقهم أو عائلاتهم، مثل الخويلدي الحميدي، وعبد المنعم الهوني، ومختار القروي.

خليفة إحنيش هذا، الرجل شبه الأمي، وهو من الجنود الخمسين الأوائل الذين إنضموا إلى الجيش الليبي، عند تأسيسه بعد الإستقلال سنة 1951 م، يبدو أنه قد قرر منذ البداية أن تكون تلك الحركة قذافية بحته. فهو بحكم أميته، وبساطه تكوينه، ومحدودية تفكيره، لا يمكن أن يفهم أو يعي، مدلولات أو أهداف حركة، تنطلق نحو

تغيير جذري محلي وعربي، مثلما كان يعلن معمر الذي أصبح مباشرة بعد الثورة قذافيا، نسبة إلى قبيلته التي ينتسب إليها ضابط الصف خليفة.

كبر خليفة إحنيش بين تكوينين هما:

- القبيلة.
- الجيش.

قلت عن الأثنين، القبيلة، والجيش "تكوينين"، ولم أقل، كيانين، لأن هناك صيرورة داخل القبيلة والجيش، من حيث، التراتبية، والحراك الداخلي من حيث الإرتفاع والإنخفاض، ونسق الأمر الفوقي...ألخ.

في القبيلة، كان خليفة إحنيش، يعيش في عائلة معدومة بصحراء سرت، تنتمي إلي فرع من قبيلة القذاذفة هو فرع – أولاد عمر – شب الطفل، فقيراً، أمياً، فأضطر في بداية مراهقته أن يعمل راعياً لدى رجل ميسور من قبيلة ورفلة التي تقطن منطقة بني الوليد، التي تتداخل أرضاً وثقافة مع سرت. في حياة الشضف، والفقر المدقع، وقسوة الصحراء، وسقف الظلام، تكون حياة الراعي دنيا من الخوف الممزوج بالبؤس والرعب، فهو مسئول عن الأغنام والأبل، إذا تاه بعضها وفُقد، أو غنمته أنياب الذئاب. ولا يتقاضى الراعي أجراً إلا في نهاية العام، والأجر جمل أو ناقة عن كل عام يقضيه في الصحراء وبين الصخور، ركضاً وراء الأبل والأغنام. هناك طقوس محكمة، للتعامل بين الراعي وسيده صاحب الأنعام، لا تختلف كثيرا عن تلك الطقوس التي تحكم علاقة القن بصاحب الأرض. هناك تراكمت السنين التي كبر فيها جسم الراعي خليفة، وتركبت نفسيته. فهو من قبيلة صغيرة، تهيم بين الوديان الجرداء تحت خيامها الرثة، وبين قبائل أكثر منها عدداً وعدة وأرضاً وأنعاماً. لم يعرف مفهوم الوطن، ولم تعن له كلمة البلاد، سوى تلك الرقعة المنحنية من الأرض التي تضرب فيها عائلته خيامها بجوار بيوت أخرى من الشعر تستظل بها عائلات

أخرى من قبيلته. هو من مواليد ثلاثينات القرن الماضي، ذلك العقد الذي إنكسرت فيه مقاومة الليبيين للإستعمار الإيطالي، وتناحرت فيه بعض القبائل، وساد الجفاف، وأستشرى الفقر، وهاجر الكثيرون إلى خارج الوطن الليبي.

في تلك السنوات العجاف، وتلك البيئة القاسية المرعبة، لم يكن لأمثال ذلك الشاب أي ليل يرزقه بحلم وردي، أو نسمة من نسمات الترفيه واللهو، سوى سويعات يشع فيها ضوء القمر، يلتقي الرجال يتحدثون عن ما وصل من أخبار حملها القادمون مع القوافل القادمة من الجنوب أو الشرق. أو يسترجعون أشعاراً، قالها منذ سنين شاعر منهم، أو آخرون من شعراء القبائل الأخرى، وقد يكون بين حلقة الرجال، راوية لأخبار المشائخ الغابرين من رجال المقاومة، ولا تخلو الحكايات والروايات من طرائف الغزو، وقطع الطرق، ومواقف تذكر لأسماء من قبلهم.

لم يكن من بين قبيلة القذاذفة رجال من ذوي القامات العالية في الفترة التي تشكلت فيها شخصية خليفة، كانت قبيلته، إما تابعة لقبيلة أولاد سليمان، أو لقبيلة ورفلة، وليس بينها من يمتلك مثل القبائل الأخرى الكثير من الأغنام أو الإبل، هاجر الكثير من عائلاتها إلى تشاد، وقلة منهم إلى مصر.

مثّل طلب متطوعين للدخول في جيش ليبيا المستقلة، طوق نجاة بالنسبة لذلك الفتى الأمي الفقير، فهرع فوراً للإلتحاق بهذا المركب الذي سيأخذه من ويل الفقر والبؤس. تنقل بين أنحاء الوطن الليبي كجندي في الجيش، فقد كان النظام المتّبع في العهد الملكي أن تتنقل كتائب الجيش بشكل منتظم، ومستمر من منطقة إلى أخرى، وتجري ترقية الجنود وفق ضوابط محددة مقدسة.

فاتح معمر القذافي إبن عمه العريف بالجيش الليبي بنواياه في تغيير النظام، كان هذا العريف خليفة هو الوحيد من قبيلة القذاذفة الذي أفشى له الضابط معمر سره الخطير، وافق العريف القذافي فوراً، وكان من أكثر أعضاء التنظيم حماسة وجهداً،

فـي كـل مـرة يبلغـه معمـر بتأجيـل الحركـة كـان لا يكبـت غضـبه ورفضــه، فـي الإجتماعات الأخيرة التي سبقت التحرك للإستيلاء على الحكم، عقد بعض الضباط، أعضـاء التنظـيم إجتماعـاً بطـرابلس، وكـان مـن بـين الحاضـرين عبـد السـلام جلـود، وخليفه إحنيش ظهر التردد على جلود، هاجمه إحنيش بشده مصراً على التحرك في الموعد المقترح. وحتـى فـي ليلـة الفاتح من سبتمبر تكرر الموقف تقريباً، تردد جلـود، وتحمس إحنيش، فقـال لـه خليفـه: "سـأعتقلك إلـى أن نـؤدي الواجـب، ثـم نفرج عنـك"، وأضطر عبد السلام جلود أن يتحرك.

والسؤال، لماذا كل ذلك الحماس والإصرار من عريف أمـي، لا نصيب لـه من الـوعي، أو الثقافـة، حتـى يغـامر بحياتـه مـع حركـة ترفـع شـعارات كبيـرة علـى عقلـه وإدراكه؟

لا شك أن دافعه الأسـاس، هو وجود إبن عمه القذافي علـى رأس تلك الحركـة، وأنـه سيكون الحـاكم للبلاد، وسينقل قبيلتـه، قبيلـة القذاذفـة، إلـى تلك الدرجـة السـحرية، التـي مـا كـان ذلك الشـاب البـائس، يراهـا فـي أروع أحلامـه الورديـة، تحت بيت الشـعر الرث بصحراء سرت.

وعنـدما أصـر رئـيس العرفـاء خليفـة، أن يسـتبدل معمـر، لقـب أبـو منيـار بلقـب القذافي، عند إعلانه كرئيس لمجلس قيادة الثورة، فإنما كان يعصر خميرة سنوات من المعاناة والأحـلام والأمل. هـا هو الطلـح يمتلـئ بحبات التفـاح، وهـا هـي الدنيا تتحدث كلهـا عن "القذافي"، الـذي مـا كـان يـذكر، حتـى فـي تلك الأمسيات المقمرة في وديـان سرت.

في يوم أول سبتمبر، ولد خليفة الثاني، خليفة "القذافي".

كان الجيش بالنسبة لخليفة إحنيش، هو القبيلـة الأخرى، قبيلـة لهـا لباسـها الموحد، ورتبهـا المختلفـة، وكـذلك ترابيتهـا الآمـرة، والمطيعـة، لهـا سـلاحها، وإنضـباطها، لكنهـا

غير مبنية على صلة الرحم والدم، إنها تحمي ولا تحتاج إلى حماية، قوة تتنقل بين أصقاع البلاد، فهي تمتلك كل الأرض الليبية، لا تحدها قبيلة أخرى، شيوخها يلبسون الكاكي، ويعطون الأوامر للجميع دون تمييز، الرتبة الأدنى تنفذ أوامر الأعلى دون نقاش أو تردد. والضابط هو الشيخ الذي لا يجلس على الأرض، ويتحلق حوله رجال القبيلة، بل هو الذي يجلس هناك بمكتبه وحيداً، يصدر الأمر دون أن يسامر الآخرين. لا تكون الرتبة التي يضعها هذا الضابط أو ذاك على كتفه، على أساس منحدره الإجتماعي، وقد لا يكون له قبيلة أصلاً، في الوقت الذي يصدر الأمر لمن هم أقل منه رتبة، ينفذون فوراً، وأن كان المنفذ ينتسب إلى قبيلة أكبر من تلك التي ينتسب إليها الآمر.

في ذلك الوسط "الكاكي"، عاش العسكري خليفة، أجواء قبيلة أخرى، وحالة رعي ثانية، ولكن بطقوس مختلفة تماماً. هنا، في المعسكر يوجد تجمع، منضبط، مسلح، هو أقوى من القبيلة، وأكثر برودة، وأكثر حركة.

لم تستطع القبيلة الثانية التي تلبس لباساً واحداً هو "الكاكي"، وتحمل السلاح الذي إستطاع في ساعات، أن يحمل إبن عمه معمر إلى سدة الحكم، ومشارف المجد، وأن يجعل – القذافي – حاكماً بعد أن كان مجرد راع عند القبائل الميسورة. لم تستطع أن تنسيه القبيلة الأولى، التي كانت تعيش بين وديان سرت الجرداء. لقد بقيت تلك القبيلة الأولى محفورة في أعماق أعماقه. سيحملها معه، هاجساً، وتاريخاً، وحذراً.

من اليوم الأول للثورة، وضع خليفة الثاني كل حواسه، حول الكرسي القذافي، طاف معمر حول الدنيا في شعارات، وزيارات في حروب، ووحدات، ولم يغادر خليفة أرجل الكرسي، كرسي الحكم القذافي. لقد أصبحت مساحة الوجود كله بالنسبة له لا تتجاوز مساحة الكرسي الذي يجلس عليه إبن عمه. أوقف حياته، بل عمره، وعبأ كل حواسه من أجل الدفاع عن هذا الهيكل، وشرع منذ اليوم الأول يعمل ليلاً ونهاراً من أجل هذا الهدف، وقد أثبت على مدى العقود الأربعة التي أمضاها يطوف حول ذلك

الكرسي، أنه العقيد العقيدة، الذي لم يؤمن إلا بذلك الهيكل، لم ينسق وراء الملذات، ولم تشدّه المناصب التي تخاصم حولها كل أبناء عمومته، وما عناه شيء في الوجود الفسيح، سوى تلك المساحة الصغيرة جداً التي يأخذها كرسي السلطة، كانت تلك جنته، ومتعته، بل وجوده. ولم يهتم بأي أمر سياسي أو إجتماعي أو مالي، إلا بالقدر الذي يمس الهيكل المقدس وهو سلطة القذافي.

إبداع المؤامرة

قضى معمر ابو منيار 10 سنوات في العمل السري، تحت الأرض وفوقها، تحكمه وتحركه، هواجس، ولكن الهدف ثابت لا يتغير وهو إسقاط النظام الملكي، والجلوس فوق هيكل السلطة، وبعد أن حقق الهدف، لم تتلاش الهواجس، فبحكم تلك السنوات العشر، أصبحت "المؤامرة"، جزءا من تكوينه، بل من كيانه، يتوقع في كل ثانية، أن هناك خلية، أوخلايا، مدنية، أو عسكرية، تعد للإستيلاء على سلطته، مثلما رتبّ هو للإستيلاء على سلطة، كانت في يد غيره. لم يكن معمر القذافي إستثناء في العيش مع تلك الحالة – المؤامرة – بل عاش فيها، مثله مثل من سبقه من الزعماء العرب او غير العرب في الوصول إلى السلطة عن طريق تنظيم سري متآمر. ففي صباح اليوم التالي من الإستيلاء على السلطة، يكون الهاجس المسيطر على المتآمر الذي اصبح حاكماً، أو قائداً، أو رئيساً، هو إستباق أي محاولة من متآمر آخر، الزعماء الذين يصلون إلى الحكم عن طريق الإنتخاب يكون لهم نفس الهاجس، أي الإحتفاظ بالسلطة ومنع غيرهم من إنتزاعها منهم، ولكن عن طريق مختلف، إنهم يتجهون إلى تلك الطريق التي قادتهم إلى السلطة، وهي صناديق الإنتخابات التي وضع فيها الناس أوراقهم التي ترفع من تشاء وتُسقط من تشاء، فيتوجه، هؤلاء القادة، الذين وصلوا عبر صناديق الإنتخابات بأوراق وضعها الناس في تلك الصناديق، يتوجهون إلى حملة أوراق الإنتخابات عن طريق تلبية رغباتهم، عبر مشاريع سياسية وإقتصادية، وأيضا من خلال وسائل إعلامية محكمة ومدروسة، توسع دائرة الموالين،

وتقلل من حشود الغاضبين. كل ذلك يتم من خلال برامج ونشاطات علنية، وفي رابعة النهار.

يقولون أن الغاية تبرر الوسيلة، ولكن في مدراس المؤامرة، تكون الوسيلة جزء من الغاية، اي أن الطريق تتماهى مع الهدف، فالإنقلاب، لا ينجز إلا من خلال المؤامرة، أي العمل السري. والذي يصل إلى السلطة بهذا الأسلوب التآمري، ويريد الحفاظ عليها، لا يمكن أن يتنازل عنها إلا بنفس المنهج. ولا بد أن يخطط من أول يوم لإلغاء أو حرق الجسور التي أوصلته هو إلي السلطة، هذا ما فعله كل الذين وصلوا إلى السلطة عبر جسر العمل السري، من جمال عبد الناصر، إلى حافظ الأسد، وصدام حسين، وغيرهم، ولم يكن معمر القذافي إستثناء من ذلك.

نجحت حركة أول سبتمبر، وتشكل مجلس قيادة الثورة من 12 ضابط، برئاسة معمر القذافي، تم إعتقال كبار ضباط الجيش الليبي، والوزراء، وغيرهم من كبار المسئولين في الدولة، وشرع في إعادة هيكلة الدولة، من أمن، وإدارة، إلخ. توزع رجال النظام الجديد في أنحاء البلاد، وبدأوا يحكمون سيطرتهم على دواليب الدولة، إنهمك أعضاء مجلس قيادة الثورة في العمل السياسي والإداري اليومي، وإحتفظ بعض أعضاء تنظيم الضباط الأحرار بمواقعهم داخل المعسكرات، وإلتحق بعضهم بمرافق مدنية مختلفة.

تصرف أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأعضاء تنظيم الضباط الأحرار، بثقة وفرحة شباب، وصلوا إلى قمة هرم السلطة، وشرعوا يركضون وراء تحقيق شعاراتهم، وسارع بعضهم نحو بريق المتعة، أو الشهرة، أو المزايا من سكن مريح وسيارات وسفر، لكن كبيرهم، العقيد معمر القذافي، بقيت عيناه على ذلك الجسر، الذي عبره خلال سنوات عشر إلى الهيكل الساحر، كرسي القيادة. لا اقول إن معمر القذافي قد أبدع حراسة الهيكل، والسيطرة على الجسر بمفرده، كانت تلك الإستراتيجية خلاصة نقاش وحوار طويل بينه وبين خليفة إحنيش، بمكوناته العسكرية والقبلية، وتجربته

القاسية التي عاناها راعيا لدى أحد الميسورين من قبيلة ورفلة، ومرارة غياب إسم اي قذافي، عن تلك الأمسيات المقمرة، التي يتحدث فيها رجال القبيلة، عن المشائخ الفرسان الذين حكموا الصحراء وتحكموا فيها، وها هي الدنيا، والأقدار، قد حققت حلما ذهبياً، وأصبح معمر ليس أبو منيار، ولكنه، القذافي، مالئ الدنيا، ومالئ كرسي الحكم، بل القيادة، على رأس الوطن الليبي.

قبل أن يقوم معمر القذافي، بتأسيس أجهزته الأمنية، العسكرية منها والسياسية، الداخلية والخارجية، وضع خليفة في دائرة خاصة جداً، لا يفتح بابها إلا معمر وخليفة. تلك الدائرة هي دائرة أمن الهيكل. لم يتجرأ ومنذ اليوم الأول لنجاح الثورة، أي من أعضاء القيادة على الإقتراب منها، وأصبح خليفة لا يتبع أي شخص، ولا يقع ضمن أي تراتبية في أي جهاز، هو في كل مكان، وفي كل موقع، دون أن يكون له مكان أو موقع.

أختار معمر القذافي، بعض العناصر التي أنس بها ملكة الولاء، ونزعة الإخلاص، لتكون في بؤر العمل الأمني، مثل ابو القاسم القانقا، وعبد الله الحجازي، وسليمان شعيب، وعبيد عبد العاطي، وخيري خالد، لكن خليفه إحنيش، كان معهم جميعاً ولم يكن مع أي منهم. كان هو من يقود إحباط المؤآمرات، ويرسم خطط القمع والتعذيب، ولكنه كان يقف وراء الباب نصف المفتوح ليراقب هؤلاء. ترقى رئيس العرفاء في سلم الرتب العسكرية إلى أن وصل إلى رتبة عقيد، دخل و تدخل في كل شيء له علاقة بأمن معمر القذافي الشخصي، وأمّن كرسيه. كان إسمه هو رتبته وهو منصبه، مرة، كلف العقيد معمر القذافي، العقيد أبو القاسم القانقا مدير المخابرات العسكرية بالتحقيق مع العقيد خليفة إحنيش، الذي رفض أمر الإستدعاء الذي جاءه من العقيد القانقا، الذي أسقط في يده، ولم يستطع أن يجعل إحنيش يخضع للأوامر العسكرية، وعندما سأله أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة عن سبب تجاهل إحنيش

للأمر، قال القانقا معلقا: "إكتشفت أن في ليبيا عقيدين فقط، هما العقيد معمر القذافي، والعقيد خليفة إحنيش القذافي". إبتلع بلقاسم القانقا الإهانة وصمت.

منذ اليوم الأول، وضع خليفة قاعدتين يتحرك وفقاً لهما:

القاعدة الأولى: إن الدفاع عن كرسي الحكم – القذافي – هو الأولوية الأولى، والأخيرة، يجب أن يوظف كل شيء لها، وإن الهجوم ليس أفضل وسيلة للدفاع فقط، بل هو الذي يجب أن يعبأ له الناس، والسلاح، والمال، أن تشكل كل الخرائط الإجتماعية، والهياكل الإدارية، والبنى الإقتصادية، لتكون أدوات بل اسلحة مشهرة للدفاع عن الكرسي القذافي. ولا يمكن الإعتبار بأيه ضوابط أخلاقية، أو أنسجة إجتماعية، إذا دخل الأمر في حلقة المساس بالكرسي المقدس. وكان خليفة إحنيش يُعرّف الثورة بأنها: "تريس باركه على التريس"، اي رجال تجثم على صدور الرجال، بمعنى أن الثورة، وهنا يقصد "الحكم" ليست سوى فرض سيطرة مجموعة، بالقوة، على الجميع.

القاعدة الثانية: أنه لا يثق في أي أحد، بمن فيهم كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، وحتى العسكريين المنتمين إلى قبيلة القذاذفة، كان يقول: "أنا لا اثق حتى في الثقة". كان يؤمن بمراقبة كل من يحمل سلاحاً، بمن فيهم افراد الشرطة، ناهيك عن الوزراء، والمدراء، وكل من يحمل صفة مسئول. كان يفترش الشك ويتغطى به، يسخر من أولئك الذين يتحدثون عن القانون، وضرورة إتّباع الإجراءات القانونية عند توجيه التهم إلى الأشخاص، كان يرى أن هذا الكلام هو في حد ذاته، نوع من التآمر، فيكفي الشك في اي شخص لإعتباره متآمراً ومجرماً، كان يقول: "أنا أعرف الشيوعي من مشيته". وطالما حباه الله بهذه القدرة، التي يكشف فيها الشخص الذي ينتمي إلى حزب شيوعي من طريقته في المشي، فلماذا، يحيله إلى لجنه تحقيق أو وكيل نيابة.

في سنة 1973، كان معمر القذافي يقوم بجولة بالسيارات في الجنوب الليبي، وكان معه الرائد بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة، وخليفة إحنيش الذي يرأس فريق الحراسة، كنت آنذاك صحفياً مبتدءا أقوم بتغطية تلك الجولة، عندما وصلنا إلى منطقة الجفرة، توجهنا إلى منطقة تسمى الحمام، كان بها نبع مياه غزير، أقيم عليه مشروع زراعي، يتولى إدارته آنذاك الرائد حسن إشكال القذافي، وهو ضابط شرطة سابق، وكان من ضمن المستقبلين أحمد فرحات المهدي عميد بلدية الجفرة، جلس الجميع في مكان ظليل، وبدأ العقيد معمر القذافي يوجه الأسئلة عن المشروع، وعن المحاصيل...إلخ. حدث خصام في الأثناء بين الرائد حسن إشكال، والرائد بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة الذي ينتمي إلى نفس المنطقة، تدخل أحمد فرحات المهدي مناصراً بشير هوادي، إشتعل الموقف وتحول إلى شتائم. بدأ فرحات في تذكير حسن إشكال بمناصبه، عندما كان ضابط شرطة بسبها في أيام العهد الملكي، وكيف كان يقمع المظاهرات الطلابية بكل وحشية، وأنه كان كلب حراسة حقير لأسرة سيف النصر، حاول العقيد معمر تهدئه الموقف، وإزداد التوتر عندما قام الرائد بشير هوادي بضرب حسن إشكال، بعد أن تطاول الأخير عليه وأمطره بالشتائم، أمر معمر القذافي بالقبض على إشكال وتقييده ونقله إلى طرابلس، كان خليفة إحنيش صامتا يراقب المشهد بتوتر، كنت اقف مع الصحفي المرحوم سليمان الكاسح، والصحفي محمد السني، القادم من لندن، تقدم نحونا خليفة و قال: أيها الصحفيون، هل ستكتبون ما رأيتم و سمعتم، كان المرحوم عبدالسلام الكاسح، حاضر البديهة، خفيف الظل فقال: "هذه معركة كبار، ليس للصغار علاقة بها". قال خليفة إحنيش: لا، هذه ليست معركة، هذه مؤامرة، بشير هوادي، لا يريد أن يستمر حسن إشكال في إدارة هذا المشروع، ويريد أن يضع مكانه أحد أقاربه، ولهذا إفتعل هذه المشاكل". لقد مرَّت الآن قرابة اربعة عقود على تلك الحادثة، ولكنني أتذكر تفاصيلها وكأنها وقعت منذ ساعات أربع، ففي تلك الجولة المشئومة تعرضت مع المرحوم عبد السلام الكاسح، وسائقنا نوري إلى حادث سير فظيع، ونحن نلاحق موكب القذافي بمنطقة الشاطىء،

أصبت فيه بكسور في الرأس و الكتف. لا أعتقد أن ما حدث كان مؤامرة من بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة، ولكن السبب كان شخصية حسن إشكال النزقة، لقد كان معتداً بنفسه إلى حد الإعتداء على الآخرين بغير سبب، كان متعالياً حتى على إبن عمه معمر القذافي الذي هو الآن رئيس مجلس قيادة الثورة، لا يترك المسافة التي تفرضها المراكز والرتب. لقد إستفز الجميع، ولم ينصع إلى أوامر العقيد بالسكوت، ولم يراع كذلك مكانة الرائد بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة.

تذكرت كلمة خليفة إحنيش، وهو يتحدث عن "مؤامرة" الرائد بشير هوادي في مزرعة الحمام ضد الرائد حسن إشكال لأنه يريد أن يضع أحد أقاربه مكانه. تذكرت تلك الكلمة عندما بدأ الحديث سنة 1975 عن "مؤامرة" الرائد عمر المحيشي، وتورط بشير هوادي فيها.

سكنت "المؤآمرة" عقل خليفة إحنيش، سرت في دمه، وأستدارت في أنفاسه شهيقاً وزفيراً. بعد شهور من قيام الثورة، إرتفع الصراخ في وسائل الإعلام الليبية، وعجّت الدوائر العسكرية، والأمنية بالحركة المتواصلة، أعلن عن إكتشاف مؤامرة في الجنوب الليبي، سميت بمؤامرة سبها، وبدأ القبض على عدد من القيادات السابقة، في الشرطة، والجوازات، إضافه إلى عدد من السياسيين، قيل أن محافظ سبها السابق غيث عبد المجيد سيف النصر، كان على رأس تلك المحاولة الإنقلابية، والمقدم عبد الله أبو بكر الزوي، والمقدم عبد الرحيم الزوي و غيرهم. أعلنت وسائل الإعلام خارطة تلك المؤامرة، والتي تضمنت تحويل قوات من الجنوب الليبي نحو طرابلس لإسقاط النظام الثوري الجديد، قام ضباط من أعضاء تنظيم الضباط الأحرار بأول تمرين على مواجهة – المؤامرة – إستمتعوا بأول وجبة من وجبات التحقيق، كان التعذيب مرعباً ومهولاً، إستغل الملازم الثاني، خليفة إحنيش تلك الأحداث، وبدأ تشكيل مفارز منتقاة من الجيش والشرطة، و أطلق عليها – الحرس الجمهوري – كانت المهمة المعلنة لهذا الجسم الجديد هي حماية – النظام الجمهوري – ولكن

داخل هذا الجسم تكونت حلقة خاصة هي التي ستصبح فيما بعد "الكتائب الأمنية"، يقودها خليفة إحنيش، لا تخضع إلى اي قيادة أعلى، تتبع معمر القذافي مباشرة، ولا يستطيع حتى رئيس أركان الجيش، الذي سمي فيما بعد، أمين اللجنة العامة المؤقتة للدفاع، لا يستطيع محاسبة خليفة لا ماليا، ولا عسكريا. لم تحدد إختصاصات لتلك الحلقة، آمر الكتائب فيما بعد، كان خليفة إحنيش يملك إصدار أمر بالقبض على اي شخص، مدني كان أو عسكري، مهما كانت درجته، أو رتبته.

بدأ بنشر الكتائب الأمنية في جميع أنحاء البلاد، وإختار لها قيادات من قبيلة القذاذفة، وكان لهذه الكتائب مهام متعددة، تبدأ بمراقبة كل تحركات الجيش، كتشكيلات وافراد، يتداخل عملها مع الإستخبارات العسكرية. وأبدع شبكات متداخلة، قامت على العلاقات الشخصية مع رؤساء الأجهزة الأمنية على المستوى المركزي بطرابلس، وعلى مستوى الفروع، كان خليفة إحنيش، يقترح رؤساء هذه الأجهزة، أو يزكيهم، أو على الأقل لا يعترض عليهم، وقد كان يقدم الإعتبارات الإجتماعية، والجهوية في المعايير التي يؤسس عليها مواقفه تجاه العناصر التي تقود تلك الأجهزة.

قيل الكثير عن مؤامرة 1975، أو كما سميت "بمؤامرة المحيشي". ولكن الحركة التي لم تأخذ نصيبها من الحديث، والكتابة هي تلك التي عرفت بحركة المقدم آدم الحواز وموسى أحمد، فهل كانت تلك حقاً "مؤامرة"، هدفت إلى إسقاط نظام مجلس قيادة الثورة؟ وما هو دور خليفة إحنيش في إخراجها؟

إرتكز تنظيم "الضباط الوحدويين الأحرار" الذي تمكن في الفاتح من سبتمبر سنة 1969، من إسقاط النظام الملكي، والإستيلاء على السلطة في ليبيا، إرتكز على ضباط صغار في السن وفي الرتب العسكرية، كان أغلبهم ما بين رتبة ملازم ثان، ونقيب، وحتى رئيسهم معمر القذافي كان في تلك الليلة، لا يحمل على كتفه، سوى نجمتين، اي برتبة ملازم أول في سلاح الإشارة... قبل ليلة الفاتح، فاتح معمر

القذافي، الضـابط موسـى أحمـد، الـذي كـان يحمـل رتبـة " مقـدم " ، وقـد تمـت تلـك المفاتحة، بعد أن تحدث أحد ضباط التنظيم عن شخصية المقدم موسى أحمد، ونقده شبه العلنـي للنظـام الملكـي، وأحاديثـه الإيجابيـة عن الرئيس جمـال عبد الناصـر، بعد إتخـاذ القـرار، بـالتحرك ليلـة الإثنـين، قـام معمـر القـذافي بزيـارة للمقـدم موسـى أحمـد، وحدثه، مباشرة، وبكل صراحة، عن تنظيم الضباط الأحرار، وقراره التحرك في التاريخ المحـدد، وعـن أهـداف الحركـة ...الـخ. قـال المقـدم موسـى أحمـد لمعمـر القـذافي، أنـا معكم، وسأنفذ أي أمر تطلبه منـي، ليس لدي في هذه الدنيا، سوى بنـات ثـلاث، وإذا كتـب لـي المـوت، فلهـن الله. كانـت فرحـة معمـر غـامرة، وتفـاعل كثيـرا بهـذا الكسـب الكبير، فموسـى أحمـد، برتبـه كبيرة، ومركزه القيـادي، هـو مكسـب إضـافي، سيكون لـه دوراً حاسماً في نجاح الحركة وهذا ما حدث.

المقـدم الآخـر، هـو آدم الحـواز، الـذي كـان آمـرا لمعمـر القـذافي بسـلاح الإشـارة، ويعتبر من الضباط الذين لهم إهتمامات بالقراءة والإطـلاع، وشـارك فـي دورات تدريبيـة عسكرية بالخـارج، يتحـدث الإنجليزيـة، لـم يكـن لـه نفـس موقـف المقـدم السـابق موسـى أحمـد، فبـرغم علاقـة العمـل التـي ربطتـه بمعمـر القـذافي، لـم يفاتحـه فـي الأمـر، ربمـا بسـبب حساسـية التبعيـة، والإعتبـارات التراتبيـة فـي الجـيش، وكـان الحـواز، مـن بـين الضباط الذين القي القبض عليهم ليلة الفاتح.

بعـد نجـاح الحركـة، تـم تشـكيل مجلـس قيـادة الثـورة، وبـدأ العمـل علـى تشـكيل وزارة الثورة، ثم إختيـار الدكتور محمود المغربـي لرئاسـة مجلس الـوزراء، وهـو ليبـي، هـاجرت عائلتـه إلـى فلسطين، وعـاد إلـى ليبيـا بعـد الإسـتقلال، وعمـل فـي مجـال النفـط، وسـاهم فـي الحركـة النقابيـة، واتُهـم بالإنتمـاء إلـى حركـة القـوميين العـرب، وتـم إعتقالـه. قـام المغربـي بترشيح عدد من الأسماء لشغل المناصب الوزاريـة المختلفـة بحكومتـه، واقتـرح أن يتولى مجلس قيادة الثورة إختيـار وزيري الـدفاع والداخليـة. حيث تقتضـي الظـروف أن يكونا من بين العسكريين الذي يثق بهمـا مجلس قيادة الثورة. توافق المجلس على

إختيار المقدم موسى أحمد لوزراة الداخلية، بحكم مشاركته في التحرك ليلة الثورة، وبما أنه لم يتم إختياره كعضو بمجلس قيادة الثورة، لرتبته التي تعلو رتب جميع الأعضاء، فقد رأى القذافي، أن إعطاء منصب وزير الداخلية سيكون بمثابة تقدير خاص له. إقترح بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، أن تعطى حقيبة الدفاع لأحد الأعضاء، وجرى الحديث عن أبو بكر يونس جابر، لإهتماماته العسكرية وكذلك دوره الحاسم ليلة أول سبتمبر، تحفظ بعض الأعضاء على هذا الإقتراح، وايدهم معمر القذافي، لأن تولي أحد الأعضاء لهذا الموقع سيعطيه افضلية على بقية زملائه، إقترح المقدم موسى أحمد أن يعين المقدم آدم الحواز وزيراً للدفاع، وساق أسبابا كثيرة. وتم ذلك.

جمع مجلس قيادة الثورة في يده جميع السلطات في ليبيا، التشريعية، والتنفيذية، اصبح الجسم السيادي الأعلى، الذي تخضع له كل الأجسام، ابتداءا من الحكومة، أي مجلس الوزراء، وبهذا كان أي عضو بالمجلس يصدر التعليمات لكل الجهات والمسئولين في البلاد، ويطلب إليهم تنفيذها، بمن فيهم الوزراء. وعلى هذا الأساس قام النقيب عمر المحيشي عضو مجلس قيادة الثورة، بإعطاء تعليمات إلى المقدم موسى أحمد، وزير الداخلية، الذي غضب من الشكل ومن المضمون. كان عمر المحيشي، حاد الطبع، يفيض غروراً وتعاليا حتى على معمر القذافي نفسه. غضب الوزير موسى أحمد، وحدثت ملاسنه بين الإثنين، إلى أن إنهال النقيب عمر بالشتائم على المقدم موسى.

إشتكى وزير الداخلية إلى القذافي من الإهانة التي أحس بها، ولكن بحكم عضوية المحيشي بمجلس قيادة الثورة، لم يتخذ معمر القذافي، ولا بقية أعضاء مجلس القيادة، اي إجراء ضد النقيب، برد الإعتبار إلى المقدم وزير الداخلية. تحدث المقدم إلى المقدم، أي المقدم موسى أحمد وزير الداخلية، إلى المقدم آدم الحواز وزير الدفاع، عما حدث بينه وبين النقيب عمر المحيشي، غضب الحواز لزميله في الرتبة،

وبدأ يتحدث عن الخلل الذي لا يمكن السكوت عليه، فكيف يمكن لهؤلاء الضباط الصغار – الجهلة – أن يقودوا ضباطاً كبارا مثله ومثل موسى أحمد. كان تيار في المخابرات المصرية يقترب من آدم الحواز، ورأى بعضهم أن المقدم آدم الحواز هو الشخصية المؤهلة، لأن تقوم بدور قيادي حقيقي في ليبيا، خاصة وأن معمر القذافي، بدأ منذ الأيام الأولى للثورة، يظهر سلوكا مزاجيا نزقا، ويخلق مشاكل لا ضرورة لها،، شرع المقدم آدم الحواز يكتب مقالات في صحيفة – الجندي – الليبية التي تصدر عن القوات المسلحة، وقال البعض أن صحفيين مصريين يعملون بتلك الصحيفة هم من كان يكتب تلك المقالات التي تحمل توقيع آدم الحواز، ويذهب آخرون إلى أكثر من ذلك، إلى أن بعض الشخصيات في المخابرات العسكرية المصرية فاتحت المقدم آدم الحواز، في موضوع قيادة إنقلاب عسكري ضد معمر القذافي. بدأ الحواز يلتقي بعدد من الضباط، ويقول بصوت عال، أنه أول من فكر في الثورة، وخلق جواً داخل الجيش ناقماً على الوضع السياسي السابق، وهيأ الظروف لنجاح الحركة.

كنت طالبا بجامعة القاهرة، وكان نادي الطلبة الليبيين، يستضيف الشخصيات القيادية الليبية التي تزور القاهرة، كان من بين الضيوف، المقدم آدم الحواز وزير الدفاع، وتحدث أمام الطلبة عن الثورة، وعن أهدافها، ودور الفكر السياسي والعسكري فيها. أعطى المقدم آدم الحواز الإنطباع بأنه من زرع، وحصد، ودرس، وطحن...وأكل.

سألته عن دوره ليلة أول سبتمبر. ابتسم وقال: سيتم الحديث عن ذلك بالتفصيل في الوقت المناسب. كنت أعرف الكثير من تفاصيل ما حدث ليلة الفاتح، واعرف تحديداً المكان الذي كان فيه آدم الحواز في تلك الليلة، كان من بين المعتقلين. فقد حدثني الملازم عبد السلام أبوقيلة، وقد كنّا زملاء بمدرسة سبها، واصبح فيما بعد عديلاً لمعمر القذافي، حدثني عن تفاصيل الأحداث ليلة الفاتح، وعن دور عدد من

الشخصيات العسكرية في تلك الليلة، وكان يسخر من البطولات التي نسبها المقدم آدم الحواز لنفسه.

لم يخف المقدم آدم الحواز، إستخفافه بأعضاء مجلس قيادة الثورة، بمن فيهم رئيسهم معمر القذافي، ولم يخف ايضا قناعته القوية، بأنه من يستحق، ويقدر على قيادة البلاد، لكن هل فعلاً، قد خطط لإنقلاب عسكري ضد مجلس قيادة الثورة؟ ليس هناك ما يثبت ذلك، كل التحقيقات والمحاكمات لم تقدم دليلاً قاطعاً على ذلك.

أما المقدم الآخر، موسى أحمد، وزير الداخلية، فقد كان رجلاً، بسيطاً، بدوياً وشهماً، وشجاعاً، لا يقبل الإهانة، أوالإساءه، كان يكّن إحتراما كبيرا لشخص معمر القذافي، ولم يفكر مطلقاً في التآمر على مجلس قيادة الثورة. كل ما في الأمر، أنه أحس بإهانة بالغة من قبل ضابط يعتبره صغيراً من حيث الرتبة بالنسبة له، وأن كبرت وظيفته بحكم عضويته بمجلس قيادة الثورة، أقصد النقيب عمر المحيشي. وهل كانت هناك مؤامرة فعلا سنة 1971 قادها المقدمان موسى أحمد وزير الداخلية، وآدم الحواز وزير الدفاع؟

طرحت هذا السؤال منذ قرابة عشر سنوات مضت، على مصطفى الخروبي، عضو مجلس قيادة الثورة السابق، والذي تولى مواقع هامة في الأمن والجيش. الخروبي، بطبيعته، متردد، وشكاك، ويحرص على أن ينقل كل ما يسمع إلى معمر القذافي، تحدث في إجابته بود وتعاطف عن المقدم موسى أحمد، ووصفه بالرجل الطيب، ولكن تحدث في إجابته عن خبث المقدم آدم الحواز وحقده، ولكن لا بد أن نلاحظ، أنه عند حديثي مع الخروبي، حول هذا الموضوع، كان قد افرج عن المقدم موسى أحمد، بينما كان المقدم آدم الحواز في السجن ينتظر الإعدام. غير أن مصطفى الخروبي قال: "وردت معلومات عن مؤامرة يجري الإعداد لها، يقودها موسى أحمد والحواز، فأنتقلت مع خليفة إحنيش إلي بنغازي، وقمنا بإزالة – أبر الضرب – من المدرعات، وأعدنا ترتيب مخازن الأسلحة، وتوزيع مواقع الضباط الذين

لا نثق فيهم، ووضعنا جماعتنا في الأماكن الحساسة والحيوية، وكان خليفة يتفقد المعسكرات، ويراجع قوائم الضباط، وحتى ضباط الصف".

إذن نستطيع أن نقول أن الأمر كان مجرد معلومات، وضعت في معمل الشكوك، وقام معمر القذافي، ومجلس قيادة الثورة، بعمل إستباقي يبطل مفعول اي مخطط تآمري محتمل أو متوقع من قبل المقدمين.

سأحاول أن أقوم بقراءة، هي مدخل من مداخل التحليل، وليست مبنية على أسانيد الحقائق والوثائق. كيف؟ ولماذا؟

في تلك السنة 1971، كان أنور السادات رئيسا لمصر، وكان الجهاز الأمني في مصر، ينظر إلى ليبيا من الناحية الإستراتيجية، كدائرة من دوائر حلقات القوة المصرية، عسكريا وسياسيا وإقتصاديا، كان السفير فتحي الديب، هو المندوب السامي المصري في ليبيا، كان مهتما جداً بكل التفاصيل الليبية، وفي مقدمتها "مجلس قيادة الثورة"، وتوجهات أعضائه، والعلاقات بينهم، وقرب كل واحد منهم وبعده عن معمر القذافي، وميولهم نحو مصر، وقد أصدر فتحي الديب، فيما بعد كتابا تحت عنوان "عبد الناصر وثورة ليبيا"، تحدث فيه بالتفصيل عن أعضاء مجلس قيادة الثورة، ومشاربهم وتوجيهاتهم.

كان هناك إختلاف بين المكونات والشخصيات القيادية الأمنية والسياسية في مصر حول تقييم الوضع الليبي، وصل هذا الإختلاف إلى حد التضارب، وكان هناك من يعارض، تقييم فتحي الديب، وهو من قيادات الأمن المصري، ومن المتخصصين في الشئون العربية، يعارض توجهاته وأسلوبه في إدارة الملف الليبي.

رأى بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة الليبي، أن النظام المصري، ميالاً إلى مجموعة الشرق الليبي داخل الفعاليات السياسية في ليبيا، ومن بينهم النقيب إمحمد

المقريف عضو مجلس قيادة الثورة الذي قتل في حادث مرور، ووصولاً إلى آدم الحواز، وموسى أحمد.

هناك شبه إجماع بين الليبيين المطلعين على تفاصيل أحداث تلك السنوات، على أن المقدم موسى أحمد، لم تكن له أي تطلعات قيادية، بل كان قانعاً وراضياً، بالمنصب الذي وضع فيه، وهو وزير الداخلية، رغم دوره المحدود في الحركة، ورتبته الكبيرة، التي كان من المفترض، أن تكون مانعاً له من تبوء ذلك المنصب.

آدم الحواز، رغم شخصيته المركبة، وروح التعالي وغيرها، لم تؤكد أي وثائق أو تحقيقات، شروعه في تنظيم داخل الجيش الليبي من أجل القيام بإنقلاب عسكري، رغم حديثه العلني عن ضعف مجلس قيادة الثورة، ونقده المستمر للقرارات الصادرة عن المجلس.

إذا ربطنا اللاحق بالسابق، فإن ما يسمى بمؤامرة الحواز، كانت ضربة مرتبة، للتخلص من عدد كبير من ضباط الجيش، وبالتحديد أولئك الذين لم يظهروا ولاءً شخصياً لمعمر القذافي، فقد كان مجلس قيادة الثورة حينئذ، هو المرجع الشرعي، والمعلم القيادي، الذي تتجه له الإنظار، ويُرفع له الولاء، خاصة، أن الخلافات بين الأعضاء قد بدأت تتسرب من تحت الأبواب، وشرع معمر يخطط لتركيز الصلاحيات في يده.

في تلك الفترة بدأ معمر القذافي في إعادة تموقع أقربائه العسكريين وعلى رأسهم كل من حسن إشكال وسيد قذاف الدم، وغيرهم، وتولى خليفة إحنيش تنسيق تلك المهمة، لقد كانت تلك المؤامرة من إبداع خليفة إحنيش.

أما ما عرف بمؤامرة سنة 1975، فهي أكثر تعقيداً، وأكثر جدية وخطورة، وسنتحدث عنها بالتفصيل في مكان آخر، لكن الذي قاد العمل الحقيقي لإحباطها، وتفكيك حلقاتها هو خليفة إحنيش بلا منازع.

خليفة إحنيش مؤامرة تلد مؤامرة، بل يرى في كل كائن يتحرك، شبح معارضة، ومشروع مؤامرة، إنتقل من أشواك قبيلة ولد فيها بين خيام الضنك، والبؤس والدونية، إلى ملاحقة أغنام وإبل قبلية أخرى، صحيح، كان يحصل في نهاية حول الرعاية، على حوار أو قعود، ولكن بعد رحلة ركض وراء الانعام، وفوق الحجارة، تحت وهج الشمس، وغبار الغبن، فكيف ينسى؟

بقيت "القبيلة" في رأسه عنقود ضعف، وعرجون قوة، قبيلته التي إنتمى إليها – القذاذفة – ظلت الناقوس الذي يضرب كل حواسه دون توقف، توقظ فيه، كوامن الضعف والخضوع، في حين تترأى له، قبيلة ورفلة، فزّاعة القوة، ووميض الهيمنة.

كَبُر رئيس العرفاء، واصبح ضابطاً، لم ينس خيام القبيلة، ولم يتهاون مع القبيلة الأخرى، قبيلة – الكاكي – الجيش. ووضع أمام ناظريه، تلك الفجاج التي تمتد في وديان وسط ليبيا – ورفلة – التي ركض يوماً وراء أغنامها وإبلها، فبدأ اليوم مهووساً بالقوة يلاحق رجالها. عمل منذ اليوم الأول لوصول – القذافي – إلى الهيكل – السلطة، على تفريق بطون ورفلة وأفخاذها، إستقطب من استطاع، وعبأه ليكون المدفع الإجتماعي الذي يطلق على الحشد الآخر، كانت عدته تحريك تراب التاريخ، إشعال حطب الثأر والخلافات. كان منطق القبيلة، يرتكز على الهامات الإجتماعية، فحاول خليفة إحنيش، إزالة العمامات التي تعتلي رؤوس المشايخ، وحرك صغار القوم، ليرشوا كل الوان التطاول على من هم أطول منهم.

كان التاريخ الليبي، في عهد الإستعمار الإيطالي لوحة من الدم والتراب والأصوات والمراعي والبارود، تقاتل الليبيون فيما بينهم قدر ما قاتلوا الطليان، ولكن الحرب العالمية الثانية قلبت صفحات ونفوس، ومفازات، ببساطة، وفراسة شيوخ ليبيا، عجنت حجارة الصرح الوطني، لا يذكر الجيل الليبي الذي يتحرك فوق التراب الليبي اليوم، ما كان بين عبد النبي بالخير، زعيم ورفلة، ورمضان السويحلي زعيم مصراته، كلاهما من شوامخ الجهاد ضد إيطاليا، دقّ ناقوس الخلاف بين الرجلين، وكان

الصوت نارا، قتل رمضان السويحلي، فوق تراب قبيلة ورفلة بايدي أتباع عبد النبي بالخير، ركض الزمن إلى الأمام، ولكن خليفة إحنيش له ساعة الرمل التي لا تحسب الزمن إلا إذا قُلبت، فحاول إحراق رماد الزمن، وإشعال الفتنة بين ورفلة ومصراته، مستعملاً حطب المؤامرة، تلك التي نسبت قيادتها إلى الرائد عمر المحيشي المصراتي، وقد نجح في ذلك، ولكنه كما يقال بين أوساط الطلاب، نجح بالغش، ونسى الناس نتيجة الإمتحان. تحرك أيضا بقوة، لإشعال ما يمكن إشعاله من الحطب بين قبيلة المقارحة، وورفلة، ولكن عقول الرجال، أكبر من عقل رئيس العرفاء، وإن حمل على كتفيه نجوم العقيد.

وعن جبل نفوسه، حدث، ولا تتوقف، القى فوق صخور، الجبل الغربي شباكه، وكلف إبن عمه عمر إشكال، بمتابعة إهتزاز الأمواج، ولخليفة إحنيش في الجبل الغربي، مآرب، ومخالب. فالذين يعرفونه جيداً، يقولون أن أمه من الأمازيغ، الذين يقطنون الجبل الغربي، وكان يحمل أسم خليفة الجبالي، قبل أن "يعدل" أسمه. حاول خليفة دون توقف إذكاء نار الخلاف العرقي بين الأمازيغ والعرب.

معركة أخرى، لم تتوقف، وإن كانت بلا طلقات، وهي حشد أكبر عدد من القبائل في جميع أنحاء ليبيا للإنتساب إلى قبيلة القذاذفة، إستعمل شواء السلطة والمصالح، فتدافع عدد من تجار القرابة، ونجح رئيس العرفاء، ولكن، كان أول من يدرك، أن تلك القرابة، كانت مكتوبة بحبر المصالح، وعلى أوراق الطمع.

كانت تلك "المعركة" تحتاج إلى عدة قتال خاص، وهي علم الأنساب، كما كان يسميه قدماء العرب، فلبس رئيس العرفاء "جرد" النسابة، وأستمرأ هذا الدبلوم الجديد، أصبح يتحدث عن إبن خلدون، وإبن الأثير، ولماذا ليس ابن كثير، عندما عين الدكتور شكري غانم رئيسا للوزراء، ذهبنا سويا لمقابلة معمر القذافي، واثناء إنتظارنا في الخيمة، جاء خليفة إحنيش، وبدأ يؤصل شكري، متحدثاً عن العرب الذين نزحوا من الأندلس وجاءوا إلى ليبيا، وكيف وصلت عائلة شكري غانم إلي ليبيا... الخ.

إنفعل شكري من إدعاءات خليفة وهبّ غاضباً، وقال له: "من أنت يا أخي الذي تؤصلني، هل قلت لك أنني أجهل أجدادي لكي تتبرع وتقوم بهذا الهراء". بعد ذلك بدأ يتحدث عن بطولاته التنسيبية، ولكنه إرتفع هذه المرة، وذكر قصة له مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، قال أن العقيد معمر القذافي طلب منه أن يرافق والده في زيارة إلى القاهرة، وعندما علم الرئيس جمال عبد الناصر بوجود والد القذافي في القاهرة، دعاه إلى منزله، وأثناء الحديث مع الرئيس، تم التطرق إلي "قبيلة" جمال عبد الناصر – بني مر – فشرح خليفة كما قال أصل ذلك الأسم – بني مر – ومردها، إلى أن أحد السلاطين أو الحكام إلتقى بعدد من الرجال الذين كان يريد أن يستعين بهم في أحد المعارك، فقدم لهم، بذوراً ذات طعم شديد المرارة، ليختبر مدى جلدهم وتحملهم، وقد أثبتوا، أستحقاقهم لثقة ذلك الحاكم. لقد خلط رئيس العرفاء، أو إنتحل هذه القصة التي قد يكون سمعها مرة، وهي تنسب إلى أمرؤ القيس وأجداده.

إينما كان خليفة إحنيش، واي كانت الرتبة التي وضعها على كتفه، فقد كان شخصاً استثنائياً، قام بحراسة – الهيكل القذافي – إستعمل كل الأسلحة، النارية، والإجتماعية، والمالية، نسج جبالاً من المؤامرات، ونقش حفريات الأنساب، وطاف حول القبائل، والمعسكرات، والمزارع، والنجوع، يدفع، ويجلب إذا حسبت السنوات التي قضاها معمر القذافي فوق الهيكل، والتي وصلت إلى 42 سنة، فقد كان لخليفة شهور في كل سنة منها. حاول أبناء معمر القذافي إزاحته من سدة الأمر، وقام المعتصم القذافي يوماً بطرده من مكتبه بباب العزيزية، وأمر بسد باب مكتبة بالحجارة والأسمنت، كان رد القذافي بحبس إبنه، وعندما تطاول الفيلسوف القذافي الأخضر، أحمد إبراهيم على خليفة، نهره معمر، ولما إعتدت جميلة درمان، أحدى الراهبات المسلحات بالضرب على خليفة، هددها القذافي بقطع رأسها. ولم يستطع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة بمن فيهم عبد السلام جلود، أن يغلوا أصبعاً من اصابع رئيس العرفاء.

خليفة إحنيش، هو لغز، وإن لم يكن كذلك، فيجب أن يكون. ولما لا؟ في تاريخنا الإسلامي هناك شخصيات أحياها لغزها، وأولهم عبد الله بن سبأ.

نقل عن صحيفة (دير شبيغل) الالمانية خبراً مفاده أن خليفة إحنيش من أصل الماني.

ورد من بين أسماء الليبيين المدرجين بالجدول المرفق بالقانون رقم (57) لسنة 1970م بشأن وضع أموال وممتلكات 620 شخصية تحت إدارة الحارس العام، إسم (حنيش فيتويو بن خليفة) تحت الرقم متسلسل (239). كما تكرر الإسم نفسه تحت الرقم 228 بالجدول المرفق للقانون رقم 84 لسنة 1970 الصادر بتاريخ 1970/7/21 والذي قضى بأن تعود للدولة أموال وممتلكات 607 يهودياً ليبيا كانت أموالهم وممتلكاتهم قد وضعت تحت الحراسة بموجب القانون رقم 57 لسنة 1970.

عبدالقــــادر البغـــدادي

نرافق هذه المرة شخصاً له نسيجه الخاص. له قدرات متعددة، بقدر الشخصيات التي تسكن داخله، تتمظهر في كل موقف بملامح متحركة، بلغة مكثفة، لكنها سائلة منسابة في إتجاه لا حادّ ولا رخو. يدفع ممّا بداخله وفقاً لحساب يعلمه هو. لقد كان عبدالقادر البغدادي أستاذاً للإحصاء. هو دائماً يمارس هذه المهنة حتى في طريقة تنفسه، يظهر ما يريد، ولا يدع للآخرين أي إمكانية لإكتشاف ما يبطن. لقد كانت حياته كلها محكومة بالإحصاء والحساب.

إنفصل والده عن أمه وهو طفل صغير، تزوج أبوه من إمرأة ثانية، وكذلك فعلت أمه، تربى مع إمرأة لم تلده، وتلك التي ولدته لم يرها بعد إنفصالها عن أبيه إلا بعد أن أصبح يافعاً. قال عبدالقادر، أنه لم يشعر بأي شعور من الأمومة نحو أمه الأولى التي ولدته، بينما يرتبط بتلك المرأة التي ربته كأنه إبنها أو أكثر، زوجة أبيه. سألته مرة عن غيابه لأيام عن طرابلس حيث كنت أبحث عنه، قال أنه أخذ أمه إلى رحلة علاج في الخارج، ولما سألته عن التفاصيل، تحدث بتوسع وإنفعال عن هذه الأم التي كان في رحلة علاج لها، قال أنها في الحقيقة هي زوجة أبيه لكنها أمه بكل معنى الكلمة، تحدث مطولاً عن مفهوم الأمومة والأبوة والأخوة، كان واضحاً أنه قرأ الكثير عن هذا الموضوع بدافع الظروف الخاصة التي عاشها، قال أن هذه الأم التي لم تلده أغدقت عليه عطفاً لا يمكن تصوره، فعندما كان صغير وترتفع درجة حرارته، تسهر إلى جانبه حتى الصباح، قضت حياتها من أجله، أما تلك المرأة التي ولدته فلم يشعر أبداً بعاطفة نحوها، هي أيضاً بادلته نفس البرود، لم يكن له أخ، جعله ذلك فرداً وحيداً، بعد زواجه أنجب بناتاً، لم يرزق بذكور، صارت الوحدة أكبر. هو قاريء دقيق، ذكي، له القدرة على

الإستماع، مثلما القدرة على الحديث، وعلى النقاش، في ذات الوقت لا يخلو من صفات الباطنيين، الذين يرون في الحقائق الكاملة، جواهراً لا يمكن أن تعطى كهبة بلا مقابل، كان الإحصاء والحساب، ليس مهنة فقط ولكن مكون من مكونات الشخصية، وعدّاداً يحسب الكلمات، ويصنع لها منحياتها، ويمد الارتفاع والهبوط في مضمونها.

بضغط ظروفه الأسرية، تسرب مبكراً من صفوف التعليم، ولكنه بقى في دائرته، تحول من طالب في المرحلة الثانوية إلى مدرس، لكنه واصل تعليمه منتسباً. إلتحق بالجامعة في بداية السبعينات، وأنخرط مباشرة في صفوف الناصريين وهي القناة التي كانت متاحة للشباب آنذاك للإقتراب من تيار الثورة، والتفاعل معها من مسافة أو أخرى، لم يوفر الوقت والجهد، ليرفع من وتيرة المشاركة، إنتظم في إتحاد الطلبة الحكومي، وهناك بدأت خيوط الإرتباط بينه وبين المجموعات الطلابية التي ستكون يد النظام في ترتيب أوضاع جامعة طرابلس لتكون صدى لصوت مجلس قيادة الثورة، وتحديداً صوت رئيسه معمر القذافي. مع تطور عملية تشكيل المفاصل الثورية الجديدة للنظام، بعد سنة 1975، إتسعت دائرة الفعل وردوده في جامعتي طرابلس وبنغازي، برزت قوة تتحرك علانية وبالقوة ضد الإجراءات التي إتخذها مجلس قيادة الثورة، ولها علاقة مباشرة بالنظام التعليمي داخل الجامعة، والدور الذي بدأ يلعبه بقوة إتحاد الطلاب بالجامعة والمرتبط مباشرة بالحكومة، الجامعة الليبية بفرعيها بنغازي وطرابلس كان لها خصوصيتها، ولا أقول إستقلالها، لم يتدخل النظام الملكي في تفاصيل العملية التعليمية في الجامعة، كان الحرم الجامعي حرماً حقيقياً، تمتع الطلاب بحرية كاملة داخل أسوار الجامعة من حيث التعبير، وإنتظم سياق النشاط الأكاديمي وفق معايير ثابتة شبه مقدسة من حيث تعيين الأساتذة وإختيار المعيدين وفقاً لقواعد الترتيبية في الحصول على الدرجات في الإمتحانات. بعد فرض

التدريب العسكري على الطلاب، ومحاولات التدخل في الخصوصية التي ورثتها الجامعة، بدأ تململ الطلاب، وتحول إلى رفض ثم إلى صور مختلفة للمعارضة، بل للمقاومة. في تلك الأثناء فعّل القذافي المعسكرات أو الملتقيات العقائدية التي ضمت شباب الجامعات الذين أبدوا ولاءاً للثورة وتحديداً لمعمر القذافي، قضى معهم الليالي، يقترب منهم، يتحدث معهم ويغني، ويأمهم في الصلاة، وبالطبع يعبأهم ويحرضهم. جاءت ساعة الصدام، تحرك أنصار معمر بجامعة بنغازي بدعم من مفارز من الجيش، ضربوا وطردوا الطلاب المعارضين لإجراءات القذافي، إنتقل الصدام إلى طرابلس، وبدأت المواجهات، أحس معمر وعبدالسلام جلود ومن معهم من أعضاء مجلس قيادة الثورة، أن كراسيهم تهتز بقوة، لكن هذه المرة ليس بمؤامرة يعد لها زملاء الأمس من العسكريين، بل من طليعة خطيرة هي – الطلاب–. وطرابلس بالنسبة لمعمر هي الصاعق البشري الذي يمكن أن يفجر ثورة تنطلق من الجامعة الليبية وتندفع في الشوارع، وليس مؤامرة تدبر بليل ويبدأ تنفيذها من أحد المعسكرات.

إرتفع إيقاع المواجهة منذ أول أبريل سنة 1976، وبدأ الصدام والإلتحام بين المعارضين والموالين، توجه عبدالسلام جلود إلى جامعة طرابلس أطلق رصاص مسدسه في ساحة الجامعة وهو يخطب في الطلاب المؤيدين لمجلس قيادة الثورة، وصف الطلاب المناوئين بالحشرات والذباب، وطلب من الموالين له، أن يرشوا المعارضين بـ– الفليت– ، رد عليه أحدهم، تقصد المبيد، قال نعم أقصد المبيد، ولكن كلمة الفليت هي التي يفهمها كل الليبيين.

كان الرائد جلود يقصد بـ– الفليت– هؤلاء الموالين له وللقذافي، وسيوكل لهم رش الموت على المعارضين. وقد كان عبدالقادر البغدادي هناك ضمن قارورات المبيد، أو الفليت، كما نطقهُ عبدالسلام جلود.

ترأس عبدالقادر البغدادي إتحاد الطلبة الليبيين الحكومي، طبعاً كانت مهمة هذا الاتحاد تختلف عن المهام التي تقوم بها اتحادات الطلاب في العالم بما فيها تلك التي توجد بالبلدان التي تديرها أنظمة شمولية مثل البلدان الشيوعية. مهمة هذا الاتحاد، مهمات. أولاً مهمة أمنية تتمثل في رصد حركة الطلبة المعارضين، وتصنيفهم، والقبض على الخطيرين وبالتحديد القياديين منهم، ثم التحقيق معهم وإصدار الأحكام عليهم بما فيها أحكام الأعدام وتنفيذها، ناهيك عن الحرمان من الدراسة في الجامعات. وبعد إعلان القذافي أن الجامعة يديرها طلابها تولى هذا الاتحاد تعيين عمداء الكليات من بين الطلبة الثوريين الموالين للنظام.

قام الاتحاد بمهمة أخرى، وهي توسيع دائرة الطلبة الموالين وإقحامهم في مواقع قيادية، وتكليفهم بمهام محددة، للإستفادة منهم في مراكز متقدمة.

كان هذا الاتحاد الثوري معملاً لتفريخ المئات من الأشخاص الذين سيكونون العمود الفقري لحركة اللجان الثورية، وسيقودون المداهمات والمحاكمات الثورية، وملاحقة المعارضة في الداخل والخارج.

في تلك الأيام، وفي جامعة طرابلس، تخلقت شخوص أركان المرحلة العنيفة التي، ستكون الأركان الأربعة التي تقام عليها الجماهيرية فيما بعد، كان الرائد عبدالسلام جلود يكرر:" أن السابع من أبريل عجّل من قيام سلطة الشعب".

عبدالقادر البغدادي كان أحد المعيدين بلغة أهل الجامعات، الذين تابعوا الدروس الثورية مع الأنصار، وكانوا حلقة الوصل بينهم وبين معمر القذافي والرائد عبدالسلام جلود، بعد هذه المهمة التعليمية التلقينية. بدأت منذ تلك الأيام، المعركة الثورية الأخرى، وهي الحصول على درجة الدكتوراه من أوروبا الشرقية، فالدكتوراه، صارت من عدة الشغل والوجاهة الثورية.

حصل عبدالقادر البغدادي على الدكتوراه من تلك الديار الأوروبية الشرقية – الثورية سابقاً – في مادة الإحصاء.

بعد إنتفاضة الطلاب الليبيين المعارضين لمعمر القذافي وعبدالسلام جلود في سنة 1976، في جامعتي بنغازي وطرابلس، إعتبرا أن الخطر على سلطتهما لم يعد يلوح من المعسكرات والضباط، بل من الجامعات والطلاب، أصبحت هاتان الجامعتان هما الحاضنة للقوة المعادية الحقيقية، وقامت غرفة عمليات، من نخبة من الطلاب الذين إجتازوا الإختبار في موقعة 7 أبريل، وعمّدوا ولائهم للقذافي بالدم، طعمت تلك الغرفة بعناصر من الجيش والأمن لمتابعة ما يجري في الجامعتين، والعمل على إعادة تشكيل كل من فيهما وما فيهما. تم تكليف الضابط محمد المجذوب القذافي بمتابعة التفاصيل اليومية.

قامت علاقة وثيقة بين العناصر التي لعبت دوراً في ترويض الجامعة، وشدها عنوة نحو قاطرة السلطة، وكان البغدادي فاعلاً محورياً في ذلك، فقد إرتبط بعلاقة شخصية وثيقة بكل من، موسى كوسا، عقيل حسين، سعيد راشد، مفتاح عزوزه، موسى زلوم، فوزية شلابي، علي أبوجازية، عمار الطيف ، وغيرهم.

كانت لعبد القادر البغدادي إهتمامات صحفية، كان قارئاً عندما كانت حالة القراءة، شيء غير وارد في الحياة الليبية، يهتم بالرواية، والشعر والتراث، وتفسير القرآن، يتابع آخر الإصدارات في المجالات المختلفة، ونجح في إقامة علاقات مع طيف الكتاب والمثقفين الليبيين. حافظ على أن يبدو الوجه المثقف المسالم، غيرما كان الأمر بالنسبة لأقرانه من الذين قادوا المواجهات مع الطلاب المناوئين للنظام في جامعة طرابلس.

بعد إعلان سلطة الشعب وقيام " الجماهيرية "، أعاد معمر القذافي رسم كل الخرائط في ليبيا، خرائط الدولة، ومنظومات السيطرة، شخوص التحكم،

والعناصر التي تتحرك أمام الستائر والتي يحركها من الخلف، قلنا في صفحات سابقة أن سنتي 1973 و1975، كانتا طرفي القوس الذي جعل معمر القذافي يبدأ من الأول، بإستراتيجية جديدة، وقوة جديدة، وأشخاص أنتجهم، أو أعاد إنتاجهم، وهو الذي قال لتوأمه في السلطة الرائد عبدالسلام جلود،: " لا نريد وجود الذين شاركونا في حركة الثورة، إنهم ينظرون لأنفسهم على أنهم أصحاب حق في السلطة والقرار، نريد عناصر جديدة، يدينون لنا بالفضل والوفاء. كان عبدالقادر البغدادي في مقدمة هذه العناصر الجديدة التي تحدث عنها القذافي إلى جلود، بل كان البغدادي أحد المنتجين لهذه العناصر الجديدة عبر إشرافه على مصنع إنتاج تلك العناصر في جامعة طرابلس ثم في خارجها.

في 2 مارس، أعلنت الجماهيرية، وقيام سلطة الشعب، وبدأت رحلة أخرى. أحتاج معمر القذافي إلى تفعيل رؤيته الجديدة للكيان الليبي الذي فصّله وشكله وفق رؤيته الجديدة التي حددها في الكتاب الأخضر- النظرية العالمية الثالثة، ومحورها- مؤتمرات شعبية تقرر ولجان شعبية تنفذ. بدأ "التصعيد"، وهو الآلية الإجرائية التي تنفذ من خلال ما سمى بالديمقراطية الشعبية المباشرة..

بعد سنة واحدة، إكتشف معمر القذافي أن هناك خللاً حقيقياً وخطيراً في تلك الآلية – التصعيد –، فالمصعدون الذين سيتولون قيادة المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية هم أسماء مجهولة بالنسبة له، ولمساعديه، وقد يسبب ذلك إرباكاً يحقق نتائج خطيرة منذ بداية تطبيق فلسفته الشعبية، فقد تكون لهذه العناصر المجهولة في المؤتمرات واللجان توجهات مخالفة، بل مناقضة لما رآه هو عندما رسم الخرائط الجديدة. قد يتحول مؤتمر الشعب العام الذي سيجمع هذه الرؤوس الجديدة إلى محفل معارض، أو في أحسن الفروض، إلى تجمع مشاغب يرفض القبول بكل ما يُملى عليه.

رفض معمر القذافي فكرة التنظيم الخاص المغلق على غرار تجربة الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر في التنظيم الطليعي لأسباب سبق ذكرها. فأبدع فكرة جديدة هي اللجان الثورية، المفتوحة نظرياً للجميع، وفسرها، بأنها العصب الأحمر الذي يتولى تحريك الأجسام الجديدة التي أسسها، أي، اللجان الشعبية والمؤتمرات الشعبية.

طبعاً، حدد العقيد المهام المطلوبة من تلك اللجان الثورية، وهي إزالة كل بقايا ورموز المؤسسة الحكومية السابقة، وتأسيس نظام جديد هو نظام " الجماهيرية "، حيث لا دستور، ولا مؤسسات بل منظومة محكمة، تقوم على "مراكز القوة" التي تنتهي كل خيوطها في يديه، ويديه وحده، تدين بالولاء الكامل له، وتنفذ أوامره بلا نقاش، عبر قنوات قليلة، متمثلة في أشخاص لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين.

مراكز القوة هذه، منها ما هو ثابت، وما هو متحرك، كان عبدالقادر البغدادي من المراكز المتحركة والثابتة.

كان الرائد عبدالسلام جلود، هو رئيس أركان غرفة اللجان الثورية، هو المتابع اليومي لنشاطاتهما، يعقد الإجتماعات المطولة مع قياداتها، يستمع، ثم يصدر التعليمات للتحرك. منذ البداية أخذ عبدالقادر البغدادي، كرسيه في الصف الأمامي المقابل لطاولة عبدالسلام جلود الذي وجد فيه لساناً وحصاناً، فهو يجيد فن الإستماع، ولا يتخلى عن دور أستاذ مادة الإحصاء عند الكلام، له قدرة لا تنكر على إستخلاص النتائج، وإعتصار الخلاصات في ختام الاجتماع، وقد عرف عبدالقادر بكلمة أو عبارة يسوقها في مطلع مداخلته في الإجتماعات وهي:" خلينا نتفق على حاجة".

إزداد إقترابه من عبدالسلام جلود يوماً بعد يوم، فإسلوبه الناعم الذي يقوم على التوازنات والتسويات يروق لعبدالسلام عكس منطق أولئك المشاكسين المنظرين مثل أحمد إبراهيم القذافي، إبن عم العقيد معمر، أو صالح إبراهيم

الورفلي، الذي كان يتولى الإشراف على قطاع التعليم بمكتب اللجان الثورية. إنضم إلى منطق عبدالقادر البغدادي، في محفل جلود عمار الطيف، واتسعت دائرة المقتربين من الرائد جلود. إشتعلت المصابيح الصفراء في مكتب النقيب محمد المجذوب القذافي رئيس مكتب اللجان الثورية، رفع الواشون درجة اللون حتى وصل إلى الأحمر بمكتب العقيد معمر القذافي الذي إرتفعت شكوكه.

لماذا إنزعج العقيد معمر القذافي من إقتراب عبدالقادر البغدادي وعمار الطيف من الرائد عبدالسلام جلود؟

نستطيع أن نورد أكثر من سبب لهذا الإنزعاج الحقيقي، أولاً: لأن تقنية إستخدام – مراكز القوة – كانت في بداية تفعيلها، ولا يمكن السماح بإختراقها، أو لنقل بأي مظهر من مظاهر الخلل فيها، فإقتراب أي عنصر من هذه المراكز، بعنصر أعلى وأقوى هو خلل يشكل جرس إنذار، وقد يكون بداية لإنحراف عمل تلك المنظومة التي، صنعها معمر القذافي كبديل يقوم مقام " المحرك " أو الماكينة التي تدفع قوة السلطة أو قوة معمر القذافي الشخصية. الثاني: إن تلك " الوخزة "، قد تعني الشروع في خلق قوة موازية، لها غطاء من الشرعية، تتحلق حول الرائد عبدالسلام جلود، وتسبب خللاً ووهناً في سيطرة معمر القذافي المطلقة والمتفردة على مراكز القوة المتمثلة في عناصر أنتجها مصنعه الخاص.

الثالث: بدأ صالح إبراهيم الورفلي يشيع وبصوت عالٍ أن هناك حزباً يتأسس بقيادة عبدالقادر البغدادي، وعمار الطيف، موالٍ للرائد عبدالسلام جلود، ويهدف إلى تحجيم فعالية مكتب اللجان الثورية، الذي أصبح في نظر عمار وعبدالقادر، بؤرة تعبر عن تحالف "إخوة الجد" أي ورفلة والقذاذفة، وأن عبدالسلام جلود مرتاح لهذا الحزب الموالي له والمضاد للجان الثورية، رفع

صالح إبراهيم شعار، "التحالف القبلي أفضل من التحالف الحزبي" كما يقول الكتاب الأخضر.

أحيل كل من عمار الطيف وعبدالقادر البغدادي إلى المحكمة الثورية التي حكمت عليهما بالإعدام، لأن القذافي أراد أن يرفع فأس المقصلة فوق رقبتي الإثنين، لا خوفاً منهما، ولكن إنزعاجاً مما أعتبره سابقة خطيرة، وإختراقاً لا يمكن السكوت عنه أو التسامح معه.

بالطبع لم ينفذ حكم الإعدام في الاثنين، فقد كان الحكم رسالة صاعقة لهما وللرائد جلود أيضاً.

عبدالقادر البغدادي، أكثر مدعاة للشك من عمار الطيف فعمار أكثر إنفتاحاً على الناس وعلى الحياة، يأخذ نصيبه من الدنيا، منفتح أيضاً في تعامله مع الآخرين، لغته أقرب إلى الجانب العملي، لم يتحفظ في تصرفاته الخاصة، إندفع في العمل الأمني وكان أكثر إقتراباً من الناحية الشخصية إلى معمر القذافي، قلده في اللباس، وطريقة الكلام والحركة. في حين كان عبدالقادر البغدادي، يحصي كل أفعاله وكلماته، فهو يعطي كل شيء بقدر، ولم يندفع في العمل الأمني، والسلوك العنيف ضد المضادين، ما كان له دور يذكر فيما عرف بالمداهمات والمحاكمات الثورية، كانت شخصيته توحي بالباطنية والسرية، ولا شك أن أحاديثه الثنائية المغلقة مع الرائد جلود كثيراً ما دخلت حمى كليب، أي إلى المنطقة الخاصة جداً بمعمر القذافي، خاصة أن تلك الأيام شهدت إنفتاح القذافي على عالم الليل والفساد، وكان عبدالقادر يقاسم الرائد عبدالسلام الانزعاج والضيق من ولوج القائد إلى ذلك العالم الذي لا يقبله الرأي العام الليبي.

" أَلمبَاحِثُ تَبحْثُ عَنّي في مُنتَصفِ أَلليل "

كنت بمنزل أحد الأصدقاء، دعاني إلى عشاء مع عدد من الكتاب العرب الذين كانوا في زيارة إلى طرابلس في سنة 1980، فجأة قرع باب البيت بقوة

وإستمر، إندفع صاحب البيت وقام بفتح الباب منزعجاً، طالعه أربعة رجال غرباء، سألوه مباشرة:"هل معك عبدالرحمن شلقم ؟"، أجابهم الرجل مذعوراً:" نعم ولكن من أنتم؟ "، قال واحد منهم:" نحن من الأمن الداخلي، نريده في أمر عاجل". جاء صاحب البيت إلينا وهو يردد:" يا ساتر، يا ساتر، يا أخ عبدالرحمن رجال من الأمن يريدونك بشكل عاجل، إنشالله خير". خرجت على الفور، وسألتهم ما الأمر، قال كبيرهم:" نأسف لإزعاجك في هذا الوقت، مطلوب منك أن تتصل الآن بالقيادة، الأخ العقيد يريد أن يتحدث معك، هل يوجد هاتف بهذا المنزل؟"، قلت لهم نعم، سأتصل فوراً، شكرتهم وودعتهم. عدت إلى الجالسين، وجدتهم ينتظرون على أحر من الجمر، فزملائي الصحفيين في صحيفة الأسبوع السياسي يقبعون الآن في السجن، وقد الحق بهم في أي لحظة، ومازلت في دائرة المغضوب عليهم.

لم يكن هناك في ذاك الوقت هواتف نقالة، وعندما يريد القذافي الاتصال بشخص ما ويكون خارج بيته أو مكتبه فالطريقة الأسرع بالنسبة لقلم القيادة، هي الطلب من جهاز الأمن الداخلي البحث عن الشخص المطلوب.

إتصلت بقلم القيادة، أبلغني المناوب بأن أذهب صباح الغد إلى وكالة الجماهيرية للأنباء، وستجد التفاصيل لدى مديرها سليمان العزابي.

طبعاً، أعطتنا تلك الحادثة مادة، للمساء والسهرة، علق الحاضرون على قدرة جهاز الأمن على معرفة مكان أي شخص في وقت قصير، تحدثنا عن المقصود من هذا الطلب العاجل بأن أذهب صباح الغد إلى وكالة الأنباء هل هذا مؤشر رضا؟ لكن السؤال الذي بقى في ذهني شخصياً، هو ما الذي جعل العقيد القذافي يتذكرني بعد مدة من النسيان؟.

على كل حال ذهبت إلى مقابلة مدير الوكالة، وقال أن قلم القيادة إتصل به، وطلب إليه أن يجد لي مكاناً للعمل معه، أقترح أن أتولى رئاسة التحرير بها فقبلت وباشرت العمل.

بقى السؤال لا يفارق ذهني، ما الذي جعل العقيد يتذكرني، ويلح في الطلب علي، وأن يستعمل المباحث لإكتشاف مكان وجودي، لإبلاغي بأمر لا ذره من الاستعجال فيه. علمت بعد ذلك أن العقيد كان في زيارة إلى منزل فوزية شلابي، رأى كتاباً على طاولتها بعنوان – فلسفتنا – للمرحوم باقر الصدر، وقرأ في صفحته الأولى ختماً يحمل – مكتبة عبدالرحمن شلقم – فاستفسر منها عن عملي، ردت عليه بأنني عاطل. فقرر أن التحق فوراً بوكالة الأنباء.

بعد سنة أنهيت خدمات سليمان العزابي كمدير لوكالة الأنباء الليبية وعين عبدالقادر البغدادي مكانه. باشر عمله بحماس للتغيير وإعادة التنظيم، ورسم سياسة جديدة للتحرير وصياغة الأخبار، طبعاً كان الخلاف بيننا كبير، فمبدأ تسييس الأخبار هو قتل لها، يجعل وسائل الاعلام الأجنبية لا تعتد بها ولا تستعملها، وفقاً للنظام المتبع في الوكالة، فإن المدير العام مهمته الإشراف على الجانب المالي والإداري، في حين يختص رئيس التحرير بكل ما يتعلق بالأخبار. لم نتفق على توجهه بالنسبة للأخبار ولكن إتفقنا أن يتولى هو الإشراف عليها مباشرة وأن أتولى أنا متابعة مكاتب الوكالة في الخارج والإشراف على قسم الترجمة. كنت أدرك أننا سنجد صعوبة في التعامل، فأنا ميّال لمراعاة الاعتبارات المهنية في الأخبار في حين يعطي هو الأولوية للجانب السياسي، بالطبع كنت أتفهم دوافعه إلى أبعد الحدود، فإختياره لهذا الموقع كان لأسباب سياسية وليست مهنية. ذلك الاختلاف لم يسمم العلاقة الشخصية بيننا وقد إستفدت من الترتيبات التي أتفقنا عليها بأن خففت من حجم العمل بالنسبة لي، وأعطتني وقتاً للقراءة والراحة.

كنت أدرك أن عبدالقادر يتمنى عدم إستمراري بجانبه في الوكالة، رغم أسلوبه الناعم وشخصيته الباطنية، إخترع أسلوباً مريحاً له وأكثر راحة لي،

وهو إيفادي وبشكل متواصل في مهمات للخارج، من المكسيك، إلى البرازيل إلى الهند، مروراً بأوروبا، فلا أكاد أقضي أسبوعين متصلين في طرابلس.
دعاني صباح أحد الأيام لتناول القهوة بمكتبه، قال بطريقته الباسمة الودودة:" إن الشباب يرون أن تكون أميناً للمكتب الشعبي بأوغندا"، سألته:" لماذا؟"، قال:" إنها بلد مهم جداً لنا، وموقعها الجغرافي، ودورها، وأنت رجل مسيس وتتحدث الإنجليزية، وتستطيع أن تفعل الكثير" وو.. ، قلت له :"هذا إقتراح منك، أم من القيادة أو أي جهة أخرى؟"، قال:" هذا إقتراح من الشباب"، وقلت:" من هم الشباب؟"، حاول بطريقته أن يراوغ ، ويتهرب، قلت:"إذا فعلاً توفرت في شخصي كل تلك المواصفات التي ذكرتها، فإن المكان الأنسب لي هو أمريكا أو بريطانيا أو على الأقل مالطا، لكن هذا الإقتراح من عائلة أو قبيلة أفكارك، وإذا كنت لا تتحمل وجودي معك، فأنا مستعد أن أبقى بمنزلي من الغد".
قام وعانقني مؤكداً على حرصه أن نستمر في العمل معاً.
كنت على يقين إن عبدالقادر كان صادقاً فيما قال، وعندما ذكر إن إرسالي سفيراً في أوغندا هو " إقتراح " من الشباب، إنما ينقل ما إتفق عليه مع خلية مراكز القوة التي سبق أن أشرت إليها، ما يمكن أن نسميه بـ" الشلة "، كانت هي مجموعة العصف الفكري التي تلتقي ليلياً، في أحد المنازل، للحديث عن مجريات الأمور في البلاد، وترتيب بعض المستجدات، وإبعاد بعض الأشخاص وتقريب آخرين، بالنسبة لي كانت نقطة قوتي أو ضعفي، إنني لم أنتمِ إلى أي شلة من تلك الشلل، بل أقضي الأمسيات مع الكتاب والأدباء والفنانين. كانت تلك الشلل تحارب بعضها في صمت مسموع. إعتمدت قاعدة المحاصصة في المواقع والوظائف، ورأت الشلة التي ينتمي إليها عبدالقادر أن وظيفة رئيس تحرير وكالة الأنباء، هي وظيفة مخصومة من حصتهم، ولابد من إستردادها.

قد يكون هناك دافع آخر، لمحاولة عبدالقادر إبعادي عن الوكالة، وهو أنني لم أنفض بعد الغبار الذي غطى أعطافي، ورش الرماد والغبار على إسمي وجسمي، وهو موضوع الإسبوع السياسي، الذي أعتبره أعضاء اللجان الثورية موقفاً خيانياً من طرفي.

أما فكرة أنه أراد إبعادي خوفاً على كرسيه، فهذه، وأنا أجزم بذلك لم تكن واردة لديه لأنني أعرف معرفة قاطعة أنه لم يكن حريصاً على أن يبقى فوق كرسي تلك المحرقة التي لا يخبو جمرها ليلاً أو نهاراً. كما سبق أن قلت، دأب على إيفادي إلى الخارج في مهام لا تنتهي، عقد سنة 1980 مؤتمراً لمدراء وكالات دول عدم الإنحياز في الهند فإقترح علي أن أترأس الوفد الليبي، فرحبت بذلك، وسافرت إلى الهند، بعد يومين من وصولي، إتصل بي السفير الليبي في نيودلهي، وأنا في الفندق وقال أن هناك برقية عاجلة جداً، وأنه سيحضر حالاً، جاء المبروك المسلاتي وهو سفيرنا آنذاك، وأحضر البرقية التي تقول "مطلوب الحضور إلى طرابلس بشكل عاجل جداً". ضحكت، فسألني المسلاتي، لماذا؟، قلت، أما أن يكون عبدالقدر البغدادي في الاعتقال، أو صدر قرار بإعفائه من إدارة وكالة الأنباء.

عدت إلى ليبيا، كان القرار قد صدر بتعييني مديراً لوكالة الأنباء.

كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي نعمل فيها معاً، جنباً إلى جنب، وفي مكان واحد. قرأت شخصيته جيداً، فهو شخصية تغري بالقراءة.

نُقل بعد ذلك أميناً للجنة الشعبية للمكتب الشعبي بلندن، العلاقات الليبية البريطانية في أسوأ حالاتها، الإتهامات البريطانية لليبيا بدعم الجيش الجمهوري الإيرلندي، وملاحقة المعارضين الليبيين في الخارج وتصفيتهم، شهدت لندن أكثر من حادثة قتل للمعارضين، إستياء بريطاني عام من القلاقل التي يثيرها النظام الليبي في مناطق ودول تهم بريطانيا. نستطيع أن نقول أن البلدين كانا يخوضان حرباً باردة من جانب بريطانيا، وساخنة من

الجانب الليبي، ترأس عبدالقادر البغدادي في مبنى السفارة الليبية مجموعة من الشباب الأكثر تهوراً وتطرفاً، قامت مجموعة من رجال الأمن في الداخل، وبعض أعضاء مكتب اللجان الثورية، بتشكيل غرفة عمليات لتوجيه، نشاط المكاتب الشعبية الحساسة في الخارج. راقبت السلطات البريطانية حركات فريق السفارة الليبية وسكناته، فكل واحد من أعضاء هذا الفريق يوحي اسمه بالرعب، فقد ضم كل من: معتوق محمد معتوق، صالح إبراهيم، عمر السوداني، وعلى رأسهم ورئيسهم عبدالقادر البغدادي، هؤلاء جميعاً ليس بينهم واحد من الدبلوماسيين العاملين بوزارة الخارجية، والأمن البريطاني له ملف عن كل واحد فيهم، والخارجية البريطانية، لم تنظر إليهم يوماً على أنهم دبلوماسيون جاءوا لتحقيق مصالح بين البلدين، أو لحل المشاكل، إنهم – مكتب لجان ثورية – مصغر ومركز، يباشر عمله في قلب لندن.

سنة 1984، هي سنة الصدام بين النظام والمعارضة الليبية ليس على المستوى السياسي فقط، ولكن بالحديد والنار أيضاً، فقد حاولت مفرزة من شباب جبهة الإنقاذ الليبية القيام بعمل مسلح ضد النظام، تحصنوا في عمارة لا تبعد كثيراً عن باب العزيزية مقر معمر القذافي الحصين.

حبس معمر القذافي أنفاسه، وزفرها في وجه معاونيه الأشداء، وأعطى الأوامر بصوت يصرخ، بشن مواجهة شاملة وعنيفة ضد كل من يهمس أو يتنفس بالعداء له أو لثورته.

في صباح يوم الثلاثاء الموافق 10 ابريل سنة 1984، تجمع حشد من الليبيين أمام مبنى السفارة الليبية بلندن يرفعون اللافتات ويهتفون ضد نظام معمر القذافي، إنتشرت مجموعة من الشرطة البريطانية لتأمين المظاهرة، والسفارة، فجأة إندفعت زخّات من الرصاص من داخل مبنى السفارة، سقطت شرطة بريطانية شابة هي – إيفون فليتشر. إشتعل الرأي العام البريطاني،

وتجاوب معه الرأي العام الدولي، ودخلت العلاقة بين ليبيا وبريطانيا إلى فرن المواجهة المباشرة. تلك الحادثة التي سال فيها دم بريطاني برصاص ليبي، طارت فيها روح فتاة بريطانية حسناء، ستشعل الكثير من النيران، لكن ليس على الطريقة الليبية الثورية، ولكن على النهج البريطاني، الذي لا ينتقم بضرب الرصاص، وقدح زناد البنادق، ولكن بقدح زناد العقل والدهاء.

قررت الحكومة البريطانية، إبعاد الفريق الليبي المتحصن بالسفارة، أخذت الجميع إلى المطار، ولكن في الطريق إليه، رتبت لهم مأدبة غذاء في مطعم خاص. وضع كل واحد في كرسي أمام إسمه، أكلوا وشربوا وغادروا في سلام. بعد ذلك قام الأمن البريطاني بأخذ بصمات كل واحد منهم من الأواني التي أستخدمها، جرى بعد ذلك مطابقة البصمات مع تلك التي أخذت من ستائر النافذة التي أطلق منها الرصاص.

بعد أن إنقشع دخان الرصاص، وجفّ دم الشرطية إتفق الجانبان الليبي والبريطاني على أن يرسل كل طرف وفداً إلى سفارته، لتفقدها، وترتيب ما بداخلها وتحريز أو نقل ما بداخلها، أرسلت الحكومة الليبية وفداً ضم أحد ضباط الأمن المخضرمين هو عبدالرحمن الشائبي، الذي تربطه علاقات قديمة جداً بالأمن البريطاني، دخل الوفد الأمني الليبي إلى السفارة، وطاف بأرجائها، جمع ما يمكن جمعه، لكن كما يقولون:" الشاطر يقع". رغم الخبرة الطويلة التي يتمتع بها عدد من رجال الأمن الليبي الذي قام – بتنظيف – السفارة، إلا أنه لم يتمكن من جمع كل مواد الفعل، وإخفاء جميع آثار الجريمة. فقدد بقيت بعض "الظروف الفارغة"، التي كانت تحوي الرصاص الذي أنطلق من داخل السفارة، بقيت خلف الستائر داخل أحد المكاتب بالسفارة، كذلك لم يستطع الأمنيون الليبيون إزالة غبار البارود الذي تخلل الستائر. هكذا، كانت آثار الجريمة الشاهد الحاضر، الذي سكن السفارة بعد مغادرة الفاعلين.

مأدبة الغذاء التي أقيمت للفريق الليبي المغادر، تعبير عن الكرم الأمني الإنجليزي كانت الشاهد الآخر.

بعد تصفية الكثير من الأمور العالقة مع بريطانيا، بقيت قضيتان، واحدة تهم الجانب الليبي، وأخرى الجانب البريطاني. تلك التي تهم الليبيين كانت محاولة إغتيال معمر القذافي، والتي جرت بمنطقة الشاطيء جنوب ليبيا، وقادها القريو. يقول الليبيون أن احد رجال الأمن البريطاني قد صرح بها وهو– شيلر. طلبت الحكومة الليبية التحقيق معه وجعلت هذا شرطاً للتعاون مع الجانب البريطاني في القضية التي تعنيه.

الجانب البريطاني كان مهتماً وملحاً على قفل ملف الشرطية – فليتشر– طلب التحقيق مع عدد كبير من الليبيين عبر الإنابة القضائية، ومن بينهم أعضاء الفريق الذي كان يدير السفارة وعلى رأسهم عبدالقادر البغدادي، تعللنا بأن بعضهم يشغل منصب وزير ولا يمكن التحقيق معهم إلا بإذن من أمانة مؤتمر الشعب العام، كّنا نعني– الدكتور عبدالقادر البغدادي، الذي كان يشغل منصب وزير التعليم، والمهندس معتوق محمد معتوق، الذي كان يشغل منصب وزير المرافق. في حين سمح للمحققين الإنجليز مقابلة عشرات من المواطنين الليبيين الذين طلبوا إستجوابهم عن طريق الإنابة القضائية.

هناك حالة خاصة، وهي حالة صالح إبراهيم الورفلي، إذ كان لحظة إطلاق النار في السفارة، في مكان آخر خارجها، ورتب مع السلطات البريطانية مباشرة حل مشكلته، سافر إلى لندن وجرى التحقيق معه، وأعتبر شاهد ملك. أصبح صالح شاهداً عند الإنجليز، ولكنه لم يصبح ملكاً، فقد تم ترشيحه من جانب ليبيا، ليكون أول سفير لها بعد القطيعة الطويلة، الجانب البريطاني لم يوافق، ورفض بشدة رغم المحاولات والضغوطات التي مارسها الجانب الليبي، لأن معمر القذافي، أراد بترشيحه الذي جاء منه شخصياً أن يقول

للإنجليز: إن الذين تتهمونهم بالإجرام، هم الذين يعيدون بناء العلاقات معكم، وقبولكم لأحدهم سفيراً لديكم يعني براءة الجميع، كان البريطانيون أذكى.

بقيت تهمة المشاركة في قتل الشرطية فليتشر، هاجساً يحمله عبدالقادر في أعماقه، ولعنة تقرع ضميره.

إعتاد أن يتحدث معي في كل شيء، صحيح بطريقته الباطنية الإحصائية التي تشابه جبل الثلج الذي يكون ربعه فوق الماء وثلاثة أرباعه تحته، لكنه لم يتطرق أبداً إلى موضوع الشرطية فليتشر، رغم أنني كنت أقود المفاوضات بخصوصها مع الجانب الريطاني، بل لا أذكر أنه تعرض مرة واحدة لموضوع العلاقة مع بريطانيا.

قلت في السطور السابقة، أن عبدالقادر، إقترح أن أعين سفيراً في أوغندا بمبادرة من الشباب حسب قوله، وعندما ساق مبررات ذلك الإقتراح، قلت لماذا لا أكون سفيراً في بريطانيا؟! نطقت الأقدار بحكمها، ورفعته سفيراً ثورياً في بريطانيا، عاد منها بلعنة علقت في رقبته وظلت تتأرجح أمامه سنينا، وكأن جسد تلك الشرطية الحسناء هو الثقل الذي يتدلى على صدره.

في تسعينات القرن الماضي، شهد العالم تغيراً أقوى من الزلازل والأعاصير، تهاوت الجدران التي كانت تقسم أوروبا إلى كون رأسمالي ديمقراطي، وآخر شيوعي شمولي، تهاوى نظام الفصل العنصري في جنوب افريقيا، أمريكا اللاتينية وأفريقيا آخر معاقل الديكتاتوريات المنغلقة المتسلطة، سرت في أركان شعوبها رعشات الحرية، أصبحت الدنيا على أعتاب زمن جديد لم يسبق. بدأت الأصوات ترتفع داخل ليبيا، إلى أن وصلت إلى الحلقات التي تمثل العنث الثوري العنيف.

عقد الرائد عبدالسلام جلود اجتماعات متعددة ومتواصلة، لامس أول مرة وبجرأة كل المسكوت عنه، والممنوع التفكير فيه، وقدم حزمة من المبادرات،

لتحريك الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية المعاقة. معمر القذافي رأى في ذلك قفزاً في فضاء المغامرة، ولكن كعادته يرد بمبادرات لا تخلو من إعاقة خفية. أصرّ جلود على إعطاء هامش لحرية الصحافة، وضرورة ممارسة النقد والتقييم لكامل التجربة، وإلقاء الضوء على تجاوزات الأجهزة الإدارية، خاصة وأن الفساد والإنحراف أصبحا القانون والقاعدة التي تحرك البلاد.

أوعز معمر القذافي إلى عدد من الكتاب والصحفيين بتأسيس صحيفة حملت عنوان – لا – كتب فيها بعض الصحفيين الذين قضوا سنوات بالسجن، بالإضافة إلى بعض الأقلام من اللجان الثورية.

أسس آخرون صحيفة – الشمس –، وهي إحياء لصحيفة حائطية كان معمر القذافي يصدرها بمدرسة مصراتة الثانوية، أختير عبد القادر البغدادي لإدارتها، إتصل بعدد كبير من الكتاب والصحفيين والمختصين في المجالات الاقتصادية والمالية والتربوية والنفطية للكتابة بها. إعتقد أن الإحتقان العام يزداد كل يوم، والدنيا تسير في إتجاه، والجماهيرية تعيش سكوناً مناقضاً لتلك المسيرة الإنسانية، دخل عبدالقادر البغدادي منذ اليوم الأول في صدام، بدأت دائرته تتسع، تحرك فريق الأمس ليقارعه اليوم، عاد التحالف القبلي القذافي الورفلي يشعل الأضواء الصفراء في وجهه، ويفتح الملف القديم، عن علاقة عبدالقادر بالرائد عبدالسلام جلود. تبخرت أفكار الإنفتاح والتطوير والتعبير، إنزوى جلود بمنزله غاضباً، وغاب عبدالقادر عن الشمس.

تنقل بعد غيابه عن الشمس، بين مهام في الظل، وأخرى في دهاليز اللجان الثورية، إلى أن عيّن أميناً لجهاز الرقابة الإدارية، هذا الجهاز، مهمته الأساسية مراقبة إجراءات الإدارة، ومدى مطابقتها للقوانين النافذة، ومراجعة المشروعات والعطاءات، والتأكد من دقة الأسعار، وكذلك المناقصات التي تخضع لها تلك المشروعات. لكن هذا الجهاز كان أيضاً وسيلة من وسائل العقاب، لمن يتولى إدارته، ولمن يخضع لرقابته.

حاول عبدالقادر البغدادي، أن يكون متوازناً في هذا الموقع، وأن يرضي القذافي، دون أن يستعدي زملاءه المسئولين.

عندما كنت أميناً للإتصال الخارجي، كان الإستدعاء إلى مقر الرقابة وجبة شبه يومية، يتم إستدعائي للتحقيق معي في أمور لا تستحق التحقيق، وقد لا يكون للخارجية علاقة بها. إتصل بي مرة حسني الوحيشي الساعة الثالثة فجراً، وطلب مني الحضور حالاً إلى مقر الرقابة للتحقيق معي في أمر عاجل جداً. كان البرد شديداً والمطر غزيراً، وصلت إلى مكتبه، فوجدت حفنة من المسئولين ينتظرون دورهم للتحقيق، فوجئت أن موضوع التحقيق مقالة قديمة نشرت في إحدى الصحف اللبنانية عن موضوع موسى الصدر.

بعد الإنتهاء من التحقيق، سألت حسني، كم شخص ستواصل التحقيق معهم بعدي فقال، أربعة، قلت له، أنا أعرف إن إستدعائي في هذا الوقت هو عقوبة لي على موضوع آخر، ولكن العقوبة الأشد هي لك، فأنت ستجلس على هذا الكرسي حتى صباح الغد، أسأل نفسك ما هي قضيتك التي تعاقب عليها الآن.

عبدالقادر البغدادي إتبع أسلوباً آخر، فعندما يطلب منه التحقيق مع أي أمين، يقوم بالاتصال هاتفياً به، ويطلب منه بعد أن يبلغه بموضوع التحقيق، أن يكتب بنفسه الأسئلة ويرد عليها، لقد أرحني أسلوبه هذا من زيارات كثيرة إلى مقر الرقابة الإدارية.

لكن عبدالقادر، الرقيب، المتوازن، الذي يحاول ما أستطاع أن لا يرهق زملاءه بزيارة الرقابة، ويجترح الحلول الواقعية، هو غير عبدالقادر البغدادي أمين شئون اللجان الشعبية بأمانة مؤتمر الشعب العام. فقد شكل توأماً ثورياً مع أحمد إبراهيم القذافي أمين شئون المؤتمرات الشعبية بالأمانة، حتى غدت فرعاً من مكتب اللجان الثورية – قيل الكثير عن نشاطه وأعماله بهذا الموقع، لكنني سأتوقف عند تجربتي معه هناك.

لقد الحق عبدالقادر البغدادي، وأحمد إبراهيم القذافي، ضرراً بالغاً بالدبلوماسية الليبية، لا يمكن جبره لسنوات طويلة، فقد عانت وزارة الخارجية الليبية منذ الإستقلال من إختلالات كبيرة، رغم الجهود التي بذلت لتجاوزها. لكن الإرتباك الشامل بدأ بعد تعيين الرائد عبدالمنعم الهوني، وزيراً للخارجية، وأبوزيد دوردة وكيلاً له.

فقد سُرّح العديدُ من ضباط الجيش بعد سبتمبر 1969 لأسباب أمنية والحق عدد منهم بوزارة الخارجية، وعندما تولى الرائد عبدالمنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة وزارة الخارجية وجهاز الأمن الخارجي، أرسل عدداً من العاملين بهذا الجهاز للعمل بالسفارات، أما وكيل الوزارة أبوزيد، القادم من عالم التعليم والإعلام، فقد أستقدم عدداً كبيراً من المعلمين، والإعلاميين للعمل بالخارجية كدبلوماسيين.

ثم بدأ الزحف على السفارات وتحويلها إلى مكاتب شعبية تدار بلجان شعبية، ليس لأعضائها أي علاقة بالعمل السياسي، كنت في زيارة إلى لندن سنة 1982، كنت عندئذ أميناً للإعلام، وأستقبلت عدداً من العاملين بالمكتب الشعبي، سألت الأول عن مهمته بالمكتب الشعبي، فقال أنه مسئول الإعلام، فأنا أعرفه منذ دراستي بالمرحلة الإعدادية بمدرسة سبها، وكان هو مدرس رياضة، سألت الثاني فقال أنه مساعد للأول، وعندما استفسرت عن مكان عمله السابق في ليبيا، أجاب بأنه كان يعمل بمنشأة المواشي واللحوم. وفي البرازيل، فوجئت بوجود شخص كبير السن، عضو اللجنة الشعبية، وقد كان يعمل بمحطة وقود للبوليس بسبها.

جرت محاولات بعد ذلك، لإعادة تنظيم وزارة الخارجية، لكن لم تحقق تلك المحاولات نتائج. شرع المرحوم عمر المنتصر في محاولة الحد من إرسال اللجان الشعبية إلى السفارات، والإكتفاء بشخص أمين المكتب، وعندما جئت

إلى الوزارة سنة 2000 كرست ذلك، ولم أواجه أي مقاومة أو معارضة لهذا التوجه.

إستمر القانون الذي ينظم العمل في السلك الدبلوماسي سارياً، حاولنا أن نعالج بعض الهنات التي لحقت به، بسبب التغيرات التي حدثت في ليبيا من حيث طبيعة التعليم، والعناصر المطلوبة للعمل بالسلك الدبلوماسي وضبط التراتبية، والمعهد الدبلوماسي وغيرها، وكذلك التطورات التي شهدها العالم، لقد حدث إرتباك كبير في آداء الخارجية كوزارة، والسفارات كأذرع تنفذ توجهاتها في الخارج، تم إعداد أكثر من مشروع قانون جديد للسلك الدبلوماسي يتوأم مع مع إتفاقية فيينا للعلاقات الدولية، رفضت أمانة مؤتمر الشعب العام في كل مرة إحالة مشاريع القوانين للعرض على المؤتمرات الشعبية, فوجئنا بصدور قانون للسلك لم تستشر فيه أمانة الاتصال الخارجي. كان ذلك الإجراء مخالفة لا يمكن القبول بها أو السكوت عليها. لقد عقدت أمانة مؤتمر الشعب العام إجتماعاً بحضور سعيد حفيانة الذي كان يشغل في ذلك الوقت منصب المدعي العام بمحكمة الشعب، أعطوه محاوراً ونقاطاً لإعداد قانون للسلك الدبلوماسي، وفعلاً فعل.

أعطى ذلك القانون عنوان – قانون العمل السياسي والقنصلي– وأعطى له الرقم 2، وهكذا أصبح أسمه القانون رقم 2.

منحت أمانة مؤتمر الشعب العام لنفسها صلاحية واسعة في تعيين اللجان الشعبية بالسفارات وأمناء تلك اللجان، الشيء الأكثر غرابة، ما سمى بالدبلوماسية الشعبية، وهي أن يقوم كل مؤتمر شعبي أساسي بإختيار شخص ليكون ضمن أعضاء تلك اللجان الشعبية، وهكذا يأتي شخص يعمل بمحل لبيع الخضار أو اللحم أو الأحذية ليكون سفير أو معاون سفير في أي دولة في العالم. وهناك مادة خلقت تعقيداً خطيراً، وسببت إرتباك في العلاقات مع الدول الأخرى.

عندما ترشح وزارة – أمانة الخارجية – لجنة شعبية حسبما حددت أمانة مؤتمر الشعب العام في قانونها الذي أخذ رقم 2، وأن تكون هذه اللجنة تضم أعضاء من المصعدين من المؤتمرات الشعبية الأساسية، تحيل الخارجية قائمة هذه اللجان إلى اللجنة الشعبية العامة، التي تقرر إحالتها إلى أمانة مؤتمر الشعب العام بعد أن تعدل أو تقر إقتراح الخارجية، تقوم أمانة مؤتمر الشعب العام بتزكية ما جاء من اللجنة الشعبية العامة أو تعدله. طبعاً هناك إجراء أساسي أو ضروري، لم يذكره القانون، وهو ضرورة عرض أسماء أمناء اللجان أي السفراء على – القائد–. والجانب الأسوأ هو كيفية الموافقة على السفراء الأجانب المرشحين من دولهم، يقول القانون، أن على الخارجية بعد أن تستلم اسم السفير المرشح، أن تحيله بمعلومات وافية عنه إلى اللجنة الشعبية العامة، وأن تناقشه في جلسة من جلساتها العادية، وفي حالة الموافقة عليه تحيله إلى أمانة مؤتمر الشعب العام التي تصدر قراراً في جلسة من جلساتها العادية بالموافقة على السفير.. هذه مرحلة قد تأخذ أكثر من خمسة أو ستة أسابيع، وهناك في العرف الدبلوماسي، إنه في حالة تأخر الرد فإن ذلك يعبر عن رسالة سياسية. فإذا جاء الرد بالموافقة على السفير المرشح خلال أسبوع مثلاً، فإن ذلك يعبر عن تقدير الدولة المرشح أن يعمل بها السفير عن ترحيبها به تقديراً للعلاقات القوية والممتازة مع الدولة المرشحة. وكلما تأخر الرد، أعتبر ذلك عدم ترحيب بالسفير، وإن لم تصل الموافقة خلال 45 يوماً، أعتبر ذلك رفضاً للسفير. لقد خلقت تلك الرحلة الهلامية العبثية، تسميماً مجانياً لعلاقاتنا مع عدد من الدول، وليت ذلك التصرف كان نتاج دراسة وتحليل موقف، إنما كان ذلك، لبيروقراطية لا مبرر موضوعي لها. كان علي عبدالسلام التريكي يتولى منصب أمين اللجنة الشعبية للوحدة الافريقي، ذهبت معه، وقابلنا العقيد وشرحنا له مثالبْ القانون رقم 2، الذي وضعته أمانة مؤتمر الشعب العام دون التنسيق أو

أستطلاع رأي الأتصال الخارجي والوحدة الافريقي، كان موقفه عائماً، فهمت منه أن أمانة مؤتمر الشعب العام قد حصلت مسبقاً على موافقته على القانون.

حاولت بكل الطرق أن أعرف دوافع أمانة مؤتمر الشعب العام لإصدار ذلك القانون، وبتلك الطريقة الغريبة، المخالفة للقواعد المتبعة في صياغة القوانين وإصدارها. جاء الجواب من الدكتور محمد الحراري، أمين الشئون القانونية وحقوق الإنسان بأمانة مؤتمر الشعب العام، قال أن الذي كان وراء إصدار ذلك القانون هو الدكتور عبدالقادر البغدادي. كان أعضاء الأمانة– حسب قول الحراري – في دعوة عشاء بمنزل أحمد إبراهيم القذافي، فطرح عبدالقادر أوضاع الخارجية الليبية، وقال أنها تغرد خارج سرب العمل الشعبي الجماهيري، وإن عبدالرحمن شلقم، حول السفارات بالخارج، إلى أوكار موالية له شخصياً، وفي هذا تناقض مع سلطة الشعب، والنظرية والجماهيرية، والأخطر من ذلك حسب قول البغدادي، أن ذلك يمثل إختراقاً أمنياً خطيراً، وذكر بعض البعثات الليبية التي وضع فيها عبدالرحمن – حسب قوله– زملاءه في الدراسة، وأصدقاءه المقربين، والحل، كما رآه الدكتور عبدالقادر البغدادي، هو إصدار قانون جديد للعمل الدبلوماسي، يكرس التجربة الجماهيرية ويغل يد أمين الإتصال الخارجي في تعيين أمناء المكاتب الشعبية.

عندما طرحنا هذا القانون على العقيد معمر القذافي مرة أخرى طلب من حسني الوحيشي، أمين جهاز الرقابة الشعبية أن يحقق في مضمونه وكيفية إصداره. قام حسني بما هو مطلوب منه وحوله إلى العقيد الذي لم يعلق على ذلك التحقيق.

تحدثت بعد ذلك مباشرة وبصراحة مع عبدالقادر حول مضمون هذا القانون غير المنطقي والمريك، فرد بعد عرض إبتساماته وترديد كلمة، يا " خوي "،

بأن لدينا تجربة شاملة ومتكاملة، وهي الديمقراطية الشعبية المباشرة، التي تعطي كل السلطة للجماهير، وهي صاحبة السيادة والجلالة، فهي التي يجب أن تعين السفراء الليبيين، الذين يجب أن يكونوا سفراء صاحب الجلالة، وهو الجماهير، مثلما السفراء في بريطانيا يسمون سفراء صاحبة الجلالة.

لم تتوقف أمانة مؤتمر الشعب العام عند مخالفة صياغة القانون، بل ثنت على ذلك بإصدار اللائحة التنفيذية لذلك القانون، وهذا إختصاص أصيل للجنة الشعبية العامة وحدها، وفقاً للتشريعات النافذة. بل ذهبت أمانة مؤتمر الشعب العام أبعد من ذلك عندما تدخلت في توصيف الوظائف بالخارجية الليبية، وترتيب درجات الموظفين. فالمعروف في كل دول العالم أن الدبلوماسي المبتديء في السلك يكون بوظيفة "ملحق"، ثم يتدرج إلى الوظائف الأعلى، أصّر عبدالقادر البغدادي على عدم إستعمال كلمة ملحق. لماذا؟ برر رفضه بأن كلمة ملحق تعني " الملحاق "، وهو مساعد السارح، أي راعي الحيوانات، دار بيننا نقاش منفعل، قلت له " يا خوي "، عبدالقادر أن الذين صاغوا إتفاقية فيينا، والذين حددوا الوظائف، وأبدعوا أسماءها في عالم الدبلوماسية، لم يمن عليهم الله بالثقافة الرعوية. أخذ كلامي بهدوء ودود كعادته، أتفقنا على أن نترك هذا الموضوع إلى لجنة من الخبراء لتتقدم لنا بورقة تفصيلية بالخصوص.

لم يتوقف عبدالقادر البغدادي وشركاه في أمانة مؤتمر الشعب العام عند حدود صياغة القانون واللائحة، بل قفزوا إلى الجانب الإداري الأساسي، وهو تسمية أمناء المكاتب "السفراء"، وفقاً للقانون الجديد رقم 2، ولائحته التنفيذية، فإن لأمانة مؤتمر الشعب العام الإعتراض على أي أسم ترشحه أمانة الخارجية، وتصدر اللجنة الشعبية العامة قراراً بتعيينه، وتملك الأمانة وفقاً للمادة 16 من القانون رقم 2، تسمية شخص بديل للمعترض عليه من طرفها، ولابد أن يقسم السفير ومساعده أمام – أمانة مؤتمر الشعب العام–

قبل مباشرة عمله. لقد وضع ذلك القانون صلاحيات مطلقة في يد الأمانة في كل ما يتعلق بتعيين اللجان الشعبية، التي تدير السفارات الليبية في الخارج.

قدمت قائمة باسم عدد من السفراء المرشحين للعمل بالخارج، وأحلتها حسب الإجراءات المنصوص عليها في القانون واللائحة الجديدين، وقف عبدالقادر البغدادي وأحمد إبراهيم وقبلهما الشيخ الزناتي أمين مؤتمر الشعب العام، ضد أسماء محددة، بل أكثر من ذلك، أراد كل واحد منهم أن يملي أسماء معينة لإعتبارات شخصية محضة، بل أن الشيخ الزناتي ذهب بعيداً، وأقسم بالطلاق، أن تقطع يده قبل أن يوقع على تزكية أسماء معينة من الذين رشحتهم أمانة الخارجية. بقيت تلك القائمة معلقة لأكثر من سنة.

ذهبت رفقة البغدادي المحمودي رئيس الوزراء إلى معمر القذافي في منطقة " العثعث " بصحراء سرت، وجدنا معه أحمد إبراهيم، وآخرين من قبيلته، عرضت عليه قائمة الأسماء، وقلت له:" أنني لم أعد قادراً على إدارة أمانة الاتصال الخارجي بهذا القانون وهذه اللائحة، وبتدخل أمانة مؤتمر الشعب العام، في إختيار السفراء، أنا لا أستطيع العمل مع أشخاص لا دور لي في إختيارهم، وبعضهم أوتى به من خارج القطاع ولا يمتلك أية خبرة في العمل الدبلوماسي.

إستعرضنا الأسماء، إسماً، إسماً، ومبررات إختيارهم من جانب أمانة الخارجية وتزكية اللجنة الشعبية العامة لهم، وافق العقيد القذافي على القائمة. لم يستسلم عبدالقادر البغدادي، وأصر أن يكون له – شخصياً – نصيباً في السفراء، إقترح إسم أحد العناصر العاملين معه بمكتب اللجان الثورية، إتفقت معه على تسوية. إقترحت أنا، أن يكون حافظ قدور سفيراً في أسبانيا، وأقترح هو شخص أسمه "القمودي"، وقدم إقتراحاً بأن يكون "حافظ قدور" سفيراً

بالفاتيكان، فقد درس بإيطاليا وعمل قنصلاً بباليرمو، وله علاقات بإيطاليا، مضافاً إلى لغته الإيطالية الممتازة. إتفقنا على ذلك.

على قاعدته المعروفة– خلينا نتفق على حاجة – يستطيع عبدالقادر البغدادي إيجاد مخرج لكثير من الإختناقات والإختلافات بأسلوبه الهادىء وإبتساماته المتسامحة. وهو يجيد الإنسحاب في الوقت المناسب قبل أن يجد نفسه في مواجهة الفشل أو الهزيمة.

طار من أمانة مؤتمر الشعب العام، ليحط بالتعليم، فقد قُسّم التعليم إلى أمانتين – أمانة التعليم العالي، وأمانة التعليم العام، تولى هو التعليم العام، قدم خطة شاملة لإصلاح التعليم شملت، إعداد منهج جديد، وبناء مدارس جديدة، وترميم القائم منها، إستعان بعدد كبير من الخبراء لإعادة صياغة مناهج التعليم من المرحلة الإبتدائية إلى المرحلة الثانوية، أستعان بتجارب دول معينة التي حققت نجاحاً في تطوير مناهجها بما يخدم إحتياجات البلاد. كان أكثر الأمناء فعالية في اللجنة الشعبية العامة. حيث يحضّر جيداً للإجتماعات، يطلع على المذكرات الواردة من الأمناء في جميع القطاعات، ويسجل ملاحظاته عليها، ويناقش محاضر الإجتماعات السابقة.

في جلسة مؤتمر الشعب العام سنة 2009، قدم عرضاً وثائقياً مصوراً لخطة تطوير شاملة في قطاع التعليم دون الجامعي، لاقى ذلك العرض إرتياحاً كبيراً، سرت في قاعة المؤتمر أخبار مؤكدة عن دمج التعليم العام مع التعليم العالي، وسيتولى هو قيادة الجسم الجديد. كان يجلس إلى جانبي وفقاً لترتيب الأقدمية، همس لي بتخوفه من ثقل هذا الجسم الجديد، وقال أنه كان يفضل الإبقاء على أمانتين خاصة في هذه المرحلة.

قبيل إنعقاد الجلسة التي سيتم فيها " التصعيد "، وإعلان أسماء الأمناء، جاءني الدكتور البغدادي المحمودي، وقال أن هناك مشكلة كبيرة، سألته ماهي؟. قال أن المهندس سيف الإسلام يصر على تعيين الدكتور عبدالكبير

الفاخري أميناً للتعليم، ويرفض رفضاً قاطعاً إستمرار الدكتور عبدالقادر في هذا الموقع، سألته، وماذا عن دمج الأمانتين، أقصد التعليم العالي، والتعليم العام، قال أن قرار الدمج لا رجعة فيه، لكن المشكلة الآن في اسم الأمين الذي سيحمل هذا الثقل الجديد. قلت للدكتور المحمودي أعطني نصف ساعة، سأتصرف. إتصلت هاتفياً بسيف الإسلام معمر القذافي، سألته عن سبب إصراره على إزاحة الدكتور عبدالقادر البغدادي، وإحلال الدكتور الفاخري مكانه، قال أن عبدالقادر لا يصلح، لإنه شخص مزايد، ومراوغ، وفاسد، وإندفع يلقي بياناً هجائياً ساخناً ضده، أطلق قذائفاً من القذف الجارح، ولم يبق كلمة من قاموس الشتائم والسخائم لم يدلقها على إسمه. قلت إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا يتولى الدكتور عقيل حسين عقيل الأمانة الجديدة المدمجة، وهو قد قدم عرضاً واعداً لتطوير الجامعات والمعاهد العليا، كرر سيف إصراره أن يتولى الدكتور عبدالكبير الفاخري الأمانة الضخمة الجديدة. وصل الحوار بيننا إلى طريق مسدود. إتصلت ببشير صالح، مدير مكتب معمر القذافي، شرحت له أن خروج كل من الدكتور عبدالقادر البغدادي والدكتور عقيل حسين عقيل من ملعب التعليم، خاصة بعد العرض الذي قدمه كل منهما، وترك أثراً إيجابياً بين الناس، سيشكل صدمة للرأي العام، وسيفهم على أنه إعتراض رسمي على أية محاولة للنهوض بهذا القطاع الذي يمس جميع الليبيين، الذين أجمعوا على الغضب مما وصل إليه هذا القطاع من تردي. إقترح علي بشير صالح أن أتحدث في هذا الموضوع مباشرة مع القذافي، قلت أن الوقت يجري بسرعة الضوء، فالجلسة ستكون بعد أقل من ساعتين، وستعلن اللجنة الشعبية الجديدة ولابد من إقناع سيف الإسلام بالتراجع عن موقفه وإذا كان يصر على إبعاد عبدالقادر فليكن البديل الدكتور عقيل، إتفق معي بشير صالح، وقال أنه سيتحدث حالاً مع العقيد، ولكنه يفضل أن أتحدث إليه مباشرة.

التقيت بعد ذلك بالبغدادي المحمودي، قصصت عليه، ما دار بيني وبين كل من سيف، وبشير. علق البغدادي المحمودي، بقوله:" لعلمك فإن إصلاح حقيقي في التعليم مرفوض رفضاً باتاً، وعبدالقادر البغدادي، مغضوب عليه، ولابد أن يختفي من المشهد في الفترة القادمة".. ألححت على البغدادي المحمودي في معرفة سبب هذه الغضبة المضرية ضد عبدالقادر. غمز بعينه وإبتسم، يعني أن "البحر فيه كلب" كما يقول الليبيون، بالمفضوح المفتوح أن هناك موضوع نساء في الوسط.
سألت البغدادي المحمودي:" ولماذا الإصرار على إسم الدكتور عبدالكبير الفاخري، وهو لا يتمتع بأي قدرات قيادية إدارية؟"، قال:" أنت من الجنوب وتعرف التفاصيل أكثر مني".

" قصــة آل الفاخـري ووالـد معمـر القذافـي "

كان السؤال، لماذا أصرّ سيف الإسلام القذافي على تنصيب الدكتور عبد الكبير الفاخري أميناً للتعلمين العام والعالي، هذه الأمانة الجديدة الكبيرة والثقيلة التي تضم مئات الآلاف من الطلاب من المرحلة الإبتدائية إلى الجامعية، والدراسات العليا والبعثات في الخارج، تتضمن خطة تطوير التعليم العام والعالي، بناء المدارس والمعاهد والكليات، تجديد المناهج برؤية جديدة، لقد أطلع الخبراء على ما قامت به ماليزيا والأردن وسنغافورة، وغيرها من الدول التي حققت قفزة نوعية غير مسبوقة في التعليم. لا شك أن مليارات من الدينارات ستنفق على إعادة تأهيل البنية التحتية في هذا المجال الرحب. فهل كان سيف الإسلام القذافي يضع عينيه على هذه المليارات أم أنه يريد التحكم المباشر في هذا الجسم الضخم من حيث الشكل والمضمون، خاصة وأنه قد بدأ مشروعاً تعليمياً موازياً، وبدأ في إرسال مئات الطلاب للدراسة بالخارج تحت عناوين مختلفة؟ ورأى سيف في الدكتور البغدادي عائقاً كبيراً

أمام مصالحه وبرامجه بحكم الجفوة بينهما بعد موقعة الضابط الغاضب لعرضه، والذي هجم على الدكتور عبدالقادر البغدادي بترتيب من عبدالله السنوسي. قد تكون هذه القراءة صحيحة إلى حد أو آخر. ولكن لماذا الإصرار على الدكتور عبدالكبير الفاخري في أمانة التعليم الوليدة الكبيرة.

بحثاً عن الجواب، أرى من المفيد أن نركض إلى الخلف، أقصد إلى التاريخ، وتحديداً إلى ثلاثينات القرن الماضي، فبعد إنكسار المقاومة الليبية بإعدام شيخ الشهداء عمر المختار، وهجرة العديد من القبائل إلى خارج الوطن، سرت حالة من اليأس، بسبب الإرهاب والقمع الإيطالي الفاشيستي، والحصار، والتجويع، وتفشي الأمراض. إندفع بعض سكان المنطقة الوسطى في ليبيا نحو الجنوب، حيث تعسكر أسرة سيف النصر ومعها مقاتلون من قبائل مختلفة، شن الجنرال جرسياني حرب ملاحقة وقتل على هؤلاء، لم يكن أمامهم إلا الرحيل نحو الجنوب، وتحديداً إلى تشاد المستعمرة الفرنسية، تدافع الكبار يحملون أولادهم على ما تيسر من الجمال، ويحملون على أكتافهم بقايا من أسمال مهترئة، وفي بعض الأكياس شيء من الدقيق والتمر. كان محمد أبومنيار القذافي من بين المتدافعين، يلهث مع الجموع الهاربة نحو ملجأ يقيهم الرصاص الإيطالي. لم يكن لدى أبومنيار مالاً ولا مركوباً، ولا حتى حفنة من تمر أو دقيق. نصحه أحد أصحابه بالبقاء في سبها أو مرزق، فليس لديه ما يخاف عليه، ولا ما يركب عليه. فضل البقاء في سبها. كان من عادة الرعاة في المنطقة الوسطى التردد على المناطق الجنوبية، يحملون على إبلهم شيئاً من السمن والمنسوجات يقايضونها بالتمر، ويحلون ضيوفاً على أسر بعينها من أهل قرى فزان. كانت عائلة "الفاخري"، بمنطقة البوانيس، شرق سبها هي المحطة التي يقيم في ضيافتها أبومنيار القذافي. في تلك الأيام اليابسة والمرّة، وجد سقفاً وظلاً وماءا وتمراً. هناك في قرية "سمنو"، في حضن عائلة الفاخري، وجد أيضاً مكاناً للعمل، مع هذه العائلة،

بالأسلوب الجماعي المعتاد عند أهل الجنوب، دون أن يشعر أي مساهم في العمل بأنه أجير أو مأمور. رغم مرور السنوات إمتد حبل الصلة بين عائلة أبومنيار وآل الفاخري، وبعد وصول معمر إلى السلطة، لم ينس ظلال " سمنو " وتمرها، وكان ذلك الظل هو صوت الجميل الذي لم يخفت في داخل عائلة القذافي.

شغل عبدالكبير الفاخري، منصب وكيل وزارة التعليم، لكن سيف الإسلام، رأى أن الوقت طرق على باب الماضي، لكي يُرّفع عبدالكبير ليجلس على هام الجسد الكبير وهو الوزارتان اللتان ولدتا من رحم الدمج. قد يكون الدافع الأساسي ، أو ربما الإضافي فتح الأبواب لسيف الإسلام ومشاريعه للدخول إلى دنيا وزارة التعليم وبرامجها التطويرية، وأموالها الإنمائية.

غادر الوزيران التعليميان الدكتوران، عقيل حسين عقيل، وعبدالقادر البغدادي كرسييهما، بعد أن أصبح كرسياً واحداً كبيراً ليجلس عليه عبد الكبير.

غضب الدكتور عبدالقادر البغدادي غضباً شديداً، بعد أن سمع قبل أقل من ساعة من النطق باسم التشكيلة الوزارية الجديدة، فالعادة جرت، أن يلتقي أحمد إبراهيم القذافي أمين شئون المؤتمرات، أن يلتقي أمناء المؤتمرات الشعبية الأساسية، يلقنهم بالأسماء المقترحة للوزارات، وعندما تتلو أمانة مؤتمر الشعب العام القائمة من على المنصة أن يقوموا بالتصفيق تأييداً إجماعياً لها. كان إسم الدكتور عبدالقادر من بين الذين لقن بهم أمناء المؤتمرات الشعبية الأساسية. كان واثقاً من بقائه في منصبه مضافاً إليه وزارة التعليم العالي، وأنه سيكون صاحب الوزارتين، إلى الحد الذي بدأ معه يعلن شكواه وتبرمه من ثقل ذلك التوأم الذي سيتولى قيادته.

لم يكن يحتاج إلى كثير عناء، أو لقدح الذكاء، كي يتأكد من أن سيف القذافي هو الذي قطع حبل الركاب، ومنعه من إعتلاء السرج التعليمي المزدوج.

عاد بسيارته إلى طرابلس، كان الجرح أكبر وأوسع من أن يستطيع لعقه، فتحصن بمنزله، يجتر حسراته المرة، يقتات بالكمد، كان يزورني، يهجو السنوات التي وهب فيها شبابه لمعمر القذافي، قبل أن يشبّ أولاده، وهاهو الآن في ملجأ الأيتام الثوريين، لقد أهين علناً دون مبرر في رأيه.

بعد أيام قليلة، إستدعاه البغدادي الآخر، أقصد البغدادي المحمودي، أمين اللجنة الشعبية العامة عرض عليه رئاسة جامعة قاريونس " بنغازي ". إعتذر متعللاً بظروفه الإجتماعية، التي تمنعه من الإقامة ببنغازي، وفضل مطارحة الفراغ، ونظم حبّات الماضي في بكائية صامتة.

إستدعى العقيد معمر القذافي عبدالقادر، بعد نقاش طويل، كلفه معمر القذافي بتولي إدارة مكتب الإتصال باللجان الثورية، حاول عبدالقادر أن يحشد الذرائع، وأن يتعلل بأوضاعه الصحية التي لا تمنحه اللياقة الكافية لإدارة هذا المكتب الهام، قال عبدالقادر، أن القذافي كان يستمع ويسجل بعض الملاحظات على كراسة أمامه. في ختام اللقاء، قال لي القذافي، أكتب جميع هذه الملاحظات، أرفقها بأسماء العناصر المناسبة للتعاون معك، وسألتقيك الأسبوع القادم.

ندم ندماً شديداً لأنه رفض رئاسة جامعة بنغازي، فمكتب اللجان في رأيه ليس سوى تجمع لعصابة تسيطر على بعض الشركات، وتمارس الإبتزاز والوساطة من أجل الحصول على المال بأي طريقة.. إضافة إلى الغياب الكامل للدولة ومؤسساتها، والإدارة المصلحية التي يمارسها البغدادي المحمودي أمين اللجنة الشعبية العامة. وعبث أبناء القذافي وتجاوزهم لكل الحدود، ذكر حوادثاً كثيرة عن ممارسات المعتصم القذافي، وتطاوله على المسئولين. لكن رغم ذلك قال أنه سيقبل إدارة هذا المكتب، لأن القذافي قد أمره أمراً مباشراً، ولا يستطيع أن يرفض هذا التكليف بعد أن رفض إدارة جامعة بنغازي.

بقى بين فكي الندم والحسرة، يدرك تماماً أن إختياره لإدارة اللجان الثورية، حلقة في سلسلة إستعماله، وكما يقول الليبيون فهذا– خدمة إللى ما عنده خدمة– لم يستطع أن ينسى مشهد الأهانة العلنية التي الحقت به مع سبق الإصرار، عندما أزيح من أمانة التعليم، بعد أن أُبلغ أمناء المؤتمرات الشعبية الأساسية بإختياره لهذا المنصب، وإبلاغه هو شخصياً بذلك. لقد ضربه سيف الإسلام القذافي ضربتين الأولى على وجهه بيد ضابط غاضب، والثانية على كرامته، فأين ستكون الضربة الثالثة؟

باشر العمل بمكتب اللجان الثورية على مضض، حاول أن يعيد تنظيمه، كانت تلك المحاولة:

كناطــح صخـرة قـد رام يوهنهـا

فمـا أستطـاع وأدمـى قرنـه الوعـلُ

لقد أصبح ذلك الكيان الذي أرتبط اسمه في أذهان الليبيين، بأبشع الصور والذكريات الدامية والعنيفة، أصبح كالعنقاء، لا وجود له إلاّ في أيدي عصابة تتصارع على المصالح، تتقاسم الأرباح والعمولات. وتنصيبه فوق رأس العنقاء ليس سوى إستعمال آخر مهين، تساءل عبدالقادر في نفسه: هل هذه الضربة الثالثة.

في شهر نوفمبر 2010، دخلت مكتب الدكتور البغدادي المحمودي رئيس الوزراء، وجدته مجتمعاً بكل من، الدكتور مصطفى الزايدي، أحد عتاة اللجان الثورية، ومحمد الزوي، أمين مؤتمر الشعب العام، أبوزيد دوردة رئيس جهاز الأمن الخارجي، وعبدالقادر البغدادي منسق مكتب الاتصال باللجان الثورية، كانوا يناقشون الأوضاع العامة في البلاد من جميع جوانبها، كان التشاؤم والتذمر والإحباط، حاضرين معهم. كان الزوي، يأخذ الأمر كعادته، ودوردة، لا يمل الخطابة، أما عبدالقادر البغدادي، كان أقلهم حديثاً، فهو يعلم مثلهم

أن الخرق قد إتسع على الراتق، وأن الإنهيار الشامل الذي وصلت إليه الأمور هو بفعل معمر القذافي يساعده في ذلك أولاده وأبناء عمومته وفريق من الفاسدين المفسدين بقيادة الدكتور البغدادي المحمودي أمين اللجنة الشعبية العامة الذي يجتمعون الآن في مكتبه لمناقشة إصلاح الأوضاع، ووضع حد للفساد وإيقاف الإنهيار.

لم أكن مدعواً لهذا الإجتماع ، ولكن شدني الموضوع فجلست معهم، كان كل واحد منهم يدور حول نفسه، يناقشون أو بالتحديد يعددون مظاهر الفساد، ولكنهم يتحاشون التوجه نحو المنبع، المنبع الذي يتدفق منه الفساد، محمد الزوي بطريقته الساخرة يلمح إلى الأولاد، أستأذنت في قول كلمة واحدة، (هل بالإمكان مراجعة كل شيء، وكررت كل شيء؟) فجأة إنتفض الإثنان عبدالقادر البغدادي ومصطفى الزايدي وقالا هذا ليس موضوعنا. قلت مازحاً: هل يسمح وقتكم أن أقول لكم آخر نكتة؟ قال الزوي: والله هذا وقتها. عاد رجل إلى بيته في ساعة متأخرة من الليل وعندما فتح الباب إندفع رجل من داخله بسرعة، صرخ الرجل في وجه زوجته من هذا الذي كان معك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ صرخت المرأة في وجهه بصوت أعلى، أنت الذي يجب أن تقول لي أين كنت إلى الآن. كرر الرجل ، قولي من هذا؟ صرخت المرأة لا تغير الموضوع قل أين كنت، الرجل ليس موضوعنا".

تقابلنا بعد سقوط نظام زين العابدين بتونس، قال أنه سيحول مبلغاً من المال إلى اللجان الثورية التونسية لتأسيس حزب يدخل الإنتخابات القادمة، فهمت إن تلك كانت تعليمات معمر القذافي، لأن نظراته كانت تقول، أن ليبيا على طريق تونس وليس العكس.

مـن هـو عبدالقـادر البغـدادي الآخـر ؟

عبدالقادر البغدادي، مجلد كبير كبير، نصفه كتب بحروف بها كل أنواع الخط العربي، الكوفي، والنسخ، والرقعة، والفارسي، وغيرها. نصفه الآخر مكتوب بالحبر السري، سنة 1981 أرسلنا القذافي إلى تشاد كنا مجموعة تتكون من عناصر لا يجمعها أي جامع، ضمت المجموعة كل من:

1 - عبدالقـادر البغــدادي.
2 - محمــــــد زيــــدان.
3 - علــــــي أبو رهانـــة.
4 - إمحمد الغول القايدي.
5 - عيســـــى كوســــــه.
6 - عزالديـــن الهنشيـري.
7 - إبراهيـــــم البشـــاري.

الهنشيري والبشاري، من العناصر المرتبطة بالأمن، وأبو رهانة مدرس من سبها عائد من تشاد، إمحمد الغول القايدي، عمل بالصحافة، عيسى كوسة، كان آنذاك شاباً تربطه صلة ليست قوية باللجان الثورية، أما محمد زيدان فكان العصا الغليظة باللجان الثورية. عبدالقادر البغدادي هو أيضاً من اللجان الثورية، ولكن يختلف كثيراً عن محمد زيدان. إذا جلسنا نحن الثمانية سوياً، يكون لعبد القادر البغدادي منطقة الثور الذي يتسم بالتشدد إلى حد المزايدة، وإذا غاب محمد زيدان والهنشيري عن الجلسة وبقي فيها البشاري، يخفف من غلوائه الثوري. أما إذا جلست معه وبرفقتنا علي أبورهانة فقط، يكون الحديث حول الشعر والأدب

العربي، وكثيراً ما نتطرق إلى الوضع في ليبيا، فيلامس الإنحرافات والفساد.

تزوج العقيد مسعود عبدالحفيظ القذافي من إحدى قريبات الرئيس التشادي كوكوني وداي، أقام فرحاً لم تشهد له أنجامينا مثيلاً، دعى الآلاف من الرجال والنساء، ونثرت الدراهم فوق الجميع، فاقت تلك الحفلة كل تصور. كنا بالطبع من بين المدعوين الكبار، جلسنا في الصف الأمامي، تبادلنا النظرات، كان من بين المدعوين أحمد إبراهيم القذافي العائد من تشاد، بعد عودتنا إلى مقر الإقامة كان الحديث بالطبع عن ذلك الاحتفال الأسطوري، كان معنا أحمد إبراهيم، إنتقدنا ما حدث، وعبرنا عن التذمر والإدانة لهذا البذخ وسط شعب جائع نقول جئنا لمساعدته على نيل حريته وتحقيق التنمية. إنبرى أحمد إبراهيم للدفاع عن ذلك الاحتفال الباذخ، قائلاً بأن ذلك الزواج سياسي، وكان من المهم دعوة أكبر عدد من التشاديين للمشاركة فيه من باب الدعاية للزواج السياسي، الذي يجسد العلاقة بين الشعبين خاصة وأن العريس قذافي من عائلة معمر القذافي، والعروس من عائلة الرئيس التشادي.
دخل عبدالقادر البغدادي في حفلة من التحليل تدور حول التبرير و- لكن- حسب منطقه كان بالإمكان، تحقيق الهدف المطلوب من هذا الإرتباط الإجتماعي بطريقة أخرى، بأن يقام إحتفال يخصص للنساء فقط، توزع فيه الهدايا وكتب تتضمن أدبيات الثورة الليبية، وآخر على نفس النمط للرجال، وأن تلقى فيه كلمات بالمناسبة من الطرفين الليبي والتشادي. علق عليه علي أبورهانة بطريقته الساخرة اللبقة، وبأسلوبه الشعبي بقوله:"والله يا سي عبدالقادر ما أحرف من الثوم إلا الكرات".
كانت تحليلاته وآراءه، نصف طياب، أكثر مما هي مسك العصا من النصف.

مان لعبدالقادر البغدادي نظرة فريدة، إنفرد بها في التبرير، لقد كتب مقالاً بإحدى الصحف الليبية بعنوان: الطوابير ظاهرة حضارية. دافع فيه عن وقوف الليبيين في طوابير طويلة أمام الأسواق العامة في إنتظار الحصول على بعض المواد التي تحتكرها تلك الأسواق.

له قدرة عجيبة غريبة بأن يظهر نفسه بمظهر المتفق مع الجميع، حتى أولئك الذين يختلف معهم، يستشهد ببعض الأحداث والنوادر من التاريخ العربي، ويتسلح بالحذلقة، إذا كان الموضوع المطروح للنقاش شيء يمس نقاطاً حساسة، وتعرض فيه أفكار متباينة، يتحدث دائما بلسان الغائب، لا يقدم في مثل هذه الحالات رأياً يمكن أن يحسب على هذا الطرف أو ذاك، هو دائماً ناعم المعالجة، والحديث، له القدرة على إستحضار مبررات للمواقف التي لا يجدي فيها أي مبرر ولا يمكن الدفاع عنها. في إحدى دورات إنعقاد مؤتمر الشعب العام، قام شاب أثناء الجلسة وفي حضور معمر القذافي، بإلقاء قصيدة مدح فيه، وقد كان مثل هذا الفعل جزءاً أساسياً في جلسات مؤتمر الشعب العام. في نهاية الجلسة جاء ذلك الشاب وقدم لي ورقة مكتوب بها نص القصيدة التي ألقاها، وكان إلى جانبي عبدالقادر، طلب الشاب رأي في قصيدته، قلت له أنها مسروقة من أبي الطيب المتنبي، وأنك قمت ببعض التعديلات عليها فشوهتها وكسرت الوزن. لقد أخذ الأبيات الأخيرة من القصيدة التي يمدح المتنبي فيها القاضي أبا الفضل أحمد بن عبدالله الأنطاكي والتي مطلعها:

لكِ يا منازلُ في القلوب منازلُ

أقفرتِ أَنتِ وهنّ فيكِ أو أهلُ

أخذ الشاب الأبيات الأخيرة من هذه القصيدة وهي:

وأَمـــــا وحقَّكَ وهو غايةُ مقسمٍ

للحقُّ أَنتَ وما سواكَ الباطلُ

الطيبُ أنتَ إذا أصابكَ طِيبُـــهُ

والماءُ أنتَ إذا أغتسلتَ الغَاسِلُ

مادار في الحنكِ اللسانُ وقُلبت

قَلمـاَ بأحســن مـن ثناك أَنامِــلُ

وأضاف لهذه الأبيات الثلاثة بيتاً من وسط القصيدة يقول:

يا أفخرْ فإنَّ الناسَ فيك ثلاثـــةُ

مستعظـمُ أو حاسـدُ أو جاهـــــلُ

لم يرق ما قلته للشاب، فرد بأن هذا الفعل موجود في الشعر العربي، وهناك ما يعرف بالمعارضات الشعرية، وأنه سبق أن أرسل تلك القصيدة، وأن واحداً من قلم القيادة، إتصل به وشكره وأبلغه تحيات القائد وأن قصيدته ستلحن وتغنى، طبعاً، إنتقاد قصيدة أعجبت القائد، وهي تمدح شخصه هو فسوق ظاهر. بادر عبدالقادر بتقديم المبرر للشاب، وأستحضر بيتين من الشعر يقولان:

نَاديُتُ لما رأت عيني محاسِنَها

سبحانَ مَنْ خلقَ الإنسانَ مِنْ ألـــقِ

رقيتُها من عيونِ الناسِ كلهُم

بِقــلْ أعـــــوذُ بـرب النـــاسِ والفَلـــَقِ

ذهب الشاب الشاعر السارق، فقلت لعبدالقادر، يا أخي أنت لا تغلبك الحيلة، تجد دواءً حتى للداء الوهمي، ما العلاقة بين البيتين الشعريين اللذين أستحضرتهما، وما فعله هذا الشاب الذي نهب علانية شعر " الشاعر " كما يسميه أبوالعلاء المعري، وبالتحديد هذه القصيد الشهيرة التي نسجت عنها عشرات النوادر والقصص. قيل أن الشاعر والحكيم إبي العلاء المعري، كان بمجلس الشريف الرضى، وهذا لا يخفي كرهه العنيف للمتنبي، تحدث الرضى كثيراً عن سرقات المتنبي، وأنه غير مبدع ولكنه مجرد سارق شعر، لا يختلف في شيء عن سارق الدجاج، نهض المعري من مجلس الرضى غاضباً وهو يقول: يكفي – الشاعر – يقصد المتنبي أنه هو القائل لقصيدة، لك يا منازلُ في القلوب منازل.

قال الشريف الرضى لقد شتمني هذا الأعمى. قيل له كيف؟

قال أنه يقصد بيتاً محدداً من هذه القصيدة وهو:

وإذا أتتـك مذمتـي مـن ناقـــص

فهـي الشهـادة لـي بأننـي كامـل

ردّ عبد القادر ضاحكاً :" يا أخي هو قال لك أنه أرسلها للقائد وأعجبته، وشكره عليها، وستغنى، فكيف تصدمه أنت بهذه الطريقة الفجّة؟!. ذلك جزء من عبدالقادر – الكتاب – وتحديداً من النصف الذي كتب بالحبر السري.

في يناير 2009، قمت بزيارة إلى واشنطن بدعوة من وزيرة الخارجية السابقة كونداليزا رايس، بعد عودتي إلى طرابلس، أستدعيت للتحقيق من قبل أمانة مؤتمر الشعب العام، وبناء على التحقيق أصدرت الأمانة قرار بإيقافي عن العمل.

أدليت بتصريح لمندوبة وكالة الأنباء الفرنسية في ليبيا، عفاف القبلاوي، هاجمت فيه أمانة مؤتمر الشعب العام، وأعلنت فيه أيضاً إستقالتي.
غادرت طرابلس إلى قريتي في الجنوب الليبي، بعد يومين أُرسلت إليّ طائرة خاصة، عدت إلى طرابلس، ومنها إلى القاهرة للمشاركة في إجتماعات وزراء الخارجية العرب، بالطبع ألغت الأمانة قرار إيقافي.
زارني بمكتبي عدد من – الأمناء– تعاطفاً أو تضامناً، أو استهجانا لموقفي، لكن عبدالقادر البغدادي زارني بمنزلي تحدث مطولاً لقد إنفتح كل الكتاب بنصفيه، قال:"ثأرت لكرامتنا جميعاً، وسجلت سابقة سيكون لها أثرها على معنويات الأمناء..."، أسهب في الحديث، ولكن النقطة الأهم هي التي تحدث فيها عن الضربات التي سددت لوجهه، وكرامته، ولم يقم بأي رد فعل. وأضاف أن هذا الأمر أصبح بالنسبة له مثل الخنجر الملتوي في داخل جسده، وأن الموت كان أرحم له من أي واحدة من تلك الضربات. ثم إندفع في تحليل طويل للوضع السياسي في ليبيا، تحدث عن حالة معمر القذافي النفسية والصحية، ودور أولاده المتعاظم، رغم أن أي واحد منهم لا يمتلك أي مؤهل علمي، ولا قدرات عقلية، كل ما يملكونه هو نزقهم، ونهشهم للأموال العامة للإنفاق على نزواتهم وأهوائهم، وأن القذافي أصبح عاجزاً عن كبحهم، والدكتور البغدادي المحمودي أمين اللجنة الشعبية العامة يسايرهم من أجل البقاء في منصبه والحصول على نصيبه من جثة الوطن. وتحدث بالتفصيل الممل عن مخططات عبدالله السنوسي، والدور الخطير الذي يلعبه بتهيئة سيف الإسلام للوراثة، وأنه بعد تحقيق ذلك سيكون هو – شلحي – ليبيا الجديد، وسيثب على السلطة في اللحظة المناسبة، أن سيف الإسلام هو مجرد جسر يبنيه عبدالله السنوسي ليعبر فوقه إلى كرسي السلطة. تحدث أيضاً عن الصراع بين أولاد القذافي، وإنقسام قبيلة

القذاذفة بين سيف، ومعتصم، ومشروع معمر الأفريقي، الذي سيربك كل شيء في ليبيا، وكارثة إعلان نفسه ملكاً لملوك أفريقيا. تحدث عن التعليم، والصحة، والبيئة، والاقتصاد.

كنت أتابع حديثه بصمت وإهتمام، وقلت في نفسي، هل هو هذا فعلاً، عبدالقادر البغدادي الذي عرفته؟ كيف يتكلم بهذا الإنفتاح والمباشرة، ويرسم كل هذه الصورة السوداوية للوضع، ويحمّل معمر القذافي مسئولية كل ما يحدث لليبيا؟

كان من عادته، أن يضع شبكة على الصورة، بلغة الإخراج الصحفي، لكنه الآن يضع الأضواء الكاشفة أمام كل الصور، بما فيها صورة – القائد – معمر القذافي.

بلا شك، أنه عبدالقادر الآخر، الذي كان يقدم نفسه دائماً، على أنه الثوري حتى النخاع، أبدع لغة خاصة به، وسلوكاً وتعبيراً يعتمد التقية، ويراوغ في المواقف كما يراوغ في الحديث، فما هو الدافع وراء هذا الإنفتاح الغريب، وهذه الجرأة التي جعلته يلقي كل ما في داخله دفعة واحدة؟ أعتقد أنه ذلك الخنجر الذي مازال يتلوى بداخله، حسب قوله هو.

حفلـــــــــة التيـــــــــس

سؤال عبدالقادر لي في كل لقاء يجمعنا هو : "ما هو آخر كتاب قرأتَه؟".

أحبَّ الكتب وتعلق بها، خاصة الراويات ذات المضمون المكثف، والتي تشع بإيماءات سياسية أو إجتماعية، إستعار مني كتاب "شفرة دافنشي" التي أثارت إهتمام القراء مثلما أثارت إهتمام النقاد، وروايتي علاء الأسواني – عمارة يعقوبيان وشيكاغو – بعد إنتهائه من قراءة كل رواية، يعيد لي الكتاب، نناقش مضمونه ودلالاته المختلفة، يبدي بعض الملاحظات والإنتقادات، لكن ليس على حساب إعجابه بما عبّر عنه الراوي. لقد أعطيته مرة رواية – الخيميائي – لباولو كويلو، طار إعجاباً بها، وعندما سألته عن الكتاب، قال أنه سيعمل على تحويل الراوية إلى فيلم سينمائي، فهو يترأس شركة شعاع للإنتاج السينمائي بمصر.

الكتاب الذي لم يكن مثل غيره بالنسبة لي وله ولغيرنا، كان رواية، " حفلة التيس " للروائي الأرجنتيني الكبير الحائز على جائزة نوبل " ماريا فارغاس يوسا ". لقد وزعت عشرات النسخ من ذلك الكتاب، تناقله العديد من المثقفين الليبيين، أول مرة تتحول رواية إلى منشور سياسي شبه سري. بالنسبة لعبدالقادر، كان الكتاب سرياً، ليس بسبب مضمونه السياسي فقط، ولكن لعنوانه الصادم، والذي يخدش الحياء. وضع غلافاً أبيضاً على الغلاف الأصلي، خوفاً من أن تتناول إحدى بناته الثلاث الكتاب، وتقرأ عنوانه " حفلة التيس "، التيس في اللهجة الليبية تعني الجدي الكبير، أي ذكر الماعز الضخم، وتعني أيضاً الديوث وهو الرجل الذي تؤتى إمرأته من رجال آخرين بعلمه.

تتناول الرواية قصة ديكتاتور حكم جمهورية الدومنيكان، إسمه، " تروخيور" حّول البلاد كلها، بمواردها، وشعبها، وأرضها، إلى مجرد كرسي يجلس عليه، ألغى الدولة، والوطن، حول الناس إلى أشياء، ولغ في دم معارضيه، جمع أشخاص من مختلف الأعمار، والمناطق، ومستويات التعليم، دجّنهم، بالمال والرعب، سلّط بعضهم على

بعض، سيطر عليهم بالترهيب والترغيب، ثم حولهم إلى أدوات للسيطرة على الشعب، إختار فريقاً منهم ليمثلوا دور الوزراء والنواب، وكبار الموظفين، تلاعب بهم بعد أن حولهم إلى دمى، يستحي زوجاتهم وبناتهم، يبعّدهم ويقربهم، وهو يتمتع بهذه اللعبة. لم تتوقف محاولات العناصر الوطنية لقتله، وإنقاذ البلاد من براثن شخصيته المريضة، لكن جلاديه، كانت لهم عيون وآذان، تبصر حركات هؤلاء الوطنيين في الظلام البهيم، تسترق السمع داخل البلاد وخارجها.

شكل بعض المعارضين خلية للخلاص من الديكتاتور، ضمت أربعة أشخاص من بينهم مهاجر عربي، يطلق عليه المؤلف إسم " التوركو " أي – التركي – فشعوب أمريكا اللاتينية والكاريبي، تعتبر كل العرب أتراكاً، من منظور الدولة التركية العثمانية التي كانت تحكم العرب، ومنها منطقة الشام التي هاجر بعض سكانها إلى أمريكا اللاتينية.

لقد فشلت عشرات المحاولات للخلاص من الديكتاتور – تروخييو – ورغم الضغط الذي مارسته الكنيسة الكاثولكية، والولايات المتحدة الأمريكية، ودول أمريكا اللاتينية والمجموعة الدولية، لوضع حد لإستهتار ذلك الديكتاتور المريض نفسياً، إستمر في فرض سيطرته هو وعائلته على شعبه، يسومه سوء العذاب، يعبث بثروته، يقتل، ويسجن ويعذب، ويغتصب، كتب قبل إسمه عشرات الألقاب، – المنعم على الوطن– الزعيم – القائد الأعلى – الجنرال الأكبر " الجنراليسيمو".

قام الديكتاتور– تروخييو، بإعادة بناء مدينته التي ولِدَ فيها في بيت متواضع. إستقدم الفنان الأسباني " فيلا زانيتي " ليرسم على جدران مدينته التي جددها، اللوحات الجدرانية التوراتية. إختار الديكتاتور أحد المباني الفخمة، يتحول إليها مرتين في الأسبوع يعقد الصفقات السرية القذرة، ويمارس فيها شذوذه ونزواته المريضة.

" أورانيا " إبنة السناتور أغوسطين كابرال رئيس مجلس الشيوخ، هي عصير المأساة وهي الضحية والشاهد والرواية، التي تختزل معاناة شعب جمهورية الدومنيكان، وترسم

بتجربتها الحية شذوذ هذا الديكتاتور العجوز، وسحق والدها، الذي كان أحد الأشخاص حول الجنرال.

والدها، أغوسطين كابرال، كان رئيساً لمجلس الشيوخ، أعطاه الجنرال صلاحيات وسلطات لا حدود لها، إمتلك أيضاً بفضل رضا- تروخييو- ثروات، وفي دائرة تلاعب الديكتاتور بأشخاصه، ترغيباً وترهيباً، تقريباً وإبعاداً، طال السيد كابرال غضب القائد، المنعم على الوطن، فقلب له ظهر المجن، جرده من جميع سلطاته، جمّد كل حساباته، وألقاه حزيناً بائساً وحيداً في بيته.

عمل السيناتور العجوز أوغسطين كابرال، المستحيل لإستعادة رضا الجنرال، نصحه المقربون بتقديم هدية ثمينة ترضي الزعيم، تقدم نفر من الرجال والنساء، يهيئون الفتاة الجميلة التي لم تتجاوز سن الرابعة عشر، لتكون إحدى " عرائس مولوك "، تعني في ثقافتهم، القرابين البشرية التي تقدم إلى المحرقة من خلال فم الوثن المسخ. كان والدها يرى فيها الأمل الأخير لشراء رضا الزعيم.

قام القوادون والقوادات الخاصات بالزعيم بإيصال " أورانيا أوغسطين كابرال "، إلى غرفة نوم الزعيم، تروي – أورانيا – المشهد:

".. رجع بعد قليل، عارياً تحت روب حريري أزرق فيه بقع بيضاء، وخف مستو رماني اللون، شرب رشفة من الكونياك، ووضع كأسه في خزانة ما بين صور له محاطاً بأحفاده، وأمسك أورانيا من خصرها، وأجلسها على حافة السرير، في الفراغ المفتوح ما بين تول الكلّة، جناحا فراشة كبيرات معقودان فوق رأسها. بدأ بتعريتها، دون تسرع. فك أزرار الظهر، زراً بعد آخر، وسحب الحزام الذي يشدّ ثوبها. وقبل أن ينزعه، جثا على ركبتيه، وأنحنى بشيء من الصعوبة، وخلع حذاءها. وبحذر شديد، كما لو أنه يمكن للطفلة أن تتفتت بحركة فظة من أصابعه، نزع جوربيها النايلون، مداعباً ساقيها في أثناء ذلك.

- قدماك باردتان يا فاتنة – دمدم برقة – هل تشعرين بالبرد؟ تعالي إليّ، دعيني أدفئها لك.

راح يفرك قدميها، وهو مايزال جاثياً، بكلتا يديه، وبين حين وآخر يرفعهما إلى فمه ويقبلهما، بادئاً من ظاهر القدمين، نزولاً إلى الأصابع والكعبين، وهو يسألها إذا ما كان ذلك يدغدغها، ضاحكاً ضحكة لاذعة، وكأنه هو نفسه الذي يحس بالدغدغة المبهجة.

- ظل على تلك الحال وقتاً طويلاً، يدفيء قدميّ. وإذا أردتن أن تعرفن شيئاً، فإنني لم أشعر بأدنى إرتباك، ولو لثانية واحدة.

وتستعجلها لوثيندا:

- أي خوف كنتِ تشعرين به يا ابنة الخال؟
- في تلك اللحظة لم أكن أشعر بالخوف بعد، ولكنني أحسست بخوف شديد في ما بعد.

نهض فخامته بمشقة وعاد يجلس على حافة السرير، نزع عنها الثوب، وحمالة الصدر الوردية التي تثبت نهديها نصف الناميين، والسروال المثلث. وتركته هي يفعل ذلك، دون أن تبدي ممانعة، بجسد ميت. بينما تروخييو يُنزل السروال الوردي على ساقيها، أحست بأن أصابع فخامته تتعجل، متعرقة، ومحرقة الجلد الذي تمر عليه، جعلها تتمدد ونهض، خلع الروب، واستلقى إلى جانبها عارياً. وبحذر شديد، تغلغلت أصابعه في زغب عانة الطفلة.

- أظن أنه كان ما يزال متهيجاً، عندما بدأ يلمسني ويداعبني، ويقبلني وهو يجبرني دوماً على فتح فمي بفمه، كان يقبلني في صدري، في عنقي، في ظهري في ساقي.

لم تقاوم؛ تركته يلمس، يداعب، يقبّل، وكان جسدها ينصاع في حركاته وأوضاعه لما تشهر به يدا فخامته. لكنها لم تستجب للمداعبات، وعندما لا تغمض عينيها، تثبتهما على أذرع مروحة السقف، وعندئذ سمعته يقول لنفسه " تمزيق فرج فتاة عذراء يهيج الرجال دوماً".

- أول عبارة بذيئة، أول إبتذال في تلك الليلة – تقول أورانيا محددة – بعد ذلك سيقول ما هو أسوأ. وعندئذ أدركتُ أن هناك شيئاً يحدث له. كان قد بدأ يغضب. ألأنني أبقى ساكتة، ميتة، ولا أقبله ؟

لم يكن هذا هو السبب، أنها تفهم ذلك الآن، فمشاركتها أو عدم مشاركتها في فض بكارتها لم يكن الأمر الذي يهم فخامته. فلكي يبلغ النشوة يكفيه وجود فرج مغلق وتمكنه من فتحه، وجعلها تئن– تولول – تصرخ – من الألم، بعضوه الضامر والسعيد هناك في الداخل، مضغوطاً بين مصاريع ذلك الباطن الحميم المثقوب للتو. لم يكن حباً، بل وليس إستمتاعاً هو ما ينتظره من أورانيا. فقد وافق على مجيء إبنة أوغسطين كابرال إلى بيت كاوبا كي يثبت فقط أن رفائيل ليونيداس ترخييو مولينا ما زال قادراً، بالرغم من سنوات عمره السبعين، وبالرغم من مشاكل البروستات، وبالرغم من أوجاع الرأس التي يسببها له القسس، والأمريكيون، والفنزويليون، والمتآمرون، ما زال فحلاً كاملاً، تيساً بعضو قادر على التصلب وتمزيق فروج العذروات اللواتي يعرضن عليه.

خصص الكاتب فصلاً لهجوم فصيل صغير من الثوار على الجنرال، الفصيل مكون من أربعة رجال للتنفيذ وإثنين للمساعدة، هاجموه وهو في سيارته، أردوه قتيلاً، إنتقموا للوطن، لثروته، لشرفه، لحياته، فتحوا أبواب الحرية، وطريق الديمقراطية، للتنمية من أجل تعويض سنوات القهر التي فرضها عليهم – المنعم على الوطن–. إنهارت عائلته، وقضي على الجلادين الذين كان الجنرال يستعملهم لإعتقال الأبرياء وتعذيبهم وقتلهم، قتل الإضطهاد والإرهاب، بعث الوطن من جديد فقد كانت حادثة قتله حفلة، " حفلة التيس " الذي كان يتلذذ بفض بكارات الفتيات القاصرات من بنات

كبار المسئولين خاصة، ولكي تكتمل اللذه، لابد أن يقوم أباؤهن شخصياً بزفهن له، علانية أمام الجميع.

سألت عبدالقادر البغدادي عن رأيه في الرواية، بعد أن فرغ من قرائتها، علق ضاحكاً بقوله:" أولاً، لن أعيد إليك الكتاب لأن هناك أكثر من أخ يرغب في قراءتها، ثانياً، هذه الرواية كتبت بكل حروفها عن ليبيا، ولو لم يكن كاتبها مشهوراً، والعالم يعرف إسمه، لقلت أن كاتبها ليبي ومن داخل النظام، ولا أريد أن أذكر إسمه الحقيقي، لا زلت أشك أن إسم الكاتب الذي على غلاف الرواية هو إسم مستعار، لو وضعت الجماهيرية، أو ليبيا، مكان جمهورية الدومنيكان، وأستبدلت الأسماء اللاتينية، بأسماء عربية ليبية، تتحول وقائع الرواية إلى توثيق واقعي وتفصيلي لما يحدث في ليبيا. هناك أشخاص ليبيون تعج بهم الرواية، وحوادث حقيقية تتحرك في فصولها بالتصوير البطيء. الجميع موجود داخل هذه الرواية"، وسرد عبدالقادر البغدادي عشرات الأسماء من الرجال والنساء الليبيين.

كان هذا الحديث سنة 2007.

في سنة 2011، قتل "القائد" "الزعيم" معمر القذافي في "حفلة تيس"، في ذلك المساء، تدفق دم معمر، فُضّت بكارةُ قمعه وتطاوله، وفضّت غطرستَه وجنونه، كم مارس حالات حفلات التيس فوق أجساد القاصرات الليبيات. أليست "أورانيا" الدومينكانية، البالغة من العمر 14 عاماً، هي الفتاة الليبية "صفية" البالغة من العمر 15 عاماً، التي أخذتها قوادات القذافي الثلاث مبروكة، وسالمة، وفايزة من سرت إلى خيمة القذافي ليبدأ – الزعيم – في إغتصابها بكل وحشية وسادية على حد وصفها.

كانت لعبدالقادر البغدادي "منسق مكتب الإتصال باللجان الثورية" حفلته.

ففي قمة إنتفاضة شباب ليبيا في 17 فبراير، ويوم دخول الشباب الثوار إلى مدينة طرابلس، أعتقل البغدادي، الذي ساهم من موقعه كمنسق للجان

الثورية، ساهم في قمع الثورة الشبابية، وشارك في التعبئة العسكرية والبشرية والإعلامية ضد 17 فبراير، وأثناء نقله من طرابلس إلى مصراتة بأيدي الثوار، حاول فصيل من كتائب القذافي تحريره من قبضة الثوار، فقتل في المواجهة. لقد غطى عبدالقادر " حفلة التيس " ، الكتاب بغلاف أبيض إستحياءا، لكن حفلته، غُطيت بالدم، كانت أحد المشاهد في "عرس الدم" الكبير، الذي أقامه "ملك الملوك"، لفض بكارة إرادة الشعب الليبي، لكن "التيس" غابت شمس حفلاته، إحتفل الشعب الليبي بحفلته هو، دفن "الزعيم" في حفرة مجهولة في صحراء العدم، خارج الوجود الإنساني والجغرافي.

إستعادت ليبيا بكارتها – الحريـة – .

سيـد محمـد قـذاف الـدم

سيد محمد قذّاف الدم

إذ تصورنا، أن معمر القذافي كتابا، فالسيد محمد قذاف الدم، يصلح أن يكون مقدمة لهذا الكتاب أو يكون الخاتمة، أو كليهما.

فعندما جاء معمر القذافي طالبا للدراسة بسبها، كان السيد طالبا بالمرحلة الإبتدائية، وكان والده محمد، يعمل ضابطا بشرطة ولاية فزان. معمر الطالب الفقير الغريب، وجد بسبها بيتا يزوره، يحصل فيه على بعض الضروريات من المأكل والملبس، فهو يمت بصلة قرابة بقذاف الدم، معمر أكبر سنا من السيد، لكن السنوات القليلة التي تفصل بينهما في العمر لم تشكل حاجزا يمنع التواصل الفكري بين الإثنين، فبرغم اهتمامات معمر السياسية المبكرة، ومتابعته المستمرة لوسائل الإعلام المصرية، وتردده على مكتبات سبها، لم يجد سيد صعوبة في الحوار مع قريبه الشاب الثائر الذي يقود المظاهرات، ويلقي الخطب الحماسية المناهضة للنظام الملكي، والمؤيدة لجمال عبد الناصر.

حاول الضابط محمد قذاف الدم أن يتوسط لمعمر كلما جلب المشاكل لنفسه بمواقفه السياسية، مستعينا بعائلة سيف النصر التي كانت تحكم ولاية فزان، والذي ارتبط قذاف الدم برابطة الولاء لها من البداية إلى النهاية. لكن في سنة 1961 عندما قام معمر بكسر المحراب، وأجتاز المنطقة المحظورة، وقاد مظاهرة غضبا على انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، لم يستطع الضابط الصغير، محمد قذاف الدم أن يمنع عنه يد العقاب فتقرر طرده من مدارس ولاية فزان، وأنتقل إلى مدينة مصراته الثانوية حيث سبقته يد خاله قذاف الدم لتؤمن له كرسيا بها.

أثناء دراسته بمصراته استمر معمر يزور سبها بانتظام، متوجها إلى منزل خاله الضابط محمد. وهكذا استمرت العلاقة بين السيد ومعمر.

جئت إلى سبها للالتحاق بالمدرسة الإعدادية بها سنة 1962، أي بعد سنة من طرد معمر من سبها. كان والدي آنذاك متصرفا للمدينة، تربطه علاقة عمل بالطبع بالضابط محمد قذاف الدم. كانت حركة الكشاف في تلك الفترة نشطة جدا، ولها بُعد تربوي حقيقي، ينخرط فيها أغلب الشباب، وكان سيد زميلا بها لشقيقي الأكبر مفتاح في هذه الحركة. التحقت بدوري بحركة الكشاف، وتعرفت إلى السيد ونحن في الفرقة الرابعة. كان يسبقني في صفوف الدراسة وفي سنوات العمر. كان لنا منزل قرب القسم الداخلي، يزورنا به الكثير من أترابنا. كانت سبها في تلك السنوات تفيض بالوعي السياسي، وكأنها تقع بين القاهرة ودمشق، تنشط بها التيارات القومية المختلفة، لعب الأساتذة المصريون والفلسطينيون دورا حيويا في ذلك النشاط. وكان السيد قذاف الدم من بين المترددين على بيتنا.

ذهبت إلى طرابلس لأول مرة رفقة مجموعة من الطلاب لزيارة معرض طرابلس الدولي، من بينهم السيد وأخوه أحمد، تجولنا سويا في أجنحة المعرض، وأيضا في شوارع طرابلس الباهرة المبهرة لنا نحن القادمين من صحراء الجنوب الليبي. ساهمت هذه الرحلة في توطيد العلاقة بيننا. ذهب السيد بعد حصوله على الشهادة الثانوية من مدرسة سبها إلى بنغازي للدراسة بكلية الآداب، غير أنه تركها بسرعة والتحق بكلية ضباط الشرطة، وكان معمر القذافي هو من أشار عليه بذلك، كي يقوم بتجنيد من يمكن تجنيده من زملائه بالكلية للانضمام إلى تنظيم الضباط الأحرار.

أثناء دراسته بكلية الشرطة لم ينقطع عن زيارة سبها، ولم تتوقف قدماه عن عبور عتبات بيتنا، ولكنه عاد في صورة مشروع الأديب، الذي هجر كلية الآداب، إلى كلية الشرطة. استمر يتحدث عن الأدب، وعن تعلقه بشاعره طرفة بن العبد، وعن كتاب طه حسين الممنوع – في الشعر الجاهلي – وبدأ ينشد إلى شعراء المقاومة

الفلسطينية، محمود درويش، وعز الدين المناصرة، وسميح القاسم. أحضر بعض الدواوين لهؤلاء الشعراء التي بدأت تصل في طبعاتها الأولى إلى ليبيا، وأقول، من هناك، بدأت رحلتي مع الشعر. حدثني في إحدى زياراته عن تنظيم الضباط الأحرار، وفاتحني بالإنضمام إلى التنظيم والإلتحاق بكلية الضباط. قلت له، أنني أريد أن أواصل دراستي الجامعية في مجال الصحافة.

لم نلتق إلا بعد قيام الثورة، كان اللقاء بالقاهرة، تحدثنا عن المستقبل، وعن أهداف الثورة، كان ممتلئ بالأمل، كان يحلم بليبيا متقدمة مزدهرة، ولكن الليل كان يأخذه إلى عالم القاهرة الآخر، الذي يمارس فيه الإنسان الحلم وهو يقظا. يهرب من الثورة إلى أنوار الليل العازفة. ربما كان ذلك عملا بنصيحة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، الذي قال لوفد من الثوار الليبيين: (هناك راقصة شابه رائعة، إسمها سهير زكي، اذهبوا، تفرجوا عليها، لا تعملوا في أنفسكم مثلما عملت في نفسي، ارتضيت من الدنيا حياة النهار وهمومها وحرمت من طيبات الحياة).

جاء سيد قذاف الدم من صحراء الجنوب الليبي إلى طرابلس، انتقل من سبها إلى بنغازي للدراسة بكلية الآداب، وهجرها، منتقلا إلى كلية الشرطة، بعد قيام الثورة، انتقل إلى صفوف الجيش. أصبح ضابطا عسكريا حاكما، فهو من الثوار، ومن أقارب قائد الثورة الأقربين. هاهي السلطة بين يديه، والثروة حيث قدميه، وومضات الشعر والخيال تضيء طريق الملذات بلا إشارات مرور توقفها.

تكونت حول الملازم سيد حلقة من الضباط الفرحين بالثورة التي أعطتهم شذرات من كرسي عرش البلاد، منعت الثورة الخمر، وأغلقت فورا شارع الكندي الذي كان يصطف فيه بعض الليبيين للخلاص من شحنات غرائزهم مع نساء رخصت لهن الدولة هذا النشاط العلني، لكن هؤلاء الثوار الذي قاموا بغلق أبواب الفساد العلني من خمارات ومحلات دعارة، فضلوا العمل بالحديث [إذا بليتم فاستتروا]. وبدأ السيد تلك الرحلة الليلية الطويلة، تحلق من حوله بالإضافة إلى الضباط، نخبة من الكتاب

والصحفيين، الليبيين وغيرهم، ومع الأيام اتسعت الحلقة لينضم إليها بعض رجال الأعمال ونساء العمل.

إتسعت دائرة السلطة، وأرتفعت هامات الثروة، فضاقت مساحة الوطن، فلبى الضابط الشاب نداء الرحيل إلى القاهرة وبيروت، رفقة أخوان الصفاء وخلان المساء، وزاد طيب المقام في عواصم الثقافة والفن والليل.

في بداية السبعينات من القرن، أي بعد قيام الثورة بسنوات قليلة، أصبح في سوق الحياة الصاخبة، عملة ضاربة، إسمها السيد قذاف الدم.

عندما يحكم الضباط، يكون السلاح هو المعدن الثمين الذي يندفعون إلى اكتنازه، إنتقل السيد إلى لندن للعمل ملحقا عسكريا، كان المال يسبقه ويلحقه، وقد ارتفعت أسعار النفط بعد حرب أكتوبر سنة 1973، ولم تبدأ سنوات الرصاص والشظايا بعد بين ليبيا وبريطانيا. وما دامت هذه البلاد تحكمها ملكة، والضابط الشاب هو من أقارب حاكم ليبيا فلماذا لا يكون أميرا؟ ومابين يديه من المال والسلطة يجعلناه أسمى من أي صاحب سمو في بريطانيا، فأي أمير بريطاني لا يستطيع أن يوقع على ربع صك يستطيع الأمير الليبي التوقيع عليه.

لقد أنفق النقيب سيد قذاف الدم ملايين الجنيهات في بريطانيا – اشترى السلاح، وقام بعلاج آلاف الليبيين، وأشترى المباني باسم الدولة الليبية، ولم ينس نصيبه من الدنيا، فقد أنفق على لياليه طولا وعرضا، وهفا إليه الرجال والناس من كل حدب وصوب. كان بيته في لندن غرفة عمليات قيادية، يتحلق فيها ضباط ليبيون، وكتاب وصحفيون ورجال أعمال. ولم يغب نظراؤهم العرب.

في سنة 1977، كنت في لندن مع محمد بلقاسم الزوي، وزير الإعلام آنذاك في عودتنا من مهمة في نيجيريا، ودعانا السيد إلى منزله، حيث وجدنا عددا من الليبيين واللبنانيين، وكان الضيف الأبرز أحد قادة الثورة الفلسطينية. في الصباح، فوجئت

بمحمد الزوي في قاعة الفندق، استغربت أن أجده في هذا المكان في هذا الوقت المبكر، سألته ما خطبه، فقال حدثت قصة طويلة سأحدثك عنها، قال أن القائد الفلسطيني، أيقظه مبكرا، فقد سرقت البنت الإنجليزية التي نامت معه كل المبلغ المالي الذي كان بحوزته وكذلك الساعة الثمينة، وأضطر أن يوقظ السيد ليتصرف، وكانت ليلة ليلاء.

لقد ارتفعت الأصوات في الأوساط العسكرية والأمنية والسياسية في ليبيا نقدا لتصرفات سيد قذاف الدم، وتبديده المبالغ فيه للأموال، ومجونه العلني...إلخ. وصل الأمر إلى معمر القذافي، الذي شكل مجلسا عسكريا للتحقيق مع السيد. علم محمد والد السيد بالأمر فغضب لما لحق بولده من التشهير الذي إعتبره إهانة لعائلته فقرر أن يرد كل المبالغ التي قيل أن إبنه قد أنفقها في لندن، وقيل أنه أحضر كيسا به 15 ألف دينار ليبي، وألقاها فوق طاولة أبو بكر يونس قائد الجيش طالبا منه أن يعتبر هذا المبلغ تعويضا كاملا لما أنفقه إبنه في لندن.

عين السيد بعد ذلك نائبا لمدير المخابرات الليبية، كان ذلك في نهاية فترة سبعينات القرن الماضي، كان غول العنف قد حام فوق سماء ليبيا، وحط على أرضها، وبدأت اللجان الثورية تؤكد وجودها على الجسد الوطني، وتوجهت الدولة نحو فرض الهيمنة الأمنية على مفاصل الدولة. كان المثقفون دائما من أوائل ضحايا ذلك. لم يغادر الكاتب أعماق سيد قذاف الدم، واستمر يكتب في وسائل الإعلام الليبية مقالات مشاغبة، ونشر كتبا عدة، فيها من الوجد والحزن أكثر مما فيها من الفكر والرؤية. إرتبط بعلاقة قوية مع أغلب الكتاب والمثقفين الليبيين وعلى رأسهم المرحوم الصادق النيهوم، كان السيد يعاني من إزدواجية، بل كان يحمل في داخله، إزدواجيات. قيل عن المرحوم يوسف السباعي، الروائي المصري المعروف، قيل أنه كان ضابط بين الأدباء وأديبا بين الضباط، كان سيد يعاني من نفس الإزدواجية، مضافا إليها كما قلت إزدواجيات أخرى، فهو قريب مقرب من العقيد معمر القذافي،

الذي أصبح الحاكم الوحيد الفريد لليبيا، لا شريك له في السلطة، بعد أن أعلن أنه سلمها إلى الشعب سنة 1977. لكن أعراضا أخرى بدأت تطفو على سلوك الرجل، وتلون شخصيته بعد أن تحلق حوله الناس والمال والسلطة في سنة 1982، كنت وزيرا للإعلام، طلب مني معمر القذافي أن أسافر إلى لندن، لتسوية خلاف قام بين كل من المرحوم أحمد الصالحين الهوني، ورشاد الهوني، سبب الخلاف بين الرجلين اللذين حملا نفس اللقب، هو من يملك صحيفة العرب التي تصدر في لندن. تحدثت في البداية مع أحمد الصالحين، ثم التقيت برشاد، كان رشاد الهوني رحمه الله من أكبر الصحفيين والكتاب الليبيين، أسس مع شقيقه المرحوم محمد الهوني صحيفة الحقيقة في بنغازي التي أصبحت منبرا نهضويا وتنويريا وطنيا. كان معمر القذافي يكره تلك الصحيفة وأصحابها لسببين:

<u>الأول</u>: أن الملازم معمر القذافي قابل محمد بشير الهوني صاحب دار الحقيقة للصحافة والنشر، وقدم له كتابا من تأليفه بعنوان: في "السوق الحربي" ويقصد "بالسوق" تعريب لكلمة الإستراتيجية، كان كتيبا صغيرا احتوى على معلومات عسكرية بسيطة منقولة من أربع أو خمس كتب، قال له الهوني: هذا الكتيب بسيط ولا مضمون فيه، ولا يستحق أن ينشر.

<u>الثاني</u>: موقف صحيفة الحقيقة من حرب 1967، حيث هاجمت الرئيس جمال عبد الناصر، خاصة في مقال كتبه رشاد الهوني بعنوان "الديوك المخصية" هاجم فيه العسكر، وانقلاباتهم التي يسمونها بالثورات، ولا تحقق إلا الهزائم.

إعتبر معمر القذافي تلك المقابلة بمثابة هجوم مسبق على مشروعه الثوري الذي وصفه رشاد بالانقلابي.

بعد ثورة 1969 مباشرة، قرر القذافي إغلاق – الحقيقة – كانت تلك الصحيفة صوتا فكريا وأدبيا يتسابق الليبيون على عددها الأسبوعي الذي يكتب فيه الصادق

النيهوم، وخليفة الفاخري، والشلطامي، وأحمد الحريري وغيرهم. نعود إلى لندن، أثناء حديثي مع رشاد الهوني طلبت منه العودة إلى ليبيا، وإن بإمكانه تأسيس صحيفة، بطريقته الساخرة قال رشاد: أنا سأبقى هنا في بريطانيا لأن بها قانون، مستعد أن أقاتل للدفاع عن هذه البلاد الديمقراطية، وأشار إلى أنه رفع قضية ضد مواطن بريطاني فكسبها في حين سجن في ليبيا بتهمة إفساد – سيد قذاف الدم– قال أن سيد ليس بحاجة إلى من يفسده، فهو قادر على إفساد القارات الخمس، والمفارقة كما يقول رشاد الهوني، أنه في اليوم الذي أدخل فيه هو إلى السجن، بتهمة إفساد سيد، عين هذا الأخير نائبا لرئيس جهاز الأمن الخارجي. فهل يجوز أن يعين فاسد في هذا الموقع، ورفض رشاد العودة إلى ليبيا طبعا.

تعرض السيد لحادث سيارة وهو مكلف بمنطقة سرت العسكرية، كثر الحديث عن أسبابه، أهدى له رجل إيطالي، له أعمال بناء في سرت، سيارة فاخرة، وأثناء قيامه بقيادتها لأول مرة انفجرت السيارة، أُخذ إلى إيطاليا للعلاج، وهناك بدأت رحلة أخرى مع المورفين.

تحدثت مع الكثير من أصدقائه، قال بعضهم أن الرجل تعرض إلى مؤامرة مدبرة، وهي تحطيمه جسديا بعد أن تحطم نفسيا، لي عداوة قديمة ومستديمة مع نظرية المؤامرة، وبما أنني أعرف الرجل قبل كل من تصدى لقراءة ما تعرض له، فأنني أقول أنه ساهم هو شخصيا في كل ما حلّ به. كانت هناك أكثر من حلقة لا تكن الود له، وأولهم أبناء عمومته الذين تدافعوا نحو غنائم السلطة والمال. ولا ننسى آخرين من المكونات العسكرية. كان السيد يمتلك المؤهلات الثقافية والشخصية والإجتماعية التي تجعله قادرا على لعب دور بارز وهام في الحياة السياسية الليبية، ولهذا كان للكثيرين مصلحة في إبطال مفعول تلك المؤهلات، وعندما حام الطعم حول وجهه وجد فمه مفتوحا.

كانت النعمات هي اللعنات، قال معمر القذافي أنه أعطى السلطة والثروة والسلاح للشعب، بعد إعلان قيام سلطة الشعب سنة 1977. منذ ذاك اليوم، شرع معمر يحفر جب النهاية له وللوطن، وعندما أفاق في لحظة النهاية وجد نفسه أمام هول الحقيقة.

كان السيد جزء من طوفان المأساة الصامت، فقد تولى لفترة مسئولية بناء المعسكرات في سرت، تسابق إليه رجال الأعمال من كل الجنسيات، لم تكن حسابات الجيش بصفة عامة تخضع للمراجعة من أي جهاز حكومي فما بالك إذا كان الآمر بالصرف هو العقيد سيد قذاف الدم. نعمة المال انهمرت معها لعناتها، وزادتها السلطة المطلقة، دمارا مطلقا.

ربطت بين السيد قذاف الدم والأديب والكاتب الليبي الراحل الصادق النيهوم علاقة وطيدة، جمعهما عازف الليل، وصخبه، كان النيهوم، النجم الذي تلاحقه آذان الناس وعيونهم، ينشدون إلى أحاديثه التي يسّخر لها صوته ويديه وكل قسماته، موشات ببسمات ساخرة خفيفة. لم يقتنع سيد بتلك الموهبة الهبة، التي جعلت الصادق يحتكر تلك المساحة الخاصة في قلوب الليبيين قبل عقولهم، في جلسة من جلسات السهر التي تحلق فيها الرجال والنساء، يتابعون تحليلات النيهوم العميقة، حول الإنسان، والحرية، وتكوين المجتمع الليبي المتخلف، يستعرض ويعالج أكثر الموضوعات تعقيدا بأبسط الكلمات، إغتاظ السيد من هذا الاستيلاء السلمي الذي يحققه صاحبه على عقول الحاضرين، فتطاول عليه، بادله الصادق نظرات، واكتفى بالصمت، لكن السيد الضابط، لم يقاسمه ذلك، وقال بلغة الآمر: "خذ مسودة كتابي هذا، وأدخل إلى الحجرة المقابلة، لتكتب مقدمته، أريد أن أرسله غدا إلى المطبعة". أخذ النيهوم الكتاب ونهض بهدوء، تقدم نحو كيس القمامة، وألقى فيه مسودة كتاب الضابط، وخرج. تلك إهانة بماذا يمحوها الأديب الضابط القذافي؟

قرر الضابط مسئول الأمن أن يضع قطعا من الحشيش في السيارة التي يستعملها الصادق، وأوعز إلى الشرطة أن توقف السيارة وأن تقوم بتفتيشها. إستطاع النيهوم أن يبطل مفعول تلك المؤامرة بأسلوبه، صرخ أن هذا الحشيش من ممتلكات سيد قذام الدم، وأنه قال له سيرتب هذه المسرحية، غضب معمر القذافي غضبا شديدا من إبن عمه، لأنه كان يرتبط بعلاقة وطيدة مع الصادق النيهوم.

في أواخر السبعينات، خطب العقيد السيدة نجاة الحجاجي، وكانت زميلتي بالدراسة بكلية آداب القاهرة – قسم الصحافة، وبحكم الزمالة في الدراسة والعمل، إستمر التواصل بيننا، كان السيد يتحسس من ذلك. ذات صباح إتصل بي، محمد بلقاسم الزوي، وزير الإعلام، وطلب مني أن أمر عليه بمكتبه، قال أن سيد قذاف الدم طلب منه إبلاغي رسالة منه، وهي أن لا أتصل مطلقا بخطيبته نجاة الحجاجي، وإذا لم أفعل فإنه سيضع مخدرات بسيارتي، وقد يضطر إلى تصفيتي جسديا. إستغربت من أن يقوم سيد بإرسال هذا التهديد الغريب عبر محمد الزوي...لأن العلاقة التي تربطني بالسيد قديمة جدا وأخوية، وقبل أن يقوم بخطبة نجاة سألني عنها، حيث أعرفها بحكم زمالة الدراسة والعمل، وأعرف عائلتها، وأنا الذي زكيتها له بما عرفته عن أخلاقها وشخصيتها وإلتزامها. تقابلنا صدفة في شوارع حي الأندلس، فأوقفته، وركبت معه سيارته، عبرت له عن إستغرابي من الرسالة التي أبلغني بها محمد الزوي، تحول الرجل إلى كائن آخر، يفيض بالعواطف، وقال هل تصدق أن أقدم على أي شيء يؤذيك، تلك هي شخصية سيد التي تفيض بالإنفعالات والعواطف أيضا.

قضى سيد قذاف الدم سنواته الأخيرة عاطلا، يتعاطى الكتابة، يعبر عن غضب ملأ جسده الممتلئ، ويرش فوق السطور زفرات من الأسى والتمرد.

قمت بزيارته مرة بالفندق الكبير بطرابلس رفقة الدكتور محمد عبد المطلب الهوني وهو زميل طفولة ودراسة للسيد قذاف الدم، قرأ علينا كلمات أغنية من تأليفه،

وطلب رأينا فيها. قال محمد عبد المطلب: "هذه أغنية ممتازة، ولكن لكي تكتمل أركانها الفنية أقترح أن يقوم بتلحينها اللواء الخويلدي الحميدي رئيس هيئة السيطرة التي تشرف على الأجهزة الأمنية، و يغنيها خيري خالد المسئول على سجن أبو سليم". كانت تلك الأغنية، عبارة عن شتائم وسخائم ضد الديكتاتور، الطاغية، الذي أمم البيوت والمصانع والعقول، ونصب نفسه إلهاً، ودمر الوطن وسرق الإنسان من جسد المواطن، بين الحين والآخر، كان ينشر مقالات ملؤها الشجن، تخاطب الوطن، وينسج تعابير الأسى وكأنه ينعى شيء ما. وقد تعرض للمساءلة والتحقيق أكثر من مرة.

عين بعد سنوات من البطالة قضاها على الفراش، أمينا لشعبية سرت، وهناك حاصره المكان بذكريات، ورجال، أتت على البقايا، وبدا يعاني من مشكلات لم تكفها مساحة الجسد البدين، فصعدت إلى الرأس. في 1999 عين سفيرا في القاهرة، ذهب إلى هناك قبل أن يستلم الموافقة الرسمية التقليدية من وزارة الخارجية المصرية، يعرف المصريون جيدا من هو هذا الرجل، ويعرفون جذوره المصرية، حيث كان والده من المهاجرين إلى مصر وأرتبط بسيدة مصرية، ويعرفون جيدا أخاه أحمد، الذي عمل سفيرا بالقاهرة، وأرتبط بعلاقات وثيقة مع الرئيس حسنى مبارك، والأجهزة الأمنية، والمؤسسة العسكرية.

ظل السيد حبيس جناحه بالفندق الذي يقيم به، يتداخل في مواقيته الليل والنهار، ويلتف من حوله اللاهثون وراء المصالح، لم يستطع مقابلة أي مسئول مصري على المستوى الذي يراه من حقه، وأرتفع هاتف الإحباط والضيق بداخله.

كنت عندئذ عضو أمانة مؤتمر الشعب العام للشئون الخارجية، وصلت إلى القاهرة في زيارة للبرلمان المصري، يوم وصولي دعتني السيدة سلمى راشد مندوبتنا بالجامعة العربية إلى عشاء دعت إليه أيضا "السفير" سيد. بعد حديث قصير بيننا على العشاء، نشب خلاف بيننا كالعادة، وصدمت المندوبة، وغادرت طاولة العشاء.

لكن قبل – الخلاف – حدثني عن الوضع المحرج الذي وجد نفسه فيه، وعدته أن أتحدث مع المسئولين المصريين، وبالفعل قابلت نائب رئيس الوزراء يوسف والي، والشخصية القيادية بالحزب الوطني الحاكم، ورجوته أن يستقبل سيد، وأن يسهل مهمته. عمل المهندس يوسف والي في بداية حياته الوظيفية بمدينة سبها عاصمة ولاية فزان سابقا حيث تعرف إلى والد سيد قذاف الدم الذي كان ضابطا بجهاز الشرطة، ومن الشخصيات المعروفة بالمدينة.

في الليلة التالية، كنت مع بعض زملاء الدراسة السابقين من الصحفيين المصريين، وكان معنا الشاعر محمد الفيتوري، والسفير عمر الحامدي، وعبد القادر غوقة، والمرحوم خليفة بازيليا.

إتصل عامل الإستقبال بالفندق، وقال أن السفير سيد قذاف الدم يقف أمامه ويريد أن يصعد إلى جناحي، دخل برفقة حارستين عملاقتين، إحداهما عراقية والأخرى سودانية، جلس، فيما بقيتا واقفتين في حالة إستنفار أمني.

كان الشاعر محمد الفيتوري يلقي بعضا من قصائده، يعاونه عبد القادر غوقه بمختارات من شعر المتنبي ونزار قباني، فجأة، ضرب سيد الطاولة بعصاه الضخمة، وشن هجوما صاعقا علي، وقال: "متى كنت تحلم أيها الفزاني، أن تجلس في هذا الجناح الأمبراطوري الفاخر، هذا بفضلنا نحن القذاذفة". قلت له: "أنت الذي يجب أن تشكر معمر القذافي، الذي رفعكم، بعد أن كنتم مجرد شرطة وعاملين عند عائلة سيف النصر، وعندما كان والدك يقف خلف البي محمد سيف النصر ليحك له ظهره بعصاه، كان والدي عضو مجلس النواب الليبي المحترم، وعلى كل حال، أنتم الذين أتيتم من سرت إلى فزان ولم نذهب نحن الفزازنة إلى سرت". وفي لجة الغضب ذكرته ببعض التفاصيل من الماضي، أيام مدرسة سبها، عندها هاج هيجانا شديدا، وأندفع يكسر كل شيء أمامه. قام عبد القادر غوقه ودفعه إلى خارج الجناح بمساعدة حارستيه، وأدخلني إلى غرفة نومي.

بعد أيام من عودتي من القاهرة، إتصل بي محمد الزوي وزير العدل وقال أنه سيمر بمنزلي مساءا، قال أن محمد الحجازي وزير الأمن العام قد أطلعه على تقرير يتضمن ما حدث بيني وبين سيد في القاهرة، وأن الحجازي طلب منه معالجة الموضوع قبل أن يكبر، وأجتهد الزوي فأتصل بعلي الكيلاني القذافي، وشرح له ما حدث، وتمنى عليه أن تتم معالجة ما حصل بأخوة. قلت لمحمد الزوي، عليه أن يطلب من الحجازي إحالة التقرير إلى القائد. إستغرب الزوي، وقال، هل أنت تمزح، رددت عليه بأنني جاد جدا، ورجائي الوحيد هو أن يقنع الحجازي بإحالة الموضوع إلى القائد وأنا سأقبل بقراره.

بعد أيام قال لي الزوي ضاحكا، لا أحد يعرف معمر القذافي مثلك!! قلت كيف؟ أجاب: لقد إطلع القائد على التقرير، وعلق عليه بأن السيد وشلقم أصدقاء، ويعرفان بعضهما، وشلقم يعرف تاريخ القذاذفة وكل ما قاله صحيح، هم لم يكونوا شيئا قبلي. وطوي الموضوع.

لم يقبل المصريون بالسيد سفيرا، وأعتبروا ترشيحه إستهتارا بالعلاقات بين البلدين، وسحب قبل أن يقدم أوراق إعتماده أو يباشر عمله، وعين العميد صالح الدروقي بديلا له.

عاد سيد إلى طرابلس، وعادت علاقتنا، وكأن شيئا لم يكن، زاد وزنه إلى درجة تثاقلت معها حركته، وبدأ يصاب بحالات فقدان الوعي، والدخول في نوبات من الهذيان والبكاء. إقترح مقربون من العقيد معمر، أن يكلف السيد بعمل يساعده على إسترجاع نفسه، فعينه منسقا للقيادات الشعبية الإجتماعية.

لم يقصر في مد يد المساعدة لكل من قصده وخاصة أولئك زملاء الدراسة، أو الذين حاقت بهم لكمات الزمان من أدباء أو فنانين.

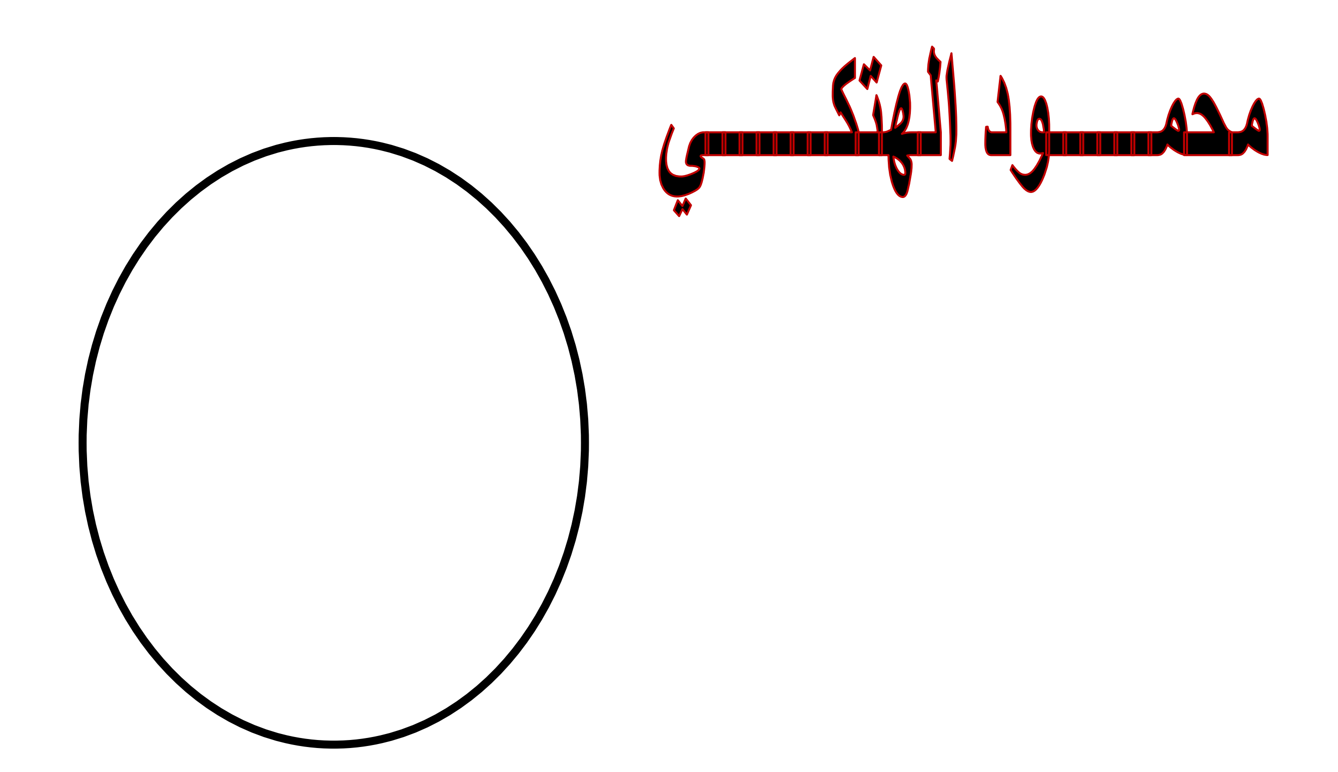
قبل إنفجار ثورة الشباب الليبي في 17 نوفمبر إنتقل إلى سرت وأقام بمنزله هناك، معتزلا أي عمل عام سياسي أو عسكري. في خضم مواجهات الثوار لكتائب القذافي، وضع الإعلام الليبي خارطة برامج، محورها الهجوم على الثوار وتشويههم، وكذلك شن حملات على أسماء لها دور في العمل السياسي أو الإعلامي الداعم للثوار في جبهات القتال. ظهر السيد في القناة التلفزيونية الليبية الرسمية مع أخيه علي، بعد أن إنضم محمد إبن السيد للثوار، وإنتقل إلى قطر وظهر على شاشات التلفزيون يهاجم معمر القذافي وأولاده ويدين جرائمهم. سأل المذيع سيد عن تأثيري على إبنه، فرد بأن إبنه رجل يقارب الأربعين من العمر، وهو مسئول وحده عن أقواله وأفعاله، ورغم إلحاح المذيع عليه ودفعه إلى مهاجمتي لكن سيد تحاشى ذلك، وكرر أن إبنه ليس طفلا وهو وحده المسئول في حين شن أخوه هجوما هابطا عليّ، وحمّلني مسئولية كل ما قام به إبن أخيه.

بعد تحرير سرت، وقتل معمر القذافي، ظهر السيد على شاشات التلفزيون فوق نقالة بأحد مستشفيات مصراته، ومن حوله الأطباء يقومون بفحصه. عادت بي الذاكرة إلى صحراء البداية، متنقلا بين محطات شتى، كان فيها سيد قذاف الدم، الطالب، الكشاف، الضابط، الكاتب، طافت أسراب المال، والسلطة، والزهو. وعدت بعيوني، وعقلي، إلى تلك النقالة المهلهلة التي يرقد فوقها ذلك الجسم الثقيل، وسألت نفسي أو بالأحرى تساءلت: ماذا بقي من السيد؟

كانت شخصية سيد، وحياته، رواية تفاعلت فيها مساحيق الحياة ومحاليلها، وأسدل أول الستائر على آخر المشاهد. لقد صارع الحياة عشقا، طاف في كيانها وجاست خلاله، شرب من أنهارها شهدا وصابا، أخذ أو أعطى، كتبَ رعشات أحزانه، نشر كتابا بعنوان – همسات – وهو الإسم الذي علقه على هوية إبنته، صرخَ في مقالة وقال: قلبي على وطني. وكأنه يقف على قارعة الزمان ينتظر هذه الأيام الدامية

التي ستكتب بقلم غير قلمه، وإنما بقلم النار والرصاص نهاية قلب معمر القذافي، وبداية دقات قلب الوطن الليبي.

لم يقم الخويلدي الحميدي بتلحين تلك الأغنية التي كتبها السيد ولم يغنها خيري خالد، كانت تلك أغنية الوجد القدري، التي ذهب سيد ينتظر عزفها بمدينة سرت، كانت معزوفة الدم الكبرى، غنّاها الليبيون بدمهم، أما السيد قذاف الدم، فقد كان شاهدا على دفق الدم من صدور شباب ليبيا، أما هو فلم يعد قادرا على قذف الدم. لقد قذفه الدهر، إلى تلك النقالة المتهالكة بمصراته، مصراته التي كتب شبابها أغنية حريّة ليبيا بدمهم، ولحّنوها بدقات قلوبهم المزمجرة، وغنوها برفيف أرواح الشهداء العظام، فزفوا إلى ليبيا يوم الحرية والمجد يوم 20 أكتوبر.


محمود الهتكي

محمود الهتكي

ولد المدينة، إبن طرابلس من الجلد إلى النخاع، كل ما فيه طرابلسي، الحديث، طريقة المشي، حركة اليدين، مخارج الكلمات ومداخلها.

فتح عينيه ليرى طرابلس المتوسط في الأربعينيات، ورثت طرابلس كل أنفاس البحر المتوسط، ومزاجه، واختلاطه، طبعاً هي بلد الليبيين كلهم، وعاصمتهم التي يتسابقون إلى رؤيتها، والاستمتاع بروحها التي يجمعون على عشقها. طرابلس حديث العرب الذين يتذوقون الأغاني، ويعشقون نوبات المالوف، يصطبحون بالسنفاز، ويخاطبون البحر بلغة سرية وسحرية خاصة. وفي المدينة القديمة، المدينة التركية يختلط البشر، اليهود، والطليان، والمالطيون، والعرب، نسجوا غلالة حضارة التسامح المتوسطي، وفرحه الفريد. طرابلس الإيطالية، حيث معمار عصر النهضة معشّق بأنغام أندلسية طروبة.

هنا، في تلك الدنيا الخاصة لامس السيد محمود الهتكي فجر العمر، كان لكل شيء طعمه.

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية سنة 1945، بدأت حرب سياسية، أسست لبدايات الحرب الباردة بين المعسكرين اللذين بدأ في التشكل، وهما المعسكر الاشتراكي الشرقي بزعامة الاتحاد السوفييتي، والرأسمالي. قدر ليبيا دائماً، أن تدفع ثمن جغرافيتها السياسية، قال عنها ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانيا السابق، والذي قادها إلى النصر في الحرب العالمية الثانية، قال:" أن ليبيا هي بطن التمساح الرخوة بالنسبة لأوروبا". يقصد أن أوروبا هي ظهر التمساح الصلب، ولكن ليبيا التي

تتكامل من ناحية الجغرافيا السياسية والعسكرية والأمنية، هي البطن غير الصلبة بالحسابات في البحر وعلى الأرض بالنسبة لأوروبا.

بعد نهاية الحرب الثانية، بدأ الصراع على مستعمرات الدول المهزومة في تلك الحرب، يعني دول المحور ومن بينها إيطاليا التي كانت تحتل ليبيا، عندما زحف الماريشال مونتغمري من مصر إلى ليبيا، ودحر قوات رومل، بقيت قواته في طرابلس وبرقة، أما إقليم فزان فقد دخلته قوات فرنسا الحرة التي يقودها الجنرال شارل ديغول من تشاد، وبقيت بهذا الإقليم الليبي الجنوبي، وجعلتها تابعة إدارياً وعسكرياً للجزائر.

لم تقبل أمريكا بالأمر الواقع، ووضعت عينيها على البطن الرخوة لأوروبا، وكان للاتحاد السوفييتي أيضاً، طموحه وأطماعه في ليبيا، أما إيطاليا، التي اعتبرت ليبيا شاطئها الرابع، لم تنسها هزيمتها العسكرية طرابلس أرض الأحلام الجميلة، ولا يمكن أن تسقط روما من عقلها وقلبها الأثار الرومانية الشامخة فوق الأراضي الليبية، كان بعض المؤرخين والكتاب الإيطاليين يقولون أن طرابلس الغرب – إقليم طرابلس، يحتوي على أثار رومانية أضخم وأكثر من تلك التي توجد في كل إيطاليا. صارعت روما لأخذ نصيبها في ليبيا بحكم وجود جالية إيطالية كبيرة بها، تمتلك كل المقدرات الاقتصادية للبلاد، ونجحت في توقيع اتفاقية (بيفن– سفورزا) التي تحفظ المصالح والوجود الإيطالي بليبيا.

بدأت حرب من نوع آخر فوق الأرض الليبية، بدأ التحرك السياسي من بعض القيادات الليبية، إتصلت بالأمم المتحدة والجامعة العربية، بادرت الأمم المتحدة سنة 1948، بأخذ الملف الليبي، وعين الدبلوماسي الهولندي (إدريان يلث) مبعوثاً للأمم المتحدة إلى ليبيا، الذي عمل على تحقيق إستقلال البلاد، لوقف تلك الحرب العالمية السياسية الباردة على " البطن الرخوة لأوروبا ".

بدأ حراك سياسي ليبي قادته نخبة ليبية صغيرة، هدف هذا الحراك إلى تحقيق استقلال ليبيا ووحدتها. ظهر في طرابلس حزبان هما حزب المؤتمر بقيادة بشير السعداوي الذي يدعو إلى ليبيا موحدة، وحزب الاستقلال، الذي يدعو إلى دولة فيدرالية. قامت أيضاً أحزاب أخرى صغيرة، ساهمت في إغناء ذلك الحراك السياسي الوطني ولكن بقدر محدود، وبرزت شخصيات سياسية، ساهمت فيما بعد في بناء ليبيا المستقلة.

في تلك الأجواء السياسية المتحركة السائلة شبّ محمود الهتكي، لم ينل حظاً يذكر من التعليم المدرسي، ولكنه إلتقط بعض الحبْ السياسي من سقط الأكياس التي يحملها الكبارعلى أكتافهم، كانت البلاد تموج بشتى التيارات السياسية، تحركها رياح القلق الوطني الليبي من نوايا المنتصرين والمهزومين في الحرب. تدخلت أطراف عربية وعلى رأسهم عبدالرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية، الذي دفع بشعارات مستوردة وناصر جناحاً ليبياً ضد آخر، لكن الأمير محمد إدريس السنوسي، أعلن إستقلال برقة، وقلب الطاولة على الجميع، فأصبح لا مناص من التحرك نحو خيار واحد وهو استقلال ليبيا وتوحيدها.

في 24 ديسمبر 1951 أعلن استقلال ليبيا، وبدأت المسيرة الشاقة، مسيرة بناء الدولة. كانت هناك لبنات ليبرالية، أجريت الانتخابات البرلمانية، وضم أول برلمان أعضاء مؤيدين للمعارضة وآخرون للحكومة. وتوالت الانتخابات البرلمانية التي لم تخلو في أي دورة من دوراتها من شوائب التزوير. قامت صحافة خاصة نستطيع أن نقول أنها كانت مستقلة أكثر مما كانت حرة. وشهدت البلاد ظهور نخب سياسية وثقافية. وكان للرياضة حظ لا بأس به.

دخل محمود الهتكي إلى ميدان الرياضة، لعب حارساً لأحد الفرق الرياضية، ولعب أيضاً حارساً لبعض التيارات السياسية والثقافية. لم يلعب بوسط الميدان، ولكن كأي حارس للمرمى، يكون نصيبه من مراقبة اللعبة أكبر من دوره فيها. نشر مقالات

في الصحف الليبية، كان بعضها جريئاً جداً، طالت شخص الملك إدريس، عندما نشر مقالاً عن تلك الشجرة التي لم تنبت في الأرض الليبية مشيراً لأصله الجزائري.

إقترب من علي وريث المناضل الوطني، الذي عرف بنزاهته وشجاعته وجذب إليه كثير من الشباب الليبيين، خاصة أولئك ذوي الميول القومية الناصرية، وكان له حضور في الانتخابات البرلمانية داعماً لقوى المعارضة من أمثال الشيخ محمود صبحي وعلي مصطفى المصراتي، والفيتوري زميت وغيرهم. واقترب أيضاً من ابراهيم الغويل المحامي، الذي تحرك بندول مزاجه السياسي بين المعارضة والحكومة.

بعد هزيمة 1967، لم يتوقف عن اللعب، ولكن هذه المرة، لم يكتف بدور حارس المرمى المراقب، بدأ بالهجوم على جمال عبدالناصر، ونشر مقالات تنتقد سياساته، وبعد تعيين عبدالحميد البكوش المحامي والشاعر، رئيساً لوزراء ليبيا، لم يبخل محمود الهتكي في دبج مقالات التمجيد له، ووصفه بقائد الديمقراطية، تصدى له الصحفي الجريء عبدالرحمن الشاطر ورد عليه بمقالة شهيرة أعطاها عنوان (الكلمة غير المحمودة، هتك مفضوح). قصد عبدالرحمن (اللعب) باسم محمود الهتكي، فاستعمل (غير المحمودة) و (هتك).

في سنوات ما قبل الثورة شهدت ليبيا حيوية ثقافية قوية، وقامت (جمعية الفكر) التي نظمت ندوات ومحاضرات ومهرجانات، حيث إستضافت مفكرين كبار من بينهم (مالك بن تبي)، المفكر الجزائري الراحل، والمؤرخ الكبير (أرنولد تونمبي) وغيرهم. حظر النظام الملكي الأحزاب السياسية ولكنه تغاضى عن التيارات الثقافية والسياسية.

كثر اللاعبون في ميدان السياسة والثقافة، ولكن الهتكي، بقى أغلب الوقت هناك في مستطيل المرمى.

بعد قيام الثورة، عادت صحيفة البلاغ، فأتخذ فيها عموداً، أعطاه عنوان (الحق أقوله لكم). كتب عن الثورة، وعن الأمن، والطعام، والوحدة العربية. وساهم في ندوة الفكر الثوري التي نظمها العقيد القذافي لإستخراج توجهات المثقفين الليبيين.

بعد تأسيس تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي، غادر محمود الهتكي (المرمى) ودخل الميدان ليلعب، لكن ليس ضمن الأحد عشر لاعباً، بل مع حشد من اللاعبين ضمن فريق واحد، يقذفون الكرة في اتجاه واحد، يلعبون بكرة مثلثة، هي كرة الحرية، الاشتراكية، والوحدة. حمل الهتكي بقايا الحَبْ في رأسه، مضافاً إليه شذرات من الأقوال سمعها هنا أو هناك، وأندفع يلهج بها في سوق عكاظ القومي. وبموروث حارس المرمى، كان لابد له أن يدفع كل مهاجم وأن يمنع الكرة من الدخول بأي ثمن، والملاعب لا تكتمل حيويتها دون أحداث شغب، فقد كان محمود الهتكي، هو الولد الشقي في الاتحاد، أقصد الاتحاد الاشتراكي العربي وليس فريق الاتحاد الرياضي المعروف في مدينة طرابلس. كان الرجل يعاني من ورطة أوقعه فيها مكانه في الزمان، عاش بين أشخاص، كان لهم حظهم من التعليم والثقافة، شغلوا مواقع سياسية، تبوأوا مكانة أدبية وإجتماعية، بقى هو دائماً في المرمى، وعندما وجد نفسه في مطبخ الكلام لم يجد حلة ولا طبق، فاستنفر اللعيب المشاغب، في أغلب جلسات الاتحاد الاشتراكي، إصطدم بالكاتب الصادق النيهوم، الذي لم يأخذه يوماً على محمل الجد، كان يعامله باستهزاء وسخرية واستخفاف، وأحياناً يقوم الصادق بدور الأستاذ فيوبخه ويقرعه، إصطدم أيضاً بمحمد بلقاسم الزوي، وهو أحد أعضاء الخلية المدنية الأولى في تنظيم الثورة.

سنة 1977 أسست الأسبوع السياسي، إلى جنب الأسبوع الثقافي التي كانت العدد الأسبوعي لصحيفة الفجر الجديد، إتصل بي يوماً محمود الهتكي ليبلغني أن معمر القذافي قد طلب منه أن يكتب في صحيفة الأسبوع السياسي، رحبت به وتبادلنا حديثاً ودياً وقلت له أن قلمه سيكون إضافة هامة للصحيفة.

بدأ يرسل مقاله الأسبوعي بشكل غير منتظم، وكنا ننشر كل ما يكتبه. في أحد الاسابيع أرسل مقالاً، يتناول موضوعاً سياسياً له خلفيات تاريخية، وعندما قام سكرتير التحرير، بعرض المقال عليّ، طلبت منه أن يؤجل نشره لأن به أخطاء تاريخية صارخة، ونسب أقوال معينة إلى غير أصحابها الحقيقيين بالإضافة إلى أخطاء في أسماء بعض الأماكن. صدر العدد كالعادة يوم الاثنين ولم يجد الهتكي مقاله على صفحات الجريدة. إتصل بي ثائراً مزبداً إحتجاجاً على عدم نشر مقاله، إستمعت إليه بصبر وهدوء، وقلت له يا أستاذ محمود انك كاتب كبير ولك أسمك في عالم الصحافة الليبية، وهناك أخطاء كثيرة بمقالك، ولا أرضى أن أنشره كما ورد منك، وأقترح عليك أن تأتي إلى هنا في الوقت المناسب لك لنراجع المقال معاً.

لم يتقبل ما قلت، وأستمر في فورة غضبه مهدداً متوعداً، حاولت طويلاً تهدئته، وقلت له أنني مستعد أن أذهب إليك في المكان الذي أنت فيه لنراجع المقال سوياً، كان رده: "من أنت الذي تريد أن تصحح لي ما أكتب، عندما كنت أنا أكتب لم تلدك أمك، وماذا تعرف أنت في الصحافة أو اللغة العربية أو التاريخ أو الجغرافيا حتى تتجرأ وتتطاول وتريد أن تصحح ما أكتب". في فورة غضب أطلقت عليه زخات من الشتائم، وقلت له:" قسماً بالله لن ينشر لك حرف في هذه الصحيفة"، وأقفلت الهاتف. لم أنس تلك الحادثة أبداً، لأنها كانت من المرات القليلة التي أسيطر فيها على أعصابي سيئة الانضباط، وعلى لساني سيء السمعة، ولكنه كما يقولون أخرجني عن طوري غصباً عني. كان لمحمود الهتكي أسلوبه الخاص في كل شيء، في مشيته التي توحي بأنه من بقايا البقايا، نتوءات من زمن رحل، وبقيت أطلاله تلوح كهشيم أبقت الرياح على بقاياه، يندفع إلى الأمام بساقين يبارزان الفراغ، وصدر يشده الظهر إلى الوراء، وكأنه أحدب مع وقف التقوس، يترجرج عنقه فوق كتفيه، فيلتوي، وكأنه يحاول إعادة غرسه بينهما، صوره ابن الرومي عندما قال:

فكأنما صُفعتْ قَفاه مرةً   فأحسّ ثانيةً لها فتجمعا

عندما يتحدث تتداخل الأسنان واللسان والكلمات في حفرة الفم، ويستدير الهواء في فراغ الشهيق والزفير، يُردِفُها بقهقهة متكسرة، تخرج الكلمات قطعاً من الأضغاث، وعندما ترجلت بعض الأسنان أصبح للكلمات مشهدٌ كاريكاتوري طفولي، يوحي بتعبير مراوغ لا يخلو من التسلية.

دُعينا إلى اجتماع داخل مقر القيادة بباب العزيزية، كان الحضور كثيفاً، جلست مع عدد من المسئولين في الصف الأول، وجلس محمود الهتكي، كنت أعلم بأنه سيكون من بين الحاضرين، قررت أن يكون هذا المحفل مكاناً لتصفية الحساب معه، أحضرت معي طبعة من جريدة الرائد القديمة، صدرت قبل الثورة، تحوي مقال عبدالرحمن الشاطر الذي سبق أن أشرت إليه وعنوانه: (الكلمة غير المحمودة، هتك مفضوح)، وبدأت أتحدث مع الدكتور محمد أحمد الشريف، وعلي ماريا، وعبدالله زهمول عن ضرورة فرز الصفوف، وطرد المنافقين الذين كانوا يهاجمون جمال عبدالناصر، ويعادون القومية العربية، عندما رأى الهتكي، تلك الأوراق، خسفت به الأرض، وغاص في وحل من الإرتباك والإضطراب. تقدم نحوي عبدالله زهمول وعلي ماريه وطلبا مني الهدوء، وعدم إثارة هذا الموضوع رحمة بالرجل، قبلت توسلهما وسكت.

التقينا بعد ذلك بمثابة طرابلس، طلبت منه أمام الجميع أن يخرج أو فأنا مضطر أن أكشف حقيقته، غادر الرجل المكان في هدوء.

قلت في البداية أن الهتكي لم يسعفه الحظ، لنيل نصيب من العلم أو الثقافة، وإنما إقتات على سقط المتاع منهما، ولبس ثوباً لم يفصل بسداد، وتفاهم مع نفسه أن يكون مثقفاً، وكانت المواسم التي عاش في استدارتها، تتطلب أن يعجن في فمه بعض المصطلحات الإسلامية والقومية، إستمرأ مضغ تلك اللقيمات الكلامية، لكنها لم تكن دائماً بطعم فاكهة الموسم، الآن قد جاءت ساعات، يدفع فيها الدعي الثمن.

في بداية الثمانينات، قامت الحكومة بحملة إعتقالات ضد الجماعات الإسلامية، كان على رأس هؤلاء شيخ يدعى (البشتي) اتهم بعلاقات مع المملكة العربية السعودية، وأنه أنشأ تنظيم لقلب نظام الحكم والعمل على إقامة دولة إسلامية وهابية، قامت اللجان الثورية والأمن الليبي بإلقاء القبض على البشتي، وقامت اللجان الثورية باختيار عدد من رجال الدين والمفكرين الإسلاميين لمحاكمة الرجل، طبعاً لكل شيء ثمن واستحقاق وبما أن السيد محمود الهتكي، قد وضع نفسه فوق سدة المفكرين الإسلاميين فقد أستدعي ليكون أحد قادة محكمة التفتيش الثورية، وبدأ يحاكم الشيخ البشتي بقانون الدين والإيمان والمذاهب، مضافاً إليها طبعاً، قانون الثورة. طاف الهتكي دون أن يحط في أجواء وفضاءات الدين والثورة والوطن، ولكنه ترجل من أعالي شجرة الثورة ليحط على أرض (الخيانة) ورسمت عدالة المستنقع العميق لون المشهد، وهو الإعدام.

وفعلاً أعدم الشيخ في ليلة ظلماء.

لقد جمع حارس المرمى الآن، أكواماً من الكرات، بألوان شتى، وأجتاز تصفيات الدوري، وعُجنت الكثير من الكلمات في فمه الفريد الغريد، فجاء وقت الارتفاع، إلى مرحلة متقدمة من تصفيات الدوري، فعين عضواً بأمانة مؤتمر الشعب العام، شد الرحال إلى سرت، العاصمة الشعبية، وهناك أصبحت استراحته، منتدى الليل فيها يعرض الوجه الآخر من مطارحات النهار، وتتداول النكات والقفشات بطريقة 4-2-4 وبأسلوب برازيلي سريع، لا ضرورة للضرب نحو المرمى، فليس من قواعد اللعبة الآن إحتساب الأهداف، إن الوجود في المكان هو المباراة وهو النقط، والنصر مضمون ولا توجد ضربات جزاء.

ترجل ما بقي من الأسنان، وتقاعد الفم، وأخذ اللسان خلو رجل، ولا حاجة لقفل أو مفتاح، فكل الأمور الآن خالية، والقيادة الشعبية الاجتماعية، هي قارعة السبيل، التي يقف فيها حارس المرمى، ولكن بلا شباك خلفه، ولا أعمدة حوله، هنا، حراسة

اللامكان في ملعب لا وجود له، ولاعبين لم يحضروا يوماً إلى حيث لا مستطيل ولا مربع.

بدأ الهتكي حياته في طرابلس الحقيقية، أيقظه البحر المتوسط على أضواء فجر فضية، رأى مشاهد البداية الليبية بعيون طرابلسية متفاءلة، ركض وراء الأصوات الثقافية الملونة بالإسلام والودية، عجن الكلمات في فمه، حاول أيضاً أن يمدها حروفاً فوق السطور، عاركها وعاركته، تمدد فوق مساحة من الزمان، لكنه رغم عديد الخطوات لم يغادر ذلك المستطيل الصغير، ولكن دون شبكة خلفه، دون كرة تطوف وسط الملعب، كي يحرس منها شباكه، عندما قذف ثوار ليبيا معمر القذافي، خارج ملعب الوجود، كان محمود الهتكي قد غادر الملعب، ولم يعد يرى كرة ولا لاعبين ولا حكم، أما الجمهور فقد انتقل إلى عصر آخر، وإلى ملعب كبير جديد، هو ليبيا المتحررة.

إبراهيـــــم الغويـــــل

إبرَاهِيم الْغُويل

إبراهيم بشير الغويل، هو من أعلام طرابلس، وإن تلونت جذوره، بعدد من المحطات الأخرى، من مصراتة إلى بنغازي، لكنه إرتدى كل ما في طرابلس من حلل الحضور الاجتماعي، والثقافي، ثم المهني. حدث نفسه بكثير من اللغات، وتغنى بأكثر من مونولوج، لكن في أحيان كثيرة كانت الأغاني تهرب منه، أو تتهرب منه مع سبق الإصرار، شب في طرابلس الإيطالية معماراً وأجواء. وسط سرب من الأخوة الذين إرتقوا سلم الدراسة. والده بشير الغويل، من أعيان ذلك الحي الطرابلسي الذي تتقاطع فيه الشوارع التي حملت أسماء إيطالية.

ورث الكثير مما في طرابلس العربية التقليدية، اللباس، والمزاج، ونسق الحياة الهاديء الحميم.

توجه في الخمسينات إلى الدراسة في مصر، كانت كلية الحقوق كعبة علم، تشد إليها الرحال، في تلك العقود من القرن الماضي، كان المتطلعون إلى المكانة الاجتماعية يتجهون صوب الأزهر، هناك تنسج جبّة القدسية الاجتماعية، وترشف جرعات التقوى، أما الذين يتطلعون إلى المكان، الوجاهة، وكراسي السلطة، وحفنات المال، فإن كلية الحقوق هي العربة التي تحمل الانسان إلى تلك المحطات التي تلوح أضواؤها. كليات الحقوق هي معامل العلوم، ولكن بدون رياضيات أو كيمياء أو فيزياء، لقد كان قادة العالم العربي، أيام الخير السياسي، التي كان فيها البرلمان منبراً للبلاغة، ومحراباً للوطنية، كان أولئك القادة من أبناء رحم القانون.

توجه إبراهيم الغويل مثل الكثير من أترابه إلى القاهرة، وتحديداً إلى كلية الحقوق، ومن بينهم عبدالحميد البكوش، وكامل المقهور، عامر البكوش، عامر الدغيس، عبدالمجيد الميث، وعادوا إلى ليبيا، والدولة المستقلة الجديدة على أعتاب

شبابها، فكان منهم الشاعر، والقصاص،والقائد السياسي، وجميعهم، كانوا أصحاب حديث في المحاماة، ومن محرري العقود. وصل الشاب الطرابلسي إلى القاهرة، كانت ثورة جمال عبدالناصر طازجة، وبدأت تزداد سخونة بعد حرب السويس، وإرتفاع النبرة العربية في صوتها، جاء رجال هبّة التحرير من تونس والمغرب والجزائر، ولم يغب بعض الأفارقة الذين يلهجون بصوت الحرية والتحرير. الجامعات المصرية كلها تقريباً كانت تعج بالطلبة العرب والمسلمين، كل جاء ليأخذ العلم من مدينة المعز، ولكن أجواء الوعي كانت أيضاً تهب على تلك الأركان. في بيروت، وتحديداً في الجامعة الأمريكية، سرت شحنة الهم القومي، وبدأ تنظيم القوميين يتخلق في رحم بيروت، موازياً للخلايا البعثية.

في تلك القاهرة التي استيقظت على أصوات فجر جديد، وسرت في جنباتها أضواء سياسية وفكرية فاعلة. لم يغب الأخوان المسلمون، فقد كان لهم نبت قديم. في تلك القاهرة، بدأت أيدي إبراهيم الغويل تمتد إلى كتب الفكر الديني، والفكر العربي، دون أن تلغى مقررات كلية الحقوق.

الأحداث الكبيرة، مكتبات كبيرة متنوعة، تشعل الأفكار، وتجعل دوائر النقاش بين الشباب، معاملاً لسبك الشخصية، وبوصلة تشير إلى قطب التوجه.

في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، لم تسخن أجواء القاهرة فقط، وإنما إلتهبت الأرض والسماء في أقطار عربية كثيرة، في الجزائر كان صوت ثورة التحرير تسمع رعوده في السماوات العربية، وأهتز الضمير الشعبي العربي، في المغرب الأقصى، إتخذت معركة التحرير لغة خاصة بعد نفي محمد السادس وتنصيب أحمد بن عرفة سلطاناً، وخروج عبدالكريم الخطابي، أما في تونس التي لجأ زعيم جهادها الحبيب أبورقيبة إلى مصر، فقد كان لمعركة التحرير، أبجديتها الخاصة، كان صوتها خافتاً أحياناً في الأرجاء العربية، ولكنه يصنع طريقه الخاص إلى الآذان والعقول.

وفي أفريقيا، كانت الكونغو عنواناً لأكثر من معركة، فرضت القضية الافريقية على الجميع، تداخلت مفراداتها مع هدير الحرب الباردة التي سخنت عندما لامست غاباتها، كانت معركة سلاح، ومعركة سياسية، وأيدولوجيا، ومصالح.

تلك كانت المشاهد السريعة المتكررة، تحفها من بعيد أو قريب ملامح أصابع القوى الكبرى، ولكن زفرات الشعوب لم تتقطع، ولم تغب عن تلك المشاهد. لقد كان ذلك الجيل الذي تفتح وعيه في هذا الخضم، جيلاً خاصاً بكل المقاييس. ساهم الكثير من أبنائه في الرسم المعماري، لما عاشته المنطقة العربية فيما بعد سواء سلباً أو إيجاباً، فكرياً وسياسياً.

بالطبع نهل إبراهيم الغويل من مياه المرحلة، ولكنه حاول مبكراً أن لا يكتفي بدور الناهل. أطلعني على رسالة طويلة بعث بها إلى الزعيم السوفييتي الراحل نيكيتا خروتشوف، يشرح له فيها جوهر الدين الإسلامي الذي يرسم طريقاً واضحاً ويقينياً لتحقيق العدل. هكذا بدأ الطالب الليبي الدارس بكلية الحقوق بجامعة القاهرة، القاهرة الجديدة التي تكافح من أجل الحرية، وتقاوم التبعية، بدأ بمحاولة تغيير الدنيا، أو تعديلها وتوجه مباشرة، إلى رأس من الرأسين اللذين يقودان العالم.

لقد وضع في رسالته الكثير من الخطوط والدوائر والمثلثات والمربعات، لتسهيل الفهم على الزعيم الشيوعي الملحد، الذي لا يؤمن حتى بديانة أهله المسيحية الأرثودوكسية. أراد الطالب المفكر، أن يقدم جرعة فكرية لهذا الزعيم العصبي، حاد المزاج، الذي كان من أشد القادة إندفاعاً وتشدداً في معارك الحرب الباردة. لقد عرض إبراهيم تلك الرسالة التي بعثها إلى خرتشوف في المنتصف الثاني من عقد الخمسينيات، عرضها علي منذ 4 سنوات تقريباً، وشرح مضمونها بإسهاب وحماس. أستمعت إليه، وكنت سعيداً بما أرى وأسمع. فتلك الرسالة الموجهة من طالب يدرس الحقوق، إلى ذلك الزعيم، أحسبها مفتاحاً لشخصية الغويل، فهي تشخص مرتكزات تكوينه.

قال عبدالله القصيمي أن العرب ظاهرة صوتية، هذا القول يستحق أن يناقش، ولكن ليس في هذا المكان، لكي يدلل على صدق مقولته هذه إختار القصيمي، نخباً من الأقوال العربية، ووضع في مقدمة براهينه المتنبي ومبالغاته، وكان إنتقائياً إلى حد المبالغة، لكنه كان جزءاً من مرحلة التيه العربي مثلما كان ضيفنا إبراهيم الغويل، طبعاً لكل فكر عصره، ولكل قول دنياه، أبو الطيب المتنبي مدح سيف الدولة، لماذا؟ قال له:

إذا كــان ما تبغيــه فعــلاً مضارعــاً

مضــى، قبــل أن تأتــي عليــه الجــوازم

هذا بيت مرعب، فيه ترميز، وتكثيف، يستحق الوقوف عنده طويلاً، نعم، جاء في سياق المدح، ولكنه يمتلىء بكائنات ومكونات، وصدى، اللغة هناك، صرامة القرار، ولحظة الرجولة، وهاتف الكيان.

القصيمي، كان غاضباً ورافضاً وثائراً، إختار أن يصارع تاريخاً، ينطق بما فيه من الداخل، طه حسين، جلس مع المتنبي، لكنه أختار مفاتيحاً مختلفة، رحل معه، على وسائد النديم اللغوي، وأقترب منه بشكل إنتقائي، لكنني أقول وأنا أتناول هنا شخصاً لا قرابة له مع المتنبي ولا مع عبدالله القصيمي، أضع الجميع في أبواب رواق أيامهم، وانتحل من الأيام عتبات، قال المتنبي:

لـولا المشقـةُ سـادَ النـاسُ كلُهـم

الجـودُ يفقــرُ والاقـدامُ قتــالُ

هذا البيت هو أم الوشائج، وناقوس الضوء، لم يره القصيمي، ولم يحده طه حسين.

لقد رحلنا مع إبراهيم الغويل، إلى التاريخ، واللغة، والشعر، وهو من كان يضاجع هذه الكيانات لِماماً، يفيق معها، وعليها، في شذرات كتاباته، ويسافر معها في ليالي كتاباته، وتعاريج أفكاره.

نسج إبراهيم الغويل ، من دنياه القاهرية خيوطاً سياسية وفكرية، عربية، إسلامية، ولكن الخيوط لم تكن هي التي تخيط الثوب، فالرياح التي تنسجها آفاق وسماء التطور، أقوى من الوهم، ومن التفكير الرغبوي، الذي دفع إبراهيم الطالب الشاب أن يكتب رسالة إلى نيكيتا خرتشوف، حالماً أن يغير أفكاره لكي يغير الدنيا.

عاد إبراهيم إلى طرابلس، التي تتدحرج على خطوات الآتي، مملكة متحدة، فيها برلمان وصحافة، تتنازعها الأقلام، مثلما تتصارع الحروف فوق سطور الأوراق، ويكون للحبر معنى، وللقول أكثر من نفس، يقولون أن للغيرة مسكن، هو قلب المرأة، ولكنني أقول، أن للغيرة بيوت أخرى، حيث يوجد الفنانون، والكتاب، والمحامون.

تنقل إبراهيم الغويل بين دوائر سياسية وفكرية، حقيقية أو نفسية. لقد ارتبط بعلاقات لم تنقطع مع الدوائر السياسية والأمنية المصرية الناصرية، كان مكتب الشئون العربية بالقاهرة يتبع رئاسة الجمهورية مباشرة، يشرف على ما أطلق عليه (الطليعة العربية) وهو تنظيم سياسي له أبعاد أمنية، يضم عدد من العرب الذين درسوا بمصر أو إستمروا في الدراسة بها، وينتمون إلى فكر الرئيس جمال عبدالناصر، خاصة الإيمان بالوحدة العربية والعمل من أجل تحقيقها. سرت أقوال عن إنتماء إبراهيم الغويل إلى هذا التنظيم، لم أناقشه شخصياً في صحة هذه الأقوال، الذي ساق لي هذا القول، أكد ما يقول. كيف؟

قال أنه شاهد إبراهيم الغويل، ومعه علي وريث بمطار طرابلس سنة 1968، وهما يودعان العقيد عبدالعزيز الشلحي، الضابط الهام في الجيش الليبي، والذي كان الملك إدريس السنوسي، يعتبره بمثابة إبنه، وكان يرتب لتسليمه رئاسة ليبيا. إستغرب

المشاهد ذلك المنظر الذي جمع الثلاثة، فليس هناك أي مشترك بينهم، بل أن المسافة السياسية بينهم لا تسمح أن يأتي الأثنان وهما من العناصر العروبية، لتوديع عبدالعزيز الشلحي. وعندما أصر المشاهد على تقصي الأسباب، علم أن الشلحي كان يحمل صكاً من الملك إدريس إلى الرئيس جمال عبدالناصر، الذي طلب مبلغاً مالياً عاجلاً، لمواجهة ضرورات عسكرية ملحة. وقد لعب الغويل ووريث دوراً في تأمين تلك المنحة الملكية للرئيس عبدالناصر بإشارة من مكتب الشئون العربية بالقاهرة، في سنة 2010 أعلن الدكتور يحي الجمل في ليبيا، إن إبراهيم الغويل كان عضواً في تنظيم الطليعة العربية الناصري.

قلت في سطور سابقة، أن الغيرة لا تحتكرها النساء فقط، بل أن المحامين لهم نصيبهم منها. لقد كان تقلد عبدالحميد البكوش منصب وزير العدل في العهد الملكي، وهو أحد زملاء إبراهيم الغويل في الدراسة بكلية الحقوق، جامعة القاهرة، ثم زميله فيما بعد بمهنة المحاماة، كان تقلد البكوش لوزارة العدل، نفحة في موقد الغيرة، كان الغويل يقف على مسافة متحركة من النظام الملكي، فهو ينتقده ولكن على إيقاع سماعي ثقيل، ويثني عليه على إيقاع السامبا. صعود زميل الأمس في الدراسة، وزميل اليوم في المهنة- عبدالحميد البكوش، لم يشعل غيرة إبراهيم فقط، بل وصل اللهب إلى غيره من القانونيين. أخذ مسكناً ربما بردّ نار الغيرة، عين سفيراً متجولاً، ورأى في ذلك إرتفاعاً على درجات سلم السمو في المكان والمكانة.

إبراهيم- الطالب ثم المحامي والمفكر، ذو الاهتمام السياسي، كان واعياً بأهمية المكانة الإجتماعية قدر وعيه بأهمية المكان السياسي. فقد تقدم بعد تخرجه ليخطب يد إبنة الشيخ وريث، كانت لصداقته الحميمة مع شقيقها علي وريث الرجل الوطني الذي حاز على تقدير الليبيين وحبهم، دوراً حاسماً في زواجه منها، لقد كان والدها يصر على تزويجها لأبن عمها، لكن علي وريث، أصر أن تكون من نصيب صديقه إبراهيم الغويل وهذا ما تحقق.

كان علي وريث شخصية نادرة، ولا نبالغ إذ قلنا أنه قامة سامقة من قامات الوطنيين الليبيين، شديد الثبات على الموقف، نظيف اليد إلى حد الزهد، وازن بين توجهاته العروبية، وحرصه على الاستجابة للمتطلبات الوطنية الليبية، يصدح بالحق في لغة مهذبة، لبقة، ومؤثرة. جاءه مرة من نقل له معلومة عن إبراهيم الغويل، إهتز علي وريث من الأعماق، وغضب بقوة، نهض وضرب الحائط بكلتا يديه من حسرة، فأنكسر ذراعه.. هكذا كان علي وريث، لا توجد مسافة بين قلبه، وأعضاء جسده.

أسس الغويل مع صديقه وريث صحيفة البلاغ، التي أعطاها وريث منزل العائلة، ليكون مقراً، وأعطى مضمونها روحاً عروبية إسلامية وطنية ليبية، لم يساير إبراهيم في توجهاته المهادنة، ولم يصمت على تقربه من النظام الملكي، ولكن علي وريث كان إستثنائياً حتى في معارضته، وحسرته، وغضبه.

سنوات ما بعد نكسة 1967، فتحت أبواباً كثيرة ومتنوعة، لمراجعة شاملة على كل المستويات، السياسية والفكرية، خفتت صرخات الخطاب العروبي، وبدأ الصوت الفكري الإسلامي يرتفع في سماء النخب العربية، بعد الهجوم الفكري والجسدي، الذي شنه النظام الناصري على الاخوان المسلمين في مصر وخارجها، كاد أن يكون الفكر السياسي الإسلامي مرادفاً للمؤامرة، إن لم نقل للخيانة، ولكن بعد هزيمة 1967، بدأ الصوت السياسي الإسلامي يجد له مجرة في السماء العربية. بعد صدمة النكسة، وجد أولئك الذين لهجوا بالحماس العروبي أنفسهم أمام خيارين، إما أن يتوجهوا إلى النهج اليساري الآخر وهو الماركسي، وهذا ما أختاره بعض أعضاء تنظيم القوميين العرب، أو أن يعطوا لتوجههم العروبي جرعة إسلامية. هذا ما فعله إبراهيم الغويل، الذي إختار أن يترافع عن قضاياه القديمة بدفوعات ذات حيثيات دينية، قديمة مجددة.

تدفقت تيارات سياسية وفكرية جديدة على أرض عربية، لم تعد البذور القومية قادرة على إنبات أهدافٍ، أو قوى تتحرك فوق جغرافيا مهزومة.

تخلقت على إمتداد الأرض العربية نخب جديدة، أعاد بعضها إنتاج خطاب فكري قديم بلغة جديدة، حاولت أن تنتحْل من الماضي خليطاً من الطروحات الدينية الموشاة برؤى عروبية، لم يكن إبراهيم الغويل بعيداً عن تلك النخب، فتوضأ بماء إسلامي، ليصلي على سجادة عربية. برز في حقبة ما بعد النكسة – الهزيمة – مفكرون من أمثال عبدالله العروي المغربي، ومالك بن نبي الجزائري، والشيخ محمد متولي شعراوي المصري، ومحمد أركون الفرنسي من أصل جزائري، والطيب تيزيني السوري. وبدأت تفتح أبواب كانت موصدة أمام الفكر الآخر، في القاهرة عاصمة الناصرية سابقاً، ظهرت مقالات وكتب، وبرامج مرئية ومسموعة في الإذاعات المصرية، لم تقتصر أسواق الأفكار على المؤلفات، بل طفح البازار الفكري بمعروضات من الكتب المترجمة، وتقلصت مساحة الممنوع، أو لنقل المسكوت عنه، رفع فؤاد زكريا صوته، وكذلك نجيب محمود، ورفع أنيس منصور شعاراً فكرياً بعنوان، أعرف عدوك.

لم يستطع الطموح السياسي، والغيرة الرفاقية، أن ينسي إبراهيم الغويل طموحاً قديماً، ظهرت أعراضه عليه مبكراً، مذ كان طالباً بحقوق القاهرة، حين بعث برسالة فكرية طويلة، إلى نيكيتا خرتشوف زعيم الكون الشيوعي، رأى أنها " الوصفة " الفكرية أي (الروشتة) الجامعة المانعة القادرة على رسم حل نهائي لمشاكل البشرية. ها هو المرض الآن يتمدد على جسده، جسد أمته العربية الإسلامية، فأين هو الآن من ذلك الوباء الذي اخترق كيان الأمة. لم يغب إبراهيم الغويل عن طابور الأطباء المفكرين، ألقى بعض المحاضرات، وكتب مقالات، لكن الوصفة الكبرى عرضها في برنامج (نور على نور) الذي كان يعرضه التلفيزيون المصري، ويقدمه المذيع المعروف أحمد فراج، الذي إستضاف عدداً من النخب العربية الجديدة – كان البرنامج هو (الفاترينة) التي تعرض الإنتاج الجديد، وهو الذي عرض الشيخ محمد متولي الشعراوي، وأنطلق من هناك في رحلة دعوية، دعائية، عجن فيها اللغة، بالتاريخ، وبالدين، في

مسلسلات تلفيزونية، نافست مباريات كأس العالم. لم يكن حظ إبراهيم مثل ذاك الذي عانق الشيخ شعراوي.

بعد ثورة 1969، أعيدت صحيفة البلاغ، وأختار أن يكون صوتاً من أصواتها، وتقدم الغويل صفحات الصحيفة، وحاول أن يكون محمد حسنين هيكل الثورة الليبية، حضر محادثات الوحدة الثلاثية، ونشر جوانباً مما دار في تلك القمة بلغة هيكلية أهرامية، تذكرنا بما كتبه هيكل عن أسرار مباحثات جولات الوحدة العربية بين مصر وسوريا العراق، لكن اللغة غير اللغة، وكذلك المكان والإنسان.

حاول أن يكون الكف الطرابلسية، التي تلاصق بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، مثل مختار القروي، وعبدالمنعم الهوني، ومصطفى الخروبي، لكن المعادلات في داخل المجلس، كانت لا تخضع لترتيبات من هم في داخله، فما بالك بأولئك الذين يجلسون في صالونات نخبوية، صنعت في دمشق، ووضعت في فيلات طرابلس.

تم تأميم الصحافة الخاصة في ليبيا سنة 1974، وفقد إبراهيم الغويل بذلك مكبر الصوت الورقي، الذي كان يطلق منه تراتيله الفكرية العروبية، بأنغام إسلامية.

خسر إبراهيم المعركة ولم يخسر الحرب، فما زالت له جبهة قديمة، وهي المحاماة، إنكفأ بمكتبه بشارع 24 ديسمبر الذي أصبح أسمه شارع أول سبتمبر، ولكن عمارة أسامة التي أسس فيها إمارته القانونية، لم تغير أسمها. في أواخر سبعينيات القرن الماضي، وأوائل الثمانينات، هبط كائن جديد على الأرض الليبية، كائن لم يعرفه أهل هذه الأرض من قبل وهو العنف السياسي. قرأ الليبيون عن القتل، والاغتيال غيلة، والسحل، في المشرق العربي، وتحديداً في العراق، وبقدر أقل في سوريا، أما في ليبيا، فإن العنف، كان مخلوقاً كالعنقاء، لم يلامسوه أبداً. وحتى

وجبات القتل التي شهدتها البلاد بسبب ما سمي بالمؤامرات، إقتصرت على العسكريين ولم تطل المدنيين.

في سنة 1981، شهدت طرابلس حادثة، وقعت على الليبيين، وقع الصاعقة، لقد قتل المحامي عامر الدغيس، كان هذا الرجل، مناضلاً عربياً بعثياً، ينتمي إلى جناح حزب العراق، اعتقل على أيدي اللجان الثورية، لم يبق في معتقله طويلاً، فقد قتل بين جدرانه، أشيع أنه إنتحر، ولم يصدق أحد تلك الإشاعة. لم تكن هذه الحادثة هي الأخيرة، فقد كرت مسبحة الاعتقال، والقتل في المعتقل، وكان من بين الذين سقطوا من مسبحة الحياة، محام آخر، هو محمد حمّى، في الداخل، وفي الخارج، أغتيل محام آخر في لندن هو محمود نافع. بدأ إبراهيم الغويل يتحسس رقبته، وحاق به طوفان الخوف، من هناك أو من هنا، من مربع الإغتيال، ومستطيل الرعب، بدأت معركة إبراهيم الغويل الجديدة، التي لم تكن أبداً من بين المعارك التي تخيل أن يخوضها يوماً.

نشرت صحيفة الجماهيرية رسالة موجهة من إبراهيم الغويل إلى معمر القذافي في باب بريد القائد. نشرت الصحيفة تلك الرسالة تحت عنوان كبير وبارز يقول – إبراهيم الغويل – لم أتمالك نفسي.

لم يكن إنتقاء هذه العبارة من الرسالة لتكون عنواناً، لها، إجتهاداً مهنياً، بل إشارة منتقاة، تظهر عصاب الرعب، لقد كانت الرسالة صرخة ولاء، ورعشة ذعر، لقد قرأ القذافي تلك الرسالة أكثر من مرة، وقرر الإستيلاء على ما تبقى من إبراهيم الغويل.

كنت في تلك السنة 1982 وزيراً للإعلام، تحت عنوان، أمين اللجنة الإدارية للإعلام الثوري، زارني إبراهيم بمكتبي، وقدم لي كتيباً قام بتأليفه، يتحدث عن الطريق الثالث، ضمنه أفكار تتقاطع، بل تدعم أفكار الكتاب الأخضر، بالطبع فالمحامي، المفكر، العربي، الإسلامي، لا يحتاج إلى كبير عناء ليكدس حطباً جزلاً من غابات

التاريخ الإسلامي والعربي، ويشعلها بنار الديمقراطية الشعبية المباشرة، التي صاغها معمر القذافي في كتابه الأخضر.

ركض، الغويل، ومعه تاريخه، وأوراقه وخوفه، إلى خندق مناسب، يشم فيه بقايا عطراً استعمله زمانا، وهو عطر الفكر الديني، توجه إلى جمعية الدعوة الإسلامية، وهل هناك حصن أفضل منها.

ففيها، الدعوة، والإسلام، ويقف على بابها الدكتور محمد أحمد الشريف، وعلى رأسها معمر القذافي شخصياً.

ككل شيء في الجماهيرية، الأجسام أيضاً تلد أجساماً، وإن لم يرفع ذلك في شعار، مثلما كان مع الناقة – التي تلد والدينار لا يلد، لقد ولدت جمعية الدعوة الإسلامية، جسم القيادة الإسلامية العالمية.

هذا الكيان، جمعية الدعوة الإسلامية، ووليدها الأكبر منها، القيادة الإسلامية العالمية، مائدة نزلت من السماء على المحامي الإسلامي المفكر. كانت محفلاً للخطاب المطرز بكل الكلمات التي تراكمت في رأس الرجل وقلبه وبطنه، مدّت إيواناً لعلم كلام معاد لكنه جديد، فيه التقى بعلماء معممين، وآخرين حاسري الرؤوس مع جرعة ثورة، وشعارات ساخنة يصبها معمر القذافي، القائد الأممي الإسلامي.

إنفجرت الطائرة الأمريكية فوق سماء لوكربي البريطانية، دخلت ليبيا في نفق طويل يزداد ظلاماً كل يوم، وهتف الليبيون عبر كل الأصوات مستنجدين بالعرب والأفارقة والمسلمين، إتخذت الأمم المتحدة قرار الحصار الجوي، وطلبت من ليبيا أن تقدم تعويضات لأسر الضحايا، قبل صدور حكم الإدانة، لكن القرار الذي هز أركان النظام والمجتمع هو تسليم المتهمين الليبيين، عبدالباسط المقرحي والأمين فحيمة، وتداعت وسائل الإعلام من كل أركان الدنيا، وبكل اللغات تطلب من القانونيين الليبيين التعليق على قرارات الأمم المتحدة، وتفضل حديث القانونيين قبل السياسيين.

كما قال الشاعر :

مصائب قوم عند قوم فوائد

في ذلك الخضم المضطرب والمتصاعد، وجد المحامي والمفكر والمحلل السياسي مداه. ففي المحفل الإسلامي إستنهض أخوته الأئمة عبر جمعية الدعوة الإسلامية، والقيادة الإسلامية العالمية لنصرة ليبيا. وطاف بين الإذاعات العربية والأجنبية يفند الإدعاءات الاستعمارية الإمبرالية، التي تستهدف قلعة العروبة والإسلام والثورة العالمية.

وكمحام، إستل، من جرابه القانوني، ما وصلت له يداه من الدفوعات القانونية.

إختارت الحكومة الليبية الراحل كامل المقهور المحامي، لقيادة فريق الدفاع الليبي أمام محكمة (كامب زايست) التي قبلت الحكومة الليبية بمحاكمة المتهمين الليبيين أمامها. كان إختيار الحكومة الليبية، للمحامي كامل المقهور دقة للزناد على حجرين فتطاير الشرر، وأشعل حطب غيرتين، لم يشفهما ترياق التقادم.

– الغيرة الأولى، غيرة المهنية – المحاماة.

– الغيرة الثانية، النجومية التي حاول الغويل إصطيادها منذ سنين، وفرت منه في مواسم قنص مختلفة.

أضيفت لهما هذه المرة، صفقة المال التي ستحصد من هذا التكليف الفريد، في قضية من أكبر قضايا العصر.

لقد تسبب كامل المقهور في الكثير من الضربات فوق رأس الغويل وفوق قلبه، فقد تولى المقهور منصب سفير في الصين، ومندوب ليبيا في الأمم المتحدة، ووزارة النفط، وكذلك الخارجية، وها هو الآن، يقف وإلى جانبه محامون من كل الدنيا ليرافع

أمام محكمة غير مسبوقة في التاريخ، ليدافع عن تهمة موجهة إلى كل الوطن الليبي.

حكمت المحكمة، أدانت عبدالباسط المقرحي، وحكمت عليه بالمؤبد، وبرأت الأمين فحيمة. ثبت الجرم، وأنتصف الحكم.

قدمت الحكومة الليبية إستئنافاً أمام المحكمة الاسكتلندية، ولا يمكن أن يقود معركة النصر المبتغاة، الجنرال الذي عاد بنصف إنتصار ونصف هزيمة، صار من المنطقي أن يعفى المحامي كامل المقهور من قيادة معركة الاستئناف.

إبراهيم الغويل، أرجع الحكم الصادر بحق المتهمين الليبيين إلى إستراتيجية الدفاع التي انتهجها غريمه المقهور، تنقل بين الشاشات والصحف، وقاعات الندوات يحلل ويفصل الأخطاء التي أرتكبها الدفاع وأدت إلى هزيمة القضية، وأسهب في شرح المداخل القانونية التي يجب أن تُدخل كي يضمن النصر. كان يعتقد بأن تلك المعركة منذ البداية، هي له وحده، وأن عبدالعاطي العبيدي ومحمد الزوي حاكا مؤامرة لإبعاده، وتنصيب صديقهما المقهور على قيادة جيش الدفاع الليبي.

تم تكليف إبراهيم الغويل، لقيادة فريق الدفاع لمرحلة الإستئناف، وبدأ يحشد محامين جدد، وأنطلق يعد المذكرات، ويضع الخطط الاستراتيجية للدفاع.

كنت وزيراً للخارجية، وأقوم بمتابعة المحكمة، وكذلك توفير مصروفات فريق الدفاع، وتسديد فواتير أتعاب المحامين. يتم ذلك وفق سياق معروف، لكنني فوجئت يوماً، أن إبراهيم الغويل يحضر إلى مكتبي، ويقدم أفكارا أو خططاً مكتوبة عن ما أسماه بالاستراتيجية الموازية، ما هي ؟ .. تلك الخطط، تتضمن عدداً من النقاط المحددة، أهمها جمع معلومات دقيقة وتفصيلية عن كل من يعمل بالمحكمة، والعمل على التأثير عليهم، وكذلك حملات إعلامية واسعة ومركزة، هدفها خلق رأي عام يشكك في المحاكمة السابقة، ويعبيء هذا الرأي العام للتعاطف مع عبدالباسط

المقرحي، أن يظهره هذا الرأي بمظهر كبش الفداء من أجل إبعاد التهمة عن أطراف أخرى. وطلب الغويل مبلغاً لتمويل تلك الخطة. بعد مناقشة إتفقنا على التركيز على الجانب القانوني.

تعددت التقييمات لشخص وشخصية إبراهيم الغويل، لا أدعي بأنني قادر على إصدار حكم على تلك التقييمات، ولكنه في تقديري، مثله، مثل أي إنسان له ما له وعليه ما عليه.

لقد صارع تيارات الزمان، والزمان قطع من عواصف القدر، ولا أحد يختار الزمن الذي يعيش فيه. فقذفته الأقدار بين أجواء ليبيا الملكية الهادئة، التي لونتها قسمات الطموح والأحلام، وحطت مركبة العمر بمصر الناهضة من الملكية، إلى مصر الثانية، مصر الثورة، إلى مصر الثالثة، مصر المواجهة والوحدة.. عاد إلى ليبيا الملكية التي صارت غير متحدة ولكنها واحدة، وبقيت الأمال الفكرية والسياسية والمهنية ترافقه، إلى أن إستيقظ ذات صباح على أناشيد الثورة القذافية. وبعدها أصبح كل شيء مغامرة، كل كلمة، وكل حرف يعني رسم مسافة بين الحياة أو الموت.

تعايش المحامي- مشروع المفكر مع دنياه الليبية، استراح في صفوف المحفل الإسلامي العالمي.

في 17 فبراير، استيقظ على إنفجار غير متوقع. إنفجار ثوري يختلف عن الإنفجارين اللذين عاشهما أو تعايش معهما، ثورة جمال عبدالناصر، وثورة معمر القذافي، هذا الإنفجار هو صوت ثورة ليست من صنع ضباط، إنما من قلب شباب غاضب، ضد ما قضى المحامي الغويل سنوات يحوم حوله، أو يسبح فيه.

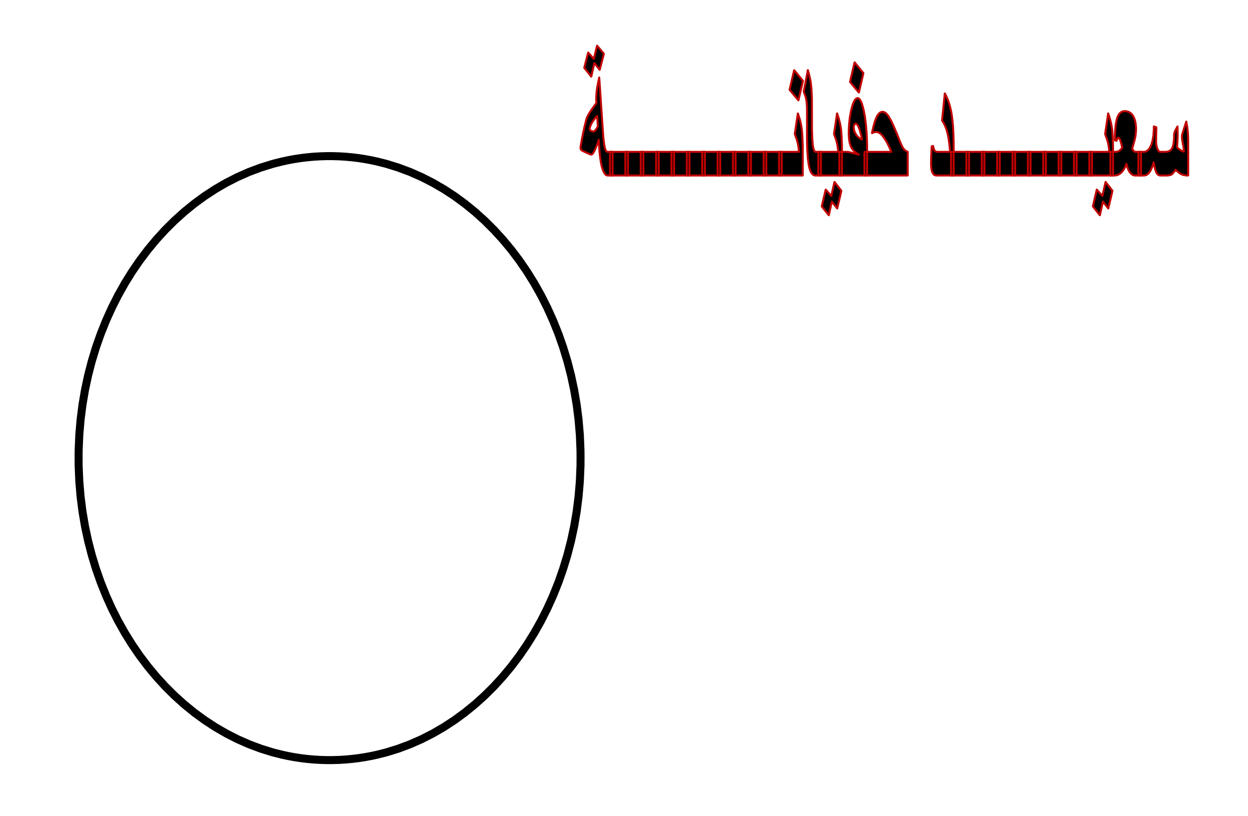
قررت الأمم المتحدة تكليف الناتو بحماية المدنيين الليبيين، دُقّت الطبول القومية والدينية، إسترجع المفكر العربي المسلم لياقته البلاغية، إنتفض لسانه، وتربع أمام شاشات التلفزيون اليوم، يسبر أغوار المغامرة الإمبرالية الصليبية، ضد الشعب الليبي

العربي المسلم، يدعو إلى رفع المعنويات من خلال وصفة طبية محكمة وحكيمة، قراءة آيات محددة قبل الأكل وبعده، أما قبل أن يذهب كل واحد إلى فراشه، فلابد من قراءة آيات حددتها من سورة المائدة.

فرّ إبراهيم الغويل، مثل غيره من المنظرين، إلى خارج ليبيا بعد أن تأكدت نهاية حقبة القذافي بقوة الثوار.

ماذا حمل معه؟ المكان أو المكانة؟ المكان لا يوضع في حقيبة، والمكانة لا تسعها مقاعد الطائرات.

الشيء الوحيد الذي صار حقيقة أمام المحامي هو الريح، قبض من المحاماة، ومن الدعوة الإسلامية، ومن الدفاع في لوكربي، ولكن لم يبق له اليوم إلاّ، قبض الريح.


سعيد حفيانة

سعيد حفيانة

القادمون إلى صفحات هذا الكتاب، مرّوا فوق سطوره، وعبروا حروفه بإختيارهم، ولكن أغلبيتهم، أتى بهم القدر إلى هنا، كانت المسارب مختلفة، متنوعة، الطرق، تشابهت أحياناً وكثيراً ما أختلفت، بل أن بعض الطرق كانت غريبة كغرابة عابريها، أو العكس. ولد سعيد عريبي حفيانة، بمنطقة جبل نفوسة، من أسرة أمازيغية، في عائلة تتأرجح بين اليسر والعسر، في ذلك الجبل المرتفع، يكون الشتاء زائراً مزعجاً، فدرجة الحرارة، تهبط إلى ما تحت الصفر، ومن لا يملك " جرداً " - العباءة الليبية التي يتفنن أهل الجبل في نسجها، يكون الشتاء موعداً معادياً.

حدثني سعيد حفيانة، في مناسبات مختلفة، عن ظروف طفولته، وعن بداية وعيه، قال أنه أراد الذهاب إلى منازل أخواله، فهبط الليل ومعه برد شتاء الجبل، كان عليه أن يعبر مجرى أحد الوديان التي يفرشها الصخر المدبب، ولا يزال بها بعض الماء، وصف تلك المعاناة بأسلوب يرسم صورة شفهية لتلك الليلة الليلاء.

ما كانت ملاءة الأهل تسمح لهذا المتيفع بالذهاب إلى ما هو أعلى من المستويات الأساسية في الدراسة، إستطاع أن يحصل على وظيفة متواضعة، أي طباع في إحدى الدوائر الحكومية. أخذه حظه إلى مكتب المرحوم منصور المحجوب رئيس الجامعة الإسلامية، وكان من المقربين من الملك الراحل إدريس السنوسي، منصور المحجوب كان من رجال الدين شغلوا منصباً بارزاً في العهد الملكي، وله وضعه المرموق في دوائر الدولة، بحكم تلك العلاقة مع الديوان الملكي، وهو شخصية يعرف الليبيون عنها الكثير الكثير.

عطف المحجوب على سعيد الذي وجد فيه حضناً دافئاً حرم منه، إلتصق به. قدم له المحجوب مساعدة ساهمت في إعادة رسم خارطة مستقبله، إلتحق بدراسة الحقوق بجامعة بنغازي، وعمل بوزارة العدل، قبل أن يحصل على منحة من الدولة لمواصلة دراسته العليا في القانون في فرنسا.

لم يعرف له نشاط سياسي قبل ثورة سبتمبر 1969. ولكن بدأ بعدها يتحسس السبيل إلى التواصل مع قادتها.

إلتقيت به صدفة بطرابلس سنة 1973، دُعي الطلبة الليبيون الدارسون في الخارج إلى مؤتمر عقد في طرابلس، قدمه لي أحد العرب القوميين، طلب مني أن أقدمه إلى الرائد بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة، ووزير التعليم. كان بشير، يرأس آنذاك محكمة الشعب التي شكلت لمحاكمة رموز العهد الملكي.

التقينا بعد ذلك في جلسات مؤتمر المبعوثين، كان متحمساً جداً للتوجهات القومية العربية للثورة، طبعاً، كان ذلك يثلج صدور قادة الثورة، فوجود شاب من الأمازيغ، يرفع صوته بالإنحياز، بل والحماس للعروبة والوحدة العربية ومضة تستحق أن تتطلع إليها الأنظار. لازلت أذكر ذلك الموقف الساخن بين سعيد حفيانة وبين الدكتور محمد الملهوف، الذي هاجمه بشدة، ووصف موقفه بالإنتهازية والتملق عندما كان النقاش يدور حول إتحاد الطلبة الليبيين واستقلاليته عن الدولة.

في أوائل السبعينيات شهد المسرح السياسي الليبي شخصية لها ملامحها الفريدة هو أحمد الشحاتي، كان من بين الذين تمركزوا في حلقة الاتحاد الاشتراكي العربي، كان الشحاتي، رجلاً طيباً بسيطاً وهادئاً، قبل أن يخط معمر القذافي أفكاره في الكتاب الأخضر، بدأ يتحدث عن ملامح ما أسماه بالتوجه الثالث، وكانت تلك الملامح أقرب إلى ما كان عبدالناصر يسميه الدوائر الثلاث، العربية، الإسلامية، الدولية. شرع الشحاتي يلقي المحاضرات ويعقد الندوات لشرح تلك الملامح وإبرازها، واستقطب إليه

عدداً من الشباب الليبيين خاصة الذين يدرسون في الخارج. من بين هؤلاء كان سعيد حفيانة.

تولى الشحاتي مسئولية العلاقات الخارجية بالإتحاد الاشتراكي العربي، وقام بهذه الصفة بزيارة العديد من الدول وشارك في لقاءات برلمانية وسياسية على مستوى البحر الأبيض المتوسط، والمستوى الافريقي.

في سنة 1978، أصبحت أمانة الشئون الخارجية بالإتحاد الإشتراكي العربي جسماً موازياً لوزارة الخارجية، تحظى باختصاصها ما يمكن أن نطلق عليه المجال الحزبي، أو التعبير عن التنظيم السياسي، وبعد أن بدأ الزحف على بعض السفارات وتحويلها إلى مكاتب شعبية، تدار بلجان شعبية، على رأسها أمين اللجنة، يقوم مقام السفير، ثم إختيار عدد من الشباب الثوريين لتولي مهام أمناء تلك المكاتب ومن بين هؤلاء، سعيد عريبي حفيانة. تقرر أن تكون تبعية تلك السفارات التي تحولت إلى مكاتب شعبية، إلى مكتب الشئون الخارجية الذي يترأسه أحمد الشحاتي وليس لوزارة الخارجية.

أصبح أحمد الشحاتي، هو المتبني الثاني لسعيد حفيانة بعد متبنيه الأول، الشيخ منصور المحجوب. هكذا استطاع سعيد أن يجمع الماء والنار في يد واحدة، ماء الماضي الملكي الذي مثله الشيخ منصور المحجوب أحد أركان العهد الملكي، ونار أحمد الشحاتي ممثل الثورة.

بعد تأسيس مكتب الاتصال باللجان الثورية، أصبحت هذه المكاتب الشعبية التي تدير السفارات الليبية في الخارج، تتبع عملياً لهذا المكتب، وإن كانت نظرياً ومادياً تتبع وزارة الخارجية، وكذلك من حيث التوجيه السياسي، والعلاقة مع وزارات الخارجية في الدول التي توجد بها هذه المكاتب الشعبية.

كـان سـعيد حفيانـة مـن العناصـر التـي إرتفـع منسـوب إرتباطهـا بمكتـب اللجـان الثوريـة، وأقتـرب مـن آمـره محمـد المجـذوب القـذافي. ودخـل فـي إحتكـاك مباشـر مـع الليبيين الدارسين في فرنسا، كانت بينهم عناصر تعارض النظام، وأخرى تؤيده، لكن لغـة الإختلاف ولغـة التأييد، كـان لهمـا أكثـر مـن طبقـة صـوتية، وخطـوات ومسـافات على الأرض. إختلف سعيد مع العناصر المحسوبة على الثوريين الموالين للنظام قدر ما أختلف مع أولئك المعادين للنظام.

سعيد حفيانـة، يعرف عند كل مـن يعرفـه، بأنـه يمتلـيء بـالأعصـاب والحماقـة، قد تكـون كميـة هذه الأعصـاب بداخلـه أكثـر مـن الدم واللحم. وهنـاك نـوادر لـه لا يجهلها كل من عرفه من قريب أو بعيد. ولو أردنا حصر تلك المواقف العجيبة الغريبـة، التـي تفوق فيها على نفسه في ثوراته العصبية لسطرنا أكثر من كتاب.

سأسوق حزمـة صـغيرة مـن الأحـداث، التـي يمكـن أن نطلـق عليهـا حـوادث. تبـين مدى تلبس الأعصاب والحماقة لهذا السعيد.

كـان سـائقه وهـو سـفير ببـاريس ينقلـه إلـى مكتبـه بالسـفارة، وكـان الطريـق مزدحمـاً، بدأ سـعيد يصـرخ بالسـائق أن يسـرع لأن سـعيد مـرتبط بموعـد قـال لـه السـائق:" ألا تـرى ما أرى، الطريق مقفل"، رد سعيد وهو يصرخ ويضـرب بكلتـا يديـه علـى لوحـة السيارة، أجري طير، رد عليه السائق:" أنا لا أستطيع، حاول أنت أن تطير"!!

ويقول زمـلاؤه الذين عملوا معـه فـي المثابـة العالميـة، أنهم أعتـادوا أن يـروا سـعيداً وهو يضرب رأسه الأصلع على الحائط وهو يصرخ، وذلك لأتفه الأسباب.

عندما كان مساعداً لـي بوزارة الخارجية، جـاء إلـى مقـر الـوزارة، فوجد سيارة واقفـة بالمكـان المخصـص لسيارتـه، أطلـق المنبـه بقـوة، ولا مجيـب، هبـط مـن سيارتـه، وباشـر بركل تلك السيارة التـي إغتصبت مرقد سيارته. تجمـع بعـض العـاملين بـالوزارة، ورجـال

البوليس المكلفين بالحراسة، تحلقوا حول هذا الرجل الذي يحتل الموقع الثاني بركب الدبلوماسية الليبية، وأسقط في أيديهم.

أما الحوادث التي تقاسمتها معه فهي عديدة، سأسوق منها مختارات وأذكر شهودها وأماكنها.

الأولى: قرر معمرالقذافي الانسحاب من الجامعة العربية، بسبب غضبة ألمت به من العرب، عقدنا إجتماعاً واسعاً بمكتب الاتصال باللجان الثورية، حضر عدد من المعنيين بالعمل الخارجي، أذكر من بينهم مصطفى الزايدي، سليمان الشحومي، محمد أحمد الشريف، محمد المجذوب. أثرتُ موضوعاً حدثني عنه الدكتور مفتاح الأسطى عمر رئيس هيئة الطفولة، وأمين عام جائزة القذافي لحقوق الإنسان، قال الدكتور مفتاح أن أحمد بن بلا، وكذلك جورج حاوي زعيم الحزب الشيوعي اللبناني، أشتكيا له من أن مكتب اللجان الثورية يرسل لهم شباباً صغاراً لنقل رسائل عن أمور هامة وحساسة، أيضاً أن ليبيا، تتخذ قرارات على المستوى العربي والدولي، دون إستشارتهما، ثم يطلب منهما الدفاع عن تلك القرارات، وأقترحت أن يكلف شخص من الذين يعرفونهما ومن كبار السن بالإتصال بهما، وكذلك إطلاعهما مسبقاً على الموضوعات التي نحتاج إلى دور فيها من الشخصيات السياسية العربية المعروفة، وافقني الحاضرون. فجأة، إنفجر سعيد حفيانة في ثورة غضب، وبدأ يهاجمني، بُهت الحاضرون، وظنوا أن سعيد إهتبل تلك المناسبة لمهاجمتي بدافع آخر، قد يكون أسرّه في نفسه.

كان سعيد حفيانة، مساعداً لي عندما كنت أميناً للخارجية، قررنا عقد إجتماعات دورية لأمناء المكاتب الشعبية (السفراء) . بدأنا بسفرائنا بالقارة الأوروبية، إفتتحت الإجتماع، وتحدثت عن المشاكل التي تواجه الخارجية، وأولها القانون رقم (2) للعمل السياسي والقنصلي، الذي أعاد إرسال اللجان الشعبية إلى المكاتب الشعبية (

السفارات)، عن طريق التصعيد من المؤتمرات الشعبية الأساسية، أي إختيار أناس من مختلف المناطق لا علاقة لهم بالعمل الدبلوماسي، ولا خبرة.

كان سعيد حفيانة هو من صاغ هذا القانون عندما كان في منصب المدعي العام بمحكمة الشعب. أثناء حديثي الإفتتاحي في السفراء، قلت أن هذا القانون مخالف لسلطة الشعب، لأن حسب قواعد هذه السلطة، أن كل لجنة شعبية يقابلها مؤتمر شعبي، أيضاً، أن السفارات تتبع الإدارات في الخارجية، وهذه الإدارات لا تدار بلجان شعبية، كذلك فإن أمانة الإتصال الخارجي تدار بلجنة شعبية، إذا، لا يوجد مبرر سياسي أو نظري أو إداري لوجود لجان شعبية بالسفارات. كان سعيد حفيانة حاضراً أثناء حديثي للسفراء، تركت الإجتماع، وطلبت من سعيد حفيانة أن يستمر في إدارته. فوجئت بعد يومين ببشير صالح مدير مكتب العقيد معمر القذافي يتصل بي هاتفياً، طالباً مني الحضور إلى مكتبه بشكل عاجل.

ذهبت إلى مكتبه بباب العزيزية، وجدته متوتراً، بادرني بالقول أن الأخ القائد غاضباً منك، وطلب التحقيق معك، وطردك من الخارجية. سألته لماذا ؟ قال أن سعيد حفيانة، أرسل تقريراً إلى القائد ذكر فيه أنك أثناء حديثك لأمناء المكاتب الشعبية، هاجمت سلطة الشعب وسخرت منها، وقلت أنها عطلت العمل الإداري والسياسي في ليبيا .. إلخ.

قلت له أولاً، أن الأخ سعيد كان حاضراً، وكان بإمكانه أن يعترض فوراً على كلامي، ثانياً، أن الحديث مسجل صوتياً بالكامل وسأرسل لك الكاسيت. بعد عودتي إلى مكتبي، إتصل بي إبراهيم علي من أمانة مؤتمر الشعب العام، وأستفسر عن نفس الموضوع، فقلت له، لقد كنت منذ قليل مع الأخ بشير صالح، وأووضحت له تفاصيل هذا الموضوع، وسأبعث لك نسخة من الكاسيت الذي يحتوي كل الحديث. إستدعيت سعيد، وسألته عن ما قام به، ظل صامتاً ولم يرد.

قام رئيس وزراء النيجر بزيارة إلى ليبيا، وكان القذافي غاضباً من رئيس الوزراء بسبب تصريحات أدلى بها حول العلاقات بين البلدين، كلف سعيد حفيانة بمقابلة رئيس الوزراء، وتوجيه شتائم مقذعة له. ولكي يتقن ما كلف به، قام بإستدعاء رئيس الوزراء إلى مكتبه، رفض الوزير ذلك، واستغرب أن يتجرأ نائب وزير، بالطلب من رئيس وزراء القدوم إلى مكتبه. في النهاية حمل سعيد نفسه مرفوقاً بالشتائم التي كلف بها، وذهب إلى الفندق الذي ينزل به رئيس الوزراء، وألقى على مسامعه المطلوب. غضب الرجل غضباً شديداً، وقرر أن يغادر طرابلس فوراً متوجهاً إلى بلاده، لكن بشير صالح مدير مكتب القذافي تدخل وعالج الأمر.

أوفده معمر القذافي للمشاركة في مؤتمر في المغرب، وأثناء الجلسة الرسمية، هاجم بشدة الملك الحسن الثاني، وصفه بأنه عميل لإسرائيل، وللإمبرالية، يتآمر على العرب، وقضيتهم الأولى فلسطين، قامت السلطات المغربية بطرده من المغرب، على الفور.

كان الرجل استفزازياً إلى درجة الجنون. لا أعتقد أنه نجح في إقامة علاقة سوية حتى مع أفراد عائلته، ومرة قام إبنه بسؤال أحد العاملين معه قائلاً " نحن نتحمله، لأنه أبونا وهذا قضاء وقدر، فكيف تتحملونه أنتم؟".. صدق هذا الأبن الذي يبدو أنه ليس من تلك الشجرة، فهذا الشاب سيء الحظ، رزقه الله بمولود، فأختار له إسماً ولكن والده سعيد، طلب منه أن يعطيه اسم " معمر ". رفض الإبن واتصل بعدد من الأشخاص الذين ارتبطوا بعلاقة عمل وبالطبع ليست علاقة صداقة، وترجاهم أن يتوسطوا لدى والده ليترك له الحرية في تسمية إبنه غير أن سعيداً أصر على ذلك الاسم.

لقد نجح حفيانة أن يكون من أعلام طرابلس، بل ليبيا، يتحدث الناس عنه، كما تحدث السابقون عن ظرفاء بغداد والبصرة، وحمقاها، وأغلب الذين جمعتهم الأيام معه لأي سبب، يتفكهون على نزقه .

قلما يخلو حديث من اسمه وطرائفه عندما يلتقي إثنان ممن يعرفونه.

في الثمانينات من القرن الماضي، كانت باريس كعبة لكل من إبراهيم البشاري، وإبراهيم بجاد، وأحمد قذاف الدم، يتصلون بطيف من السياسيين والإعلاميين ورجال الأعمال الفرنسيين، سعيد كان يعتبر أن باريس مربط خيله، وأن هؤلاء من المتقافزين، المتنطعين على إصطبله، يأتون إلى باريس ويغادرونها دون علم منه، يتسقط أخبار زياراتهم، ويرسلها في برقيات مقفلة إلى وزارة الخارجية الليبية، واثقاً أن تلك البرقيات ستجد طريقها إلى طاولة معمر القذافي الذي لن يغفر لهم ما قاموا به من خبطات وقفزات في نهارات باريس ولياليها. كان يكره البشاري بلا حدود. أما إبجاد فيمنحه بعضاً من التشنيع، ولأحمد قذاف الدم نصيبه من خيرات سعيد. تحدثت معه، ونصحته أن يهتم بعمله كسفير لليبيا، ويدع الخلق للخالق كما يقولون، كعادته لا يواجه في الوجه، أضافني إلى قائمة المغضوب عليهم وبدأ يهاجمني بشدة أينما حلّ ورحل، رغم أنني لست ممن يشدون الرحال إلى باريس إلاّ لماماً.

وسطت بعض الأشخاص، لأشتري صمته، ولكنهم حملوا منه طرداً من الشتائم والشخائم فغضبت، وقررت أن أصادمه.

جاءت الفرصة الذهبية. دعينا إلى اجتماع بقصر الشعب مع الرائد عبدالسلام جلود، دخلتُ إلى مكتب الملازم إسماعيل الكرامي مدير مكتب محمد المجذوب. تجمعنا بمكتب الكرامي ننتظر الصعود إلى مكتب الرائد جلود.

دخل سعيد حفيانة، فصرخت بأعلى صوتي:" نحن لا نقبل أن نجلس مع هذا الـ .... الذي كان يعمل مع منصور المحجوب نهاراً وليلاً، لابد أن يطرد فوراً، وإلاّ فأنا مضطر أن أكشف كل أوراقه. إرتبك الرجل وحاول الحاضرون تهدأتي، ولم يفتح فمه.

إتصل بي مساء نفس اليوم المرحوم موسى زلوم، وقال:" سأمر عليك بمنزلك، وليتني أجد عندك شيء نأكله أنا وصديق معي". رحبت به، وإذا بصديقه هو سعيد حفيانة الذي أخذني بالأحضان، وأطلق الضحكات.

سنة 1982 كان عبدالعاطي العبيدي وزيراً للخارجية، وكنت وزيراً للإعلام، قمنا بزيارة إلى إيران، وفي طريق عودتنا قرر الوقوف بباريس، لأن عبدالعاطي العبيدي له موعد مع وزير خارجية فرنسا –كلود شيسون– نزلنا بمطار شارل ديجول، قبل أن نغادر الطائرة قلت للعبيدي، أنني لن أصافح السفير سعيد حفيانة، وبأسلوبه الهادىء اللبق، ألحّ علي العبيدي، أن أقوم بواجب المجاملة، رغم أن حفيانة شخص لا يستحق أي قدر منها، فالعبيدي نفسه لم يسلم من أحجار حفيانة التي يرميها عشوائياً على الجميع.

عندما وصلنا فندق (البلازا آتيني) قال لي عبدالعاطي:" أريدك في موضوع عاجل"، وأخذني إلى صالون جانبي في ردهة الإستقبال، بدأ يتحدث عن حساسية العلاقة مع فرنسا، وطلب ملاحظاتي حول إجتماعه صباح الغد مع الوزير الفرنسي. قلت له:" يا عبدالعاطي، لقد إخترعت هذا الموضوع الآن، لأن السفارة قد حجزت لك جناحاً ملكياً، وحجزت لي مكاناً يختلف"، إستغرب قائلاً :" من قال لك ذلك"، أقسمت له أن لا أحد، ولكنني أعرف سعيد حفيانة"، رد عبدالعاطي:" أن ما قلته هو الصحيح".

في الصباح، أيقظني هاتف من طرابلس، المتحدث من الجانب الآخر الرائد عبدالسلام جلود، سألني ماذا أفعل بباريس، قلت له أتيت مع عبدالعاطي لأن له موعداً مع كلود شيصون، وزير الخارجية الفرنسي، قال وماذا تفعل فوزية شلابي معكم، قلت له، لقد زارتنا الليلة الماضية رفقة زوجها عبدالرحمن الجعيدي، جلسا معنا لوقت قصير تحدثت خلاله عن كتاب قصير تريد إصداره.

بعد عودة عبدالعاطي العبيدي من إجتماعه مع وزير الخارجية الفرنسي، ولم يأخذ إليه السفير حفيانة، أخبرته عن مكالمة عبدالسلام جلود، وعلق عبدالعاطي ضاحكاً:" عملها صاحبنا".

بعد وصولنا إلى طرابلس، إتصل بي عبد العاطي، وطلب أن أزوره بمكتبه، بمجرد وصولي، قدم لي، برقية سرية جاءت من باريس عندما كنا فيها، ملأت تلك البرقية بكم هائل من التهم والأكاذيب عن عبدالعاطي، ولم يرد إسمي فيها، وإستغرب من هذا التصرف المريض.

عندما عين مدعياً عاماً بمحكمة الشعب الإستثنائية، إتخذ من ذلك المقعد، منصة للتسلط والإبتزاز، يسارع إلى إستدعاء كل من يرد إسمه ولم يرد في أي قضية، يستمتع بإرهاب المحقق معه، ويبالغ في الاستجوابات. ويعقد كل ما هو بسيط. لقد بالغ في تصوير قضية الممرضات البلغاريات التي وجهت لهن تهمة حقن الأطفال الليبيين بالأيدز.

كان حلم الرجل في النوم وفي اليقظة أن تسند إليه حقيبة وزارية، وأعتقد أن المبالغة في المواقف، والتشدد في التعامل، ستزف إليه عطور الرضاء، التي تقربه من كرسي الوزارة.

سعيد حفيانة – بربري– أي أمازيغي، من الجبل الغربي، لم يعامل معمر القذافي الأمازيغ كمواطنين ليبيين، مثلهم مثل بقية أخوتهم أبناء ليبيا، كان يسميهم عرب ما قبل الفتح، أي ما قبل وصول المسلمين إلى ليبيا، ولم يوفر التفسيرات التاريخية والتعبيرات اللغوية التي تؤكد عروبتهم. كان يقول أن كلمة – البربر– أطلقها الرومان عندما كانوا يحتلون شمال افريقيا على القوم الذين جاءوا من – بر – الجزيرة العربية إلى – بر– شمال أفريقيا. كان القذافي يكرر دائماً أن البربر، أو الأمازيغ هم من آل حمير الذين عاشوا باليمن، وقام بالمستحيل لإثبات ذلك. وظف الدين أيضاً لإثبات

عروبـة الأمـازيغ الـذين يعتنقـون المـذهب الأباضـي. وبمـا أن قطاعـاً كبيـراً مـن سـكان مسقط وعمـان يعتنقـون نفس المـذهب فقد عمـل القذافي أن يعطـي هذا المعتقد الديني بعـداً عرقيـاً. أن وحـدة المعتقـد تعنـي وحـدة الـدم والأصـل، وعمـل بكـل قـوة لتوثيـق الصـلات بـين الطـرفين. وعنـدما أقيمـت العلاقـات الدبلوماسـية بـين ليبيـا وعمـان أصـر معمر القذافي أن يكون سفيرنا هناك أمازيغياً أباضياً.

تمكن معمـر القذافي مـن فـك شـفرة سـعيد حفيانـة، وحـاول إسـتخدامه إلـى أقصـى مدى، لكنني أظن، أن سعيد بقيت له شفرة داخلية، لم يستطـع فكّها، فأصبح ضحيتها، كلما أقترب منها إنتفضتْ فأنتفض هو.

كانت بدايته في الحياة، مبللة بشظف العيش، وصـلابة الطبيعـة، وعنـدما قفز من جبال نفوسه نحو طرابلس وبنغازي، لم تمد له الحياة كفاً، لامسته بأفق صلب، غاص في عمل، يكرر فيه غيره، طبّاع في دائرة حكومية.

أراد أن يرتقي في مرتفعات الحياة، فكان الطريق عبر الشيخ منصـور المحجوب. ومن المحجوب إلى المجذوب آمر مكتب الاتصـال باللجان الثوريـة. بعدما عبـر جسـر أحمـد الشـحاتي، الـذي كـان يـؤذن مـن فـوق منـارات العروبـة والثـورة، ليعـود إلـى فرنسـا سـفيراً بعـد أن عـاش بهـا وعايشـها طالبـاً. لـم يأخـذ ورقـة شـهادة الـدكتوراه، فقـرر أن يمنحها لنفسه، بجهد بسيط، وهو يضعها قبل إسمه الذي يذيل بها مذكراته وتقاريره.

وجد نفسـه فـي حفرة ممتلئـة بـالطين والـوهم. فقد وضـع نفسـه فيهـا مرغمـاً، صـنف نفسـه مـن بـين الأمـازيغ القـائلين بعروبـة هـذا الجمـع مـن الشـعب الليبـي، هـذه الهويـة، تعطيـه مكانـاً وهـو وسـط المكاتـب الثوريـة والحكوميـة فـي طـرابلس، لكنهـا تحرمـه مـن مكانـة إجتماعيـة، مجـرد أن يرتفـع فـي طريـق جبـل نفوسـه المتعرجـة. تحـول إلـى كـائن من الأعصاب والغضب والإحباط، أزدوج كل شيء فيه، وبدأ بندول الذات لا يتوقف.

يتحرك بين الشيخ منصور المحجوب، والضابط محمد المجذوب. يتنقل بين العربي في طرابلس، والأمازيغي في جبل نفوسه. لم يصل إلى مقعد الوزارة، ولم يترجل عن ملاحقة إرتفاعات الزعامة في الجبل. لم يجد نفسه في طرابلس ولم يجد أهله في جبل نفوسه.

إستعمله معول الصراعات الجهوية والقبلية، الذي حمله عمر إشكال وخليفة إحنيش. يقول له القذافي، أن الأمازيغ عرب، قبل أن يأتي العرب إلى ليبيا، ولكن ليس من حقهم إستعمال لغتهم التي قال عنها الباحث المؤرخ الغوي الفيلسوف الراحل علي فهمي خشيم، أنها لغة عربية، ولكن لم يسمح بإستعمالها إلا في البيوت. هم عرب ما قبل العرب، لكن ليس من حقهم إطلاق أسماء أجدادهم على أولادهم.

يكرر بمناسبة أو بدونها أنه عربي، وأمه تسمى – عربية – لكن هذه الهوية تتلاشى عندما تتحرك بين الفؤاد واللسان.

لا أعرف ما هو الدور الذي أنيط به بعد تفجّر ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير. لكنه لم يستعمل في جوقة الأصوات التي قرعت طبول السلفية القومية العربية. لم يظهر على شاشات التلفزيون الليبي الرسمي ينظم الشتائم للثوار، ويهتف بالويل والثبور لحلف الناتو الإمبريالي الصليبي، الذي يهدف إلى تدمير قلعة الثورة والعروبة. هل تواصل الفؤاد واللسان ؟ أم أن سعيد حفيانة إكتشف ما في الحفرة التي ألقته الأقدار بها ؟ هل خرج ؟ هل يخرج ؟ لقد إندفع الأمازيغ الليبيون، يحملون السلاح كليبيين، ليحرقوا الغشاوة، التي أطلقت الدخان على التاريخ، وخلطت الدم بالدين والوهم، وفصلت الهويات بمقص المغالطات التاريخية. أتمنى أن يفيق هذا الشخص، الذي ألقت به الأيام في أتون معركة لم يعرف خرائطها، ولم يختر صفوفها. ولكنني واثق أن تتور الأعصاب في داخله لن يكون به ما يشعله من الحطب. مات معمر القذافي.

إبراهيم أبوخزام الحسناوي

إبراهيم أبوخزام أَلْحسنْاَوِي

إبراهيم أبوخزام، ضحيّة، مات بأكثر من أداة، ونهض بأكثر من معجزة واحدة، ينتمي إلى قبيلة الحساونة، التي تسكن مدينة الشاطيء، بالجنوب الليبي. درس بكلية الحقوق، وتخرج منها ووجد الطريق كغيره من الليبيين إلى الدراسات العليا، ليحصل على الماجستير ومن بعدها درجة الدكتوراة، لا أعرف من أين حصل على الدرجتين الأخيرتين، كل ما أعرفه، أنه يكتب كلمة – الدكتور – قبل إسمه. في العشرين سنة الأخيرة، صار آلاف من الليبيين يحملون لقب الدكتور، حصل بعضهم عليه من السودان، أو من المغرب، لكن أغلبهم إشتروا ذلك اللقب من دول أوروبا الشرقية بعد إنهيار الأنظمة الشيوعية بها. أحد هؤلاء الحاصلين على كلمة الدكتور من أوروبا الشرقية، تقدم إلى أحد الجامعات الليبية لتدريس مادة القانون، وبعد الإطلاع على دكتوراهه، تبين أنها في مادة الجغرافيا، طلب منه أن يحضر الرسالة أو الأطروحة التي نال بها ذلك اللقب في الجغرافيا، تبين، أن دكتوراً قد سبقه إلى جامعة ليبية أخرى، وقدم نفس الأطروحة، وبعد التحقيق تبين أن هناك شخصاً عراقياً يقيم بإحدى دول أوروبا الشرقية، يبيع تلك الأطروحات المنسوخة لليبيين وغيرهم.

للأمانة، أنا لا أعرف متى حصل إبراهيم أبوخزام على هذه الدرجة، ومتى، وأين. على كلٍ هذا ليس من محاور هذا الفصل. رغم أننا من نفس المنطقة، أي من جنوب ليبيا، فلم أتعرف على إبراهيم أبوخزام إلاّ بعد ما صعد في الدرجات الوظيفية. كان شاباً هادئاً وودوداً. منذ أول لقاء به، أحسست بإرتياح نحوه، فهو يعرف أخوتي، بالإضافة إلى كوننا من منطقة واحدة، وأكتشفت مباشرة، إهتماماته العلمية، والموضوعية في حديثه.

صعد بسرعة في سلم العمل السياسي، كانت أمانة مؤتمر الشعب العام، هي الجسم الأعلى سياسياً في البلاد، تولى هو وظيفة الأمين المساعد، أي الرجل الثاني في ذلك الجسم، بحكم تكوينه القانوني، تولى متابعة صياغة القوانين التي يصدرها مؤتمر الشعب العام، بالإضافة إلى إشرافه على إعداد جدول أعمال المؤتمرات الشعبية الأساسية.

بحكم شخصيته البسيطة الهادئة، إقترب منه الناس، وتداعى إلى مكتبه الموظفون والمثقفون وأساتذة الجامعات وكذلك المواطنون.

من ذلك المكان، إستطاع أن يجد له مكاناً وإسماً في ذلك الوسط السياسي، أقصد وسط العمل الشعبي. أعتاد أغلب كبار المسئولين الليبيين أن يقضوا جلّ وقتهم في الاجتماعات، يتزاورون في المكاتب، فلم تكن في ليبيا حياة إجتماعية، أو صالونات سياسية أو ثقافية، المحفلان الوحيدان اللذان يلتقي فيهما الليبيون هما الأفراح والمآتم. يتجمع الناس فيهما، بعيداً عن التراتبيات الوظيفية، يجلس من يمكن أن نسميهم بعلية القوم مع أناس من العامة، يتناولون البازين أو الكسكسي أو الأرز في أطباق واسعة يتحلق حولها خمسة أشخاص، ويأكلون ما أستطاعوا من كتل اللحم المكدسة.

فالليبيون يعبرون عن أفراحهم بأكل اللحم، ويعبرون عن أحزانهم بنفس الطريقة أقصد أكل اللحوم.

كانت المكاتب الحكومية مساحة يجد فيها المسئولون الوقت للتزاور والحديث كما قلت. الجلوس على طاولة المكتب ودراسة الملفات، أو كتابة المذكرات مهمة ثقيلة تترك لمن هو أدنى. كانت الإدارة إلى حد كبير شفهية.

أظهر إبراهيم أبوخزام مبكراً أنه شخصية مختلفة وأن له القدرة على الجلوس مطولاً على مكتبه، وصياغة المذكرات، بل وتقديم أفكار حول القضايا التي تحتاج

إلى طرحها على المؤتمرات الشعبية، أو تفصيل وصياغة النقاط التي يأمر بها العقيد معمر القذافي. هكذا شق طريقه، أو أثبت وجوده، فأنهالت عليه التكليفات، وبخلفيته القانونية، وصبره على الجلوس خلف مكتبه، توجهت إليه الأنظار والتكليفات أيضاً.

كان الرائد عبد السلام جلود، هو الرجل الثاني في الدولة بعد معمر القذافي، يتابع الأمور اليومية، ويلجأ إليه الوزراء، ورؤساء المؤسسات والشركات والمصارف، لمناقشة الأمور الهامة. وكثيراً ما كان عبدالسلام جلود، هو من يقوم بإستدعائهم. إمتلك أبوخزام قدرة في عرض القضايا، ومهارة في صياغتها، وإقتراح معالجتها وإيجاد حلول تريح جلود ومعه القذافي، أو بالأحرى لا تصطدم مع مزاجهما.

مثل هذا الوضع، في ظروف ليبيا آنذاك، يجعل المبادر، والقادر على تحقيق مثل ذلك الجهد بين تيارين ولا نقول بين نارين:

التيار الأول، الذي يزجى له المزيد من المهام والإهتمام، ويقربه من الدائرة الأولى، ويجعله الحاضر دائماً، أو لنقل غالباً، في الاجتماعات التي يفترض أن يكون لها نتائج، أو أفكار تصاغ على الورق، لكي ترفع إلى القيادة.

الثاني، وهو ذلك التيار الذي يرى أن هناك دائرة محجوزة له حصرياً، ويرى أن كل من يدخلها، إرتكب مخالفة – التسلسل– بالتعبير الرياضي، ولابد من نفخ صافرة الحكم في وجهه، ورفع الورقة الصفراء عليه، وأحياناً حتى الحمراء. أولئك الذين وضعوا أنفسهم، في وظيفة الحكم، لهم أكثر من منبع وأكثر من دافع. فالعناصر التي قامت بأعمال العنف المختلفة من اللجان الثورية، يرون في الذين لم يقوموا بمثل تلك الأعمال، مجرد متنطعين، ومتسللين ولا يحق لهم أن يدخلوا دائرة التعامل المباشر مع القيادة أو حتى الإقتراب من الأوراق التي ستجد طريقها إليها، لأن ذلك سيرشدهم إلى إعتلاء مراكز يرى هؤلاء الثوريون، أنها من حقهم وحدهم.

ويضم هذا التيار الممانع العناصر القبلية، أقصد أولئك الذين يرون أن هناك حصة أو كما يقال – كوتا– لكل قبيلة، وأن بروز عنصر من قبيلة ما، سيضع عوائقاً أمام أبناء عمومته من نفس القبيلة ليتبوأ منصباً سامياً في الدولة، وخاصة مناصب الأمناء أي الوزراء. فمثلاً، شهدت قبيلة ورفلة، تسابقاً وتنافساً داخلياً بين عناصرها. من المنطقي – كما يرى هؤلاء– أن لا تصطاد أي قبيلة أكثر من وزيرين في الحكومة الواحدة، وهذا يعني حرمان آخرين يرون في أنفسهم الكفاءة، للوصول إلى موقع الوزير. فقد كان المهندس معتوق محمد معتوق الورفلي، وزيراً دائماً، وقد رافقه أحياناً المهندس عمران بوكراع من نفس القبيلة في تولي مؤسسة الكهرباء على مدى أكثر من عقدين. سبب ذلك غضب عناصر أخرى من نفس القبيلة. فالدكتور صالح إبراهيم، وهو من أشد المتشددين في حركة اللجان الثورية، تولى رئاسة المحكمة الثورية، وأصدر أحكاماً بالإعدام على أشخاص كثيرين. وحصل على الدكتوراه من أوروبا الشرقية، كان يعتقد إعتقاداً جازماً، أنه يمتلك جميع المؤهلات، والمواصفات، التي تجعله من الأوائل الذين لهم الحق في الجلوس على كرسي الوزارة.

العائق الوحيد– كما يعتقد– هو وجود إثنين من قبيلته في ذلك الكيان السامي. ظهرت نفس الأعراض، مبكراً، على شاب ينتمي إلى نفس القبيلة هو فرج ميلاد، الذي عمل لفترة قصيرة، نائب وزير الخارجية للاستثمار.

هناك أيضاً أبعاد جهوية تفعل نفس الفعل، فبالإضافة إلى ما نظر إليه، كمحاصصة قبلية، رأت عناصر أخرى، أن وجود وزارء ينتمون إلى نفس مناطقهم، تحول دون وصولهم إلى كرسي الوزارة، رغم إمتلاكهم مؤهلات الوصول المستحق.

كان إبراهيم أبوخزام هدفاً لكل تلك التيارات، بل إن حجارة، وأستطيع أن أقول سهاماً، وجهت إليه من أطراف أخرى ولأسباب أخرى أيضاً، حين انتقل من أمانة مؤتمر الشعب العام إلى وزارة التعليم العالي.

أثناء عمله أميناً مساعداً لأمانة مؤتمر الشعب العام، نجح أبوخزام في تقديم نفسه لشرائح متنوعة من الليبيين، مثلما نجح في تقديم نفسه للقيادة. تواصل مع المثقفين، والأكاديميين، وكذلك الفعاليات الإجتماعية بمختلف مناطق ليبيا، ولم يتوقف عن ممارسة دوره الأكاديمي التعليمي، والتعاطي مع الكتابة في الشئون السياسية والفكرية، وركز على أفكار معمر القذافي، كما نشرها في الكتاب الأخضر، وخاصة الجانب السياسي. كان من الوجوه الجديدة الشابة التي تتبوأ موقعاً بارزاً في أمانة مؤتمر الشعب العام، وأستطاع أن يقيم توازناً في علاقاته، مثلما نجح في أن يحقق توازناً في إهتماماته.

إقترب إبراهيم أبوخزام أكثر فأكثر من الرائد عبدالسلام جلود، الذي رأى فيه جوانباً شدته إليه، فبحكم كونه الرجل الثاني في النظام، يتابع تفاصيل العمل اليومي لأمانة مؤتمر الشعب العام، واللجنة الشعبية العامة (مجلس الوزراء)، ويوجه مكتب الاتصال باللجان الثورية، وجد الرائد جلود في أبوخزام، الشخص الذي يستطيع مساعدته في ذلك الخضم المتنوع والمتداخل. ينتمي جلود إلى قبيلة المقارحة، في حين ينتمي إبراهيم أبوخزام إلى قبيلة الحساونة، تقطن القبيلتان، بمنطقة الشاطيء بالجنوب الليبي، حدث أكثر من إحتكاك بين القبيلتين، لكن عبدالسلام جلود، لم يكن من الذين يحملون رواسب القبيلة في داخلهم، كان يقف على مسافة واحدة من كل الليبيين، وقد دفع أبوخزام ثمن هذا التقارب مع جلود، بقدر ما جنى منه. لقد فسّر بعض الثوريين والقبليين هذا التقارب، على أنه ترتيب لإقامة تحالف أو على الاقل تفاهم بين القبيلتين، شن أحمد إبراهيم القذافي، هجوماً على إبراهيم أبوخزام، وصل إلى حد وصفه، بالمتآمر، ولم ير العقيد خليفة إحنيش، مهندس المؤامرات والفرقة بين القبائل الليبية، لم ير في ذلك التقارب، سوى مخطط للإخلال بالتوازنات الاجتماعية في الجنوب الليبي.

إنقسمت قبيلة القذاذفة بين منطقة سرت في وسط ليبيا، وسبها في الجنوب. وقام تحاف برغماتي بين قبيلة المقارحة والقذاذفة. لم يكن جلود من المهندسين لـه، أو حتى المهتمين بـه، وأستخدمت قبيلـة الحساونة فـي أحيـان كثيرة كعنصـر تـوازن إجتمـاعي. هكذا وجد إبراهيم أبوخزام نفسـه، فـي خضـم تيـارات لـم يكـن لـه القدرة علـى مواجهتها دفعة واحدة.

إختيـر إبـراهيم بعـد ذلـك، وزيـراً للتعلـيم العـالي، لا أعـرف مـن كـان وراء هـذا الإختيار، قد يكون للرائد عبدالسلام جلود دور ما في ذلك. وهذا الموقع، أعني وزير التعليم العالي، تتقاطع عنده حساسيات تصل إلى حد لا يوصف من التداخل والتعقيد.

التعليم العالي، يعني الجامعات والمعاهد العليا، هذه الأجسام، كان النظام ينظر إليها كبراكين مرشحة للإنفجار في أي لحظـة، لقد أستطاع معمر القذافي، أن يفكك الجيش النظامي، ويبطل إحتمال أي خطر منه على النظام. ولم يعد بالبلاد تنظيمات سرية ترتقي إلى مستوى التهديد للنظام. الخطر الوحيد الذي ظل ماثلاً هو هذا الخزان البشري، الذي لا يمكن التحكم فيه وهو – طلاب الجامعات.

طبعـاً إسـتعمل النظـام كـل أنـواع القمـع ضـد الطـلاب، إبتـداءاً مـن الطـرد مـن الجامعة وإنتهـاءً بالإعدام. وكانت المهمة الأساسية للجان الثورية هي السيطرة علـى الجامعات عبر الترهيب والترغيب، ولم يستثن سلاح القبائل، والمصالح، فقد أستعمل إلى أبعد حد من أجل تفكيك أطراف ذلك الكيان البشري المخيف.

الجامعة الليبية، كانت أيضاً مساحة للأمن الليبي، الأمن الداخلي، وكذلك الأمن الخـارجي، عناصره، نُصِبّت في مدرجات الطلبـة، وكراسـي الأسـاتذة، وكاتـب مسجلي الكليات. الجامعات حلبات للمتابعة وللصراع أيضاً.

التعليم العالي، أي الجامعات والمعاهد، ميادين لصرف الأموال، تموين الطلبة، وإقامـة المبـاني الجديـدة، وصـيانة القـديم منهـا، والبعثـات الطلابيـة إلـى الخـارج،

والاجازات العلمية للاساتذة، كل ذلك شكل مصدراً، دافقاً للأموال. وهناك كان الصراع والصدام أيضاً.

هكذا أضيفت إلى نار أبوخزام كمية أخرى من الحطب. شنت عليه هذه المرة هجمات بأسلحة جديدة، أتهم بأنه (حَسْوَنَ) التعليم العالي، نسبة إلى قبيلته، أي أنه فتح الوظائف أمام أقاربه، ومكنهم من الإستيلاء المباشر أو غير المباشر على أموال هذه الوزارة.

تواصلت القذائف من جهات شتى، وكانت لها شظايا، تحمّل الرجل كل ذلك بصبر عجيب غريب. واصل نشاطه السياسي، والوظيفي، والعلمي والفكري.

أعتقد تلك الزخّات من الحجم الثقيل، تركت ندوباً داخلية عميقة في أعماق إبراهيم أبوخزام، تركت آثارها في داخله، ولكنها بدأت تظهر أعراضاً سياسية وسلوكية عليه، مثلما يعبر الطفح الجلدي عن مرض ما في داخل الجسم.

كانت تجربته في أمانة مؤتمر الشعب العام، هي التمرين الأساسي الأول، في مواجهة زخات التحرشات السياسية المركبة، أتت من حيث يدري ولا يدري. ودخل إلى عش الدبابير عندما تولى أمانة – وزارة – التعليم العالي، التي كانت بالنسبة للنظام مجمع أعصاب وأوردة وشرايين، أمنية وسياسية ومالية.

حاول أبوخزام أن يرتق الفتق الذي طال في وزارة التعليم، فقد توقف إيفاد الطلبة الليبيين لمواصلة الدراسات العليا في الخارج، إقتصر الإيفاد على الطلبة المختارين من اللجان الثورية، أوفد هؤلاء إلى الخارج تحت اسم "المتربصين". أي أولئك العناصر التي أنيط بها مهمة نشر أفكار الكتاب الأخضر في العالم، وتنظيم من يؤمن بهذه الأفكار في لجان ثورية، تكون مهمتها تغيير الأنظمة في بلادها إلى النموذج الجماهيري، على غرار ما هو قائم في ليبيا. طبعاً، كان القائمون على إيفاد

هؤلاء "المتربصين"، أول من يعلم، أن تلك سياسة لا مردود لها، وأن الشيء الذي يمكن تحقيقه منها هو إرسال الأقارب، وتحقيق ما يمكن تحقيقه من المنافع المادية.

إن الدفع بتوجه مغاير في تلك السياسة، يعني الدخول في حرب معلنة وعاتية مع من كان يقود سياسة – التربص– والمستفيد منها وعلى رأسهم أحمد إبراهيم منصور القذافي، وصالح إبراهيم الورفلي. تولى عبدالسلام جلود مهمة الدفاع عن التوجه الجديد والبديل لسياسة التربص، وتولى أيضاً الدفاع عن إبراهيم أبوخزام شخصياً، بل لم يقف جلود عند هذا الحد، وقام بتوفير الأموال التي طلبها أبوخزام لتغطية منح الطلبة في الخارج، ومصاريف دراستهم في مختلف جامعات العالم. لقد كسبت ليبيا الكثير من هذه السياسة، خاصة وأن معايير الإيفاد لم تعد نفسها، فقد تخلصت من شرط، الإنضمام الفعلي والعملي لحركة اللجان الثورية.

لقد شعر إبراهيم أبوخزام بخطورة الوضع الذي هو فيه، وأنه تجاوز كل الخطوط، ليس بعلاقته بالرائد جلود فقط، ولكن بقلب معادلة الإيفاد للدراسات العليا بالخارج، ومحاولته إعادة تنظيم الدراسة بالجامعات، وتعديل المناهج، ووضع ضوابط مدروسة لإختيار الأساتذة، ورفع مرتباتهم، وكذلك مراجعة عدد الجامعات، حاول أن يقوم بعملية إصلاح شامل في الجامعات. قال لي إبراهيم أبوخزام، أن معمر القذافي إستدعاه مرة وقال له :" شن تلبظ.. من قال لك أننا نريد إصلاح الجامعات وتغيير المناهج، وكل هذا الذي تعمله غلط"، وأضاف القذافي:" المفروض أن تكون شجاعاً وتغلق هذه الخرابات التي تسمى جامعات انها الخطر على الثورة، دع كل شيء كما هو".

آراء القذافي في التعليم معروفة، بالنسبة للتعليم الابتدائي، قال يجب أن يكون في المنازل، وما فوق الإبتدائي يكون تعليماً تشاركياً، أما الجامعات فلا ضرورة لها، لأنها قيد على الإبداع والعقل، وتسلط وتحكم في العقول، واستشهد بالتاريخ قائلاً، هل درس جابر بن حيان الذي أخترع علم الجبر وسمى باسمه، في جامعة؟ وهل درس

العالم – بن سينا– الطب، الذي سمي باسمه، Medicine، كما فسره معمر، هل درس في كلية من كليات الطب ؟!

تحولت الحبال التي كانت تتراقص أمام أبوخزام إلى شباك بعد تلك المقابلة مع القذافي، شعر أن الجبهة الجديدة أخطر بكثير من كل الجبهات السابقة، المواجهة هذه المرة مباشرة، ومع قائدها.

بعد هذه الموقعة، التي توجت مواقع كثيرة سابقة، لم يعد أبوخزام يبحث عن برج بل أصبح يبحث عن خندق، يحتمي في أحشائه من العواصف والقذائف، وكان الكتاب الأخضر هو ذلك الخندق الذي إندفع إليه. لقد تعاطى في السابق من خلال بعض الكتب، والمقالات، والندوات، والمؤتمرات المحلية والدولية، تعاطى مع الكتاب الأخضر، ولكن شعر الآن أن عليه أن يكون أكثر مباشرة وغزارة. ومثلما فعل أحمد إبراهيم فيما بعد فعل إبراهيم قبله. عندما شعر أحمد إبراهيم منصور القذافي، بسبب معارضته لتوريث سيف الإسلام، شعر بخطورة حقيقية على حياته، أنشأ جمعية أصدقاء الكتاب الأخضر، حملها معه إلى سرت، ونام في حضنها، علها تحميه من غضب سيف الإسلام معمر القذافي، ومكائد عبدالله السنوسي.

بعد دخوله في ذلك الخندق، إنشق إبراهيم أبوخزام إلى نصفين، النصف الظاهر، الذي يعبر عن نفسه عبر صفحات الكتب، ومنصات الكلمات والندوات والمؤتمرات والمحاضرات، والنصف الباطن، الذي يتألق، يحلل ويتفلسف في الجلسات " الأخوانية " الحميمة. وكأن النصف الباطن يكفر ليلاً عن ما يقوله النصف الظاهر صباحاً، مع بعض الاعتبارات، تمليها طبيعة الأشخاص الذين يجلس بينهم.

كان – الدكتور – الأستاذ – رجل القانون والسياسة والفكر، يقول صباحاً، أن سلطة الشعب كما جاءت في الفصل الأول من الكتاب الأخضر، هي الديمقراطية الحقيقية. ويؤلف في ذلك الكتب ويلقي المحاضرات، ويشارك في الندوات. ويسهب

كتابياً، وشفهياً في ذلك، ويسوق الأدلة الفقهية، الدستورية، ويورد الشواهد التاريخية، والواقعية التي يرى أنها تؤكد صحة ما ذهب إليه.

الف عدداً من الكتب، بينها (لماذا التمثيل تدجيل) تحليل سياسي وقانوني لمقولة التمثيل تدجيل.

وعندما يعود إلى نصفه الباطن الحقيقي، يتحول إلى المثقف العميق، يحلل النظام الليبي. ويغوص، في أعماق آلياته ويتوجه مباشرة إلى ما يهدف إليه العقيد معمر القذافي، والأدوار الموزعة على مفاصل النظام وأركانه. له كما قلت قدرة خاصة على قراءة المعادلات الإقتصادية والسياسية والاجتماعية للنظام. يصل دائماً في في خاتمة كل تحليل إلى محطة اليأس. لماذا ؟ يرى إبراهيم، إن قوة النظام، التي تجعله يستمر في الحياة والوجود، هي، تخريب ما يمكن تخريبه، بل تدمير ما لا ضرورة لتدميره، ويقدم البراهين على ذلك بأسلوب سلس وشيق.

كان يقول في الجلسات الحميمة والضيقة، أن ليبيا أضحت مثل السيارة الخردة، التي لا شيء يعمل فيها إلاّ المنبه. أي تآكل جسدها بالكامل ولمّ يبقَ إلاّ الفم الذي لا يصلح للكلام وإنما للصراخ، ويضيف أن هذه – الخردة – لا يمكن إصلاحها، والحل أن نبيعها وأن نشتري غيرها، يعني تغيير النظام. وإذا سألته، ولكنك تقول أن النظام جماهيري، وسلطة الشعب هي تعبير عن فكر سياسي صحيح ؟!

يجيبك الدكتور، هذا صحيح، ولكن معمر القذافي لا يقبل تطبيق أفكاره على أرض الواقع، فالمؤتمرات الشعبية فاقدة للمضمون الذي صوره أو طرحه القذافي في الكتاب الأخضر.

يعرض كل تلك الأفكار مدعومة بوقائع وحالات محددة ومعروفة.

عين إبراهيم أبوخزام بعد ذلك سفيراً في بغداد، وهناك إنخرط في بيئة سياسية وإجتماعية أخرى، لكنها فيها الكثير مما تركه وراءه في ليبيا، قائد واحد، تدور حوله الحياة والناس. يختزل الوطن، شعارات قومية، من الوحدة العربية، إلى تحرير فلسطين، والامبريالية، والمخططات التي تستهدف الأمة.

كان محمد سعيد الصحاف زميلاً لي بإيطاليا، كنا سفيرين في وقت كانت العلاقات الليبية العراقية في أسوأ حالات السوء، لكن رغم ذلك قامت بيننا علاقات ودية. عندما ذهب إبراهيم أبوخزام إلى العراق سفير، وجد الصحاف وزير دولة للخارجية، ساعدته علاقتي به في دخول أبواب وزارة الخارجية العراقية بسهولة، كما دخل أيضاً أبواب الجامعات والمعاهد العليا في بغداد حيث ألقى المحاضرات وشارك في الندوات.

بعدما بدأت الولايات المتحدة تعد العدة لغزو العراق سنة 2003، أرسل أبوخزام تقارير سرية، تؤكد، أن أمريكا لن تجد أي مقاومة عراقية، وإن العراقيين سيستقبلون القوات الغازية بالورود والعطور وزغاريد النساء، لأنهم سئموا نظام صدام حسين وحزبه وقمعه. أستقبلت تلك التقارير الواردة منه بغضب شديد. اعتبرها العقيد معمر القذافي، تعبيراً عن الإسقاط على ما يجري في ليبيا. بعد بداية الهجوم الأمريكي على العراق، طلب منه أن يبقى في بغداد، لكنه لم ينصع لهذا الأمر، وعاد إلى طرابلس. في ذلك الوقت كانت الشئون الخارجية في ليبيا، مقسمة بين وزارتين، أو كما كانتا تسمى، إلى أمانتين. أمانة الاتصال الخارجي والتعاون الدولي أي وزارة الخارجية، التي كنت أتولاها، وأمانة الوحدة الافريقية، التي كان يتولاها علي عبدالسلام التريكي، وكانت السفارات الليبية بالدول العربية، تتبع أمانة الوحدة الأفريقية. لم يكن علي التريكي يحمل وداً لإبراهيم أبوخزام، فوصف عودته من بغداد إلى طرابلس بالهروب، ووصفه بالجبان. وكان قبلها قد ساهم في تفسير برقيات إبراهيم السرية، التي كانت تتنبأ باستقبال وردي حافل للقوات الأمريكية الغازية.

وصل إذاً، إبراهيم إلى طرابلس ليجد نصالاً أخرى، جديدة، أكثر شدة. حمل معه من بغداد بعضاً من إرث المتنبي:

رمانـي الدهرُ بـالأرزاءِ حتـى

فـؤادي فـي غشـاءٍ مـن نبـالِ

فصرتُ إذا أصابتنـي سهـامُ

تكسرت النصالُ علـى النصالِ

أضيفت نصالُ العراق إلى تلك التي أصابت فؤاده من موقعه مؤتمر الشعب العام، وموقعه التعليم العالي، وها هي نصالُ بغداد تتكسر على نصال طرابلس.

تحولت النبال والنصال إلى مخاريق نارية تحرق الدكتور المفكر السفير، وزادها هو أيضاً سيوفاً وخناجر.

كانت قضية الغزو الأمريكي للعراق حديث الناس في ليبيا، مثلما هي حديث كل العرب، بل وكل الدنيا، وأينما حل الدكتور المفكر، السفير، كان الجميع يتسابق على طرح الأسئلة عليه، ويلحون في طلب الرؤية وإستقراء المستقبل. كان هو يقول ويعيد، أن الأمر لن يتجاوز الأيام ويسيطر الجيش الأمريكي على كل شبر من العراق، لأن الشعب متلهف على وصول هذا الجيش المنقذ، الذي سيقابله جيش عراقي منهك ومحبط بعد حروب استمرت سنوات طويلة.

بدأت النبال تتزايد بداخله مع مرور كل يوم على تلك الحرب. فقد طالت أضعاف أضعاف أضعاف ما قال إبراهيم في برقياته السرية، وتحليلاته الإستراتيجية. كان علي التريكي آنذاك رئيساً دورياً لوزراء الخارجية العرب، وقد أقام عكاظية مشهودة عندما تحدث أمام الوزراء العرب، منددا بالغزو الأمريكي، واعداً بنصر

عراقي قريب وكاسح على الغزاة الامبرياليين. وأتخذت الحكومة الليبية موقفاً مؤيداً للعراق، ومضاداً بقوة للغزو الأمريكي.

لقد فقد الدكتور من قبل وظيفة الوزير، ثم فقد الدكتور المثقف وظيفة السفير، وها هو الآن يفقد صفة المفكر والمحلل والثوري أيضاً. فقد كذبت الوقائع ما ذهب إليه بشأن العراق. هو الآن بلا عمل، بلا هوية، بلا تعاطف.

عاد الرجل مرة أخرى يحتمي بخندقه القديم– فكر الكتاب الأخضر– فأنهمك يؤلف، ويحاضر..

كانت النبال والنصال أطول من الأقلام، والغضب أكبر من أوراق الكتب. وضاقت بإبراهيم الأرض، وفقد توازنه.

لم يحتمل وجوده داخل حفرة الخندق – الكتاب الأخضر – عمل المستحيل في سبيل الخروج، وسط أحد أبناء قبيلته ليوصله إلى أحمد إبراهيم القذافي، بسرت، ألقى عليه أحمد محاضرة طويلة، وعاد أبوخزام إلى طرابلس، لا يحمل وعداً محدداً بالحصول على منصب جديد. إنتظر بعض الوقت، عين بعد ذلك رئيساً لجامعة ناصر الأممية بطرابلس.

كنا قد أعدنا المعهد الدبلوماسي بوزارة الخارجية الليبي، إنتدبناه مديراً غير متفرغ للمعهد.

في دورة الجمعية العامة 2009، القى معمر القذافي خطابه الطويل أمامها. إستعرض فيه عشرات النقاط، من بينها إصلاح الأمم المتحدة، بداية بإصلاح مجلس الأمن. تم تشكيل لجنة لذلك، وكان من بين أعضائها الدكتور إبراهيم أبوخزام. وقد كان واقعياً وموضوعياً وجاداً.

بعد إنتفاضة الشباب الليبي في 17 فبراير، حشدت وسائل إعلام النظام كل صناع الكلام، تعملق النصف الظاهر من إبراهيم أبوخزام، وطفق يحلل قراري مجلس الأمن 1970، 1973، يدور حولهما، ومعه التعبيرات القانونية والسياسية. قال أن هذين القرارين مخالفان للميثاق، وليس من حق مجلس الأمن أن يتدخل في الشئون الداخلية للدول. وأن ما يحدث في ليبيا، لا يهدد السلم والأمن الدوليين. لم يوفرني أنا أيضاً فعزا موقفي لمجلس الأمن إلى الجانب الثقافي، ولم أفهم بالضبط ماذا قصد بذلك. هل قصد قلة الثقافة أم كثافتها. السبب الثاني حسب تحليل الجانب الظاهر منه، الأصول الاجتماعية، ولم أفهم – أيضاً – ماذا قصد. هل أنني قليل الأصل أو العكس.

بعد قتل القذافي وتحرير ليبيا، هرب أبوخزام، مثل الكثيرين الذين إصطفوا مع القذافي ضد الشعب الليبي، سألت أحد الصحفيين الليبيين ماذا قصد أبوخزام بالحديث عن ثقافتي وأصلي ؟! أجابني الصحفي، قصد أن ثقافتي– رجعية– تقليدية ضد الثورة، أما أصلي، فقد قصد به ماضي والدي الذي تقلد وظائف قيادية في النظام الملكي.

هذه المرة، كانت المكافأة عاجلة، فقد صدر قرار بتعيينه مندوباً للجماهيرية بالأمم المتحدة، ولما لا، وهو الفقيه القانوني، الذي كشف مثالب القرارين الدوليين، اللذين أدانا النظام الليبي لإرتكابه جرائم ضد المدنيين العزل، وقررا إحالة معمر القذافي وإبنه سيف الإسلام وصهره عبدالله السنوسي إلى محكمة الجنايات الدولية، وفرضا منطقة للحظر الجوي لحماية المدنيين. لكن النصف – الظاهر– لم يظهر له أن الأمم المتحدة، عبر مجلس الأمن إعتبرت أن معمر القذافي فقد الشرعية، ولا يمكن أن يكون له ممثلاً في محفل الشرعية الدولية، لم يفهم هذا أيضاً علي عبدالسلام التريكي، الذي عينه القذافي ليكون مندوباً له بالأمم المتحدة، بعدما قرر

النظام فصلي من ذلك المنصب، رغم أن التريكي شغل ذلك الموقع من قبل وترأس الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 2009.

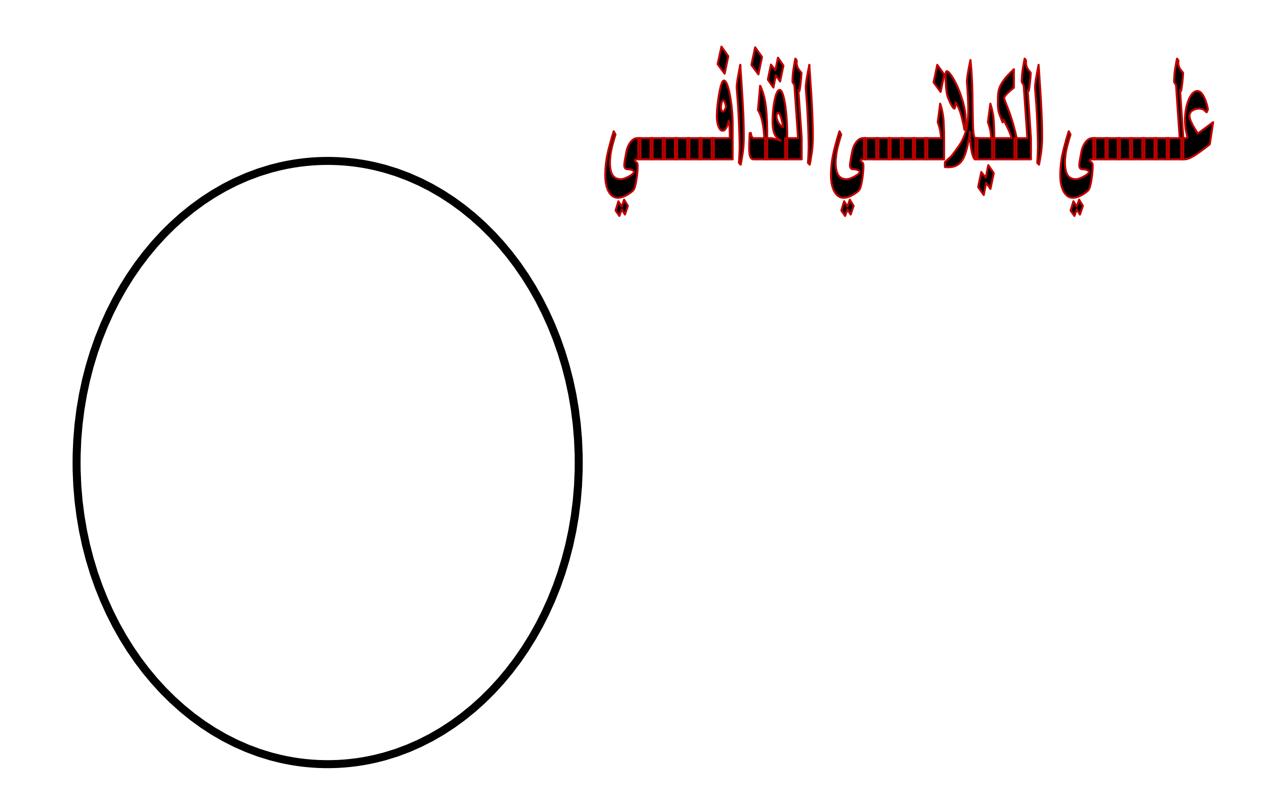
قبيل تحرير طرابلس، هرب إبراهيم أبوخزام وعائلته إلى خارج ليبيا، عندما دخل الثوار إلى منزله، وجدوه مخزناً للسلاح الذي تستعمله الكتائب. كان أستاذ القانون ديدباناً على أدوات قتل الناس المطالبين بالحرية.

كان إبراهيم أبوخزام مشروع أستاذ كبير في القانون، وقد بذل جهداً بحثياً حتى خارج تخصصه الأكاديمي المغلق، كتب في إدارة الأزمات، وفي غيرها من الموضوعات، إمتلك قدرة على التحرير، حاول أن يصلح ما يمكن إصلاحه في الجامعات، كانت الكتلة أكبر من الرافعة، وكانت النبال غشاء الجسد من الداخل والخارج، إنغلق بين ظاهر وباطن، حفرة الخندق أتت على الاثنين. تجرع الرجل الأيام، لم تنحن له، مرّ الزمن، لكنه بقى وراء خشبة الأيام، إعتصر زمن معمر القذافي جسده النحيل، إستعمالاً، وتخويفاً وإبتزازاً.

هرب إبراهيم مما كان يحلم به، ليبيا الجديدة، التي تحل مكان – الخردة – كما كان يسميها، ليبيا السليمة التي تعمل بكل قواها، وليس بفمها فقط، الذي يصرخ ولا يتكلم. هرب إلى نبال أخرى، إذا وجدت مكاناً بين غشاء الفؤاد.. يقال أنه فرّ إلى مصر، وكأن قدره قدر المتنبي، يهرب من العراق إلى ليبيا، إلى مصر. لقى المتنبي كافور الأخشيدي، أمل في ولاية أو إقطاعية، لكنه لم يحصد إلاّ المزيد من السهام والنبال، لقد ركض وراء المواعيد في طرابلس، وسرت، وبغداد، ها هو الآن في مصر، بلا موعد، حتى المواعيد ضاعت، بقى له من المتنبي نصاله، حتى الأماني خالفته في المواعيد عندما جاءت إلى طرابلس، كان قد غادرها كرهاً لا طوعاً.

ومن بعده غادر معمر القذافي الدنيا إلى غير رجعة، عبر حفرة أفقية، هرب إليها مرغماً قبل أن تأتيه نبال الثوار ونصالهم، المنسوجة بغشاء البارود.

علـــي الكيلانـــي القذافـــي



علـي الكيلانـي القذافي

علـي الكيلانـي، ولـد شـاعراً، وعـاش قذافياً سـرتاوياً، أينمـا حـلّ. عـاش بطـرابلس سنوات طويلـة، ضـابطاً، وشـاعراً، متنفذاً، لكنـه ظلَّ يحمل سرت فـي كـل شـيء فيـه. بحكم قربه العائلي، والعملي، من معمر القذافي، إستطاع أن يعيش في أفخم البيوت، ويركب أفخم السيارات، ويتولى مناصب هامة ويرتدي من الملابس أغلاها، كل ذلك لم يقتلـع أوتـاد الخيمـة من أعطافه، وبقـى " النجـع " يصـحبه، يغنـي كـل منهمـا للآخـر يرحلان معاً يكتبان معاً، يرددان أصداء أطـلال متخيلـة، يسقطها علـي الكيلانـي، علـى كل ما بين يديه، وما يلوح له من كائنات الدنيا وأحداثها، مظاهرها، وظواهرها.

عاش علي الكيلاني الطفل في خيام – النجع – بين أخوته وأخواته، وكان النجع هو الكون الذي يرى من حلقته كل شيء. أو لنقل أنـه يسمع من خلالـه كل مـا فـي الدنيا، وأيضـاً، يُسمِع الدنيا بلسان هذا الكيـان المنسوج من وبـر الأبل وشَعر المـاعز وصوف الضـأن.

فـي فجـاج سـرت ووديانهـا، تحـت الخيـام، يتحلـق الكبـار، يـروون حكايـات الأيـام الخـوالي، يسـتمعون إلـى شـاعر مـن أهـل النجـع، أو مـن آخـر إعتـاد أن يتنقـل بـين النجـوع، يقول شـعراً مقابل لقيمـات، أو بعـض السـمن، أو صـوف الأغنـام فـي مواسـم الجز. وقد يكون أهل النجع أكثر حظاً، فيكون ضيفهم من أهل الرواية الأكبر وهـي تغريبة بني هلال.

الشعر هو الأداة الوحيدة التـي تنقلك إلـى العوالم الأخرى، وتنقلها إليك. أمـا فـي أمسيات الأفراح، فيكون المحفل غير المحفل، والنجـع غير النجـع، فمـع موائد الأكل غيـر المعتـادة، يكـون الشـعر هـو الوجبـة الأجمـل، يتـداعى الشـعراء مـن كـل مكـان،

يحتفلون مع أهل العرس، يغنون لهم، ولكن يغنون أيضاً حرقاتهم، وأحلامهم، وينشدون رسائل العشق للمحبوبة التي تسكن هنا، أو هناك، أو تجوب الوديان والبراري رفقة أهلها الذين يضربون بأنعامهم وراء المطر، طلباً للمراعي.

في ذلك الوجود المغني الناعس شب الكيلاني، فكان الشعر توأم كل شيء، أول رفيق في طريق طويلة، مراوغة، مسكونة بالخيال، والخطايا. عبره علي الكيلاني صحبة خيال كالسراب، إختلطت فيه البدايات بالنهايات. لكن بداية البداية، لم تغرب إلا بعد أن أصبح الشفق الأحمر الخيط الذي يرتق الأفق بكل الجهات، هل الشعر هو المأساة، أم أن المأساة هي الشعر ؟

قال علي الكيلاني، أنه بدأ يقول الشعر – الشعبي طبعاً – عندما بلغ سن الثامنة، وكان يهرب مع زملائه من القسم الداخلي مساءا، ليذهبوا معاً، إلى أي نجع في الصحراء به عرس ليقول به شعراً، وعمره لا يتعدى 12 سنة. كانت الأعراس، هي المكان الذي يعلن فيه الشاعر عن شعره وعن نفسه. هناك يتداعى الشعراء من كل النجوع القريبة والبعيدة، يبثون حرقتهم، ويرسلون آهات عشقهم، إلى من يحبون. ليس هناك وسائل مكتوبة أو مسموعة أو مرئية، ليقولوا من خلالها للغائب، ما يتدفق من خيالهم، فلابد إذا من شد الرحال إلى كل عرس، مهما كانت المسافة.

بعد تأسيس حركة اللجان الثورية، إنضم إليها علي الكيلاني، وتم تنظيم لقاءات للعقيد معمر القذافي مع عدد من الشباب المنضمين لهذه الحركة، إختار هو شخصياً العناصر التي لمس فيها التشدد والولاء والميل إلى العنف.

أمر بإلحاق مجموعة من هذه العناصر إلى الكلية العسكرية، وكان من بينهم علي الكيلاني، ميلاد الفقهي، عبدالله منصور، ميلاد دامان، إسماعيل الكرامي، فتحي ناجي، عبالسلام الزادمة، ولم يبق هؤلاء في الكلية سوى ستة أشهر، وكلفوا بالعمل بمكتب الإتصال باللجان الثورية، ومن بعد الحقوا بالأجهزة الأمنية، الاستخبارات

العسكرية، والأمن الخارجي، والأمن الداخلي. نُسّب علي الكيلاني إلى الاستخبارات العسكرية. استمر في العمل بهذا الجهاز، ومن خلال موقعه هذا قام بمرافقة العقيد معمر القذافي كأحد أفراد الحرس، وهم عادة من العسكريين القذاذفة.

من النجع إلى الجيش إلى الإذاعة

كان الإنتقال من النجع، حيث الفضاء الأبيض المرتفع إلى ما لا نهاية، والوديان الممتدة إلى الأفق، والخيام المتناثرة، والأمسيات الشعرية المتواصلة، كان الانتقال من ذلك الوجود الشعري، إلى دنيا المعسكرات، قفزة إلى دنيا أخرى مغايرة، حيث الإنضباط، والأوامر، والأسوار العالية المغلقة. كل حركة بتعليمات أو أوامر أو إذن. هنا يكون الشعر رفيقاً صامتاً، قد يطاله العقاب، إذا رفع رأسه. قال علي الكيلاني، بعد أن أصبح عضواً في إدارة الإذاعة الليبية، وبدأت تظهر أغانيه في وسائل الإعلام، قال أنه أحيل إلى التحقيق أمام لجنة عسكرية، وكان العقيد منير الطاهر رئيس لجنة التحقيق. في ختام جلسة التحقيق، قال منير لعلي:" أنا معجب بشعرك، ولكن عليك أن تقرأ أكثر"، أجاب علي، بأن القراءة تجلب المشاكل.

كان الإنتماء إلى الجيش برزخاً فرض عليه عبوره، نحو مواقع لم يردها، ومواقع لم يكن يحلم بها.

أعتبر معمر القذافي أن الاذاعة ثكنة عسكرية، بل هي الثكنة الأخطر، ليس فقط كمبنى ومعدات، ولكن كمضمون إعلامي، فقد كانت الهدف الأول الذي تحركت نحوه قواته للإستيلاء على السلطة. أرادها أن تكون تابعة له مباشرة، وأن ينفذ القائمون عليها الأوامر دون نقاش أو إعتراض، لهذا قرر ذات مرة، أن يقودها عسكريون، لهم بعد فني بشكل أو بآخر. شكل لجنة لإدارة الإذاعة برئاسة العقيد يوسف الدبري، وهو من الضباط الأحرار، ومقرب من العقيد معمر القذافي، وله علاقات وسعة مع الأدباء والفنانين في ليبيا والوطن العربي. وعين معه كل من علي

الكيلاني وعبدالله منصور وهما من الضباط الثوريين دفعة الستة أشهر، أو كما سماها الليبيون دفعة التفريخ الصناعي، تشبيهاً بالتفريخ السريع للكتاكيت بماكينة خاصة، وللإثنين، عبدالله وعلي، إهتمامات شعرية، فكلاهما من كتاب الأغاني، وأقاما علاقات مع عدد من المطربين والمطربات، ولهم أغاني عاطفية وثورية.

وفيما تولى كل منهما مهمة مدير الإذاعة الليبية، أسس علي الكيلاني شركة فنية هي، دار أجاويد للإنتاج الفني. وأجاويد هي عنوان نشيد يحمل نفس الاسم من تأليفه.

لقد مرّ علي الكيلاني بإختبار بالصدفة، جعله يعبر البرزخ العسكري إلى واحة الفن الأوسع وهي الإذاعة، فقد قال في مقابلة أجرتها معه محطة (FM – ليبيا)، أنه وأثناء قيادته للسيارة والقذافي يجلس إلى جانبه، دندن ببعض الكلمات والألحان، قال له القذافي:" أنت تغني كويس يا علي"، فأجاب علي: "نعم". وختم قوله في تلك المقابلة أنه في اليوم التاني وجد نفسه أميناً لإذاعات الجماهيرية العظمى.

قام الضابطان الشاعران، عبدالله منصور، وعلي الكيلاني، بالهيمنة الكاملة على صناعة الأغنية في ليبيا، الف عبدالله منصور الأغاني العاطفية والثورية، وقدم كل الإمكانيات لبعض المطربات العربيات، وخاصة نوال غشام المطربة التونسية التي تخصصت في أغانيه، إحتكرها وأحتكرته، وتعاون مع محمد حسن في إعادة غناء مجموعة من الأغاني الليبية التراثية، مستعيناً بعدد كبير من الفنانين الليبيين. في حين تفرغ علي الكيلاني لتأليف الأناشيد الوطنية والثورية وتلحينها. يقول الكيلاني، واصفاً أسلوبه وطريقته في تأليف الأغاني : أنه يلد قبل أن يحمل. أي أنه يلحن قبل أن يؤلف. والحقيقة أن علي يؤلف فقط، ولكن التلحين، هو عبارة عن إستنساخ إيقاعات من منطقة سرت مع إستعمال الإيقاعات الليبية التراثية المتوارثة. فرض الظابطان الشاعران لوناً واحداً على الشعب الليبي، هو لون منطقة سرت، وأحتكرا إنتاج الأغاني، وأغلقا أبواب الفرص على المطربين الليبيين بإستثناءات من بينهم

المطرب محمد حسن. كان ذلك مخططاً وبقرار أو بإتفاق مع معمر القذافي، الذي كان يعتقد، أن سرت همشت فنياً وأدبياً وثقافياً، وأن موروثها الفني، هو الذي يمثل القاسم المشترك بين الليبيين، وكما أن سرت هي المنطقة التي تتوسط ليبيا جغرافياً، فهي أيضاً التي تتوسطها فنياً، وهكذا اقتصر الإنتاج الفني على موروث ومزاج هذه المنطقة، عن طريق الضابطان الشاعران عبدالله وعلي.

سنة 2008، أقام معمر القذافي عشاء بمزرعة علي الكيلاني حضره الرئيس الصومالي السابق، علي عبدالله يوسف، والرئيس الوسط أفريقي، الجنرال بوزيزي، دعيتُ أنا أيضاً مع علي التريكي، والمدني الأزهري أمين تجمع س ص.

أحضر علي الكيلاني عازفاً للعود، من أصل فلسطيني، بدأ يعزف ألحاناً مصرية ولبنانية، قال معمر القذافي نريد أن نسمع شيئاً ليبياً، إرتبك العازف لأنه لا يحفظ الألحان الليبية. قمت بأخذ العود وعزفت أعمالاً لسلام قدري، ومحمد مرشان، ونوري كمال. تساءل القذافي عن سبب غياب الأعمال الفنية الليبية القديمة، ولماذا لم يعد يسمع شيئاً لسلام قدري ومحمد مرشان، قلت له بحضور علي الكيلاني:" أن عبدالله منصور، وعلي الكيلاني إحتكرا الأغنية الليبية، وأغلقا الأبواب عن الآخرين، ولم تعد الأغنية الليبية معروفة خارج ليبيا، بل أنها غير مسموعة حتى في الداخل، وأصبح الليبيون يهتمون بأغاني البلدان العربية الأخرى. وأن سبب ذلك سيطرة لون واحد وإيقاع واحد على ما يقدمه الشاعران، فكل أعمال الكيلاني التي يقول أنه يلحنها بنفسه هي في مقامين فقط، الرصد، والبياتي،. في حين كانت أغاني الخمسينات والستينات وأوائل السبعينات غنية بكل المقامات، إضافة إلى كلماتها المتنوعة التي تحتوي كل تموجات اللهجة والمزاج عند الليبيين". وقرأت كلمات أغنية سلام قدري التي ألفها مسعود القبلاوي التي تقول:

لو تؤمريني فوق نسمة نطير

ونجيب لك حزمة نجوم تنير

تضوي طريق الحب للإنسان

يا ليبيا وتجعل ترابك خير

لـــو تطلبـــي عربــــــون

قفطان غرزاته هـــدب لعيـون

وزايـــره دقات قلــب حنــون

ندفع عليه العمر مش كثير

وكان ما يكفي نجيب لك مليون

يا ليبيا على محبتي تعبيــر

ناخـــد شفـــق لغــروب

ونفصلـــه ونديـــر منـه ثـوب

وين يشبحه التاريخ فيه يدوب

وين تلبسيه المجد منه يغير

وبدم قلبي نخط لك مكتـــوب

يوصف محبّة ما كتبتها لغيــر

قال معمر القذافي هذه الأغنية، يجب أن تكون نشيد ليبيا الوطني. قلت له أن هذه الأغنية لا تذاع في التلفزيون الليبي. وقال لعلي الكيلاني:" لابد أن تذاع هذه الأغنية كل يوم. وهذا ما لم يحدث طبعاً.

طبعاً كان برنامج – رفاقه عمر – الذي يعرض الحياة البدوية وتحديداً في سرت، ويصف حياة النجع التي تصور بيئة علي الكيلاني الأولى، التي كتبها عمر رمضان، وهو أيضاً من سرت. وكانت جل مؤلفات علي الكيلاني الغنائية هي أناشيد حماسية عن الثورة ومعمر القذافي، بالإضافة إلى أعمال عن العراق وفلسطين. ومن بين تلك الأناشيد:

- وين الملايين.
- غضب الشعب.
- الله أكبر.
- من يجرأ يقول.
- يا أمي.
- الحصار.
- ثوري ثوري ثوري.

لقد إنتشر بعض تلك الأناشيد، إنتشاراً كبيراً في الوطن العربي، وبل في خارجه، أذكر أن مظاهرة ضخمة جداً خرجت لتأييد الإنتفاضة الفلسطينية في العاصمة الإيطالية روما، ونقلت مكبرات الصوت الني وضعت فوق المباني حول ميدان لاريبوبليكا – الجمهورية، نقلت أغنية – وين الملايين– تفاعل الإيطاليون مع

الأغنية، وأرتفع الإنفعال، والتصفيق. قال نمر حماد سفير فلسطين أن هذه الأغنية من فلسطين، فصححت له بأنها أغنية ليبية.

أعطى علي الكيلاني في أناشيده مساحة واسعة لإبن عمه معمر القذافي، دون أن ينسى أهله، ففيها نجد – القائد – الفارس، هلنا.. إلخ.

فالأغنية التي أدّاها محمد السليني، وكانت حصة مقررة شبه يومياً في التلفزيون الليبي تقول في موالها:

صناديـــــــد هلنـــــا صناديـــــــد

واحنـــــا صناديـــــد رجينـــــــــا

وانضربـــــوا غيـــــر تكميـــــــد

فـــــــي ويـــــن مـــدت ايدينـــــا

ثم يندفع المطرب في صلب الأغنية النشيد يقول:

شيالـــــــــــة هـــــــــــــم،

إحنـــــا هلنـــــا شيالـــة هـــــم

فراسيـــــن الفرســـــــان لهـــــم

ما يرضوا العار فراسين يهدوا على النـار

ليـا صـار كيـاد يجـو هلنـا صـف منظـم

ولم يغب عن المناسبات والأحداث السياسية، فله في كل فرن لهب. أثناء الحظر الجوي الذي فرض على ليبيا بسبب إسقاط طائرة لوكربي، واجه الحجاج الليبيون قيوداً على الطيران إلى الأراضي المقدسة بالسعودية، فقرر القذافي سنة 1991 أن يذهب بعض الليبيين ليحجوا في القدس المحتلة، تعبيراً عن الغضب، وكرد لإستفزاز العرب والمسلمين، كان علي الكيلاني حاضراً بشعره وأغانيه، فقال:

مـن يجـرأ يقـول هـــذا مـــش معقـــــول

بنـزور ونبكـي علـى الكعبـة وقبر الرسـول

قالولـــي الدمعـــة بتهـدد أمـن الأسطـــول

قالولـــي صوتـــك بيهــدد أمـــن الأسطـــول

ويقول في مقطع آخر:

لاعينـــا حاكـم مش حاكم حاميه الأسطـول

واهـم مش فاهـم مسطـول بيحمـي البتــرول

ومقطع ثالث :

ننصحكـــــم حجــوا للبابـــا والفاتيكـــــان

أسهــــل مـــن مكـــة وأكثـــر أمـــــــان

مكـــــــة حاميهـــــــا حراميهـــــــــا

خلـــــــى فـــــي صــــدري باقيهـــــــا

آخر إبداعات علي الكيلاني قبل أن يفر هارباً من ليبيا أمام هدير ثوار 17 فبراير، مولود جديد من رحم نشيد، من يجرأ يقول، يتحدث فيها عن عدد من الأشخاص الذين إنظموا لثورة 17 فبراير، يعدد في الأغنية ما " قدموه "، أي أهله حكام ليبيا لهؤلاء الذين خانوا، فمثلاً موسى كوسا طلع فرعون، ونوري المسماري، بدلاً من عين واحدة صنعوا له عشر عيون، ويتحدث عنيّ، يقول أنهم علموني، ولا أعلم كيف؟ وكذلك عن مصطفى عبدالجليل، وعن أمير قطر، وعن المرحوم الشيخ زايد بن سلطان، الذي يقول " أنهم " عالجوا له عيونه في ليبيا، تحت إشراف القائد، ولا أعرف كيف. هل معمر القذافي كبير جراحي العيون؟!

كتب علي الكيلاني، ملحمة طويلة أسماها القديس عن صدام حسين. طبعاً معمر القذافي هو من تبرع بذلك الاسم لصدام حسين، ولا أشك أن تلك الملحمة كانت بأمر من معمر القذافي، الذي لم يحمل قط، أي قدر من الود لصدام حسين، ولكنه كان يتحدث إلى نفسه، ففي قمة دمشق العربية سنة 2008 ألقى معمر القذافي كلمة تنبأ فيها بمصير للرؤساء العرب، مثل مصير صدام حسين.

بعد إعفائه من مهام مدير الإذاعة، تفرغ الكيلاني، للفن تأليفاً وتلحيناً، ثم إرتفع المستوى، والطموح، والمنفعة، فانتقل إلى إنتاج إستعراضات كبيرة، أدخل فيها، الشعر، والأغنية، والاستعراض المتنوع، للخيول، والراقصين والراقصات. وفي العيد الـ39 للثورة أعد مهرجاناً إستعراضياً تحت عنوان (فارس ورجال) بالتعاون مع المطرب محمد حسن، سخر له إمكانيات هائلة، إشترك فيه مئات الإستعراضيين من البنين والبنات والأطفال.

إشتكى لي الكثير من المطربين الليبيين، من إحتكار كل من عبدالله منصور، وعلي الكيلاني، لصناعة، وسوق الأغنية الليبية، وعلى رأس هؤلاء الفنان الكبير سلام قدري، الذي قدم الكثير للأغنية الليبية، وأعتُبر من المعادين لفرض لون فني واحد على المزاج الليبي، وطال إثر ذلك الإحتكار الثنائي، كُتاب كلمات الأغنية الليبية

أيضاً. فالشاعر الغنائي الكبير أحمد الحريري وكذلك مسعود القبلاوي لم يعد لهما مكان في دنيا الأغنية الليبية، بعد أن كانا قلماً متدفقاً، وقدما لوناً متميزاً للأغنية الليبية، وكذلك الملحنون، من بينهم المرحوم كاظم نديم، وعلي ماهر. لم ينج من سوط ذلك الإحتكار سوى محمد حسن، الذي فرض وجوده على خارطة الأغنية الليبية، لأنه أولاً، شارك الشاعرين الضابطين في التغني بالثورة والقائد والجماهيرية، أيضاً قاسمهما اللحن والإيقاع والكلمات التي لا تبتعد كثيراً عن المنطقة الوسطى، رغم أن محمد حسن، خاصة عبر كلمات الشاعر الموهوب المرحوم سليمان الترهوني، إستطاع أن يكون إضافة قوية للأغنية الليبية، مثل التجديد الذي لا يستطيع أن ينكره أحد في أغنية (دللتني)، التي إستكثر البعض أن تكون من إبداع ليبي، شعراً ولحناً وآداءً، خاصة بعد أن أعادت لطيفة التونسية غناءها بعد أن أدّاها محمد حسن بصوته.

تنافس الضابطان الشاعران على كرسي مدير الإذاعات الليبية، مثلما تنافسا على قلب معمر القذافي، من خلال الكلمات الشعرية، والأدوار السياسية والأمنية. وعندما إشترك المطرب محمد حسن وعبدالله منصور، في تجميع بعض الأغاني الليبية التراثية، وإعادة آدائها، إتجه علي الكيلاني إلى معمر القذافي، وقال له أن محمد وعبدالله قاما بالسطو على موروث وطني، ونسباه إليهما، أمر العقيد القذافي بوقف تلك الأعمال، لكن عبدالله منصور تمكن بحكم علاقاته، من إقناع العقيد بإعطاء الأمر بالإفراج عن ذلك العمل.

وفي الحقيقة، كان علي الكيلاني، ناظماً، في حين كان عبدالله منصور شاعراً، مزج الوطني بالذاتي والعاطفي، وقام في أعمال كثيرة بتوجيه رسائل خاصة إلى معمر القذافي ضمنها إشارات تعبر عن عمق العلاقة التي ربطت عبدالله بمعمر.

ربطتني علاقة ودية بالشاعر علي الكيلاني، وكان يتقبل ملاحظاتي بصدر رحب، وعندما فرغ من إعداد كتيب صغير، يحتوي بعض أعماله الشعرية بعنوان " قادم "، طلب مني بوساطة نوري الحميدي أن أكتب له مقدمة.

بعد إنتفاضة 17 فبراير التي قادها الشباب الليبي، وقيام حلف الناتو بحماية المدنيين الليبيين بقرار من الأمم المتحدة، إتصل بي علي الكيلاني وأنا في نيويورك وقال:" نحن هنا في طرابلس نواجه القصف الأطلسي، لكننا صامدون، أنا أجلس بمكتبي الزجاجي بالإذاعة، وأواجه مصيري مثل بقية أخوتي الليبيين، وأرى بيتك من هنا من مكتبي، ولن يمسه أحد"، وكرر عبارات التقدير والاحترام.. إلخ، قلت له:" يا أخ علي، أنا لا أريد بيتاً ولا مزرعة، الشعب الليبي يريد ليبيا، هل تقبلون، أن تعيدوها له سلماً وطوعاً ؟ لقد دارت العجلة، تدفق الدم، ولن تعود العجلة إلى الوراء، وأنت شاعر، يفترض أن تكون أكثر إحساساً بفظاعة ما لحق بالليبيين من ظلم وما سال من الدماء الغزيرة".

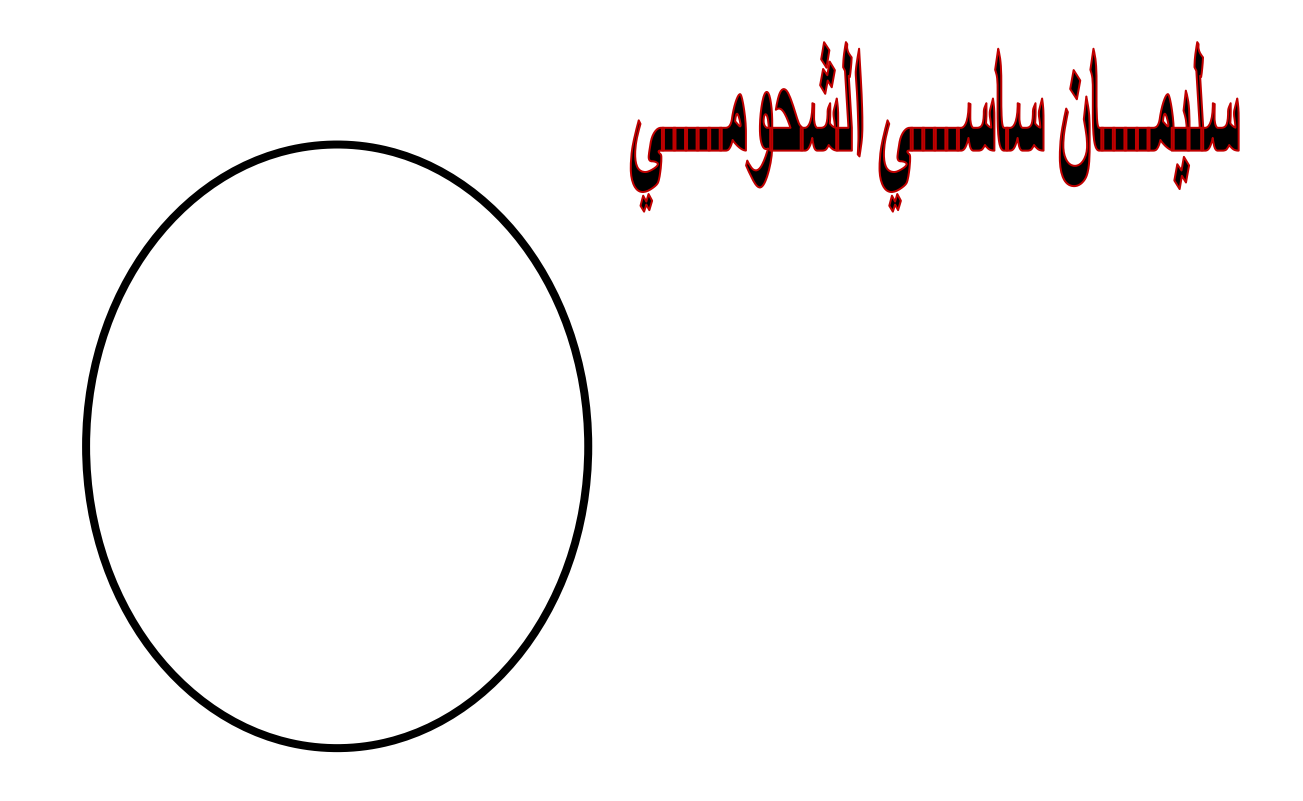
كان علي الكيلاني، شاعر، نظم الكثير من الكلمات، وعاش حالة من دوائر الدخان التي ساهم في تحولها إلى عتمة شاملة، بوعي أو بدون وعي، كان عبر سنوات الحاوي، الذي يطلق الموال إثر الموال، وراء قافلة لم يساهم في تحديد هدفها، كان مزهواً بما يفعل، منبهراً، وهو يرى إبن عمه مختالاً، بأمجاد خيالية.

لم يكتف بنظم الشعر، الذي عبأ له الكلمات والألحان في مواجهة ثورة شباب ليبيا، بل جعل من بيوته ومزارعه، ثكنات تفيض بالصواريخ والمدافع والبنادق، ودفع بأولاده، في مواجهة الثوار العزل، وقتل إبنه عمرو، على يد ثوار مدينة طرابلس يوم الأحد 21 رمضان في ساعات الفجر الأولى.

هرب الشاعر، لا أعرف ماذا حمل معه، أيام الثورة، كانت خطابات العقيد معمر القذافي، تكرر الحديث عن الملايين التي تلتف من حوله، تزحف لنصرته، وتتدافع

لسحق الثورة. لم يمل الحديث عن المسيرات المليونية، القادمة من كل حدب ومن كل صوب. وكأنه يردد صدى، ماقاله علي الكيلاني :"وين الملايين". لم يرد أن يدرك أن الملايين في كل خلجة، من خلجات ليبيا، "تزحف"، لكن ضد معمر القذافي، إلى أن أطبقت عليه، وهو منبطحاً في أحد أنابيب الصرف بسرت.

سيكتب، ويغني الأناشيد عن إبن عمه – دون شك – مثلما فعل مع صدام حسين، ليته يدرك، أن القضية، أكبر من مساحة نجع، وأعمق من صرخات غنائية منفعلة، فعندما يطلق الوطن نشيده، تخفت كل الأصوات، تتلاشى، كل الكلمات، يكون الوطن هو الكلمة، والدم هو اللحن، والحرية هي الملحمة الغنائية المقدسة.



462

سليمان ساسي الشحومي

سليمان الشحومي، أحد أبناء مصراتة، ومصراتة لها خصوصيتها وتميزها في ليبيا، كموقع جغرافي، تمثل الرابط بين مدن الساحل الغربي الليبي، تكون مفصلاً مكانياً فريداً، تتداخل مع مدينة زليطن، وتتفتح على الجنوب نحو بني وليد، ولها فسحة حيوية على البحر الأبيض المتوسط. سكانياً، تشكل كيمياء إنسانية متفاعلة وفاعلة، أعطت لليبيا أجيالاً من المجاهدين والكتاب والمفكرين، هي بؤرة التجارة عملاً وعقلاً وسلوكاً. لها مواعيدها الخاصة مع التاريخ الليبي، في سنوات الجهاد ضد الاستعمار الإيطالي، وبإعتراف المؤرخين الإيطاليين شكلت دائرة النار والدم، هزت الوجود الإستعماري، وكانت معركتا المشرك والسدادة، من المشاهد الختامية في ملحمة المواجهة مع قوات الفاشيست، إنتقل بعدها المقاتلون إلى الجبل الأخضر للقتال مع الأدوار الوطنية التي خاضت المعارك الأخيرة من معارك المقاومة.

لا تخلو مدينة في ليبيا، بل ولا قرية تقريباً من وجود مجموعات من أصول مصراتية بحكم إمتهان أهل مصراتة للتجارة، التي تجعلهم يتحركون شرقاً، وغرباً، وجنوباً.

في تلك المدينة، التي تفيض بالحيوية ولد سليمان ساسي الشحومي، وترعرع في عائلة بسيطة، إضطرته ظروفه الإجتماعية إلى مغادرة كراسي المدرسة مبكراً، والعمل بوظيفة طابع في أحد الدوائر الحكومية، وفي غمرة حيوية الشباب وإندفاعاً في خضم حيوية هذه المدينة، عمل لمدة قصيرة راقصاً في إحدى فرق الفنون الشعبية. بعد قيام ثورة اول سبتمبر، تم تأسيس تنظيم الاتحاد الاشتراكي العربي. إهتم معمر القذافي، منذ وصوله إلى السلطة بمدينة مصراتة، فهي المدينة الأهم إقتصادياً، وكذلك

جغرافياً، إضافة إلى عامل خاص به، حيث إنتقل للدراسة بها بعد طرده من مدرسة سبها بولاية فزان.

كان من أبرز قيادات الاتحاد الاشتراكي العربي بالمدينة، شخص إسمه شابا عمل معه سليمان موظفاً إدارياً صغيراً، إلتصق به مدة عمله بالاتحاد الاشتراكي. إنتقل شابا إلى رحمة الله، واستمر سليمان في العمل بنفس الموقع.

أثناء دراسته بمدرسة مصراتة الثانوية، عرف معمر القذافي الكثير من الطلاب الذين كانوا زملاء له بالمدرسة، استقطب بعضهم إلى التنظيم المدني مثل محمد خليل، ومفتاح كعيبة، وعمر المحيشي، الذي إلتحق بالكلية العسكرية ليصبح عضواً بمجلس قيادة الثورة، أي أن مصراتة كانت تعج بالعناصر القيادية التي إرتبطت بمعمر القذافي، مذ كان طالباً بمدرستها، وتولى العديد منهم مواقع هامة في النظام الجديد، وضم ملتقى الرفاق الذي أقيم منذ قرابة عقدين الكثير من أهل مصراتة، ويتكون هذا الملتقى من العناصر التي درست مع معمر القذافي قبل وصوله إلى السلطة، أو تعرف بهم وعايشهم في الفترة ذاتها.

لم يكن سليمان من بين هؤلاء جميعاً، ولم تكن له مؤهلات علمية، أو ثقافية ترفعه إلى مستوى قيادي، بمدينة تعج بالمتعلمين، والمثقفين، ورفاق القذافي. فكيف وصل وسط ذلك الزحام إلى خيمة العقيد.

في أحد اللقاءات الكثيرة، التي دأب معمر القذافي على حضورها، وبالتحديد بمنطقة راس لانوف، لاحظ معمر شاباً متحركاً، يتنقل بين الصفوف، ويتحدث إلى الحاضرين، ويقدم تسهيلات إدارية، إستفسر عنه، وأشار إلى أحد مساعديه وقد يكون ابن عمه عمر إشكال، أن يهتم بهذا الشاب. لم يكن معمر بحاجة إلى عناصر نشطة أو فاعلة بمصراتة، فهي مدينته التي يعرفها جيداً، عاش بها، ودرس فيها، وأرتبط

بعلاقـات وطيـدة مـع الكثيـر مـن شـبابها، فلمـاذا هـذا الإهتمـام الخـاص بسـليمان الشحومي.

حسـب مـا يقولـه الرائـد عبدالسـلام جلـود، فـإن معمـر القذافي، كـان يكـرر دائمـاً، يجب أن نعتمد علـى العناصـر التـي لـم تنخرط فـي التنظيم المدني، وتنظيم الضـباط الأحرار. فأعضاء التنظيمين يعتبرون أنفسهم شركاء في الثورة، وقد يترددون في تنفيذ التعليمات والأوامر التي توجه إليهم، بينما تكون العناصر الأخرى، أكثر طاعة، وقبولاً لما يصدر لها.

كان معمر يتحسس كثيراً من التفاهم بين أي مجموعة في موقع واحد، ويعمل بـلا كلـل فـي سـبيل إيجـاد عنصـر أو أكثـر مـن المخـالفين، أو المشاكسـين، داخـل كـل مجموعـة، لأن ذلـك يحقـق لـه أكثـر مـن مصـدر للمعلومـات، ويمكنـه مـن أن يكـون المرجع الأخير لحسم الخلافات التي تظهر داخل هذه المجموعة أو تلك.

معمر القذافي، هو الذي بحث عن سليمان الشحومي وليس العكس. ولكن لماذا؟

إسـمان فرضـا نفسـيهما علـى مصـراتة، وهمـا محمـد خليـل، ومفتـاح كعيبـة، الأول كان الشخص الثاني في التنظيم المدني بعد معمر القذافي. قال محمد بلقاسم الزوي، وهو أول من تحدث إليه معمر القذافي عن فكرة التنظيم بمدرسة سبها، قال أن معمر بعـد أن فاتحـه عـن الفكـرة، ووافقـه محمـد، أخبـره أنـه ثـاني إنسـان يتحـدث إليـه فـي الموضوع، بعد شخص مصراتي أسمه محمد خليل. أما مفتاح كعيبة، فقد ضمه معمر القذافي إلـى التنظيم المدني، عنـدما كـان الأثنـان طـالبين، بمدرسـة مصـراتة الثانويـة، واسـتمرت العلاقـة بينهمـا فـي بنغـازي، حيـث كـان مفتـاح كعيبـة طالبـاً بكليـة الأداب بجامعة بنغازي، ومعمر، طالباً بالكلية العسكرية بنفس المدينة.

بعد وفاة شابا العنصر الفاعل بالاتحاد الاشتراكي العربـي بمدينـة مصـراتة، كـان هاجس معمر القذافي، البحث عن شـاب، أي قـادم جديد، من خـارج الحلقـة القديمـة،

يكون من إنتاجه هو، يبطل مفعول إحتكار محمد خليل، ومفتاح كعيبة لزعامة مصراتة.

في غضون سنوات قليلة، أصبح سليمان الشحومي، الطبّاع، الذي لم ينل حظاً من التعليم، ومن عائلة بسيطة، أصبح محور الفعل السياسي في مدينة هامة وحيوية وفاعلة هي مصراتة، إرتبط، إرتباطاً مباشراً وقوياً بالسيد عمر اشكال، رجل المهام المركبة والمشبوهة، الذي مثل مع خليفة أحنيش، جناحي سياسة الفتنة وبث التناحر والعداء بل الصدام بين صفائح المجتمع المدني.

كانت مصراتة، وبني وليد، من الهواجس المرعبة لمعمر القذافي منذ وصوله إلى السلطة، بحكم قدرتهما الاجتماعية، وإنتشار أبناء المنطقتين في جميع أنحاء ليبيا، بالإضافة إلى الملاءة المالية لمصراتة.

تصاعد الأمر أكثر، وأزداد تعقيداً بعدما عُرف بمؤامرة عمر المحيشي سنة 1975، والتي أشترك فيها عدد كبير من ضباط الجيش المنحدرين من مصراتة، وأتسع دور سليمان.

بعد تأسيس حركة اللجان الثورية، لم يكن لمفتاح كعيبة ومحمد خليل دور بها، وتقدم سليمان صفوف الحركة في مصراتة، وجمع حوله عدداً من النشطاء بينهم بعض الأساتذة، والمثقفين والفعاليات الإجتماعية، وأصبح بيته المعمل الذي تعد به قوائم التصعيد للمؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية، زاد ذلك من درجة التوتر والحساسية بينه وبين الرأسين الآخرين، مفتاح كعيبة ومحمد خليل.

بعد ذلك، دخل سليمان، عبر بوابة اللجان الثورية، والمطارحات السياسية والاجتماعية بمصراتة، دخل أمانة مؤتمر الشعب العام، وتلك حلقة أخرى في سلسلة المخاضات التي لا تقف إلاّ لكي تنطلق، تشكلت خلالها دائرة ضيقة، أسماها البعض

– رجال الخيمة – بينما يمكن أن نطلق عليها إسماً آخر، هو " أذرع الأخطبوط " الثورية، أو السياسية. كانت تلك الأذرع مختلفة الطول، مختلفة التأثير.

نستطيع أن نذكر بعض الأسماء التي تمددت لتكون ذراع الأخطبوط من بينهم بالإضافة إلى سليمان الشحومي، عمر اشكال القذافي، الطيب الصافي، أحمد إبراهيم منصور القذافي، المهندس إبراهيم علي القذافي، عبدالقادر البغدادي، المهندس علي أبو جازية، الدكتور مصطفى الزايدي، صالح إبراهيم الورفلي، محمد المجذوب القذافي، عمار الطيف العجيلي، عبدالله السنوسي، بشير حميد، وغيرهم.

أثناء وجود الرائد عبدالسلام جلود، في موقع الرجل الثاني، كان هو خيط الوصل شبه اليومي بينهم وبين معمر القذافي، يتابع تفاصيل الشئون الداخلية معهم، يطرحون الأسماء التي تقترح لشغل الوظائف المركزية المهمة، والوظائف القيادية في اللجان الشعبية والمؤتمرات الشعبية في الأقاليم، وكذلك الهيئات والمؤسسات والسفارات وغيرها. أوكلت إلى سليمان الشحومي، وعمر اشكال، مهمة أو مهمات أخرى ذات طابع اجتماعي وسياسي وأمني، وهي التواصل مع المكونات الاجتماعية، من أجل خلق توازن بينها، أو كسر ذلك التوازن، حسبما تقتضيه مصلحة النظام.

لم تحكم الوظائف التي تولاها نشاطاته المختلفة، بل استمر في القيام بالمهام التي أشرت إليها آنفاً أينما كان موقعه أو مكتبه، ولقد أمضى جلّ عمره ووقته بأمانة مؤتمر الشعب العام، وحتى عندما عين مساعداً لجمعة المهدي الفزاني، أمين شئون الوحدة العربية، رفض تولي ذلك المنصب، ولم يتردد على المكتب المخصص له بتلك الوزارة، ولم يخف غضبه من ذلك الذي أعتبره تقليلاً من قيمته. فقد كان يرى أنه الأحق بشغل وظيفة أمين – وزير – الوحدة العربية. وقد أصبح هذا الإحساس – التقليل – من قيمته عقدة كبرت في داخله مع خلو بعض الوظائف القيادية في الدولة، وإستبعاده منها. فهو لم يُمنُّ عليه بوظيفة الوزير أبداً. وعندما لوّح بمواقع إعتبرها مرة أخرى تقليلاً من أهميته وقدراته.

كان سليمان يعاني من دائين، الداء الأول هو أنه محدود التعليم ولم يحصل على أي مؤهل علمي، وقد رزقه الله بظاهرة تفشت مؤخراً في ليبيا، وهي مجانية الشهادات، توجه الكثير من الليبيين إلى السودان، وبعض الدول الافريقية، ودول أوروبا الشرقية للحصول على درجات الدكتوراه، وبعد الإنفتاح الإقتصادي الذي شهدته ليبيا في العقدين الأخيرين، لم تعد هناك حاجة إلى شد الرحال إلى الخارج لشراء الشهادات، بل أصبحت متاحة في دكاكين كثيرة، رفعت يافطات الجامعات، حتى أصبحت أكثر من محلات بيع الخضار، أو مواد التنظيف. حصل سليمان ساسي الشحومي على لقب " الدكتور " في العلوم السياسية من مكان إسمه (معهد افريقيا للتعليم العالي والمتوسط)!!!.

إذن، حصل أخيراً على الوصفة الطبية "العلمية" التي حملت ترياق الشفاء من الداء الأول، ولكن بعد فوات الوقت، فقد منحت له الجرعة العلمية السحرية يوم الجمعة 26 فبراير 2010 أي قبل إنفجار ثورة الشباب الليبي ضد نظام معمر القذافي بسنة واحدة بالضبط، فغدا الأمر كما يقول الليبيون: " فرحة وما تمت "، أو : " كيف من جاب وليد ومات ".

الداء الثاني، الذي لا يتم الشفاء العاجل منه، بورقة تمنح من معهد أهلي خاص، هو – داء فقدان اللغة الأجنبية – وهو أشد من داء فقدان المناعة المكتسبة.

لقد شغل منصب أمين الشئون الخارجية بامانة مؤتمر الشعب العام من سنة 2000 إلى سنة 2011، تولاه بعدي مباشرة، وكان يرى أنه المرشح الأول والأنسب، لشغل منصب وزير الخارجية بعد مغادرتي له. وغضب غضباً شديداً، عندما عين موسى كوسا بهذا المنصب. قال لي مفتاح كعيبة: أن سليمان يرى أنه المرشح الأول لتولي حقيبة الخارجية بعد خروجي منها، فأجابه: من أنت ؟ أو كما قالها مفتاح بالإنجليزية Who is Who.

لقد شعر أنه استخدم بلا مقابل، خاصة بعدما أجبر على تسليم منزله، فقد قامت الدولة بشراء منازل لبعض الوزراء وكبار المسئولين، وفي لحظة غضب، قيل أنها بسبب وشاية من احدى الفتيات المقربات من معمر القذافي، أمر بإخلاء جميع تلك المنازل الفخمة التي أشترتها الدولة لبعض المسئولين وكان من بينهم سليمان الشحومي. تملكته حالة إحباط، ولم يخف ذلك. قابلته بعد آخر لقاء لي مع معمر القذافي في شهر نوفمبر 2010. حدثني عن الأخبار التي وصلته عن ذلك اللقاء. عبر عن اليأس، وإنعدام الأمل في معمر القذافي، وقال أنه مع أولاده، يتعمدون الآن تدمير كل شيء في ليبيا، وأن وجود البغدادي المحمودي على رأس الوزارة، ما هو إلاّ تنفيذ لبرنامج متعمد، لحرق الأخضر واليابس في البلد. بل قال مباشرة:" لا أمل، ولا إمكانية للإصلاح، طالما بقي معمر القذافي وأولاده يتحكمون في البلاد".

سليمان الشحومي، هو واحد من أغلب الليبيين الذين يحملون أضدادهم في داخلهم، وهذه ظاهرة لم تختص بها ليبيا، فقد وجدت في أي نظام حكم شمولي، في أسبانيا فرانكو، برتغال سالازار، ألمانيا هتلر، عراق صدام حسين، والاتحاد السوفيتي تحت حكم ستالين، سنحلل البواعث النفسية والاجتماعية والسياسية لتلك الظواهر.

سليمان أيضاً، من أولئك الذين يخلطون بين الدهاء السياسي، والمكر أو الخبث، صحيح، كان الصراع بين أذرع الأخطبوط، جزءاً من حركته، ولكن في كثير من الأحيان يتجاوز إشارات المرور لا أقول الأخلاقية ولكن السياسية، فقد تشكلت في سنوات الثمانينات والتسعينات، خلية مثلثة من عمر إشكال القذافي، والدكتور مفتاح الأسطى عمر، وسليمان الشحومي، قامت بأدوار موازية، وأحياناً مناقضة لما يقوم به الرائد عبدالسلام جلود، وفي مواجهة عمار الطيف وعبدالقادر البغدادي، اللذين أعتبرا من المقربين لجلود، والمناوئين للتيار القذافي، إلى حد صدور أحكام بالإعدام على عبدالقادر البغدادي وعمار الطيف. وصل الأمر ذات مرة أن قام جلود بشتم الشحومي، الذي رد عليه بقسوة غير معتادة.

تخصص سليمان – بضرب الأبر – كما يقول الليبيون، أي بالغمز واللمز في بعض الأشخاص، سواء أمام معمر القذافي أو غيره. كنت سفيراً في إيطاليا، وعلمت أن المطربة سوزان عطية أصدرت كتاباً حول آلة العود، طلبت من أحد الموظفين بالسفارة الليبية بالقاهرة أن يزورها، ويطلب نسخة من الكتاب، وفعلت. كان الشحومي في زيارة إلى القاهرة، وسينتقل منها إلى روما، قام الموظف بإعطاء الكتاب لسليمان لإيصاله إلي. أعطاني الكتاب، وكان وجوده بروما مناسبة للحديث عن أوضاع البلاد، مثلما هو دائماً، إنتقد الأوضاع التي وصفها بالمتردية، وعدد الظواهر السلبية .. إلخ.

في أول مناسبة التقى فيها العقيد القذافي مع جمع من المواطنين، تحدث بعضهم عن تقاعس الحكومة الإيطالية عن تعويض الشعب الليبي عن ما لحقه من أضرار جراء الإحتلال الإيطالي، قال القذافي:" أن سفيرنا في إيطاليا عبدالرحمن شلقم، مهتم بهذا الملف ويتابعه بجدية مع الحكومة الإيطالية. إنتفض سليمان وقال معلقاً:" لا، أعتقد يا أخ القائد أن عبدالرحمن شلقم ليس لديه وقت لملف التعويض، فهو منهمك في تحضير رسالة دكتوراة في آلة العود". استغرب العقيد وبعد أيام قليلة وصلتني برقية من وزارة الخارجية الليبية تبلغني فيها إنهاء عملي بإيطاليا.

بعد أن قضيت سنوات طويلة وزيراً للخارجية قلت لسليمان:" إنني في حاجة ماسة إلى واحدة من – إبرك – حتى تخرجني من هذه الوزارة، مثلما أخرجتني أحدها مرة من السفارة"، ضحك وقال مازحاً:" لقد أصابت الإبرة الأولى، ولكن يبدو أن الأخريات أقل فعالية".

بعد إنطلاقة ثورة 17 فبراير، حاول معمر القذافي إستخدام سليمان الشحومي ومفتاح كعيبة للحيلولة دون إنضمام مدينة مصراتة إلى الثورة، فقام مفتاح بعقد الكثير من الاجتماعات مع أبناء مصراتة المقيمين بطرابلس من أجل الإصطفاف مع معمر القذافي وكتائبه، إتخذ موقفاً متشدداً من الثورة، داعماً بكل قوة للقذافي، وعندما

عارضـه إبنـه الأكبر بقوة، معلناً تأييده للثورة، وقـام أمـام والـده بشـتم معمـر القذافي، ضربه والده، وأصيب الشاب بجلطـة أدت إلـى دخولـه فـي غيبوبـة مستمرة. أما سليمان الشـحومي، فقد كـان لـه دور أكثـر عمليـة، إجتمـع فـي الأيـام الأولـى للثـورة مـع سيف الإسـلام معمـر القذافي، الـذي طلـب منـه التوجـه إلـى مصـراتة، وكبحهـا عـن الإلتحـاق بـزخم ثـورة الشـباب الليبيين، حـدث خـلاف بـين الاثنـين حـول بعـض التفاصـيل. كـان منطـق معمـر القـذافي وإبنـه سيف فـي البدايـة هـو الترغيـب والترهيـب، عـرض سـيف المال والامتيازات علـى أهل مصراتة عبر سليمان الشحومي، قبل ذلك، وأخذ شاحنة مملوءة بالدينارات وتوجه إلى مصراتة، رفض أهلها. وأبلغوه إنضمامهم إلى الثورة.

منذ البدايـة، عمل القذافي وإبنـه سيف، علـى إستقطاب مدينـة مصـراتة إلـى صـف النظام، وعندما رفضت، عبأ أقوى قواته لدكها بل إزالتها من الوجود.

كـان معمـر يعلـم جيـداً، أن مصـراتة هـي بيضـة القبـان وهـي التـي سـتكون درع حماية لنظامه، أو رصاصة الرحمة له.

" لماذا مصراتة "

قلنا، أن القذافي، أدرك منذ بداية الثورة، أن مصراتة هي العنصر الحاسم في إنتصار ثورة 17 فبراير، أو إنكسارها، فإذا هي إنضمت إلى الثورة، أصبح إنتصارها أكثر من المؤكد، فهذه المدينة تمتلك أولاً قوة بشرية هائلة، فسكانها قرابة نصف المليون مواطن، لهم إمكانيات علمية وثقافية وتنظيمية هائلة، إضافة إلى القدرة المالية التي تمتاز بها هذه المدينة، إضافة إلى موقعها الجغرافي الخطير، فهي وسط ليبيا الحقيقي، الجغرافي والسياسي. يتوزع أهلها في جميع أنحاء ليبيا، ففي بنغازي يستوطن مئات الآلاف من أصول مصراتية، وفي طرابلس وسبها، ومدن بل وقرى ليبية أخرى، ويتولى عدد كبير من أهل مصراتة مواقع هامة في وظائف الدولة والقوات المسلحة، فإذا إنضم هؤلاء إلى صف معمر القذافي، فإن قدرته على كسر الثورة تصبح أكبر.

الوجه الآخر للإحتمال، هو إنضمام مصراتة إلى الثورة، فذلك يعني الإجهاز على معمر القذافي ونظامه، وتخريب برنامجه البديل وهو، الإنفصال – أي فصل غرب ليبيا عن شرقها، وجلوس معمر القذافي على عرش الغرب والجنوب الليبي، إلى أن تمكنه الظروف من إعداد العدة، واسترداد الشرق. هذا الخيار، متوقف 100% على مصراتة، ومصراتة وحدها. قال معمر القذافي، في إحدى خطبه، أثناء الثورة:" لتكن إجدابيا منطقة محايدة، نجنب أهلها المشاكل، وتكون الطريق الساحلية خارجها"، كان هذا الخطاب مكرساً للإنفصال.

لكن مصراتة الجغرافيا وحدها، كانت جيشاً قوياً يقاتل ضد خطط القذافي وأوهامه الإنفصالية. فهي تقع بين طرابلس وسرت، وإذا لم تكن معه مصراتة، فإن سرت عملياً وسياسياً ليست معه، بل تتحول إلى منطقة ميتة عسكرياً، ومخصومة من شرعيته الإنفصالية سياسياً، فكيف سيكون على رأس – دويلة – لا تضم مسقط رأسه ؟.

إذا، فإن مصراتة في كف، ونظامه في الكف الأخرى.

حسب معمر القذافي، أن الخمس وزليتن، غرب مصراتة معه، وأن ترهونة وبني وليد في الجنوب منها أيضاً معه بالإضافة إلى سرت، فإذا ضمن مع هذه المدن مصراتة بموقعها وإمكانياتها، فإن سيطرته على كل ليبيا تكون مسألة وقت لا أكثر. صحيح، إن طرابلس، هي العاصمة، لكن القذافي أعتقد أنها لن تفلت من القبضة التي أحكمها عليها، وقد دمّر مدينة الزاوية، والجبل الغربي، جبل قاتل ومقاتل، لكنه لن يستعصى عليه في الحلقة الأخيرة من مسلسل كسر العظم الليبي.

بكل تلك الحسابات، بدت أمامه مصراتة، إما أن تكون طوق النجاة الوحيد والأخير، أو الرصاصة التي تقبض روح نظامه. وهكذا أصبح لكل مصراتي حساب في إستراتيجية معمر القذافي.

محمد خليل، رفيقه الأول، وحليفه القديم، والرجل الذي يليه هو شخصية في تنظيم الثورة، كان في ألمانيا للعلاج، وبعد إشتعال الثورة بقي هناك، ولم يتصل بالقذافي مطلقاً. كان غائباً وغاضباً. كنت أتواصل معه بشكل مستمر عبر سفيرنا بألمانيا الدكتور جمال البرق الذي ينتمي هو أيضاً إلى مدينة مصراتة.

مفتاح كعيبة، إنحاز منذ اليوم الأول إلى معمر القذافي، لكنه لا يمتلك بحكم سنه وشخصيته، القدرة الحركية، والتأثير على العامة، وليس له المهارة أو الخبر التنظيمية والقدرة على الإقناع، لقد واجهه إبنه وتمرد عليه وأنحاز للثوار.

إذاً، فإن سليمان الشحومي، هو ثالث الثلاثة، الذي يمكن لمعمر القذافي وإبنه سيف، أن يتكأ عليه، في مسيرته السياسية نحو إقناع أهل مصراتة بالإصطفاف معه، أو تحييد هذه المدينة الحاسمة.

اختـار سـليمان السـير وراء القـذافي، وأمـام كتائبـه التـي حشـدها مـن كـل مكـان لتدمير هذه المدينة المخيفة، جنّد القناصة من جميع أنحاء العالم،وحاول حصارها من كل جانب، إستمات من أجل السيطرة على مينائها، لكن مصراتة، تحولت إلى أسطورة رآها العالم بعينيه، وسمعها، وحفظ اسمها. أصبح إنتصار ثورة الشعب الليبي أو إنكسارها معلق على هذه المدينة. لم يوفر معمر القذافي المرعوب سلاحاً، ولا مجنداً، ولا خططاً، إلا وساقها إلى مصراتة، قال منصور ضو، إبن عم معمر القذافي، رئيس الحرس الشعبي، بعد أسره:" بعد إنتصار مصراتة، أدرك القذافي أن كل شيء قد أنتهى". ولم يدرك القذافي أنه هو شخصياً، وجسدياً قد إنتهى، حيث سيأسره مقاتلو مصراتة، وستنقل جثته إليها، تعرض على العامة، ويرحل إلى حفرة مجهولة.

يقول المثل الليبي: " الرجله، تحضر، وتغيب ".

لقد إلتقط معمر القذافي، سليمان الشحومي، من وسط آلاف من أبناء مصراتة ليستعمله ضد إثنين من الذين شاركوا في إيصاله إلى الحكم، وأدخله في الحلقات الواسعة والضيقة التي تدور حول الخيمة، صادر منزله، بخل عليه أكثر من مرة، لم يعطه حلمه الذي تملكه في المنام واليقظة، وهو الوزارة. إنتقم سليمان من معمر بالنقد والشتائم المقذعة في الغرف المغلقة. كان طلب هذا الطبّاع الذي أشترى الدكتوراه من أحد أزقة طرابلس، كما تشترى ساعات الرولكس من تايوان، كان طلبه مرهون بكلمة من مزاج معمر القذافي، أسهل وأبسط من شهادة الدكتوراة، وأبسط من إتقان لغة أجنبية. إستكثرها عليه قائده.

عندما جدلت الأقدار حبالها، ودفعت الأقواس نبالها، وزأرت مصراتة برعود النار والدم، إرتعد القذافي، ساحت ركبتاه، إستنجد بسليمان، كان سليمان بدون منسأة أو جان، لا بلقيس ولا بسم الله الرحمن الرحيم.

لقد غرب كل شـيء، إحترق الشفق فـي الأفـق، لا سليمان اليوم ولا جـان، إلاّ الشعب الليبـي. مـات معمر القذافي، وقبرت أوهامـه معـه فـي حفرة مجهولـة، وسط الصحراء، التـي مـا فتأ يقول أنـه جـاء منهـا ثـائراً، إنتهـى فيهـا خـائراً مجهولاً، هرب سليمان الشحومي، إلى صحراء أخرى، صحراء التيه والسحرة، فاليوم ليس في قبضة يده لا وزارة، ولا وطن، لا أعرف أن يضع الدكتوراه، في جيبه أم في رأسه. أي صورة يحملها سليمان الشحومي اليوم لمسقط رأسه مصراتة. ذلك الاسم العظيم الذي يسري فـي شرايين الليبيين وأوردتهم، تخفق بـه قلوبهم، يضعونها علامة شرف ومجد علـى رؤوسهم، مصراتة التي ستبقى إلى الأبد سطوراً تهتف بالمجد في سفر الحرية.

كُتب لهذا الشخص، أن يركض في زحمة الحياة، وراء عناوين المجد الوهمية، وزارة، دكتوراه، مال، وغيرها. وفي لحظات الخيار التي هي أطول من سنوات الوهم، يغيب الخاسرون، لا يصلون إلـى محطـة الشرف، الشرف الوطني التـي هـي أرفـع الألقاب، وأعلى المناصب، وأغلى ما يقتنى. حرم إلى الأبد من أن يقف، أو أن يمشي فوق أديم الشرف، تراب مصراتة الشرف:

شرف ينطحُ النجومَ بروقيهِ وعــزٌّ يقلقــلُ الأجبــــــالا

حســـــــونة الشـــــــاوس

حسّونة الشاوش

حسونة اللافي الشاوش، رجل وصل ولم يغادر، طاف بين الأماكن والأزمان، ولكنه بقى هناك، من حيث بدأ. بعض الناس يعيشون في داخلهم، يكبرون هناك، يتوسعون، يرتفعون، يتحركون، لكنهم يبقون في دائرة داخلية مغلقة، لا تتسع ولا تتكسر. مع مرور الزمن، يتشيأ الفراغ، وتتخلق ذات بكل مكوناتها، تفكيراً، ولغة، وحركة. لها زمانها الخاص، الذي لا يقاسمه إياها غيرها، كيف؟

دخل حسونة الشاوش مبكراً ماراتون العمل السياسي، وإنتظم بين الخطوط البيضاء الكثيرة، التي ترسم المساحة المتاحة لكل واحد من الراكضين في المضمار، السرعة مفتوحة، وكذلك خط النهاية. وآخرون لهم نصيبهم في منافسة السباق، ولكنهم يركضون بين خطوط أخرى ليس بالضرورة أن تكون بيضاء. قد تتحول المنافسة مع الوقت إلى رياضة أخرى غير الجري، ويبقى باب الإختيار مفتوحاً مع بعض الشروط والمواصفات التي لم تكتب على صفحات الكتاب الذي يرسم قواعد اللعبة.هكذا كانت ملامح مشهد البداية في العمل السياسي– بالجمهورية العربية الليبية – في مطلع السبعينات، قبل أن تتحول إلى– الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكي.

بعد إنطلاق حركة التنظيم الشعبي، التي أعقبت قيام الثورة في 1969، تزاحم الكثيرون على المضمار، كان اللاعبون هم من يقوم بدور الحكم، ولا قواعد للعبة، الهدف هو شق قنوات للتواصل بين العسكريين الذين يجلسون على كراسي القيادة، وعامة الناس التي عرفت أن الملك قد أزيح، وأن شباباً عسكريين أصبحوا هم سادة ليبيا الجدد يرفعون شعار، الحرية ، الاشتراكية، الوحدة. ما هو البرنامج الذي سيقود إلى تحقيق هذه الشعارات، ما هو القوس الزمني الذي، ستتجسد فيه، ما هي قواعد

تلك الحرية ؟ ومع من ستكون الوحدة، كيف ومتى ؟ كل ذلك مسكوت عنه. إلى متى ؟ لا جواب بالضرورة.

أعلن بعد ذلك عن قيام الاتحاد الاشتراكي العربي – تنظيم سيجيب على بعض تلك الأسئلة، بإختصار، ستكون ليبيا نسخة من الجمهورية العربية المتحدة، دولة جمال عبدالناصر، الزعيم الذي رفع العرب صورته، وهتفوا باسمه، وصفقوا له، إذا، قدمت كل الأجوبة في حقيبة مغلقة، مفترضة، بل متوهمة.

سار الكثيرون في موكب الحماس، طاروا بأجنحة الأمل، الذي صنعه سنوات من غياب التفكير والتحليل، وجفاف الحياة السياسية.

كانت خطيئة العهد الملكي الكبرى، التي زرعت بذور القبول بالحكم الفردي، هي منع الحياة السياسية، أقصد منع الأحزاب السياسية وتجريمها، بل أن العهد الملكي في ليبيا لم يؤسس حتى حزباً واحداً، كانت قاعدة الحزب الواحد الحاكم هي السائدة في الوطن العربي وفي كثير من دول العالم الثالث، والعالم الشيوعي، هذه الأحزاب، لم تكن يوماً أداة للديمقراطية، بل كانت العصا التي تضرب بها أي محاولة ديمقراطية، لكنها في النهاية أسست فكرة "العصبية" التي وإن خدمت سيطرة الفرد في النهاية، أقامت مؤسسات تنظيمية – تسلطية – إستخدمت إمكانيات الجدل السياسي والفكري من أجل تكريس سلطتها. تلك الصسغة الشمولية، أفرزت أدواتها، وشيدت بنيانها السياسي والاقتصادي والأمني عبر منظومات معرفية ثقافية معقدة، أسهمت في تكوين وعي سياسي مركب، وأشاعت قدرات تحليلية وحوارية بل وجدلية، فالحزب الواحد الحاكم، يحتاج إلى آلة إعلامية وفكرية، ترؤسها فئة من المثقفين الذين لهم القدرة على ترسيخ أيدولوجية الحزب والدفاع عنها، والدعوة لسياساته، والعمل على إستقطاب عناصر جديدة باستمرار.

في ليبيا لم يقم حزب واحد حاكم، لم تمتلك الدولة حزباً، وبذلك حرمت الدولة في العهد الملكي من مزايا الحزب الواحد، ولم تستفد من غياب مساوئه. أصبحت البلاد كالهلام. وغاب عنصر هام من عناصر تكوين الوطن وبناء الأمة. فالأحزاب هي الخيط الذي ينضم حبيبات الوطن. ما هي الرابطة التي تجمع الناس – مثلاً – في طرابلس مع الذين يقطنون مدينة البيضاء أو غات أو مصراتة وغيرها ؟ ، كيف يتواصلون سياسياً، ويخلقون أفكاراً حول الأحلام الوطنية التي تتحول عبر الاجتماعات والمناقشات إلى مشروعات وطنية عملية في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية.

لقد قامت الوحدة الليبية سنة 1963، وقفزت ليبيا فوق المرحلة الاتحادية التي كانت تقوم على مؤسسة الولايات الثلاث برقة – طرابلس – فزان، كان يفترض أن يسمح بقيام الأحزاب بعد قيام الوحدة، لتكون تلك الأحزاب، اللاصق، أو الدابق، الذي يشكل معمل التداخل والتمازج الوطني، ويرفع درجة الوعي السياسي، القادر على تحصين الوحدة، والمؤهل لتأصيل الحرية، وإعادة صياغة كيان ليبيا الجديدة الموحدة.

لم تشهد ليبيا منذ الخليقة، أي منذ سيدنا آدم إلى اليوم، أحزاباً ساسية أو تنظيمات نقابية حقيقية، بإستثناء قشرة باهتة من الزمن، في مرحلة الوصاية، أي بعد إنتهاء الحرب العالمية الثانية، وفي مطلع سنة الاستقلال، وجد حزب المؤتمر، وحزب الاستقلال، وبعد فترة وجيزة، تبخر الحزبان، وغاب أي وجود للعمل السياسي ببعده الحزبي، أي أن الوطن كان مجرد تجمع بشري متناثر، لا يجمعه أي وعاء تنظيمي سياسي حركي.

منذ بدايات سنوات الاستقلال في الوطن العربي، منعت الأحزاب، وخضعت الأوطان، لحكم الحزب الواحد، وحتى الدول التي سمحت بتعدد الأحزاب مثل لبنان والمغرب، فإنها كانت شكلية أو طائفية، بمعنى، لم تساهم في تكريس المنظومات الوطنية، ولم تساهم أيضاً في تأطير وتحقيق الأهداف الوطنية، أما دول الخليج، فقد

أغناها النفط، والموروث الديني الجامد عن طرح أي صيغة للحياة السياسية المدنية الحديثة.

حمل الملك الراحل محمد إدريس السنوسي، موروثاً صوفياً بدوياً، مع ملامح لثقافة عامة، سياسية تشربها من مصر، عندما كان لاجئاً بها قبل استقلال ليبيا، نعم، لقد عاصر الملك إدريس، أحزاباً سياسية مصرية كبيرة، لكنه لم يتفاعل معها، ولم يتفهم كيمياء العمل الحزبي، بحكم وجوده في الاسكندرية، وحياته وسط الجالية الليبية الكبيرة، وبحكم العقلية البدوية الممتزجة بالقيم الصوفية، التي تميل إلى التوافق، والإتكاء على التراتبية القبلية والدينية.

لم يعش الملك إدريس تجربة سياسية تنظيمية، وكذلك الحاشية التي إلتفت من حوله، كانت السياسة لهؤلاء، تعني مفهوم – التدبير – ومواجهة الاستحقاقات الوطنية، بأدوات تقليدية موروثة، تقدم على تحقيق التوازن الجهوي والقبلي، بأساليب – الوجاهة، والفراسة والكياسة الواقعية.

بعد قيام ثورة 23 يوليو بقيادة جمال عبد الناصر في مصر، ألغيت الأحزاب السياسية، كان ذلك الإجراء، عاملاً حاسماً في عدم التفكير، أقول – التفكير – في إقامة حياة حزبية في ليبيا. بحكم الروابط الاجتماعية والجغرافية والتاريخية بين ليبيا ومصر، والتسليم بريادة مصر، وقبولها نموذجاً يحتذى، إضافة إلى ما يربط الملك إدريس، ومن حوله بمصر، بحكم حياتهم بها.

إذا تلاشت، معطية الحزب، ودورها الوطني في ليبيا.

وعندما وصل العقيد معمر القذافي إلى السلطة سنة 1969، وأعلن منذ الأيام الأولى، أن من تحزب خان، لم تصدم تلك المقولة الليبيين، فهو قد منع الممنوع، ألغى غير الموجود، وأعدم العدم.

وصل معمر القذافي إلى السلطة يوم 1 سبتمبر 1969، وكان الحقل السياسي الليبي بلا زرع، ولا سماد، بل كان بلا أرض. من حول ذلك الحقل، يسبح غبار، يحمل ذرات مبللة بشبح مترجرج من غبش الماضي، حماس بدائي لزفرات الإحباط العربي، شتات لأحلام وطنية، هي أقرب إلى أضغاث الرؤى، وقف معمر القذافي، أمام هذا الحقل،شبه اليباب، وأخذ يجول بأفكاره، وأحلامه، على غبار تلك الأطلال، أيقن أن بمقدوره أن يكون البذور، والسماد، والزارع، والحاصد.

من هناك، من ذاك الفصل الزراعي الإستثنائي، بدأ الطفح الذي إختزل الكثير، وإقتلع، وأبتلع.

سقت تلك المقدمة، التي حاولت فيها أن أرسم خلفية المشهد، وأستعرض مناخ المواسم، التي شكلت الملامح السياسية لليبيا في العهد الملكي، وبدايات وقوف معمر القذافي على مشارف الحقل السياسي الليبي، قبل أن أصاحب – حسونة الشاوش– كأحد الأشخاص الذين زُرعوا في ذلك الحقل. هو عينة إنتقائية، أرى أنها تحمل الكثير من مواصفات البذور التي زرعها معمر القذافي في الحقل اليباب. ليس بالضرورة، أن يكون من تلك الحبّات التي جمعها معمر القذافي شخصياً في قبضة يده، قبل أن ينثرها فوق تراب حقل عهده، وإنما هو حبّة ألقتها المرحلة بكل ما فيها من رياح ومياه، كما تنقل حبوب اللقاح من شجرة إلى شجرة، ومن موسم إلى آخر.

حسونة، هو نموذج الليبي، الذي سار على طريق سار فيها مئات اللآلاف من الليبيين طوعاً ولكن بالإكراه غير المدرك، كان ضمن القطعان البشرية التي سلكت درب العبودية المختارة. حسونة الشاوش، دخل إلى قصر السكون، لكنه إكتفى بأن يجلس القرفصاء في ركن بعيد من أركانه، لم يسع إلى مركز مشعٍّ في ذلك القصر، وإن سعى المركز إليه، لم يكن بين المتدافعين نحو الوزارة، رضى أن يكون صوتاً يردد تعبيرات الدفاع عن بعض الأحداث والحوادث. ثم أختار أن يدخل قصر – الغيبيات – عالم التصوف، والأولياء والمقابر.

قلت، أن حسونة يمثل عينة للبذور التي زرعت في حقل السياسة اليباب في ليبيا. فلماذا هو بالذات يكون تلك العينة المنتقاة ؟

أولاً : عند قيام ثورة سبتمبر كان في مقتبل العمر، أي على مشارف العشرين من العمر، ينحدر من عائلة تعتبر بمقاييس ذلك الزمن من الأسر المتوسطة الحال، فوالده كان مديراً لأحد النواحي الإدارية بطرابلس الغرب، وهذا له أكثر من معنى إداري وسياسي، أي أن له مركزاً إجتماعياً مرموقاً، فمثل تلك المواقع الإدارية، لا يملأوها إلا رجل له جذور إجتماعية موقرة، ويعتبر أحد الأعيان الذين يشار إليهم بالبنان الإجتماعي. أضف إلى ذلك أنه ينحدر من قبيلة ترهونه، وهي أحد القبائل الليبية الكبيرة، التي ينتشر أبناؤها في جميع أنحاء ليبيا بما فيها العاصمة الأولى طرابلس، والثانية بنغازي، إضافة إلى موقع ترهونة الجغرافي الهام، كرافد بشري لطرابلس حيث لا تبعد عنها إلا حوالي 60 كم تقريباً.

ثانياً : لم يواصل حسونة دراسته، توقف عند المرحلة الإعدادية، ولا أعتقد أن المانع كان مادياً، فكما قلت، كان والده يشغل مركزاً وظيفياً جيداً بمعايير ذلك الزمن، بل كان نتاج ثقوب نفسية وإجتماعية في نسيج الرؤية نحو المستقبل، وتعبير عن خلل في لوحة الأحلام والأهداف.

ثالثاً : لم يحمل على أكتافه أثقال أية إهتمامات ثقافية عميقة، ولم تتجذب شخصيته إلى أي إهتمام فكري أو هوايات تذكر، مثل الفن أو الرياضة أو غيرها.

رابعاً: لم تلاحظ عليه في كل مراحل حياته أعراض إنتماءات سياسية أو إهتمامات أيدولوجية، ولم يمتلك منهجاً من مناهج التفكير أو التحليل السياسي.

خامساً: إنصب اهتمامه على الشئون المحلية، والفئوية، وبالتالي إعتمد إسلوب "النميمة السياسية". فهو يرى مجريات الأمور في ليبيا، من ثقب التوازنات القبلية، ويقرأها، بعين المراقب، الذي يجلس في حارة من حارات المدينة، أو في – مربوعة –

يغشاها، المشائخ، والشباب، الغارقون في الشأن العام، من خلال معارك التداول على المناصب المتوسطة، الباحثون عن مواقع في معارك التصعيد للجان الشعبية، دون نسيات الإعتبارات الجهوية والقبلية، مضافاً إليها المصالح الشخصية التي ستحصد من خلال الوجود في تلك المواقع التي تسمى شعبية.

دخل إلى ذلك الحقل مثل آلاف الليبيين، بدفع رياح لم يختارها هو شخصياً مثل الكثير من أبناء جيله، فطريق العبودية المختارة لا يعبدها شخص أو أشخاص، إنما يحفرها قطاع كبير من الشعب، تحت شعارات الأحلام، وشعارات الحماس التي يرفعها عصاب الفراغ السياسي والثقافي.

وقف حسونة الشاوش في بداية الممر المؤدي إلى الحقل اليابس، عند أبواب الاتحاد الإشتراكي العربي، كما وقف غيره، إقترب من وسائل الإعلام، وعندما طارت به رياح الثورة إلى الكويت للعمل بالسفارة الليبية، نقل معه ذاته، وما حمله من ألوان المشهد الليبي العام والخاص. تنقل بين ديوانيات أهل الكويت، مستمعاً، ومشاهداً للوجه الآخر من الصوت العربي. كانت الحياة السياسية في الكويت تتحرك كبندول رتيب بين قصر العائلة الحاكمة، وأسماء سياسية أعطتها الثروة مساحة للرفاهية السياسية والإعلامية. صبّ جام أهتمامه على الشبكات الإجتماعية المتداخلة والأدوار المتقاطعة للمكونات الإجتماعية في تلك الإمارة الصغيرة.

نظر إلى عموم المشهد من ثقب الخيوط العائلية، حتى أصبح نسّابة لا يشق له غبار، من يصاهر من ولماذا ؟ ومن ذا الذي يعادي هذا الشيخ، ويتقرب من ذاك، ولماذا ؟ ومن الذي يقف وراء هذا الصحفي اللبناني أو الفلسطيني أو المصري ؟ حفظ أسماء المشائخ، وأنسابهم وأسماء أصهارهم، ولم يبتعد عن فهرس أهل السوق والتجارة، وإمتداداتهم السياسية، وتقاطعاتهم الإعلامية والاجتماعية. قرأ المجتمع الكويتي بعيون ليبية، بل ترهونية. مثل تلك القراءة " الأسمية " لابد أن تلون بتلاوة تآمرية حتى تكتسب معنى سياسياً. أضافت لغة الديوانيات الكويتية إلى حسونة قدرات

إضافية على تقليب الأوراق العائلية والقبلية، وحين عاد إلى ليبيا، حمل معه بعضاً من تلك الأمسيات ولغتها ونظرتها مثلما حمل معه شيئاً من نفحات المربوعة الليبية عندما ذهب إلى الكويت.

عاد حسونة إلى ليبيا، وهي في خضم صداماتها الواسعة والمتصاعدة مع الغرب، طاف بين الدهاليز الثورية والأمنية والقبلية، كانت البلد في حالة سيولة عاتية على كل المستويات، تركيب وتفكيك إداري لا يتوقف، صراع جهوي ومحلي وقبلي على المراكز الإدارية والمالية، عنف أعمى يضرب في كل إتجاه، الجميع يتحسس رقابه، كل الصور تتحرك بسرعة إلى درجة يصعب بل يستحيل تحديدها أو تشخيصها.

قفز بسرعة إلى موقع إداري محلي، إندفع يأمر، وينهي على الطريقة الثورية السائدة. كان من مؤهلات المسئول الإداري الذي يتلفع بعباءة الثورة، أن يظهر قدرة على تجاهل الضوابط القانونية، وأن يثبت لمن حوله أنه فوق مثل تلك العوائق التقليدية، لكنه وجد نفسه أمام ما لم يكن في الحسبان، قال لي عمار ألطيف، أنه عندما كان أميناً للرقابة الإدارية، إستدعى حسونة الشاوش للتحقيق معه في مخالفات إدارية ومالية، وقام بحبسه لعدة أيام، ومنذ تلك الحادثة أصبح شخصية أخرى، يمتليء بالتردد، ولا يوقع على أي ورقة، ولا يتحمل أي مسئولية.

قيل الكثير عن دور له في العملية الإرهابية التي قام بها كارلوس ضد وزراء نفط منظمة أوبك في فيينا سنة 1975.

وتمثل ذلك الدور كما قيل، في تقديم مساعدات لوجيستية للمجموعة الإرهابية . وقد حاولت أثناء عملي بوزارة الخارجية الليبية، الحصول على معلومات محددة حول مشاركته المدعاة، ولكنني لم أحصل على أي شيء يؤكد تلك الإدعاءات. ساورتني شكوك، عندما أعيد من المطار أثناء زيارة معمر القذافي إلى فرنسا سنة 2008،

أردت أن أعرف سبب ذلك، من باب حب الإطلاع، لم أحصل على تبرير مقنع، وظننت أن السبب قد يعود إلى خلفيات قديمة، حيث كان كارلوس سجين بفرنسا، وأن زيارة حسونة لها، أثناء وجود معمر القذافي، قد يسمم الزيارة. وهذا مجرد ظن مني.

عمل حسونة مساعداً للمرحوم جمعة الفزاني، عندما كان أميناً للوحدة العربية، وقد ساهم في إعداد مشروع الاتحاد العربي، الذي بقى حبراً على ورق. ولم تستطع تلك – الأمانة – "الوزارة" أن تحقق أي خطوة على طريق ذلك المشروع الوهمي، الذي لم يختلف عن مشاريع – أمانة – "وزارة" الوحدة الأفريقية التي كان على رأسها علي عبدالسلام التريكي.

كانت تلك الوزارة، أقصد، كما كانت تسمى " أمانة الوحدة العربية"، وزارة قبض الريح، هل كان من المتخيل، ولا أقول، من المعقول، أن تتحقق الوحدة العربية بجسم وهمي، بشغل بعض الغرف بمبنى صغير قرب وزارة الخارجية الليبية ؟!! على رأسها جمعة المهدي الفزاني، الذي كان عضواً بتنظيم القوميين العرب، قضى شهوراً في السجن إبّان العهد الملكي. كل ما يملك، كمية من الكلمات المتقاطعة، وغير المتقاطعة، تردد تعبيرات صاغها قسطنطين زريق، وساطع الحصري، ومصطلحات إستهلكها أحمد سعيد في صوت العرب. جمعة الفزاني هو من تلك النخبة المثقفة المنعزلة عن حارات وأزقة مدينة طرابلس، لم يندمج في مكونات ضواحيها التي يسكنها أناس قدموا من خارج المدينة، لا يعرف من مركباتها أو إهتمامها إلاّ القليل . مثّل حسونة الشاوش بالنسبة له العين التي ترى تلك المدينة من الداخل ليلاً ونهاراً، والأذن التي تسمع الهمس السياسي والنميمة التي تلذ للسامعين.

يلتقي الإثنان صباحاً، جمعة، وحسونة، يقدم الثاني للأول، جرعة طويلة، بالتفصيل الممل عن أخبار المدينة، وآخر خرائط الصراعات بين كباش اللجان الثورية، وسباق خيول القبائل، وأخبار المعارك المالية، لقد أدمن جمعة تلك الجرعة الصباحية التي يتجرعها وهو يرتشف قهوته، هكذا تمكن حسونة من أن ينثر الأضواء

الخاصة جداً أمام نديمه الصباحي. أما أحوال الأمة العربية، التي سُلمت حبال وحدتها إلى الاثنين، فإنها تبقى لوحة زيتية قديمة يعلوها الغبار فوق جدران ذاكرة لم يبق في رشاقتها الكثير، وأوراق تأتي من قلم القيادة، أو تذهب إليه، تحمل سطوراً تجتر حروف الوهم القومي الهادر.

خرج حسونة من تكية التيه القومي الرسمية، بعد أن حطّ الطائر الوحدي فوق أدغال أفريقيا، تدفعه الرياح الموسمية، كانت الريح هذه المرة هي إعصار قضية لوكربي، التي أغلقت مكتبي جمعة وحسونة، وفتحت باب وحدة على عبدالسلام التريكي. وعد جمعة بوزارة الثقافة، بل صدر قرار تعيينه من مؤتمر الشعب العام، لكنه بقى أسير المواعيد التي لا تهبط بها العنقاء على الأرض، فطارت وزارة الثقافة قبل أن يصل إليها. أما حسونة، فقد وجد في رفقة مصطفى الخروبي عضو مجلس قيادة الثورة، الذي يجلس بدون عمل بمكتب يجاور مكتب أبوبكر يونس جابر أمين اللجنة العامة المؤقتة للدفاع خير رفيق. هناك يتبادلان التسابيح الدينية، والحسرات المبهمة، مع ضحكات مفتعلة لا تقف عند نهايات صريحة. فمصطفى الخروبي، الذي يتقاسم مع حسونة هالات التصوف، يقيس كلماته بمساحة اذن العقيد معمر القذافي، وعندما يتحدث، يستعمل لغة التوجه إلى آلة التسجيل، التي يتصور أنها تعمل بين الشهيق والزفير.

كانت محطة حسونة الشاوش، ما قبل الأخيرة هي اللجنة الشعبية العامة للإتصال الخارجي والتعاون الدولي " وزارة الخارجية " إحتل فيها موقع الأمين المساعد لشئون الإعلام والثقافة. لم يكن بالخارجية لا إعلام ولا ثقافة. عندما عينت أميناً للخارجية، أعطيته مساحة ليكون الناطق الإعلامي. هناك كان موعده مع الكلام، إستطاع أن يبدع لغته الخاصة، التي يغلف فيها بضاعة الثورة، ويطوف حول الأحداث والحوادث برفق محسوب. أعتقد أن هذه الوظيفة، كانت أعظم الوظائف بالنسبة له، فهي لا تحتاج إلى توقيع ولا تستدعي سوى الحديث معي لدقائق قليلة،

نتفق فيها على الخطوط العامة، التي يقوم هو فيما بعد بربطها شفاهة، ويتحدث إلى هذه الوسيلة الإعلامية أو تلك لدقائق، وتغلق فوهة الحذر.

عين سفيراً في قطر، وعندما سألني العقيد معمر القذافي، عن سبب ترشيحي له في هذا المكان أي – الدوحة – أجبته، أنه سيكون سفيراً لنا لدى قناة الجزيرة، فهو يعرف الأمير، وعدداً من أفراد حاشيته، وله معرفة بدول الخليج العربي.

ولكن هذا الموقع أي وجوده كسفير لليبيا في قطر، أتى على ما بداخله وخارجه، فبعد إنطلاق ثورة 17 فبراير، وتبني محطة الجزيرة القطرية لتلك الثورة، دخل معمر القذافي في حرب إعلامية وسياسية مفتوحة مع إمارة قطر، كانت عشرات التعليمات الحادة، والمشتعلة، تأتيه من طرابلس ليبلغها إلى أعلى مستوى في قطر، لم يكن الرجل الذي غاص في ملكوت التصوف والدروشة والتسابيح، لم يكن قادراً على حمل هذا الثقل الدنيوي الساخن، مزقه الإضطراب كنت أتحدث معه بإستمرار من نيويورك، أشفقت عليه، أحسست أنه ممزق، مضطرب، يعيش حالة من الإنهيار، يفكر أحياناً في مغادرة الدوحة والتوجه إلى طرابلس، قال لي أنه لم يعد يحتمل البقاء في قطر، لا يتصور أن يكون مكتبه في نفس المدينة التي ينطلق منها الهجوم على القائد والجماهيرية. وبعد أن أعلنت موقفي من قيام معمر القذافي وأولاده وكتائبه بقتل الليبيين يوم 22 فبراير، إنقطع الاتصال بيننا. قال لي حمد بن جاسم رئيس وزراء قطر، أن حسونة قد طلب موعداً عاجلاً معه لأمر هام، فقام بإستقباله، وعندما طلب منه عرض الأمر العاجل، والهام ظل يكرر عبارات: الأمر خطير جداً ، الموقف صعب، يجلس على الكرسي، ثم ينهض ويعاود الجلوس، يتقدم نحو حمد يقبله، ثم يعاود الجلوس، وهو يكرر: الأمر خطير جداً ، الموقف صعب. غادر مكتب رئيس الوزراء، دون أن يقدم أي رسالة.

عند إنهيار نظام القذافي، وإنتصار ثورة فبراير، بقى حسونة في الدوحة، يواصل جرّ مسبحته، ويقرأ أوراده، ويعتمر الصمت.

جاء حسونة من قارعة الزمان الليبي اليابس سياسياً، وقف على حافة الحقب اليباب، كان مثل آلاف الحبّات التي ألقيت تحت قشرة الأديم، لم تنفلق تلك الحبوب، كما تفعل كل البذور، لقد ارتفعت على السطح، وريقات أخرى خضراء، كانت أوراق بلاستيك صناعية، لا تثمر ولا تزهر، لا ترسل حبيبات اللقاح ولا تستقبل.

إخترع زمانه ومكانه الخاصين، فقد فرَّ إلى كهوف التصوف، وأدمن زيارة المقابر للتبرك بقبور الأولياء، لقد إكتشف حقيقة الحقل الذي لا ينبت شيئاً، وكأنه إعتنق قول الشاعر علي إبن الجهم:

يشتــاق كـلُّ غريب عند غُرْبَتِهِ

ويَذْكُـرُ الأهلَ والجيرانَ والوطَنـاَ

وليس لـي وطنُ أمسيتُ أذكـرهُ

إلاَّ المقابِرَ إذْ صارتْ لهمِ وَطَنَـا

قلت في بداية هذا الفصل، أن حسونة الشاوش، يمثل عينة إنتقائية لجيل ليبي كامل، وجد نفسه – دون إختيار – وسط ريح محشوة بغبار مبلل تسيح فوق يباب. عندما أفاق إكتشف أنه ما يطفو فوق التراب مجرد مزق من البلاستيك، لا حياة فيه. كان هو المتحدث الرسمي باسم الجماهيرية العظمى، وبعد إنطلاق ثورة 17 فبراير، سكن كهف الصمت، لم يناصر الثورة، ولم يقل كلمة واحدة عن معمر القذافي وحربه ضد الشعب الليبي، تخندق في الدوحة، أرض العدو كما سمّاها يوماً، فقد أبدعت له الأيام مكاناً آخراً ولكن من أين سيأتي بالزمن الجديد ؟

أبوزيـــد عمـــر دوردة

أبوزيـد عمـر دورده

أبوزيد دوردة، هو دم نظام الثورة، والجماهيرية، ومعمر القذافي، تغيرت أسماء النظام من الجمهورية العربية الليبية، إلى الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية، قبل أن تضاف إليها صفة العظمى، بقي أبوزيد يجري في مفاصل النظام، يتدفق بين الأوردة والشرايين، يسكن الخلايا، ويساهم في إستمرار الحياة في جسد نظام معمر القذافي، شكل مع عدد قليل مكونات كريات الدم الحمراء والبيضاء وقلما إبتعد عن الدورة السياسية.

ولد لأب يعمل بالشرطة السرية، متوسط الحال، يقول عنه من عرفه، أنه رغم تواضع وظيفته، إنتزع مكانة إجتماعية قدرها له أهل قريته- الرحيبات- بالجبل الغربي، كريماً، شهماً، يقدر الصداقة، ويلعب أدوار المصالحة الاجتماعية. مثل الكثير من أبناء جيله في الخمسينات، والستينات من القرن الماضي، أضطر أن يبحث عن فرصة للعمل وهو طالب، فعمل بإحدى شركات النفط، وأنتسب إلى كلية الأداب بجامعة بنغازي وتخرج من قسم التاريخ بها لينضم إلى سلك التدريس، ويذكره الكثير من طلابه الذين درسهم بمدرسة طرابلس الثانوية بعبارات التقدير.

لم يعرف عنه نشاط سياسي أو حزبي قبل أول سبتمبر 1969. وربما كان في المجالس الخاصة والمغلقة يتحدث مع أصدقائه وزملائه عن سلبيات النظام الملكي، ويعبر عن ميوله القومية أو الناصرية، فلقد قدمه بعض معارفه الذين لهم علاقة برئيس وأعضاء مجلس قيادة الثورة لهم مبكراً، وعين محافظاً لمصراتة، وقد إستشاط أسمه إنتشاراً بعد أن قام بضرب أحد المواطنين بمصراتة وحكم عليه بالسجن، وأصدر المؤتمر القومي العام – للإتحاد الإشتراكي العربي- قراراً بالإفراج عنه.

عين بعد ذلك وزيراً للإعلام والثقافة، حيث إندفع بقوة للعمل المباشر والقوي من أجل تصدير توجهات الثورة، وشرح أهدافها، وتعبئة العرب لمساندتها. وحاول أن يجسد طموحاته العربية في أدوات فاعلة، فقام بالتواصل مع بعض الصحفيين العرب،

وخاصة اللبنانيين. وساعد بعضهم على إصدار مطبوعات يومية وأسبوعية، فمول مجلة، بيروت المساء، لأمين الأعور، والكفاح العربي لوليد الحسيني، والسفير لطلال سلمان، وكان مكتبه يعج بكل من لبس عباءة العروبة، وهتف باسم الوحدة العربية، وإمتطى كلمات الثورة.

لم ينحصر دوره في الحلقة الإعلامية والثقافية، بل أقحمه معمر القذافي في المهام السياسية ذات الطابع الحساس. فأوفده في مهام رسمية إلى دول عربية وأفريقية، ولعل أكثر تلك المهام حساسية، عندما ساهم في أحد المؤتمرات الأفريقية بأديس أبابا مقر منظمة الوحدة الأفريقية، وشن هجوماً صاعقاً على إمبراطورها هيلا سلاسي، وصفه بالعمالة والرجعية والتخلف، ألقى ما جاء في الوصفة – الروشته – السياسية التي كتبها له معمر القذافي، الذي لم يحمل وداً في يوم من الأيام للإمبراطور هيلا سلاسي، أحدثت تلك الكلمة المتفجرة ردود فعل مزمجرة، تخطت قاعة المؤتمر، لتتناقلها وسائل الإعلام عبر العالم. بعد مدة ليست بالطويلة، قامت مجموعة من ضباط الجيش الأثيوبي بإنقلاب عسكري أطاح بالإمبراطور، وبدأ عهد من التقلبات العسكرية، قام فيه ضباط الإنقلاب بتصفية بعضهم. وقد ظل أبوزيد يكرر بزهو كبير أنه هو من فجرّ ذلك الإنقلاب بكلمته المتفجرة ضد هيلا سلاسي في عقر إمبراطوريته.
كان أبوزيد يتقن مثل تلك المواقف، ويؤديها بدقة وحماس، هو أقرب إلى الملاكمة السياسية من الوزن الثقيل، لقد كان موقفه وحديثه في أديس أبابا يشبه إلى حد بعيد ما قام به القائم بالأعمال الليبي ذات مرة في زائير أمام الرئيس الزائيري الراحل موبوتو سيي سيكو. إذ أستلم القائم بالأعمال برقية عاجلة من طرابلس، تتضمن رسالة من العقيد معمر القذافي إلى الرئيس الزائيري، وصل القائم بالأعمال إلى القصر الرئاسي في الموعد المحدد له يصحبه مترجم، وبعد أن جلس الدبلوماسي الليبي وفرغ من شرب كأس الشاي الذي قدمه له، طلب منه الرئيس أن يقرأ الرسالة، بدون مقدمة

دبلوماسية، أو عبارات تحية إنطلق الدبلوماسي قارئاً يقول:" أنت رجل فاسد، سارق، عميل، مجند للإمبرالية والصهيونية، خائن للقضايا الأفريقية، سيقتص منك شعب الكونغو، فأنت المجرم الأكبر الذي قتل أحد رجال افريقيا العظام، باتريس لولمبا..." إلخ. بعد أن أكمل الدبلوماسي الليبي قراءة معلقة الشتائم والإهانات والتجريح والتجريم، صمت الرئيس قليلاً، وضغط على جرس بجانبه، فدخل أحد مساعديه، همس الرئيس في أذنه فهرول خارجاً، وبعد ثوان دخل أربعة من الرجال الغلاظ الشداد، وأنهالوا على القائم بالأعمال بالضرب واللكم، بالأيدي والأرجل، هرب المترجم إلى زاوية المكتب الرئاسي مرتعباً مرتعداً، وهو يشاهد هذا الحفل النادر من اللغة الدبلوماسية العملية الأفريقية. بعد أن غاب الدبلوماسي التعيس عن الوعي، تكرم الرئيس سيي سيكو، وطلب أن تحضر نقالة ترفع الدبلوماسي إلى خارج مكتبه. لم يجد الرئيس الزائيري، رسالة رد مناسبة على رسالة العقيد القذافي غير تلك التي كتبها مصارعوه فوق جسد مبعوث العقيد.

كان ممكن للوزير أبوزيد دوردة أن يستلم رسالة مماثلة في أديس أبابا، غير أن الأمبراطور هيلا سلاسي، كان من طينة مختلفة، فهو من أسرة عريقة مقدسة، وأرض منظمة الوحدة الأفريقية، أرض محايدة، لا يمكن أن يطال من يطأها أي سوء، وإن تجرأ وقال ضد الإمبراطور شخصياً مثل الذي قاله أبوزيد.

قال لي إبراهيم إبجاد أحد رفاق معمر القذافي في الدراسة بسبها، وعضو الخلية الأولى في التنظيم المدني، والذي عمل مع أبوزيد دوردة مديراً لإدارة الاستعلامات بوزارة الإعلام والثقافة، قال: أن أبوزيد تتلبسه أحياناً روح معمر القذافي، يتماهى معها، ويندفع في تعبيرات ومواقف تعتقد أنها صادرة من أعماق معمر، ولا إختلاف بينهما سوى الصوت المعبر عن تلك المواقف.

لقد إنتقلت تلك الحالة إلى روح أبوزيد وعقله، وسكنت كل حواسه، وأصبحت تلك الحالة تكبر إلى أن إمتلأ بها وإمتلأت به. يلبس أحياناً بدلة كاكي، والحذاء العسكري

الطويل، ويتصرف بطريقة عسكرية، يسابق الوقت في تناوله للملفات، وفي إتخاذ القرارات.

قبل أن يصدر معمر كتابه الأخضر، تشتت بعض أفراد الحلقات الثورية فكرياً، فهناك من إنتمى إلى تنظيم الطلبة العرب الناصريين، وهناك من أقترب من فكر الدكتور عصمت سيف الدولة، الذي ألف كتاباً ضخماً، أعطاه إسماً مباشراً – نظرية الثورة العربية. رفع الناصريون أصواتهم، وأتهموا أبازيد بأنه وآخرون يتبنون ما جاء في كتاب عصمت سيف الدولة، وبدأ التنابز بالأيدولوجيات، إلى أن وصل الأمر إلى حد المواجهة السياسية بين الطرفين. إعتقد الناصريون، إن معمر القذافي هو من يتزعم مذهبهم الناصري، وبالتالي فهم المدافعون عن مذهب قائدهم، وكل من له توجه غير ذلك، فهو غير مخلص لمعمر، بل متآمر ويريد فرض فكر غير ذلك الذي يؤمن به قائد ثورة الفاتح، أي قائدهم الناصري.

لقد عشتُ تلك الفترة التي أخذت مكانها في مطلع السبعينات من القرن الماضي. فقد تجمع في ليبيا، خاصة بعد حركة 15 مايو سنة 1973 في مصر، التي قام فيها الرئيس الراحل أنور السادات بالتخلص من رجال عبدالناصر، تجمع عدد لا بأس به من الذين كانوا ينتمون إلى التنظيم الطليعي في مصر، إضافة إلى الكثير من العرب الموالين لعبد الناصر سياسة أو فكراً، وعمل نفر منهم بوسائل الإعلام الليبية، وترددوا على أروقة الاتحاد الاشتراكي العربي بقصر الشعب بطرابلس، وتواصلوا مع الضباط وبعض كبار الموظفين في المكاتب نهاراً، وفي المنازل ليلاً، بالطبع لم يخل كل مجلس من المتعاونين مع الأمن.

في ذلك الوقت، قام أبوزيد دوردة بكتابة المقالات الصحفية، وكان من المتشددين في موقفه من السادات منذ نهاية حرب أكتوبر، بدأ يطرح نفسه كمفكر ومنظر. إلتقى مرات عديدة بالدكتور عصمت سيف الدولة، وجرت بينهما مناقشات طويلة، ونشأت بين الاثنين صداقة، ولم يجد غضاضة في الاستشهاد أحياناً بطروحات عصمت

سيف الدولة الفكرية التي تطرح أسس يرى أنها تلقي أضواء علمية وموضوعية على الأهداف القومية العربية وتحدد الطرق والوسائل القمينة بتحقيق تلك الأهداف.

في حين يرى أولئك الذين إنتظموا في رابطة الطلبة الناصريين أن فكر جمال عبدالناصر، هو الفكر القومي الذي لا يمكن أن يعلوه غبار، وكل من يحيد عنه، أو يرفضه ليس من العروبة في شيء.

قام معمر القذافي بعد ذلك بتحجيم العناصر الناصرية بطرق مختلفة، ولم ير ما يزعجه من العصماويين، وهم أولئك الذين نعتهم الناصريون بأنهم أتباع فكر عصمت سيف الدولة. ولكنه أخضع أبا زيد لإختبار.

بعد أن شرع معمر القذافي يطرح أفكاره التي سينشرها فيما بعد في الكتاب الأخضر، والتي أسماها بالنظرية العالمية الثالثة، عقدت دورة من دورات المؤتمر القومي، وجرت العادة أن تصدر عنه مطبوعة، تولى رمضان عبدالله ، وهو أحد أبرز زعماء رابطة الناصريين الإشراف على تلك المطبوعة، ووضع وسط صفحاتها مختارات من أقوال الرئيس الراحل جمال عبدالناصر، طلب القذافي من أبي زيد دوردة أن يتولى الإشراف على المطبوعة، في العدد الثاني والذي صدر بإشراف أبي زيد دوردة، حّلت أقوال معمر القذافي محل أقوال عبدالناصر، وبمجرد أن أستعرض القذافي المطبوعة، هتف بأعلى صوته:" هذا هو الوعي الحقيقي، والحس السياسي والإعلامي المرهف، الآن أصبحت هذه المطبوعة تعكس رأي الشعب الليبي وأفكاره".

ولكن معمر القذافي رغم ذلك الإختبار السياسي لأبي زيد دوردة، لم يغفر له مغفرة كاملة، فنقله من وزارة الإعلام إلى وزارة الخارجية، ولكن بدرجة وكيل وزارة التي كان يقودها الرائد عبدالمنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة، ونصب صديقه وزميله القديم في الخلية المدنية الأولى محمد بلقاسم الزوي، وزير دولة للإعلام.

أما الناصريون فقد أعد لهم سيناريو آخر، حمل مشاهداً من العقوبة والاستخفاف والترهيب.

رمضان عبدالله، عريف في البوليس الليبي، زرعته أجهزة الأمن بين صفوف الطلبة العرب الناصريين في ليبيا، تطور داخل تلك الصفوف، وأرتفع إلى درجة المنظر المتشدد، والمنظم المنضبط، وأصبح يقود الجناح الناصري في ليبيا، ويرفع صوته منتقداً التوجه التحريضي لمعمر القذافي، وإنسلاخه عن مباديء " الزعيم جمال عبدالناصر".

أصدر معمر القذافي تعليمات مباشرة، ومشددة إلى وزير الداخلية، بإعادة رمضان عبدالله إلى صفوف البوليس، وأن يلبس بدلته الرسمية وعليها رتبة العريف، وأن يقوم بحراسة بوابة أحد المصارف بميدان الشهداء " الساحة الخضراء " بقلب مدينة طرابلس. وصدرت الأوامر بطرد الطلبة الناصريين من غير الليبيين. وهمش الليبيون أعضاء الرابطة الناصرية.

لم يستنكف أبوزيد العمل في موقع وكيل الوزارة تحت رئاسة عبدالمنعم الهوني وزير الخارجية وعضو مجلس قيادة الثورة، وأستولى بدعم من معمر القذافي على مساحة كبيرة من الإختصاصات بها. حشد العشرات من أصدقائه القدامى الذين عملوا معه في مجال التدريس، وبعض العناصر الذين عملوا تحت أمرته بوزارة الإعلام، حشدهم بوزارة الخارجية، أرسل العديد منهم كسفراء أو دبلوماسيين في السفارات الليبية.

في مايو 1975، أعلن عن مؤامرة يقودها الرائد عمر المحيشي، وأُتهم عبدالمنعم الهوني بالمشاركة فيها، كان عبدالمنعم، يشارك في مؤتمر لوزراء خارجية عدم الإنحياز، وعلم من خلال إتصالاته بطرابلس أن إسمه مدرج على قائمة المتآمرين. ذهب إلى روما، وأنتظر أسابيع قليلة وعندما تأكد بأنه من المطلوبين بقى في الخارج ولم يعد إلى ليبيا.

وهكذا أصبح أبوزيد دوردة عملياً هو وزير الخارجية، وإن أستمر يحمل صفة الوكيل.

لم يتقبل عبدالمنعم منذ البداية وجود أبى زيد جانبه بوزارة الخارجية، ولم يخف ذلك، وبادله أبوزيد نفس الموقف، فقد كان يتخذ قرارات هامة دون الرجوع إلى الوزير، يتصل مباشرة مع معمر القذافي، ويتفق معه على الكثير من الأمور دون علم

عبدالمنعم، وعندما يشتكي هذا من تقافز الوكيل على إختصاصاته، يقوم القذافي بتمثيل دور الغاضب من أبي زيد والمنتصر لعبدالمنعم.

شرع أبوزيد يضع إستراتيجية العمل الخارجي، أعد الخرائط، وكتب الخطط الإستراتيجية، وحشد العناصر من مدرسين زملاء له، وإعلاميين عملوا معه، توسع في إنشاء السفارات. من أمريكا اللاتينية، إلى جزر المحيط الهادي، وأفريقيا، وآسيا، تهدف الإستراتيجية إلى محاصرة أوروبا، والإتحاد السوفييتي- وأمريكا، وأن يكون لليبيا مجال حيوي، لم يكن هذا سراً، فقد ألقى أبوزيد المحاضرة تلو الأخرى في الملتقيات التسييسية، والثورية يشرح تلك الإستراتيجية على الخرائط، بإسهاب وحماس وقناعة. وزار دولاً عربية وإسلامية وأفريقية وغيرها من أجل تفعيل تلك السياسة، وتجنيد الدول والحكومات كي تكون في خدمة طموحات الثورة الليبية.

كانت تلك التصورات هي نقطة الإنطلاق في التدخلات الليبية في سياسات دول الجوار، وإمتداداً إلى أقصى جزر الأرض شرقاً وغرباً. ودعم ما عرف بحركات التحرر.

وحتى عندما غادر مبنى وزارة الخارجية متنقلاً بين وزارات الإقتصاد والبلديات والزراعة، لم يقطع صلاته الرسمية ببعض الدول مثل بلغاريا وبولندا التي كان يرأس جمعية الصداقة معها، وأسس بوارسو مجلة دورية، تتناول موضوعات ثقافية وتاريخية وإقتصادية. كما أرتبط بعلاقات واسعة مع تركيا وتونس والجزائر.

عندما تدخلت ليبيا في أوغندا دعماً للجنرال عيدي أمين داده ضد الثائرين عليه الذين تدعمهم تنزانيا، كلف بالإشراف على التسهيلات اللوجستية، إلتقيته بفندق قصر ليبيا، بحضور كل من نوري الحميدي، ووليد الحسيني، كانت لدي ملاحظات على ذلك التدخل منذ البداية، وبحكم العلاقة الودية التي تربطنا تحدثت إليه بصراحة يقبلها دائماً مني، وقلت له أن تدخل أي دولة في شئون خارج حدودها، لا يعود عليها إلاّ بالخسائر البشرية والمادية، وحتى الدول الكبرى لا تستطيع تحمل ذلك، وسقت له أمثلة عديدة من التاريخ البعيد والقريب. كانت حجته أن عيدي أمين زعيم مسلم وهناك

مؤامرة محكمة ضده تقودها الكنائس العالمية، وينفذها الرئيس التنزاني جوليوس نيريري الذي يكره المسلمين والعرب، وقد نكل بهم في زنجبار من قبل وضم تلك الجزيرة التي يسكنها مسلمون من أصول يمنية وعُمانية إلى تنجانيقا وأطلق على الدولة الجديدة اسم تنزانيا.

تنقل أبوزيد بين مواقع وزارية ومؤسساتية، ليس لها صلة بتخصصه، ولا يوجد رابط فني بين تلك الوزارت، فقد تنقل بين وزارات البلديات والاقتصاد، والإعلام، والخارجية، والزراعة، ومندوب ليبيا بالأمم المتحدة، السكك الحديدية، البنية التحتية، وختمها بالأمن الخارجي، وكان بئس الختام. كان – بلا منازع – أكثر الوزراء تنقلاً بين كراسي الوزرات والمؤسسات. لماذا ؟

هذه الحركة المستمرة لأبي زيد بين الوزرات والهيئات والمؤسسات العامة، تجيب على مدى الثقة التي وضعها معمر القذافي فيه، أيضاً يؤكد قول إبراهيم إبجاد من أنه يتماهى مع شخصية معمر القذافي، وروحه إلى أن إمتلأت الشخصيتان ببعضهما. عندما تهيمن فكرة أو برنامج أو سياسة ما على فكر معمر القذافي، ويريد بل يصر على تطبيقها بأي ثمن، فإنه يكلف بها أبوزيد دوردة.

أبوزيـــــد الإشتراكـــــي

في بداية عقد الثمانينات شرع معمر القذافي في تنفيذ أفكاره في النظرية العالمية الثالثة التي طرحها في الكتاب الأخضر، الجزء الثاني من الكتاب هو الركن الإقتصادي أو ما أسماه بالاشتراكية، بعد أن طبق الجزء الأول من الكتاب، الذي أسماه الركن السياسي – الديمقراطية – وتوجها بإعلان الجماهيرية، بإعلان قيام سلطة الشعب في مارس 1977 على أساس المؤتمرات الشعبية واللجان الشعبية.

وفقاً لأفكار معمر القذافي، فإن الإشتراكية، لا تقوم على ما سارت عليه التجارب الإشتراكية السابقة وخاصة تلك الشيوعية، التي تركز على ملكية الدولة لوسائل

الإنتاج، هو يقول أن الإشتراكية التي يكرسها تقوم على ملكية – المجتمع – وليس الدولة. في ليبيا لا يوجد إنتاج أصلاً، فهي تعيش أساساً على اقتصاد ريعي، فأكثر من 90 % من الموارد تأتي من النفط، ولا توجد زراعة أو صناعة أو خدمات بالمعنى العلمي. كان الناس يرون الاقتصاد من خلال عملية واحدة من عمليات الاقتصاد وهي التجارة. ركز معمر في خطاباته ومحاضراته على التجارة، ولا ينسى الليبيون أحاديثه المطولة، والمتكررة عن الحاج عمر، والحاج مفتاح وغيرهما من الحجاج، الذين يمتلكون المتاجر، يشترون البضائع بسعر، ويضيفون إليها مبالغ أخرى عند بيعها– للمغفلين– كما أسماهم العقيد. وأختصر التخلص من عملية الاستغلال هذه بأن يتحول المجتمع إلى تاجر، يشتري بنفسه ويبيع لنفسه. كان معمر القذافي قد أمم التجارة الخارجية، منذ السبعينات، ولكن بقى التجار الأفراد يشترون البضائع التي تستوردها الدولة، ويقومون ببيعها للأفراد. بعد الشروع في تطبيق الجزء الثاني من الكتاب الأخضر، تم إستيلاء الحكومة على جميع منافذ ونوافذ البيع. إمتلكت الحكومة عن طريق أمانة الاقتصاد حتى محلات بيع الخضروات والخردوات. وتحول عشرات الآلاف من المواطنين العاملين في قطاع التجارة إلى موظفين يتقاضون رواتباً من الدولة ويعملون فيما عرف بالأسواق العامة.
تم الشروع في بناء "الأسواق المجمعة". وهي عبارة عن هياكل حديدية مختلفة الأحجام، مقسمة إلى أجنحة، تعرض فيها البضائع المختلفة، يتولى إدارتها والعمل بها موظفون، بعضهم من أصحاب المتاجر السابقة، وآخرون تم إختيارهم من الموظفين العاملين أصلاً بإدارات الحكومة، طبعاً، لم يخل ذلك الإختيار من الإعتبارات الإجتماعية، والقرابة والعلاقات الخاصة. كان إقناع الناس بصواب تلك الأفكار التي طرحها القذافي في الكتاب الأخضر، هدفاً أساسياً.
بعد أن تم إنجاز تلك الأسواق تحت إشراف أبي زيد دوردة، غادرت الوفود الليبية شرقاً وغرباً للتعاقد على السلع التي ستملأ تلك الهياكل الحديدية، التي عرفت باسم الأسواق المجمعة. كانت تلك بداية – أيدولوجية – الفساد الشامل في ليبيا. يُرسل، مثلاً،

شخص، لا علم ولا تجربة له في مجال التجارة، أو قواعد التعاقد، يرسل إلى الصين، أو تركيا، أو إيطاليا، للتعاقد على مواد بعشرات الملايين من الدولارات، ويعطي علاوة سفر في حدود أربعة آلاف أو خمسة آلاف دولار، هناك، في الدول التي سيشتري فيها البضائع، يستقبله التجار والسماسرة، يقدمون له الأموال، ويوفرون له كل ما يريح المزاج نهاراً وليلاً، كان هذا في البداية، ثم إنتشرت حفلات العمولات والرشاوى.

عندما تصل البضائع إلى الأسواق، تباع بأسعار رمزية، أصبحت ليبيا أرخص دولة في العالم، كيف لا يقتنع الناس بأن أفكار العقيد صحيحة، فهاهم الناس يشترون كل شيء بأرخص الأسعار. ومن ذي الذي يستطيع أن يقول، إن الإستغلال، وإرتفاع الأسعار الذي كان سائداً في البلاد، لم يكن سببه الحجاج، أي الحاج مفتاح، والحاج عمر، والحاج أبوعجيلة، على حد قول معمر القذافي.

لم يتوقف الأمر عند ذلك الحد، فلا بد من إيقاف جميع الحجاج عن ممارسة إستغلال المواطن، فالحجاج لا يوجدون فقط في المتاجر، أنهم يسيطرون أيضاً على تجارة اللحوم، فالجزار، لا يذبح الحيوانات فقط، إنما يذبح الناس أيضاً بسكين الإستغلال، فمنع الجزارون من ممارسة مهنتهم، وأصبحت اللحوم تباع في الأسواق العامة، يوضع اللحم في أكياس، ترمى إلى المواطنين الذين يقفون في طوابير طويلة في إنتظار الحصول على لحم الحكومة. وفي هذا المجال فإن هناك عشرات الحكايات والنوادر التي لا ينساها معظم الليبيين. فقط إنتقلت المجازر، إلى المزارع والبيوت، حيث تباع اللحوم سراً ولأهل الثقة كما تباع المخدرات والخمور. ضاعف الجزارون الأسعار، مضافاً إليها الجميل والمرؤة التي يضعونها في أكياس اللحوم. ولم تكن ظاهرة حرق الأسواق في نهاية كل عام، عند بداية ما يعرف بالجرد السنوي لها، سراً خافياً. يتلاعب العاملون بها بالبضائع، يسرقونها ويسرقون المبالغ التي تم تحصيلها من عملية البيع، ثم يطبقون مقولة – النار ولا العار. ظهرت طبقة جديدة من الأغنياء، وهي تلك الفئة التي تعمل بالأسواق العامة. لم تخف الطبقة الثراء الذي هبط فجأة من سماء الإشتراكية، فلم يعد من المستغرب أن تجد شخصاً، كان قبل

إنضمامه إلى العمل بالأسواق العامة، ساعياً، أو عاطلاً، أو سائقاً، قد أصبح خلال شهور، من أصحاب القصور، والسيارات الفخمة، ومئات الآلاف من الدنانير، وإن كان مديراً لأحد الأسواق، وزار بعض الدول للتعاقد على البضائع، صار من أصحاب الملايين. أصبحت هذه الظاهرة هي الوجه الآخر لإشتراكية الأسواق العامة. تحولت فكرة الأسواق العامة، إلى مراكز تكرس فكر الفساد العلني، وقد سرى ذلك في كل مفاصل ليبيا الجغرافية والإجتماعية، وسيبقى يفعل فعله لسنوات طويلة قادمة.

أممت الحكومة أيضاً المصانع الصغيرة والمحدودة التي كان يمتلكها القطاع الخاص، زحف عليها المنتجون، وهم العمال الذين لا يعملون، وعين على رأس هذه المصانع لجان لإدارتها من هؤلاء العمال الذين لا يعرف بعضهم الفرق بين القسمة والضرب، أو الجمع والطرح، وصار التعاقد على شراء مواد التشغيل من الخارج، أسرع عملية للثراء، وعن الإنتاج لا تسأل. أما شركات المقاولات التي – زحف – عليها العمال، فقد نهبت أصولها، وأختفت من الوجود خلال شهور كثير من الشركات الخاصة الكبيرة.

حدثني المرحوم سالم أحمد جلود أحد قيادات العمال – المنتجين – في ليبيا، قال أنه بناء على تعليمات من العقيد معمر القذافي، زحفوا على شركة كبيرة للمقاولات يملكها رجل الأعمال الكبير الحاج علي النايض، كان للشركة مخازن ضخمة غرب طرابلس، قرب مدينة الزاوية، ضم أحد المخازن كل أنواع قطع الغيار الصغيرة جداً والضخمة جداً، قدرت المواد الموجودة بذلك المخزن بعشرات الملايين من الدينارات الليبية، عندما وصل العمال إلى المخازن وجدوا بها عدداً من الإيطاليين الذين يقومون بإدارتها، كان القرار الأول الذي أتخذه العمال الثوار هو طرد الإيطاليين القائمين على المخازن، فهم يتقاضون أجوراً عالية جداً، حيث يتقاضى العامل الإيطالي شهرياً راتباً يعادل رواتب عشرين من العمال الليبيين. نُفِذَ قرار طرد الإيطاليين فوراً. بالطبع أراد المالكون الجدد إستعمال تلك المخازن، يقول سالم جلود:" أردنا في اليوم الأول الحصول على كمية من المفاتيح تستعمل في فك عجلات السيارات، فلكي نصل

إليها، أضطررنا لإنزال كمية كبيرة من القطع الأخرى، وعندما أحتجنا لقطع غيار المحركات، أضطررنا لنقل دواليب الناقلات الكبيرة، المهم بعد أربعة أيام لم نستطع الدخول إلى المخزن الكبير، فقد تكدست مواد مختلفة في كل مكان، وأصبحت الحركة مستحيلة داخله".

كان العمال الإيطاليون خبراء في إدارة المخازن، من حيث التخزين، والإستخراج، من خلال أساليب علمية توثيقية. ضاعت جميع المواد التي كانت بالمخازن.

كان معمر القذافي يعتبر التكنوقراط من الرجعيين المعادين للثورة، وعندما يريد أن يخفف عنهم التهمة يصفهم بالجبناء المترددين، فهم يتحدثون دائماً، عن الخطط، والبرامج، والتدرج في تنفيذ القرارات، وإعداد العناصر البشرية اللازمة لذلك في متسع من الوقت.

وإذاً، كما يرى القذافي، لابد أن يقوم الثوريون الشجعان بقيادة تلك التحولات التي كان يصفها بالتحولات التاريخية الخطيرة.

كان أبوزيد دوردة دائماً على رأس هؤلاء الثوريين الشجعان. فهو يتقدم بجرأة نحو تنفيذ ما يطلب منه مباشرة دون تردد ولا يأبه بتحفظات وتردد التكنوقراط. هكذا كان أبوزيد هو رئيس الأركان في معركة التحول إلى الإشتراكية التي كان قائدها الأعلى العقيد معمر القذافي.

وعندما أراد القذافي تغيير خارطة الزراعة في ليبيا، نصب أوزيد وزيراً لها، وحشد إلى جانبه ثلة من الوزراء السابقين بينهم مفتاح كعيبة وآخرين، وقسمت البلاد إلى مناطق، كلف كل مساعد من مساعدي أبوزيد بمتابعة إجراءات تنفيذ تلك الخارطة الجديدة. أراد أبوزيد ترشيد إستخدام المياه في الزراعة، فأصدر أوامر مشددة في ذلك. وحدد مواقيتً لعملية الري، وعبأ أسطولاً من الطائرات لمراقبة تنفيذ ذلك.

وهكذا، فكلما أرد معمر القذافي إقتحام مساحة جديدة من مساحات البرامج الثورية الجذرية، وضع أبوزيد في مقدمة كتائب التنفيذ. سواء في المجال الإداري عندما عينه وزيراً للبلديات، أو في الاقتصاد والزراعة.

في سنة 1990، أحس معمر أن هناك حالة إسترخاء إدارية قد عمت البلاد، فالتغيير المستمر للقيادات الجهوية والمركزية، والتنقل بين مفاهيم الإدارة الثورية، والإدارة الشعبية، والإرتباك الإقتصادي، وإستشراء الفساد، وضعف سيطرة الدولة على الهيئات والمؤسسات الإدارية والمالية، وظواهر السخط التي بدأت تتصاعد وتتسع بين الليبيين، كل ذلك دفع العقيد القذافي إلى وضع أبوزيد على رأس الهرم الإداري، أي في منصب أمين اللجنة الشعبية العامة– رئيس الوزراء.

كان هاجس معمر القذافي المزمن، أن يجعل مسقط رأسه سرت عاصمة للبلاد، أنفق مئات الملايين من الدولارات والدينارات ليحولها إلى مدينة حديثة، شيد فوقها المباني الإدارية، والعمارات السكنية، شقت الطرق الحديثة المزدوجة، وزرعت الحدائق، وبني بها مطار دولي، ومعسكرات بلا حدود، وكانت ذرة تاجها المجمع الإداري الحديث والضخم الذي نفذته شركات إيطالية.

شيد بها أيضاً مركب كبير به بيوت خاصة بسكن الأمناء– الوزراء – أقام رئيس الوزراء مع وزرائه بسرت، باشروا أعمالهم منها، وعقدوا الإجتماعات في قاعاتها الجديدة الفخمة.

إستقر أبوزيد وعائلته بسرت، سكن في المجمع المخصص للوزراء، رغم أن جلهم لم يصطحب العائلات، إكتفوا بحضور الإجتماعات بالعاصمة الوسطى، التي قال عنها القذافي أنها وسط ليبيا جغرافياً، وبها وقعت معركة القرضابية ضد الإيطاليين التي شارك فيها مجاهدون من كل أنحاء ليبيا، رأى أن هذين العاملين، الجغرافيا والتاريخ، يؤهلان سرت لتكون عاصمة البلاد، طبعاً لم يعلن السبب أو العامل الثالث– المسكوت عنه – وهو أنها مسقط رأسه، يعطي قرية سرت التي حولها إلى مدينة يعطيها القوة أن تكون عاصمة البلاد.

لم يخفت أبوزيد صوته، وهو يعلق على سرت وعدم قبوله لها، إذا سألته وأنت تحادثه بالهاتف:" أين أنت؟"، يجيبك ضاحكاً ساخراً:" أنا في سرت حاشاك**!**".

كانت خيوط الدولة قد أصابها الوهن، إرتخت مفاهيمها، إرتبكت الإدارة، كان الحمل أثقل من الجميع بمن فيهم أبوزيد.

لا شك أنه ساهم في ما وصلت إليه الأمور، لم يكن يعلم أن ما يقوم به وهو في كل المواقع يعني تفكيك مفاصل الإدارة بل الدولة، والآن عندما حاول أن ينطلق بماكينة الدولة، وجد أن المحرك مفككاً ولا إمكان للحركة في أي إتجاه.

حاول الإجتهاد، والإستعانة بوجوه جديدة، وإبداع آلية أخرى لإدارة الدولة، لم ينجح، وفسر القذافي تلك المحاولات بأنها خروج عن النص.

كان لأبي زيد قدرتان، أولهما إجتذاب الأصدقاء، والمقدرين لجوانب الشهامة في شخصه.

والقدرة الثانية، صناعة الأعداء، فهو حاد في حديثه مثلما هو حاد في سلوكه، يحب بقوة ويكره بقوة، إذا زكى شخصاً، فمن الصعب أن يقبل فيه نقداً وإن كان ذلك النقد موضوعياً.

لم يخف عداءه لحركة اللجان الثورية، تناقل الناس عنه قوله:" كل حركة فيها بركة إلاّ حركة اللجان الثورية"، لم يتوقف صدامه مع عناصرها وبشكل علني.

بدأ أيضاً ينتقد الكثير من السياسات الإقتصادية والإدارية، دخل إلى مرحلة – عودة الوعي – وسع مساحة العقل لديه، وإذا كان في مطلع حياته الوزارية قد وجهت إليه تهمة العصماوية، أي الإنزياح نحو أفكار عصمت سيف الدولة، فالآن توجه له تهمة الردة، وهو الذي كان يرى أي إجتهاد فكري أو سياسي، ردة ظاهرة تمثل ضرباً من الكفر السياسي والفكري.

سنة 1977، كتبت مقالاً في صحيفة الأسبوع السياسي بعنوان: (لابد أن نتجه نحو المغرب العربي) فرد علي أبوزيد بمقال مضاد، أستعان فيه ببعض الأبيات الشعرية لمظفر النواب يقول فيها:

قتلتنــــــا الـــــــــــرده
قتلنـــا أن الواحـــــد منّـــــــا
يحمـــل فـــــي الداخـــل ضدّه

كان لهذا المقال الذي نشرته قصةلا بأس من ذكرها.

ففي أحد الإجتماعات التي ترأسها معمر القذافي وشارك فيها الرائد عبدالسلام، تطرق الحديث إلى العلاقات الليبية العربية، تحدثت عن أهمية التوازن في هذه العلاقات، خاصة وأن منطقة المشرق العربي لا تنخفض درجة حرارتها، فهي تعاني من حمى مزمنة، وتأثيرنا السياسي فيها يبقى محدوداً بحكم الجغرافيا السياسية، والواقع العملي، والموروث التاريخي، أما منطقة المغرب العربي، فهي أقل سخونة، وليس بها تمزق طائفي، ولنا معها مشتركات دينية وتاريخية ومصالح أوسع. عارضني الرائد عبدالسلام جلود، وقال أن المشرق العربي، يبقى هو غرفة القيادة للعمل العربي، ومنه ينطلق الصوت الإعلامي، والشعوب فيها أكثر إرتباطاً بقضايا الأمة ووعيها السياسي لا يقارن بالشعوب العربية في منطقة المغرب العربي. لم يدل معمر القذافي برأيه في الموضوع.

بعد شهور قليلة فوجئت بالعقيد، يستدعيني، ويسألني عن ذلك الحوار، وما قلت فيه، فعرضت ثانية وجهة النظر التي طرحتها في ذلك الاجتماع، وعلى طريقته المعتادة، في إستعمال مثل هذه الأشياء، ضد هذا الشخص أو ذاك طلب مني أن أكتب أفكاري تلك وأن أنشرها، وقد فعلت.

نعود إلى أبي زيد وسرت، فقد ضاق صدر معمر القذافي بأقوال أبي زيد وأفعاله، فعاقبه على طريقته في العقاب. كان المركب السكني الذي خصص للأمناء – الوزراء، قد شيد فوق أرض تخص قبيلة – الهماملة – وقد إشتكى افراد هذه القبيلة من الظلم الذي وقع عليهم بمصادرة أرضهم وبناء ذلك المركب السكني فوقها دون أن يقدم لهم تعويضاً مالياً في المقابل. لم تجد تلك الشكوى أذناً في حينها، لكن معمر

القذافي تذكرها عندما كان يبحث عن عقوبة يهز بها أذن رئيس وزرائه المتطاول. تم الإتصال بعدد من رجال قبيلة الهماملة، وقيل لهم كيف تسكتون على هذا الظلم الذي وقع على قبيلتكم، إزحفوا على تلك البيوت التي يسكن فيها الأمناء. وبدون سابق إنذار، تدافعت عائلات من قبيلة – الهماملة – هاجمت البيوت، وألقت بمتعلقات الوزراء في الشارع، بما فيها الملابس الداخلية للرجال والنساء، وأحضروا أمتعتهم وأقاموا في البيوت التي بنيت فوق أرضهم. لم يستطع رئيس الوزراء، أن يحمي مساكن وزرائه، وكيف له ذلك، وكان بيته أول الضحايا. غضب أبوزيد غضباً شديداً، حمل أمتعته وتوجه إلى مدينة هون بمنطقة الجفرة وأقام بها، وشرع يمارس عمله من هناك. كان ذلك تعبيراً ناعماً عن إحتجاجه للإهانة التي تمت بأمر معمر القذافي. كان ملخص تلك الرسالة– العقوبة – إذا لم تكن تحب سرت فلا مكان لك بها، أهلها أيضاً لا يحبونك، وهاهي أمتعتك على قارعة الطريق.

رفع معمر القذافي أبازيد دوردة إلى شجرة السلطة من محافظ مصراتة، حيث ضرب مواطناً، إلى وزارة الإعلام حيث، زرع أذرعاً إعلامية عربية، إلى الخارجية، حيث وضع أمامه خارطة العالم، ووضع فوقها دوائر النفوذ الليبي، إلى أن وصل إلى الغصن الأعلى في شجرة السلطة رئيس الوزراء، هبط إلى الغصن الأسفل، محافظ الجبل الغربي، الذي تقع فيه قريته الرحيبات، ثم إلى الأمم المتحدة ومنها سار على سكة الحديد التي تمد على الأرض الليبية، وعبر إلى ساحات البنية التحتية ومنها إلى معسكر الأمن الخارجي. في كل تلك الأغصان ترك أبوزيد شيئاً منه، عملاً وقولاً، صداقة وعداوة، وسجالاً وجدالاً.

لم تكن علاقته بحركة اللجان الثورية ودية، تعامل مع أعضاء تلك الحركة بتعال بين، حدثت ملاسنات بينه وبين رموز تلك الحركة، وإن بقي آمرها محمد المجذوب محافظاً على خيط الإحترام معه، وكان يمثل شرطي الإطفاء، كلما شب حريق الخلاف بين الطرفين، ولكن هذا لم يمنع عناصر حركة اللجان الثورية أن يغرسوا إبر الشك في جسد دوردة السياسي كلما سمحت جلساتهم مع معمر القذافي بذلك. أيضاً لم يسلم

أعضاء مجلس قيادة الثورة السابقين من لكمات لسانه، حتى الرائد عبدالسلام جلود، الرجل الثاني في النظام، طالته سخريات أبوزيد رغم أن البعض كان يحسبه عليه، سيما أن دوردة، يقول أنه ينتمي إلى نفس قبيلة عبدالسلام جلود– المقارحة.

سنة 1997 عين أبوزيد مندوباً لليبيا بالأمم المتحدة، كان وزير الخارجية الليبي عندئذ، المرحوم عمر المنتصر، لم تكن العلاقة بين الرجلين ودية، تردد أبوزيد في قبول المنصب في البداية، لكنه أعاد قراءة موقفه وتحمس للسفر إلى نيويورك، قبل أن يغادرها محمد الزوي، الذي كان يشغل المنصب قبل تعيين أبوزيد. هناك كان على موعد مع ملف الصفيح الساخن، ملف قضية لوكربي، قام بتأهيل نفسه، ودرس اللغة الإنجليزية، أقام بشكل شبه دائم بمبنى الأمم المتحدة، تعرف على الكثير من المندوبين، وأقام علاقات صداقة على عدد غير محدود منهم بمن فيهم المندوب الأمريكي والمندوب الروسي. يعلق أحد الدبوماسيين الليبيين الذين عملوا معه في نيويورك، أنه كان يتنقل من قاعة إلى أخرى من قاعات المنظمة الدولية، يخطب حول كل موضوع في جميع اللجان، يجلس في المقهى مع من يجده أمامه، يتحدث عن قضايا ليبيا، وفلسطين، والإسلام، والعالم الثالث، والحضارة، والثقافة. حتى أصبح أحد معالم المنظمة.

فيما يتعلق بملف لوكربي، تحمس إلى الوصول إلى حل بأي ثمن، لقد إنتزع خوذة المقاتل المصادم، ولبس بزّة الدبلوماسي المعتدل، القابل بكل الحلول التي تجنب بلاده مزيداً من التعقيد والتصعيد. دأب على إرسال البرقيات المطولة المغلقة، التي تحتوي إجتماعاته المتواصلة مع كل الأطراف بالأمم المتحدة، ولكنه لم يتخلص من الثقل الداخلي، الذي ظل يحمله دائماً وهو " الأنا "، كانت برقياته تنقل ما قاله هو لمقابله، والقاعدة، أن ينقل الدبلوماسي، ما قاله الطرف الآخر.

في نيويورك، رأى العالم بعيون أخرى، وقرأ الشأن السياسي، والأمني، من زاوية مختلفة تماماً عن تلك التي كان يقرأ بها الأمور في ليبيا. صعد نقده لأسلوب النظام الليبي في تعامله مع الأزمات الداخلية والخارجية، حتى وصل به الأمر إلى القيام

بمبادرات حساسة دون الرجوع إلى القيادة، وبالتحديد إلى معمر القذافي. تصرف على أساس أنه شخص مفوض، فوق الشكوك، وأن كل ما يقوله، ويفعله هو في مصلحة النظام.

مندوب ليبيا في الأمم المتحدة، مثل جميع المندوبين لا علاقة مباشرة لهم مع أمريكا الدولة المضيفة، إلاّ المندوب الذي يتولى بالإضافة إلى مهمته بالأمم المتحدة، وظيفة سفير بلاده لدى الولايات المتحدة الأمريكية، أو التعامل مع البعثة الأمريكية فيما يتعلق بالإجراءات التي تعني أمريكا كبلد مضيف، أو كدولة عضو بالمنظمة الدولية، يحتاج إلى مندوب للتواصل مع بعثتها مثلما يتواصل مع البعثات الأخرى.

ولم يكن من مهام البعثة في نيويورك التعامل مع الجالية الليبية في الولايات المتحدة، وحتى إذا كانت للمندوب تعليمات بهذا الخصوص، فإن حركته تكون في إطار تلك التعليمات.

رأى أبوزيد، أن طاقاته السياسية، أكبر من أن تحصر في نيويورك، فباشر فور وصوله إلى أمريكا بالإتصال بالجالية الليبية في أغلب الولايات الأمريكية، وركز على القوة المعارضة للنظام الليبي، دخل في حوارات مع الكثير منهم، ونجح في إقناع بعض العناصر بالعودة إلى الوطن بترتيب مع الأجهزة الأمنية في الداخل، وخاصة جهاز الأمن الداخلي. من بين الذين إتصل بهم، العقيد خليفة حفتر، قائد القوات الليبية في تشاد الذي أُسِرَ في معركة وادي الدوم، إنتقل بعد خروجه من الأسر إلى أمريكا، وأنضم هناك إلى أحد فصائل المعارضة الليبية. دخل أبوزيد في حوار طويل مع خليفة حفتر، وأقنعه بالتصالح مع النظام، فهو أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار الذي قاده معمر القذافي، وأستولى به على السلطة.

كان هذا الاتصال، والعلاقة التي قامت بين الاثنين، خليفة حفتر وأبوزيد دوردة، بداية الشكوك الجدية التي ثارت حول أبوزيد، خاصة، وأن أحمد قذاف الدم قد تدخل بقوة لإقناع حفتر بالعودة، وبعد أن تلكأ في ذلك، وضع الثلاثة صيغة بديلة وهي أن يقوم

النظام الليبي بشراء بيت لخليفة حفتر بمصر بحيث يصبح قريباً من أرض الوطن، ويكون جاهزا لإجتياز الحدود في أقرب وقت، ويدخل إلى ليبيا.

لم يتوقف أبوزيد عند عش الدبابير الليبية، بل إقتحم عشاً آخراً، وهو الأخوان المسلمون في الولايات المتحدة الأمريكية، دخل في حوار معهم، وحاول إعادة رسم صورة النظام الليبي الذي صنفوه على قائمة أعدائهم، ونظم زيارات لبعض قياداتهم إلى ليبيا، ومن بينهم عبدالرحمن العمودي ومحمد يوسف.

لقد إرتبط أبوزيد بعلاقة ودية مع العقيد التهامي خالد، رئيس جهاز الأمن الداخلي الليبي، تقاطعت أفكارهم في التعامل مع المعارضة الليبية في الخارج، وكذلك مع جماعة الأخوان المسلمين، ولكن العلاقة مع جهاز الأمن الخارجي كانت عكس ذلك، فقد إعتبر القائمون على جهاز الأمن الخارجي، أن أبوزيد يتقافز على إختصاصاتهم، ويلعب في ميدانهم دون إذنهم أو التعاون معهم، وقد بادرهم بإعلان العداء عندما رفض، أن يقبل في البعثة الليبية بنيويورك أي عنصر من عناصر الأمن الخارجي. عملوا ليلاً ونهاراً على تصيد المعلومات التي تصل من مصادرهم في الولايات المتحدة، تهول تحركات أبوزيد، وأحالوا تلك المعلومات إلى القذافي. والحقيقة، أن الرواسب الشخصية كانت وراء موقف جهاز الأمن الخارجي من أبي زيد.

لم تكن العلاقة بين رئيس الجهاز موسى كوسا ودوردة ودية في أي يوم من الأيام منذ وجود موسى في الرابطة الناصرية، وعندما انتقل إلى حركة اللجان الثورية، والمثابة العالمية، وعندما ترأس موسى كوسا جهاز الأمن الخارجي، رأى فيه أبوزيد، مصدراً من مصادر تأليب معمر القذافي عليه. أما أبوشعراية فركاش، شقيق صفية فركاش زوجة القذافي، فكان شديد الكره لأبوزيد دوردة، وأبوشعراية هذا كان مديراً لإدارة المعلومات بجهاز الأمن الخارجي، وهي من أهم بل أهم الإدارات في الجهاز، وزاد من أهميتها وجوده على رأسها، وهو من أهل البيت، بيت معمر القذافي. وقد بادله أبوزيد نفس المشاعر، فلم يكن يخف إحتقاره له، والإستخفاف بقدراته ويتحدث علناً عن التقارير الكيدية التي يدبجها أبوشعراية ضده.

أصبحت كل خطوة يخطوها أبوزيد تجاه المعارضة الليبية، وحركة الأخوان المسلمين في أمريكا، في نظر جهاز الأمن الخارجي الليبي هي خطوة، نحو مؤامرة ضد النظام، وصلت إلى حد إعتبارها في نظر موسى كوسا وأبوشعراية فركاش، هي إستعداد لعمل ما ضد نظام معمر القذافي. يستطيع أي حاكم أن يهون من أهمية أو خطورة بعض المعلومات، ولكن إلى حين، وبالنسبة إلى شخص، مثل معمر القذافي، وصل إلى السلطة عن طريق التآمر السري، لا يمكنه أن يتساهل مع أية إشارات تلمح أو تصرح عن وجود شخص ما في مكان وفي وقت ما يعمل على تعبئة مجموعة لتحقيق أهداف سياسية.

وللحقيقة فقد كان أبوزيد، يقوم بأعمال هي من صلب الحماقة، يرسل مذكرات مطولة من نيويورك، يتحدث فيها عن إتصالاته المكثفة، مع أطراف ليبية وأجنبية، يشرح فيها بالتفصيل الممل، ما قاله لهذا الطرف أو ذاك، ورؤيته في هذا الموضوع، والإستراتيجية التي يحددها في موضوع آخر، والمعالجات التي يراها تحقق المصالح الوطنية الليبية، وعندما كنت وزيراً للخارجية، كثيراً ما أمتنعت عن إحالة تلك المذكرات إلى القيادة، لأنها لا تحقق شيئاً سوى إلحاق الأذى المباشر بمرسلها. كنت أشارك في الدورة العادية للجمعية العامة للأمم المتحدة لنيويورك في سبتمبر سنة 2002، جلست مع أبوزيد في مقهى فيينا بمبنى الأمم المتحدة، فجأة قال أبوزيد أنه سيذهب إلى مقر البعثة القريب من مبنى الأمم المتحدة لأن هناك برقية عاجلة وهامة من ليبيا، قلت له، ربنا يستر، بالتأكيد، فإن – صاحبنا – أقصد معمر القذافي، قد هجمت عليه فكرة عبقرية، وأنه يريدني أن أزفها إلى العالم أمام الجمعية العامة، قال، أنه فكر في نفس الموضوع، وذهب إلى مكتبه ببعثتنا بالأمم المتحدة. عاد بعد قليل وهو يضحك قائلاً:" لا يا سيدي، يبدو أن – مسامير – موسى كوسا والعبقري الكبير أبوشعراية فركاش، قد فعلت فعلها هذه المرة، ووصلت برقية تطلب نقلي، وعودتي إلى طرابلس. جلسنا في المقهى نناقش ونقلب الأمر، قلت له بالتأكيد أن الأخ العقيد يريدك في موقع آخر أكثر أهمية، وأنا أستغرب كيف صبر عليك كل هذه المدة خارج

ليبيا، وهو الذي لم يكن يصبر على تركك في وظيفة واحدة مثل هذه المدة، حتى وأنت بجواره في ليبيا. أصر هو من طرفه، أنه كان يتوقع هذا القرار منذ مدة، فالأخوان أبوشعراية وموسى، يصرّان منذ أكثر من سنة على إعادته إلى ليبيا، لأن وجوده بنيويورك يشكل خطراً على أمن النظام.

أعيد أبوزيد إلى طرابلس، وهناك كلف برئاسة جهاز السكة الحديدية الذي سبقه به المهندس عزالدين الهنشيري، ولم يحقق خطوات عملية ملموسة في المشروع.

كانت محطة السكة الحديدية، موقعة جديدة من مواقع المواجهة التي سيخوضها أبوزيد دوردة على أكثر من جبهة، فمنذ اليوم الأول لدخوله مكتب رئيس الجهاز، شن حرباً علنية على المشروع، صرخ بأعلى صوته، أن هذا المشروع يجب أن يوقف فوراً، فهو غير إقتصادي، ولا ضرورة له، ويجب العمل على إيجاد بدائل عملية واقتصادية أخرى للنقل والمواصلات في ليبيا، مثل النقل الجوي والنقل البحري، وبدلاً من أن يتابع تنفيذ الخرائط التي صممت لتنفيذ المشروع، بدأ في إعداد دراسات وبحوث تسفه فكرة المشروع من أساسها، تقدم البدائل، وتشرح بشكل علمي الخسائر الجمة التي ستترتب على تنفيذ ذلك المشروع.

تنقل أبوزيد بين الدول التي تمتلك خطوط سكة حديد كبيرة، في أوروبا، وآسيا، وناقش مع مسئولي منظومات السكك الحديدية في هذه الدول، التعقيدات المالية، والإدارية والفنية التي تعانيها مشروعاتهم، وأصبح من كبار الخبراء في سياسة – الخسائر– واللاجدوى – من هذا المشروع. وقاد حملة إعلامية كلامية ضده.

لم يتوقف أبوزيد عند نقطة عدم جدوى هذا المشروع، بل قفز إلى دائرة المؤامرة، وخطوط الفساد، متهماً بصراحة سابقه، المهندس عز الدين الهنشيري وزمرته بالفساد.

إعتمد المهندس عز الدين الهنشيري، الرئيس السابق لجهاز السكة الحديدية برنامجاً معيناً لتنفيذ المراحل الأولى من المشروع، والمتمثلة في تمهيد مسار الطريق الحديدي، تقوم على إعطاء الأولوية " للتشاركيات " المحلية الليبية، وهذه عبارة عن شركات أهلية عائلية صغيرة، ذات رأس مال محدود، تقوم بمسح طريق السكة، وتهيئة

الممرات وغيرها من الأعمال الأساسية، دافع عزالدين عن هذه المبادرة، بإتاحة الفرص، لليبيين بالإستفادة من هذه الأعمال التي رآها بسيطة، ولا تحتاج إلى تعقيدات تقنية، أو خبرات فنية عالية.

قال أبوزيد، أن عزالدين فتح الباب لأقاربه، وحاشيته للإستفادة من تلك الأعمال التي سماها أبوزيد بالإرتجالية وغير العلمية، بل ذهب إلى أكثر من ذلك.

في جلساته الخاصة، دخل أبوزيد بالسكة الحديدية، إلى محطة أخرى أشد خطورة وحساسية، قال أن كل المشروع، يأتي ضمن خطة أمنية، الهدف منها توفير قدرات لوجستية لتحركات الكتائب الأمنية، عند حدوث إختلالات سياسية داخلية، بأن تؤمن الطرق الحديدية، ظروف نقل القوات من منطقة إلى أخرى بشكل سريع، حسب ما تقتضيه حالات الطوارىء، وأن المبالغ التي ستنفق على تنفيذ المشروع، لو وظفت في إستثمارات أخرى، ستخلق فرص عمل كبيرة، تساهم في تحقيق الأمن الإجتماعي بما ينفي الحاجة إلى التفكير في مثل هذا المشروع المسخر لمواجهة أي إنتفاضة سخط شعبية.

لقد تغير إذاً أبوزيد، لم يعد الثوري الفوري، الذي شيد الأسواق العامة ليؤكد صدق مقولات الفصل الثاني من الكتاب الأخضر- الركن الإقتصادي. ولم يعد ذلك السياسي المصادم في أديس أبابا وفي أوغندا، لقد عاد الوعي، أو طار الصقر الثوري، وحطّ على شجرة الواقع، أو ترا به أبوزيد العائدُ من أرض التوازن، نيويورك الأمم المتحدة.

أثناء وجوده على رأس مشروع لا يؤمن به، بل يعارضه ويقاومه، تحول إرادياً أو لا إرادياً إلى معارض، ليس لمعمر القذافي وثورته، ولكن لمنهج التفكير، ودوافع القرارات الاقتصادية وغيرها، تحول إلى منشور متحرك ضد النظام، ولم يخف هذا التوجه.

في إحدى الندوات التي شارك فيها، شن أبوزيد دوردة، هجوماً قوياً وشاملاً، ضد الفساد الذي عمّ البلاد، وعن تدهور الإدارة، وغياب المحاسبة، والإرتباك الإقتصادي، والبطالة غير المبررة، ترك حديثه هذا صدى في الشارع الليبي، وتساءل الناس عن

الدوافع التي تقف وراء هذا الصوت الجديد الذي يتحدث به، هل هو بإيحاء من معمر القذافي، أو شطحة من شطحات أبوزيد المعروفة.
قدم هذا الموقف الجديد، مادة قديمة لجهاز الأمن الخارجي، قال محللو الجهاز وعلى رأسهم أبوشعراية فركاش مدير إدارة المعلومات وصهر العقيد القذافي، أن ما تفوه به دوردة، هو كلمة السر، المتفق عليها مع المعارضة في الخارج، ولها إمتدادات في الداخل، لبدء نوع من التحرك يهدف إلى زعزعة النظام، من خلال إذكاء حالة السخط التي إتسعت دوائر موجاتها داخل المجتمع الليبي.
إذاً، لم تعد هجمة أبوزيد مقتصرة على مشروع السكة الحديد، بل إتسعت لتشمل كل محطات الدولة، وبشكل علني ...

أبوزيـد فـي مستنقـع الفسـاد

بعد قفل الملفات الكبيرة، التي كانت قيداً في أيدي ليبيا، بل كانت حبلاً يلتف حول رقبة النظام والوطن، وأقصد ملف قضية لوكربي، الذي أخضع ليبيا لحصار إستمر قرابة عقد من الزمان، وكذلك قضية الطائرة الفرنسية UTA، وملف أسلحة الدمار الشامل، بعد قفل تلك الملفات، والتي كنت أقول عنها – تفكيك تلك الألغام، بدأ الليبيون يتساءلون، لقد وضعت الأموال الليبية الضخمة في البنوك، تحسباً لعواصف نارية قد يُسببها الحصار وتداعيات العداء الغربي لليبيا، وبعد المعاناة الطويلة التي عاشها المجتمع الليبي، وتردي البنى التحتية للبلاد، متى ستبدأ مسيرة البناء المادي؟ خاصة في مجال الإسكان، ارتفعت نسبة البطالة بين الشباب، وارتفعت نسبة الإحجام عن الزواج بين الشباب، وارتفعت نسبة العنوسة بين البنات بشكل مرعب، تدنت الخدمات، في الصحة، إمتلأت مصحات الأردن وتونس ومصر بالليبيين والليبيات، إنهار التعليم مدارساً وجامعات، لم تعد أغلب الطرق صالحة للإستعمال. جاءت حكومة شكري غانم، التي بنى عليها الليبيون قصوراً من الآمال، وذهبت دون إنجاز

شيء، وبعدها جاءت حكومة البغدادي المحمودي، التي رفعت أعلام الوعود بالبناء الشامل، أعلن عن إقامة أجهزة عديدة لتنفيذ المشروعات التي ستغطي كل القطاعات وتجسد الأحلام، وتجيب عملياً على تساؤلات الليبيين.

أعلنت خطة شاملة، ضخمة، رصدت لها عشرات بل مئات المليارات من الدولارات، للإجابة على كل تلك الأسئلة والتساؤلات، وعلى طريقته، أنشأ البغدادي، عدد من الأجهزة لتنفيذ تلك المشروعات، أراد أن تكون تلك الأجهزة تابعة له مباشرة، وقزّم دور الأمناء – الوزراء – وأناط بهم مسئولية المتابعة فقط.

تتكون الميزانية الليبية من فرعين أساسين هما:

- الميزانية الإدارية، التي تغطي المرتبات والإحتياجات الإدارية وتسمى الميزانية التسييرية.
- ميزانية التحول، التي تغطي مصروفات التحول، أو مشروعات التنمية في جميع القطاعات.

بعد أن أعلنت الميزانية الضخمة الخاصة بالمشروعات تكونت فوراً ميليشيات المصالح، ومافيات العمولات عرفها الليبيون بالأسماء، دقت طبول معركة الفساد، كلف أبوزيد برئاسة جهاز مشروعات البنية الأساسية وعلى رأسها مشروعات الإسكان.

لماذا أختير هو بالتحديد من قبل العقيد معمر القذافي؟

أبوزيد، ليس مهندساً، ولا خبرة له في هذا المجال، وقد يكون منطقياً في ذيل الأسماء التي تكلف بقيادة هذا العمل الشامل لكل أنحاء ليبيا، وخاصة بناء مئات الآلاف من الوحدات السكنية.

في رأي أن العقيد معمر القذافي قد إختاره لسببين:

<u>الأول</u>: مازال في ذاكرة معمر القذافي، ذلك الرجل الثوري الفوري القادر على تقحم المشروعات والأعمال الكبيرة، ومواجهة التعقيدات الإجتماعية المترتبة على ذلك، والذي يستطيع أن يلجم ألاعيب البغدادي المحمودي في هذه المشروعات التي

ستمتص المليارات من الدينارات، خاصة وأن رئيس الوزراء المحمودي، يتوكأ على سيف الإسلام القذافي، في تمرير الكثير من الأمور، ويضرب بعصاه الأيدي التي ترتفع أمامه، ويكون القذافي الأب هو المرجع الوحيد له، ويلتزم بتنفيذ نصوص التعليمات التي يصدرها له.

الثاني: إن معمر القذافي، هو أول العارفين أن هذا الحجم الهائل من الأموال، هو كمية مهولة من – العسل– التي ستجتذب الملايين من أسراب الذباب، التي ستقاتل من أجل أخذ نصيبها منه، عبر الرشاوي والسمسرة، والتزوير والعمولات، وأن صراخ أبوزيد مهما إرتفع لن ينجح في إبعاد تلك الأسراب من الذباب عن بحيرة العسل الكبيرة، بإختصار، سيغرق أبوزيد في مستنقع الفساد رغم أنفه، وستجلده الألسنة، ويتحول إلى الرمز الأول للفساد في ليبيا، ولن يستطيع الدفاع عن نفسه، لأن الأمر أقوى من بلاغته، وأشرس من عنترياته.

دخل أبوزيد إلى تلك المعركة بدون سلاح، أدرك منذ اليوم الأول، أنه أمام مواجهة متعددة الأجنحة، فالمطلوب منه هو إنجاز أعمال عاجلة، ينتظرهل كل الليبيين في جميع أنحاء البلاد، وإن مفاتيح أنابيب الأموال هي في يد غريمه البغدادي المحمودي رئيس الوزراء، الذي لا يمكن أن يقبل بحال من الأحوال تفرد أبوزيد بصرف عشرات المليارات من الدنانير الليبية، بالإضافة إلى عامل شخصي آخر، فقد إجمع كل رؤساء الوزارات الذين سبقوا البغدادي المحمودي على ذلك الكرسي، أجمعوا على رفع لواء العداء له والهجوم عليه، كان لكل واحد منهم مبرراته ولغته، ولكن عامل الغيرة، كان العامل الذي تقاسمه كل رؤساء الوزارات السابقين فلم يسبق لأحد منهم أو وضعت تحت يده تلك المبالغ الهائلة، وكثيراً منهم جلس على كرسي قيادة الوزراء، ولكن كان يجلس خلفه الرائد عبدالسلام جلود، يوجهه في كل شارع وحارة. قال لي الخويلدي الحميدي عضو مجلس قيادة الثورة، ورئيس هيئة السيطرة والقضاء التي تشرف على كل الأجهزة الأمنية، أن المهندس جادالله عزوز الطلحي، الذي ترأس الوزارة مرتين، كان يضع يديه على عجلة قيادة الحكومة، ولكنه كان يجلس على

مقعد يحتله الرائد جلود، وكان دور جادالله لا يزيد عن دور الروبوت المبرمج. كان أبوزيد واحد من هؤلاء الذين تحركهم نعرة الغيرة، ولم يكنُّ وداً للبغدادي المحمودي، شبت الحرب بينهما منذ اليوم الأول لعودة أبوزيد إلى ليبيا وتوليه رئاسة جهاز السكة الحديد، حيث نظر إلى البغدادي، بإعتباره دمية في يد سيف الإسلام القذافي، وأنه لا يمتلك رؤية إستراتيجية واضحة لمواجهة التغييرات التي تتطلبها البلاد، كان يعتبر نفسه الأجدر بقيادة هذه المرحلة، حاولت أكثر من مرة رأب الصدع بينهما نجحتُ في بعض المرات، وفشلتُ في أخرى. مرَّ أبوزيد بظرف إنساني خاص، وكان في ضائقة، حدثني بمرارة، قلتُ له، إذهب إلى البغدادي، وتحدث معه على إنفراد، وأنا وائق أنه سيقف معك بأكثر مما تتوقع، وهذا ما حدث.

أنطلق أبوزيد بحماس، أسترد لياقته الثورية الفورية، طاف بأرجاء ليبيا، شرقاً، وغرباً، وجنوباً، عقد إجتماعات مطولة مع الشركات الأجنبية المختلفة، إستقبل سفراء الدول الأجنبية لتوظيف العطاءات التي تمنح لشركاتهم في أبعاد سياسية.

ولكن الأمر الذي حرك رياح الشكوك حوله من جديد كان لقاءاته ببعض أعيان المناطق، وشيوخ القبائل. فبناء الوحدات السكنية الجديدة، تتطلب إزالة بعض الأحياء السكنية القديمة، وأستوجب الأمر في كثير من الأحيان اللقاء بأصحاب هذه الأحياء لإقناعهم بقبول المخططات الجديدة. كان خلال تلك اللقاءات يتحدث كزعيم، يشرح الأهداف، ويقدم التعهدات، يتحدث عن نفسه أكثر مما يتحدث عن المباني، وفي مناطق الشرق الليبي، وقد ربطته علاقات قوية بكثير من شخصياتهم، كان يتطرق إلى الأمور السياسية والإقتصادية، والإدارية، يحلل المساويء التي أدت إلى تهالك بنية البلاد، وتعهده بالبناء، ومعالجة تداعيات سلبيات الماضي، ينتقد تصرفات رئيس الوزراء، ويقسم بأغلظ الإيمان أنه سيبخر كل ما يتلفظ به أمامهم.

نجح إلى حد كبير أن يجنب نفسه بحيرة الفساد، ونجا بأعجوبة غريبة من ذلك، رغم أن الأقاويل لم ترحم عدداً من العاملين معه.

عاملان – في رأي – شكلا طوق النجاة اللذين أنقذاه من الغرق في بحيرة العسل الكبيرة:

أولهما : وجود أجسام تنفيذية أخرى في مجال البناء كانت تشارك جهازه في التعاقد على بناء المساكن والطرق والمجاري وغيرها، وقد شاع بين الناس، أن الأسعار التي ينفذ بها الوحدات السكنية تقل بنسبة كبيرة عن تلك الأسعار التي ينفذ بها الآخرون، التابعون مباشرة إلى رئيس الوزراء البغدادي المحمودي.

ثانيهما: الصدامات التي حدثت بينه وبين ضباط الجيش بسبب المعسكرات التي تقرر إزالتها من أجل توفير الأراضي التي ستقام عليها الوحدات السكنية الجديدة، فقد عمل بعض ضباط الجيش المستحيل من أجل إقتسام أراضي المعسكرات فيما بينهم، وتلكأوا في تسليمها إلى أبوزيد دوردة.

إعتقد معمر القذافي، إن وضع أبوزيد في هذا الموقع، يعني إلقائه في بحيرة الفساد، وإبعاده عن خطوط التواصل مع الناس، وكبح جماح إنفعالاته، وما أعتبر مزايدة فجه. وأنه سيختفي وراء أكوام الأسمنت والحجارة والحديد، ولكنه أكد القول الشعبي، يموت الزمار وأصبعه يتحرك.

أخرج من تلك البحيرة، لا له ولا عليه، لم ينجز تلك الأحلام والخطط التي عرضها على الناس وهو يجوب أطراف الوطن، ولم يتلوث ببقع الفساد.

فـي غابـة الموســاد

في شهر مارس 2009، عين موسى كوسا رئيس جهاز الأمن الخارجي وزيراً للخارجية حالاً محلي. بقى منصب رئيس الجهاز شاغراً، طرحت أسماء كثيرة لشغله، من بين هذه الأسماء، الدكتور عبدالقادر المحمودي، رئيس مكتب اللجان الثورية وآخرين. لم يكن إسم أبوزيد دوردة مطروحاً لهذا الموقع من بعيد أو قريب. ولم يفكر

أي شخص قريب أو بعيد من معمر القذافي، أن يرد إسمه يوماً ليكون في مكان يتابع ويراقب المشكوك فيهم، وهو على رأسهم.

كنت في شهر يونيو 2009 في سرت لمقابلة معمر القذافي مع البغدادي المحمودي، وموسى كوسا، وأبوزيد دوردة، وحافظ قدور، سفيرنا بإيطاليا، في نهاية اللقاء طلب معمر القذافي من موسى كوسا وأبوزيد البقاء، بعد أن خرجت ومعي الآخرين، في المساء التقينا بمنزل البغدادي المحمودي بسرت، عندما جاء أبوزيد وكوسا، وأخبرانا، أن العقيد كلف أبوزيد برئاسة جهاز الأمن الخارجي. كانت تلك مفاجأة للجميع.

دخل أبوزيد إلى جهاز الأمن الخارجي، في مقره على حافة مدينة طرابلس وتحديداً بمنطقة عين زاره، يحتل الجهاز مساحة واسعة على يمين الطريق الساحلي، يحتوي على مبنى إداري رئيسي به مكتب الرئاسة، وفي طرف آخر هناك نادي، ومبنى للخدمات، وفي الخلف عمارة ركبت بها أجهزة التنصت والتشويش، بالإضافة إلى إستعدادات السلامة مثل سيارات المطافيء، ومحطة للوقود، وسيارات للحركة. في ذلك العالم الغامض زرعت مساحات خضراء، وارتفعت أشجار النخيل إلى جانب أشجار مختلفة من الفصائل التي تزدهر في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

في فيلا صغيرة، جلس أبوزيد، يستقبل الزملاء القدامى من السياسيين والمثقفين، أراد أن يعطي وجهاً آخراً لهذا الكيان الغامض المخيف.

ها هو الآن يقود الكتيبة السرية التي ناصبته العداء لسنوات. بدأت قصيدته الأمنية ليس بالبكاء على الأطلال، ولا بمقدمات الغزل، بل توجه مباشرة إلى بيت القصيد، وهو الهجاء، أول ما يفتح صفحات الحديث، يسرد مثالب هذا الجهاز، الذي ترك مهمته الأساسية، وهي أمن الوطن، وقراءة الأخطار الإقتصادية والسياسية التي تحوم من حوله، بعيدة كانت أو على حافة الحدود. يقول دائماً، إن الأمن لم يعد كما كان في العصور الخوالي، حيث التجسس على المواطنين وكتم أنفاسهم، إن الأمن يبدأ بتوفير حياة كريمة للناس، ووو– إلى خاتمة المعلقة الطويلة.

قال أنه قدم تصوراً شاملاً، وتفصيلياً للعقيد معمر القذافي عن برنامجه في الجهاز، وحصل على موافقته الكاملة.
بدأ بمواصلة خطوته التي بدأها في نيويورك، كثف إتصالاته مع الليبيين المعارضين في الخارج بالتعاون مع التهامي خالد رئيس جهاز الأمن الداخلي، وشرع في تقديم المساعدات لبعض رموز القبائل في الشرق الذين إرتبط بعلاقة ودية معهم منذ زمن، إنتهج ما أسماه، إستباق إشتعال الحركة.. لم يشف من فيروس " الأنا "، وسلوك الزعيم. أعاد بناء الإدارات، وحاول أن يعيد بناء هيكل الجهاز، أتصل ببعض الخبراء من أجل وضع تصور لعمل الجهاز لكي يكون في خدمة الوطن وليس في خدمة النظام فقط على حد قوله.
لم ينس الذي صنعه الحداد بينه وبين الذين سبقوه في قيادة هذا الجهاز. بعيد جلوسه على كرسي الرئاسة جاءه أحد المساعدين يبلغه أن طائرة خاصة تقل ضيفاً أجنبياً تطلب إذن الهبوط بمطار معتيقة، سأله أبوزيد مستغرباً، وما علاقة الأمن الخارجي بإذن هبوط لطائرة خاصة ؟!.
أجاب المساعد أنها تحمل السيد محمد العجمي، وهذا الشخص يتعامل مباشرة مع رئاسة الجهاز. ردّ أبوزيد بسؤال آخر: من هو محمد العجمي ؟ قال المساعد: أنه شخص لبناني يتعاون مع الجهاز. طلب أبوزيد ملف العجمي.
بدأ يتصفح الملف الضخم، شركات، قطع غيار، منازل، عطاءات، سيف الإسلام، عائشة القذافي. إسرائيل، الموساد، دخول ليبيين إلى إسرائيل.
وضع أبوزيد ملف العجمي على طاولته، وشكل لجنة للتحقيق، وتقصي الحقائق. وكلما توصل إلى معلومة ما، إنطلق إلى العقيد معمر القذافي يخبره بالمعلومات الخطيرة، والإختراق الأمني الكارثي للموساد الإسرائيلي لجهاز الأمن الليبي. بدأت أخبار هذا الموضوع تنتشر على أرض المجتمع الليبي، وتتطاير في سمائه. فمن هو محمد العجمي الذي قاد هذا الإختراق الكارثي لجسد الأمن الليبي الخارجي؟

محمد العجمي هذا مواطن لبناني من الجنوب، كان من أتباع سعد حداد الذي أسس جيش لبنان الجنوبي، وأنتهى به المطاف مع أتباعه في إسرائيل، حكم عليه بالإعدام في لبنان بتهمة الخيانة، من إسرائيل إنتقل إلى بريطانيا، أقام علاقات مع عدد من الأجهزة الأمنية في دول مختلفة. تعرف عليه موسى كوسا عن طريق طرف عربي ثالث. عرض العجمي خدماته على موسى كوسا، ولم يخف عنه علاقته القوية مع جهاز الموساد الإسرائيلي. بدأ محمد العجمي بتقديم باكورة تعاونه، تقنية التنصت، ومعدات السيارات التي ترافق تحركات العقيد معمر القذافي، تعمل تلك السيارات التي تقوم بتكسير الموجات الكهربائية التي تصعق المتفجرات الموضوعة على الطرق التي يسلكها موكب العقيد، بالإضافة إلى تقنية التشويش على المحطات الفضائية، وقد إستعملها الأمن الليبي بنجاح أكثر من مرة. كل ذلك بالإضافة إلى المعلومات التي يوفرها العجمي بناءا على طلب جهاز الأمن الليبي. رفع أبوزيد كل تلك المعلومات مع تفاصيلها وكامل خلفياتها إلى العقيد معمر القذافي الذي طلب منه أن يرجع إلى إبنه سيف الإسلام في معالجة هذا الملف. لم يكتف أبوزيد بإبلاغ العقيد وإبنه بل جعل هذا الصيد الثمين مادة النقاش في أغلب جلساته مع المسئولين وغير المسئولين، حتى أصبحت حديث المساء والسهرة في العديد من المجالس.

توسع أبوزيد في التحقيقات، إكتشف أن محمد العجمي قد جند الكثير من عناصر الأمن الخارجي للتعاون معه، وذهب إلى أكثر من ذلك، قال أنه،أي العجمي، شرع في إستقطاب بعض المواطنين الليبيين إلى الدين المسيحي، كانت هذه النقطة محل إستغراب الكثيرين، فماذا يستفيد محمد العجمي وهو مسلم من إعتناق ليبيين الديانة المسيحية، وما هي مصلحة الموساد في ذلك ؟! إستمر فريق التحقيق في إكتشاف المزيد من الملفات، دخل العجمي منطقة المقاولات في ليبيا عبر بوابة – البزنيس – بالمعنى الليبي، أي خذ، وأعطي، قال المحققون، أنه حصل على بعض المشروعات عن طريق الرشاوي والتلاعب، قبض جهاز الأمن الخارجي على مواطن باكستاني يعمل في ليبيا، مطلع على تفاصيل كثيرة من أعمال العجمي، وتوصلوا من خلال

هذا الباكستاني إلى أسماء ليبيين يعملون معه في شركات وهمية، ويتقاضون مرتبات وعمولات منه، إكتشفوا أيضاً أنه حصل على قروض من مصارف ليبية لتنفيذ أعمال في ليبيا. دخلت في شباك التحقيق أسماك بل حيتان كبيرة بحجم عائشة معمر القذافي، وبعض المسئولين الكبار وأبناؤهم.

قال سيف الإسلام القذافي، إنه إلتقى بمحمد العجمي في لندن، وواجهه بما كشفته التحقيقات، إعترف العجمي له بكل شيء، ووضع مسئولية كل شيء على المسئولين الليبيين الفاسدين، وأن همه كان منذ البداية هو الحصول على أرباح ومزايا، ودافعه للتعاون مع جهاز الأمن الخارجي الليبي كان من أجل المصلحة فقط.

في إحدى زياراتي إلى ليبيا، حدثني مختار القناص عن الموضوع، وقال أن أبوزيد بالغ في الأمر، وأنه يهدف إلى تصفية حسابات سابقة مع موسى كوسا، فاتحت أبوزيد في الموضوع، تحدث مطولاً وبإنفعال، وأعتبر أن هذا الموضوع يضرب صميم الأمن الوطني ولن يتنازل عنه أو يتهاون فيه، وأنه على إختلاف مع سيف الإسلام بهذا الخصوص، ولو أن إبنه إحميد هو الفاعل لما تسامح معه، وساق الكثير من التفاصيل حول الموضوع. إقترح عليّ مختار القناص أن أعالج الموضوع بين موسى كوسا وأبوزيد.

تحدثت مع موسى، وجدته غاضباً منفعلاً، وقال هذا موضوع جد خطير، وإذا كان الأمر فعلاً كما يطرحه أبوزيد فيجب أولاً أن أعفى من منصب وزير الخارجية وأن أقدم إلى المحاكمة، وأعترف بعلاقته بمحمد العجمي، وعلمه بعلاقته بالموساد، متعللاً أن كل أجهزة الأمن في العالم يوجد فيها مثل تلك الأساليب، من أجل الإستفادة من كل العناصر، وإن كانت تعمل مع أجهزة معادية، وعندما يكون العميل مكشوفاً ومعروفاً لك، فلا يشكل أي خطر على الأمن الوطني.

علمت بعد ذلك، أن العقيد معمر القذافي وإبنه سيف، قد هونا الموضوع، وأعتبرا أن أبوزيد رفع طبقة صوته في هذا الموضوع بسبب الحساسيات السابقة بينهما، أي بين أبوزيد وموسى كوسه، وأن ليس هناك ما يزعج في الموضوع. رغم ذلك قام أبوزيد

بإحالة بعض الأشخاص الذين طالهم التحقيق فيما يتعلق بالفساد المالي والتزوير والتلاعب إلى القضاء، وصدرت عليهم أحكام بمن فيهم شقيق محمد العجمي.

لكن طواحين أبوزيد مع جواسيس إسرائيل لم تتوقف، فقد قبض على شخص يحمل جواز سفر أوروبي، دخل إلى ليبيا عبر تونس، وتجول في أنحاء ليبيا، وقام بتصوير مواقع عديدة، قال جهاز الأمن الخارجي، أنه يعمل لمصلحة الموساد، وسطت إسرائيل رجل أعمال يهودي نمساوي، له علاقة بسيف الإسلام القذافي، وتربطه صداقة مع وزير الخارجية إسرائيل ليبرمان، تم الإفراج عن ذلك الشخص بعد أن وافقت إسرائيل لجمعية القذافي للأعمال الخيرية على تنفيذ مشروعات في غزة خاصة في قطاعي التعليم والإسكان.

سيطر هاجس التجسس على رئيس جهاز الأمن الخارجي الجديد، إعتقد أن كل السواح هم جواسيس، أو متعاونون مع قوى معادية. فصار من المألوف أن ترى عناصر الأمن تدخل إلى أحد المطاعم وتقبض على شخص أو أكثر بتهمة التجسس. لم تعد قضية تصوير مبنى، أو أي موقع من المواقع في أي بقعة في العالم، توحي بعمل تجسسي، فمنظومة الغوغل، والأقمار الصناعية كشفت الأسرار، وأزالت الحجب، ولم تعد هناك دولة، ربما بإستثناء كوريا الشمالية وإيران، مهووسة بقضية تصوير المواقع وفزاعة الجاسوسية.

وقد وقعت واقعة أدهشتني وأحزنتني، فقد جاء عالم أنتروبولوجيا أمريكي إلى ليبيا بتأشيرة سياحية، وذهب إلى منطقة الجبل الغربي – جبل نفوسه – وحاول الإتصال بعدد من – الأمازيغ – لدراسة بعض جوانب حياتهم، وذلك في إطار تخصصه، وقد قبضت عليه عناصر من الأمن الخارجي بتهمة القيام بعمل معاد لليبيا. ترحمت على السنين الخوالي، عندما كان علماء الإجتماع والانتروبولوجيا، يأتون إلى زيارة منطقتي في الجنوب، لدراسة نمط حياة الطوارق والتبو، وتوفر لهم الدولة وسائل النقل، وتضمن لهم الأمن، لأن هؤلاء العلماء في نظر الدولة يقومون بعمل مفيد للوطن، ان

ذلك في الخمسينات والستينات، عندما كان ينظر إلى العلم على أنه يخدم الوطن ولا يتآمر عليه.

" أبوزيد يسألني : هل فعلاً ستهرب ؟ "

يوم 6 نوفمبر 2010 كانت مقابلتي الأخيرة لمعمر القذافي. إستقبلني بمنطقة المربعات، جنوب طرابلس، كان مستلقياً على فراش بسيط، وجلست إلى جانبه، حدثني في البداية عن مؤتمر الـ77+ الصين، الذي كانت ستستضيفه ليبيا في شهر سبتمبر من نفس العام. وبعد ذلك إستأذنته في الحديث عن الأوضاع الداخلية في ليبيا، كان هادئاً وودوداً، تحدثت لأكثر من ساعتين، وفي كل قضية كنت أطرحها كان متجاوباً، شجعني ذلك على أن أسترسل في شرح الوضع الإداري والمالي المتردي الذي وصلت إليه البلاد، وقلت له أتمنى أن يكون معنا البغدادي المحمودي لأتحدث بحضوره، طلب من محمد بشير، وكان أحد أعضاء قلم القذافي أن يستدعي البغدادي، عاد محمد وقال أن البغدادي في إجتماع هام وسيحضر بعد أن ينهي الإجتماع. في اليوم التالي، إتصل بي محمد الزوي أمين مؤتمر الشعب العام وطلب مني أن أزوره بمكتبه، عندما وصلت، أخبرني، أن القذافي إتصل به، وقال له، أن شلقم، غاضب ومتوتر، وقد عبر عن ذلك في لقائي معه أمس بسبب الأوضاع التي يرى أنها سيئة في البلاد، والمطلوب أن تجتمعوا ثلاثتكم، أي الزوي، والبغدادي المحمودي وشلقم، وتستمعوا إليه، وتناقشوا معاً ما قاله. وصل البغدادي بعد قليل وناقشنا ما قلته للعقيد. بعد ذلك وصل عبد القادر البغدادي منسق مكتب الإتصال باللجان الثورية. لم نتحدث بمعنى الكلمة وكلما حدث كان دردشة، كل واحد يشتكي للآخر مما وصلت إليه الأوضاع . في نهاية الإجتماع، طلب مني البغدادي المحمودي، أن ننتقل إلى غرفة مجاورة لنتحدث بمفردنا، بدأ يشتكي من الفوضى، ومن تدخلات القذافي المربكة، ومن تجاوزات أولاده خاصة المعتصم الذي يريد أن

يستولي على كل أموال الدولة، وعبّر البغدادي عن ضيقه الشديد من تطاول المعتصم عليه شخصياً، والخلاصة، لا أمل في أي إصلاح، والأمور ستزداد سوءاً والحل في يد المجهول.

عدتُ إلى بيتي وأنا أطرح أسئلة كثيرة على نفسي، عندما أستدعاني محمد الزوي أمين مؤتمر الشعب العام إلى مكتبه، وأخبرني بما قاله له العقيد، تبادر إلى ذهني، أن حقيقة الموضوع، هي التحقيق معي حول ما قلته لمعمر القذافي، لكن سياق الحديث الذي تم، ثم جلوس البغدادي معي على إنفراد، وما قاله، تؤكد أن القذافي أراد فعلاً مناقشة الموضوع، وقد يكون قصد بذلك بعث رسالة إلى أمين مؤتمر الشعب العام وأمين اللجنة الشعبية العامة، مضمونها أنه يأخذ ما قلته له على محمل الجد.

جاءني محمد الزوي بمنزلي في نفس الليلة، وبدأ في مسلسل طويل من الشكوى المرة، والنقد الشديد للوضع، وحمل القذافي مسئولية ما وصلت إليه الأمور، وأنه، أي القذافي يتبع سياسة تدمير كل شيء. وفي الختام قال، أنه شعر بتوجه لدى العقيد لإختيار عنصر آخر ليكون أميناً للجنة الشعبية العامة محل البغدادي المحمودي، وأنه لن يعارض ترشيحي لهذا المنصب. قلت له يا محمد، لقد وصلت الأمور إلى حد لا يستطيع حتى تشرشل أن يصلحها، هل تعتقد أنني سأستطيع أن أوقف أبناء معمر القذافي عند حد، وهم يعتبرون أن ليبيا وما فيها ومن فيها ملك مقدس لهم، وختمت حديثي بالقول، سأفر بعد يومين ولن أعود إلى ليبيا أبداً.

في صباح اليوم التالي، إتصل أبوزيد دوردة هاتفياً، وقال أنه سيأتي الآن إلى بيتي ويريد أن يتحدث معي في موضوع عاجل وهام. إعتقدت أن حديث محمد الزوي عن اللجنة الشعبية العامة قد حدث فيه تطور جاد. جهزت ردّي، أقصد إعتذاري، وكيف سأقدمه إلى أبوزيد عندما يطرح علي الموضوع.

بعد أن قدمت له القهوة، وأنهمك في تدخين سيجارته، قال: "يا عبدالرحمن أنت لي أكثر من أخ، وليس بيننا إلا ما حرم الله، ولقد أزعجني ما قاله لي محمد الزوي، أنك تنوي الهروب من البلاد، وأقسمت أنك لن تعود إليها أبداً. أنا أستغرب هذا منك، هذا

فعل لا يمكن أن يقدم عليه رجل مثلك، قررت أن أحضر إليك بشكل عاجل لأفهم منك حقيقة هذا الأمر".

ضحكت، وقلت له مازحاً، لا يا أخي، إن محمد الزوي لا يفرق بين الجد والهزل، ولا تبتل في فمه الفوله، كما يقولون، لقد قلت له هذه الكلمة في لحظة إنفعال، وأنت تعرفني، أنا أفضل أن أكون في السجن داخل ليبيا، بل حتى في قبر، ولا أكون في أفخم القصور خارجها. وعلى كل حال فأنا مندوب ليبيا في الأمم المتحدة، وسأسافر بعد يومين إلى نيويورك، ولست بحاجة إلى الهروب.

خرج أبوزيد من منزلي وهو واثق مما قلته له، وزال عن مزاجه التوتر، وأتفقنا على أن نلتقي قبل مغادرتي طرابلس. مددتُ إقامتي بطرابلس لمتابعة بعض الأمور الخاصة، وتفجرت أحداث تونس، فعمت ليبيا قشعريرة شعبية شاملة، توتر معمر القذافي، وبدأ في استقبال الشباب الذين يكتبون على الفيس بوك ووسائط التواصل الإجتماعي الأخرى، ويوجهون النقد إلى النظام ويحرضون بشكل ناعم وغير مباشر على التحرك ضد النظام.

إتصلت بأبوزيد ذات صباح، وقلت له سأزورك، فقال أنا في إنتظارك، وأريد الحديث معك، وصلت إلى مكتبه، وجدت معه، العميد عبدالسلام حموده، أحد مساعديه، كان الحديث عن قضية الساعة، أي الإنتفاضة التي تشهدها تونس، وتأثيرها على الوضع في ليبيا. ذهبنا بعد ذلك سوياً إلى مكتب عبدالله السنوسي بالمخابرات العسكرية، كان معه العميد التهامي خالد رئيس جهاز الأمن الداخلي. كان عبدالله السنوسي أكثرهم تشائماً، تحدث عن الإستعدادات التي لابد أن يشرع فيها فوراً، أما التهامي فقد إشتكى من التسيب في أجهزة الدولة، والفقر الذي يزداد بدون مبرر، والبطالة، ولكنه ركز على مؤامرة مدبرة من الخارج، وإغراق ليبيا بحبوب الهلوسة، بل قال أن هناك أنواعاً من الحبوب تأتي من مصر، تسبب عند متعاطيها تعطشاً للدم، لم يؤيده السنوسي في ذلك، وتأرجح أبوزيد بين الإثنين.

كنت حذراً ومتحفظاً، فأنا لا أدري، هل نسى أبوزيد دوردة ما قاله له الزوي من أنني قررت الهرب وعدم العودة إلى الأبد؟ هل أقنعه ما قلته له بالخصوص؟ وهل سيقرأ كل هذا بأبجدية جديدة بعد ما حدث في تونس؟ وهل تحدث بخصوص ذلك الموضوع إلى عبدالله السنوسي والتهامي خالد؟ مثل ذلك ضاغطاً نفسياً قوياً. كان عبدالله طوال تلك الجلسة يتنقل بين أكثر من هاتف وأكثر من مكالمة في نفس الوقت، سمعته يتحدث إلى رئيس وزراء قطر حمد بن جاسم آل ثاني، يحثه على تخفيف تغطية أحداث تونس على قناة الجزيرة. إلتقينا في نهاية الحديث عن نقطة واحدة، وهي أهمية تجنب الصدام مع الناس، وتفادي إراقة الدماء، فإن الدم إذا سال لا يتوقف، وأذكر أنني قلت أن السيارات وقودها البنزين، وغضب الناس وقوده الدم، وأن النظام التونسي إرتكب خطأ إراقة الدم الذي تحول عند الناس إلى خطيئة لن يمحوها إلاّ الدم. غادرتهم وأنا أشعر أن هناك إرتباكاً حقيقياً، فقد تطورت الأحداث في تونس بصورة لم يتوقعها أحد منهم، ولم تكن هناك رؤية لمعالجة هذا الأمر إذا إنتقل إلى ليبيا. زاد ذلك من شعوري بخطورة الموقف وقررت المغادرة إلى أمريكا، ولم أخبر أبوزيد بموعد مغادرتي.

كنت أدرك بأن الطوفان الليبي قادم، وعندما زارني عبدالله السنوسي بمنزلي، كان أكثر تيقناً مني بحدوث ذلك، ممتليء باليأس، يحمّل أبناء معمر القذافي كل المسئولية، يصف سيف الإسلام بأنه غير جاد، والمعتصم بالتهور والسذاجة، والساعدي بالتافه، وشعرت أنه غير قادر على التأثير في توجيه الأمور، وكان يصف أبوزيد دوردة دائماً بأنه ظاهرة صوتية.

17 دقيقـة و 17 ثانيــة

علاقتي الشخصية بأبي زيد دوردة، بدأت مبكراً أي بعد تخرجي من الجامعة وإلتحاقي بالعمل في مجال الصحافة، كان وزيراً للإعلام والثقافة، شاباً يشتعل حيوية وحماسة

وثورية، له مزاج صدامي، يملأ الناس أفواههم بإسمه، هناك من يتعصب له بقوة، وآخرون ينتقدون أفعاله قدر ما ينتقدون أقواله، تعرفت عليه عن طريق محمد بلقاسم الزوي الذي كان وكيلاً لوزارته. بالطبع كانت هناك مسافة العمر بيننا، مثلما هي مسافة الوظيفة، مع مرور الأيام وتوسع النقاش، بدأت المسافات تقصر، والحوار يتسع ويتعمق، بعد حرب 1973، بدأ الحديث الرسمي في ليبيا يرتفع عن خلفيات تلك الحرب، محركاتها وأصدافها، رفع الشعار التشكيكي حول تلك الحرب، وهي أنها حرب تحريك، وليست حرب تحرير، تبنى أبوزيد هذا الشعار علنياً، وإندفع يهاجم التوجهات المصرية، ويكتب المقالات في الصفحات الأولى من الجرائد الليبية، وطلب من الصحف اللبنانية الموالية لليبيا أن ترفع صوتها ضد سياسات أنور السادات، وتكيل له التهم، بل الشتائم. قرر معمر القذافي أن ينقل أبوزيد من ميدان الأقوال السياسية، بوزارة الإعلام، إلى ميدان الأفعال السياسية بوزارة الخارجية، ولكن بدرجة وكيل وزارة وليس وزير.

إستمرت الحوارات بيننا، وطالت اللقاءات، كل الموضوعات، وعندما يدخل الحديث إلى دائرة نقد النظام، في الدول الشمولية مثل ليبيا، فإن ذلك يعتبر تعميداً للصداقة، وقسماًعلى الثقة المتناهية.

مررتُ بمحطات سياسية صعبة، كان خلالها أبوزيد متعاطفاً معي إلى حد كبير، وعندما تعرضت لحادث سير سنة 1977، زارني في المستشفى، وعندما بدأت مشكلة – الأسبوع السياسي، والثقافي، لم يوسع المسافة بيننا، إستمرت العلاقة بيننا. وإينما تنقل في المواقع السياسية وغيرها، إتصل خيط العلاقة بيننا.

تحدثت عن زيارتي الأخيرة لليبيا، ولقائي بالقذافي، ومكان أبوزيد في ما حدث بعدها، وقبلها أشرت إلى تحليله ورؤيته لما حدث في تونس وتداعياته على ليبيا. خلال الإنتفاضة في مصر، كان في زيارة علاج لأمريكا، إلتقينا ساعات طويلة بمكتبي ببعثة ليبيا لدى الأمم المتحدة في نيويورك، الذي جلس فيه هو لسنوات عديدة، كمندوب ليبيا لدى الأمم المتحدة.

كان الإتفاق بيننا كاملاً، على أن النظام في ليبيا غير محصن في وجه التطورات التي تشهدها المنطقة، خاصة بعد أن وصل لهيبها إلى مصر، كان هو أكثر حدة وتشدداً في نقد النظام، لم يكن يثق في جدية توجهات سيف الإسلام، ولم يحمل أي تقدير لقدرة البغدادي المحمودي على إدارة شئون البلاد. قرر أن يعود إلى ليبيا بسرعة، لأنه لا يستطيع أن يبقى خارجها، في هذه الظروف بحكم منصبه كرئيس جهاز الأمن الخارجي.

بعد إنفجار ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، زاد حجم الإتصالات اليومية بيننا، ولم تنقطع رنّات الهواتف ليلاً ونهاراً، تحدث بلغة المؤامرة، والمخططات الأجنبية، وحبوب الهلوسة. كان صوت الرجل الذي يأتي عبر الهاتف غير ذلك الذي كان يحدثني عندما كنا معاً سواءً في طرابلس أو نيويورك. يكرر ما يقوله القذافي وإعلامه. بالطبع لم يستطع أن يستمع إلي مطولاً في كل مرة، لقد إختلفت لغتانا ومنطقنا.

بعد إلقاء كلمتي بمجلس الأمن يوم 25 فبراير، إنقطعت الإتصالات من ليبيا بإستثناء عبدالقادر البغدادي، منسق مكتب الإتصال باللجان الثورية، وأبوزيد دوردة، رئيس جهاز الأمن الخارجي. يوم 2011/02/27، إتصل بي قال أنه كان قبل قليل مع – القائد– الذي عبر عن صدمته من موقفي، وأن – القائد– قال له، لو أن إبنه سيف الإسلام، أخذ هذا الموقف لكان تأثيره عليه أقل من إتخاذي أنا شخصياً له، وأضاف أبوزيد المتحمس المتوتر:" يا أخ عبدالرحمن، الذي حدث حدث، حاول أن تعالج الأمر، الموقف في غاية الخطورة، و– القائد– يقول لك، خذ كل ما تريد، وسنتجاوز عن الذي حدث منك، أخوتك لن يمسسهم أذى، وأنا على إتصال بهم، وسنوفر لهم الحماية، لكن لابد أن تراجع موقفك، وأن تعالجه بالطريقة المناسبة، وأنت قادر على ذلك، فهناك مؤامرة كبيرة على البلاد، والوطن يتطلب منا جمعياً، أن نقف في وجه هذه المؤامرة... إستمر في حديث طويل على ذلك المنوال، تحدث، قرابة 17 دقيقة، وعندما حاولت أن أرد عليه، قاطعني، قلت له، يا أخ أبوزيد أنت تحدثت 17 دقيقة، أعطني فرصة أن أتحدث 17 ثانية، صمت، قلت له:" أنا أستغرب أن تأخذوا الأمر

بهذا التبسيط الساذج، الموضوع أكبر وأكبر بكثير، هناك ثورة وطنية ليبية شاملة، ضد فساد تحدثنا عنه كثيراً، أنا وأنت، ولقد إحتكمتم إلى القتل، إلى الدم"، قاطعني وعاد يقول، أنا أنقل لك ما قاله – القائد– وأرجو أن تتصرف. أدركت أن الرجل لا يريد أن يسمعني، كان يتحدث إلى جهاز التسجيل، ومنظومات التنصت، ويريد أن يثبت بأنه نفّذ الأمر، ونقل الرسالة، ولا يريد أن يستمع إلى أقوالي، خاصة وأنني أشرت إلى موقفه السابق من الفساد.

كانت تلك المرة الأخيرة التي أسمع فيها صوت أبوزيد دوردة. سمعته بعد ذلك مرتين، لكنه لم يكن يتحدث إليّ مباشرة أو عبر الهاتف، وإنما كان يتحدث إلى أحد في تلفزيون القذافي، وهو يرد على ما أشيع حول هروبه من ليبيا، وإنشقاقه عن النظام، عبر في ذلك الحديث عن ولائه الذي لا يتزعزع، لسيده القائد كما سماه، أما المرة الثانية، فكانت وهو يتحدث للثوار، بعد إلقاء القبض عليه.

يوم 8 نوفمبر 2011، قالت لي السكرتيرة، أن زوجة دوردة إتصلت بالبعثة فجراً، وطلبت من الحراس إيقاظي لأمر خطير وعاجل، طبعاً أعتذر الحارس، وقال لها من المستحيل إيقاظ السفير في هذا الوقت، تركت زوجته رقم هاتفها، طلبتُ من السكرتيرة وهي كانت تعمل مع أبوزيد، وتعرف زوجته، طلبتُ منها أن تتصل بها، وتسألها عن الموضوع العاجل والخطير، أخبرتني السكرتيرة، أن زوجة أبوزيد قالت لها أن وضعه خطير، وقد حاول معتقلوه قتله، وألقوا به من العمارة المعتقل بها، وقالوا أنه حاول الإنتحار، وأضافت الزوجة، أن أبوزيد ليس من أولئك الضعفاء الذين يقدمون على مثل هذا الفعل، وتطلب تدخلي مع الثوار للتخفيف من أسلوبهم العنيف معه. وأنها – أي زوجته – ستتصل بالمنظمات الإنسانية من أجل الحفاظ على حياته.

لم أعلق، ولم أتدخل، ولم أتصل بالثوار، فلقد أختار هو موقفه وقراره، وأصطف إلى جانب – سيده القائد– حسب تعبيره هو، ضد إرادة الشعب الليبي، وعليه أن يدفع ثمن إختياره.

تحدثت فيما بعد مع أحد أقارب أبوزيد، سألته عن تلك الحادثة، قال لي ، أن أبوزيد، حاول الهرب، قفز من معتقله في الدور الثاني، أصيب بكسور، نقل على إثرها إلى مستشفى قاعدة معتيقة العسكرية بطرابلس للعلاج.

نقطـة علــى السطــر

الآن، إختفى الممثلون، وتصدعت خشبة المسرح، معمر القذافي قتل، إبنه المعتصم الذي قاد معركة والده الأخيرة في سرت، يرقد في قبر مجهول بصحراء ليبيا قرب والده، وأبوبكر يونس جابر، قائد الجيش الليبي الذي لم يقده أبداً، قبله قتل أخواه سيف العرب، وخميس، الذي أعطى جزءاً من طفولته وكل أيام شبابه للعمل العسكري، قاد الجحفل رقم 32 في مواجهة ثوار 17 فبراير، محمد وهانيبال، الولدان الآخران لمعمر القذافي، هما الآن في الجزائر، رفقة أختهما عائشة، وصفية، وفتحية زوجتا القذافي، الساعدي، لاجيء في النيجر، وسيف الإسلام، قائد ليبيا مع وقف التنفيذ، بين أيدي ثوار ليبيا، بعد إعتقاله يوم 2011/11/19 ولحقه في اليوم التالي عبدالله السنوسي، الذي أعتقل في مسقط رأسه بقرية – قيره – بمنطقة الشاطيء جنوب ليبيا. تضاربت الأخبار فيما بعد عن حقيقة وضع عبدالله السنوسي، هناك من يقول أنه رهن الاعتقال بمدينة سبها، وهناك من يقول أنه أعتقل.هكذا، إنسلخ زمن عن الزمن، وأصبحت الأرض غير الأرض، هل تخيل هؤلاء الذين أبتلعتهم الأرض الليبية، أو الذين قذفتهم إلى الخارج، أو الذين هم الآن بين جدران المعتقلات، هل تخيلوا يوماً، أن شفرة الأرض والزمان، هي طلسم السحر الرهيب، الذي لا تقدر على فكه إلاّ دفقات دماء الثوار؟ ولكن هل تخيل هؤلاء، أن بذور الثورة تكبر في رحم الأرض الليبية، وأنها ستفلق التراب، لترتفع سيقانها فوق أديم الوطن، وأن الدم الذي ترتفع درجة حرارته في شرايين الجيل الليبي الجديد، سيصل إلى درجة الغليان، لينفجر

الوطن ثورة شاملة عاتية، يساندها العالم، ويجدون القذافي نفسه، وأولاده، والمدافعين عنه، هباء تدفعه أمواج الدماء فوق بقاع ليبيا.

كان ذلك، مشهد نهاية العائلة القذافية، معمر القذافي، هو المهندس المدني، لذاته، سياسياً، وفكرياً، وعسكرياً، وإجتماعياً، نجح بعد ذلك في تصميم أركان المسرح الذي تحرك فوقه، حاول على مدى عقود إنتاج مشاهديه، الذين لم يجلسوا على كراسي المسرح، بل أراد لهم أن يشاهدوا مناظراً دخانية، تنبعث من مواقد تتأرجح في المجهول. الآن غادر الممثل وأحترقت الستائر، نستطيع الآن أن نقرأ "أبوزيد دوردة" الشخصي في مدارته النفسية والإجتماعية، الشخصية والعامة، حتى نطل على المسارب التي إختارها، وتلك التي أختيرت له عبر عقود أربعة، دار فيها في فلك القذافي، من أعطى، ومن أخذ، وكيف ؟.

مباشرة، وفي نفس الصباح الباكر، الذي إنطلقت فيه الأناشيد الحماسية التي تتغنى بالثورة العربية، ليقطعها صوت يعلن البيان الأول للثورة صبيحة أول سبتمبر بصوت معمر القذافي، مباشرة توجهت ملايين القلوب والأصوات تؤيد الحدث، الذي حول ليبيا من عهد ملكي معلوم إلى عهد جمهوري مأمول، وبعد أيام قليلة من البيان الأول، بدأت ملامح صورة التغيير، ترتفع ألوانها، بل تحدد هويتها، سميت ليبيا بالجمهورية العربية الليبية. ورفع شعار الحرية والإشتراكية والوحدة، تأكد أن المولود الجديد خرج من رحم الفكر القومي العربي، وأن ليبيا الجديدة، إختارت بلسان ثورتها أن تسير على خطى جمال عبدالناصر، وأن تنقاد لأهدافه العربية. مع مرور الأيام، بدأت العناصر الليبية الشابة، ذات الأفق القومي العربي، تتهافت على الثوار، تلتف حولهم، وتمد أيديها لهم من أجل مساندتهم ومساعدتهم على تحقيق الأهداف التي عبرت عنها شعاراتهم.

تحرك أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأعضاء تنظيم الضباط الوحدويين الأحرار، وأعضاء التنظيم المدني، تحركوا بسرعة لإستقطاب العناصر التي أبدت تأييدها لثورة أول سبتمبر، ووضعها في مراكز سياسية وإدارية هامة، وقد وظف القذافي ندوة الفكر

الثوري التي عقدت سنة 1970، لإختبار مدى ولاء العناصر المشاركة فيها للنظام الجديد، وأستفاد من بعض المتحدثين في مواقع رآها تشكل بؤراً سياسية وثقافية حيوية للنظام.

كيف وصل أبوزيد إلى معمر؟ بحكم عمل أبوزيد أستاذاً للتاريخ بمدرسة طرابلس الثانوية قبل ثورة أول سبتمبر، فقد تعرف إلى الكثير من زملائه بالمدرسة، وكذلك تواصل مع الوسط الثقافي الشبابي، بكل قياداته السياسية والفكرية، إضافة إلى المئات من الطلاب ذوي الميول السياسية المختلفة، مثله مثل الكثيرين من المدرسين، ومن المتعلمين من أبناء جيله. كان أبوزيد على تواصل بكل من مفتاح كعيبة، وسالم والي، عضوي التنظيم المدني، قدماه إلى معمر القذافي، ومن خلالهما أيضاً تعرف بكل من إبراهيم أبجاد ومحمد بلقاسم الزوي، عضوي التنظيم أيضاً، وتم تعيينه محافظاً لمصراتة، ومن هناك إنطلق يتنقل بين أغصان شجرة الثورة.

بعد أول سبتمبر، شرع معمر القذافي، في إعادة تشكيل حواسه السياسية، ويعيد تشكيل أطراف جسمه من أجل الاستمرار في السلطة، كانت رؤيته مختلفة تماماً عن زملائه بمجلسي قيادة الثورة، وتنظيم الضباط الأحرار. كان تكريس سلطته الفردية هدفاً مركزياً بالنسبة له، لم يستطع كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، ومعهم أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، قراءة منظومة البرامج الأمنية والإعلامية والسياسية، التي صممها القذافي منذ اليوم الأول، وأعطى جل وقته لتفعيل تلك المنظومة. أثبت أبوزيد وهو محافظاً لمصراتة، أنه من العناصر القادرة على الفعل على الأرض، وبعد أن قام بضرب أحد المواطنين، قرأ فيه معمر القذافي ملامح شخصية سيحتاج إليها كثيراً وطويلاً. نقّله من مكان إلى آخر، لم يستغرق القذافي وقتاً طويلاً لتشخيص أبوزيد، فكان من الأوائل الذين فاتحهم بخصوصيات وأسرار أفكاره وتوجهاته، بدأت لغة الهمس بينهما مبكراً، وأستطاع أبوزيد، أن يجتاز أكثر الخطوط بسرعة، بحيث أصبحت المسافة بينه وبين القذافي، أقصر بكثير من تلك التي بينه وبين بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة. فاتح أبوزيد العقيد القذافي بشكوكه عن بعض الأعضاء،

وملاحظاته على تحركات بعضهم، وأصبح خلال فترة قصيرة أحد المصادر الهامة للقذافي عن نشاطات وتحركات أعضاء مجلس القيادة. وجد معمر في أبو زيد شخصاً له القدرة على تحليل مجريات الأمور الداخلية والخارجية، والصوت العالي القادر على نقل توجيهات معمر القذافي ورسائله، ولم يخف أبوزيد ولائه الكامل للقذافي.

غـــزوات أبوزيــــــد

يقولون:" لكل من إسمه نصيب". أبوزيد كان ممتلئاً بأبي زيد، أبوزيد الهلالي، أسم يختزل كل صفات العربي البدوي، يصدع برأيه، يغيث الملهوف، لا يعبأ بالمخاطر، يعشق الصدام، رمز الشجاعة، هذا الخليط من الصفات والأوصاف، عشعش في أطرافه، وتسرب إلى كل حواسه، إذا تحدث ينطق بصوت المتحدث بين كلمة، أنا، وأنا، يكرر أخرى، لقد تضخمت هذه الغدة " الأنا "، بحيث أصبحت تشغل حيزاً من عقله وقلبه وكان يكرر أيضاً مقولة تنسب إلى أبوزيد الهلالي وهي :" أبوزيد لابس، أبوزيد عريان". إذا سألته كيف أحوال صحتك يجيبم بـ" لم يبق من الصحة، إلاّ صحة الوجه". في إحدى جلسات مؤتمر الشعب العام عند مناقشة بند المساءلة، إنطلق في خطاب تحد حماسي، إفتتحه بقوله:" الطير الحر يشرب بمنقاره، ومن يحمل قربة تقطر عليه". لقد أخترع تغريبته هو، إستعاد من خلالها تغريبة ذلك القومي العربي الغابر الذي يحمل إسمه، وصار ينسج من خلالها أثواباً يلبسها، يطرزها بأقوال تستكمل ملامح الصخب الذي يرافق صوت الراوية وهو يعزف على ربابته شعر التغريبة الهلالية.

يقال أن أبا زيد ينحدر من قبيلة – المقارحة – وهي قبيلة بدوية إستقرت بمنطقة الشاطيء بفزان بالجنوب الليبي، لها شتات في منطقة الزاوية الغربية قرب طرابلس، وبمنطقة الجبل الغربي التي تعيش بها عائلة أبوزيد. لم يعرف هو شخصياً أي لون

من حياة البداوة، ولد بقرية الرحيبات، وهي منطقة حضرية بمعايير الزمن الذي عاش فيه، ومقارنة بحياة البدو الرحل، الذين يربون الحيوانات في المراعي، ويتنقلون وراء مياه الأمطار في الحمادة الحمراء، يعيشون تحت خيام الشعر، أنا لا أعرف تفاصيل طفولته، وبما أنني ميّال إلى التفسيرات والتحليلات النفسية التي تقول أن شخصية الفرد، تبنى على القواعد التي تؤسس في شعوره ولا شعوره قبل وصوله إلى سن الثامنة عشر، فبالتأكيد، أنه قد تشرب في تلك السن بعضاً من المثل البدوية المعدلة. كان كثير الإعتزاز بوالده، ولا أتذكر أي حديث له عن والدته، أو أعمامه، لم يكن والده من أهل المال، ولم يتول مناصب حكومية سامية، كان موظفاً بسيطاً في جهاز البوليس، فإعتزازه بوالده يعود إلى تفوق ذاتي في شخصية هذا الوالد كما رآها أبوزيد، من حيث الكرم، والشهامة والوفاء للصداقة، أي موروث تشكل في رزمة من الأخلاق والمثل والسلوك. هل شكلت تلك الموروثات البدوية النظرية الخيط الذي جذب أبوزيد البدوي، إلى معمر القذافي، البدوي أيضاً ؟ أم أن الأفكار العروبية، التي قدم بها القذافي نفسه للدنيا هي التي نسجت ذلك الخيط؟، قد يكون الأول أو الثاني، أو كلاهما.

أم أن الأسم أيضاً " أبوزيد " كان خيطاً مضافاً؟.

ولماذا لا نطرح السؤال التالي:" هل إكتشف معمر القذافي في أبوزيد دوردة شخصاً تتوفر فيه المؤهلات الذاتية التي تشغل حيزاً جاهزاً حدده معمر القذافي، أم أن الأخير، أضاف جديداً إلى قديم أكتشفه؟ أعتقد، إن القذافي، الذي حاول تحجيم مجلس قيادة الثورة، وخلخله تنظيم الضباط الأحرار، ليتخلص من كتلة سياسية عسكرية، تحولت إلى قوة تقف أمام فرض إنفراده بالقرار، أدرك منذ البداية ان إستقطاب عناصر قادرة على تنفيذ سياسته الموازية، غير المعلنة، تكون لهم القوة على مواجهة أعضاء القيادة، يخلق معهم قنوات سرية أو شبه سرية تقوم بإدارة الدولة من خلال الإتصال المباشر معه. فعندما أختار القذافي أبوزيد دوردة، ليكون وكيلاً لوزارة الخارجية، إلى جانب الرائد عبدالمنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة ومدير

المخابرات، كان ذلك بسبب الشكوك التي كبرت لدى معمر في إخلاص عبدالمنعم له، أدرك الهوني الدافع وراء إختيار أبوزيد ليكون الوزير الموازي له، بل هو التوأم السري في منصب وزير الخارجية، وأن أبوزيد على إتصال مستمر مع القذافي، ينفذ تعليماته دون أن تمر على عبدالمنعم الهوني.

كان أبوزيد هو قفاز القذافي الإعلامي والسياسي، وهو عينه على الأعضاء، والنافذة التي يطل منها على التفاعلات السياسية والفكرية داخل ليبيا وخارجها. فالعناصر العسكرية التي إختارها القذافي للمواقع الأمنية وخاصة تلك التي تنتمي إلى قبيلته قبيلة القذاذفة، لم تكن لها القدرة على ربط المعلومات ببعضها، دعك عن تحليلها، بالإضافة إلى قدرة أبوزيد من حيث الجرأة، والأسلوب على طرح بعض القضايا بمجلس الوزراء بصوت معمر القذافي دون أن يذكر أسمه، وهكذا أصبح أبوزيد قوة التدخل السريع، يتنقل من موقع إلى آخر.

غزو أبوزيد الأخيرة

أبوزيد دوردة، بمنشأه، وشخصيته، والوظائف التي طار من فوقها والتي حطّ على كراسيها، والأدوار التي قام بها، تختزل مرحلة، وترمّز إلى تطورات وأحداث، وقفزات وصدامات، ومساومات، تأرجح صوته بين موجات طويلة ومتوسطة وقصيرة، علناً، كان صوت النظام ولكن على مقام" الأنا " المفضل له، لم ينزعج القذافي من ذلك، طالما أن مجمل المعزوفة مكرسة للقذافي، وسراً، أعني في الجلسات الخاصة، كانت تغريبة أبوزيد تروى بربابة الأنا فقط، طبعاً، ليس هناك أسرار في ليبيا القذافي، الذي لم يكترث بأغاني الغرفة. كثرت الوشايات فيه، من الأمن الخارجي، ومن خليفة إحنيش، أشتكى منه أعضاء مؤتمر الشعب العام، وأعضاء مجلس قيادة الثورة، واللجان الثورية، تلك الوشايات والشكاوي كانت مضافة إلى أبوزيد وليست مخصومة منه بالنسبة للقذافي.

قلت ، كان إختيار أبوزيد لمنصب رئيس جهاز الأمن الخارجي، مفاجأة للجميع، فهو ليس من ذلك الوسط، وغبار الشكوك التي أعادته من نيويورك لم تنفضها الأيام بعد، كذلك شطحات الطموح التي تغذيها " الأنا " الهلالية، كل ذلك يجعله غريباً في أدغال الأمن الخارجي، لكن القذافي، إختاره، دون إستشارة أحد، وقد تأكد أنه أحسن الإختيار.

بعد إنتفاضة 17 فبراير، شكلت لجنة أمنية لمواجهة الإنتفاضة التي تحولت إلى ثورة شعبية ليبية مسلحة، كان أبوزيد وسط تلك اللجنة التي ضمت كل من :

1 - التهامي خالد- رئيس جهاز الأمن الداخلي.
2 - عبدالله السنوسي- رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية.
3 - الفريق الهادي إمبيرش – رئيس غرفة العمليات العسكرية.
4 - السنوسي الوزري – أمين الأمن العام.
5 - منصور ضو – آمر الحرس الشعبي.
6 - أبوزيد دوردة – رئيس جهاز الأمن الخارجي.

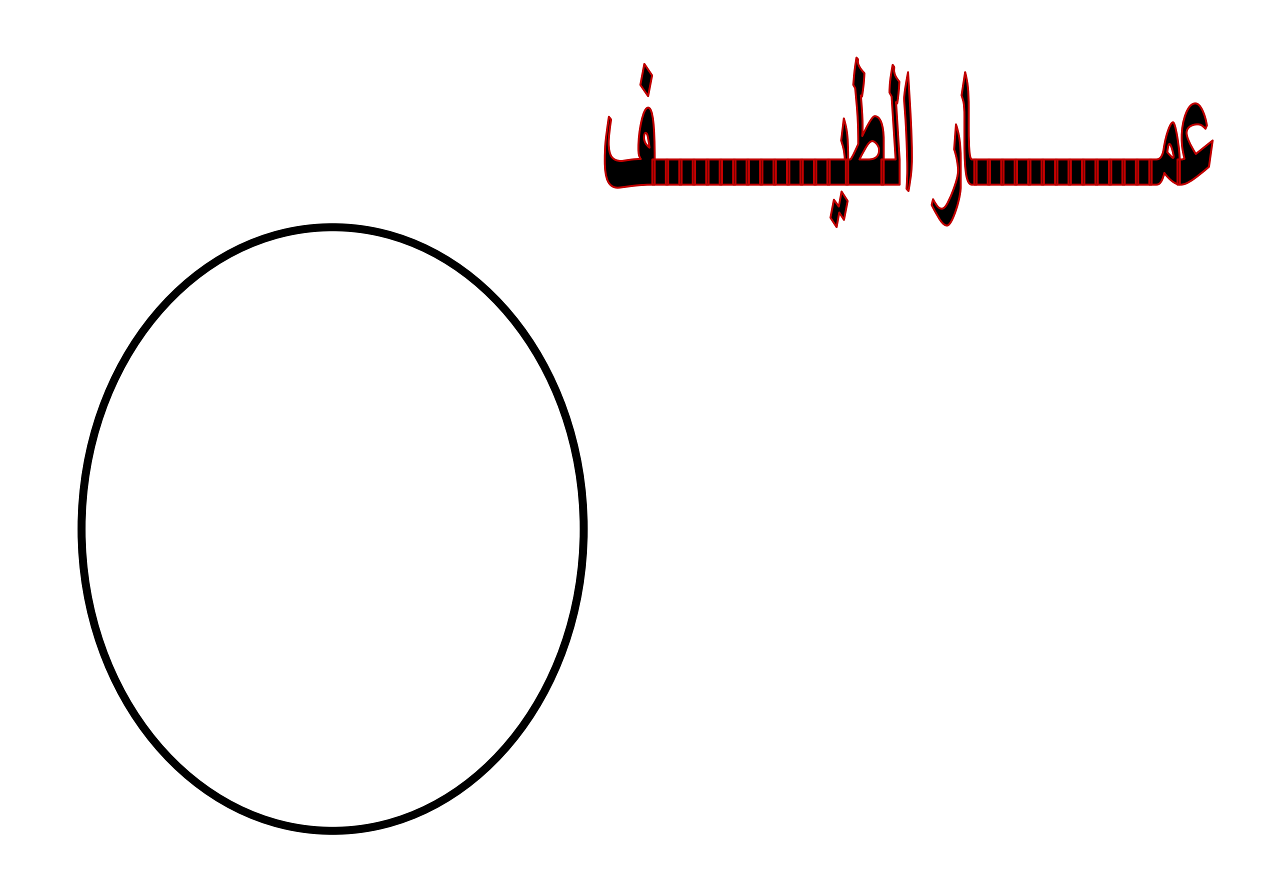
أثبت أبوزيد أنه رجل القذافي في كل الأوقات ولكل الأحداث، فهو الكاتب، المثقف، الهلالي، الشهم، الذي ما أنفك يتحدث عن الفساد، والتردي الذي تشهده ليبيا، حمل لواء المصالحة مع المعارضة الليبية بكل أطيافها، حاور المخابرات الأمريكية CIA في طرابلس وواشنطن، وحمل معه المجلدات والتقارير، وألقى عليهم المحاضرات الطويلة، ها هو يجلس وسط زمرة من العسكريين، يضعون الخطط، ويحركون الكتائب، والمرتزقة لقتل الليبيين الذين تظاهروا سلمياً ضد الفساد والظلم وتردي الأوضاع الإقتصادية. أي أبوزيد الذي كان يجلس بين هؤلاء العسكريين الأمنيين، يخطط وينفذ معهم لقمع أبناء وطنه؟!

طبعاً، كان يردد أن ماحدث في ليبيا كان دافعه حبوب الهلوسة ضمن مخطط إمبريالي، وأن تدخل الناتو ضد نظام القذافي، كان بدافع الإستعمار الإمبريالي الصليبي لليبيا، ضمن مخطط غربي صهيوني للسيطرة على الأمة العربية.

كانت تلك غزوة أبوزيد الأخيرة، لكنها غزوة ضد أبناء شعبه.

ليلة القبض عليه بطرابلس، بعد تحريرها. ظهر في تسجيل مرئي بين شباب الثورة وهو يمثل دور – الفارس أبوزيد – يضع ساقاً على ساق، يرفع سبابته متحدثاً عن الوطن، وحرية الوطن، طبعاً، ضد الغزو الإمبريالي الصهيوني، كان يتحدث لمن؟ لمعمر القذافي المهزوم، أم لأبي زيد الهلالي، الذي لم تعد هناك ربابة تعيد أيام تغريبته. أم لوالده الذي لم تسمع أذانه مصطلح الإنتفاضة، أم للتاريخ؟

لست أدري ماذا كان شعور أبوزيد، وهو يرى شباب الثوار، يقبضون على جسد العقيد معمر القذافي، هل سأل أو تساءل من الذي قتل ؟ هل هو شخص، أم عصر، أم وهم؟ لقد تماهى أبوزيد في كل ذلك، والآن بدون شك، وهو في مستشفى معتيقة العسكري، يكرر ويقول لنفسه :" ياريتك يا أبوزيد ما غزيت".


عمـــــار الطيـــــف

عمـــــار ألطيــــف

في هذه الرحلة مع أشخاص تعددت الحقول التي نبتوا بها، وتلونت البذور، التي إنفلقوا منها، أو ولدتهم من تفتح حباتها فوق الأرض، وقفنا في محطات شتى، وقرأنا الزمن والناس وهم يطوفون حول خيمة معمر القذافي"القائد"، تبدل الكثير داخل ليبيا وخارجها، الصغار أصبحوا شباباً، والشباب أمسوا شيباً، مات رجال، وولد آخرون، ولكن معمر القذافي، وإن تغيّر بحكم السن، فلم يُغيّر. معمر الذي رأى فيه يوماً جمال عبدالناصر شبابه، ورأى فيه الشباب أنفسهم، ورأت فيه حركات ثورية كثيرة أحلامها، لبس أكثر من جلباب، منها حمل صور قادة أفارقة، ومنها ما رسمت فوقه خارطة أفريقيا، لكنه في داخله، كان يسكن شيء واحد، هو معمر القذافي.

عمار ألطيف عاش داخل تلك المراحل، تغير فيها صوته، ولباسه، ونمط حياته، وتغيرت أيضاً الزوايا التي يرى منها الناس والأشياء، وفي السنوات الأخيرة، بدأ يرى قائده بعيون أخرى، ويعبر عن رأيه فيه بأكثر من صوت.

عمار المبروك الطيف، يمكن أن يقاس به الزمن الثوري الليبي، الزمن الجمهوري والجماهيري، مثلما يقيس علماء الجيولوجيا عمر الأرض بعناصر مواد معينة وتراكمها فوق بعضها. هو القادم من قرية العجيلات، عاش في ظروف عائلية خاصة، دفعته للإنتقال إلى طرابلس، هناك صارع رغم عصيان الزمان والمكان لينهي دراسته الثانوية، إنتقل بعدها إلى بنغازي لدراسة الحقوق. هناك بدأت رحلة عمر عمار، كانت أوراق الثورة، وحركة الناصريين، والزحف والمسيرات، أكثر من أوراق القانون، تداخل الصخب بالصخب، إلتقت الأوراق بالأوراق، إلتقى أخوان الصفاء القومي ليبسطوا صوتهم فوق أصوات الأساتذة الكبار التي كانت تعج بهم الجامعات الليبية، كانوا من العيار الثقيل مثل الشيشكلي، والشاوي وغيرهما، أما رفاق عمار فهم محمد المصراتي، وإبراهيم البشاري، وصالح الشيخي، وعبدالله المقري. إنتظم هؤلاء في سلك الطلبة الناصريين، أصبحوا سادة الجامعة، هم الجيل الذي سبق ذلك الذي

قاد ثورة الطلاب في 7 أبريل سنة 1976. هؤلاء السابقون صنعوا ثورة من نوع آخر، فعندما كان ميناء بنغازي يعاني إختناقاً بسبب تكدس البضائع، عبأوا طلاب الجامعة ليقوموا بتفريغ السفن، ونقل البضائع إلى خارج الميناء، وبما أنهم سادة الجامعة ومؤهلاتهم الثورية، تفوق مؤهلات الأساتذة والدكاترة، خاصة أولئك الذين حفظوا القانون على الرواية التقليدية، فقد قرروا منح أنفسهم شهادة الليسانس في القانون دون عبور بوابة الإمتحانات التقليدية الرجعية.

البضائع التي أخرجها هؤلاء كان معظمها من صناديق الطماطم، وهكذا سميت تلك الدفعة بدفعة الطماطم، رحم الله ذلك الزمن الذي كان الثوار فيه يمتلئون بالتواضع، فأكتفوا بشهائد الليسانس، أما الأجيال التي أتت من بعدهم كانت تطير من الشهادة الإعدادية لتحط على أبراج الدكتوراه. تم تعيين عدد من دفعة تلك السنة في سلك الشرطة بدرجة ملازم أول.

بعد عودته إلى طرابلس، قام بدور فاعل في رابطة الطلبة الناصريين وعمل بالإذاعة الليبية، بعد أن تم الزحف عليها إثر الثورة الشعبية، تشكلت خلية ثورية ناصرية لقيادة الإذاعة على رأسها المرحوم إبراهيم البشاري، وعمار ألطيف، ورمضان عبدالعزيز، وعبدالله المقري وصالح الشيخي. كانت للإذاعة آنذاك لغتها الخاصة وأغانيها، وهتافاتها، تلك المرحلة أسست المنعطف الصوتي للثورة.

في سنة 1975، وبعد ما عرف بمؤامرة عمر المحيشي، دخل كل شيء في ليبيا إلى منحى جديد، أدرك معمر القذافي، أن هناك تململ شعبي، تقوده نخبة لا ترفع صوتها، لكنها موجودة في الغرف المغلقة، ولم يعد بالإمكان الثقة في الجيش، والسؤال هو، كما طرحه معمر على نفسه:" هل حان الوقت، أو بالأحرى، هل الوقت مناسب، والظروف مهيأة، أن يبدأ في تكريس نفسه قائداً أوحداً للثورة، وأن يقبض بمفرده على كل مفاصل الفعل والقرار في البلاد ؟ أعتقد بأنه بدأ التخلص من أكثر من نصف أعضاء مجلس قيادة الثورة، ومن الفاعلين من الضباط الأحرار، بحجة تورطهم في مؤامرة المحيشي، وجد الجواب، وكان نعم.

بدأ معمر القذافي منذ سنة 1975 يفكر في بناء تنظيم سياسي جديد، بأفكار جديدة، وعناصر جديدة، وقد طرح بالفعل هذه الأفكار على مجموعة من المقربين منه، وقد حدثني محمد بلقاسم الزوي عن ذلك في حينه. قرأ معمر القذافي الكثير عن التنظيم الطليعي الناصري في مصر، وأمر بعض الأشخاص الذين يثق بهم بترشيح عناصر محددة، بمواصفات معينة، لكنه تردد بعد ذلك، وأجل فكرة تأسيس ذلك التنظيم. بعد التطورات التي شهدتها الجامعات الليبية في طرابلس وبنغازي، والمواجهات التي حدثت بها، ثم التصعيد العنيف والدموي، في 7 أبريل 1976، وبروز عدد من العناصر العنيفة التي لم تكتف بإعلان التأييد لشخص معمر القذافي، بل مارست ذلك التأييد عملاً مادياً ملموساً بالعنف والدم، بعد ذلك، قرر معمر إلغاء فكرة تأسيس التنظيم المدني الطليعي.

بين سنة 1973 وسنة 1975، تقرر مصير ليبيا.

شكلت سنة 1973، فتح القوس الأول، وسنة 1975، كانت القوس الثاني. في السنة الأولى كانت حرب أكتوبر، وبرز السادات كزعيم وطني مصري، وعربي، حقق أول نصر عربي على إسرائيل، شعر معمر القذافي بضيق شديد، وبدأ حلمه في الزعامة القومية يتبخر، بعد وفاة جمال عبدالناصر سنة 1970، تأكد معمر القذافي أن الكرسي أصبح شاغراً، وأعد نفسه للإرتقاء والجلوس فوق سده زعامة الأمة العربية.

كانت الحرب العربية الإسرائيلية في أكتوبر من سنة 1973. قبل ذلك بشهور سبعة، كان الصدام الأكبر بين معمر القذافي وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة ومعهم الغالبية من تنظيم الضباط الأحرار، رفعوا صوتهم في وجهه، طالبوه بالاستقالة، وأصروا على إنتقال البلاد إلى الحكم المدني. وافق معمر القذافي على طلبهم وتوجه بمناسبة ذكرى المولد النبوي إلى مدينة زوارة وأعلن النقاط الخمس، وطالب الشعب بأن يقوم بثورة شعبية وأن يستولي على السلطة.

حقق معمر القذافي من ذلك هدفين:

الأول، سحب البساط من تحت أعضاء مجلس قيادة الثورة، وتنظيم الضباط الأحرار، فقد خلق واقعاً سياسياً جديداً، تفككت الإدارة الليبية بالكامل، وتلاشى خيط السيطرة الإدارية الهرمية في البلاد، وأندفع الناس في كل مكان، وفوجيء الجميع بحماس الشارع لتلك الخطوة.

الثاني، إن " الثورة الشعبية " هي الصيغة الحقيقية للديمقراطية، وهي البديل لمجلس قيادة الثورة، وليس الأحزاب، أو النخب، أو الصيغ الموروثة، وأنه أصبح قائد ثورة يشارك فيها الناس، ولا يمثلها العسكريون في مجلس قيادة الثورة ولا تنظيم الضباط الأحرار. إذا منذ الآن هو – قائد الثورة –. والمجلس لم يعد هو القائد. معمر القذافي يقود الشعب، ولا يقود العسكر.

هكذا في ساعات، وبخطاب واحد، كسر العقيد معمر القذافي حلقة تنظيمية، شكلت خطراً شخصياً، على زعامته وتفرده، وأصبحت علاقته الآن مباشرة بالناس، يأمرهم عبر الإذاعة فينفذون الأوامر، دون وسيط تنظيمي، مدني أو عسكري.

قدم نجاح تجربة " الثورة الشعبية "، في تفكيك إدارة الدولة، لمعمر القذافي منهجاً علمياً في تكريس سيطرته الشخصية على كل البلاد، وإبطال مفعول كل أشكال التنظيم السياسي بما في ذلك الأجسام التي أسسها هو، أي مجلس قيادة الثورة، وتنظيم الضباط الأحرار. وعليه، فقط آمن بأن أي نوع من أنواع التنظيم السياسي، يحمل بداخله بذور المعارضة والمقاومة لزعامته وتفرده بالحكم. تراجع عن فكرة التنظيم الطليعي، وألغاها فيما بعد إلغاءا كاملاً.

في سنة 1975، إجتمع مجلس قيادة الثورة، ومعهم عدد من أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، بوجود معمر القذافي، وقرروا أمامه، حل المجلس والتنظيم، وإجراء إنتخابات ديمقراطية، لتأسيس حكم مدني في البلاد، كان عمر المحيشي عضو مجلس قيادة الثورة الأكثر تشدداً، بعدها أعلن عن مؤامرة للإستيلاء على السلطة وبدأ القبض على الضباط المعارضين للعقيد القذافي، تمكن الرائد المحيشي من الهروب إلى تونس والقي القبض على عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار، المعارضين

للقذافي. فكر معمر القذافي في البديل الآمن، الذي يستطيع عبره حكم البلاد بشكل فردي ويكرسه كزعيم وقائد أوحد. كيف ؟. وقد كفر بكل أنواع التنظيمات السياسية، ورأى فيها مشروع معارضة ومقاومة لحكمه، فكيف سيكون الأمر، وهو يعمل الآن على ترسيخ تفرده بالحكم، ورفع ذاته إلى قمة القيادة والزعامة.

من معدات صناعة الزعيم، آلة الإعلام، وهذا ما كان مع عبدالناصر وغيره من الشخصيات التي جعلت الزعامة الفردية هدفاً لها. إذا، لابد من السيطرة على الآلة الإعلامية سيطرة كاملة، وإنتقاء العناصر الموثوق بها لقيادة تلك الآلة السحرية الجبارة.

أما بالنسبة للتكوينات الإدارية للدولة، فلابد من تدجينها، وإسناد قيادتها، إلى عناصر منتقاة، وموثوقة، تسير الأمور بالشكل الروتيني بما يحقق رغبات وتوجيهات العقيد القائد.

كان تنظيم الاتحاد الإشتراكي العربي، هو التنظيم السياسي الشرعي الوحيد في ليبيا، كان تنظيماً هلامياً كسيحاً ليس له أي تأثير. لا يصلح إلا لتنظيم مسيرات يرفع فيها المشاركون لافتات تؤيد الثورة، وتؤكد الولاء للقائد.. إلخ.. لكن هذا التنظيم يبقى يحمل في اسمه شبح الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ويفتقد مركزية الإرتباط بشخص وكاريزما القائد الصاعد الفرد معمر القذافي، إذا، لا شيء فيه يتحرك نحو الهدف المرتجى، بل هو يشكل قيمة مخصومة من قوة الحركة تجاه الهدف أو الأهداف التي حددها العقيد معمر القذافي. تبدت فكرة في الأثناء وهي، الاستفادة من تجربة الرئيس المصري الراحل جمال عبدالناصر، عندما زرع جسماً داخل تنظيم الاتحاد الإشتراكي العربي وهو – التنظيم الطليعي.

قرأ معمر القذافي ما حدث في مايو بمصر، بطريقته الأمنية التآمرية الخاصة، ففي 15 مايو 1973، حاول أعضاء التنظيم الطليعي في مصر إزاحة الرئيس أنور السادات عن السلطة، كانت كل مقدرات الدولة في أيدي قادة هذا التنظيم، الجيش، البوليس، الإدارة، وغيرها. إستطاع السادات أن ينتصر على كل هؤلاء بقوة الشرعية،

وأن يضعهم في السجن جميعاً في ساعات. إذا، بالنسبة لمعمر القذافي، فإن إمكانية نجاح قادة التنظيم الطليعي الناصري في إزاحة السادات عن السلطة كانت واردة، كان الخلل فقط في المبادرة، وحسم القرار. كان السادات حتى اللحظات الأخيرة هو رئيس ذلك التنظيم ولو من الناحية النظرية، وهو زعيم تنظيم الاتحاد الإشتراكي العربي، كل تلك الضوابط الترتيبية الشكلية لم تحميه. إذا، كما حلل وفسر ذلك معمر القذافي، فان كل تنظيم مهما كان اسمه أو تكوينه، هو مشروع معادي مع وقف التنفيذ.

ماذا عن أشكال النظم والتنظيمات الأخرى؟

إن التنظيم الأعلى والأشمل للبلاد هو "الدولة"، ملكية، جمهورية، إمارة، أو غيرها. هذا الجسم الأكبر والأشمل يحتاج إلى " إطار " يقف على شرعية قانونية عليا، تصاغ في وثيقة حاكمة تعتبر القانون الأعلى وهو الدستور، يقوم مقام إشارات المرور القانونية التي تضبط حركة المجتمع، وترسم خارطة العلاقة بين الحاكم والمحكوم، بين من يصدر القرار، ومن يسري عليه ذلك القرار.

هنا برزت أمام العقيد معمر القذافي قضيتان مرعبتان هما:

أولاً : الدولـــة.

ثانياً : الدستور.

ظلت هاتان القضيتان، هاجساً، لا يؤرق معمر القذافي فقط، بل يرعبه، أو لنقل يرعبانه، ولكل واحدة من هاتين القضيتين جيش من الأذرع والعضلات.

لقد حسم أمر مجلس قيادة الثورة، بضربتين قويتين، الأولى الثورة الشعبية في 1973، والضربة الثانية والقاضية، بما سمى بمؤامرة المحيشي، وإنهاء مجلس قيادة الثورة، وكذلك تنظيم الضباط الأحرار. ولكن السؤال الأساسي والبديهي، ما هو مستقبل البلد الإداري والتنظيمي، ماهي الهوية القانونية والأساسية للدولة؟، لا يمكن الإجابة على هذين السؤالين دون فتح ملفين أساسيين وهما: الدستور، وشكل الدولة.

أيقن معمر القذافي، أن الإجابة المباشرة على هذين السؤالين، هي، أن يصار وبسرعة إلى صياغة دستور وفقاً للإجراءات المعتادة في كل أنحاء الدنيا، بإختيار جمعية

تأسيسية تصوغ هذا الدستور الذي يحدد شكل الدولة، وعلى رأسها تحديد السلطات الثلاث، التشريعية، والقضائية، والإدارية. وسيكون المضمون الجوهري لذلك الدستور هو تحديد العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وأن يحمي المواطن من أي تسلط قد تمارسه الإدارة أو السلطة ضده.

لن يستطيع أي شخص أن يكون قائداً أوحداً فرداً، إذا كانت هناك قيود قانونية تغل يده، أو ترسم خرائطاً دستورية لمسار قراراته وتعليماته.

إذا ، فلابد من إبداع فلسفة، تبطل مفعول مبدأ تأسيس الدولة، وحتمية وجود دستور.

هكذا، حدد القذافي موقفه، وأختار سياسته، ورسم خريطة مستقبل ليبيا، التي سينظّر لها فيما بعد في الكتاب الأخضر، بمعنى لا دولة، ولا دستور. ولكن ما هو البديل، أنه في حاجة إلى أداة لتسيير الدولة، إلى مرجعية سياسية وإدارية وفكرية لهذا الكيان الجغرافي والإجتماعي الذي يحمل اسم " الجمهورية العربية الليبية".

بدأ يكتب رزمة من الأفكار التي تملأ الفراغ في نظره، وتلقى تلك الرزمة جواباً مسبقاً في كل فم ينطق بالسؤال عند الدولة والدستور، أراد أن يلقم كل متساءل كتاباً، وهذا الكتاب، سيكون " النظرية العالمية الثالثة"، أو كما عنونه " الكتاب الأخضر".

كان لابد من إبداع شكل جديد ومضمون جديد، ولا يكون مفهوم الدولة بالمعنى المعتاد والمتعارف عليه وارداً، ولا يكون سؤال الدستور مطروحاً.

إذا أبقى القذافي على العنوان القديم للدولة وهو " الجمهورية "، فإن ذلك يعني ضرورة أن يكون للجمهورية دستور، فقد سبق لمجلس قيادة الثورة أن أصدر، الإعلان الدستوري الذي رسم خارطة قانونية للكيان السياسي الليبي، وأعطى لمجلس قيادة الثورة صلاحيات سيادية، وهذا المجلس تم التخلص منه، وأصبح ذلك الإعلان الدستوري من المسكوت عليه. إذن لابد من التخلص من ذلك العنوان القيد على سيادة يريدها معمر لنفسه فقط، وهو قيد الجمهورية. وهكذا صارت الجماهيرية، هي البديل الذي يزيل كل القيود، فهذا التعبير الجديد غير مسبوق، ولا يحمل أي شكل من

الأشكال الموروثة، ويصبح من المنطقي أن يملأ هذا الوعاء الجديد المبتكر، بمادة يبدعها من إبتكر الوعاء.

المادة المصنعة في 2 مارس 1977، ستكون إعلان قيام سلطة الشعب، التي ستكون الغلاف الشعبي، للكتاب الفكري. اللجان الشعبية والمؤتمرات الشعبية، ستكون هي الحواس التي تحدد حركة وآلية هذا التكوين الجديد. في خضم كتابة، الفكر الجديد، وتصميم الجسم الجديد، فكر معمر في أداة السيطرة والتحكم والتسيير، أبدع وإبتكر معمر فكرة اللجان الثورية. لقد جهز ذلك الكوم من الأفكار والخطط مبكراً، أي بين 1973 و1975. لكنه شرع في تنفيذها على الواقع بعد ذلك بسنوات.

لماذا أسهبت في تحليل مرحلة مضت، وأغرقت في قراءة خلفيات الترتيبات السياسية، والبحث عن جذور ما حدث بين القوسين الزمنيين في هذا الفصل الذي يحمل اسم عمار المبروك الطيف ؟

هذا بالطبع سؤال وجيه، بل هو سؤال إجباري، ولابد أن تكون الإجابة عليه ضوء يبرر هذا الإستغراق الذي يلوّح بالغرق. سأذهب مباشرة إلى الإجابة.

"إنتخـــــال الأجيــــال"

نستطيع أن نعدد عشرات المثالب والإغراقات والقفرات والجرائم لمعمر القذافي، ولكن لكي نحلل ونقارب التروس السياسية والإجتماعية التي صنعها الأشخاص لتحريك آلة حكمه، لابد ن نقول أنه إستطاع أن يختار لكل مرحلة ولكل هدف من أهدافه العناصر التي يستعملها لتحقيق أهداف محددة، في مرحلة محددة، وأن يقوم بإنتاج هؤلاء الأشخاص أو إعادة إنتاجهم، لقد أتقن هذا الفن إلى أبعد الحدود وبطرق تتماشى مع كل شخص ومع كل هدف وكل مرحلة.

عمار المبروك الطيف، هو النموذج الأنسب، الذي نستطيع من خلال الوقوف عند محطات محددة من حياته الوظيفية، أن نقرأ تفاصيل تقنية معمر القذافي في صياغة

أدبياته السياسية، وهندسته الجينية الإدارية، وكيف بنى معامله الخاصة بإنتاج الأشخاص أو إعادة إنتاجهم.

قلت في السطور السابقة، أن معمر القذافي رفض وجود أي تنظيم سياسي حقيقي، ورفض أيضاً بناء المؤسسات، وكيان الدولة، والدستور، ورأى في كل ذلك قوة تقاوم مشروعه الزعامي الفردي، لكنه بلا شك محتاج إلى آلة لتحريك دواليب أي كيان يختاره، وقد اختار الجماهيرية وعاءا سياسياً، والنظرية العالمية الثالثة، عبوة فكرية وخارطة نظرية تملأ ذلك الوعاء.

إختار معمر القذافي بعد تفكير طويل، صيغة " مركز القوة ".

ما المقصود بالقوة تحديداً هنا، ووفقاً للسياق الذي نحن بصدده؟

القوة، هنا نقصد بها صلاحيات تعطى لشخص، أو يسمح له بأخذها، أو يشجع على أخذها، تلك الصلاحيات تتجاوز ما يخوله به القانون بحكم منصبه، تكون له القدرة المطلقة على منح من هم حوله لأسباب عملية، أو وظيفية أو إجتماعية إمتيازات مفتوحة، أو إلحاق العقاب بمن لا يتجاوب مع أوامره، كل ذلك من ثواب وعقاب، يكون خارج الضوابط القانونية. هذه القوة متحركة في الزمان والمكان، أي تفعل فعلها حتى خارج أوقات العمل الرسمي، ولا يقف تأثيرها عند حدود جغرافيا الوظيفة. يكون مصدر هذه " القوة "، هو شخص – القائد – ويكون مداها وفعاليتها، بقدر ما يمنحه هو بشكل غير مباشر وغير مكتوب، يدرك المقربون من دائرة القرار والفعل حجم تلك القوة من خلال المعاملة العلنية التي يظهرها – القائد – لصاحب القوة الممنوحة.

أما مركز القوة، وهنا هو الشخص الذي يمتلكها، أو بتعبير أدق من تعطى له، وبصورة تدريجية، وهنا نقف عند التقنية الخاصة التي يمتلكها – القائد – في تحديد آلية العطاء، وتوقيته. هذه الآلية والتوقيت تماثل الإنتقال من مرحلة أو مستوى دراسي إلى آخر. وتختلف من شخص لآخر، فهناك من يوضع في مركز قوة ما، على أساس حرق المراحل، وهناك من يحصل عليها لتوفر مواصفات وقدرات شخصية. وآخرون يكون العامل الإجتماعي عنصراً أساسياً بالنسبة لهم، مثل الإنتماء إلى قبيلة

القذافي، أو من قبيلة زوجته. ولقد لعبت العلاقة الشخصية الخاصة دوراً في ذلك، فهناك الذين كان القذافي يزورهم ببيوتهم ويقضي ساعات طويلة بها.

وقفت في السطور السابقة عند عنوان هو إنتخال الأجيال، ولأوضح الأمر أكثر للقاريء، أقول: إن معمر القذافي، كان يختار من كل جيل الأشخاص الذين تتوفر فيهم مواصفات " المهام " التي يريدهم لها. ففي البداية، وتحديداً في سبها، في نهايات خمسينات القرن الماضي، بدأ بتشكيل أول خلية مدنية منطلقاً في مشروعه الكبير، للإستيلاء على السلطة تحت عنوان الثورة، وقد قبل بقيادته ودخل في خليته الأولى كل من فاتحه بمخططه وأهدافه. لم يحاول إستقطاب أحداً من أقاربه أو من أبناء قبيلته في سبها وهم حينذاك كثر هناك. لم يعارضه أحد من أعضاء خليته الأولى، بل لم يتجرأ أحد منهم على مناقشته، كان الأكثر شجاعة من قام بطرح بعض الأسئلة أو طلب بعض الإيضاحات والإستفسارات.

وعندما إنتقل إلى الكلية العسكرية ببنغازي، وشرع في تنظيم الضباط " الأحرار " تصيّد أشخاصاً، قبلوا منذ البداية بقيادته، وريادته، إستخدم نفس المعايير عندما أختار أعضاء مجلس قيادة الثورة . غير معمر القذافي مقاييسه ومعاييره لإنتقاء الأشخاص ووضعهم في مواقع معينة، وفقاً للمراحل والمهام، كما رآها وقيمها.

لقد أخترت عمار الطيف لأنه يمثل شريحة عريضة من العناصر التي أدخلها معمر إلى معمله، ووفرتُ على قلمي وأوراقي سرد عشرات الأسماء ووفرت الجهد أيضاً على القاريء.

بعد تجاوز أزمة 1975، والتي قرر فيها أغلب مجلس قيادة الثورة، ومعهم المجموعة الفاعلة في تنظيم الضباط الأحرار، قرروا حل مجلس قيادة الثورة، وتنظيم الضباط، والإنتقال بالبلاد إلى الحكم المدني، بعد ذلك، قرر معمر إختيار أشخاص جدد بمؤهلات جديدة، كانت محاولة المحيشي أو كما سميت مؤامرة عمر المحيشي ضربة قوية فوق رأسه، جعلته يندفع بقوة نحو معركته الأخيرة، معركة " الوحدانية ". قرر تجديد الأشخاص وتجديد المقاييس. قال الرائد عبد السلام جلود:" قلت لمعمر لابد أن

نعتمد على الضباط الأحرار، وهو الذين قاموا بالثورة، وهم الأقدر على تحقيق أهدافها وحمايتها، رد معمر، لا، يجب أن نعتمد على عناصر جديدة تماماً، الضباط الأحرار يعتبرون أنفسهم شركاء في الثورة، ويريدون المشاركة، وبالتالي، في رسم سياستها وتحديد أهدافها، هذا ما لا نريده، نريد أن نعتمد على عناصر جديدة، نتجمل عليها ولا تتجمل علينا، هؤلاء نستطيع التحكم فيهم بسهولة".

بعد عمله بالإذاعة، حيث أظهر قدرات قيادية، وقام بمبادرات هامة، وأثبت إخلاصه في تنفيذ توجيهات القذافي، قربه منه وكلفه بعدد من المهام الإدارية بمكتبه، تنقل بين العمل في الرقابة الإدارية والأمن إلى أن أصبح مدير للأمن الداخلي في أخطر الفترات والأوقات وقام بالتحقيق مع المعارضين بكل أطيافهم، أخبرني مبارك الشامخ رئيس وزراء ليبيا الأسبق أن عمار الطيف قال له:" كنت أقف عند إحدى محطات الوقود، عندما تقدم نحوي شاب حياني بحرارة ناطقاً بإسمي، سألته كيف عرفتني، رد الشاب، للأسف أنني عرفتك لأنك قمت بتعذيبي أثناء التحقيق معي في المعتقل"، وعبر عمار عن أسفه لأنه لم يضع قناعاً على وجهه أثناء التحقيق مع المعتقلين.

في سنوات القبضة النارية، سنوات السخط والإحتقان الداخلي، وعقد الصدام مع الخارج الذي إمتد من سنة 1980 إلى 1990، غُطيت ليبيا بعباءة الأمن، ثقلت يد الأمن على الأفواه والصدور، وعلقت السكاكين فوق النحور، وخنقت الضائقة الإقتصادية الأفواه والبطون، ضاقت السجون بالكبار والصغار، طالت الشبهات والشكوك الجميع، وضع ضباط الجيش تحت رقابة مشددة، إذا قال ضابط نكتة على معمر القذافي، يقتل فوراً، ضاق الوطن على الجميع بمن فيهم الذين سدّوا حلقات الضيق. كان عمار في خضم كل ذلك.

بعد الغارة الأمريكية على مدينتي طرابلس وبنغازي، وتدمير بيت معمر القذافي ببابْ العزيزية، إهتز الكثيرون بمن فيهم بعض الحلقات التي تدورت حول خيمة القذافي، ذكرت أسماء محددة، قيل أنها تدافعت إلى مثابات اللجان الثورية، مزقت السجلات

التي تحمل عضويتها في تلك اللجان، وأخذ هؤلاء خطوات إلى الوراء، كان من بينهم عمار المبروك الطيف العجيلي.

أصابت تلك الغارة الأمريكية الجوية الكثيرين بشظاياها الحديدية، وآخرون، أصابتهم شظاياها السياسية، لم تمنع تلك الحادثة إرتقاء عمار في الوظائف الحكومية، لكن عبر سلم آخر، وإلى مراكز أعلى، ولكن ليس بثقل – مراكز القوة – تنقل بين رئاسة الرقابة الإدارية، وهيئة المعلومات، والسياحة، وصل إلى منصب نائب رئيس الوزراء في حكومة شكري غانم، ولكن كما قلت ليس بنفس ثقل القوة الأولى.

إحتفظ عمار بمنصب رئيس هيئة المعلومات، وهو بمنصب الأمين المساعد لشئون الخدمات الذي يشرف على عدد من الأمانات التي لم يعد لها أمناء، سمعت شكري غانم يقرعه بشدة لتدخل أولاده في شئون هيئة المعلومات، وأعفاه منها، وسمعته أيضاً بعد ذلك ينتقد تدخل زوجته في شئون التدريب. لقد زالت سنوات الترغيب، وسطعت شمس الترهيب.

بعد الخطوة التي أخذها عمار إلى الخلف إثر غارة 1986، ظهرت مقالات في الصحف الليبية تهاجمه وتذكره بماضيه، عندما كان لا يجد سقفاً يؤويه وينام في المساجد على حد قول الصحيفة، وعندما كان عاملاً بسيطاً في أحد مصانع الطماطم، أضافت الصحيفة. رفع أيضاً في وجهه سيف آخر، وهو علاقته الوطيدة بالرائد عبدالسلام جلود.

في السنوات الأخيرة، إتخذ معمر القذافي موقفاً سلبياً شديداً من عمار، هناك من فسر هذا الموقف بإنتقاد عمار لأبناء القذافي، بل أنه رفض تدخلهم في شئون المشاريع السياحية، وهناك من وجد سبباً آخراً، وهو زواج عمار من إمرأة ثانية، وأعتبر القذافي هذا الفعل مناقضاً لأفكاره وتشريعاته التي تعارض تعدد الزوجات، فكيف يقوم شخص ينتسب إلى معمر القذافي فكرياً وثورياً بهذا الفعل الذي يعكس الإستهانة والتمرد العلني.

قبيل إنعقاد إحدى دورات مؤتمر الشعب العام، التقيتُ أنا والبغدادي المحمودي رئيس الوزراء مع القذافي بمنطقة السدادة، وأقترحت عليه اسم عمار الطيف لمنصب وزاري، صمت القذافي، نظر إلى السماء ولم يعلق.
ذكر اسمه في موضوع محمد العجمي، وهو الشخص اللبناني المرتبط بالموساد، والذي فتح أبوزيد دوردة ملفه، تحدثت مع عمار بخصوص هذا الموضوع، لم ينكر معرفته له، لكنه نفى أي علاقة عمل معه، وعبر عن استعداده للمثول أمام القضاء.
بعد لقائي الأخير مع معمر القذافي في نوفمبر 2010، وحديثي معه حول تردي الأوضاع في ليبيا، زارني العديد من كبار المسئولين، تحدثنا عن المقابلة، وما وصلت إليه الأوضاع في الوطن، من بين هؤلاء، كان عمار، تحدث معي، وأثنى على مقابلتي مع القذافي، وعبر عن المرارة الشديدة من عبث البغدادي المحمودي، وسفه أولاد القذافي، ولم يتحفظ في الحديث عن تهتك الأب ذاته، وتطرق بالأرقام إلى حجم النهب والعمولات، والخلاصة، أن الإنفجار قادم، خاصة وأن زيارته لي كانت بعد إنطلاق الثورة في تونس، أضاف في ختام اللقاء أنه طلب مقابلة القذافي، ووعده أحمد رمضان السكرتير الخاص بأن يحدد له موعداً معه.
من طرائف الأقدار، أن عمار الطيف عندما كنت أودعه، وقف بحديقة منزلي وقال:" يا عبدالرحمن، سيهاجم الناس بيتك، سينهبونه ويدمرونه عندما تبدأ ثورة الشعب الليبي الغاضب". نعم هذا ما حدث بعد تفجر ثورة شباب ليبيا في 17 فبراير، لقد نهب بيتي بالكامل، لم يبق به سوى الحيطان، ولكن ليس بأيدي الشعب الليبي، ولكن بأيدي كتائب معمر القذافي.

من طرائف الأشخاص، هذه المرة، وليس الأقدار، أن عمار الطيف بعد إنفجار ثورة 17 فبراير، إصطف مع القذافي وكتائبه، أعلن ذلك على الملأ عندما قال في مقابلة مع التلفزيون الليبي الحكومي، رداً على الشائعات التي ترددت عن إنشقاقه عن نظام القذافي، قال ساخراً:" أنا لا أنشق إلى إثنين، فأنا نحيف البنية، ويستحيل علي أن أنشق". وعبر عن ولائه الأبدي والمطلق لقائده.

ساهم في إدارة الحملة الإعلامية الليبية الرسمية ضد ثورة 17 فبراير.
سبحان مغير الأحوال والبشر، عمار الطيف هذا، الذي زارني في بيتي مؤيداً أو متحمساً لموقفي خلال لقائي الأخير مع القذافي، هو نفسه الذي قال عني في أحد جلساته مع بعض المسئولين، "إن عبدالحمن شلقم، متواطيء مع القوى الإمبرالية والناتو، فقد باع جميع أملاكه بليبيا وهرب قبل إندلاع الثورة، وأضاف عمار، إن هذا " العبد " شلقم هو السبب في تدمير ليبيا". بعد هروبه، بعد تحرير طرابلس، إتصل بي من تونس، وطلب مساعدتي، للخروج منها إلى مصر، وقال:" كان موقفي مثل موقفك، ولكن كان لكل واحد منّا ظرفه"، قلت له، لم يكن موقفنا واحداً، ربما كان رأينا واحداً، ولكن المواقف إختلفت، فبعد قيام القذافي بقتل آلاف الليبيين، وإستخدام الأسلحة الثقيلة والمرتزقة، كان هناك موقف واحد صحيح وهو " الوطن ".

" الديكتاتـور يصنــع صانعيــه "

لكي لا يتهكم القاريء، ويقول، كيف يتجرأ كاتب هذه السطور، أن يخط هذا العنوان؟ ألم يكن هو أيضاً نفسه يقف في نفس " الطابور " الذي وقف فيه عمار الطيف ؟ الم يكن هو من – أزلامه – على حد تعبير أستعمل كثيراً مؤخراً لوصف الأشخاص الذين عملوا مع معمر القذافي؟ قد يستعمل البعض السؤال الإستنكاري الليبي وهو: (وأنت يا فالح ؟ !). لكل سائل الحق كل الحق.
وأقول، سيكون لي نصيبي في هذا الكتاب، وسيكون أسمي عنواناً لآخر فصل في هذا الكتاب، سأطبق نفس المنهج على نفسي، وبلا تحفظ. بل أذهب أبعد من ذلك وأقول أنني بصدد تأليف كتاب بعنوان " سنوات مع القذافي "، أتحدث فيه بالتواريخ والوقائع وبالتفصيل عن رحلتي معه.

تحدثت بإسهاب في مطلع هذا الفصل عن سنتي 1973 و1975، وكيف إنطلق معمر القذافي في مشوار إجتياز الحواجز نحو تكريس نفسه حاكماً فرداً مطلقاً، لا تقاومه مؤسسة ولا دولة، ولا يقيد سلطته دستور، وأسس كياناً " الجماهيرية " يدار بالهاتف عبر مراكز القوة. التي تقوم على أشخاص يختارهم، يجد بعضهم جاهزين تنطبق عليهم المواصفات التي حددها مسبقاً، وآخرين يقوم بإضافة بعض اللمسات إلى شخصياتهم، وبعض آخر يصنعهم بالكامل، بين قوسي 73، و75، توسع معمر القذافي في إقامة المعسكرات التسييسية، ثم تحولت إلى المعسكرات العقائدية، كان جُل المشاركين فيها من الشباب، من مختلف الأعمار والتخصصات والمناطق، أكل معهم وغنى وبات بينهم على فراش بسيط الذي نسميه في ليبيا " المندار ". إنتقى من بينهم عناصر لا تتجاوز العشرات، نقلهم من وظيفة إلى أخرى، قربهم منه، تبسّط معهم، تابع سلوكهم الشخصي، ونصب لهم أجهزة التنصت، كان أول ملف يطلع عليه معمر القذافي كل صباح، هو الملف الأمني، يليه الملف الإعلامي، ثم ملف التقارير الشخصي. قال مرة لمحمد الزوي، إنتبهوا، فأنا أقرأ فقط من بين كل التقارير، تلك التي تسجل تصرفات الأشخاص الذين أعرفهم. مارس لعبة التقريب والإبعاد، فإذا لاحظ تلكؤ شخص ما في تنفيذ التعليمات، وأن تنفس بالنقد، أو حاد عن المسار المرسوم، قام بمضايقته عن طريق مقالات تغمزه في الصحف، وإحالته إلى المحكمة الثورية إذا زادت سرعة حركته عن تلك المحددة ثورياً. وقد يجمده ببيته شهوراً أو سنوات وفقاً لحجم التجاوز الذي أتاه هذا الشخص أو ذاك. وإذا ثبت أنه قرأ الرسالة جيداً يعيد تقريبه منه وهكذا. بقى هذا الأسلوب " التأديبي " أو التربوي قاعدة أساسية. طبق قول الشاعر:

لـك الطـولُ المرخـى وثنيـاه فـي اليـدِ

وقد يغضب من هذا المسئول، فيقاطعه شهوراً، لا يقابله ولا يتحدث إليه.

قال مبارك الشامخ الذي شغل منصب رئيس الوزراء، أن معمر القذافي بقى لشهور لا يقابله ولا يتحدث إليه، بعدها قام رئيس وزراء أفريقي بزيارة ليبيا، وعندما استقبله القذافي رافقه مبارك بحكم البروتوكول الرسمي، بادره مبارك مازحاً:" يا أخ القائد، لم تقابلني ولم تكلمني في البداية مدة شهر، فقلت أنك تعاملني وفقاً لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قالوا إنه إذا غضب من أحد أصحابه، لا يكلمه مدة شهر كامل، لكن القطيعة استمرت شهرين، فقلت أنك تعاملني على إنني إبنك، فقد سمعت إنك إذا غضبت من إبنك سيف لا تتحدث إليه أو تقابله مدة شهرين، لكن مقاطعتك لي، إستمرت أكثر من شهرين ولم أعد أجد تفسيراً لذلك". وعندما خرج مبارك مع نظيره الأفريقي، عبر هذا له عن شكره لمبارك لتمكينه من مقابلة القائد، يقول مبارك الشامخ:"قلت له – في خاطري – أنا الذي أشكرك، فأنت الذي مكنتني من مقابلته".

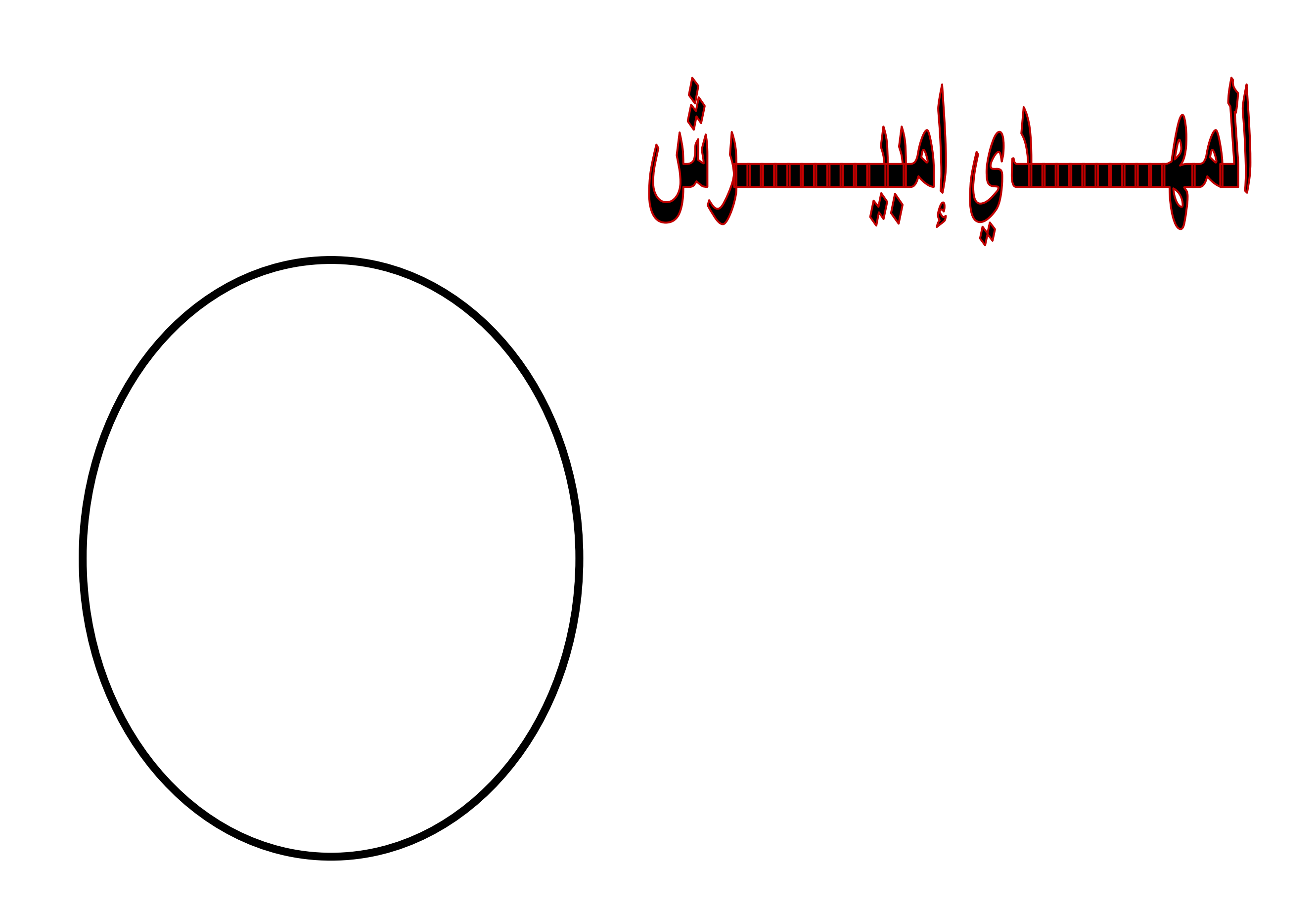
عندما يحس القذافي، أن الفتور أو البرود تسرب إلى أي شخص، ولم يعد يبدي نفس الحماس والولاء تجاهه، فأنه يرفع جرعة القرص، التي قد تصل إلى المحاكمة، والإعتقال، والوضع في قفص الإتهام والمحاكمة مع المجرمين على تهم مفتعلة، وقد يصدر حكم مع وقف التنفيذ، وفي عدد من الحالات وصل الحكم إلى الإعدام. لقد صدرت أحكام ضد البغدادي المحمودي وهو رئيس للوزراء، بعد أن وضع في القفص مع المجرمين العاديين بمجمع المحاكم بشارع السيدي، وكذلك على موسى كوسه، وعبدالله السنوسي، وعبدالمجيد القعود وغيرهم. يضطر هؤلاء بعد هذه القرصات واللكمات أن يرفعوا بالمقابل وتيرة التعبير عن الولاء وحرارة الإخلاص للقائد.

كان المرحوم البشاري في كل مكان وزمان يتحدث، وكأن جهاز التسجيل موضوع تحت فمه، فقد حدث أن خرج عن النص ذات مرة، فصدر قرار بإلتحاقة بمعسكر للتدريب العسكري، ورجب الصالحين كان مديراً للإذاعة، فأرتكب ما أعتبره القذافي جريمة، استدعى للتحقيق لدى الشرطة العسكرية وعوقب بحلق شعر رأسه.

وفي المقابل، كان معمر القذافي يأمر بعلاج بعض الأشخاص بالخارج وبشكل عاجل، مع تعليمات مشددة بالاهتمام بهم وتوفير جميع متطلباتهم.

كانت تلك نظرية معمر القذافي- الأولى – في مصنع مراكز القوة التي يحكم بها، ويتحكم فيها، يصنعها لتصنعه، ويحرص على أن تكون في كامل لياقتها في الولاء، وأن تضبط خطاها المرسومة على الإيقاع الذي يعزف من وراء ستار.

كان عمار المبروك الطيف هناك، إلى رمق النظام الأخير. لقد بدأ مسيرته نحو – المركز – طالباً، وأنتهى هارباً، في البداية إعتمر بمعمر، قلد لباسه، وأسلوب كلامه، وحركاته، تنقل من موقع إلى آخر علواً وهبوطاً، ومع مخاض الأيام، إنتفخ جسده الوظيفي والعقلي، ولم تعد البدلة الحديدية تسعه، بعد أن تعرف إلى شخصيات عربية ودولية، خاصة عندما انفتح على دنيا السياحة، وعرف أن هناك دنيا أخرى، لها ألوان وأصوات متعددة ومتنوعة، لم ينشق عن النظام، ولكنه إنشق على نفسه رغم أنه قال، لا أستطيع الإنشقاق لأنني نحيف، لقد ترسبت مكونات المصنع في أعماقه، فلم ير دم الوطن، ولم يسمع صراخ التراب، إنقلق الحبُ وأنشق الزمن، إبتلع المركز، وسحق القوة.


المهــــدي إمبيــــرش

المهدي مفتاح امبيرش، هو حالة لا تضاف، ولكن يضاف إليها، في زخم الحالة أو الحالات الليبية. صحيح، هو ليس من طراز أبوزيد دوردة، أو عبدالله السنوسي، أو أحمد إبراهيم القذافي، من حيث إستدارة اسمه في الشارع الليبي، أو من حيث حجم القوة والعنف التي حملها أولئك بأيديهم أو تمددت فوق طاولات مكاتبهم. المهدي إمبيرش شخص يمثل أحد الألوان في غلاف كتاب مرحلة ثورة معمر القذافي.

لقد عرف الليبيون أكثر من – إمبيرش – واحد، هناك عبدالحميد إمبيرش، ذلك المذيع الذي كان يُلّحِنُ نشرات الأخبار المرئية والمسموعة، ويصمد أمام مكبر الصوت، ولا ينسحب من أمامه مهما كانت التضحيات، خاصة عندما يكون في الجانب الآخر على المنصة معمر القذافي، كانت أكبر عقوبة ممكن أن تنزل به، هي منعه من الظهور على شاشة التلفيزيون الليبي مدة 7 أيام، ما رأى مسئولاً ليبياً في أي موقع إلاّ بادره، بالحديث عن ما دار بينه وبين – القائد – في لقاء خاص به، ويختم ذلك، بعدد من الطلبات الخاصة.

أما – إمبيرش – الآخر، فكان من عالم السلاح، لا من عالم الكلام هو الهادي إمبيرش، وهو من تنظيم الضباط الأحرار الذي وصل إلى رتبة فريق أثناء ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، كان من المقربين الموثوقين من معمر القذافي، يكلفه بالمهام الدقيقة والخاصة، من قطاع الزراعة، إلى جمع السلاح، إلى أمين شعبية صرمان، أصبح من أغنى أغنياء ليبيا يفاخر بعدد ونوعية الخيول التي يمتلكها، يتندر عليه الليبيون بأنه لا يمل القول بل الإعتزاز بالإعلان عن مصدر دخله القليل، وهو أنه يمتلك حصاناً نادراً، يؤجره لمن أراد أن تلد له فرسه، تلك النوعية النادرة من فصيلة الخيول العربية، ينزو الحصان العربي الأصيل على الفرس مقابل آلاف الدنانير وهكذا، يكون دخل اللواء والفريق من مني حصانه الحلال.

العمود الثالث من فصيلة – إمبيرش، هو رفيقنا في هذه السطور الدكتور المهدي مفتاح إمبيرش، وهو يستضاف هنا بإستحقاق، فلا تستكمل، أو لاتكتمل لوحة فسفساء مرحلة معمر القذافي دون الوقوف أمام هذه الحصاة الملونة بطيف من الفقاعات اللغوية، أو نسميه بمنطق اللغو، وهل للغو منطق؟! أقول نعم، فعندما يتداخل الفم والعقل، ويُغْرِقُ اللفظُ في تهشيم الفهم، يصير اللغو منطق اللجاج الصناعي، الذي ينتج المصطلح البلاستيكي المخادع. لابد أن نقر ونعترف أن الدكتور المهدي مفتاح إمبيرش قد أبدع هذه المدرسة، وهي مدرسة علم اللغو، مثلما أبدع المتكلمون الإسلاميون، مدرسة علم الكلام. فقد كان من أبرز رموز حركة اللجان الثورية، وكرس عمره وجهده وقلمه للإعلان عن – إيمانه – بهذه الحركة التي كان يسميها مذهباً، يرى أن من لا ينتمي إلى " لجنة ثورية "، فهو لا مبدأ ولا مذهب له، وللأمانة، فقد أخلص لمذهبه كل الإخلاص. نشر أكثر من 1360 حلقة، في صحيفة الزحف الأخضر، وهي الناطقة باسم اللجان الثورية، تحت عنوام " – جغ – مغ – " وهذا يعني في الكلام اللهجة الليبية " الكلام الفارغ ". أو – طق حنك – وقع تلك المقالات باسمه، والحقّه، بعضو اللجنة الثورية – بالنوفليين. لم يترك شاردة أو واردة في الشارع الليبي إلاّ وقف عندها، رآها بعين عضو اللجنة الثورية بالنوفليين، وعندما كان أميناً – وزيراً – للإعلام في حكومة الدكتور شكري غانم، كان هذا قبل أن يعطيه اللكمة، يقدمه قائلاً:" والآن يتحدث إلينا الأستاذ الكبير الدكتور المهدي إمبيرش عضو اللجنة الثورية للنوفليين، فليتفضل – جغ، مغ".

أبدع المرحوم علي فهمي خشيم علماً جديداً، وهو أستاذ فلسفة و لغة ترأس المجمع اللغوي الليبي، وهو علم ما يمكن أن نطلق عليه علم "خنق الكلمات". فهو يقوم بخنق الكلمة بشدة، يبقى مطبقاً عليها إلى أن تعترف بهويتها الحقيقية، التي كانت " الكلمة " تتنكر لها،خوفاً أو طمعاً، وعلى سنة المدرسة العربية البوليسية في التحقيق مع المتهم التي تجعله يعترف بأصوله الحيوانية أو الحجرية، فقد وظف المرحوم الدكتور تلك المدرسة في التعامل مع المتهمين، للتعامل مع الكلمات، وهكذا كشف لنا حقيقة

شخصيات تاريخية كانت تزور هويتها، فقال أن الشاعر والاسطورة الإنجليزي " شكسبير " ما هو، إلا العربي – الشيخ زبير – وقد تلقف معمر القذافي هذه الحقيقة، وكررها على عيون الأشهاد. تعدى الدكتور خشيم الأشخاص إلى الأماكن، فقال أن – سرت – مدينة معمر القذافي ومسقط رأسه هي أصل إسم الصحراء باللغة الإنجليزية فكلمة DESERT بالإنجليزية، جاءت من دي سرت، أي هذه سرت. وأمريكا أصلها العربي – أمير – كا .. وهو اسم أمير عربي يقال له كا..... إلخ. وقد نشر الدكتور خشيم كتاباً كبيراً في هذا العلم الجديد، ونشر أيضاً قاموساً عربياً أمازيغياً يثبت فيه أن اللغة أو اللهجة الأمازيغية، كله ذات جذور عربية، ونشر كتاباً آخراً، تحت عنوان آلهة مصر العربية، أثبت فيه حسب منهج علمه الجديد أن آلهة مصر من الفراعنة، هم عرب أقحاح.

وجرياً على قاعدة، " مافيش حد أحسن من حد"، – وكلنا دكاترة – والحمدلله، فقد ابد الدكتور المهدي إمبيرش – مدرسة فقه اللغو – بما يحقق، قذفنة اللغة، أو تقذيف اللغة، قواعد هذا العلم أو المدرسة اللغوية الجديدة تقوم على، تعبئة الحروف، والكلمات، وما بينها، بمدلولات شخصية معمر القذافي وفكره، وإخضاع علم النحو والصرف إلى روح القيادة في ذاته، أي ذات معمر القذافي.

فهو في سلسلة أو مسلسل مقالاته في صحيفة الزحف الأخضر تحت عنوان – جغ، مغ – يقول أن أدوات الجر لا تدخل على "القذافي" فه ممنوع من الصرف، وبالتحديد أدوات الجر والكسر، فهو لا يجرُّ ولا يكسر. وعندما يتعرض للقاطعة، والفاصلة، والشارحة، والنقطة، يقول أن معمر القذافي هو – الشارحة – مفهوماً.

وهو أيضاً القاطعة.. إلخ. هكذا قذفن الأستاذ الدكتور الثوري أدوات – التعجيم، وجعلها من أعضاء اللجان الثورية. تفوق المهدي على الشاعر المتنبي الذي لم

يتجاوز بكل مبالغاته أن جعل تلك الأدوات مادة أستعارها لتصوير إلتصاقه وهو نحيل من الحب، بجسد حبيبته:

دون التعانق ناحلين كشكلتي نصبٍ

أدقهمـــا وضَـــــمَّ الشاكِـــــلُ

بقى المهدي إمبيرش، تائهاً بين الكلمات، وتعرجاتها، حاول أن ينسج منها غلالة، يستعرض عبرها قدرات يحتكرها، ويقدُّ منها سلماً إلى العلو الوظيفي. عمل بلا توقف بمكتب اللجان الثورية، إرتبط بعلاقة خاصة بمحمد المجذوب القذافي، تزوج من إمرأته الثانية، وكانت رحمها الله من الفاعلات، أقول من – الفاعلات – بحركة اللجان الثورية، رغم أن الدكتور يرى أن الفاعل يقتصر على معمر القذافي فقط.

وصل بعد كل ذلك إلى منصب أمين – وزير التعليم حيث كان فشله الذريع، ثم عين بعد ذلك وزير للإعلام والثقافة التي لم يعمر بها سوى سنة واحدة. بعد أن عين في منصب وزير الإعلام قال أنه سيستفيد من الدرس الذي تعلمه من تجربته غير الموفقة في وزارة التعليم، لكنه أثبت أنه لا يتمتع بالعقل التجميعي، وكرر نفس الأخطاء. وعندما أعلن إعفاؤه من منصب وزير الإعلام، خرج غاضباً، وتلكأ في تسليم ما بعهدته إلى خلفه نوري ضو الحميدي، فقد وعده أحمد إبراهيم منصور القذافي، رفيقه القوي في حركة اللجان الثورية، أن يطرح موضوع إستمراره مع معمر القذافي لكنه لم يفلح.

في وزارة الإعلام والثقافة، قدم المهدي إمبيرش، وجهه الثوري العقائدي المتشدد، وقف ضد من أسماهم بأعداء الثورة، وعمل على محاربة كل أشكال الفعل الثقافي. كان عدد من الكتاب والمثقفين الليبيين يصدرون دورية ثقافية من القاهرة إسمها "عراجين"، في أحد أعدادها نشرت قصيدة للشاعر الليبي إدريس الطيب، يتحدث فيها عن تجربته في سجن أبوسليم، أمر إمبيرش بمصادرة العدد، إتصلت به، وطلبت منه الإفراج عن المطبوعة لكنه رفض، بعد جدل طويل وافق.

قدم قائمة لمراكز ثقافية يريد إقامتها في الدول الأفريقية إلى اللجنة الشعبية العامة وأثناء الاجتماع، سألته عن العناصر التي ستتولى إدارة تلك المراكز، ولما عرض الأسماء، رفضتهم اللجنة الشعبية العامة. قدم أيضاً مذكرة لتأسيس، جهاز الأمن الثقافي، على غرار الأمن الخارجي والأمن الداخلي.

كان ضحية – إيدولوجيا اللغو – وذهب في ذلك بعيداً، تولى الإشراف على محطة تلفزيونية ليبية، إسمها البديل، تنافس عبر المحطة مع نظيره الدكتور رجب أبو دبوس، فقد ظهر إمبيرش على تلك القناة في محاضرة أمام الملأ، يوم الخميس 2 اكتوبر سنة 2008، قال: إن القرآن في صورته الحالية عبارة عن (أحزاب وتقسيمات ولا يعدو كونه أرشيفاً يضعه كهنة مثلهم مثل الكهنة اليهود والنصارى والمسلمين، وكلهم عبارة عن كهنة يختلفون في ملابسهم مثل رجال الجمارك والمرور والشرطة"، ثم أمسك بالقرآن بطريقة عبثية مستهزئاً به، ومقلباً أوراقه وقال :" هذا عبارة عن أرشيف وليس قرآناً منزل".

أعتقد أنه بهذا – اللغو – يستطيع أن يحدث صدمة تشد إليه الناس، لقد إتخذ من حذلقة لغة الكلام منهجاً، دون التعمق في علم اللغات، وبالتحديد ما يسمى، بتطور الكلمة، والاشتقاق في اللغة، خاض في حقول متشعبة من الدين واللغة والفلسفة، لكنه كان يمخص الماء ويلاحق سراباً. نشر مجموعة قصص قصيرة، خفيفة وبعضها توفرت فيه بنية القصة، تلك المجموعة كانت بعنوان " ملف مجنون "، هناك من قال أنه يغمز من إيحاءاتها إلى شخص معمر القذافي، سارع إلى إصدار كتاب بعنوان – إفلاطون ومعمر القذافي – دراسة مقارنة بين الجمهورية والجماهيرية.

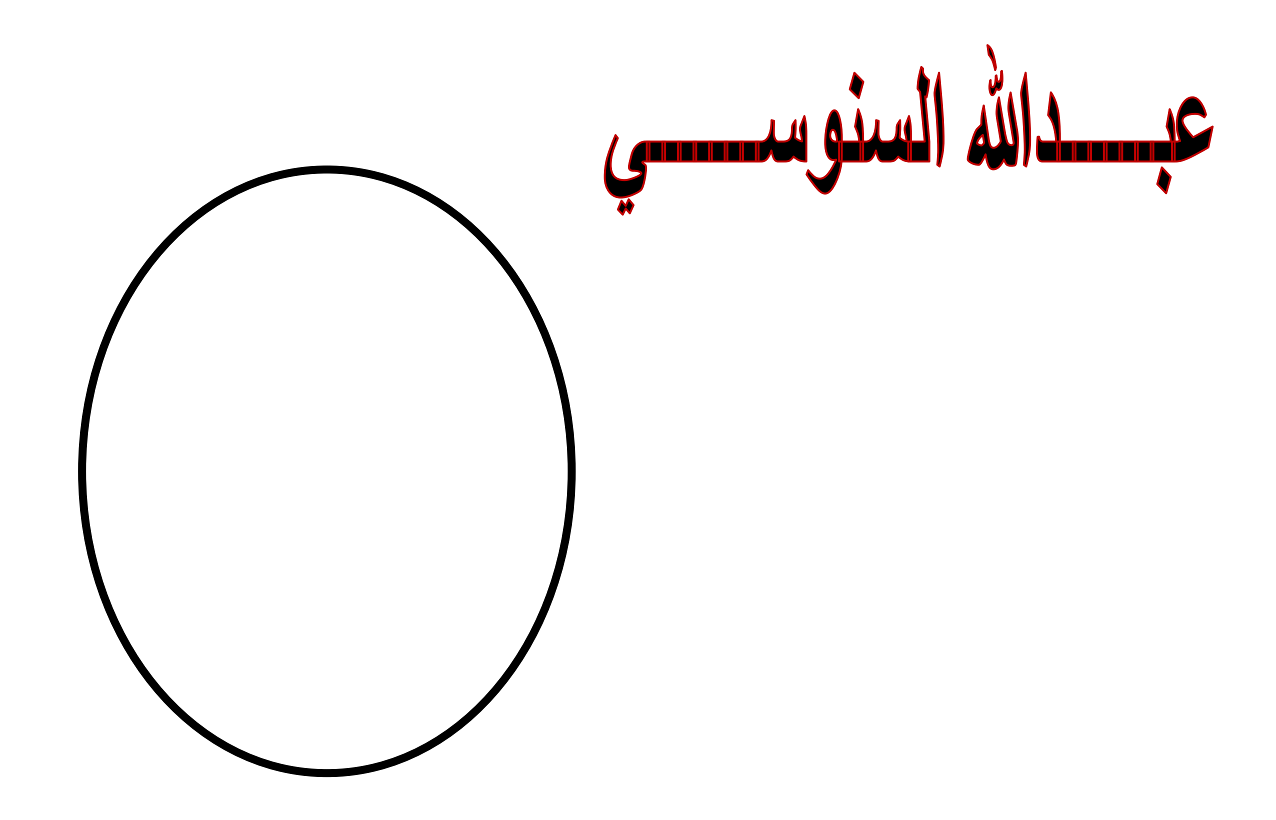
عمل المهدي إمبيرش سفيراً في كل من ألمانيا وإيران، في الأولى، كرس جهده لملاحقة من أسماهم معمر القذافي بالكلاب الضالة، وعندما إتهمت السلطات الألمانية مصطفى الزايدي في قضية تعذيب طالبين ليبيين بمقر السفير الليبي بألمانيا، أي بيت المهدي إمبيرش السفير، إدعى إمبيرش بأن أثار الكدمات والجروح

على جسم الطالبين لم يكن جراء التعذيب وإنما بسبب إنتمائهما إلى مذهب صوفي، من طقوسه ضرب الرأس على الحائط. هكذا أتخذ من – اللغو– محامياً له.

في سنة 2008، قدم الدكتور محمود جبريل، وفريق معاون له، ورقة بعنوان – ليبيا 2025، تضمنت رؤية علمية شاملة، لتحقيق أهداف التنمية الكاملة في ليبيا وفي جميع المجالات، أثارت تلك الورقة جدلاً واسعاً، تدخل عدد من الوزراء والخبراء لمناقشتها، كان من بين المتدخلين الدكتور المهدي إمبيرش.. ماذا قال ؟ قال :" أعبر عن الإستغراب الشديد، لهذا التخبط والإرتباك، أنتم تناقشون هذا الأمر الهام بمنطق رأسمالي أو غيره، لم تتضمن الورقة الأسلوب (الجماهيري)، ولم يطرح المتدخلون رؤية (جماهيرية) أنطلقوا من هذه الرؤية وستحل جميع المشاكل وبأسرع مما يتصور الجميع".

لم أرد أن أسترسل طويلاً في الحديث عن المهدي إمبيرش، إستحضرته هنا، لأنه يمثل بقعة لون خاصة في مجمل المشهد، لقد أرهق كل شيء فيه ليساهم في حفلة العهد، حاول أن يرمي قشة في جبل الحطب الضخم، فأبدع ذلك – المنهج – قاتل به كي يكون له إسم في سوق التدافع الثوري، أو منصباً في أركان الجماهيرية التي نظرّ لها، أو موقعاًفي قلب معمر القذافي الذي حاول أن يجعل من اللغة حاسة مضافة إلى حواسه المتعددة، طاف بين الفلسفة والأدب والتاريخ والدين، يحتطب أفكاراً، ويحتلب أقولاً، لكنه قضى عمر في جهدٍ ليس مخصوماً من أي شيء ولا مضافاً إلى أي شيء.

كدس الكلمات فوق الكلمات مهاجماً ثورة 17 فبراير، محرضاً ضد الثوار، دمغهم بالخيانة والعمالة، إنتصر الثوار على معمر القذافي، وتهاوى اللغو، وتكّوم في المعتقل.


عبـــدالله السنوســـي

عَبْـــــدالله أَلْسَنُوســـــــي

كلما رأيت عبدالله السنوسي، أو طالعتني صورته، أو ذكر إسمه، رجعت بي الذاكرة مباشرة إلى سنوات الستينات من القرن الماضي، وتحديداً إلى سنة 1968. كان عبدالله إمحمد السنوسي طالباً بمعهد المعلمين الخاص بسبها، يسكن بغرفة صغيرة بالعنبر رقم 7 مع إبن عمه أحمد أبوصير، الحصول على مثل تلك الغرفة الخاصة بالعنبر الذي كنا نراه ذي الخمس نجوم كان أمراً إستثنائياً، علاقتي بأحمد أبوصير، كانت ذات طابع سياسي رفاقي، ينتمي إلى تنظيم القوميين العرب، حاول كثيراً العمل على إستقطابي لهذا التنظيم، أعطاني كتابين، الأول بعنوان، الإختيار الثوري في المغرب، لمؤلفه المرحوم المهدي بن بركة، والثاني بعنوان، في الثورة والتنظيم الشعبي، لمؤلفه، محسن إبراهيم، كنا نجلس مطولاً بتلك الغرفة الصغيرة، في أغلب الأوقات يتولى أحمد إعداد الشاي الأخضر الثقيل الذي يدمنه، يجلس عبدالله السنوسي معنا صامتاً، يتابع نقاشنا في القضايا السياسية والفكرية دون تعليق. يتحدث إليّ فقط عندما يعود من قريته – قيره – بمنطقة الشاطيء، يبلغني تحيات والده الذي ربطته علاقات ودية بوالدي عندما كان يعمل متصرفاً لمنطقة الشاطيء.

كان عبدالله نحيلاً، بسيطاً، خجولاً، لا يبادر بالحديث إلاّ قليلاً، وعندما ندخل في نقاش سياسي أو فكري، يلتزم الصمت الكامل، فالموضوع لا يعنيه من قريب أو من بعيد.

كان أحمد أبوصير، زميلي في نفس الفصل بالسنة الثالثة ثانوي، معادياً للنظام الملكي، ينتهز أي فرصة لقيادة المظاهرات المضادة للنظام، في إحدى المظاهرات، قامت مجموعة من البوليس وبالتحديد من القوة المتحركة بمحاصرة المظاهرة، وخطب الرائد أو المقدم – لا أذكر الآن رتبته حينئذ بالضبط، محمد قذاف الدم في الطلاب، هاجم مصر، وجمال عبدالناصر، وصوت العرب، وأثنى على الملك إدريس وحكمته، قاطعه أحمدأبوصير، شتم الملك، ووصفه بالعمالة والخيانة، وهتف باسم جمال

عبدالناصر، والعروبة والحرية... إلخ. لم يكن عبدالله السنوسي هناك، وعندما تعرض أحمد للضرب من قوة البوليس حاولت أن أساعده، وعندما دخلنا إلى غرفته الصغيرة، بالعنبر رقم 7 وجدنا عبدالله هناك يعد الشاي، قفز أحمد على كأس وملأها وشربها ثم أخذ ثانية وثالثة، لم يتوجه بأي كلمة لعبدالله، الذي لم ينبس ببنت شفة.

في يوليو 1969، حصلت على الشهادة الثانوية، وذهبت لمواصلة دراستي الجامعية، بجامعة القاهرة، علمت بعد ذلك، أن عبدالله السنوسي قد إلتحق بالكلية العسكرية بمصر.

بعد قيام الثورة، في سنة 1969، تم تسريح أعداد كبيرة من ضباط الجيش، ونقل بعضهم إلى وظائف مدنية داخل البلاد، في حين أرسل آخرون للعمل ببعض السفارات. مباشرة تم الشروع في تجنيد أعداد كبيرة من الطلاب والشباب وإرسالهم إلى الكليات العسكرية بمصر، إذ أغلقت الكلية العسكرية الملكية ببنغازي.

كان المعيار الأول، وقد يكون الوحيد لإختيار هؤلاء الطلاب، هو الثقة التي أسست على عنصر القرابة، أمر معمر القذافي، كل أبناء قبيلته الذين يدرسون بالمرحلة الثانوية بالإلتحاق بالكلية العسكرية، وتم ضم حتى أولئك الذين لم يحصلوا على الشهادة الثانوية، وفعل عبدالسلام جلود نفس الشيء بالنسبة لأبناء قبيلته " المقارحة ". كان عبدالله السنوسي المقرحي من بين هؤلاء، وهو لم يحصل على شهادة معهد المعلمين الخاص. كان قرار معمر القذافي أو عبدالسلام جلود هو الشهادة.

لم نلتق بعد ذلك، رغم تزامن وجوده بالكلية العسكرية بمصر، مع وجودي بجامعة القاهرة، أول مرة ألتقينا فيها بعد مدرسة سبها الثانوية كانت سنة 1973، عندما كنت صحفياً أرافق معمر القذافي في رحلة إلى الجنوب، وكان الملازم ثان عبدالله ضمن فريق الحراسة. لازال هو هو، نحيلاً، صامتاً، خجولاً، قليل الحركة والكلام.

وخلال السنوات التي قضيتُها بقيادة العمل الصحفي بصحيفتي الفجر الجديد، والأسبوع الثقافي، إنهمكت في العمل ليلاً ونهاراً، وقلما غادرت مكتبي، الذي أنام فيه أحياناً، في تلك الفترة إقتصر تواصلي مع الصحفيين والكتاب وبعض الفنانين،

إنقطعت صلتي بزملاء الدراسة، إلاّ القلة التي كانت تزورني بالمكتب. بعد إنقطاع دام سنوات، إتصلت به لأول مرة بعد التوسع في ما سمى بالتدريب العسكري العام، حيث أجبر العديد من الشباب على الإنخراط في ذلك التدريب، رغم الظروف العائلية الصعبة للكثيرين منهم، فاضطررت للإتصال به ليتوسط لإعفائهم.

في ديسمبر سنة 1979 تعرضت لحادث سيارة عنيف، أصبت فيه بكسور بالذراع والرأس والكتف والضلوع، ذهبت إلى العلاج في لندن وبالتحديد في مصحة لندن كلينك، هناك كان يزورني يومياً المحامي محمود نافع المقيم بلندن، منذ سنوات، كان هذا المحامي المثقف كثير النقد لنظام معمر القذافي، لكنه لم ينضم إلى أي تنظيم معارض، عاد من زيارة قصيرة لليبيا، في تلك الفترة صعد نظام القذافي حملة الإغتيالات في الخارج، ضد من أعتبرهم معارضين لنظامه. في إحدى الليالي جاء محمود كعادته لزيارتي، كان مهموماً وحزيناً، تركز حديثه عن موجة تصفيات المعارضة في الخارج، وقال بألم:" لن يستطيع القذافي الوصول إلى الأسماء الكبيرة مثل محمد يوسف المقريف، وعبدالحميد البكوش وغيرهما، فهؤلاء تتوفر لهم الحماية في الدول التي يقيمون بها، وإنما سيقتل العناصر المعادية مثلنا الذين لا حماية أو أمن لهم". كان يقرأ صفحة مصيره حرفاً حرفاً، ففي ظهر اليوم التالي قتل محمود نافع.

إنتابني غضب شديد، وخوف أيضاً. فقد قتل هذا الرجل البسيط، الذي يكفر العنف، ولا سلاح له سوى فمه وأفكاره، وهو الوحيد الذي كان يزورني كل يوم، نتحدث عن هموم الوطن، ونتبادل الأحلام، أحسست أنني قد أكون هدفاً للقتل. فقد خرجت من ليبيا، بعد أن أصدر محمد الشويهدي قراراً يقضي بتعييني مديراً لمكتب وكالة الأنباء الليبية بلندن، كان الشويهدي وزيراً للإعلام، ربطتنا علاقة ودية، لكنني فوجئت بعد وصولي إلى لندن ودخولي إلى المصحة لإجراء عملية على ذراعي المكسور، بإبلاغي بإلغاء ذلك القرار، وعدم تحمل الدولة لمصاريف علاجي. طبعاً، كان المكتب الشعبي الليبي بلندن يعرف بعلاقتي بمحمود نافع، وهناك من قال أن الحادث

الذي تعرضت له بطرابلس كان بترتيب من اللجان الثورية، بسبب موقفي المدافع عن الصحفيين في قضية الأسبوع السياسي. توجست من قراري إلغاء تعييني بمكتب وكالة الأنباء، ومن إلغاء قرار تغطية علاجي.

غادرت المصحة، والجبس يغطي ذراعي، توجهت إلى المكتب الشعبي الليبي " السفارة " بلندن، قابلت السفير موسى كوسا، واستفسرت منه عن سبب إلغاء القرارين، قرار العمل، وقرار العلاج، فرد بأن تلك تعليمات من طرابلس، ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. طلبت منه تذكرة عودة إلى طرابلس وسيارة تقلني إلى المطار فقام فوراً بذلك.

عدت إلى طرابلس، توجهت مباشرة إلى مبنى إدارة الإستخبارات العسكرية، حيث يعمل عبدالله السنوسي، إستقبلني بحرارة، وقال لي أنه لم يعلم بالحادث، وإنه تابع موضوع الأسبوع السياسي. كنت غاضباً، تكلمت معه بحدة عن التصفيات التي يتعرض لها ليبيون في الخارج، خاصة قتل محمود نافع الذي كان بطرابلس منذ أيام قليلة، وهو إنسان لم يقم بأي عمل يؤثر على أمن الدولة، سلاحه الوحيد فمه. وقلت له، أن سياسة العنف تضر النظام ولا تنفعه، وأن الرصاص الذي أطلق على أجساد الليبيين سينزف من جسد الثورة. لقد حارب جمال عبدالناصر، إسرائيل، وبريطانيا وفرنسا، لكنه لم يماررس أبداً التصفية الجسدية، وكان يرفضها، كذلك فعلت الثورة الفيتنامية.

كان هادئاً وباسماً، أخذني إلى غرفة مجاورة، وقال وهو ينظر لي بجدية:" أنصحك بحكم العلاقة القديمة التي ربطت والدي بوالدك، أن تغادر طرابلس فوراً، هناك رياح قوية لن تستطيع لا أنت، ولا غيرك أن يقف أمامها، هذه أوامر من العقيد، وهو يتابعها كل دقيقة، وأضاف منبهاً ومحذراً، أنت يا عبدالرحمن شخصياً مستهدف، صالح إبراهيم وميلاد الفقهي ومعهم عناصر أخرى من اللجان الثورية، إقترحت شنقك في 7 أبريل لأنك خنت الثورة كما يقولون، هذه عاصفة لابد من الإنحناء أمامها". ثم سألني أين أعمل، أجبته بأنني لا أعمل، ولا أتولى أي وظيفة منذ فصلي من الأسبوع السياسي. فقال سأعطيك الآن سيارة تقلك إلى قريتك في الجنوب، عليك أن تبقى

هناك، حتى أتصل بك، لا تغادر القرية، وأصمت، أنت إن بقيت في طرابلس ستتكلم، ولو سمع منك أحد آخر، هذا الحديث الذي قلته لي الآن لقتلت فوراً.
وبالفعل أعطاني عبدالله سيارة أوصلتني إلى قريتي – الغريفة – حيث بقيت قرابة 6 أشهر منعزلاً عن الدنيا كلها.

أختار معمر القذافي عبدالله ليكون عديلاً له، زوجه شقيقة زوجته صفية فركاش. لقد خذله عديله الأول سليمان شعيب وهو أحد الضباط الأحرار عندما اشترك في المحاولة التي قيل أن عمر المحيشي قد خطط لها لإسقاط معمر القذافي.
لا أعرف بالضبط كيف دخل عبدالله السنوسي إلى الدائرة الخاصة جداً بمعمر القذافي، هل إكتشف، خلال مرافقة عبدالله له كحارس شخصي مواصفات معينة فيه كان معمر يبحث عنها ؟ أم هل رأى فيه تلك الصفحة البيضاء فقرر أن يأخذها ويكتب عليها شخصية بمواصفات مسبقة كانت جاهزة في ذهن معمر؟ ومتى كان ذلك، وكيف؟
حدثني أحد الأشخاص المقربين من عبدالله، أنه دخل عليه سنة 1976، فقال له عبدالله:" إنني ذاهب للإشراف على تنفيذ حكم الإعدام في عدد من الضباط المتآمرين"، وعرض عليه أن يرافقه، يضيف هذا الشخص، وهو شاهد عيان:" أنه بعد أن قام فصيل القتل بإطلاق الرصاص على الضباط، تقدم عبدالله وأطلق رصاصة رحمة في رأس كل واحد منهم".

قلت لمحدثي، هذا مستحيل، لا يمكن أن يكون الذي تتحدث عنه هو عبدالله إمحمد السنوسي المقرحي، أنا أعرفه مذ كنا طلبة بمدرسة سبها، هو إنسان مسالم بسيط، بالكاد يفتح فمه، أو يتحرك من مكان إلى آخر. ردّ عليّ المتحدث:" نعم هو عبدالله بلحمه وشحمه، لقد عدنا بعد أن قام بتنفيذ مأموريته إلى مكتبه معاً، لقد تحدث وتصرف كأنه عائد من نزهة، أو من السوق، لم تظهر عليه أية علامة من علامات التوتر أو التأثر.

لم أصدق ما سمعته، فهل من المعقول أن يتحول " عبدالله " ذاك الشاب النحيل الخجول الذي لا يجرؤ على الكلام، إلى قاتل بارد الدم، يقتل المقتولين، ويعود إلى مكتبه مع ضيفه الذي دعاه لحضور وجبة الدم، وكأن شيئاً لم يكن وبراءة الأطفال تملأ أعماقه؟!

التقيت بعد ذلك بأحمد أبوصير، وهو إبن عم عبدالله الذي كان يقاسمه الغرفة الصغيرة بالعنبر رقم 7 بالقسم الداخلي بسبها، قصصت عليه ما سمعت، بإستغراب وإندهاش وسألته إن كان لا يزال على إتصال بعبدالله، وما مدى صحة ما سمعت، نظر إليّ أحمد وهو صامت، ثم قال :"لا حول الله، عبدالله أصبح شخصاً آخر. تغير بالكامل، نعم أنه يعمل أكثر مما سمعت، أنا لا أتصل به، إنه قائد القتلة المجرمين، لا أعرف ماذا حدث له". أقول، لقد أسقط في يدي، ليس في يدي فقط، بل في كل كياني، ما هي تلك القوة السحرية العجيبة الغريبة التي تستطيع تحويل شخص إلى هذا الحد ؟

طبعاً لم تكن آنذاك لدي القدرة التحليلية التي أدعي أنني اليوم أمتلكها، كل ما أستطعت أن أفعله، أن أسترجع تلك الصورة البريئة لعبدالله السنوسي وهو يعد الشاي بتلك الغرفة الصغيرة مع إبن عمه الثائر القومي العربي أحمد أبوصير، الذي لم يعد يتصل به الآن، ويصفه بآمر القتلة، وقائد المجرمين.

نعم، عبدالله السنوسي، هو أكبر وأخطر إنتاج لمصنع معمر القذافي. لقد إنتخب معمر، إثنين من الضباط ليكونا عديلين له، زوّج عبدالسلام أبوقيله وهو أحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، من شقيقة زوجته الأولى فتحية نوري خالد، وزوّج سليمان شعيب، وهو أيضاً ضابط من أعضاء تنظيم الضباط الأحرار، من شقيقة زوجته الثانية صفية فركاش، حاول، أو لنقل أراد معمر أن يستخدم الإثنين، كأيد تضرب المعارضين له، وأن يقوما بدور الحارس للنظام، رفض عبدالسلام أبوقيلة، وقد كان هو أيضاً زميلاً لي بمدرسة سبها الثانوية، فهمشه القذافي، وأخذ يتندر عليه ويصفه بالمتخاذل والجبان.

أما سليمان شعيب الذي ألحقه معمر، بجهاز الأمن فقد رفض هو أيضاً أن يكون عصاة يستعملها القذافي، فتعرض لأكثر من محاولة للإغتيال، ولم يقف سليمان عند نقد تصرفات القذافي، وتفرده بالسلطة، بل إشترك في حركة الرائد عمر المحيشي لإزاحة القذافي عن السلطة، وقد رُشح للإعدام، غير أن رابطة المصاهرة، أنقذت صدره من رصاصة الرحمة التي يطلقها عبدالله السنوسي، وبقى سليمان شعيب لسنوات تحت الإقامة الجبرية، ولم يصافحه معمر القذافي لسنوات عديدة.

خالف الضابط عبدالله السنوسي، عديل معمر القذافي الجديد، خالف موقف العديلين السابقين سليمان شعيب وعبدالسلام أبوقيلة. وكأنه أراد أن يقول عملياً لمعمر القذافي أنا سأعوضك عنهما، وأكونهما، وسوف ترى.

عبدالله السنوسي، هو صناعة كاملة لصانع اسمه معمر القذافي، تلقفه صدفة، لقد أختير ضمن مرافقيه الأمنيين لأسباب قبلية بحتة، فهو مقرحي، من قبيلة عبدالسلام جلود، صنو معمر القذافي، دون خلفية سياسية أو أيدولوجية، كل ما كان مطلوب منه، أن يحمل قطعة من السلاح ويسير خلف العقيد أو جانبه وأن يقوم بمهمة الحفاظ على أمنه. أكتشف العقيد، أن عبدالله لا يصلح فقط لأمن جسده فيزيقياً كما يقال، بل أنه مؤهل، أو لنكن أدق، يمكن تصنيعه ليقوم بمهام أمن كرسي العقيد، وعصاة النظام وخنجره وبندقيته، فكيف صنع معمرُ عبدَالله؟

إختار خليفة إحنيش بعد ما عرف بمؤامرة عمر المحيشي سنة 1975، نخبة من الضباط والجنود من قبائل القذاذفة والمقارحة، وورفلة، شكل منهم ما عرف بـ" الكتيبة" . أوكلت لها وحدها الوجود فيما عرف بالحلقة رقم 1 التي تسهر على أمن العقيد معمر القذافي الشخصي. هناك حلقات أخرى طبعاً في الكتيبة، تكون على مسافة أبعد من وجود معمر القذافي. توسع خليفة إحنيش في إنشاء الأجسام العسكرية الأمنية إلى أن أصبحت مجموعة من الأجسام، أطلق عليها الكتائب الأمنية. ضمت الحلقة رقم 1 من الكتيبة عناصر معينة، من بينها، محمد المجذوب القذافي، سعد مسعود القذافي، وعبدالله السنوسي المقرحي وغيرهم. الأسلوب الأمني المتبع كان

يقضي أن تكون بعض عناصر الأمن داخل الخيمة أو المكتب التي يجلس فيهما العقيد، وإذا فرضت بعض الخصوصيات، أو المكالمات الهاتفية أن يكون العقيد لوحده، فإن رجل الأمن يقف عند الباب. أثناء إصدار القذافي بعض التعليمات ذات الطابع الأمني الحساس أو العاجل، يكلف أحد الضباط الواقفين بالقرب منه، إما بتنفيذ تلك التعليمات أو متابعتها. وأحياناً يطلب من أحد هذه العناصر، خاصة عندما يكون في لقاء مع مسئول ليبي أو أجنبي، قبل وصول الضيف، أن يتدخل وأن يقول تعليقاً صادماً أو جافاً، لا يريد معمر أن يقوله شخصياً. أثبت عبدالله السنوسي، ومحمد المجذوب القذافي، أنهما قادران على آداء المهمتين وهما: تنفيذ الأوامر بحذافيرها مهما كانت عنيفة، وكذلك التدخل بالتعليق أمام الضيف مهما كان هذا التعليق جارحاً.

جاء الإمتحان الأكبر لعبدالله، أثناء ملاحقة المشاركين فيما عرف بمؤامرة المحيشي، من حيث القبض عليهم، وتنفيذ الأحكام التي أصدرتها محاكم عسكرية صورية وسريعة. كان التنافس عى إرضاء العقيد والتسابق على تنفيذ تعليماته، هو الذي يحكم المسافة قرباً أو بعداً منه، وقد تفوق عبدالله السنوسي على نفسه في التنفيذ وبالتالي الإرضاء.

وبدأت رحلة الفعل والدم والقبول معهما. نقله معمر بين المواقع الأمنية والعسكرية، يأخذ تعليماته مباشرة منه، ولا يتبع أي جهة أخرى، دخل مرة أبوبكر يونس جابر، أمين اللجنة المؤقتة للدفاع – وزير الدفاع – دخل إلى مكتبه، وجد عبدالله السنوسي جالساً على كرسيه، ويتحدث بالتليفون، ويصدر التعليمات، عاد الوزير أدراجه وأغلق الباب.

كان عبدالله أحياناً أقوى من خليفة إحنيش، آمر الكتائب الأمنية، وأحياناً مساو له أو مواز، وأحياناً دون ذلك. الفيصل في هذا الإرتفاع والإنخفاض، هو طبيعة التحديات، أو الشكوك الأمنية، فإذا كانت خيوط الشك تشير مثلاً نحو الرائد عبدالسلام جلود إبن عم عبدالله، فإن صلاحيته، ومؤشر الثقة يتهاوى بسرعة، أما إذا كانت إبر الشك تتجه

نحو واحد من قبيلة القذاذفة أو أكثر، فإن عبدالله السنوسي يكون هو الذي يجلس في الطابق الأعلى ويتلاشى خليفة إحنيش نهائياً.

بدأت الشكوك تدور حول العقيد حسن إشكال القذافي، منذ أواسط الثمانينات، إشكال هذا ضابط من ضباط شرطة ولاية فزان، من بين الذين تبناهم أبناء سيف النصر حكام سبها، وأرسل إلى كلية ضباط البوليس، بعد تخرجه عمل بسبها عاصمة الولاية، لم يذخر جهداً في قمع أي سلوك ينبيء بمعارضة النظام، كان شديد القسوة في مواجهة مظاهرات الطلاب، بعد ثورة أول سبتمبر، الحق بالجيش، ثم أصبح من الحلقة القبلية الجديد المناط بها مسئولية السهر على أمن معمر القذافي وأمن النظام، في مرحلة معينة، تولى إدارة عدد من المشروعات في سرت بالإضافة إلى مهامه العسكرية.

كان حسن إشكال، شخصية متعجرفة هجومية، لم ينج من تطاوله حتى معمر القذافي، يتدخل في ما يعنيه وما لا يعنيه، أذكر أننا كنا في أحد نوادي الضباط في بنغازي مع العقيد معمر القذافي، والمخرج مصطفى العقاد، وكاتب السيناريو هاري جري، ومحمد الزوي وزير الإعلام، وجلس معنا العقيد حسن إشكال. إحتدم النقاش حول مشاهد معينة في فيلم عمر المختار، حاول محمد الزوي، بإسلوبه الهاديء إقناع معمر القذافي بتجنب المباشرة في معالجة هذا المشهد، ظهرت العصبية على العقاد وظهرت عليه علامات الضيق. فجأة تدخل العقيد حسن إشكال ليقول:" هل من الضرورة إنتاج هذا الفيلم عن عمر المختار؟ هناك شخصيات من قادة الجهاد الليبي أكثر أهمية منه، لماذا هذا الإصرار على عمر المختار؟

تبادلنا نظرات الإستغراب. وتوجه الزوي بنظره نحو مصطفى العقاد وأشار له بيده أن يهدأ، وأن لا يترجم ما يدور إلى رفيقنا الإنجليزي،. أعتقدتُ أنا، إن معمر القذافي هو من وضع تلك الكلمات الفجة في فم حسن إشكال. فقد كان معمر يتبع هذا الأسلوب في قضايا ومواقف كثيرة. أدرك معمر حساسية الأمر، أمر حسن إشكال أن يذهب

لتدبير الغذاء، وقال له:" بالتأكيد، الجماعة قد لحقهم الجوع، ومن الأفضل أن تذبح لهم خروفاً". وخرج العقيد إشكال، وانتقل القذافي إلى موضوع آخر.

تحولت الشكوك حول حسن إشكال إلى تهم، قيل أن له إتصالات بدولة أوروبية، وأنه يخطط لإنقلاب عسكري، حاول خليفة إحنيش أن يحاصر الموضوع، وأن يصار إلى إعفاء إشكال من الجيش ويكلف بمهام مدنية، غضب منه معمر القذافي، وإعتبر موقف خليفة نوع من التواطؤ مع إشكال. إختفى خليفة إحنيش فجأة، وعرف فيما بعد أنه لجأ إلى الجبل الغربي، وأقام في حماية إحدى قبائله. غضب معمر من جميع أبناء قبيلته، إتهمهم بالتآمر عليه، وأصبح عبدالله السنوسي هو وحده رئيس السدنه، الآمر الناهي في كل ما يتعلق بالأمن الشخصي لمعمر القذافي.

إجتمع الضباط من قبيلة القذاذفة وقرروا الخلاص من حسن إشكال، وهذا ما حدث فقد أطلقت النار على رأسه، وقيل أنه إنتحر.

هدمت تلك الحادثة درجة من سلم القذاذفة، وأضافت درجات إلى سلم عبدالله السنوسي، ووسعت دائرة الثقة فيه، وكذلك مساحة صلاحياته.

الأثر الأكثر تأثيراً لتلك الحادثة، كان في معمر القذافي شخصياً، فقد هزت ثقته المطلقة في قبيلته، وأعاد النظر في ترتيب الدوائر الأمنية من حوله، من حيث القبائل والأشخاص، فقد كان يعتمد على قبيلته بالدرجة الأولى، تليها قبيلة المقارحة عبر عبدالله السنوسي، ثم قبيلة ورفلة.

في سنة 1992، إكتشف ما عرف بمؤامرة ورفلة، التي ينحدر منها مئات الضباط العاملون في مواقع كثيرة في الجيش الليبي، ومن بينهم العشرات في صفوف الكتائب الأمنية، يتولى بعض أبناء قبيلة ورفلة قيادة بعض المعسكرات المجهزة جيداً بالأسلحة الثقيلة، وتتمركز في مواقع إستراتيجية، قاد تلك المحاولة مفتاح قرّوم، وهو ضابط ورفلي كان يحظى بثقة القذافي ومن معه. وصلت تلك المحاولة إلى حافة الفعل، كان نجاحها أكثر من مؤكد، وفي تقديري، إنها كانت المحاولة الأخطر، والأكثر جدية،

لأنها أعتمدت في الأساس على تنظيم إجتماعي مترابط، فتوفر لها من السرية ما يجعلها صعبة الإختراق والاكتشاف.

حدث خلل واحد في منظومة تلك المحاولة، وهو أن مفتاح قروم فاتح عدد محدود جداً من الضباط من خارج قبيلته، لأنه رأى أنهم من الناقمين على نظام معمر القذافي، والكارهين له شخصياً، ثم أن هؤلاء الضباط المحددين من غير أبناء قبيلته، يتولون قيادة مواقع حساسة جداً، وأن دور هؤلاء سيكون حاسماً في نجاح حركته. وهكذا كانت محاولة ضمان الحد الأقصى من عوامل النجاح، هي القاصمة، قام أحد هؤلاء الضباط بإبلاغ عبدالله السنوسي، أحبطت المحاولة، وأعدم قادتها، وصنفت قبيلة ورفلة على أنها العدو الأول لنظام القذافي، بعد أن كانت الحليف والمساند الأول، فبعدما كان القذافي يطلق على أهل ورفلة " إخوة الجد "، أصبحت هذه القبيلة ملاحقة في عقر دارها، وشنت حرب للتفرقة بين بطونها وأفخاذها، وتولى العقيد خليفة إحنيش قيادة هذه المعركة، بمساعدة بعض العناصر الورفلية التي واصلت تحالفها وولائها للقذافي.

وعلى قاعدة المصائب والفوائد التي صاغها الشاعر المتنبي:

بــذَا قَضَــتِ الأيــامُ مــا بيــنَ أهلِهــا

مصائــبُ قــومٍ عنــدَ قــومٍ فوائــدُ

كانت الحادثة التي قادت إلى تصفية حسن إشكال القذافي، مطرقة، إرتفعت من داخل مضارب القبيلة القذافية، لتهوي فوق رأسها، وينفلق شق واسع بين معمر وأبناء عمومته الأقربين، ومؤامرة ورفلة أزالت عُصبةً من حلقات القرابة الأبعد وهم " أخوة الجد ".

لم يبق من أكوام صلة القرابة إلا "العديل"، عبدالله السنوسي، فهو ليس إبن العم، أو أخ الجد، بل هو الأخ في القانون كما يقول التعبير الإنجليزي، وبعد الذي قام به،

بقتل كل متآمر على عديله معمر القذافي فقد أصبح عبدالله بالنسبة له، أخ الدم، هكذا كانت مصائب حسن إشكال، ومصائب ورفلة، فوائد لعبدالله السنوسي.

إستحوذ السنوسي على عقل معمر وقلبه، أصبح يده الحديدية التي تضرب، كل شبح يتحرك تجاه – القائد–. أصبحت ثقته فيه مطلقة، ولكن، ولكن هذه إشارة ضوء أصفر يضعها معمر القذافي أمام ووراء الجميع، وفي مقدمتهم أولئك الذين يثق بهم، خاصة من يحوم منهم حول خيمته ساهراً على أمنه الشخصي وأمن النظام.

السيف يبقى مسلطاً، والإبعاد متكرراً، والاختبارات الدورية لا تتوقف.

لم تكن حادثة العقيد حسن إشكال القذافي، الخبطه الأخيرة من مطرقة القبيلة على رأس معمر، جاءت هذه المرة ضربة أخطر، كانت المسافة أقرب، والتصويب أكثر دقة، والدوافع لا يكبحها كابح القرابة، لا يرهبها شخص الهدف. اثنان من حراس – القائد – من أبناء عمومته يخططان لقتله رمياً بالرصاص، لماذا، وكيف ؟

" خشيبة " و" الغناي". شابان عسكريان قذافيان، من طاقم الحراسة الذي يلتف حول معمر القذافي، يحملان سلاحيهما للدفاع الشخصي عنه. علما أن إبن عمهما – القائد– معمر القذافي، قائد القيادة الإسلامية العالمي، قد دخل خلسة إلى منزليهما، – خلسة – هنا تفسر بأكثر من معنى. بالطبع لايمكن أن يذهب إلى مكان دون مرافقين أمنيين. بدأ بعض المرافقين يلمحون ويستهزئون، ويطلقون نظرات الإستهزاء النارية.. علم، الغناي، وخشيبة، أن – القائد– قد وصل إلى حيث مربط الشرف، بعد أن تأكدا من ذلك، تحدثا وأسرا النجوى، بعد أن قررا، وكأنهما يقولان:

لا يسلـمُ الشـرفُ الرفيـعُ مـن الأذى

حتـى يُـــراق علـــى جوانبـــه ألــــدمُ

وفق شهادة – النّداب – وهو أيضاً ضابط قذافي، فإن دوافع إلقاء القبض على – الغناي– وخشيبة، كانت لأسباب أخرى، أو لأسباب مضافة إلى موضوع الشرف. لكن الرواية الأكثر تداولاً، هي ما ذكرناه في مطلع الدخول إلى سياق تلك الحادثة.

أُبلغ معمر القذافي بنوايا الشابين القذافيين، إستدعى عبدالله السنوسي، وأوكل إليه أمرهما. وأطلق يده في إتخاذ ما يراه حيالهما. لم يكن لدى عبدالله الوقت للتحقيق أو المحاكمة، فالموضوع أكثر من حساس، فأي تحقيق مع هذين الشابين سيتطرق إلى قضية دخول معمر بيتهما، وهذا الأمر يتجاوز الكفر بملائكية القائد، وعصمته من الزلل. فمعاذالله أن يتنكب قائد القياد الإسلامية سواء الخلق، ويأتي مثل تلك الفعلة، إنه الافك الخطير، الذي لا يجبره إلاّ الدم، وبعقاب غير مسبوق.

أحضر عبدالله المتهمين الإثنين، وضعهما في وسط جمع من الجنود، الذين تمت تعبئتهم على هذين الخائنين المأجورين لقتل القائد، وطلب ما يرونه فيهما، تدافع الجنود نحو الضحيتين وبدأوا في تمزيق جسديهما. في نهاية المشهد أحضر عبدالله سيارتين، وربط أقدامهما في سيارة، وأيديهما في الأخرى، وأمر أن تنطلق كل سيارة في إتجاه معاكس للأخرى، مزّق الجسدان، وقضى الأمر. كان هذا درساً للحاضرين والغائبين، وهو أن أفعال– القائد– أي كانت فوق الحديث عنها، ناهيك عن الرد الفعلي عليها.

التقى معمر القذافي بعدد من مشائخ إحدى القبائل بمدينة سبها، وعندما رفع بعضهم الأصوات، معبرين عن تذمرهم من تصرفات بعض أبناء قبيلة القذاذفة، غضب العقيد غضباً شديداً، وغادر مكان الإجتماع، طلب منهم عبدالله السنوسي البقاء في أماكنهم لأنه سيقدم لهم الإجابة الكافية والشافية على ما قالوه للقائد، أحضر جهاز عرض فيديو، وقدم لهم تسجيلاً حياً لوقائع سحل الغناي واخشيبة، تابع الحاضرون العرض في صمت أصحاب القبور، وفي النهاية، سألهم عبدالله:" هل إقتنعتم بالإجابة؟". صمت الجميع فقد بلغت القلوب الحناجر.

في السنوات الأخيرة، وتحديداً في العقد الأخير من نظام معمر القذافي، أدخل عبدالله السنوسي على نفسه وعلى تفكيره تغيرات كثيرة، أصبح يحلل الأوضاع الداخلية والدولية من منظور آخر، لقد حاول أن يفلت ولو نظرياً من القالب الذي صنعه له معمر القذافي ووضعه فيه، قلت له ذات مرة:" أنا أحياناً لا أفهمك، فأنت عندما تحلل الأوضاع الداخلية في ليبيا تتحدث عن الخطر المحدق بالنظام، وعن الكارثة التي سيسببها أبناء القذافي له شخصياً وللوطن، تتحدث عن ضرورة وضع خارطة جديدة للسياسة الخارجية الليبية، وتقديم المصالح على الشعارات"، وأضفتُ:" لكنني لا أفهم أحياناً رغم كل ما تقوله، قيامك بأعمال تناقض أقوالك، مثل إرسالك لشخص للإعتداء على وزير الخارجية السعودي الأمير سعود الفيصل، ومحاولة إغتيال ولي العهد السعودي عبدالله بن عبدالعزيز، وكذلك تصرفات ضد بعض الأشخاص الليبيين". قال:" سأجيبك بكل صراحة، علاقتي بمعمر القذافي لا أستطيع أن أصفها، عندما أجده – منهزم –.."، وهذا هو التعبير الذي أستعمله،.." فإنني على إستعداد أن أفعل أي شيء يخرجه من حالة – الإنهزام – ولو كان ذلك بقتل كل أولادي أو قتل نفسي. لو طلب مني معمر القذافي أن أظهر أمام شاشات التلفزيون وأنا أقبّل أقدامه لفعلت ذلك بكل سرور". أطلنا الحديث والنقاش في هذا الموضوع، وفي الختام قال لي:"أنا لا يهمني في حياتي أي شيء سوى معمر القذافي، ورضاؤه، وقوة معنوياته وإرتفاعها، أنا على إستعداد أن أدفع مقابلها أي ثمن".

لا أنسى هذا الحديث أبداً، أستعيده من حين إلى آخر، فمن أصعب الأشياء، أن يستطيع شخص صناعة شخص آخر بمواصفات يحددها مسبقاً، هذه الأمور حدثت من قبل في مراحل وأماكن عديدة عبر التاريخ. أكبر المبدعين في هذه المدرسة "حسن الصباح"، صاحب قلعة – آلموت –، حول تلك القلعة وما حولها التي تقع بين إيران وأفغانستان، حولها إلى فردوس يعج بحور الحين، والغلمان، وأنهار من خمر، وفاكهة دانية القطوف، جمع بها مئات الشباب المراهقين، واظب على إعطائهم جرعات عالية من مادة الحشيش، لا يفيقون من أثرها، أقنعهم أنهم في الجنة التي

وعد الله المؤمنين، وكان يختبر ولائهم بأن يطلب من أحدهم أن يلقي بنفسه من أي مكان في القلعة. استعمل حسن الصباح هؤلاء الشباب لتصفية خصومه السياسيين، المعارضين لمذهبه الإسماعيلي الباطني، تسابقوا على الموت من أجل إرضاء – القائد – حسن الصباح ، الذي أدخلهم الجنة مردفين.

لقد توسع علماء الإجتماع والمؤرخون وعلماء النفس، في دراسة عملية "السيطرة"، التي يمارسها الطغاة الأشدّ على أدواتهم البشرية، تعددت النتائج، – ماكس فيبر – عالم السياسة والإجتماع، يرد تلك السيطرة التي يمارسها القائد الفرد على أدواته البشرية تعود إلى قدراته الديماغوجية، وإلى شخصيته الساحرة، وقدرته على توظيف الخصائص التي تكمن في دخائل الأفراد.

أعتقد أن عملية – السيطرة – هي في غاية التعقيد، وسأتحدث عنها في نهاية هذا الفصل.

لقد نفذ بالفعل عبدالله ما قاله عن إرضاء – القائد. فبعد قيام الرئيس الأمريكي رونالد ريجان بإعطاء الأمر لقواته الجوية بقصف مدينتي بنغازي وطرابلس، ومهاجمة بيت معمر القذافي، دخل معمر القذافي في ثورة من الغضب والخوف، أحس بالإهانة وتدني المكانة، وهكذا رآه عبدالله – منهزم–. فكانت عملية لوكربي، التي قال الأمريكيون أن المخابرات الليبية هي المخطط والمنفذ لها، وحكمت المحكمة الأسكتلندية، التي حاكمت عبدالباسط المقرحي والأمين خليفة فحيمة بإدانة عبدالباسط وهو من قبيلة عبدالله السنوسي.

أيضاً حكمت المحكمة الفرنسية غيابياً على عبدالله السنوسي وآخرين بالسجن المؤبد لإدانتهم في تفجير طائرة اليو–تي–إيه الفرنسية، ومن بين المحكوم عليهم العقيد عبدالسلام حمودة إبن عم عبدالله السنوسي، وحكمت المحكمة الألمانية بإدانة سعيد راشد خيشة في قضية تفجير ملهى لابيل الألماني وسعيد هذا أيضاً من نفس قبيلة عبدالله السنوسي، صحيح أن الحكم الصادر لم يدن سعيد مباشرة، ولم يذكر اسم عبدالله السنوسي، لكن التحقيقات زخرت باسميهما.

وفي سنة 1984 أطلقت النار من داخل السفارة الليبية في لندن على عدد من المتظاهرين الليبيين، فقتلت رصاصة الشرطية فليتشر التي كانت مع زملاء لها تقوم بحماية تلك المظاهرة. وجرى الحديث عن وقوف عبدالله وراء صدور التعليمات بإطلاق النار.

لقد إختار معمر القذافي أسلوب العنف والمواجهة مع كل المعارضين له في الداخل والخارج، أفراداً كانوا أو دولاً، كان عبدالله السنوسي، دائماً هو اليد الحديدية التي يضرب بها ويقتل.

في قمة شرم الشيخ العربية سنة 2003 تحدث معمر القذافي في الجلسة المنقولة على الهواء عن ما حدث قبيل الهجوم الأمريكي على العراق وتطرق إلى موقف الملك فهد، ردّ عليه ولي العهد السعودي آنذاك الأمير عبدالله بن عبدالعزيز، بعبارات شديدة القوة، كانت تلك العبارات صدمة سامة أخرست معمر، لكنها كانت لكمات على الهواء، أصابت القذافي في مقتل معنوي ونفسي رهيب. تحولت تلك – الموقعة– إلى سكين عميق يتلوى في داخله. لم يستطع أن يُشفى منه أبداً، وغدا كل همه الإنتقام المباشر من شخص عبدالله بن عبدالعزيز، بل ومن كل المملكة السعودية. رأى عبدالله سيده في حالة – هزيمة – حقيقية، يحملها في داخله ليلاً ونهاراً. شن العقيد، حرباً سياسية، وإعلامية، ودينية على السعوديين، جند لها الليبيين والعرب والأجانب، لكن عبدالله السنوسي، أحس أن له دوراً يختلف عن الجميع، فما لحق بمن يعتبره إلهه، إهانة لا يمحوها، إلاّ محو من إرتكبها من الوجود. وبادر بالعمل. أرسل بعض العناصر إلى عقر دار الأمير السعودي من أجل تصفيته جسدياً.

لكل حاكم فرد، يد من حديد، لكن تلك الأيدي الحديدية أجساماً تتنفس، وعقول تخطط، وأدوات تنفذ. عبدالناصر كان له صلاح نصر، والملك الحسن الثاني كان له الجنرال أوفقير، ثم إدريس البصري وزير الداخلية، وللقذافي عبدالله السنوسي. تفوق عبدالله على نفسه في مارثون الدم، لكن هناك ملفات أخرى، أو لنقل ملفات موازية إنفتحت، وأخرى فُتحت، وهما ملفا أبناء معمر القذافي، والعلاقات الخارجية.

لم يكن لمعمر أخ، كانت له شقيقات بنات، كان هو الذكر الوحيد في العائلة إلى جانب أبيه، قيل أنه كان له شقيق مات في صغره، عرف بالأعور، لم أتحقق من ذلك، ولا أستطيع أن أجزم بقول في هذا الموضوع. حظي معمر القذافي بقدر من الدلال الذي كانت تسمح به الظروف التي عاش فيها طفولته، وقد كان لذلك أثراً ظاهراً في شخصيته، يقول العقيد عبدالله منصور، وكان من المؤلهين لمعمر القذافي إلى أقصى مدى، يقول:" معمر القذافي بحكم كونه الأبن الذكر الوحيد لوالديه، فقد كانا يحرصان على عدم إغضابه، ويعملان ما بوسعهما لإرضائه. كان يغضب لأبسط الأسباب وينتحي جانباً من البيت يرفض الحديث مع أي أحد، تعلن الطواريء في البيت ولا ينام الوالدان قبل أن ينجحا في ترضيته بأي ثمن.

كرر معمر هذا السلوك، فإذا غضب من أحد أعوانه، يقاطع الجميع، ويأمر بإقفال مكاتب القلم في القيادة، لا يتحدث إلى جميع رجال الدولة التي يتعطل مجمل عملها ويكون همّ الجميع هو كيفية إخراجه من مغارة الغضب.

بعد تدفق الأبناء الذكور الذين وصل عددهم إلى 7 أولاد، شعر معمر بعزوة قوية من حوله، وبشّرته نفسه بتأسيس سلالة حاكمة. لم يعطهم الوقت الذي تقتضيه قواعد التربية الأبوية، إنهمك في ضجيج العمل، وغاب في دخان المشروعات السياسية وغيرها، ولم تترك حياة الليل له وقتاً هادئاً يعطيه لأولاده. تولى عبدالله هذه المهمة أيضاً، مهمة الإعتناء بالأولاد، خاصة أبناء زوجته الثانية صفية، وبالتحديد الابن الأول منها وهو سيف الإسلام. تابع عبدالله السنوسي، شئون سيف الخاصة والعامة، وهو أول من رأت عيناه عنوان التوريث، وخصص لهذا المشروع الذي إعتبره مشروع حياته، خصص له الوقت ووضع له برنامجاً مكثفاً.

كنت أزور طرابلس بشكل مستمر وأنا سفير ليبيا بإيطاليا بحكم القرب الجغرافي وحجم المصالح والمشاكل بين البلدين، أقيم بالفندق الكبير، وفوجئت ذات مرة بشخص يتصل بي قائلاً، أن سيف الإسلام يُريد أن يزورك بالفندق. التقينا بالجناح الرئاسي بالفندق وبدأ يطرح الأسئلة، في العلاقات مع إيطاليا، وأوروبا، وفي التاريخ وغيرها.

تكررت تلك الزيارات بشكل مكثف، سألت عبدالله عن سبب تلك الزيارات المتكررة، فقال إنها تتم بأمر من والده.
قاد عبدالله عملية تقديم سيف الإسلام إلى المسئولين، وبعض المثقفين، وكان عبدالله هو الذي يحدد أسماء هؤلاء ويشير عليه بمحاور القضايا التي يثيرها معهم، وعمل منذ البداية على أن يظهره بمظهر الشاب العاقل، المستمع، المعتدل.
كبر سيف وإمتد ريش جناحيه، طار إلى الخارج، وبدأ الإتصال بمسئولين بالدول الأجنبية، ترعرع جسده وإسمه أيضاً. هنا ترعرعت مشكلة جديدة، وهي تحسس إخوته منه، وكذلك ظهور أسئلة من كثير من قبيلة القذاذفة عن أبعاد مشروع عبدالله السنوسي في سيف ومنه. إتسع الحديث في دوائر عناصر حركة اللجان الثورية المعارضين لمشروع التوريث، أو الذين أطلق عليهم الحرس القديم.
هنا، إحتاج عبدالله السنوسي أن يضع على رأسه أكثر من قبعة. فقد عمل على تهدئة الاخوة وعلى رأسهم المعتصم، الذي كان يرى في نفسه الكفاءة ليكون المرشح الأول لوراثة والده، وتحالف مع الجناح المعارض لتبني عبدالله لسيف، وعلى الأخص جناح القذاذفة.. وربما أستطاع عبدالله وإلى حد بعيد من القفز فوق الجُبْ، الذي القي فيه النبي يوسف بأيدي أخوته، عبر إدارة حوار مجامل مع بعض الأطراف من قبيلة القذاذفة وكذلك مع بعض الأشخاص المحسوبين على اللجان الثورية، أو من أطلق عليهم، الحرس القديم.
لكن الأمر إستدعى في بعض الأحيان، أن يضع عبدالله على رأسه قبعته الأخرى القديمة وهي العنف مع ملح أمني سابق الإعداد.
كان الدكتور عبدالقادر البغدادي وهو من رموز حركة اللجان الثورية وتولى مناصب مختلفة، من الذين يجهرون بالإعتراض على فكرة التوريث، وبالطبع فإن المقصود بذلك هو الإعتراض على أن يرث سيف الإسلام والده معمر القذافي، صحب عبدالقادر الإعتراض بعبارات الإستخفاف من سيف ووصفه بالعيّل الطائش الذي يتقافز بين الحانات في أوروبا ويعيش ليال حمراء صاخبة تسيء إلى سمعة ليبيا

والقائد والثورة. وصل القول إلى آذان عبدالله، فأراد أن يؤدب الدكتور عبدالقادر البغدادي على طريقة العنف مع الملح الأمني.

كان للدكتور علاقة عاطفية قديمة مع زوجة أحد الضباط العاملين مع عبدالله السنوسي في الإستخبارات العسكرية، طلق الضابط زوجته وإنتهى الأمر. تذكر عبدالله ذلك الضابط وهو يدرس الطريقة الأمثل لتأديب الدكتور عبدالقادر البغدادي لدخوله إلى حمى سيف الإسلام. فاستدعاه وكلفه بالمهمة.

كان الدكتور عبدالقادر يشغل عندئذ منصب وزير التعليم، وذات صباح وهو يغادر منزله، ويهم بركوب سيارته، تقدم نحوه مواطناً يحمل ملفاً بيده، أستوقفه ليعرض عليه مطلباً أو تظلماً، وقف الدكتور ليستمع إلى المواطن الشاكي، وبسرعة عالجه المواطن بلكمات عنيفة على وجهه، فتورمت عين الدكتور الذي أندفع هارباً بسيارته. وصلني نبأ تلك الحادثة في نفس اليوم، فاتصلت بالدكتور البغدادي المحمودي رئيس الوزراء، وقلت له مباشرة، الحمدلله بالسلامة، تعيش وتأخذ غيرها.. ضحك البغدادي المحمودي ورد ساخراً:" لا يا حبيبي، لقد أخطأت العنوان، إنه البغدادي الآخر، المغامر، أما أنا فقد إنتهى مفعول المغامرات عندي". إتصلت بالدكتور عبدالقادر أستفسر عما حدث، فقال سأحضر إليك حالاً. جاءني ببيتي وقد وضع نظارة سوداء على عينيه، وقصّ تفاصيل ما حدث، ومن كان وراء هذا الحادث، وهو عبدالله السنوسي، الذي سلط الفاعل من أجل تحقيق هدفين، هما الأذى الجسدي، والفضيحة الشخصية. وأكد أن عبدالله السنوسي، أراد من وراء ذلك إيصال رسالة له كي لا يذكر سيف الإسلام بسوء.

إستطاع عبدالله السنوسي أن يغلق فم "وزير" التعليم، بلكمة من ضابط إستخبارات يحمل غضباً قديماً عليه، وأن يبعث برسالة عنيفة إلى ما يسمى بالحرس القديم، يبدو أن شرعية معاوية بن أبي سفيان في التوريث لم يبطل مفعولها، فقد أمر الناطق الرسمي أن يقول أمام جمع من رؤس القبائل عندما كانت قضية توريث إبنه يزيد

محل جدل:" الأمير بعد هذا، هذا، ومن لا يقبل له هذا". أي أن الأمير بعد هذا مشيراً إلى معاوية، وهذا الثانية مشيراً إلى يزيد، وكلمة هذا الثالثة مشيراً إلى السيف.

لقد حمل عبدالله ثقل توريث سيف عنفاً وسلاماً، فأوعز إليه أن يزور بعض الدول العربية، وأن يلتقي بقادتها ورموزها، وأن يصطحب معه عدداً من عناصر حركة اللجان الثورية، ومن الطريف، أن يكون من بين هؤلاء الدكتور عبدالقادر البغدادي، الذي أصبح الآن منسقاً لحركة اللجان الثورية. زار بهم الجزائر، وتحدث هناك إلى عدد من القيادات، فالجزائر دولة لها حدود مع ليبيا، ولها أيضاً علاقات خاصة، وعانت تجربة مرة لإنتقال السلطة بعد وفاة الرئيس هواري أبومدين، ذهب سيف إلى هناك ليقول، أنا وريث القائد في ليبيا، ولا خلاف على ذلك، ومن يقول أن هناك حرساً قديماً في ليبيا يعارض صعودي سدة القيادة بعد أبي، فلينظر إلى هؤلاء، إنهم يصطفون طواعية ورائي.

ذهب سيف ومعه نفس عناصر الحرس إلى مصر، إلتقى بعدد من قياداتها في عهد الرئيس حسني مبارك، وبينهم عدد من المثقفين والصحفيين، حدثني عبدالقادر البغدادي عن تلك الزيارة فقال أن سيف الإسلام القى محاضرة في الجامعة الأمريكية، قال في مستهلها، أن وفداً هاماً من اللجان الثورية يرافقه، وهذا الوفد يجلس الآن في القاعة، يترأسه الدكتور عبدالقادر البغدادي مسئول اللجان الثورية في ليبيا وهو رجل طيب وهاديء ومثقف عكس ما يقال عن اللجان الثورية من عنف وعدوانية. وأضاف البغدادي أنهم التقوا جميعا مع الصحفي محمد حسين هيكل بمزرعته بقلقاس، وطرح عليه سيف رؤيته للمستقبل، وقد إقترح عليه أن يكون عضواً بالمجلس الإستشاري الذي يريد تأسيسه، وأنه يريد أن يكون بين أعضاء هذا المجلس الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز، توقف هيكل عند اسم شيمعون بيريز، وطلب من سيف أن يناقش هذا الأمر مع والده أولاً.

كيمياء القذافي في عبدالله السنوسي

كانت سنة 1973، وسنة 1975، هما قوس الحديد، والنار، والرعب لمعمر القذافي، لقد وقف أولئك الذين " إستخدمهم " حسب تعبيره للوصول إلى السلطة، وهم أعضاء مجلس قيادة الثورة، وأعضاء تنظيم الضباط الأحرار، هم من وقف أمامه، وطالبوه بالتنحي، لإفساح الطريق لدولة مدنية ديمقراطية. أيقن أن عمله السري مدة عشر سنوات تحت الأرض من أجل القبض بمفرده على قمة السلطة. أصبح أمام إختبار مصيري. قفز على حاجز 1973 مستعيناً بالثورة الشعبية وعلى حاجز 1975، بما عرف بمؤامرة عمر المحيشي.

قام بإزالة كل من شكّل حجر عثرة على طريقه، وإنطلق يؤسس سلطته الشمولية، أو – الكليانة – أي أن تصبح كل أمور البلاد الخاصة والعامة في يده، ويده وحده.

كما قلت رأى معمر القذافي منذ البداية، أن الدولة المدنية، تعني، الدستور، والمؤسسات والقانون، وتداول السلطة. قضي سنوات يفكر في صيغة تجعله في حلٍ من كل تلك الأطر والقواعد التي تسير عليها الدول. فقرر أن لا تكون في ليبيا القيود التي ستجعل لسلطته حدوداً، ولحكمه مدة. فالأطر القانونية، والأشكال التنظيمية هي العدو الآن بالنسبة له بعد التخلص من أعدائه البشر وهم الضباط الأحرار .

أشياء يجب ألا تكون، وهي:

- الدولـــــة.
- الدستـــور.
- المؤسسات.
- القانـــــون.

فاخترع الجماهيرية – مقابل الجمهورية، حيث كانت ليبيا تسمى قبل مارس 1977 الجمهورية العربية الليبية.

● الكتاب الأخضر " سلطة الشعب "، مقابل الإعلان الدستوري الذي كان يحدد شكل الحكم في المرحلة التي أعقبت الثورة.

● المؤسسات، تم القضاء عليها بالثورة الشعبية، عبر الزحف في الثورة الشعبية والتصعيد.

● القانون.. تم إلغاؤه في خطاب زوارة، في النقاط الخمس.

رفض أي شكل من أشكال التنظيم السياسي المغلق الترتيبي، وأعتمد على قاعدة – مراكز القوة – عبر الاعتماد على أشخاص يستمدون قوتهم منه شخصياً، يرتبطون به، ويتداخل مصيرهم مع مصيره ومصير النظام الشخصي له. عبر القفز فوق تلك الحواجز، وتأسيس قواعد النظام – الشامل – إكتشف معمر القذافي أشخاصاً، أو أعاد صناعتهم، ورتبهم من حيث المراكز وحجم المسئولية، وفقاً للمهام التي أرادها لهم، مرّ عبدالله السنوسي بإختبارات نادرة، فقد أدخل السجن عشرات المرات، وحكم عليه بالإعدام ووضع أمام فصيل إطلاق النار وأوقف التنفيذ في آخر ثانية، وهكذا كان عبدالله النتاج المختار من معمل معمر القذافي، بل كان هو – رضوان– جنته، كما فعل حسن الصباح في قلعة – آلموت – جنة الحشاشين القتلة، كان هو إنتاج الإنتاج، فلم يكن عبدالله السنوسي رجل استخبارات، أو أمن، أو مستشار للقذافي، فقط، بل كان كيمياء معمر القذافي تجول في كل أطرافه، تنفح من حواسه، سياساً، وأمنياً، في دوائر الحب، والكره، الإقتراب والإبتعاد، مع أبناء القذافي ومع الحاشية، مع الأصدقاء والأعدء، يحسب كل المسافات بمقاييس معمر، لا يأتي قولاً أو فعلاً إلاّ لقائده فيه شهيق وزفير. مع مرور الزمن وتراكم الخبرات والتجارب، أصبح لصوته أكثر من نغم ولأفعاله أكثر من إيقاع، لكنه دائماً على إستعداد لإرضاء قائده مهما كان الفعل وكان الثمن. لقد صدر عليه حكماً بالمؤبد من محكمة فرنسية، كان الحكم غيابياً لكن الإنتربول كان يطارده، خاصة في الدول الأوروبية، لكنه لم يرعو، ظل يتنقل بين مصر وسوريا والجزائر، إضطر أن يسافر ذات مرة إلى إيطاليا بإسم

كودي، دخل إلى مصحة في ميلانو فقد كان يعاني سرطان الكبد، وصل الخبر إلى أحد وكلاء النيابة الإيطاليين فحشد أرتالاً من البوليس للبحث عنه، هرب متنكراً بين العمارات ووصل إلى المطار، وغادر على أول طائرة. لم يصمت ولم ييأس، قام بالمستحيل من أجل الخلاص من الحكم الذي صدر ضده بفرنسا، إستقبل العشرات من رجال القانون الفرنسيين وغيرهم، بحثاً عن منفذ يخرجه من ذلك الحكم، وقد وجد من بين القانونيين الليبيين من يزين له الأمر ويمنيه بتعديل القوانين الفرنسية لإسقاط الحكم الغيابي ضده،. تناقشتُ مطولاً مع الدكتور عبدالرحمن أبوتوته الذي أصبح فيما بعد رئيساً للمحكمة العليا حول تشريعات فرنسية جديدة تسمح لعبدالله وشركاه بإستئناف الحكم دون المثول أمام المحكمة، إستغربتُ كيف يقول أستاذ قانون حاصل على الدكتوراه من فرنسا بذلك. وبعد إنتفاضة 17 فبراير، قال عبدالله السنوسي أمام الصحفيين أنه قدم رشاوي للرئيس الفرنسي أثناء الإنتخابات الرئاسية مقابل إلغاء الحكم الصادر ضده بفرنسا.

دخل عبدالله دنيا السياسة الدولية، بلغة معمر وأسلوبه، وقام بمهام علنية في الداخل وسرية في الخارج، إشترك في المفاوضات حول حل مشكلة لوكربي، وأسلحة الدمار الشامل، وقضية الطائرة الفرنسية، والمفاوضات مع الأمريكيين، بالإضافة إلى دوره في العلاقات الليبية المصرية، والقطرية وكذلك العلاقات مع تونس في عهد الرئيس زين العابدين بن علي، وكان أيضاً على إتصال بالأردن وسوريا. في كل تلك الاتصالات كان ينطق بصوت معمر القذافي، وعندما يريد إرسال إشارات متشددة إلى أي وفد أجنبي يزور ليبيا، يكون ذلك عبر عبدالله السنوسي، في أحد اللقاءات مع ديفيد ولش، مساعد وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس والتي عقدت بوزارة الخارجية بطرابلس، قال له عبدالله، عليكم تعويضنا عن أجهزة الطرد المركزي التي أخذتموها منا، وعليكم أيضاً مكافأتنا مقابل نجاح الرئيس جورج بوش في إنتخابات الولاية الثانية، لأننا بتخلينا الطوعي عن برنامج إنتاج أسلحة الدمار الشامل ساهمنا في نجاحه، وإذا لم تقوموا بذلك ستحرص كل من إيران وكوريا الشمالية على عدم

التخلص من برنامجهما النووي. سأله ديفيد ولش، ما هو المطلوب مني شخصياً بالخصوص. أجابه عبدالله، أنقل هذا الكلام إلى واشنطن، وأبلغنا بالإجابة. ردّ عليه ولش بقوله، إذا قلت هذا الكلام في واشنطن فسوف أضرب على مؤخرتي.

كان عبدالله السنوسي معركة متحركة، يصادم في كل مكان، ويخوض المواجهات على كل الجبهات، له في داخل النظام أعداء، ليس له حلفاء، بل يتعامل مع الجميع لحساب وبحساب. يضع خطة تعامل مع كل واحد من المسئولين. ففي علاقته بالبغدادي المحمودي الذي لعب دوراً حاسماً في وصوله إلى رئاسة الوزراء، تطل المصلحة في كل لقاء بين الإثنين. فخطة التنمية الكبيرة التي رُصدت لها المليارات، كان عبدالله هناك، يتابع جميع العقود والصفقات، يفيد ويستفيد، يتحسس التعيينات في المناصب، ويتابع دورة المال، في الصناديق السيادية، والبنوك، والشركات. تقاسم الإثنان بلح المصلحة في العراجين وعلى الأرض، ولم ينس أحدهما صنائع الآخر له، فكان عبدالله خير المدافع عن البغدادي أمام معمر القذافي، وأفضل من يوصي سيف الإسلام خيراً به، ويهديء من غضبه عليه، في كثير من المواقف والمحطات.

علاقته، بموسى كوسا، كانت ذات لون خاص، يعكس هوية الخيوط التي تربط بين رؤس الأمن في الجماهيرية، لم يوفر عبدالله مناسبة للهجوم على موسى، بل كان يبالغ في صب عبارات الإستهزاء به، سألته عن سبب تحامله على موسى كوسه، قال أنه يقوم بتسجيل جميع مكالماته ويرسلها يومياً للقذافي، قلت له، هل تريده أن يرفض أمره، ولا يقوم بتسجيل مكالماتك وأنت تعرف أنها بتعليمات من القائد. قال عبدالله، كان بإمكان موسى أن يقول له أن ذلك ليس من إختصاص جهاز الأمن الخارجي، وأن يكلف به جهة أخرى.

في زيارتي الأخيرة إلى ليبيا، ذهبت رفقة البغدادي المحمودي رئيس الوزراء، ، والمدني الأزهري، أمين تجمع س.ص، وعبدالله السنوسي، رئيس الإستخبارات العسكرية، وأبوزيد دورده رئيس جهاز الأمن الخارجي، وموسى كوسا وزير الخارجية لمقابلة معمر القذافي، عند وصولنا، تقدم نحوي العقيد وسألني، أنت هنا؟ خلاص

إذهب فوراً إلى مكتبك بالخارجية، لا حاجة لنا بالأمم المتحدة، هذا كوسا لا يصلح للخارجية، إذهب الآن لمكتبك السابق. قلت مازحاً:" قضيت بالخارجية تسع سنوات وستة أيام، إذا كان غرماً دفعته وإذا كان غنماً أخذته". بعد خروجنا قال لي عبدالله:" هذا أسعد يوم في حياتي، لا أريد شيئاً آخر، يكفي ما قاله القائد عن موسى".

غضب مرة معمر من عبدالله، فعينه نائباً لموسى كوسه بجهاز الأمن الخارجي، رفض عبداله الإلتحاق بجهاز الأمن الخارجي، وأقسم أن لا يترأسه موسى كوسه.

وصلت معلومة إلى عبدالله السنوسي، أن علي الكيلاني القذافي مدير الإذاعة يشتمه، إتصل به هاتفياً وقال له:" إسمع يا علي أنت لا تساوي شيئاً، وأنا أستطيع أن آكلك بأسناني وأنت حياً، ولو نما إلى علمي أنك تذكر إسمي بسوء سأزيلك من الوجود.

وكان للدكتور شكري غانم نصيبه من الخلاف مع عبدلله السنوسي. فقط إرتبط عبدالله بعلاقة قوية مع أمير قطر حمد بن خليفة، ورئيس وزرائه حمد بن جاسم. وعندما كان شكري يترأس مؤسسة النفط الليبية، قدم الجانب القطري مشروعاً للتعاون مع ليبيا في مجال النفط والغاز، رأى شكري أن العرض في صالح الجانب القطري، ورفض الموافقة عليه. عمل عبدالله المستحيل من أجل تمرير الاتفاق، وأدخل سيف الإسلام من إجل إقناع شكري بقبول العرض، لم تنجح كل المحاولات والتدخلات.

هدد عبدالله شكري بالتصفية الجسدية إذا لم ينفذ الإتفاق وأعتقد بأن البغدادي المحمودي رئيس الوزراء الذي لم يكن على وفاق مع شكري قد ساهم في تأليب عبدالله عليه، قال شكري لعبدالله السنوسي: هل أنا أتدخل في عملك في الاستخبارات العسكرية؟ بالطبع أنا لا أفعل ذلك، وعليك أن لا تتدخل في عملي بمؤسسة النفط. رد عليه عبدالله بالقول: لدينا برنامج شامل للعلاقة مع قطر، لنا مصالح إستراتيجية، وقريباً ستقوم علاقة مصاهرة عالية المستوى مع قطر.

نهايـــة النهايـــة

بعد سقوط نظام زين العابدين بن علي وهروبه، سرت قشعريرة خوف عاتية في أركان النظام الليبي وعلى رأسه معمر القذافي، وفي قلبه عبدالله السنوسي، كان متشائماً ومتوجساً، أحس بنواقيس القطار تعلن الوصول إلى محطة النهاية، لكنه ظل متحفزاً، أعتقد أن القوة هي الحل، ما كان لإنسان مثله أدمن القوة أن يفكر في عقار آخر يشفي من الحقيقة التي تقرع أبواب النظام، مباشرة بعد أن لمعت شرارة البداية في شرق ليبيا، ركض مع البغدادي المحمودي إلى بنغازي رفقة عدد من الأمناء، وتحدث إلى جمع من المسئولين ببنغازي، واعداً متوعداً. عاد إلى طرابلس مسرعاً للتشاور مع العقيد، لكن الأمور ببنغازي تصاعدت بسرعة، خرجت الجموع الثائرة إلى الشوارع، تطالب بأعلى صوتها بسقوط النظام، في المقابل إنفجر الرعب في جسد النظام، عاد عبدالله إلى بنغازي هذه المرة قاتلاً وليس واعداً أو متوعداً، واجه برشاشته الشباب المتظاهرين فوق جسر جليانة وحصد المئات منهم، توجه بعد ذلك إلى كتيبة الفضيل أبو عمر الأمنية بوسط بنغازي، هاجمها المتظاهرون وهرب عبدالله بأعجوبة وعاد إلى طرابلس، ومن هناك قاد مع أعضاء اللجنة الأمنية معارك الإبادة ضد الشباب الليبيين. قاتل على كل الجبهات، وبعد تحرير طرابلس فرّ إلى بني وليد ومنها إلى سرت حيث التقى معمر القذافي المتحصن فيها مع أبوبكر يونس جابر والمعتصم القذافي، إستأذن منه عبدالله أن يذهب إلى قريته قيره، بمنطقة الشاطيء بجنوب ليبيا، لتعزية زوجته في مقتل إبنه محمود، ودفنه، ثم إختفى.

أصدر مجلس الأمن قرار بإحالة معمر القذافي وإبنه سيف الإسلام وعبدالله السنوسي إلى محكمة الجنايات الدولية بتهمة الإبادة الجماعية وإرتكاب جريمة حرب، وأصدرت المحكمة مذكرة إعتقال بحقهم.

لقد كان هذا المثلث، معمر، سيف، عبدالله، هو هرم الدم، تخطيطاً، وقراراً، وفعلاً. كان هؤلاء الثلاثة يعرفون أن سقوط النظام يعني سقوط رؤوسهم، ونهايته نهايتهم، لم يكن أي من هؤلاء الثلاثة يتصور أن يرى ليبيا خارج قبضة يده، لقد داهمتهم غيبوبة التيه التي تصعق الذين ضلوا طريقهم بالصحراء، يهتف لهم السراب بصوت الموت، ولمعانه، لقد حمل نذير الموت والدم في أعطافه وأحشائه، ما ظن يوماً، أن ذاك الشعب الذي كان يرتعد من خياله، يندفع الآن يركض وراء الموت الذي يفر من أمامه، سيُكتب الكثير عن معمر القذافي، وعن الأسرار التي تجثم في سراديب الأماكن والعقول، فوق الأوراق وتحت الأرض، سيكون عبدالله السنوسي هو لون الحبر الذي كتبت به تلك الأسرار، وتمثال النهاية التي إلتفت حول أعناق المئات بل الآلاف من شباب ليبيا وشيبها.

أين هو اليوم، أعلن أنه أعتقل عندما كان يختبيء في بئر قديم بقريته قيره، ثم جاءت الأخبار بعدم صحة ذلك، وأنه مازال هارباً، تسربت بعد ذلك أنباء تقول أنه معتقل في مكان سري في سبها لأسباب أمنية. مهما كان الخبر اليقين حول القبض عليه، فإن الأقلام، أقلام النار والبارود، التي كتب بها عبدالله أوراق حقبة من تاريخ ليبيا قد تكسرت، وأن أنفاس العنف التي تخنق أنفاس الحق قد كتمت، أحرق ثوار ليبيا الشباب بدمهم وأجسادهم مرحلة لن تعود أبداً. هوى معمر القذافي في جب النهاية، وغاص هامان، في بحر الوهن، الدنيا جمر، وتمر، كل يقطف ما زرع. كان عبدالله السنوسي نهاية منذ البداية.

الدكتــور رجـــب أبودبـوس

الدكتـور رجـب أبودبـوس

أعترف منذ البداية ، أن معرفتي بالدكتور رجب أبو دبوس محدودة جداً، وقد تكون في بعض الجوانب معدومة، رغم أننا ننتمي إلى جيل واحد، فهو يكبرني بأربع سنوات، وهناك شيء مشترك بيننا هو الإهتمام الثقافي، فهو من كبار المثقفين الليبيين، ومن أغزرهم إنتاجاً، له قدرة فوق العادية على الحوار، بل الجدل في كل شيء. لا أعرف شيئاً عن طفولته، ولكن بما سمعته من بعض من زاملوه في المرحلة الجامعية، فقد كان شاباً نشطاً، من ذلك الجيل الذي إنبهر بالومضات الفكرية والفلسفية، خاصة الوجودية، والفوضوية، درس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة بنغازي عندما كانت أفضل جامعة في الوطن العربي حسب قول عدد من كبار الأكاديميين والأساتذة العرب وعلى رأسهم الدكتور المرحوم طه حسين. في تلك السنوات، أقصد ما بين سنوات 1965 و1969، درس رجب أبودبوس في قسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة بنغازي، في تلك الأيام، كانت أجهزة النظام الملكي، لا تهتم بالتيارات الفكرية، خاصة تلك الفلسفية، ذات المنبع الأجنبي مثل الوجودية، والفوضوية، بل كانت تهتم بالايدولوجيات العربية، مثل فكر البعث وتنظيمه، فكر القوميين العرب وتنظيمهم، أما الأخوان المسلمون فلم يعتبرهم النظام أعداء يهددون وجوده. عجت جامعة بنغازي بالأفكار، وأرتفعت أصوات الشباب المتحمسين كل للتيار الذي ينجذب إليه، هناك يصنعون دنيا من وقود العقل، ويركضون وراء كل كتاب جديد، للجامعة حرمها الذي لا ينتهك، وللأفكار مداها. أشعل ذلك الحراك أنوار الجدل، وبرز من أولئك الشباب الذين هفوا إلى الجامعة بروح التعطش ليس لنيل الشهادة العلمية، وإنما للإلتقاء مع ذاتهم، وفتح صفحاتها على كل المفاهيم، التمرد على كل شيء، والتدافع من أجل التعبير عن أسئلة يبدعونها، أو إجابات مقتبسة يتبنونها،

ساعدهم في ذلك كل المخاض الفكري المتوهج، وجود نخبة من الأساتذة الكبار، كان الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي هناك، وهو المكتبة الفلسفية الفريدة، والأستاذ الدكتور علي أحمد عيسى، إبن خلدون مصر، وجون ديوي كل عصر، وعظماء آخرون، يملأ اسم كل واحد منهم أكبر وأرحب الآفاق. في تلك الدنيا التي تعج بالأقمار والنجوم والمجرات الفكرية، تخلقت الإتجاهات الثقافية والفكرية، لضيفنا رجب أبودبوس. كان من أبرز الشباب المثقفين، سماه البعض بالفيلسوف، هناك في مدرجات كلية الآداب، كانت المحاضرات الفكرية تظاهرات شبه يومية، يواجه فيها كل شاب، مشروع مثقف أو مفكر الآخر، في مأدبة جدل ديمقراطية، الإحتفال بالفكر، والفرح بالإختلاف رسم خطوط المستقبل للكثيرين من ذلك الجيل الواعد، كانت أفكار جان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار، لا تقل إنتشاراً بين أروقة جامعة بنغازي عن إنتشارها بين الشباب الفرنسي الذي إنتفض فكرياً، وسرت إنتفاضته في كل أنحاء أوروبا. تلقف أبودبوس مثل الكثيرين من أضرابه، ذلك الفكر الوجودي الذي ساهم في إشعال ثورة طلاب فرنسا، وغذوه بما أطلعوا عليه من فلسفة كيركجارد، وأتخذوه مادة يصطبحون بها ويغبقون، كان من أبرزهم رجب أبو دبوس، الذي واظب على كتابة أفكاره بمجلة كلية الآداب، ودخل في مطارحات فكرية ساخنة مع التيارات الإسلامية والقومية. لا يختلف إثنان أنه كان شعلة من الذكاء والحيوية الفكرية ومن المبّرزين في طرح القضايا الفلسفية بإسلوب حاد ومشاكس.

بعد تخرجه من قسم الفلسفة بجامعة بنغازي، شد الرحال إلى بلاد الفلسفة، أرض جان بول سارتر، وسيمون دي بوفوار، فرنسا ثورة الطلاب، ومنبع ثورات العالم الحديث. في سنة 1973، حصل على درجة الماجستير من جامعة (إيكسنبروفانس) عن الرسالة التي حملت عنوان: " التخيل ". وفي سنة 1976، حصل على دبلوم الدراسات المعمقة (DEA) من نفس

الجامعة بعنوان "أنطولوجيا الحرية". وفي عام 1977، حصل على درجة الدكتوراه من نفس الجامعة برسالة حملت عنوان " الحرية ".

أثناء وجوده في فرنسا، شهدت ليبيا أحداثاً جساماً، خاصة في الجامعات، وتوّجت تلك الأحداث بما عرف بـ7 أبريل، في حين كان أبودبوس يحوم في سماوات الحرية والمعرفة والتخيل على الأقل بين الكتب وقاعات المحاضرات ومقاهي المثقفين في " إيكسنبروفانس "، لم يصمت ورفع صوت المعارضة والرفض والإستنكار لما يجري في ليبيا وتحديداً في الجامعات الليبية، خاصة جامعة بنغازي، التي شهدت بدايات إقتحامه لدنيا الفلسفة وتحديداً الفلسفة الوجودية، التي تتمحور حول الإنسان وحريته في خلق كونه الذاتي الخاص به.

عاد الوجودي المغترب، فيلسوفاً ودكتوراً، فوجد البلاد غير البلاد، والناس غير الناس، فلا جدال ولا حوار في جامعة بنغازي ولا وجودية ولا أي رائحة من روائح الفلسفة التي أَلِفَ المشاركة في في نشر أريجها. لا خصام فكري، ولا زحام ثقافي، وإنما ثورة ساحقة ماحقة ذات فكر واحد، وإسم واحد، لقد تغير كل شيء في ليبيا فأين سيكون الدكتور الفيلسوف؟

حطّ على أرض تغيّر فيها كل شيء، وواجه نفسه بالسؤال: هل سيتغيّر أو يُغيّر؟ لا شك أن فلسفته ودرجته الأكاديمية الجديدة، قد أشعلت أضواء جديدة أمامه، ليرى بها الواقع الجديد، حاول في البداية أن يبدع لغة تحفظ له منزلة بين المنزلتين كما يقول رفاقه في حلبة الفلسفة والكلام، المعتزلة. لكن مع رياح الإنفعال والتفاعل الثوري، وشبح التصفية الجسدية، أو الاعتقال، أعاد الدكتور إنتاج نفسه، وشقّ طريقاً إختيارياً أو إضطرارياً للتواصل مع كيان القوة التي لا تتحدث لغة الفلسفة أو اللغة الفرنسية، لا وجود للوجودية، هنا، والآن، فإن أي جدل فلسفي لا وجود له، هنا، والآن، هناك فلسفة، لكنها لا تقبل الخصام أو الجدل أو الديالكتيك فلسفة الكتاب الأخضر بفصوله الثلاث

وله الحرية كل الحرية، في أن "يفسر" أي واحد من الفصول الثلاث، وفي هذا تخمة من الحرية.

كانت الخطوة الأولى لمساهمة الفيلسوف أبودبوس في ملحمة الفكر الجديد، بأن ساهم في إلغاء الفلسفة، فعندما إعترض معمر القذافي على إستعمال كلمة فلسفة لأنها أجنبية، كمصطلح وغير عربية تنادى أساتذة الفلسفة للتخلص من بضاعتهم، وتقدم "الفيلسوف" بدبوسه، ليضرب وثنه القديم ويبدع مكانه مصطلح " التفسير". ومنذ ذلك اليوم بدأ يبلس جلباب المفسر، وأصبح رئيساً لقسم التفسير بجامعة قاريونس. شد الرحال مفسراً، وبدأ بإلقاء المحاضرات المتواصلة والمطولة حول النظرية العالمية الثالثة، أصدرها في كتاب حمل نفس العنوان، وكلما زاد من جرعات التفسير زاد إرتفاعه في سلم المناصب والمسئوليات، فتقلب في كراسي المسئولية بجامعة قاريونس إلى أن طار إلى طرابلس وزيراً للإعلام والثقافة، ثم ترأس – المدرج الأخضر– مصنع الفكر الثوري الجماهيري.

التقيت به لأول مرة سنة 1980، كنتُ وقتها رئيساً لتحرير وكالة الأنباء الليبية، كان الإجتماع بمكتب الرائد عبدالسلام جلود لمناقشة بعض القضايا العربية، هاجمني إثر مداخلتي حول الموضوع المطروح، قال، أن الإعلاميين في ليبيا آخر من يفهم في الإعلام، هم يجيدون فقط التزمير والتطبيل، في نهاية الإجتماع طلب الرائد كتابة بيان حول القضايا المطروحة، وكلفني بكتابة البيان، إقترحت أن يشاركني الصياغة الدكتور رجب أبو دبوس، عندما بدأنا في الكتابة إقترحت أن يتولى هو كتابة المقدمة، إفتتح البيان بالإشادة بثورة الفاتح وقائدها وإخلاصه وو..، في أول لقاء لنا بعد ذلك قال لي:" أنت إستدرجتني دون أن أشعر، وجعلتني أطبل وأزمر دون قصد"، ضحكنا.

في دنيا التفسير الثوري القذافي الليبي، لا جدال، ولا حوار، ولا مكان لتلك الوجبات التي شب عليها أبودبوس في مدرجات كلية الآداب ببنغازي أو شبع منها في فرنسا حيث المعارك الفلسفية والصدامات الفكرية، هنا لا فلسفة ولا خلاف ولا إختلاف، إنما وحدة وإتحاد في الفكر والعمل، لم يكن بإمكان – المفسر – الدكتور، أن يجتر ما ألتهمه في الأيام الخوالي، ولكن من شبّ على شيء شاب عليه كما يقولون، لم يشف من حالة الجدل والحوار، الذي لا مكان له هنا، فاستعاض عنه بوجبات الصدام والعداء والعراك والاستفزاز، حتى أصبح إسمه عنواناً للاستفزاز. عندما كان – أميناً – للإعلام، وقف بمؤتمر الشعب العام ليتحدث بصفته الوزراية، إنتقد أسلوب وسائل الإعلام من حيث الشكل والمضمون، تهكم بطريقته الساخرة، وقال:" هل يعقل أن يقرر على المشاهد للمرئية الليبية برنامج "طاولة كسر" ؟! قصد بذلك نمطاً من الغناء الشعبي ينتشر في بعض المناطق. لم يغفر له بارونات الفن الليبي الرسمي، وعلى رأسهم علي الكيلاني القذافي، وعبدالله منصور، وكلاهما من منطقة سرت هذا التطاول الساخر، ففي أول إنعقاد رسمي لمؤتمر شعبي بسرت حرضا الناس، فشنوا هجوماً بذيئاً على أبودبوس.

يتنقل الصدام والخصام مع رجب أبودبوس ويحل معه حيث يحل، عقد إجتماع بين فريق من المثقفين الليبيين وعلماء الأزهر بالقاهرة، كان الهدف من اللقاء أن يعرض هؤلاء المثقفون أفكار معمر القذافي التي عبر عنها في الكتاب الأخضر، وعدم مخالفتها للدين الإسلامي، جلس الفريقان بالجامع الأزهر يتحاوران، تطرق الحوار إلى السنة، أقوال النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأفعاله، وأثناء حديث أحد مشائخ الأزهر أشار إلى بعض تصرفات الرسول، وذكر موقفاً له وهو يغادر آخر الليل منزل السيدة ميمونة، فقال أبودبوس:" وماذا يفعل السيد محمد آخر الليل عند ميمونه؟!!". هاج الشيخ وماج، وصاح قائلاً :" أيها الفاسق، الفاجر، المرتد، ما تريد أن تقول، لابد

أن تعاقب بأقسى العقوبات أيها المارق الزنديق". لم تتوقف ثورة الشيخ الأزهري إلاّ بعد أن تدخل بعض أعضاء الوفد الليبي وهدأوا الشيخ الغاضب. كان ذلك هو رجب أبودبوس، يرى في الخصام و الإصطدام ممارسة فلسفية، بعد أن أصبحت تلك الكلمة من المحرمات وتقرر تحويلها إلى – تفسير – وإعادة إنتاج المتفلسفين، وحقنهم بجرعات من من النظرية العالمية الثالثة، لتأهيلهم حتى يتحولوا إلى مفسرين. طبعاً للكتاب الأخضر.

" هـل إنكسَـر الدَبـوس أم تكسّـر ؟ "

هذا سؤال لم أطرحه أنا، قال أمامي أحد الذين درسوا مع رجب أبودبوس بجامعة بنغازي، عندما كان رجب وزميله هذا يحملان أفكارهم في رؤوسهم، ويصرخون بها بأفواههم، بل يقذفون بها بعضهم بعضاً على المدرجات وأمام الجميع، ليس من السهل أن تقوم مجموعة من هواة الأفكار، ومن القصّر ثقافياً وسياسياً، بغسل دماغ شخص بهذا العمق والإطلاع. هو شخص مؤسس منذ كان طالباً، جادل المتعلمين والمثقفين، وقارع المفكرين من مختلف التيارات، حتى أصبح الصدام الفكري، خيطاً يمتد في نخاعه، ويلتوي في دماغه، هل يصادق عاقل أن يستطيع حدثُ مثل أحمد إبراهيم القذافي، أن يغسل بكبسة زر دماغ رجب، بل هل بإمكان معمر القذافي، أن يفرغ في جلسة أو مائة جلسة دماغ الفيلسوف الدكتور من كل ما قرأ وكتب، وأن يصب فيه دفعة واحدة سائل الفكر الجماهيري الأخضر، إلى درجة تجعله يعتلي رئاسة المدرج الأخضر، ثم ينتشر إخضراراً جماهيرياً ثورياً إلى أن يغمر فكره " التفسيري" كل مباني النظرية الثالثة، فيترأس أكاديمية الفكر التي تشرف على – المدرج الأخضر، ومركز دراسات الكتاب الأخضر، وقناة البديل التي تطيّر أفكار النظرية الثالثة على الأثير.

ذات مرة قال معمرّ القذافي لرجب أبودبوس:" أنت غرقت في المدرج الأخضر، ونحن نريد أن نستعين بك في مواقف أخرى، أنت لديك قدرات سياسية وفكرية، يجب أن تتعدى سور المدرج الأخضر". رد رجب أبودبوس بإنفعال إيماني قائلاً:"لا يا أخ القائد، المدرج الأخضر يقوم بدور عالمي خطير جداً، يتهافت علينا الدارسون من أوروبا وأمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية ومن آسيا، وكل بلدان الوطن العربي، ندرسهم النظرية العالمية الثالثة، وبإسلوب بسيط وعملي يجعلهم قادرين على تطبيقها بسهولة في بلدانهم، هناك تزاحم دولي على المدرج، بدرجة لا نستطيع أن نستوعب كل الذين يريدون الدراسة فيه".

لقد تملكت النظرية الثالثة، الفيلسوف المفسر إلى درجة أصبح معمر القذافي بجانبه لا يدرك أهمية وخطورة نظريته التي يأتي إليها الدارسون الثوار من كل فج بعيد.

فماذا حدث للرجل؟

في تحليلي أن الدكتور رجب بعد عودته من فرنسا، جلس مع نفسه مطولاً ، كانت ليبيا سنة 1977، غابة مظلمة، كل إنسان فيها تهزّه أنفاسه، وتخيفه لفتاته، وكل مثقف يعتبر مجرماً إلى أن يثبت أنه سكر من رحيق النظرية العالمية الثالثة، وأن يبكّر بالآذان لها، كانت المشانق تعلق في كل 7 أبريل، والمعتقلات، تصرخ، هل من مزيد، أراد الفيلسوف العائد من دنيا الهرج والمرج الفكري المنفلت، من أضواء فرنسا التي تهتف بالعامل والفلاح وسائق سيارة الأجرة، أن يجادل ويفكر ويحاور، فكيف لهذا الفيلسوف أن يشفى دفعةً واحدة من داء الفكر الذي عشعش في أركان كيانه. إرتمى إذن في مستنقع الدواء، عملاً بحكمة المثل الشعبي الليبي القائل (القبر الذي تخاف بات عليه).

هكذا استطاع أن يسير في غابته التي أعتاد أن يسير فيها برأسه وبقدميه، غابة الفكر، إلا أنها هذه المرة غابة مصطنعة، غابة من أحراش البلاستيك، وأشجار الصنوبر الحجرية، يتحرك بخطواته وفقاً للإيقاع الذي يضبطه، ضارب رق يقف حيث لا يراه لكنه، يسمع دقاته في رأسه. إستمر الأستاذ – المفسر– يشاغل الأقلام والأوراق، ويتنقل بين فجاج الأفكار، لكنه يضرب في التيه، الفّ العديد من الكتب، لكنه سطرها بالحبر السري، وعلى ورقٍ أخضر، وبحروفٍ يشكلها أصبع مستعار.

طاف بين الاقتصاد والسياسة والتاريخ، لكن الذي يطوف الآن ليس هو ذلك الفيلسوف الذي يطير بحرية الطير فوق فلوات الفكر الوجودي، بل هو– المفسر– الذي يصب الفكر التفسيري الأخضر في كل أوانيه، يسفه كل ما سبق أن قاله المفكرون والفلاسفة إلاّ ما فاحت منه رائحة خبطات القائد غير المسبوقة. لقد هوّن على نفسه في بعض المحطات، وخرج من غابته الصناعية الخضراء، وعاد إلى كرسيه القديم المهجور، كرسي الأكاديمي المتفلسف، وأصدر بعض الكتب الأكاديمية التي يضطر طلاب الفلسفة بالكليات الأدبية إلى قراءتها بحكم الضرورة وقد يهزّه الشوق إلى دنيا الخلاص الداخلي، فيهرب إلى عالم الترجمة، والترجمة المنتقاة، حيث يجد نفسه حراً عبر نقل بعض المؤلفات من اللغات الأخرى، وناقل الكفر ليس بكافر.

أصد الدكتور "المفسر"، رجب أبودبوس كتابَ بعنوان – ويسألون عن الدستور، الطبعة الأولى سنة 2009، الناشر، دار الرواد. جاء فيه من الصفحة 104:"إذن الدستور ليس بالضرورة عقداً بين طرفين، أي بين حاكم ومحكومين. هذا الشكل يعكس ويشرع نظاماً سياسياً، وإجتماعياً فيه توازن القوى بين الطرفين لا زال مختلاً لصالح الحاكم، وإن كان قد بدأ يميل لصالح الناس. الدستور يمكن أن يكون عقداً بين الجماهير نفسها، عندما

ينحل الصراع على السلطات في صالح الشعب، ولهذا أفضل تسمية هذا الشكل من الدستور، عقداً جماهيرياً أو مرجعية جماهيرية". ويجيب الدكتور على سؤال يطرحه على نفسه بالقول في الصفحة الموالية 105:" في ليبيا حتى 1969/09/01، كان النظام السياسي ملكياً، وكان الدستور الذي وضعه يكرس ويشرع النظام الملكي. الثورة أطاحت بهذا النظام، وليس فقط بدستوره، ولا أحد في علمي، يزعم أن الثورة عمل دستوري، فهذا مخالف لطبيعتها. شرعية الثورة لا تستمد من الدستور، وإذن، ليس من النظام السياسي والاجتماعي القائم قبل 1969/09/01 وإنما تستمد من شرعية تتجاوز الدستور، والثورة تحدث عندما يتبدى الدستور والنظام السياسي منحرفاً عن هذه الشرعية، ولا يمكن تصويبه دستورياً. وهنا مكمن الفرق الجوهري بين الثورة وبين الإصلاح. الإصلاح يجري داخل النظام السياسي، ولا يطال، هكذا دستوره، بينما الثورة تغير النظام نفسه وبالتبعية تسقط دستوره"، يستمر الدكتور في الموضوع فيقول في الصفحة 106:" بالنسبة لي، إستناداً إلى هذا الأمر الواقع، وهو نظام الديمقراطية المباشرة، الذي تحقق بفضل الثورة، ونظرية قائدها، أرى من الضروري جداً تحويل هذا الأمر الواقع إلى واقع دستوري، إستمراريته كأمر واقع تشكل خطراً عليه، وقد تغري بالإنقلاب عليه أو على الأقل تمييعه. هكذا الدستور، هو تكريس وتشريع لأمر واقع، هو نظام الديمقراطية المباشرة في ليبيا".

هنا يذهب الأستاذ المفسر مباشرة إلى عين الهدف، إلى النظرية، وقائدها ومبدعها، والديمقراطية المباشرة.. إلخ، التي يجب أن تصاغ في دستور، لقد رفع درجة النغم، في قمة التشبع، وفي أقصى درجات الآداء، أقصد بعد تلك السنوات التي قضاها، يسبح في بحيرات المدرج الأخضر، ومركز دراسات الكتاب الأخضر، وأكاديمية الفكر الجماهيري، ويشحن أبناء البشرية

المتدفقين عليه بكهرباء النظرية وصل سنة 2008 إلى الدفق الفكر المباشري، تقنين النظرية العالمية الثالثة في دستور.

لكن الدكتور يتفوق على نفسه في السنة التي تليها أي سنة 2009، عندما نشر كتاب في نفس – دار الرواد – سنة 2009، تحت عنوان (ثأر الاجتماعي – أحدث معاصرة في ضوء فلسفة التاريخ) .. في هذا الكتاب يعلن الأستاذ عن نفسه بالكامل ومباشرة وبقوة، يطبق ما يعتبره منهج معمر القذافي لقراءة التاريخ وفهمه وتحليله، بل ذهب أكثر من ذلك، فهو يخضع أحداثاً مباشرة ليس للتاريخ فقط بل إلى فلسفة التاريخ التي يرى المؤلف أن معمر القذافي قد سطرها في الكتاب الأخضر وتحديداً في الفصل الثالث، وهو الركن الاجتماعي.

في مقدمة مؤلفه يستهل الكاتب مقدمته بإقتباس ربع صفحة من الركن الإجتماعي وهي، :"عندما نسأل من هو ؟ فإن الجواب يكون بتحديد هوية المسئول عنه، وعندما نقول عن فرد أو شيء إنه هو نفسه، رغم إدراكنا له، ووصفه بطرق مختلفة، فإننا نعني ما يظل هو نفسه رغم تغيير طرق النظر إليه، وهذا ما يعطي للإدراك أو الوصف معناه وقيمته، إذ بدون هذا لا يكون للإدراك أو الوصف ما صدق يصدق عليه".

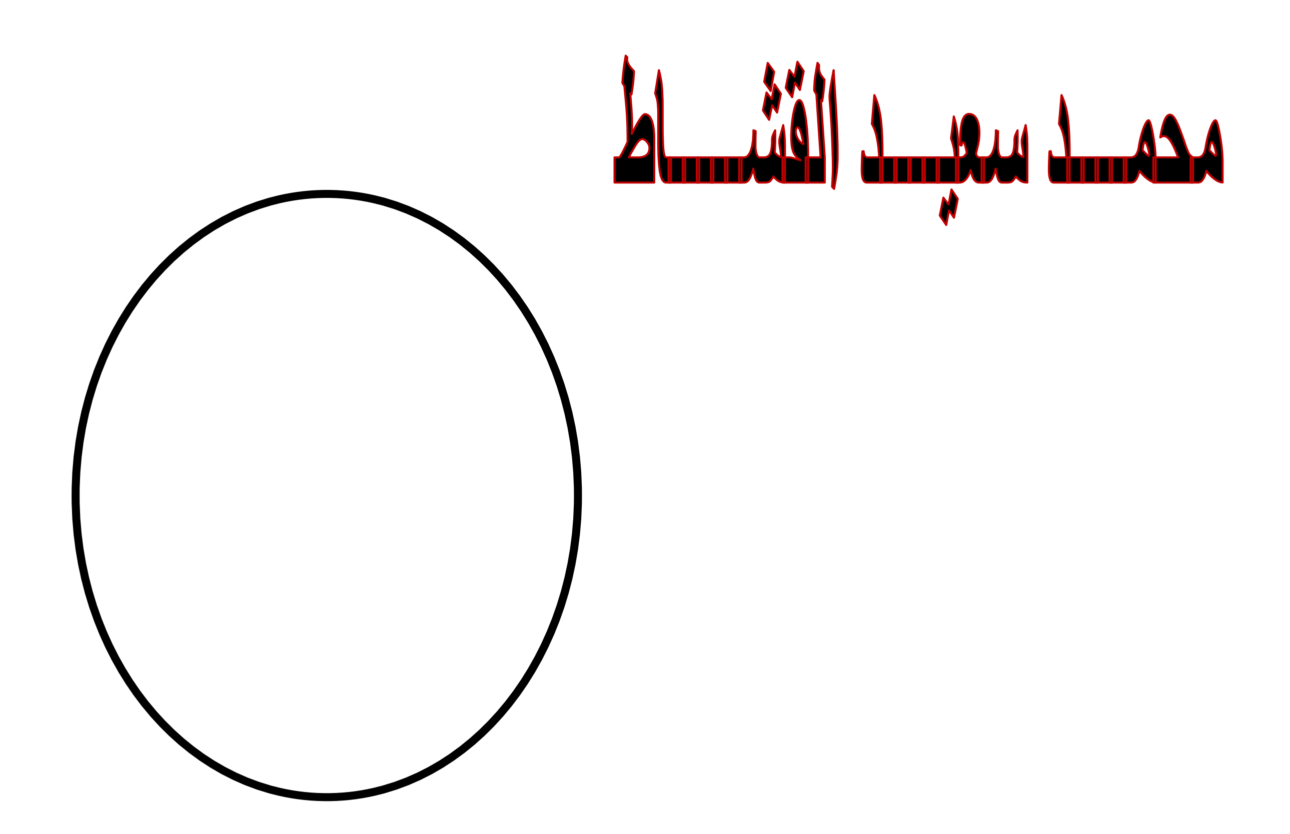
هكذا يعلن الأستاذ المفسر، أنه تلميذ في مدرسة منهج أستاذه معمر القذافي. هذا ماحدث للأستاذ رجب أودبوس. بالطبع ليست غيبوبة فكرية، أو هوة بالضرورة، أو خلل في مقاييس التوازن، أعتقد أن أبودبوس كان ضحية ضاغط ثقيل ثقيل. وجد نفسه يقف أمام تيار هائل، نظر إليه ملياً، تأمل طويلاً، وفكر طويلاً، قرر أن يلبس طوق العوم، وأن يقفز إلى قلب التيار، يندفع معه، سيجني من الماء مالاً، ومن العوم سلاماً، فكان هناك، لم يساهم رجب في رحلة صناعة الديكتاتور المفكر طوعاً بل حذراً في البداية، أستمرأ الغنائم والمكارم، أدمن العوم في قلب التيار ومع الأيام أصبح ماءا، أي جزء

من التيار ذاته، ما قيل أنه ساهم في أعمال العنف والتحقيقات، لا أساس له من الصحة، لم يؤذ أي إنسان جسدياً أو مادياً، كل ما فعله أنه نجح في الخلاص من عقله المصارع، ومن غُدّة الفيلسوف في داخله، رحل طوعاً أو كرهاً من مدرجات جامعة، إيكسنبروفانس، ومن ضجيج الحوار الفكري الذي تدقه طبول الفكر والفلسفة الوجودية إلى ترانيم الخيمة الفكرية، قال ذات مرة:" لابد أن ندمر كل آثار المدن الرومانية والأغريقية والتركية القديمة في ليبيا، إنها تلوث قيمنا الثقافية، يجب أن نستمد كل قيمنا من الخيمة فقط".

نعم لقد مات الفيلسوف في رجب أبودبوس، وولد في داخله، المفسر.

بعد تفجر ثورة 17 فبراير، أشهر سلاح الكلام في وجهها، ألقى محاضرة، لم يحضرها سوى 15 شخصاً من الثوريين، وصف فيها الثوار بالعملاء والجراثيم، وقال أنه من المستحيل القيام بثورة ضد القائد وضد الجماهيرية التي تضم الجماهير. لقد ضبطت آلة فمه على التفسير، وصمتت الفلسفة وسكت التفكير.

بعد صولات الشباب الفكرية الصدامية، في دنيا الوجودية، وبعد الطيران في سماء الحرية التي إختارها عنواناً لأطروحته للدكتوراه في أحد أكبر الجامعات الفرنسية، إختار الصف الآخر القاتل للحرية. فأبدع لنفسه المكان المناسب، المعتقل.


محمد سعيد القشاط

محمد سعيد القشاط

هذا الرجل هو، حكاية سمر، يصلح أن يكون بطلاً للروايات التي يحكيها الكبار للصغار حول مواقد النار في الصحراء في الليالي الباردة، ففيه، كل عناصر الحكاية، وبنيتها، فهو الشاعر الشعبي الذي يتغنى بأتفه الأشياء، ولم يشعر بأي خجل أن ينشرها في كتيبات تحمل إسمه. وأن ينسب لنفسه بنفسه أعلى الدرجات العلمية، وهو لا يحمل سوى مؤهل في غاية التواضع. ويتفاخر بأنه مؤلف أكثر من 70 كتاب. عرفه الليبيون في مطلع الستينات عندما نشر ديوانه من الشعر الشعبي تحت عنوان "عشيّات وادي غدّو" يحوي قصائد تتحدث عن المرأة التي تعلق بها وإسمها – مسعودة – يصف مفاتنها، ويقول:

شفة مسعودة فيلالي من السوق خداته كربع مسعودة عرصات مدينة صبراته

واللي مارا مسعوده، مارا شيئا في حياته آه من مسعوده قلبي من عروقه سلاّته

وكتب قصائد عن الحضارة التي لا يوافق على دخولها إلي ليبيا، والتي تبدّت في منظر بنات ليبيات يأكلن الجيلاتي في شوارع طرابلس، وكان القشاط قد عيّن بعد تخرجه من معهد المعلمين العام مدرساً بسبها بجنوب ليبيا، وسكن بحي يُسمى، القرضة، فكتب شعراً شعبياً قال فيه:

من قال يصبح مسكني في القرضة مكتوب من ربي عليا فرضه

هكذا، إفتتح رحلته الشعرية الطريفة، إلى أن وصل إلى دبج القصائد الطويلة باللغة العربية الفصحى. كان للقشاط، شخصية متميزة بين زملائه من مدرسي المرحلة الإبتدائية، وكذلك في حركة كشاف ليبيا، حيث كان يؤلف الأهازيج، و يجيد الحدلقة، وصناعة النكات، والقفشات، خفيف الدم والظل، عفوياً أو اصطناعياً، حتى

أصبح هذا الملمح جزء من شخصيته، وما زال الكثير من الذين أقتربوا منه أو عملوا معه يرددون ما سمعوه عنه من ملح ونوادر.

لم يكن العمل في مجال التعليم، وخاصة مدرسي المرحلة الإبتدائية، يشكل مصدر دخل كبير، يمكّن المدرس من الحياة في مستوى يفوق مستوى الطبقة الوسطى، وتحديداً في سنوات الستينات، قبل إكتشاف النفط.

إنحدر محمد سعيد القشاط، من عائلة بدوية بسيطة، تعيش بمنطقة جبل نفوسه – الجبل الغربي – وتحديداً بقرية صغيرة هي قرية بدر، التي تقطنها قبيلته، قبيلة الصيعان، وهي تعتمد على الرعي، ويعمل بعض أبنائها بمهنة الرعي، أو حصاد المحاصيل التي تروى بالمطر، قلة من افراد تلك العائلة كانوا من ميسوري الحال الذين يقومون برعي حيواناتهم بأنفسهم، أو يحصدون ما ينمو من الأمطار، في حين عمل عدد منهم كرعاة لدى قبائل أخرى وخاصة قبائل الأمازيغ المجاورة لهم.

تقع قبيلة الصيعان الصغيرة الفقيرة المتنقلة، غير بعيدة عن قبائل كبيرة مثل الزنتان، وقبائل أخرى بعضها من الأمازيغ، وقد ساهم هذا الموقع الجغرافي، والإجتماعي في تشكيل نفسية القشاط. فعندما أعلن معمر القذافي، الثورة الشعبية سنة 1973، وطلب من الجماهير، أن تزحف على الإدارات الحكومية، وكُلف أن يتجه إلى منطقة الجبل الغربي، للمشاركة في تنشيط "الثورة الشعبية"، وضع على كتفه بندقية صيد، وقام بحشد ابناء قبيلته، وأمرهم، أن يهاجموا مواقع الأمازيغ، وأن يقوموا بالسيطرة على تلك المنطقة، وحاول إيقاظ حزازات قديمة ردمتها رياح التاريخ. ولم يكتف بذلك، فعندما تصدى لكتابة تاريخ الجهاد الليبي، إتخذ من ذلك مدخلاً لتصفية الحسابات مع أولئك الذين رأى فيهم مستغلي قبيلته في السنين الخوالي. كان القشاط قد عين موظفاً بمؤسسة الصحافة بعد الثورة، غادر الكثير من الصحفيين السابقيين الذين عملوا في هذا المجال أثناء العهد الملكي. وعن طريق عمر الحامدي الذي تولى إدارة مؤسسة الصحافة الجديدة في عهد الثورة، دخل إلى بلاط صاحبة

الجلالة – الثورية – ولم لا؟ وقد عرف ببعض كتاباته الشعرية التي قدمنا نماذجا منها في مطلع هذا الفصل. عمل محمد سعيد القشاط بُعيد إلتحاقه بالعمل الصحفي بصحيفة الفجر الجديد، تم تعيينه رئيسا لتحرير مجلة شهرية جديدة سُميت مجلة – الوحدة – وعين الصحفي الصالحين نتفة، مديرا لتحريرها، فيما عُينت أنا، سكرتيرا للتحرير. كان الصالحين نتفه، رئيساً لتحرير مجلة ليبيا الحديثة، التي صدرت في العهد الملكي، وله قدرات صحفية تحريرية وفنية كبيرة، أما أنا فكنت حديث التخرج.

عمل القشاط مدرساً بمدرسة سبها الإبتدائية، عندما كنت طالباً بالمرحلة الإعدادية بسبها، وقد أنتدب بمناسبة الإحتفالات الرسمية لتلقيننا أناشيد عن الإستقلال والملك إلخ. وهكذا تعرفت عليه مبكراً.

كانت مجلة الوحدة تصدر شهرياً، وهكذا وجد القشاط الوقت للسفر في رحلات طويلة إلى الخارج، ولتكوينه البدوي، شدته مرابع ونجوع البدو في موريتانيا، وكذلك اليمن. وكذلك التنقل في داخل الوطن الليبي، لتسجيل مقابلات مع المجاهدين الليبيين الذين قاتلوا ضد الإستعمار الإيطالي، أو مع أولادهم وأحفادهم. وكانت تنقلاته – التاريخية – أو الصحراوية البدوية، تمر بدروب ومفازات مختلفة ولكن إلى هدفين محددين:

خارج ليبيا: سواء في الصحراء الكبرى، أو في اليمن، كان القشاط يركز على الأصول العربية في ربوع موريتانيا والساقية الحمراء ووادي الذهب، وكذلك القبائل العربية وقبائل الطوارق في الصحراء الكبرى وخاصة في النيجر، ومالي، وتحريك النزاعات الإستقلالية، والثورية الإنفصالية، في البقاع التي وطأتها قدماه.

ففي منقطة الساقية الحمراء ووادي الذهب، التي كانت حينئذ منطقة محتلة من قبل اسبانيا، تعرف القشاط أثناء زيارته المتكررة إلى موريتانيا، على شباب من الصحراء كان يخطط لإشعال حركة مسلحة من أجل إستقلال الصحراء عن إسبانيا،

وبالفعل، اصبح بعض هؤلاء الشباب، من قيادات ما عرف فيما بعد بإسم حركة البوليساريو التي أعلنت، الجمهورية العربية الصحراوية. ودخلت في صدام مسلح مع المغرب بعد أن أنسحبت القوات الإسبانية من الإقليم، وتقاسمته موريتانيا والمملكة المغربية. كما أقام علاقات مع قبائل الطوارق المتمردة في مالي التي أسست مع بعض العناصر العربية حركات مسلحة لمقاومة الحكومة المركزية.

قام ايضا بزيارة إلى إقليم ظفار في سلطنة عمان، وكتب عن ثورتها.

بعد نشر سلسلة من المقالات، رأى رجال الأمن الليبييون في هذا الصحفي الهاوي لصحاري افريقيا، والمتسلق للجبال في اليمن وظفار، رأوا فيه مصدراً بل عنصراً هاما للإتصال والتواصل مع هؤلاء المتمردين، وهكذا بدأ يفيد ويستفيد. وبدأت علاقاته مع شخصيات هامة من المهتمين بحركات التمرد في تلك المناطق.

أما في داخل ليبيا، فقد تصدى الصحفي الذي يقود مجلة – الوحدة العربية – إلى كتابة تاريخ المقاومة الليبية ضد الإستعمار الإيطالي، عبر تسجيل مقابلات مطولة مع المجاهدين أو أبنائهم، ولكنه إتخذ من التاريخ سلاحاً لتصفية حسابات قديمة مع القبائل التي كانت تتفوق على قبيلته في الجهاد والمال، وهكذا فتح النار على القبائل المجاورة لقبيلته من العرب والأمازيغ، ودق ناقوس نعرات وعداوات طواها الزمن. نسب إلى قبيلته بطولات لم يسمعها أحد قبله، ورفع أسماء أشخاص منها ليجعلها فوق أسماء قادة الجهاد التي عرفها الآخرون، ونشر كتباً كبيرة و صغيرة، تقدح في أدوار بعض أبطال الجهاد، نشر كتاباً بالعنوان – خليفة بن عسكر، الثورة والإستسلام – طبعاً، خليفة بن عسكر قامة من قامات الجهاد في ليبيا، قاتل الإيطاليين دون توقف، عرف عن "بن عسكر" وهو سليل أسرة أمازيغية مرموقة، بأنه لم يكن من الذين أنخرطوا في حركة الجهاد مبكراً، ولكن حدث أن إعتدى بعض العسكر الإيطاليين على سيدة ليبية، مما دفعه أن يمنشق السلاح، وينخرط في معارك شرسة ضد الإيطاليين، وعندما دخل إلى الحدود التونسية، إصطدم بالمستعمر

الفرنسي بتونس، فقرر قتال المحتلين الفرنسيين، وعندما نصحه رفاقة بضرورة ضبط النفس ومسالمة الفرنسيين، أجابهم، ما الفرق بين من يستعمر تونس والذي يستعمر ليبيا؟!

المهم، في نهاية المطاف عاد إلى ليبيا وواصل الجهاد ضد الطليان، ووقع في الأسر، وعندما قرر الإيطاليون شنقه، طلبوا منه رغبته الأخيرة قبل وضع حبل الموت حول رقبته، فقال لهم: "لا تغطوا وجهي، وأحضروا لي فرقة موسيقية من الجبل الغربي، لتغني لي وتعزف وأنا في حبل المشنقة". وقد غضب الطليان من الطلبين، لأنهم إعتبروا الطلبين إستخفافا من خليفة بن عسكر، من الطليان وعقابهم.

لقد حاول محمد سعيد القشاط، أن يصم خليفة بن عسكر بتلميح واضح، أنه قام بالإستسلام للطليان، بل أن يقول بشكل شبه مباشر بأنه كان عميلاً لهم. لم يكن ما قام به القشاط من تشويه لشخص هذا البطل الكبير سوى إنتقام من التاريخ، وهو لا يملك من أدوات المؤرخ إلا، العودة إلى الماضي للإنتقام منه، وليس لتوثيقه، أو إظهار الحقائق. وكيف له ذلك وهو الذي لم يحصل إلا على تعليم أقل من المتوسط، حصل على الشهادة الإبتدائية القديمة من ليبيا ثم بعد ذلك قفز إلى سماء "الدكتوراه".

وهنا أذكر حادثة، لها بلا شك معنى، فعندما كان القشاط رئيسا لتحرير مجلة الوحدة العربية، إستلمنا نموذج من مؤسسة الصحافة، يطلب فيها من كل عامل بالمجلة، أن يعبئ البيانات حول مؤهلاته، فكتب القشاط أمام خانة – المؤهل – دبلوم صحافة، قمت بشطب ذلك، وكتبت أمامه – دبلوم معلمين عام – ولم يعدله ولم يعلق.

أعود إلى قصة – القشاط – مع التاريخ الذي قرر أن يكون سلاحه لتسويه حسابات الماضي، فقد كانت موقعته الثانية، بعد موقعته الأولى، مع الأمازيغ، مع قبيلة الزنتان، وهي من القبائل العربية الكبيرة، والتي كان لها دورا مشهوداً في مقاومة

الإستعمار الإيطالي. حاول الصحفي المؤرخ، أن يعيد دورة السنوات، وأن يغير مواقع المعارك، وأن يحلل قادة من الصيعان محل قادة من الزنتان، هام في التاريخ، وكأنه يلاحق صوتا في غابة كثيفة الظلام، وأثار ذلك غضب البعض، وسخرية آخرين، وتصدى للرد عليه، الكاتب عبد الوهاب الزنتاني.

لقد نشر القشاط عدداً من الكتب عن تاريخ المقاومة الليبية للإستعمار الإيطالي، بالطبع لم تقم على المنهج العلمي للتاريخ، فالرجل، ذهب إلى بئر عميق بلا حبل ولا دلو، فكيف له أن يحتفي بالماء؟

لكنه رغم إحتطابه ليلاً فقد عاد القشاط بعيدان من الحطب، نشر كتاباً عنوانه: "مراحيل العطش"، أورد فيه روايات منقولة على ألسنه الليبيين الذين عاشوا محنة العطش وهم هاربين من ملاحقة الفاشيين الطليان، لقد نشر بعض القصص التي تجعل القلوب تنفطر، يقول الكتاب نقلاً عن شيخ من مدينة سبها، أنهم عندما كانوا يتجهون نحو الأرض التشادية، كان هذا الشيخ رفقة زوجته وإبنه وإبنته، حمل الرجل بعض الأسمال والمتاع، ووضع أيضا إبنه فوق ظهره، فيما حملت المرأة إبنتها التي لم تستطع مواصلة المشي، ولم تعد الأم قادرة على حمل البنت بعد أن طالت الرحلة، القافلة تتحرك بسرعة هرباً من القوات الإيطالية، قال الرجل لزوجته، أما ان تتركي إبنتك وتلحقين بنا، كي لا نفقد القافلة المسرعة، أو سنتركك معها ونمضي مع القافلة. أضطرت الأم إلى ترك إبنتها في الصحراء اي إلى الموت، ومضت خلف زوجها وإبنها يركضون للحاق بالقافلة.

أيضا أورد الكتاب قصة قبيلة ورفلة، التي غرق بعضها في الرمال، ومأساة زعيمها عبد النبي بلخير، الذي ركب حصانه، وإندفع وحيداً في الصحراء يحارب رياح القبلى بحثاً عن بئر ماء، ينقذ بقطرات مائه حياة قبيلته، إستنكف أن يجلس كالجماد إلى جانب قبيلته التي يهاجمها العطش دون أن يقاتله، إندفع قائد القبيلة ليدخل في مبارزة ثنائية مع غول العطش، فغاب إلى اليوم.

ليت السيد المؤرخ الصويعي، إكتفى بتسجيل المقابلات مع قدماء المجاهدين وعائلاتهم على كاسيتات، وتفريغها على ورق جمعه في كتب مثلما فعل في كتاب مراحيل العطش، الذي وثق لمحنة إنسانية عاشها الليبيون، ولنقل، ما توها، جرأ وحشية الطغاة الفاشست.

قال لي القشاط مرة وهو أسيفا متألما: "لقد ألفتُ أكثر من سبعين كتاباً، ولكن لا أحد يعرفني في الوطن العربي".

قلت له: "يا أستاذ محمد، الفيلسوف الفرنسي باسكال نشر فقط سبعين صفحة فقط، منذ مئات السنين، ولا يزال إسمه يملأ العقول، الكتب ليست بعددها، أو وزنها".

لقد إشتكى من جهل العرب بأعماله، لكن الليبيين، يعرفونه بأعماله، وبأقواله، فقد وبخه مرة النقيب عمر المحيشي، عضو مجلس قيادة الثورة لما حوته بعض كتبه من قصائد يمدح فيها الملك إدريس، وعرفه بعض الليبيين بطرائفه، ودخوله الساخر المتطاول إلى غابة تاريخ ليبيا.

قضى القشاط سنوات من عمره يطوف بالصحراء الكبرى، يتنقل بين قبائلها، نشر بعض ما سمع منهم عن شخصيات مقاتلة مثل – كاويسن – وغيره، وكذلك عن تاريخ تلك القبائل. وقد أهله ذلك ليكون خبيراً في شئون الطوارق، وأصبح مستشاراً مقرباً للعقيد خليفة إحنيش آمر الكتائب الأمنية، الذي إتخذ من خلط فسيفساء القبائل سلاحاً سياسياً، يؤجج الصراع بينها. رشحه ليكون سفيراً لليبيا بالمملكة العربية السعودية، وأخترع له مؤهلاً إجتماعياً، فقدمه للسعوديين على إنه يرتبط بعلاقة نسب مع قبيلة القذاذفة.

ذهب إلى السعودية بهدف أن يلعب لعبة القبائل، التي قال أنه يتقنها وطلب منه أن يعمل الأسفين الذي لقنه إياه خليفة إحنيش لتحريك القبائل ضد الأسرة السعودية الحاكمة، لكن القشاط كان وفياً من منظور قبلي واحد، وهو العلاقة مع الأبل، فقد قام

بشراء مئات الرؤس من الأبل السعودية البيضاء، وأرسلها إلى نجوع الحمادة الحمراء بليبيا.

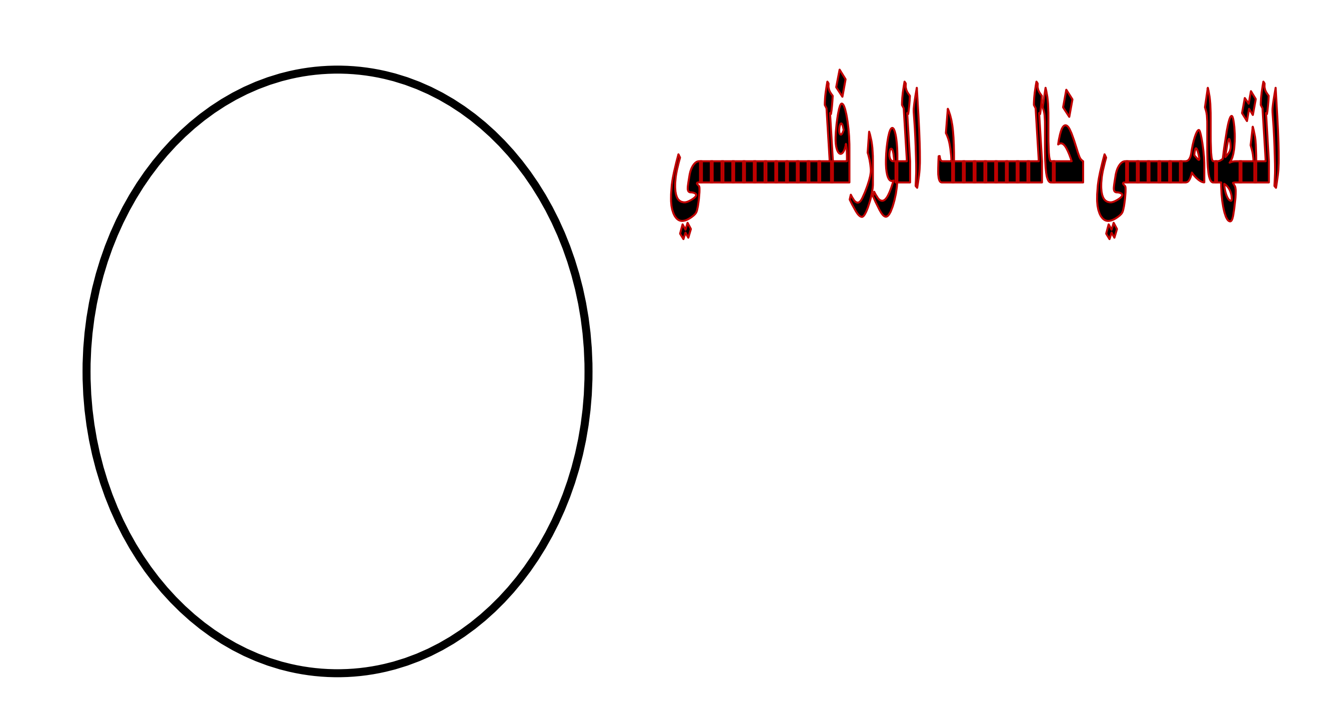
كان يرسل برقيات مقفلة من السفارة الليبية بالرياض إلى الخارجية الليبية، تحت عنوان – سري وهام – يقول فيها أن المواطن السعودي فلان بن فلان، قد تبرع بعدد كذا من النوق البيض الممتازة النادرة، هدية للأخ القائد معمر القذافي، ونطلب طائرة لنقلها، وإرسال مبلغ 30 او اربعين ألف دولار كهدية من الأخ القائد للمتبرع. أو برقية أخرى تقول، أن المواطن فلان، قد أطلق على مولود له أسم معمر، ونأمل إرسال نحيلة قيمة له.

بعد ثورة 17 فبراير، أرسل القشاط برقيات مقفلة من السفارة الليبية بالرياض إلى الخارجية الليبية يقول فيها أن المئات من المتطوعين، من موريتانيا، ومن قبائل الطوارق بالصحراء الكبرى، إتصلوا به، وأعلنوا إستعدادهم للقدوم إلى ليبيا، للدفاع عن القائد. بعد إتساع وتصاعد الثورة، قدم هو إلى طرابلس وقدم برنامجا تلفزيونيا يهاجم الثوار، ويطلب من الليبيين التطوع إلى صفوف كتائب القذافي. لم يكتف بذلك، فقد هاجت فرائصه القذافية، وقام ببناء تشكيل مسلح، وقاده لمقاتلة ثوار الجبل الغربي.

لم يكن الشاعر الشعبي، الذي بدأ لسانه يناكف الكلمات الشعرية، وهو يهيم فتى بوادي غدّو، لم يكن من إنتاج مصانع القذافي، ولم يكن من الحلقات الأمنية او العسكرية والسياسية، كل ما في الأمر أنه دخل مبكراً، أو متأخراً، في عراك مع ذاته أولاً بحثا عنها، ركب حلبة الشعر الشعبي الترابية، وهو الجبل الغربي، في قرية بدر، وسط قبيلة صغيرة فقيرة، تجاورها قبائل كبيرة، أفضل منها مالاً، وبأساً، لها صفحات كثيرة في تاريخ الجهاد الليبي، فحاول أن يدخل أدغال الماضي يحتطب مجدًا لأهله، ومن البضائع المطلوبة في أرفف بازار المجد، الألقاب العلمية، فأضاف إلى إسمه كلمة "الدكتور"، وطاف بين قبائل موريتانيا، والنيجر ومالي، كتب ما سمعه، وأصبح خبيراً، باع هذه الخبرة لباحثين عنها من رجال الأمن الليبيين، وعلى رأسهم العقيد

خليفة إحنيش القذافي، الذي إستعمله لينثر بذور الفتنة في الجبل الغربي، ولما ارتاح لنتائج خبرته، أرسله إلى السعودية سفيراً لتصبح الخبرة عربية، أراد القشاط، أن يؤكد أنه بدوي قبلي من أحلاس العرب، فعندما زمجرت مدافع الثوار الليبيين حول حصون معمر القذافي، أراد أن يقول، أنا إبن بجدتها، ولكن هذه المرة، ليس ببندقية صيد كما فعل سنة 1973، ولكن بالمدافع والصواريخ والقنابل، وبين يديه حقائب المال، توجه بتشكيل من أبناء قبيلته لقتال القبائل الكبيرة من الأمازيغ والزنتان وغيرهم من قبائل الجبل الغربي.

لقد كان المجد، الذي هرب من بين يدى إجداده أيام المقاومة ضد الطليان، كان هو الشبح الذي ظلّ يحوم بأعماقه، حاول أن يكتبه على الورق وأن يجسده بإختراع التاريخ، ومطاولة أهل القامات العالية، إعتقد أن اللحاق بكتائب القذافي هو الألواح الجديدة، والأقلام الناصعة التي يستطيع بها إقتحام صحارى التاريخ، تاه البائس، هرب، لقد حرم أهله من أوراق التاريخ، وأحتفظوا، بمساحة من الجغرافيا يرعون فوقها بعض قطعان الماعز ، هرب البائس، بلا تاريخ، وبلا جغرافيا.


التهامي خالد الورفلي

كان للعنف الذي مارسه النظام مدة عقود، كان له مطرقة وسندان، عبدالله السنوسي كان "مطرقة" ذلك العنف الدامي، القاتل ضد مناوئي نظام معمر القذافي، وكان التهامي خالد الورفلي هو " السندان ".

إتفق الإثنان وأختلفا في الوقت نفسه. إتفقا على أنهما القبضة الدامية للنظام، أقول "القبضة" بالمفرد، وليس "القبْضتين" بالمثنى. كلاهما، إعتقد منذ البداية، إنه النظام، والنظام هو. لا وجود لأحد دون الآخر. دخل عبدالله السنوسي إلى سلك الجيش بقرار من إبن عمه الرائد عبدالسلام جلود عضو مجلس قيادة الثورة والرجل الثاني في النظام الجديد، توجه إلى الكلية العسكرية مع زمرة من أبناء قبيلة المقارحة. بقرار أمني منذ البداية، قرر معمر وعبدالسلام، أن لا يتم إصطياد نظامهما الجديد، بنفس السلاح الذي إستطاعا به بسهولة إصطياد النظام الملكي وهو سلاح الجيش. منذ أول يوم في إستقلال ليبيا، عملت الحكومة على إنشاء جيش وطني، مهمته الدفاع عن الوطن، ولكن، هناك مهمة وهدف آخرين، وهما تكريس الوحدة الوطنية، وإدماج الدولة الجديدة ذات النظام الفدرالي في كيان وطني يتعدى حدود الولايات الثلاث. كان الجيش، جسم وطني يخضع للحكومة الإتحادية ولا علاقة له بالولايات. لم ينظر إلى الجيش على أنه أداة أمنية، ولم تتوجس الحكومة الملكية من أي دور سياسي له. عندما قيل أن اللواء السنوسي صالح الأطيوش، رئيس أركان الجيش الليبي في سنة 1964، يخطط لإنقلاب عسكري، فإن كل ما فعله النظام الملكي، هو تعيين هذا اللواء وزيراً للمواصلات. وحسب ما ذكره محمد عثمان الصيد رئيس وزراء ليبيا الراحل في مذكراته، فقد أصر الملك الراحل إدريس السنوسي على حل الجيش الليبي، وأن تكون ليبيا دولة بدون جيش، مثلها مثل دولة، كوستاريكا، في أمريكا الجنوبية، فقد أقنعته الحكومة بالإبقاء على هذا الكيان، لأنه عامل أساسي من عوامل الوحدة الوطنية الليبية.

لم يكن "الإنقلاب العسكري" شبحاً يؤرق النظام الملكي، وحتى عندما تسربت الأخبار، وأوردت التقارير أن هناك تنظيم سري، أو أكثر، داخل صفوف الجيش، فإن النظام الملكي لم يأخذ الأمر على محمل الخطر الخطير، ولم يتخذ أي إجراء حاسم وعاجل، أدرك قادة الجيش في الشهور الأخيرة من سنة 1969، أن عدداً من الضباط الشباب يجمعهم تنظيم سري داخل صفوف الجيش يسمى " تنظيم الضباط الوحديين الأحرار". وأنه يوزع مناشيراً بهذا التوقيع، نظر القائمون على الأمور إلى هؤلاء الشباب، نظرة أبوية بريئة، لم يعتبروا أن هذا التنظيم أو غيره من التنظيمات التي سرت الأخبار عنها داخل الجيش، خلايا تآمرية، بل أعتبروها نزق شباب، وقع تحت الآلة الإعلامية المصرية الناصرية. وحاولوا معالجة الأمر بطريقة أبوية ناعمة. عقدت الحكومة صفقة تسليح مع بريطانيا، خاصة في مجال الدفاع الجوي بعد تردد طويل، نجح العقيد عبدالعزيز الشلحي، المسئول عن التسليح في الجيش، والأبن المدلل للملك الراحل إدريس السنوسي في إقناع الحكومة بإتمام تلك الصفقة، وأن يبعث ضباطاً شباباً إلى بريطانيا للتدريب على تلك الأسلحة، جلهم من تنظيم الضباط الأحرار، لكن أعضاء التنظيم أستبقوا الأمر وضربوا ضربتهم وأسقطوا النظام "الأبوي" بضربة واحدة على حد قول معمر القذافي في بيانه الأول.

إذن لا يمكن أن يُلدغ النظام الجديد من نفس الجحر الذي لَدَغ هو منه النظام القديم فأراده ساقطاً متلاشياً.

إذا، فلابد من إعادة نسج الجيش على نول مختلف، يجب أن لا يفتح الباب لدخول كلية الضباط على مصراعيه لكل الليبيين كما فعل النظام الملكي السابق، ولابد من مراعاة فصيل الدم التي يحملها كل طارق على أبواب كلية الضباط.

عبدالله السنوسي، الشاب البسيط الخجول، الطالب في معهد المعلمين الخاص، سينطلق مباشرة من سبها إلى القاهرة؟ ليلتحق بكلية الضباط المصرية التي تسمى الكلية الحربية، دون عائق أو حتى سؤال، فهو من نفس فصيلة وقبيلة الرائد عبدالسلام جلود المقرحي.

التهامي خالد– الورفلي– المقيم بمنطقة جنزور غرب طرابلس، المتخرج من معهد الغيران الزراعي القريب من منزله، يعمل معلماً بمدرسة أولاد بن أحمد الإبتدائية. لمعت برأسه فكرة الإلتحاق بالكلية العسكرية، فهو يرى مثل أترابه، يرى ضباطاً شباباً، يملأون الشاشات، تتناقل الإذاعات أسماءهم هم أعضاء مجلس القيادة، وضباط أحرار، الجيش بطل الوطن، أسقط نظاماً ملكياً، تضاربت الأقوال حوله، لكن الجميع يرفع لافتات تعلن التأييد والمساندة للضباط الشباب. فلماذا لا يكون هو مثلهم؟ وأن يتقدم إلى الكلية العسكرية، يضع على كتفيه نجوماً مثل تلك التي يحملها هؤلاء النجوم التي تشرأب لهم الأعناق إعجاباً؟ حاول وتقدم بأوراقه إلى الكلية العسكرية. لم يلتفت أحد من الجنود والضباط المكلفين بإستلام الأوراق له. فهو لا يحمل فصيلة الدم المطلوبة.

صحيح، هو من قبيلة ورفلة، التي ساهم بعض أبنائها في الثورة، ومن بينهم الرائد علي الفيتوري، وهو من الصف الثاني في الثورة، من البارزين في تنظيم الضباط الأحرار. لكن التهامي لا علاقة له بقبيلته. فهو قد ولد بمنطقة جنزور غرب طرابلس، بعيداً مئات الكيلومترات عن موطن قبيلته ورفلة. وفي المنطقة التي ولد فيها وتربى، لا مكان للقبائل أو الثقافة الليبية، رغم وجود مثل تلك التكوينات، لكنها لا تطل بتقاليدها وأعرافها وتراتبيتها في الحياة اليومية، والعلاقات الاجتماعية والشخصية. أيقن أنه محتاج إلى فصيلة دم، هي كما رآها فصيلة "القوة". عند البعض كانت تلك القوة هي – القبيلة – لكن بالنسبة له، وجوده المكاني قد إقتلعه من حقل قبيلته، ولكن وفرّ قوة أخرى، هي قوة الجوار والعلاقات الشخصية، والمهنية. توجه إلى زملائه المدرسين بمدرسة أولاد بن أحمد– التي تحولت أيضاً وبسرعة إلى مدرسة جمال عبدالناصر– توجه إليهم طالباً المساعدة والنصرة من أجل الرحلة إلى كلية – القوة – كلية الضباط.

بين هؤلاء الزملاء المدرسين، أصدقاء للرائد عبدالمنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة، وهو جار لهؤلاء الأصدقاء، وجار أيضاً للتهامي. بكلمة واحدة من هذا الرجل

القوي، عبدالمنعم، إجتاز التهامي إمتحان الفصيلة، كانت فصيلة الجوار، وهي المرادف الحضري لفصيلة القبيلة.

ذهب المدرس الشاب الطموح إلى لجنة القبول وفي يده هذه المرة، كلمة سر، كلمة قوة، تعليمات واضحة صريحة من الهوني ذاته، وكم شخص يطمح أن تكون بيديه كلمة من عضو مجلس قيادة الثورة ؟

طبعاً، كانت هذه المعركة بين الطموح والضوابط، وسط الطريق إلى كلية الضباط. قبلت أوراق التهامي من حيث المبدأ، ولكن هناك عقبة إجرائية لابد من إجتيازها، وهي الفحص الطبي، هنا وقع التهامي في العقبة. رُفِضَ. وكتب على غلاف ملفه، لا يصلح للخدمة العسكرية لأن نظره ضعيف جداً.

تستطيع – الوساطة – أن تفتح لك الباب الذي يحتاج إلى كلمة سر خاصة، الفصيلة الإجتماعية، لكنها غير قادرة، أقصد الوساطة، أن تفتح لك الباب الذي أوصدته، الخلقة. فلا يصلح الوسيط ما أفسد الخالق.

كانت قواعد الإنضباط في الأيام الأولى للثورة عصية على التغيير السريع، لقد ورث العاملون في لجان القبول المسئولة عن ضم المتقدمين لطلبات الدخول إلى الكلية العسكرية، ورثوا حزمة من القواعد والضوابط المقدسة التي لا يمكن كسرها، أو تجاهلها، رغم الضغوطات الهائلة التي بدأت منذ الأيام الأولى للثورة. بالذات، شرط النظر الثاقب، ركن من أركان التأهيل للكلية العسكرية.

ضاقت الدنيا أمام الفتى المدرس، داهمه غول اليأس، لقد دفعه الرائد عبدالمنعم الهوني الدفعة الأولى، ليكون في الدفعة القادمة من ضباط ليبيا الجديدة، لكن العيون، أبطلت مفعول دفعة الهوني.

يقول أصدقاء التهامي وجيرانه، أنه عاش أياماً من الإحباط والحسرة كادت أن تقودانه إلى الجنون أو الإنتحار، لقد رسم لنفسه دنيا خاصة، دنيا لن تتحقق أبداً، إلا إذا وضع على كتفيه نجوم القوة.

بتشجيع من أصدقائه، إستطاع أن يجتاز تلك الحالة، بعد أن وعدوه بطرق باب الرائد عبدالمنعم الهوني مرة أخرى، فكلمة من عضو مجلس قيادة الثورة هذا سيكون نظره غير النظر، وعيونه غير العيون.

نعم تستطيع القوة أن تصلح ما أفسده الدهر.

أصدر الرائد أمراً بقبوله- وأقفل خط الهاتف. قُضي الأمر، دخل المدرس الشاب التهامي، رحاب أحلامه، وضع قدميه على أعتاب دنياه الحلم، دنيا الضباط، الجيش، القوة.

في تلك الأيام القليلة والقصيرة، تشكلت شخصية هذا الشخص، التهامي خالد القوة. نعم أنها "القوة". التي أعطته عيون زرقاء اليمامة بعد أن قال طبيب فحص العيون العسكري، أنه شبه أعمى، ولا يصلح لأن يكون ضابطاً. لقد وضعت عيناه سداً أمام دنياه الحلم، لكن برنّة هاتف واحد، إنفتح أمامه الباب السحري. كانت تلك الأيام القليلة هي الأكاديمية الأولى والأخيرة التي منحته شهادة هويته الجديدة، هوية القوة.

لكن تلك القوة لا تنبت في فراغ أو من فراغ، إنها تأتي من رجل قوي، قادر على أن يغير حتى حقيقة حواسك، أن يحولك من أعمى، إلى زرقاء اليمامة.

الإلــه الخفـي

الشرك، هو النقيض الأساسي للإيمان، والتوحيد، هو أساس المبنى الإيماني، أَلْشِرْكُ، "شَرَكُ" أقصد هو فّخّ، تصنعه الحياة في حفرة خفية على طريق كل إنسان، هذا الشرك، أو الأحبولة، يتبدى في أشياء عديدة، مثل المال، والهوى، والقوة، وغيرها، والولاء المطلق لأي منها، يخلق في جذور النفس وأعماقها ولاءات تصل إلى حد التقديس، عندئذ تؤخذ الإرادة، وتتهاوى الذات، ويصبح الإنسان تابعاً تبعية مطلقة كأنه تحت تأثير التنويم الماغناطيسي، يأتي أفعاله كأنه معتقداً جازماً أنه الفاعل في حين يكون مستسلماً خاضعاً مفعولاً به أو مفعولاً فيه.

كان التهامي خالد، لا يخفي كرهه لنصر المبروك، الذي حلّ محله في مقاومة من اسماهم معمر القذافي بالزنادقة، والتهامي ميّال إلى التحليل، وقراءة نفسية الأشخاص،

ربما إمتلك هذا الميل من تجاربه في التحقيق مع المتهمين، خاصة أولئك ذوي التوجهات العقائدية، التي تقوم جهات الأمن السياسي، بإعداد ملفات مختصرة عنهم، تتضمن منحدرهم الإجتماعي، وظروفهم العائلية، وبالذات مراحل طفولتهم وشبابهم، وظروفهم المادية. لا يمل التهامي من تطبيق ذلك المنهج على أشخاص معينين، وبالذات زميله اللدود، نصر المبروك، فيقول عنه، أنه يعبد القوة والعنف، مسكون بالعنف والتعذيب والقتل، وأنه، يقصد نصراً، لو خُيّر بين أن يكون رئيساً لمركز شرطة، أو رئيساً للوزارة، يختار الأول دون عناء تفكير، لقد ألّه نصر المبروك القوة، حتى أصبحت معبوده الظاهر، وليس الخفي.

لكن ما قاله التهامي عن نصر المبروك ينطبق عليه هو بنفس القدر أو أكثر، ويحق لنصر المبروك أن يقول عن التهامي خالد:

"رَمَتْنــي بدائِهـا وأنسلّــتْ"

نَقَّلَ التهامي نفسه بين مراتب القوة وأهلها، مستعيناً بمؤهلاته الفكاهية، فهو معروف بحفظه للنكات، متفنن في طريقة إلقائها، ويجيد تقليد أصوات الحيوانات، بالإضافة إلى مؤهل آخر، هو معرفته بالكثير من العلاقات الخاصة جداً بين الناس، وقد أمدته المراكز الأمنية التي تقلدها بتفاصيل عن تلك العلاقات الخاصة جداً، التي تنفتح لها الآذان، وتحب إستطلاعها النفوس.

بعد تخرجه من الكلية العسكرية بالقاهرة وعودته إلى ليبيا، تودد التهامي إلى الرائد عبدالمنعم الهوني عضو مجلس قيادة الثورة، فهو ولي نعمته الأول، لا يمكن للتهامي أن ينسى، أن ضربة واحدة من تلفون الهوني، فتحت له أبواب دنياه، التي بدأت بباب الكلية العسكرية، أو الكلية الحربية، كما يطلق عليها المصريون. بحكم الجوار المكاني وليس الإجتماعي القبلي، كانت الطريق قصيرة بين عبدالمنعم والتهامي، كان الاستلطاف الشخصي مفتاحاً للنفوس، يختصر المسافات، ويختزل الزمن ويغيّر العناوين. هجر التهامي مبكراً، أوكار حلمه الأولى وهي معسكرات الجيش، تدحرج إلى العالم نصف السري، لكن به كل – القوة –. إنه عالم الأمن. بعد أن غادر الرائد

عبدالمنعم الهوني وزارة الداخلية، حطّ على عرشها الرائد الآخر، الخويلدي الحميدي عضو مجلس قيادة الثورة. لكن الحميدي بالنسبة للتهامي خالد، غير الهوني.

التهامي إرتبط بالهوني، بقرابة المكان، كلاهما يسكنان منطقة جنزور، هناك أصدقاء مشتركون، بالإضافة إلى الحالة شبه الحضرية، التي يتقاسمها الإثنان بحكم قربهما من مدينة طرابلس، وتأثير طبيعة الحياة والنسيج الإجتماعي. والخويلدي الحميدي، من منطقة الجميل، ينتمي إلى الحميدات، وهي قبيلة لها إمتداد داخل تونس، أحاط نفسه بدائرة من أقاربه، يحب التمجيد والتملق، يمثل شخصية الحكيم الوقور والمتصوف.

رأى التهامي في رابعة النهار أن خيوط القوة تهتز بين أيدي ولي نعمته الأول، وبحكم الشهادة التي أهدتها له الأكاديمية الأولى، أكاديمية القوة، إستخدم الهوني مرة أخرى للعبور إلى ضفة أخرى، هي ضفة وزير الداخلية الجديد، الخويلدي الحميدي، قدم الهوني التهامي إلى الخويلدي، كانت ضربة الهوني الثانية ضربة لازب.

فتحت الأبواب للتهامي، أبواب دهاليز الأمن، هناك سيتصالح مع نفسه ويولد داخل ذاته من جديد، من دهاليز الأمن وكهوف العنف، ستبدأ مرحلة توأمة جديدية بينه وبين القوة ولنكن أكثر دقة نقول بينه وبين إلهه الخفي – "القوة".

كان هذا في سنوات الجمر الأولى في ليبيا. فبعد 1975، دخلت البلاد كلها في أدغال كثيفة الأشجار والأحراش، أصبح الشوك أكثر إرتفاعاً من غابات الصنوبر، وغدت المواجهة مع المصير مباشرة، مصير النظام ومصير الوطن، إنشقت البلاد إلى نصفين، الأول فوق الأرض، والثاني تحتها. شهدت تلك السنة أكبر هزة تحت أقدام كرسي معمر القذافي، كان الرائد عبدالمنعم الهوني، ولي نعمة التهامي خالد، من السواعد الأساسية التي شاركت في تلك المؤامرة التي أخذت إسمها من إسم الرائد عمر المحيشي. إهتز كيان الضابط التهامي، فماذا عليه أن يفعل، قد تطاله التهمة، فهو محسوب على الرائد المتآمر عبدالمنعم الهوني ومنسوب إليه. حدثت مشادة كلامية بين التهامي خالد والضابط الآخر ميلاد دامان، وهو أيضاً من سكان منطقة

جنزور، ويحفظ ملف التهامي الظاهر والباطن على ظهر قلبه، قال ميلاد للتهامي:" أنا ألحقني القائد العقيد معمر القذافي شخصياً بالجيش، أما أنت فقد الحقك عبدالمنعم الهوني". ما قاله له دامان وبصوت عال، بالتأكيد كان يدور في خلد آخرين. هذا الأمر قد يقود إلى فصيل الإعدام، ففي ذلك الجو المشحون بسُحب الخيانة، قد يعقبه الشفق الأحمر، الذي يرش الدم على الأفق الرحب.

كانت الأجواء العامة والخاصة، تجعل الكثيرين يتحسسون رقابهم، فكل يقول في أعماقة، نفسي، نفسي، لا أسألك غيرها. اليوم لا ينفع هوني، ولا حميدي، ولا نجاة إلا لمن رحمه الأمن. الهوني من أوائل المتهمين، والحميدي، تحت طائلة الشك، فلا عاصم إلاّ الأمن.

أجهد نفسه، وأجتهد، قضى الليالي في أقبية المعتقلات، يحقق، ضارباً، وسائلاً، وقاتلاً، لم تعد القوة هي مطلبه الأول، بل الحياة. إستمرأ ظلام الأقبية، ألِفَ رائحتها، هنا، تصنع القوةُ الضعف، يلتقي الجلاد بضحاياه، فيلاقي قوته. هناك، إلتقى مع "المطرقة". مع عبدالله السنوسي، أصبحا توأم العنف، عانقت المطرقةُ سندانَها، بدأ سوياً رحلة أطول، في دنيا أخرى، خارج حدود ليبيا هذه المرة، عنوانها ملاحقة "الكلاب الضالة" بلغة معمر القذافي. تفوق القذافي على نفسه في نحت العناوين التي يقاتل ويلاحق تحتها أعداءه المعارضين له، فقد إنتزع من أعماق التراث الإسلامي، ومن مجاهل قرون الصراع الفكري الديني تعبير "الزندقة"، وجعله عنواناً لملاحقة المجموعات الدينية المعارضة له بالداخل والخارج.

كُلّف التهامي بقيادة فيلق جديد، من طراز مختلف، لمهام مختلفة، متابعة الليبيين في الخارج، يخيرهم بين أمرين، العودة إلى ليبيا، أو القتل إن بقوا خارجها، فكل ليبي يوجد بالخارج دون موافقة الحكومة هو عدو يقاتل ضدها، بغض النظر عن طبيعة نشاطه في الخارج، وإتجهاته السياسية، أو إنتماؤه إلى تنظيم سياسي من عدمه.

هناك حادثة يعرفها أهل جنزور، منطقة التهامي، فقد سافر هذا إلى إيطاليا لمقابلة رجل الأعمال الليبي الكبير، المرحوم محمد بن ساسي، الذي يعرفه أغلب الليبيين،

فقد تولى تنفيذ العديد من المشروعات، خاصة الفنادق الكبيرة، وقد عرف بالتواضع وبساطة العيش. صادرت الحكومة كل ما يملك، لجأ إلى إيطاليا حيث أقام بحثاً عن الأمن. قابله التهامي في روما، أبلغه بضرورة العودة إلى ليبيا دون نقاش.
لم يعد الحاج محمد بن ساسي إلى طرابلس خوفاً على حياته، وبقى في روما. عاد التهامي مرة أخرى وقابل الحاج محمد، كانت لغة التهامي هذه المرة أكثر وضوحاً ومباشرة قال له:" يا حاج محمد، هذه المرة الثانية التي أقابلك فيها، وهي الأخيرة، المرة القادمة سأراك في ليبيا وأنت في صندوق".
كان والده يتابع الأخبار التي تصله عن أفعال إبنه، وبالتحديد عن تحقيقاته مع الإسلاميين، والإهانات التي يوجهها له، لقد غضب غضباً شديداً عندما وصل إلى سمعه ما يقوله إبنه التهامي عنهم، ووصفه للحاهم بأنها مكانس. وصل غضب الأب من الإبن قمته عندما وصله ما قاله للحاج محمد بن ساسي، فأعلن عدم رضاه المطلق عنه وأنه لن يسامحه إلى يوم القيامة.
توّج بتنصيبه رئيساً لجهاز الأمن الداخلي، هنا، لم يعد التهامي مجرد سندان لمطرقة إسمها عبدالله السنوسي، أصبح مطرقة لا سندانها. رئيس جهاز الأمن الداخلي الليبي في السنوات الإخيرة يعني الحاكم المطلق، أي أنه فوق القانون، يستمد تفويضه مباشرة من معمر القذافي، لا يسأل إلا أمامه، ويأخذ التعليمات الحاسمة والساخنة منه مباشرة. لا يخضع لوزير، أو لقانون، ففي إجتماع له مع فريق من "هيومن رايتس ووتش" بتاريخ 12 ديسمبر 2009، أكد للفريق أن جهازه يحتجز 330 سجيناً ليبياً، بعضم أتم مدة السجن المحكوم بها عليه، وآخر برأته المحاكم. وهم جميعاً بسجن أبوسليم، وأن مكتب النائب العام أمر بالإفراج عنهم جميعاً، ولكنه رفض تنفيذ أمر النائب العام، وأبقى عليهم بالسجن.
في نهاية تسعينات القرن الماضي، أصيب التهامي بمرض عضال، أجريت له عملية جراحية بإيطاليا، شفي من ذلك المرض بأعجوبة. تغيرت لغته، أصبح أكثر تسامحاً من الناحية النظرية، أكثر من الحديث عن الأخلاق والدنيا الزائفة الزائلة، وأتخذ زاوية

أخرى، زاوية المعالجات الشاملة للأمور، وعدم الإقتصار على الجانب الأمني، يقول أن الاقتصاد أمن، وكذلك الصحة، وفرص العمل للشباب، والتعليم، وعندما يخلو إلى إلهه الخفي، يتحول إلى صاعق جبّار، لا يبقي ولا يدر.

عندما قام سيف الإسلام القذافي، بالإفراج عن الإسلاميين خاصة أعضاء – الجماعة الليبية المقاتلة، بعد حوارات المعارضة، ذهب التهامي، وقابل معمر القذافي، حذره من الأخطار التي ستترتب عن هذا الإجراء، وقال له أنه لا يتحمل مسئولية ما سيحدث من هؤلاء الذين يعملون على أسلمة الشارع وتعبئته، التقى بعد ذلك بسيف وأعاد عليه ما قاله لوالده.

كلما زادت معاناة الناس، إرتفعت درجة السخط، وتحول الأنين إلى حركة، وسرت تنظيمات الرفض تفعل فعلها في شرائح المجتمع، وخاصة الشباب الذين لم يجدوا طريقاً إلى المستقبل، وكلما توسعت دوائر حركة المعارضة، زادت قوة القبضة، وأصبحت صلاحيات الأمن مطلقة، تندفع من دون كابح أو رادع، القانون بالنسبة لقوة الأمن هذا لا يختلف عن أضغاث الشعراء، لا مكان له في أقبية الأمن الدخلي، فقد تحول هذا الجهاز إلى مملكة خاصة بالتهامي وأولاده وعائلته، قوة ومالاً. فقد إنضم أخواه مختار ومراد إلى جهاز الأمن الداخلي.

مع تغوّل هذا الجهاز، تغوّلت الطموحات، وتحولت القوة إلى قوى، لا يردعها رادع، وأصبحت الثروة في سدرة المنتهى، لم يكن التهامي وأولاده إستثناء من الركض وراء ممالك الثروة، فله في ذلك سابقون ولاحقون. لكنهم ينتظمون في خيط مسبحة واحدة، وهو خيط "العنف". أغلب الذين مارسوا العنف في سنوات الجمر التي شهدتها ليبيا في النصف الثاني من السبعينات وكل عقد الثمانينات والتسعينات، هبّوا هبة رجل واحد، إندفعوا نحو تكديس الثروة في هوس مجنون.

قال قائلهم، لقد دفعنا كل شيء في سبيل حماية النظام، ضربنا وعذبنا، وقتلنا من أجل ذلك، خسرنا الآخرة، ولم تبق لنا إلا الأيام التي نعيشها، ولا عاصم لنا من غضب الشعب الليبي إلاّ ما نملكه من المال. وخاضوا معركة العنف الثانية، هي

القبض على المال. وهم لا يقبلون بالكيل بكيلين، فإذا كان القبض على المعارضين لا يخضع للقانون، فلماذا يخضع القبض على الثروة للقانون؟

هل كان معمر القذافي، يغفو على تلك الهجمة القوية الواسعة للإستحواذ على الثروة، من قبل عناصر محددة ومعروفة من داخل النظام؟ كيف يسمح لحفنة من مفاصل النظام بتكديس أموال طائلة في يد آناس يعرفهم بالاسم، ويرحلون مبالغ أخرى إلى الخارج دون أن يشد أذن أحد منهم؟ وهو الذي كان بالأمس يفتح المعسكرات الإنجليزية القديمة بتاجوراء لإعتقال كل من ظهرت عليه سمات النعمة !!

إمتلأت شوارع مدن ليبيا وقراها بشعار، السلطة والثروة والسلاح بيد الشعب، وتعمد القذافي، أن يعقد الإجتماعات مع أعضاء أمانة مؤتمر الشعب العام واللجنة الشعبية العامة، ليتحدث مطولاً عن توزيع الثروة، ويأمر بإذاعة هذه الإجتماعات، والعام والخاص يعلم أن الثروة قد وزعت فعلاً، ولكن عن طريق الإستيلاء عليها من قبل أسماء هي في الحقيقة مراكز القوة.

يكرر معمر القذافي في لقاءاته المحدودة والضيقة، أن من يملك المال، يوازي من يملك في بيته دبابات وطائرات. يجب أن لا يكون هناك ليبي غني. كان يرى أن الثروة بيد مراكز القوة هي دبابات وطائرات لكن تذود عن أمن النظام وكرسي القائد. وكان ذلك هو التفسير الوحيد للمقولات.

مثّل التهامي خالد الجانب الخاص من المقولة. كان مباشراً وواضحاً وقوياً وجريئاً في تطبيقها على الأرض، مثلماً كان واضحاً وقوياً وجريئاً في الأقبية الأمنية.

فقد إستولى جهاراً نهاراً على أرض مقابل المصرف الأهلي بجنزور، إغتصبها من صاحبها الأصلي "علي إحفيظه"، الذي لم يتوقف عند رفع قضية أمام المحاكم، دفع كل ما يملك للمحامين من أجل إسترداد أرضه، لم يحصل إلاّ على الألم ومرض السكر وضغط الدم، قضى نحبه متحسراً وهو في الخمسين من عمره.

إمتلك التهامي مزرعة في منطقة المشاشطة مساحتها 5 هكتارات، بها مصنع ألبان وأجبان وأبقار ودواجن.

إبنه (هاني) تحصل على تسهيل من المصرف الأهلي بجنزور بقيمة 5 ملايين دينار، وكان مدير هذا المصرف "عبدالوهاب قنيدي" أحد أصدقاء التهامي خالد، أفلس المصرف، وضاعت أموال المودعين. قام مدير المصرف أيضاً بإعطاء منحة لأبناء التهامي ليشتروا بها أسهماً بالمصرف ليتسع تمثيلهم في الجمعية العمومية، ويقرروا تسمية أعضاء مجلس إدارته.

قام التهامي ببناء قصر جديد مساحته 2500 متر مربع في منطقة تسمى "حي الكويت" بالقرب من مصنع الصابون العطري بجنزور وكانت الأرض ملكاً لإيطالي إسمه "ماورو" مساحتها أكثر من 250 هكتار، قسمت ووزعت مزارع في السبعينات، بعد طرد الجالية الإيطالية، بنيت فيها في السنوات الأخيرة فيلات ضخمة فخمة. قام إبن التهامي ببناء فيلا ضخمة بهذه الأرض، أجرها لشركة أجنبية، إستلم إيجاراً مقدماً لسنوات طويلة، وإشترى بقيمة هذا الإيجار فيلا في تونس يقيم بها الآن.

إبنه إمتلك شركة تسمى (المشاشطة للإستيراد والتصدير) وهو تاجر كبير في مجال المفرقعات الصوتية، والتي تحتوي على مادة الـ (TNT)، يسميها الليبيون– خط ولوّح–. قام عام 2007 بإستيراد عدد 20 حاوية منها عن طريق ميناء طرابلس البحري، وعند وصول هذه الحاويات التي تحتوي مواداً ممنوعة من دخول البلاد بحكم القانون، تدخل البغدادي المحمودي أمين اللجنة الشعبية العامة شخصياً للإفراج عن هذه المواد الممنوعة بضغط من التهامي خالد رئيس جهاز الأمن الداخلي. قدرت قيمة الشحنة بثلاثة ملايين دينار ليبي.

يقوم أحد أبنائه من وراء حجاب، بتزويد السجون بالإعاشة، ويورد قطع الغيار لجهاز الأمن الداخلي بأسعار مضاعفة. لم يكن التهامي مركزاً من مراكز القوة، كان قوة المركز.

قلت في الفصول السابقة، أن أحداث سنتي 1973، 1975، جعلت القذافي يقرر إلغاء الدولة، والدستور، والقوانين، ويرفض قيام أي شكل من أشكال التنظيمات التراتبية الحقيقية، لأنها تشكل عقبات وضوابط تغل يده، وتقاوم سيطرته الفردية

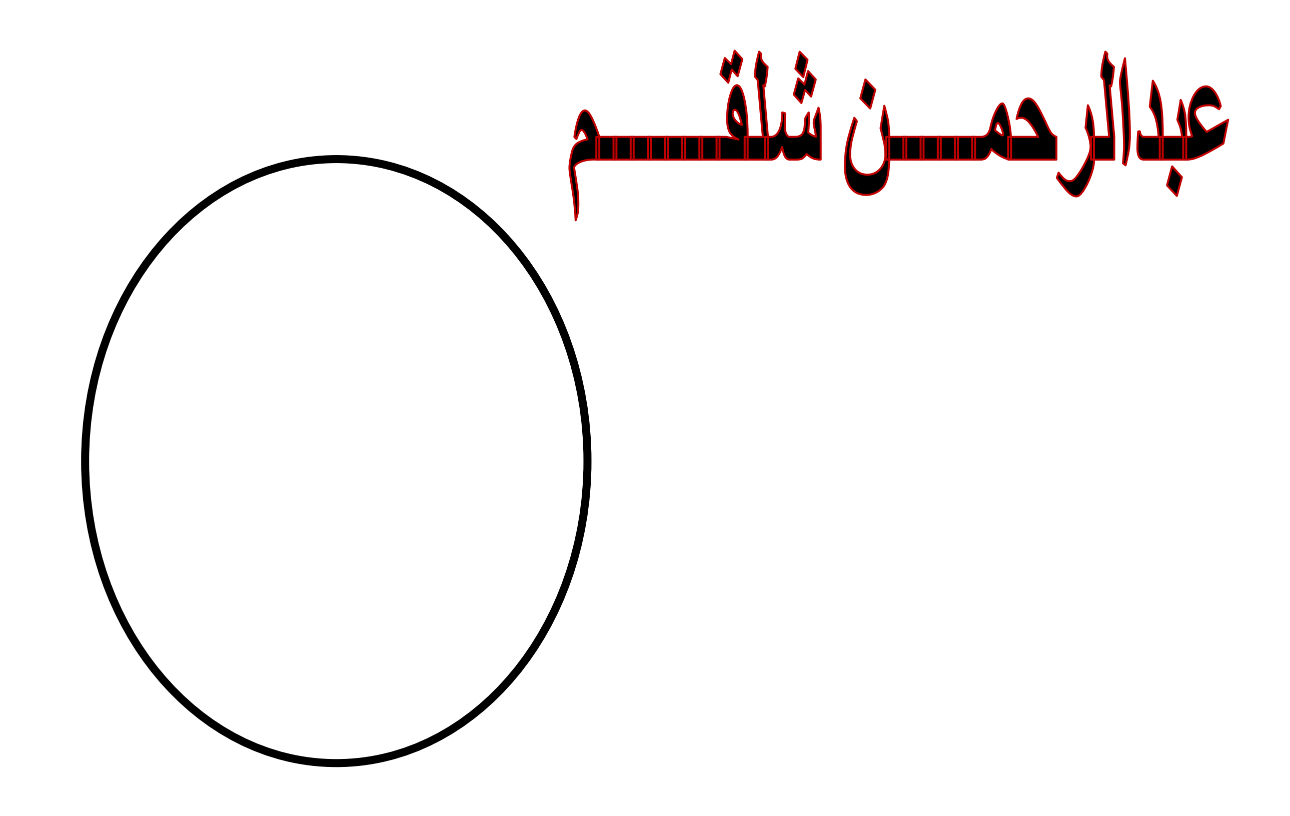
الشخصية على مفاصل البلاد. أقام الجماهيرية، التي تدار بواسطة اللجان الشعبية والمؤتمرات الشعبية. بتكوين هلامي، في حين أسس مراكز القوة، التي يحركها شخصياً لتكون أداة لتحقيق أوامره، وحفظ نظامه.

صنع معمر القذافي تلك المراكز عبر سنوات من صناعة أشخاصها، لكن في حالة التهامي خالد، إختلف الأمر من حيث التفاصيل والطراز، لقد صنع التهامي بنفسه إلهه الخفي، بعد ذلك أعطاه صورة الوثن المتحرك معمر القذافي، فعل ما فعل، في الأقبية وفي الفيلات والمزارع والشركات والمواني‌ء بقوة القائد. الذي أعطاه كل شيء لكي يأخذ هو كل شيء. عملاً بمبدأ المقايضة الذي بشر به معمر.

أطلق التهامي خالد في بداية ثورة الشباب الليبي في 17 فبراير، الفرية الكبرى التي رددها معمر القذافي وإعلامه، بأن ذلك الشباب الثائر هو مجرد ضحية قاصرة ومُضَلَّلَة، شحنت بحبوب الهلوسة المتدفقة من الخارج عمداً. وأن علاج هؤلاء القصّر، هو المدافع والرشاشات، وجرعات من الرصاص الخارق الحارق يحقنها لهم عن بعد قناصة مهرة، تم إستجلابهم من الخارج نظير مبالغ خيالية، لضمان فعالية الدواء. كان هو من أركان الغرفة الأمنية، التي تدير معركة قتل شباب ليبيا الثائر، حشد إلى جانبه أشقاءه وأولاده. ولم لا؟ فهم يذودون عن حمى شركاتهم وأموالهم.

في 10/20 حصحص الحق تحررت طرابلس، هربت المراكز، سحقت القوة تحت أقدام أولئك الذين إستضعفوا. هرب التهامي، لم يستطع أن يحمل معه الأرض وما عليها، تحرر من في الأقبية، وفي 10/23 سقط الوثن.

القوة، تجلب المال، لكنها تنخره بالظلم، الهوى يشيد الوهم، فيحرق ذاته، والناس جبال، صخورها لا تفنى، والأفراد ذرات رمل، لا تقارع الرواسي، والوطن أكبر الكبار. يمضي الجميع كإرتعاش السراب، للحق أصابع لا تلويها صرخات محقق في القبو، نجوم الثوار، أكثر إشعاعاً من نجوم الضباط، فلا التهامي خالد، ولا القمع خالد.


عبدالرحمن شلقم

عبدالرحمـــــــــن شلقـــــــــم

(وأَنَــــــــــتَ يَافَالــــــــــحْ ؟!)

قبل أن أبدأ في تحرير هذا الكتاب، وضعت منهجاً محدداً، من هم الأشخاص الذين سأضعهم فوق أوراقه؟ كان الجواب هو المنهج والمعايير التي حددتها قبل الشروع في رحلة القلم فوق السطور.

أولاً : أن يكون هذا الشخص من الذين تعاملوا مع العقيد معمر القذافي عن قرب، عرفهم وعرفوه.

ثانياً: قام هذا الشخص، بدور أساسي في مسار معين داخل دوائر السلطة التي صممها معمر القذافي.

ثالثاً : أن يكون القذافي قد قام بإنتاج هذا الشخص، وفق الآلية والكيمياء التي صممها قصداً من أجل ذلك، أو أعاد إنتاج هذا الشخص، أو وظف قدراته ومؤهلاته بعد أن درس ذلك جيداً.

رابعاً : إستمرار هذا الشخص أو ذاك بالعمل مع معمر القذافي وتنفيذ سياساته إلى آخر يوم في حياة القذافي، بغض النظر عن النهاية التي إنتهى إليها هذا الشخص أو ذاك، مقتولاً، أو معتقلاً، أو هارباً من ليبيا.

جميع هؤلاء الأشخاص، الذين كانوا ضيوف هذه الصفحات، عرفتهم، بنسبة أو أخرى، منهم أولئك الذين كانوا رفاق رحلة العمل التي إمتدت لعقود في عهد معمر القذافي، ومنهم من إلتقيت به في إجتماعات رسمية عديدة وطويلة. ربطتني علاقة مودة، بالبعض، وآخرون لم أقاسمهم تعاطفاً أو تفاهماً.

وبالرغم من عدم توفر المعيار أو الشرط الرابع في شخصي وهو إستمرار الإصطفاف مع القذافي، ونظامه إلى آخر يوم في حياته، فقد رأيت أن أكون مع هذا الحشد من الأشخاص.

(لمـــــــاذا ؟)

أعتقد جازماً أن أغلب الذين سيقرأون هذا الكتاب، سيطرحون سؤالاً، وهو، وأنت – يا فالح – يا عبدالرحمن شلقم، أين أنت من هؤلاء؟ ألم تكن منهم، تصول وتجول معهم، تخدم نظام معمر القذافي وتدافع عنه عبر سنوات طويلة، وفي وظائف متعددة ومتنوعة؟

ألست يا عبدالرحمن شلقم، ذلك الشخص، الذي كان يطالعنا في وسائل الإعلام الليبية والعربية والأجنبية مدافعاً عن نظام القذافي، مزيناً لأفعاله وسياسته؟

أين كنت يا – فارس بني حمدان – عندما كان هؤلاء يفعلون ما فعلوا بأبناء ليبيا، تعذيباً، وسجناً، وتقتيلاً ؟

تظهر نفسك على سطور هذا الكتاب، وكأنك قطعة الثلج الأبيض الوحيدة النظيفة، في جبل من الإنحراف والفساد ؟!

كيف حصلت على بيتك في قلب طرابلس، ألم يكن بيت المرحوم حسن الرضا ولي العهد السابق؟

لقد شاهدنا مزرعتك، أو ضيعتك الجميلة الكبيرة على شاشة محطة العربية، فهل تعتقد أننا لا نعرف حقيقتك؟

هل تعتقد أن دمعاتك التي سالت أمام مجلس الأمن ستتحول إلى طوفان نوح، يغرق فيه ماضيك المملوء بنفس المثالب التي تعدها اليوم على الآخرين؟

هذه عينة من الأسئلة التي سيطرحها القراء، بل ستضاف إليها عشرات من الأسئلة الأخرى. وأعتقد أن كل قاريء، يطيل التأمل والتحليل في مضمون هذا الكتاب، سيطرح مزيداً من الأسئلة ويضع علامات التعجب وراء كل علامة إستفهام.

وعلى الضفة الأخرى، أقصد ذلكم الأشخاص، الذين أستعرضت جانباً من حياتهم، وأدوارهم، وتعرضت إلى تفاصيل طويلة أو قصيرة عن تاريخهم وأفعالهم، سيصرخون غضباً، وإستنكاراً، سيرفعون أصواتهم بالنقد والشتائم، بل سيرفع بعضهم قضايا أمام

المحاكم، بتهم السب أو القذف أو التشهير، كل ذلك بالطبع من حقهم. بل أقول، وبكل قوة، أنني أتمنى أن يزيد المتساءلون، والسائلون من أسئلتهم الإستنكارية، وأدعوهم إلى الإجابة عليها، وأقول أيضاً، أنني أدعو الأشخاص الذين طالهم قلمي على سطور هذا الكتاب أن يردّوا على كل سطر فيه وبتوسع وتفصيل، بالوقائع والتحليل، وأن يكتبوا عليّ بنفس الطريقة التي فعلت وأكثر، وأرحب بكل القضايا التي قد يرفعها أي منهم أمام المحاكم. سيكون ذلك أقل ما يمكن أن نفعله. ما حدث في ليبيا بداية يوم 17 فبراير 2011، هو زلزال شامل وعلى كل الأصعدة، النفسية والإجتماعية، والعسكرية، لا يحدث كل عقد من الزمن أو حتى في كل قرن.

يحتاج الأمر إلى تسطير مكتبات وليس كتب، ولابد من فتح جميع الملفات مهما كانت جارحة ومؤلمة، لا نستطيع أن نداوي جرح الوطن الغائر والكبير إلا بجروح أخرى كثيرة وكبيرة، هي جروح الصراحة التي ستقود إلى نسج حالة المصالحة. سيكون قلمي هو المشرط الذي أضعه سيفاً للحقيقة فوق رقبة شخصي، والأوراق هي النطع، الذي سيمتد فوق عنقي من أجل إستنطاق الحقائق والدروس التي لن يقبلنا الوطن دونها، ولتكن هي النحلة التي نزفها إلى ليبيا، من أجل توفير شروط النهوض والحرية والديمقراطية، وردم كل الحفر التي قد يسقط فيها هذا الجيل الجديد والأجيال القادمة فتنتكس الحرية وتعود سنوات الظلم والطغيان.

كيــف ؟

لا أريد أن أسرد قصتي مع معمر القذافي، فهي طويلة، لقد شرعت في عرضها، أفقياً وعمودياً، بكل محطاتها وخلفياتها، ستصدر قريباً في كتاب يحمل عنوان (سنوات مع القذافي).

ولدت في الغريفة جنوب ليبيا سنة 1949، وهي السنة التي حكم فيها الإحتلال الفرنسي على والدي بالإعدام، بتهمة الإشتراك في ثورة الشهيد عبدالقادر بن مسعود ضد الإحتلال الإيطالي.

- إستعان "أدريان بلت" الدبلوماسي الهولندي الذي عينته الأمم المتحدة لإعداد ليبيا للإستقلال بوالدي لمساعدته على فهم الأوضاع بمنطقة فزان.
- أختير عضواً في أول مجلس نواب ليبي بعد الاستقلال سنة 1951.
- خسر إنتخابات 1956 أمام المهدي بوزو.
- شغل بعد ذلك منصب متصرف سبها ثم الجفرة ثم الشاطيء.
- توفي سنة 1967.

كان والدي ممتلئاً بالسياسة من رأسه إلى أخمص قدمه، يحسب كلماته بدقة، فإما أن ينطق عن نكتة أو حكمة، ولا يزال بعض كبار السن بفزان يرددون عنه الكثير من ذلك.

حفظ قصة الحرب العالمية الثانية، كما يحفظ بعض الشيوخ تغريبة بني هلال، ويرجع إلى حوادث تلك الحرب ومعاركها وتصرفات قادتها عند تحليله للأحداث السياسية التي عاصرها.

كانت له صفة الصبر، عاملنا ونحن صغاراً ، كأننا في نفس عمره، يناقش معنا كل القضايا، يشركنا في مجالسة ضيوفه مهما علت رتبهم، ويشركنا في مناقشة أي موضوع.

كنا 5 أولاد و4 بنات.

حصل أخي الأكبر مفتاح على درجة الدكتوراه في الزراعة من جامعة توسان بولاية أريزونا الأمريكية سنة 1980، يعمل الآن أستاذاً بكلية الزراعة بجامعة سبها.

حصل أخي مسعود الأصغر مني على درجة الدكتوراه في القانون من جامعة تور بفرنسا سنة 1986. يعمل الآن سفيراً بجمهورية السنغال.

حصل أخي إدريس الذي يصغره على ليسانس القانون سنة 1979، ودبلوم عال فيه، يعمل الآن رئيس لمحكمة أوباري.

أخي الأصغر عبدالسلام، حصل على ليسانس اللغة الإنجليزية وهو ضابط أمن.
عندما توفى والدي سنة 1976 ترك لنا مبلغا من المال 5000 جنيه ليبي تقريباً، ورثنا منه 10 سواني وهي مزارع صغيرة بها بعض أشجار النخيل وتزرع ببعض المحاصيل.
سمعت بالطالب معمر القذافي قبل أن أراه، كان ذلك سنة 1959 تقريباً، كنت عندها طالب بالمرحلة الإبتدائية بقرية الغريفة، حدثنا عنه الطلبة الذين ذهبوا من قريتنا للدراسة بسبها، أقاموا بالقسم الداخلي، صفقوا لمعمر عندما كان يخاطب في المظاهرات الطلابية التي ينظمها تأييداً لثورة الجزائر والكونغو، وسجن بعضهم معه في مظاهرة 5 أكتوبر ضد إنفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. التحقت بالمدرسة الإعدادية بسبها سنة 1962، في السنة التي تلت طرد معمر القذافي من مدارس ولاية فزان، كان صدى مواقفه وأفكاره لا زالت تتردد في مدرسة سبها.
كانت أفكار حزبي البعث، والقوميين العرب تتداول بين أوساط المدرسين والطلاب وبعض الموظفين الشباب بسبها. حاول أحد زملائي وهو أحمد أبوصير المقرحي ضمي إلى حركة القوميين العرب، وفي المرحلة الثانوية فاتحني السيد قذاف الدم عن تنظيم معمر القذافي وأقترح علي الإلتحاق بكلية ضباط الجيش.
قابلت معمر القذافي في القاهرة لأول مرة سنة 1970، وأنا طالب بكلية آداب القاهرة.
التقيت بعد ذلك، بالقاهرة بمحمد أبوالقاسم الزوي، وهو من أوائل رفاق القذافي في التنظيم المدني، فقال لي بأن معمر القذافي قد أوصاه بي خيراً، سألني عن كيف تعرفتُ إلى معمر القذافي، أجبت، بالتأكيد أن سيد قذاف الدم هو من حدثه عني.
بعد تخرجي سنة 1973، التحقت بصحيفة الفجر الجديد، محرراً بقسم الأخبار والتحقيقات. سنة 1974، نقلت للعمل بقسم الإعلام لمجلس قيادة الثورة بباب العزيزية، طلب معمر ذات مرة معلومات وأخبار، حملتها له وهو بوادي زمزم، جلسنا في المساء كان هناك عدد قليل من العسكريين بينهم خليفة إحنيش وبعض المدنيين،

بعد تناول العشاء قرب النار في الهواء الطلق، تطرقنا إلى الشعر، تحدثتُ عن المتنبي والجواهري وأبوتمام، وعن التاريخ العربي ونوادر الأمراء والظرفاء.
أستدعيت أكثر من مرة لمرافقته رحلاته إلى الصحراء، كان محور الحديث دائماً هو الشعر والأدب، كان يحب شعر القافية خاصة المتنبي والبحتري والجواهري، وكذلك شعراء المعلقات، ولكنه لا يرتاح إلى الأبيات التي يمدح فيها المتنبي سيف الدولة، بحجة أن مدح السلاطين نفاق وإرتزاق وفساد. ويفضل شعر الفخر وكان يحفظ أبياتاً كثيرة من معلقة عمرة بن كلثوم:

ألاَ هبـي بصحنـك فاصبحينـا ولا تبقـي خمـــود الأندارينـــا

ويقول فيها إبن كلثوم:

إذا بلـغ الرضيـعُ لنـا فطامـــاً تخـــرّ لــه الجبابــرُ ساجدينـا
ملأنـا البـرّ حتـى ضـاق عنّـا ومــاءُ البحـر نمـــلأه سفينـــا
طغـــاة ظالمينـا ومـا ظلمنـا ولكنّـــا سنبــــدَأُ ظالمينـــا

كان القذافي يحب هذا الفخر العربي المبالغ فيه، وكذلك قوة اللغة التي تكاد أن ترى قائلها واقفاً شامخاً متحدياً، يخاطب جمعاً من الأعداء المتحدين وهو يلقي – مانيفستو – الإنذار، ويعدد مؤهلات قومه المعنوية والمادية.
نقلت بعد ذلك وبقرار منه لرئاسة تحرير الفجر الجديد سنة 1975، ومنها إلى الأسبوع السياسي ثم الثقافي.
في 1978، أسست اللجان الثورية، توليت الإشراف عليها، ثم تركتها وأقسمت أن لا أدخل لجنة ثورية وذلك بعد ستة أشهر من قيامها عندما دخلت ليلاً مثابة طرابلس فوجدت شاباً شاذاً جنسياً، سبق أن طردته من الفجر الجديد بسبب شذوذه، وجدته يضرب أحد أساتذة الجامعة، كتبت في نفس الليلة مقالاً بالصفحة الأخيرة بالأسبوع السياسي بعنوان – جرح أسمه الحرية – صودر العدد ثم أعيد إلى السوق ثم صودر مرة أخرى.

1979، القي القبض علي، ضمن حلقة إعتقال طالت أغلب كتاب الأسبوع السياسي، أفرج عني من نيابة أمن الثورة بتعليمات من القذافي شخصياً.

تعرضت لحادث سيارة في نفس السنة.

ذهبت إلى المحكمة كشاهد نفي وحيد في قضية الأسبوع السياسي.

بقيت رهن الإقامة الجبرية بمنزلي مدة 6 أشهر بأمر نيابة أمن الثورة.

سنة 1980 عينت رئيساً لوكالة الأنباء.

سنة 1981، أميناً للإعلام الثوري.

أعفيت من المنصب سنة 1982، بعد نقاش طويل مع معمر القذافي، حول البرامج الإعلامية المصرية التي كان ممنوع إذاعتها في وسائل الإعلام الليبية، قال لي القذافي، أنت متأثر بالثقافة المصرية، يمكنك أن ترتاح ببيتك. فعلاً إرتحت ببيتي إلى غاية 1989.

عينت أميناً للمكتب الشعبي الليبي بروما سنة 1984م، كلفت لجنة بإختيار أمناء المكاتب، إقترح أسمي سفيراً بالكويت، وعندما عرضت القائمة على القذافي، سأل أعضاء اللجنة: لماذا شلقم للكويت، ردّوا بأن بها زحمة كلام وإعلام وهناك مكانه، شطب القذافي على كلمة الكويت، وكتب أمام أسمي، – إيطاليا.

أمضيت بإيطاليا مدة عشر سنوات وسبعة أشهر، عدت إلى ليبيا في أبريل 1995، وبقيت بمنزلي إلى مارس 1999.

عينت بعدها أي في مارس 1999، أميناً للشئون الخارجية بأمانة مؤتمر الشعب العام.

في العام 2000 وتحديداً في شهر مارس عينت أميناً للاتصال الخارجي والتعاون الدولي.

في مارس 2009 عينت مندوباً لليبيا بالأمم المتحدة.

تعمدت المرور على كل هذه المحطات، لأضع خلفية لموقع شخصي بين الأشخاص الذين كانوا حول معمر القذافي، وأطرح نفس السؤال الذي طرحته أمام أشخاص –

الحول-. لماذا وضعني القذافي حيث وضعني ؟ إلى أي مدى أنتج شخصي أو أعاد إنتاجه.

أينما عملت كنتُ أمارس عملي على طريقة – التكنوقراط -. كنت دائماً أقول أنني أقوم بتفكيك الملفات المعقدة التي أعتبرها ألغاماً، أدرك القذافي، منذ البداية، أنني لا أملك أي طوح سياسي، واهتمامي الأول والأخير هو الأدب والثقافة، في أحيان كثيرة عندما ينتهي لقائه معه أطلب منه إعفائي من وزارة الخارجية، فيقول معلقاً:" طبعاً نفس الإسطوانة، تريد التفرغ للقراءة والكتابة".

أما عن ثروتي، فأحمد الله، أن هاجسها لم يقترب يوماً من حواسي الخمس. من يريد أن يعرف قصة بيتي يمكنه الرجوع إلى إتفاقية سنة 1956، بين الحكومة الليبية والحكومة الإيطالية، ويستطيع أن يسأل أبناء المرحوم حسن الرضا ولي العهد السابق وهو أحياء يرزقون، كان البيت ملكاً للدولة الليبية وفقاً لإتفاقية 1965 بتصفية تركة الإستعمار الإيطالي لليبيا.

والمزرعة التي أمتلكها في طرابلس، مساحتها ثلاثة هكتارات ونصف، بمنطقة عين زارة، إشتريتها من محمد بلقاسم الزوي بإلحاح منه، بعد تعيينه سفيراً في بريطانيا، لأنها حسب قوله، ستهمل وتضيع، إشترى أخوه يوسف المزرعة من إيطالي سنة 1965، بقرض من المصرف الزراعي، وأشترى محمد فيما بعد تلك القطعة من شقيقه يوسف. ومازال لمحمد مبلغ في ذمتي من قيمة تلك القطعة.

أنا لست في موقع الدفاع، لكنني أفضل أن يكون "تشخيص" الأمر مباشراً حتى يستطيع كل واحد، أن يصف – روشتة – الحكم الذي يرتأيه.

وعلى العموم، فالثروة التي إمتلكها، وكانت الأجمل في حياتي هي مكتبتي التي ضمت 23.846 كتاباً، منها مخطوطات نادرة، وكذلك لوحات فنية وتحف، نهبت على يد كتائب القذافي، لم يبق منها ورقة واحدة، كان مصيرها مثل كل شيء في البيت، الأثاث وآلات العود، والبيانو. مذكراتي الشخصية التي تزيد عن 80 مذكرة

والصور..إلخ.أقول دائماً، إن كل ما إمتلكناه، لا يساوي قطرة دم من شهيد، فالشهداء أفضل منّا جميعاً.

تطرقت عند حديثي لبعض الأشخاص، عن فصيلة – الدم – أو القبيلة التي جعلت القذافي يقترب من بعض الأشخاص، وأعتقد أن فصيلة – الجهة – أو المنطقة قد لعبت دوراً في نظرة معمر القذافي لي. فقد عاش بفزان، وتعرف على الكثير من أبنائها، وهناك ولد حلمه بالزعامة، وكان بعض أبناء تلك المنطقة هم الحاضنة لذلك الحلم.

بدأ التواصل العملي بيننا ثقافياً وأدبياً وشعرياً، وكانت الحاشية التي من حوله لا تمل الحديث عن أمور تتعلق بالعمل اليومي، وخاصة السياسة والإقتصاد والأمن في تلك الفترة.

عدم إهتمامي بالإيدولوجيا السياسية، قدر إهتمامي بالأمور السيارة، وميولي الواقعية البراجماتية، قلت له ذات مرة، إذا أردت أن يكون لك مركزاً عربياً، فلابد أن توثق علاقتك بمصر، وإذا أردت دوراً دولياً، فلابد أن توثق علاقتك بأمريكا. ضحك بصوت عال، وكتب ما قلته على كراسة كانت أمامه.

كما قلت سأتحدث عن تلك التفاصيل في كتاب أخصصه لتجربتي مع القذافي. لكن أعتقد أن عملي كوزير لخارجية ليبيا في سنوات تحسين السيرة والسلوك، وتفكيك الملفات المتفجرة مع أمريكا وفرنسا وبريطانيا، وفتح أبواب المجموعة الدولية أمام ليبيا هي أهم حلقات تعاملي المباشر والوثيق مع القذافي. معمر القذافي، إرتقى شجرة الزعامة والقيادة والتحدي ووو– إلخ. ولم يرد أن ينزل منها، هو لا يقبل مثلاً أن يقول لأحد معاونيه أو وزراءه، أن لدي مشكلة تخيفني وتؤرقني، وأريد الخروج منها بأي ثمن. بل يريد أن يطرح هذا المساعد أو ذاك الوزير مثل هذه المواضيع. يهب معمر القائد الذي لا يخاف ولا يتنازل، يرفع عقيرته بالتحدي وعدم الخضوع، لكن في ختام الحديث يقول : طيب نفكر في الموضوع. ذلك يعني أيها المتحدث أنطلق ولا تلوي على شيء.. أقوم أنا بالإتصالات بالجهات الأجنبية ذات العلاقة، فإذا نجحت فإن

القذافي يحصد ما زرعتُ أنا وإذا فشلت جهودي أحالني إلى التحقيق الذي ينتهي بإدانتي ومعاقبتي، ويوثق للتاريخ أن بطل النصر والتحدي أكبر من أن يكون طرفاً في هذا التنازل.

أثناء معالجة موضوع ملف أسلحة الدمار الشامل قال لي: " يا عبدالرحمن أنت منبطح للأمريكان، أسيادك".

ضحكت وقلت:" ياريت منبطح، أنا أتدحرج"، تبسم وسكتَ، وفهمتُ".

وحدث إختناق أثناء معالجة موضوع لوكربي، كاد أن يؤدي إلى إنهيار المفاوضات مع محامي أسر الضحايا على المبلغ المالي، عاد معمر إلى تمثيل دور قائد النصر والتحدي الذي لا يخاف هرقل ولا طرزان، كان معي في هذا اللقاء عبدالعاطي العبيدي ومحمد الزوي، قلت له:" يا أخي القائد، هل تريد قفل هذا الملف سلمياً، وفك قيد الحصار من أيدينا أم تريد المواجهة العسكرية مع الأمريكان وحلفائهم ؟!".

وأستطردت في الحديث، أيدني محمد الزوي بقوة لكن بأسلوبه اللطيف الخفيف، ردّ بالقول:" أنا خائف منكم، أنتم الفزازنة الاثنين، أنتم خائفين"، ردّ عليه الزوي قائلاً:" يا أخ العقيد، الحبل ملفوف حول رقبتك وبدأ يضيق"، ثم أضاف عبدالعاطي بأسلوب هاديء:" كان هناك شاعر في شرق ليبيا يعشق فتاة، وفرض عليه مهراً ثقيلاً، باع كل ما يملك ليجمع المهر المطلوب لحبيبته، وقال ذلك الشاعر:

كنهـن لفلــوس إيجيبنــك

يلعـــن بوهــــن ماهمنـــي

صمت معمر قليلاً ثم قال:" خلاص، إمشي يا محمد وياعبدالعاطي، وشوفوا الأمريكان، واللي تروه صالح أعملوه".

كان ذلك هو اللقاء الذي حسم موضوع لوكربي.

أحياناً كان يحدثني بالهاتف غاضباً ثائراً متوعداً، يهدد بأنه سيفعل كذا وكذا لأمريكا وبريطانيا وإيطاليا... إلخ، ويطلب مني أن أقوم بإجراءات ثورية فورية ضد هذه

البلدان مجتمعة خلال ساعة واحدة. أرد عليه بقولي، حاضر سأفعل فوراً.. أعرف أن الحديث لم يكن موجهاً لي، أنه كان موجهاً لإناس يجلسون إلى جانبه، ويريد أن يظهر لهم، أنه مازال هو قائد النصر والتحدي.. هو يعلم أنني فككت الشفرة، وأنني لن أقوم بأي شيء تنفيذاً لأوامره، وذلك ما يعلمه هو مقدماً.

معمر القذافي، لا يرتاح بل لا يحب الشخص الذي يشتكي من أحد، إنما يرتاح لذلك الذي يشكو الآخرون منه. بعد دخولي إلى مبنى وزارة الخارجية في مارس 2000، سارع أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعض أعضاء أمانة مؤتمر الشعب العام، وأقارب القذافي، وبعض الضباط الأحرار، وغيرهم من مراكز القوة، إلى محاولة التدخل في شئون الخارجية، والتوسط لأصحابهم وأقاربهم للعمل بالخارجية. كان ردي منذ اليوم الأول عنيفاً وأحياناً بذيئاً. إشتكى بعضهم للقذافي، كان رده الإبتسام أو الضحك.

وعندما شب أبناء القذافي على طوق المراهقة بدأ تدخلهم في الشأن العام، كان سيف الإسلام مستعجلاً وملحاً على أخذ ملفات العلاقات مع أوروبا، أما المعتصم فقد وضع عينيه بعيداً، إنه يريد ملف العلاقات مع أمريكا. أما هنيبعل، وسيف العرب، فقد كان أمرهما في إتجاه آخر وهو " المشاكل".

إختلفت مبكراً مع سيف، العلاقة الودية التي نمت بيننا مذ كنت سفيراً بإيطاليا، إصدمت معه، ودامت القطيعة الكاملة بيننا أكثر من سنة، المعتصم كان يعاملني وفقاً لحساب خاص، ولا أريدأن أخوض في التفاصيل، وسأتعرض إلى ذلك في المكان المناسب.. عندما كان يتطاول على البغدادي المحمودي بمجلس الأمن القومي، إستمع دائماً إلى مداخلاتي، ودفاعي عن البغدادي.

لم يحاول القذافي قط أن يطرح موضوع علاقتي مع أبنائه، بل كان مرتاحاً لأسلوبي في التعامل معهم.

لماذا أبقاني معمر القذافي طيلة تلك السنوات التسع وزيراً للخارجية بصلاحيات لا حدود لها، وتعمد إظهار دعمه لي أمام الجميع بمن فيهم أولاده؟ كان حريصاً أن تكون الخارجية – مركز قوة – مربعاً في حماه، لا يدخله أحد، لا أعضاء مجلس

قيادة الثورة ولا أولاده، أو أي شخص أو جهة، هو يعلم أنني أعلم، أن قوتي كلها مستمدة منه وحده، وليس لي شلة، ولا قبيلة كبيرة ولا طموح سياسي. هو يعلم من التقارير التي تتدفق على مكتبه كل صباح أن ليس هناك من يضع كلاماً في فمي أو أفكاراً في عقلي، فأنا مثلاً لم أدخل بيت موسى كوسه سوى مرتين، مرة للتعزية في وفاة والده والثانية بمناسبة فرح إبنه. ولم أدخل بيت عبدالله السنوسي أيضاً سوى مرتين، مرة لدعوة غذاء مع وزير خارجية الإمارات العربية المتحدة الشيخ عبدالله بن زايد والأخرى لدعوة مماثلة مع أحمد أبوالغيط وزير خارجية مصر وعمر سليمان مدير المخابرات. قلما أخرج من بيتي، وشلتي الصغيرة هي من الأدباء والفنانين.

ولكي أكون صادقاً، وأسير في نهج المنهج الذي رسمته لهذا الكتاب، أقول لقد وظفني معمر القذافي، وأستخدمني في مواقف حددها بدقة، بعد خلافي مع أمانة مؤتمر الشعب العام في يناير 2009، ووقوف معمر القذافي إلى جانبي، رغم أنه هو من طلب من أمانة مؤتمر الشعب العام إصدار قرار بإيقافي عن العمل، قلت لعبدالله السنوسي، أنا أقدر موقف القائد إلى جانبي ضد هؤلاء الجهلة. ردّ عبدالله، أنت وقفت معه أكثر، هو لم يكن يصدق أن تفكك تلك الملفات المتفجرة، لوكربي – أسلحة الدمار الشامل– وطائرة اليو تي إيه، هو يقول دائماً إن شلقم، قد جمع معرفته بلغات مختلفة، وقدرات إعلامية وثقافية، وشخصية صدامية.

" وتبقـــى أسئلــــة "

بعد هذا كله، سيقول قائل، ويسأل سائل:" ياسيد عبدالرحمن، بما أنك تمتلك هذا الجيش العرمرم من المؤهلات، وهذه المعلومات والقدرات، ألم تعلم بما كان يفعله قائدك بالشعب الليبي من عنف وتجويع ؟! ألم يصل إلى سمعك ويرى بصرك ما حلّ بالوطن من خراب ودمار وتخلف؟

لمَ لم تقل ما تردده اليوم بأسلوب البطولة والرجولة في جميع وسائل الإعلام، لمَ لم تقل عندما كان القذافي في كامل لياقته السلطوية، وقيادته الإسلامية وملكيته

الأفريقية، لماذا لم تغادر منصبك أو مناصبك التي تقلبت بينها، وتنضم إلى المعارضين الليبيين في الخارج ؟!!.

أقول لهذا السائل المفترض: عدّاك العيب، وأتمنى أن تستطيع كلماتي أن تجيب على نصف سؤالك المتعجب، فأنا ولدت في بيئة سياسية بإمتياز، ثم عشت مثل أبناء جيلي في حالة من الإحباط المحلي والعربي، رأيت ما حلَّ بأسماء كبيرة من المعارضات العربية التي جاءت إلى ليبيا، في أول أيام وصول المعارض السوداني، أو المغربي، أو التونسي أو العراقي أو المصري.. إلخ، في أول أيامه يستقبل من القذافي بعد أشهر من إقامته في ليبيا ينتظر طويلاً حتى يحظى بمقابلة من الرائد عبدالسلام جلود، بعد سنة يوسط الكبار والصغار، كي يحصل على دقائق من الزمن يتحدث فيها عن مشاكله الشخصية مع أبوبكر يونس جابر، الذي يجود عليه ببعض الدينارات أو الدولارات للعلاج، بعد ذلك، يكون يوم العيد الكبير لهذا المعارض الذي كان وزيراً في بلاده، عندما يقابله نائب ضابط أو شاويش من الأمن الداخلي أو الخارجي. لقد عشت ذلك، ورأيت رموزاً كباراً من المفكرين والسياسيين والعلماء العرب، يتضورون في طرابلس. كانت تلك التجربة في غاية المرارة بالنسبة لي.

قلت، لكثير من الذين أثق بهم، أنني لا أريد قبراً ولا قصراً خارج ليبيا، وإن السجن أفضل من أكبر القصور في الخارج، وتجربة المعارضة الليبية في الخارج يعرفها الجميع.

أيضاً أنا أؤمن بقاعدتين هما: أن دفع الضرر يسبق جلب المنفعة، وأن ما لا يُدْرَكُ كله، لا يُتْرك جُلّه.

لقد عملتُ كل ما أستطيع من أجل ليبيا، لم أصمت يوماً على باطل أو ظلم لحق بمواطن، لا أريد أن أتحدث عن بطولات أدعيها، أترك الحديث عني لغيري، لمن عشت بينهم، وعملت معهم زميلاً أو رئيساً.

أكتفي في الختام بذكر واقعتين:

الأولى: عند تعييني مندوباً لليبيا بالأمم المتحدة، ذهبت مع البغدادي المحمودي لتوديع القذافي، والإستماع إلى توصياته حول موقعي الجديد، قال لي القذافي، أمام البغدادي المحمودي:" يا عبدالرحمن، أنا أخاف عليك أن تهرب مثلما هرب بعض المندوبين في الأمم المتحدة.

الثانية: في 2010 أثناء ذهابي إلى ليبيا قادماً من نيويورك، توقفت بروما، التقيت بالدكتور محمد عبدالمطلب الهوني، وهو صديق قريب جداً من سيف الإسلام القذافي، قال لي الهوني:" أريد أن أتحدث إليك في موضوع غاية في السرية والحساسية، إن سيف الإسلام قال لي أن عبدالرحمن شلقم سيهرب ولن يعود إلى ليبيا.

لماذا كان خوف القذافي، وإقتناع سيف الإسلام بأنني سأهرب، أنا أتحدث هنا وأستشهد بأحياء..

ولكل الحق في أن يضع أمام السطرين السابقين ما يريد من أسئلة.

النهايـــــــــــة

أكملت تحرير هذا الكتاب يوم 4 ديسمبر 2011، معمر القذافي قتل، ودُفن في قبر مجهول، إبنه سيف معتقل بالزنتان، المعتصم قتل ودفن مع أبيه، الساعدي فارّ في النيجر ومثله، هانيبال ومحمد ووالدتيهما وأولادهما وأختهما عائشة.

أسدل الستار، وغابت شمس حقبة القذافي وآله.

هكذا الكتاب واحد من ثلاثة، شرعت في كتابة الثاني، وهو كما سبق وأن قلت عن تجربتي مع معمر القذافي بعنوان – سنوات مع القذافي. والثالث بعنوان – سقوط القذافي – ويتضمن يوميات ثورة 17 فبراير منذ بدايتها.

أتمنى أن يتكامل جهدي هذا مع جهود أخرى يكتبها الشاهدون على تلك الحقبة، بكل موضوعية وصراحة مهما كانت مؤلمة وجارحة، فبلادنا في حاجة إلى أن تعيد قراءة ذاتها، وأن تقف على تفاصيل حقبة، ما ظهر أقل بكثير مما بطن. لقد تعمدت أن تكون لغتي وأسلوبي، أقرب إلى قرع الأبواب بعنف، والولوج إلى داخل الأشخاص، ومحاولة تفكيك مركبات تلك المرحلة، وقد كنت في أتونها، لا أبريء نفسي من كل شيء، ولكنني أشهد نفسي على نفسي، أحتكم إلى ضمير قلمي وسطور أوراقي، لا أدعي العصمة ولا أحمل صولجان الحكمة.

أتمنى أن يكون هذا الكتاب صاعقاً، يفجّر أسوار الصمت، ويقدح أنوار الذاكرة ونيرانها، كي نخاطب بصيرة الوطن، ونضيء طرقاً أمام أنظار الجيل الذي سيبني ليبيا الأخرى، نقرع الأجراس بقوة، حتى لا تعود شخوص الديكتاتورية.

كنت أقول دائماً، أن أي نظام ديكتاتوري، لا ينتهي إلاّ ويخلف وراءه دماءا وماراً. هذا ما حدث في ألمانيا " هتلر "، ويوغسلافيا " تيتو "، وقبله إيطاليا " موسوليني "، وبعده صومال " زياد برّي " وعراق، " صدام حسين "، وهذا ما حدث في ليبيا " القذافي ".

" الديكتاتوريات "، تنبت في التربة التي تُعْجَنُ بسمادٍ يتفاعل فيه عنصران: <u>الأول</u>: خلل في المنظومات الإجتماعية، بكل مكوناتها، السياسية والثقافية، والإقتصادية. قد تكون إحدى المنظومات تؤتي فعاليتها بشكل قوي ومتكامل، لكن الوهن يسري في

منظومة أخرى أو أكثر، في ألمانيا – ما قبل هتلر – كانت الفلسفة وكل أجناس الفعل الثقافي متجذرة وطاغية، لها موروث حي، وبقدر أقل في إيطاليا – ما قبل – موسوليني. لكن المنظومات الأخرى لم تأخذ وضع الأواني المستطرقة، كانت الأحزاب السياسية أجساماً سرى في مكوناتها الكساح، لم تستطع حمل ثقل الإستحقاقات الوطنية الكبيرة. إفتقرت إلى الخيط، أو العصب الكهربائي الوطني، القادر على إبداع نسيج الرؤية الوطنية التي تحول الطاقة إلى حركة تملأ المواطن برؤية الوطن.
هذا الواقع، أو ولنقل الخلل، هو أحد الأعراض لمرض يعتصر الوطن، ففي حالة ألمانيا، خلقت هزيمة الحرب العالمية الأولى صدمة في الجسد والعقل الألماني، ترنّح الإثنان من هول تلك الهزيمة، التي أنجبت الإنكسار العام بما فيه الإنكسار الاقتصادي. نفس التشخيص ينطبق على إيطاليا. يقول الناس، وإن ليس بفم واحد، : ما العمل؟ يندفع من بينهم مجهول يرفع راية الجواب. لكي تنفتح آذان العامة، ويندلق الجواب من الأذن إلى القلب، وليس إلى العقل طبعاً، لابد أن تكون – الحشوة – الجواب، مشحونة بمضامين وطنية عالية الإنفجار، إلى حد الشوفينية العصرية، التي تلغي العقل بصاعق عظمة الجنس الآري، تلوى الأعناق كي لا ترى إلا ماضياً، يشعُّ بالقوة والمجد، الذي سيرتفع من ركام الماضي بقوة القضبان التي تهتف بالوطن وبالتاريخ. كما فعل موسوليني.ولكي يتكامل الإنفجار، لابد من وضع قوة الدين في العبوة الشاملة الناسفة، هكذا، عقف هتلر الصليب ليكون جرس كنسية اللاشعور. وألهب الصراخ المنحدر، بتشنجات غوبلز.

العنصر الثاني: في مركب السماد، هو الإحساس باليتم، فعندما يُصاب الناس بالوهن بسبب خلل المنظومات الوطنية الأساسية، يهيمن الإحساس العام بالحاجة إلى رافعة، تتلاشى ثقة الجسد الوطني في قدرته على النهوض والحركة، تعمُّ حالة الاستعداد للبحث عن المنقذ التي يمتلك أو يمثل المعجزة، مبعوث العناية الإلهية، القادر على تجسيد طموحات العامة، يستطيع بقواه الخارقة أن يقلب صفحة الوهن، ويفتح صفحة المجد.

هكذا تصنع الشعوب طغاتها، وهي تركض في نشوة هستيرية، تهتف كبسولة الشعارات، التي تصنع حلقات سلسلة القيد. كل الشعوب معرضة لأن تقع في هذه الهاوية، لا يعصمها من ذلك سوى قوة الوعي، وعافية المنظومة الإجتماعية الشاملة. هذا الإمتحان لا تنجح فيه إلا قلة من الشعوب.

عندما تقدم ونستون تشرشل، بطل النصر الكبير في الحرب العالمية الثانية، للإنتخابات البريطانية، رفضه شعبه، بعد أن دخل صفحات التاريخ بعبقرية، جسدت أرقى درجات الدهاء الإنساني، قال الشعب البريطاني، لا نريد زعيماً، نريد رئيساً لمجلس إدارة بدرجة رئيس وزراء، يسير شئون المملكة.

الدكتاتورية، توجد في تربة الشعوب، بالقدر ذاته التي توجد في عقول الأفراد، هي ظاهرة مرضية، كامنة في داخل العديد من أبناء البشر، وهي نتاج تشوه، تصنعه تشوهات أكبر، في مراحل طفولة كل دكتاتور، لكن التاريخ يُعْتصر ترياق الحصانة، ومن الثقافة والعلم تبنى الإرادة، وبقوة الديمقراطية، يكو الناس هم رسل العناية الألهية، وهم المعجزة.

تلك كانت صفحات، حاولت أن أجعل الأشخاص فوقها حروفاً، وأن أشجن تلك الحروف بضوء التحليل والاستخلاص، كان القصد هو ممارسة ما يمكن أن نسميه، بالتطهر الوطني، اليوم، بعد هذه الدماء الغزيرة العزيزة، التي أعطيت للوطن، لليبيا، أعزّ ما يهدي، الحرية، لابد أن نقارع الموروث الظلامي بنور عشق الوطن، والديمقراطية.

هذه أيام ليبيا، التي أعطت الدنيا صرخة عظيمة، صرخة الحرية، وكتبت بحروف من أجساد الشهداء سفر النهاية، لشخص حوّل الوطن إلى حجارة، صنع منها الوثن، وخلق من البشر أشياء، يطوفون حوله... ولد الوطن من جديد، دُفن الوثن... النهاية.